

طائفة الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثالث

الطبعة الثالثة

قديم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرهان

مشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أميمة على أحمد

الغلاف

جمال قطب



إهداء ١٠٠٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« طسّ تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبین »

... تلك دلالاتُ كَرَمِنَا ، وأماراتُ فَضْلِنَا ، وشواهدُ بَرِّنا ؛
نُبِّينُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنَا ، ونُحَقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنَا .
بطهارة قُدْسِي وسناء عِزِّي لا أخيب أَمَلَ مَنْ أَمَلَ لُطْفِي ،
بوجود بَرِّي نطيب قلوبُ أوليائي ، وبشهود وجهي تغيب
أسرار أصفائي .

طَلَبُ القاصدين مُقَابِلَ بَلْطَفِي ، وَسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعَطْفِي .
هذا الكتابُ بيانٌ وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل
لِمَنْ حَقَّقَنا له الإيمان ، وأكَّدَنا له الضمان ، وكفلنا له الإحسان »

عبد الكريم القشيري

عند سورة النمل

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتضى من الزاهد ترك دنياه ، ومن العابد مخالقة هواه ، ومن القاصد قطع مناه ، ولا يرتضى من العارف أن يساكن شيئاً غير مولاه . إن خرج عن كل مرسوم — بالكلية ، وانسلخ عن كل معلوم — من غير أن تبقى له منه بقية فلملّه يجد شظية . وإن عرج على شيء ، ولم يصف من الكدورات — حتى عن يسيرها — وإن دق — فإنه كما في الخبر : « المَكَّاتِبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم » .

قوله جل ذكره : « طسم » تلك آيات الكتاب المبين «
ذكرنا فما مضى اختلاف السلف في الحروف المقطعة ؛ فنند قوم : الطاء إشارة إلى طهارة
عزّه وتقدّس علوّه ، والسين إشارة ودلالة على سناء جبروته ، والميم دلالة على مجده جلالة
في آزاله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ الْمُنتهى ، والميم إلى اسم محمد
صلى الله عليه وسلم ؛ أى ارتقى محمد ليلة الإسراء عن شهوده شجرة طوبى حتى بلغ سِدْرَةَ
المنتهى ، فلم يساكن شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعقبى^(١) .

(١) أورد القشيري في كتابه « المراج » طائفة كبيرة من الأخبار تفهم منها أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه لم يتطلع إلى شيء مما رأى من عجائب المخلوقات وعظائم النعم في تلك الليلة ، بل كان خالص القصد إلى الحق ، وبمباراة صوفية دقيقة : كان فانياً بحقوق ربه عن حظوظ نفسه ، فما زاغ البصر وما طغى . وفي ذلك يقول رويم : « لما أكرم المصطفى (ص) بأعظم الشرف في المعرى علت همته عن الالتفات إلى الآيات والكرامات ، والجنة والنار ، فما زاغ البصر ؛ أى ما أثار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقل الأنهار والأودية . (المراج ص ١١٢)

ويقول القشيري في ص ١٠٢ من الكتاب نفسه : يروى في الخبر أنه « لما ركب البراق لم يعرج على شيء » .

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح ، والسين سرورُ
العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأُحدية باستقلالهم بوجوده^(١) والميم إشارة إلى موافقتهم لله
بتركِ التخيُّر على الله ، وحسنِ الرضا باختيار الحق لهم .

ويقال الطاء إشارةً إلى طيبِ قلوب الفقراء عند قُبْد الأسباب لكمال العيشِ بمعرفة وجود
الرزاق بدَل طيبِ قلوب العوام بوجود الأَرْفاق والأَرْزاق .

ويقال الطاء إشارةً إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارةً إلى سلامة قلوبهم عن
مساكنة كلِّ مخلوق ، والميم إشارةً إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك .

قوله جل ذكره : « لَعَلَّكَ خَائِعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ » .

أى لِحَرَمِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فانت قريبٌ من أن
تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تركِهم الإيمان .

فلا عليك — يا محمد — فإنه لا تبدلَ لِحُكْمِنَا ؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يُؤْمِنُ .
ليس عليك إلا البلاغ ؛ فإن آمنوا فيها ، وإلَّا فَكُلُّهُمْ^(٢) سَيَرُونَ يومَ الدين ما يستحقون .

قوله جل ذكره : « إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمِ مِنَ السَّمَاءِ
آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » .

أخبر عن قدرته على تحصيلِ مراده من عباده ، فهو قادرٌ على أن يُؤْمِنُوا كَرَهًا ؛ لأن
التقاصرَ عن تحصيلِ المرادِ يوجبُ النقصَ والقصورَ في الألوهية .

قوله جل ذكره : « وما يأتيهم مِّنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ
مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » .

== كان يُنادى من يمينه ومن يساره ، ثم قال له جبريل عليه السلام : الذى ناداك من يمينك داعى اليهودية ، والذى
ناداك من يسارك داعى النصرانية ، ولو التفت يا محمد لليهود أو لنصرت أمتك .

(١) استقل الشيء رآه قليلا واستقل بالشيء لم يشغل بسواه اكفاء به .

(٢) السياق مقبول على هذا النحو ، ولكننا لا نستبعد أن يكون هناك سقوط لكلمة « لنا » ، وعندئذ يكون
السياق « فكُلُّهُمْ لنا ؛ » .

أى ما نُجَدِّدَ لَهُمْ شَرْعًا ، وما نُرْسِلَ لَهُمْ رَسُولًا . . . إلا أَعْرَضُوا عَنْ تَأْمَلِ بَرَاهِنَهُ ،
وقابلوه بالتكذيب . فلو أنهم أَنْصَبُوا النَّظَرَ فِي آيَاتِ الرُّسُلِ لَاتَضَحَّ لَهُمْ صِدْقُهُمْ ، وَلَكِنْ
الْمَقْسُومُ لَهُمْ مِنَ الْخُذْلَانِ فِي سَابِقِ الْحُكْمِ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالتَّصْدِيقِ . قَدْ كَذَّبُوا ، وَعَلَى
تَكْذِيبِهِمْ أَصْرُوا ، فَسَوْفَ تَأْتِيهِمْ عَاقِبَةُ أَعْمَالِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ ، فَيَذُوقُونَ وَبَالَ شِرْكِهِمْ .
قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْمَ أَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٌ * إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

فَنُونَ مَا يَنْبِتُ فِي الْأَرْضِ وَقَتَ الرِّبْعِ لَا يَأْتِي عَلَيْهِ الْخَصْرُ ، ثُمَّ اخْتِصَاصُ كُلِّ شَيْءٍ
مِنْهَا بِلَوْنٍ وَطَلْمٍ وَرَائِحَةٍ مَخْصُوصَةٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَهِيئَةٌ وَنَوْرٌ مَخْصُوصٌ ، وَوَرَقٌ
مَخْصُوصٌ . . . إِلَى مَا تَلَطَّفُ عَنْهُ الْعِبَارَةُ ، وَتَدْلِقُ فِيهِ الْإِشَارَةُ . وَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ
اسْتَبَصَرَ ، وَنَظَرَ وَفَكَّرَ .

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ » : الْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُقَهَّرُ ، الْقَادِرُ الَّذِي لَا يُقَدَّرُ ، اللَّيِّعُ الَّذِي لَا يُجْبَرُ .
« الرَّحِيمُ » : الْحَسَنُ لِعِبَادِهِ ، الْمُرِيدُ لِسَعَادَةِ أَوْلِيَائِهِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ » .

أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ لِدَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ عَلِمَ أَنَّهُ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ ، قَدْ
غَرَّتْهُ نَفْسُهُ فَهُوَ لَا يَبَالِي بِمَا فَعَلَ . وَأَخَذَ (مُوسَى) ^(١) يَتَعَلَّلُ — لَا عَلَى جِهَةِ الْإِبَاءِ
وَالْخَالَفَةِ — وَلَكِنْ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعْفَاءِ وَالْإِقَالَةِ إِلَى أَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِهِ جَزْمٌ ، وَالْحُكْمَ
بِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ .

قوله جل ذكره : « قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ *
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ

(١) ليست موجودة في النص وقد وضعناها بين قوسين متناً ليس .

إلى هارون * ولم على ذنب فأخاف
أن يقتلوه .

سأل موسى — عليه السلام — أن يشفع بهارون ويشرّكه في الرسالة . وأخبر أنه
قتل نفسه ، وأنه في حكم فرعون عليه دم ، فقال : « فأخاف أن يقتلوه » إلى أن قال
له الحق : —

« قال كلاً فاذها بآياتنا إنّا معكم مستمعون . »

« كلا » حرف ردّيع وتنبيه ؛ أى كلا أن يكون ذلك كما توهمت ، فارتدّع عن
تجويز ذلك ، وانتبه لغيره . إني معكم بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة ، واليد ستكون
لكما ، والسلطان سيكون لكما دون غيركما ، فإنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأبصر
ما تبصرون وما تبصرون أتم .

قوله جل ذكره : « فأتيا فرعون قولا إنّا رسول ربّ
العالمين » .

ويقال في القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنة كاملة ولم يجدا
طريقاً إليه . ثم بعد سنة عرضاً الرسالة عليه ، فقابلهما بالكذيب ، وكان من القصة ما كان ..
وقال فرعون لمّا رأى موسى :

« قال ألم نربك فينا وليداً ولبنّت فينا من حمرك
سنين » وفلت فملتك التي فعلت وأنت من الكافرين »

فلم يكن لموسى — عليه السلام — جواب إلا الإقرار والاعتراف ، قال :

« قال فعلتها إذا وأنا من الضالين * قررت منكم لمّا
خفّتكم فوهب لي ربى مكنما وجعلني من المرسلين »

قال : كل ذلك قد كان ، وقررت منكم لمّا خفّتكم ، فأكرمني الله بالنبوة ، وبعثني
رسولاً إليكم ..

ويقال : لم يحدد حق تربيته ، والإحسان إليه في الظاهر ، ولكن بين أنه إذا أمر الله بشيء وجب اتباع أمره . ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجب حقاً فربية الله أولى بأن يعظم العبد قدرهما^(١) .

قوله : « فقررت منكم لما خفتكم » : يجوز حملُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نفسه . والقرارُ - عند عدم الطاقة - غير مذموم عند كل أحد^(٢) .

ويقال : فررت منكم لما خفت أن تنزل بكم عقوبة من الله لشؤم شرِككم ، أو من قول فرعون : « ما علمت لكم من آله غيري »^(٣) .

قوله جل ذكره : « وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت

بنى إسرائيل »

ذكر فرعون — من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه — أنه استحياه بين بنى إسرائيل ، ودفع عنه القتل ، فقال موسى : أو تلك نعمة تمنها علي ؟ هل استعبادك لبنى إسرائيل بعد نعمة ؟ إن ذلك ليس بنعمة ، ولا لك فيها منة^(٤) .

قوله جل ذكره : « قال فرعون وما رب العالمين ؟ »

نظر اللعين بجهله ، وسأل على النحو الذي يليق بغيه ، فسأل بلفظ « ما » — و « ما » يستخبر بها عما لا يعقل ، فقال : « وما رب العالمين ؟ » .

ولكن موسى أعرض عن لفظه ومتنصاه ، وأخبر عما يصح في وصفه تعالى فقال :

« قال رب السموات والأرض

وما بينهما إن كنتم موقنين » .

(١) هذه إشارة إلى قيمة تربية الشيوخ بالقياس إلى تربية الوالدين ؛ فالوالدان يريان الأشباح والشيوخ يربون الأرواح .

(٢) نذكر كيف فر القشيري نفسه من المشرق الإسلامي عندما أحطت به الأخطار ، وعدد السلطان الجائر حياته وعقيدته ، فلم تلن قناته ، وهرب بعقيدته إلى حيث يسلم هو ورفاقه (أنظر مدخل الكتاب) .

(٣) آية ٣٨ سورة القصص .

(٤) لأن تعبيدكم وذبح أبنائهم هماسبباً حصوله عنده وتربيته له ، ولو تركهم لرباه أبواه شأن أي طفل .. فليس هنا نعمة ولا منة ، لأن التصد كان إذلاً لأهله لا الإحسان إليهم أو إنيه .

فَذَكَرَ صِفَتَهُ — سبحانه وتعالى — بأنه إلهٌ ما في السموات والأرض ، فأخذ في التعجب ، وقال :

« قال لِمَنْ حَوَّلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ؟ * قال ربُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ » .
قال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فحاذَ فرعونُ عن سَنَنِ الاستقامة في الخطاب ، وأخذ في السفاهة قائلاً :

« قال إِنْ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

لأنه^(١) يزعم أن هناك إلهًا غيره . ولم يكن في شيء مما يجري من موسى - عليه السلام - أو مما يتعلق به وصفُ جنونٍ . ولم يُشغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال :

« قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

أَي إِنْ كُنْتُمْ مِنْ جِلَّةِ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَتَمْيِيزٌ . فقال فرعون :

« قال لَنْ آتِخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ » .

مضى فرعونُ يقول : لأفعلن ، ولأصنعن ... إِنْ آتِخَذَ إِلَهًا غَيْرِي . وجرى ما جرى ذِكْرُهُ وَشَرَحُهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا ، وقلبها - سبحانه - ثعبانًا كاد يلتقم دارفرعون بمن فيها ، ووثبَ فرعونُ هاربًا ، واختفى تحت سريره ، وهو ينتفض من الخوف ، وتَلَطَّخَتْ بَرِيَّتُهُ^(٢) ، وانفضح في دعواه ، واتضح حاله ، فاستغاث بموسى واستجاره ، وأخذ موسى الثعبانَ فردَّه اللهُ عصًا :

(١) أي موسى عليه السلام .

(٢) البرزة - الهيئة أو الشارة .

ولما فارقه موسى - عليه السلام - تداركته الشقاوة ، وأدركه شؤم الكفر ، واستولى عليه الحرمان ، فجمع قومه وكلمهم في أمره ، وأجمعوا كلهم على أنه سحرهم . وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيّه .. كما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه

ثم إنه جمع السحرة ، واستعان بهم ، فلما اجتمعوا قالوا : « إن لنا لأجراً » . فطلقوا بحساسة همّتهم ، فضمن لهم أجرهم . وإنّ من يعمل لغيره بأجرة ليس كمن يكون عمله لله . ومن لا يكون له ناصر إلا بغمان الجمالة وبذل الرشا فعن قريب سيُخذل .

قوله جل ذكره : « قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين » .

قال فرعون : « وإنكم إذا لمن المقربين » ، وإن طلب القربة عند مخلوق فإنّ ما يصل إليه من اللذّ يزيد على ما أمّله من العزّ في ذلك التقرب . والمقربون من الله أول من يدخل عليه يوم اللقاء ، فهم أول من لم وصول . والمقربون من الله هم على الله دخلة ، والناس بوصف الغفلة والخلق في أسر الحجة .

ثم لما اجتمع الناس ، وجاء السحرة بما موّهوا ، التفت عصا موسى جميع ما أتوا به ، وعادت عصا ، وتلاشت أعيان حبالهم^(١) التي جاءوا بها ، وكانت أوقاراً ، وألقى السحرة سجداً ، ولم يحتفلوا^(٢) بتهديد فرعون إياهم بالقتل والصلب والقطع ، فأصبحوا وهم يقسمون ببيعة فرعون ، ولم يمتسوا حتى كانوا يقولون : « لن نؤثر على ما جاءنا من البينات^(٣) » .

ثم لما ساعدتهم التوفيق ، وآمنوا بالله كان أهمّ أمورهم الاستغفار لما سلف من ذنوبهم ، وهذه هي غاية همه الأولياء ، أن يستجبروا بالله ، وأن يستعيدوا من عقوبة الله ، فأعزّاهم بالله أخو قهم من الله .

(١) يتصل ذلك برأى التشيرى في المعجزة وأنها قد تكون قلب الأعيان ، أما كرامة الول فقد لا تكون كذلك ، وهي مع ذلك متصلة بنبي الأمة التي يتبعها هذا الول .

(٢) وردت (يحتفلوا) والسياق يرفضها ويؤيد (يحتفلوا) كما هو واضح .

(٣) آية ٧٢ سورة طه .

ويقصد التشيرى إلى أن يوضح أن العبرة بالخواتيم ، وهو هذا بحث - بطريق غير مباشر - على التوبة ، وعدم القنوط من رحمة الله .

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى بِإِخْرَاجِ بْنِ إِسْرَئِيلَ ، وَتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجَمْعِهِ ، وَقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى .

« فَلَمَّا تَرَاۤءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى
إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ : كَلَّا
إِنَّمَا مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » .

فَكَانَ كَمَا قَالَ ، إِذْ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَنْجَاهُمْ ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمَهُ أَقْصَاهُمْ ، وَقَدْ قَالَ
مُسْبِحَاتِهِ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ^(١) : يُنَجِّيهِمْ مِنْ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَيَخْصُمُهُمْ بِكُلِّ نِعْمَةٍ .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ
لَأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَا نَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَتَنَزَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ
يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؟ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ
أَوْ يَضُرُّونَ ؟ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » .

عَاتِبَ ^(٢) إِبْرَاهِيمُ آبَاءَهُ وَقَوْمَهُ ، وَطَالَبَهُمْ بِالْحُجَّةِ عَلَى مَا عَابَهُمْ بِهِ وَقَالَ لِمَ تَعْبُدُونَ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ؟ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَا يُحْسِبُ وَلَا يُشْعُرُ ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا فِي الْجَوَابِ
إِلَّا إِلَى تَقْلِيدِهِمْ أَسْلَافَهُمْ ، وَقَالُوا :

عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَجَدْنَا أَسْلَافَنَا . فَنَطَقَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَام - بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ
وَالْإِخْبَارِ عَنْ قُبُوحِ صَنِيعِهِمْ بِمَدْحِ مَوْلَاهُ وَالْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِهِ ، وَقَالَ :

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ *
أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي
إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

(١) آيَةُ ٣٦ سُورَةِ التَّوْبَةِ .

(٢) رُبَّمَا كَانَتْ (عَابَ) بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ (عَلَ مَا عَابَهُمْ) ، لَكِنَّ السِّيَاقَ يُلْتَمِزُ (عَاتِبَ) أَكْثَرَ ،
إِذِ الْعَتَابُ أَلْيَقُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَبِ ، كَذَلِكَ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ آبَاءَهُ لَنْ يُؤْمِنُوا .

ذَكَرَهُمْ بِأَقْلٍ عِبَارَةً فَلَمْ يَقُلْ : فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ لِي ، بَلْ وَصَفَهُم بِالْمَصْدَرِ الَّذِي يَصْلَحُ أَنْ يوصَفَ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمَاعَةُ فَقَالَ : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » .

ثُمَّ قَالَ : « إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَكَأَنَّهُ يَضْرِبُ بِالطَّغْرِ عَنْ ذِكْرِهِمْ صَفْحًا حَتَّى يَتَوَصَّلَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي شَرْحِ وَصْفِهِ كَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْكُتُ ، إِذْ مَضَى يَقُولُ : وَالَّذِي .. وَالَّذِي .. وَالَّذِي .. ، وَمِنْ أَمَارَاتِ الْحُبِّ كَثْرَةُ ذِكْرِ مَحْبُوبِكَ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ ، فَتَنَزَّهَ الْحَبِيبُ بِتَقْلُبِهِمْ فِي رِيَاضِ ذِكْرِ مَحْبُوبِهِمْ ، وَالزُّهَادُ يَمْدُدُونَ أَوْرَادَهُمْ ، وَأَرْبَابُ الْخَوَائِجِ يَمْدُدُونَ مَآرِبَهُمْ ، فَيَطْنُبُونَ فِي دَعَائِهِمْ ، وَالْحَبِيبُونَ يُسْهِبُونَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى مَحْبُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ » .

كَانَ مُهْتَدِيًا ، وَلَكِنَّهُ يَقْصِدُ بِالْمُهْدَايَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِيمَا يَسْتَقْبَلُهُ مِنَ الْوَقْتِ ، أَيْ : يَهْدِينِي إِلَيْهِ بِهِ ، فَإِنِّي نَحَقُّ فِي وَجُودِهِ وَلَيْسَ لِي خَيْرٌ عَنِّي أ .

وَالْقَوْمُ حِينَ يَكُونُونَ مُسْتَفْرِقِينَ فِي قَوْمِهِمْ لَا يَهْتَدُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ ، فَيَهْدِيهِمْ عَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَيَصِيرُونَ فِي نَهَائِهِمْ مُسْتَهِلَكِينَ فِي وَجُودِهِ ، قَانِينَ عَنْ أَوْصَافِهِمْ ، وَتَصِيرُ مَعَارِفُهُمْ - الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ - وَاهِيَةً ضَعِيفَةً ، فَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ (١) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » .

لَمْ يُشِيرْ إِلَى طَعَامٍ مَعْبُودٍ أَوْ شَرَابٍ مَأْلُوفٍ وَلَكِنْ أَشَارَ إِلَى اسْتِقْلَالِهِ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْرِفَةُ بِدَلِّ اسْتِقْلَالِ غَيْرِهِ بِطَعَامِهِمْ ، وَإِلَى شَرَابِ مَحَبَّتِهِ الَّذِي يَقُومُ بِدَلِّ اسْتِقْلَالِ غَيْرِهِ بِشَرَابِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » .

لَمْ يَقُلْ : وَإِذَا أَمْرَضَنِي لِأَنَّهُ حَفِظَ أَدَبَ الْخُطَابِ .

(١) يشرح القشيري قول الواسطي : لَا تَصِحَّ الْمَعْرِفَةُ فِي الْعَبْدِ اسْتِغْنَاءً بِاللَّهِ وَاقْتِنَارًا . فيقول : أَرَادَ الْوَاسِطِيُّ بِهَذَا أَنَّ الْاِقْتِنَارَ وَالْاِسْتِغْنَاءَ مِنْ أَمَارَاتِ مَحْبُوبِ الْعَبْدِ وَبِقَاءِ رُسُومِهِمَا مِنْ صِفَاتِهِ . (الرسالة ص ١٥٥) ، ذُو النُّونِ : عَرَفْتُ رَبِّي وَلَوْلَا رَبِّي مَا عَرَفْتُ رَبِّي (الرسالة ص ١٥٦) .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما تمارض الأحباب طمعاً في العيادة ، قال بعضهم :

إِنْ كَانَ يَمْنَعُكَ الْوَشَاءُ زِيَارَتِي فَادْخُلْ عَلَيَّ بِعَلَّةِ الْمَوَادِّ
ويقول آخر :

يَوَدُّ بَأْنَ يَمْشِي سَقِيماً لَعَلَّهَا إِذَا سَمِعَتْ مِنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسِلُهُ
ويقال ذلك الشفاء الذي أشار إليه الخليل هو أن يبعث إليه جبريل ويقول له : يقول
لَكَ مَوْلَاكَ . . . كيف كنت البارحة ؟

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي »
أضاف الموت إلى الله ؛ فالموت فوق المرض ؛ لأن الموت لهم غنمة ونعمة ؛ إذ يصلون
إليه^(١) بأرواحهم .

ويقال « يميتني » بإعراضه عني وقت تعزُّزه ، « ويحييني » بإقباله عليَّ حين تفضُّله . ويقال
يميتني عني ويحييني به .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي
يَوْمَ الدِّينِ »

خطيئة الأحباب شهودهم محتهم ، وتعتيهم عند شدة البلاء عليهم ، وشكواهم مما يمسه
من برحاء الاشتياق ، قال بعضهم :

وَإِذَا مُحَاسَنِي - اللَّاقِي أُدِلُّ بِهَا - كَانَتْ ذُنُوبِي . . . قَلُّ لِي : كَيْفَ أَعْتَذِرُ ؟

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقِّنِي
بِالصَّالِحِينَ » .

« هَبْ لِي حُكْماً » : على نفسي ، فَإِنَّ مَنْ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ .
« وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ » : فأقوم ببحثك دون الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيء
دون حَقِّكَ .

(١) (إليه) الضمير منا يعود إلى محبهم - سبحانه .

قوله جل ذكره : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » .

في التفسير : « لسان صدق » : أى ثناء حسنًا على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .

ويقال أن أذكرك ببيان آياتك^(١) ، وأذكرك بعد قبض روحى إلى الأبد بذكر مؤثر مد .
ويقال أذكركنى على لسان الخبيرين عنك .

قوله جل ذكره : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .

على لسان العلماء : قاله بعد يأسه من إيمان أبيه ، وأما على لسان الإشارة فقد ذكره
في وقت غلبات البسط ، ويَتَجَاوَزُ ذلك عنهم^(٢) .

وليست إجابة العبد واجباً على الله فى كل شيء ، فإذا لم يُجِبْ فإنَّ للعبد سلوة فى ذكر
أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ .

قوله جل ذكره : « ولا تُخزني يوم يُبْعَثُونَ » .

أى لا تُخزِني بتذكيري خلتي ، فإنَّ شهود ما من العبد - عند أرباب القلوب وأصحاب
الخصوص - أشدُّ عقوبة^(٣) .

قوله جل ذكره : يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ •

إلا من أتى الله بقلب سليم •

قيل : « التاب السليم » الديق .

وقيل هو الذى سَلِمَ من الضلالة ثم من البدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجة
ثم من المضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة . هذه كلها آفات^(٤) ، والأكابر سَلِمُوا
منها ، والأصاغر امتَحِنُوا بها .

(١) وردت (الآية) ونرجع أن الناسخ قد أخطأ في النقل ، فأثبتنا (آلاتك) أى نعمك لأنها أقرب إلى السياق .

(٢) معنى هذا أن القشيري يرى اغتفار ما ينطق به الصوفى من أقوال وهو فى حال الانمحاء .

(٣) لأن شهود ما من العبد معناه أن التوحيد مازال يشوبه كدر الغيرية .

(٤) يفيد ذكر هذه الآفات على هذا النحو من الترتيب والدقة أجل فائدة عند دراسة المصطلح الصوفى - خصوصاً

وأن هذه المصطلحات لم ترد على هذا النحو فى الفصل الذى خصصه القشيري لهذا الموضوع فى الرسالة .

ويقال : « القلب السليم » الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : « وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرُزَّتِ

الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »

« أزلفت » : أى قُرُبَتْ وَأُذْنِيَتْ فى الوقت ، فإن ما هو آتٍ قريبٌ ، وبالعين أُخْضِرَتْ . وكما تَجَرَّ النارُ إلى الحشر والسلاسل فلا يَبْعُدُ إِذْ نَاهِ الْجَنَّةُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

« وبرزت الجحيم للغاوين » أَظْهَرَتْ ؛ فتَوَكَّدُ الْحُجَّةُ عَلَى أَرْبابِ الْجُحُودِ ، وَيُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ ، وَتُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مَنَازِلُ الْأَشْرَارِ ، فَيُكَبِّكُونَ فِيهَا أَجْمَعِينَ ، وَيَأْخُذُونَ بِقُرُونٍ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ جَعَلَهَا مَا أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : —

« تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ
رَبُّ الْعَالَمِينَ »

ولا فضيحة أقبح ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يترفون به على أنفسهم بقولهم : « إذ نسويكم ربُّ العالمين » فإنَّ أَقْبَحَ أَبْوَابِ الشَّرِّ وَأَشْنَعِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَأَقْبَحَ أَحْوَالِهِم - التَّشْبِيهُ فى صفة المعبود .

قوله جل ذكره : « فما لنا من شافعين * ولا صديق

حميم »

فى بعض الأخبار^(١) : يحى - يوم القيامة - عَبْدٌ يُحَاسِبُ قَسْتَوَى حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ يَرْضَى عَنْهَا خَصْمُهُ ، فيقول الله - سبحانه : عبدى . . بقيت لك حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ ، إِنْ كَانَتْ أَذْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ . . أَنْظُرْ . . وَتَطَلَّبُ مِنَ النَّاسِ لَمَلًّا وَاحِدًا يَهَبُ لَكَ حَسَنَةً وَاحِدَةً . فيأتى العبدُ فى الصِّفِّينِ ، وَيَطْلُبُ مِنْ أَبِيهِ ثُمَّ مِنْ أُمِّهِ ثُمَّ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَيَقُولُ لِكُلِّ وَاحِدٍ فى بَابِهِ فَلَا يَجِيبُهُ أَحَدٌ ، فَالْكُلُّ يَقُولُ لَهُ : أَنَا الْيَوْمَ قَتِيرٌ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ ، فِيرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ ، فَيَسْأَلُهُ الْحَقُّ - سبحانه : ماذا جِئْتَ بِهِ ؟

(١) فى م (بعض الأحيان) والأسوب أن تكون (فى بعض الأخبار) كما فى ص .

فيقول : يا رب . . لم يُعْطِ أَحَدٌ حَسَنَةً مِنْ حَسَنَاتِهِ .

فيقول الله - سبحانه : عبدي . . ألم يكن لك صديق (في)^(١) ؟

فيتذكر العبدُ ويقول : فلان كان صديقاً لي .

فيدله الحقُّ عليه ، فيأتيه ويكلِّمه في بابه ، فيقول : يلى ، لي عباداتٌ كثيرةٌ قَبْلَها اليومَ
قد وهبْتُكَ منها ، فيسير هذا العبدُ ويحییء إلى موضعه ، ويخبر ربه بذلك ، فيقول الله -
سبحانه : قد قَبِلْتُها منه ، ولن أنقص من حقِّه شيئاً ، وقد غفرت لك وله ، وهذا
معنى قوله :

« فإنا من شافعين ولا صديق حميم »

قوله جلَّ ذكره : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ »

ذكر قصة نوحٍ وما لقيَ من قومه ، وأنهم قالوا :-

« قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ؟ »

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون ، لكنهم - في حكم الله - هم المتقدمون
الأكرمون . قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بِضَعْفَاتِكُمْ » .
وإنَّ اللهَ أغرق قومه لما أصرُّوا واستكبروا .

وكذلك قتلَ بمن ذَكَرَهُمُ الْآيَاتُ في هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقومِ لوطٍ وأصحابِ
مدین . . كلُّ منهم قابلوا رُسُلَهُم بالتكذيب ، فدَمَّرَ اللهُ عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رُسُلَهُ
على مقتضى سُنَّتِهِ الْحَمِيدَةِ فيهم . وقد ذَكَرَ اللهُ قِصَّةَ كلِّ واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله :-

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »

« العزيز » : القادر على استئصالهم ، « الرحيم » الذي أَخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم ، ولم
يقطع الرزقَ مع قُبْحِ فِعَالِهِمْ .

(١) هكذا في م و ص وهي صحيحة مقبولة في المعنى والسياق ؛ غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت
في الأصل (صديق وفي) حيث تقابل ما جاء في الآية (صديق حميم) فالبحث يومئذ يكون عن الصديق الرفي
الحميم .

وهو « عزز » لم يُستفَرَّ بقيح أفعالهم ، ولو كانوا أجمعوا على طاعته كما تجمل بأفعالهم^(١).

قوله جل ذكره : « وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين » .

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال : « لا أسألكم عليه من أجرٍ » ليعلم الكافة أن من عمل لله فلا ينبغي أن يطلب الأجر من غير الله . وفي هذا تنبيهٌ للعلماء — الذين هم ورثة الأنبياء — أن يتأدّبوا بأنبيائهم ، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم ، ولا يرتفعون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم أنه من ارتقى في بث ما يذكّر به من الدين وما يعظ به المسلمين فلا يبارك الله للناس فيما منه يستمعون ، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما من الناس يأخذون ، إنهم يبيعون دينهم بعرض يسير ، ثم لا بركة لهم فيه ، إذ لا يبتغون به الله ، وسيحصلون على سُخطِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنا لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين » .

كلام الله^(٢) المنزّل على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام . والكلام من الله غير منفصل ، وبغير الله غير متصل .. وهو — على الحقيقة لأعلى الجاز — مُنَزَّل . ومعناه أن جبريل — عليه السلام — كان على السماء . فسمع من الرب ، وحفظ ، ونزل ، وبلغ الرسول . فمرة كان يدخل عليه حالة تأخذه عنه^(٣) عند

(١) لأن الله — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة ولا شين بمصيبة .

(٢) ينبغي الاهتمام برأى القشيري هنا عند بحث قضية « خلق القرآن » ، وما بالنظرة إلى ما بين دفتي المصحف . ومقارنة ذلك (بكلام) الله إلى موسى عند الشجرة ... موضوع هام ناقشه القشيري ، في كتابه (شكايه أهل السنة) .

(٣) تأمل كيف ينظر الصوفية إلى حالة المصطفى (ص) عند تلقى الوحي عام أنها حالة عرفانية ، فالمراد أن لا يتم إلا عند الامتلاء .

نزول الوحي عليه : ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يتمثل له الملكُ فيُسمِعُهُ .
والرسولُ - صلوات الله عليه - يحفظه ويؤدِّيهِ . والله - سبحانه ضَمِنَ له أنه سَيَقْرُؤُهُ حتى
لا ينساه^(١) . فكان يجمع الله الحِفْظَ في قلبه . ويُسهِّلُ له القراءة عند لفظه . ولما عَجَزَ
الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيهِ إِيَّاهم بالإتيان بمثله .. عَلِمَ صِدْقَهُ في أنه مِن قِبَلِ الله .
قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لِي ذُرِّيًّا أُولِينَ » .

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص ، وما في حَقِّهِ الله من استحقاق جلاله —
موافقٌ لِمَا في الكتب المُنزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَهُ ، فهما عارضوه فإنه كما قال جل شأنه :
« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »^(٢) .

ثم أخبر أنه لو نَزَّلَ هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغه غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك ،
ولقالوا : لو كان بلساننا لعرفناه ولأمنَّا به ، فأزاح عنهم العِلَّةَ ، وأكَّدَ عليهم الحُجَّةَ .
ثم أخبر عن صادقِ علمه بهم ، وسابقِ حُكْمِهِ بالشقاوة عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به
حتى يَرَوْا العذابَ في القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ •

ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ •

مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » .

إِنْ أَرْضَيْنَاهُمْ المُدَّةَ ، وأهلناهم أزماناً كثيرة — وهم بوصف الغفلة — فما الذي كان
ينفعهم إِذَا أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً ؟ ١٩ .

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكْ أَهْلَ قَرْيَةٍ إِلَّا بعد أن جاءهم التذيرُ وأظهر لهم البينات ، فإذا
أَصْرَوْا على كُفْرِهِمْ عَذَّبْنَاهُمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا هُمْ عَنْ السَّمْعِ الْمُعَزَّلُونَ » .

(١) يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « سَتَرْنَا عَنْكَ فَلَا تَنْسَاهُ آيَةُ ٦ سُورَةِ الْأَعْلَى .

(٢) آيَةُ ٤٢ سُورَةِ فَصَّلَتْ .

وَجَدُوا السَّمْعَ — الذى هو الإدراك — ولكن عَدِمُوا النَّهْمَ ، فلم يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه . فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة .

قوله جل ذكره : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .
وذلك تعريف له أنهم لا تنفعهم قرابتهم منه ، ولا تقبل شفاعته — إن لم يؤمنوا — فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النسب ، فهذا نوح لما كفر أبوه لم تنفعه بُنُوته ، وهذا الخليل إبراهيم عليه السلام لما كفر أبوه لم تنفعه أبُوته ، وهذا محمد — عليه الصلاة والسلام — كثير من أقاربه كانوا أشد الناس عليه في العداوة فلم تنفعهم قرابتهم .

قوله جل ذكره : « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

أَلِنْ جَانِبَكَ وَقَارِبْنِهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ ، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتيل منهم سوء الأحوال ، وعاشروهم بحسب الأخلاق ، وتعمل عنهم كلهم ، وارحسهم كلهم ، فإن مرضوا فقدم ، وإن حرموك فأعطهم ، وإن ظلموك فتجاوز عنهم ، وإن قصرُوا في حق فاعف عنهم ، واشفع لهم ، واستغفر لهم (١) .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

لا تفعل مثل فعلهم ، وكل حسابهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حداً ، فعند ذلك لا تأخذك رافة تمنعك من إقامة حداً عليهم .

قوله جل ذكره : « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » .

انقطع إلينا ، واعتصم بنا ، وتوسل إلينا بنا ، وكن على الدوام بنا ، فإذا قلت قُلْ بنا ، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا ، واشهد بقلبك — وهو في قبضتنا — بتحقيق بأنك بنا ولنا .

توكل على « العزيز » تجد العزة بتوكلك عليه في الدارين ، فإن العزيز من وثق بالعزيز .

(١) تصلح هذه الإشارة لتكون دستوراً في (المسحبة) بصفة عامة . وللتبسيط فصل في الرسالة في هذا الخصوص .

« الرحيم » الذي يقرب من قَرَبٍ إليه ، ويُجْزِلُ البَرَّ لِمَنْ تَوَسَّلَ به إليه ^(١) .

قوله جل ذكره : « الذي يراك حين تقوم » .

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق ، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهد من الحقِّ رَاعَى دقائق أحواله ، وخفايا أموره مع الحقِّ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وتقلبك في الساجدين » .

هوَّنَ عليه معاناة مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته . ولا مشقة لِمَنْ يَعْلَمُ أنه بمراى من مولاه ، وإنَّ حَمَلَ الجبالِ الرواسي على شَفَرٍ ^(٣) جَفَنَ العينَ لَيَهونُ عند مَنْ يشاهد رَبَّهُ ^(٤) .

ويقال « قلبك في الساجدين » بين أصحابك ، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم كَمْسٌ ، أو هم شمسٌ وأنت بينهم شمسُ الشمس .

ويقال : قلبك في أصلابِ آهاتِكَ من المسلمين الذين عرفوا الله ، فسجدوا له دون مَنْ لم يعرفوه .

قوله جل ذكره : « إنه هو السميعُ العليم » .

« السميع » لأنَّ الحيين ، « العليم » بحنين العارفين .

« السميع » لأنَّ المذنبين ، « العليم » بأحوال المطيعين .

(١) هذه الإشارة بمودج طيب لعبقرية الغشيري عند صياغة (وصايا) للمريدين من الناحيتين الصوفية والأدبية .
(٢) يقال إنه لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومهمهم قوال ، فاستأذنوا ذا النون أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن له ، فابتدأ يقول ، فقام ذو النون ومقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض . ثم قام رجلٌ من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : « الذي يراك حين تقوم » فجلس الرجل .
ويعلق الشيخ الدقاق على هذه القصة بأن ذا النون كان صاحب إشراف على هذا الرجل ، وكان الرجل صاحب إنصاف حين قبل منه ذلك فرجع وقعد (الرسالة ص ١٧٠) .

(٣) شَفَرٌ الجَفَنُ = حَرَّه الذي يلبث عليه الهدبُ . (الوسيط) .

(٤) يربط النسب بين هذه الآية وبين الآيتين السابقتين واللاحقة ، فالمعنى عنده : أنه سبحانه (يراك حين تقوم) متهجداً ، ويرى (قلبك) في المصلين ؛ يرى ما كنت تفعل في جوف الليل من قيامك للتهجد ، وقلبك في تصفح أحوال المتجهدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ولتعلم كيف كانوا يعملون لآخرتهم .
« هو (سميع) لما تقوله ، (عليم) بما تنويه وبما تعله ، وبذلك هوَّنَ عليه معاناة كل مشقة حيث أخبر برؤيته له في كل ما يقوم به .

(تفسير النفس ج ٣ ص ١٩٩) ط عيسى الحلبي .

قوله جل ذكره: « هل أَنبئُكُمْ على مَنْ نَزَّلُ
الشَّيَاطِينَ * نَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ
أَثِيمٍ * يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهم
كَاذِبُونَ . »

بَيِّنْ أَن الشَّيَاطِينَ نَزَّلُ على الكفار والكهنة^(١) فتوحى إليهم بوساوسهم الباطلة .

قوله جل ذكره: « والشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ » .
لَمَّا ذَكَرَ الوَحْيَ وما يَأْتِي به الملائكةُ من قِبَلِ الله ذَكَرَ ما يوسوس به الشَّيَاطِينُ إلى
أُولِيائِهِ ، وَأَلْحَقَ بِهِمُ الشُّعْرَاءَ الَّذِينَ في الباطل يَهيمُونَ ، وفي أعراض الناس يَقعون ،
وفي التشبهات — عن حدِّ الاستقامة — يَخْرُجُونَ ، وَيَعِدُّونَ من أَنفُسِهِم بما لَا يُوفُّونَ ،
وسيلَ الكذبِ يَسْلُكُونَ .

قوله جل ذكره: « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا ، وَاتَّقُوا اللهَ مِنْ
بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » .

فَيَكُونُ شِعْرُهُ خَالِيًا مِنْ هَذِهِ الوجوه الملعونة المذمومة^(٢) ، وهذا كما قيل : الشعرُ كلامُ
إنسان ؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه .

قوله جل ذكره: « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ . »

سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا سوءَ ما عَمِلُوا ، وَيَنْدَمُونَ على ما أسلفوا ، وَيَصْدُقُونَ بما كَذَّبُوا .

(١) من أمثال سطيح وطليحة ومسيلمة .

وإذا كان محمد (ص) يشتم الأفاكين ويلتهم .. فكيف نزل الشياطين عليه ؟

(٢) من أمثال عبد الله بن رواحه وحنان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضي الله عنهم ، فشرهم
فلبت عليه الحكمة والموعظة والزهد ، والدمعة إلى الفضيلة ، وموازرة الدين الجديد ، ورفع آراء التوحيد .

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قصده العاصي لطلب التخفيف فصار وزره مفقوراً ، اسم كريم قصده العابد لطلب التضعيف فصار أجره موفوراً ، اسم جليل أمه الولي لطلب التشريف فصار سعيه مشكوراً ، اسم عزيز إن تعرض القير لوجوده محفته العزة ، وطوحت السطوة ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ .. فَأَتَى بِالْوَصُولِ ۖ وَتَقَدَّسَتْ الصَّمَدِيَّةُ .. فَمَنْ ذَا الَّذِي عَلَيْهَا يَقِفُ ^(١) ؟ .
« كَلَّا .. إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » ^(٢) :

وكم بأسطين إلى وصلينا أ كفهؤو .. لم ينالوا نصيبا
قوله جل ذكره : « طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » .
بطهارة قدسي وسناء عزى لا أخيب أمل من أمل لطنى .
بوجود يرعى تطيب قلوب أوليائي ، وبشهود وجهى تنيب أسرار أصفائي .
طلب القاصدين متآبل بلطنى ، وسعى العاملين مشكور بطنى ^(٣) .

(١) للتوحيد - في نظر القشيري - هو أعلى درجات العرفان ، وهذا التوحيد العرفاني - متأثراً بالتوحيد الإسلامي الأميل - لا يشوبه كدور ولا تعقيد ولا تدخل ولا حلول ولا امتزاج . عرفان الصوفي مهما منظم لا يمتدى كونه (عرفاناً بنعت التعال في شهود أفعال الحق ، فأما الوقوف على حقيقة الإنية فقد جلت الصمدية عن إشراف عرفان عليها) تفسير بسملة سورة الجمعة « من هذا المجلد » .

(٢) آية ٥٤ سورة المدثر .

(٣) غير خاف على القارئ أن يلحظ نزود حرفي الطاء والسين في كلمات الأسطر الثلاثة ، كأنما القشيري يريدنا أن ننهم دقائق (طس) من بعيد .

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » . . . دلالات كرمنا ، وأمارات فضلنا وشواهد برنا ، نبين لأوليائنا صدق وعدينا ، ونمنا لأعدائنا حفظ عهدنا .

قوله جل ذكره : « هدى ربى للذين آمنوا » .

هذه الآيات وهذا الكتاب بيان وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل لمن حققنا لهم الإيمان ، وأكذنا لهم الضمان ، وكفلنا لهم الإحسان .

قوله جل ذكره : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »

وهم بالآخرة هم يوقنون » .

يدعون المواصلات ، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم الزكاة ، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسن مقام ، وينوبون عن ضعفاتهم أحسن مناب .

قوله جل ذكره : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم »

أعمالهم فهم يعمهون » .

أغشيناهم فهم لا يبصرون ، وعمينا عليهم المسالك فهم عن الطريقة المثلى يعدلون ، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون ، وفي حيرتهم يتردون .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم »

في الآخرة هم الأخسرون » .

« سوء العذاب » أن يجد الآلام ولا يجد التسلي بمعرفة المسلي ، ويحمل البلاء ولا يحمل عنه ثقله وعذابه شهود المبلي . . . وذلك للكفار ، فأما المؤمنون فيخفف عنهم العذاب في الآخرة حسن رجائهم في الله ، ثم تضرعهم إلى الله ، ثم فضل الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشى والإفاقة — كما في الخبر — إلى وقت إخراجهم من النار .

قوله جل ذكره : « وإنك لتلقى القرآن من لدن »

حكيم عليم » .

أى أن الذى أكرمك بإنزال القرآن عليك هو الذى محفوظك عن الأسواء والأعداء
وصنوف البلاء .

قوله جل ذكره : « إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا
سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ
قَبَسٍ لَكُمْ تَصْطَلُونَ » .

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر ، ودَجَا عليه الليلُ ، وأخذ امرأته
الطَّلَقُ وهبَّت الرياحُ الباردة ، ولم يورِ الزَّندُ ، وضاق على موسى الأمرُ ، واستبهم الوقتُ ،
وتشتت به الهمة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا
إِنِّى أبصرتُ ناراً . وفى القصة : إنه تشتت أغنامه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعه
فشردت ، فقالت امرأته :

كيف تتركنا وتمضى والوادي مسبح ١٢ .

قال : امكثوا .. فإني لأجلكم أمضى وأتعرف أمرَ هذه النار ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا إِمَّا بِقَبَسٍ
أَوْ شِعْلَةٍ ، أَوْ بِخَبَرٍ عَنْ قَوْمٍ نَزُولٍ عَلَيْهَا نَكُونُ لَنَا بِهِمْ اسْتِعَانَةً ، وَمِنْ جَهَنَّمَ انْتِفَاعٌ . وَبَدَتْ
لَعِينَهُ تِلْكَ النَّارُ قَرْيَةً ، فَكَانَ يَمْشِي نَحْوَهَا ، وَهِيَ تَتْبَاعِدُ حَتَّى قَرُبَ مِنْهَا ، فَرَأَى شَجَرَةً رَطْبَةً
خَضِرَاءَ تَشْتَعِلُ كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَهِيَ نَارُ مَضِيئَةٍ ، فَجَمَعَ خَشْيَاتٍ وَأَرَادَ أَنْ يَتَقَبَّسَ
مِنْهَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَمِعَ النَّدَاءَ مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ الشَّجَرَةِ كَمَا تَوَهَّمُ الْخَالِفُونَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ . وَحَصَلَ
الْإِجْمَاعُ أَنَّ مُوسَى سَمِعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ النَّدَاءُ فِي الشَّجَرَةِ لَكَانَ التَّكَلُّمُ بِهِ
الشَّجَرَةَ ، وَلَأَجَلَ الْإِجْمَاعُ قُلْنَا : لَمْ يَكُنِ النَّدَاءُ فِي الشَّجَرَةِ ^(١) . وَإِلَّا فَنَحْنُ نَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ نَدَاءً
فِي الشَّجَرَةِ وَيَكُونُ تَعْرِيفًا ، وَلَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ التَّكَلُّمُ بِذَلِكَ الشَّجَرَةِ .

(١) أى أنه على هذا الرأى كلام غير مخلوق ، لأن كلام الله صفة ، وصفته - سبحانه - غير مخلوقة ..
وهذا هو نفس الرأى بالنسبة للقرآن ، وهذا هو الجواب الذى دحض به السلف زعم الجهمية حينما أرادوا أن يثبتوا
أن القرآن مخلوق ، لأن القرآن شيء ، والله خالق كل شيء (انظر مدارج السالكين لابن القيم ج١ ص ٢٢٢)
فيكون النداء الذى سمع من الشجرة كالكلام الذى بين دفتي المصحف .. كلاهما كلام الله - على الحقيقة ، ولكن
من حيث التجوز فى التعبير يقال (فى الشجرة) و (فى المصحف) .

ولا يُنكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخلق كلاماً في الشجرة أيضاً ، فموسى سمع كلامه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة ... وهذا من طريق العقل جائز .

قوله جل ذكره : « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » .

أى بورك من هو في طلب النار ومن هو حول النار^(١) .

ومعنى بورك أى لحقته البركة أو أصابته البركة .. والبركة الزيادة والنماء في الخير .

والدعاء من القديم — سبحانه — بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

قوله جل ذكره « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » .

الذى يُخاطبك أنا الله « العزيز » في استحقاق جلالى ، « الحكيم » في جميع أفعالى .

قوله جل ذكره : « وألقي عصاك فلما رآها تهتز كأنها

جان ولي مذبذب ولم يُعقب » .

في آية أخرى بين أنه سأله ، وقال له على وجه التقرير : « وماتلك يمينك يا موسى ؟ »

وأجابه بقوله : « هى عصاى » وذكر بعض ما له فيها من المآرب والمنافع ، فقال الله : « وألقي

عصاك » ، وذلك لأنه أراد أن يريه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمال اليقين .

وألقاها موسى فقلبتا الله تعباً ، أولاً حية صغيرة ثم صارت حية كبيرة ، فأوجس في

نفسه موسى خيفة وولى مذبذباً هارباً ، وكان خوفه من أن يُسلطها عليه لما كان عارفاً بأن الله

يعذب من يشاء بما يشاء ، فقال له الحق :

« يا موسى لا تخف إني لا يخاف لى

المُسكون » .

أى لا ينبغي لهم أن يخافوا .

(١) يرى النسخ أن (من) في مكان النار هم الملائكة ، و(من حولها) هو موسى . (النسخ ٣٥ ص ٢٠٢) .

« إِنْ آمَنَ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ »

فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وهذا يدل على جواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط ترك الإصرار . فَمَا مَن لَا يُجِيرُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبَ فَيَحْمِلُ هَذَا عَلَى مَا قَبِلَ النُّبُوَّةَ^(١) .

فلما رأى موسى انقلاب العصا على أن الحق هو الذي يكشفه بذلك .

ويقال : كيف علم موسى — عليه السلام — أن الذي سمعه كلام الله ؟ .

والجواب أنه بتعريف منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كسبياً ، ويكون الدليل له الذي به علم صدقه في قوله : « إِنْ أَنَا اللَّهُ » هو ما ظهر على يده — في الوقت — من المعجزة ، من قلب العصا ، وإخراج يده بيضاء^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا »

من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون

وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين .

من غير سوء أي برّص . وفي القصة أن موسى عليه السلام ذكر اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أوجبَتْ انزعاجه ، وقصده في طلب النار ، فقال الله تعالى : إنا قد كفيناك ذلك الأمر ، ووكنا بامرأتك وأسبابك ، فجعلنا أغناكم وثيرانك ، وسَلَّمْتُ لَكَ الْمِرَّةَ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

(١) لا يستخدم فريق من الفقهاء تعبير (الذنب) بالنسبة للأنبياء عليهم السلام وإنما يطلق كل ما يدر منهم (فعل خلاف الأول) نادياً .

والنبي — على الوجوب — معصوم ، والول — محفوظ — أي قد تقع منه منات أو زلات ولكنه لا يصير على ما فعل (الرسالة ص ١٧٥) .

(٢) أي أن الأصل في المعجزة أنها دليل صدق النبي ، فقد يستطيع السحرة والكهنة عمل أشياء عجبية ولكنها لا تخرج من كونها دليل مهارة أو ذكاء أو قدرة على الإيهام والانبهار .

والنبي مأمور بإظهار المعجزة أما الولد فمأمور بإخفاء الكرامة (الرسالة ص ١٧٤) .

لم يُظهِرِ اللهُ — سبحانه — آيةً على رسولٍ من أنبيائه — عليهم السلام — إلا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعُوا النظرَ فيها موضَعَهُ لتَوَسَّلُوا إلى حصول العلم وتلج الصدور ، ولكنهم قَصَرُوا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحد . قال تعالى وقوله صِدْقٌ :

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم
ظُلُمًا وَعُلُوءًا فانظُرْ كيف كان عاقبة
المُفْسِدِينَ » .

وكما يَحْصُلُ من الكافر الجحد^(١) تحصل للعاصي عند الإمام ببعض الذنوب حالة يعلم فيها — بالتقطع — أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فعلها من غير أن يكون متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقَدِّمُ على ذلك غيرَ مُحتَفِلٍ بها مُوافقةً لشهوته . وهذا الجنسُ من العاصي أكثرها شؤماً ، وأشدّها في العقوبة ، وأبعدّها عن الفران .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ علماً وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين » .

يقتضى حكمُ هذا الخطاب أنه أفردَهما بجنسٍ من العلم لم يشارِ كهُما فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَهُ على وجه تخصيصهما به ، ولا شك أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيان لها أغناها عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعرَّضٌ للشك فيه^(٢) .

(١) ليس مستأنساً أن يكون جحد الجاحد بعد المعرفة لأن (جحد) بمعنى أنكر ، وقد يكون الإنكار نتيجة جهل بالشئ ، ولكن الواضح أن التشيرى يتجه إلى توضيح أسوأ ألوان الجحود ، وهو الذى يحدث بعد المعرفة ، وقد أحسن التشيرى حين قابل بين ذلك وبين أسوأ أحوال العاصي ، وهى تلك التى يقدم فيها على المعصية وهو علم بماقتبها ، ومع ذلك يعقد النية عليها ، ويفعلها .

(٢) نعلم من مذهب التشيرى أن البيان أرق في المراج العرفاني من البرهان ، ونجد هنا سبب تفرق البيان على البرهان .

ويحتمل أن يكون عليهما بأحوال أمتهم على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ،
فيكون إخبارهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : « عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » .

ويحتمل أن يكون عليهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان .

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر
بأنهما شكراً لله على عظيم ما أنعم به عليهما ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا

النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَضَلُ الْمُبِينُ » .

ورث أباه في النبوة ، وورثه في أن أقامه مقامه .

قوله : « عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صدقَ
إخباره عن نبوته . ومن كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياء كلها بالله ومن
الله . ويكون مُكاشَفًا بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شيء تعريفات الحقِّ
— سبحانه — للبدن مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم تحسُّباً عنهم . وكأنَّ ضربَ
الطَّيْلِ مثلاً دليلٌ يُعرَفُ — بالمواضعة — عند سماعه وقت الرحيل والنزول فالحقُّ
— سبحانه — يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفات ، من سماع الأصوات وشهود أحوال
المرئيات في اختلافها ، كما قيل :

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ ففى كل شيء له عِبرةٌ

قوله جل ذكره : « وَوَحَّشَرَ سُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » .

(١) قال صل الله عليه وسلم : « العلماءُ ورثة الأنبياء » والعلمُ نعمة تحتاج إلى الشكر ، ويلزم أن يعتقد العالم أنه
إن فُضِّلَ على كثير فقد فضل عليه كثير أيضاً ، وما أحسن قول عمر رضى الله عنه : كل الناس ألقه من عمر .

سَخَّرَ اللَّهُ لِسُلَيْمَانَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — الْجِنَّ وَالطَّيْرَ ، فَكَانَ الْجِنُّ مَكَلِّفِينَ ، وَالطَّيْرُ كَانَتْ مُسَخَّرَةً إِلَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا شَرْعٌ ، وَكَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي كَانَتْ فِي وَقْتِهِ ، حَقَّقَ النَّمْلُ كَانَ سُلَيْمَانُ يَعْرِفُ : طَائِفَهُمْ وَيَنْفِذُ عَلَيْهِمْ حُكْمَهُ .

قوله جل ذكره : « حَقَّقَ إِذَا أَتَوْا عَلَيَّ وَادِيَ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

قيل إن سليمان استحضر أمير النمل الذي قال لقومه : « ادخلوا مساكنكم » وقال له : أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي مَعْصُومٌ ، وَأَنِّي لَنْ أَمْكُنَّ عَسْكَرِي مِنْ أَنْ يَطْشَوْكُمْ ؟ فَأَخْبَرَهُ أَمِيرُ النَّمْلِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنْ يَكُونَ النَّمْلُ عَالِمًا بِمَصْنَعِ سُلَيْمَانَ . وَلَوْ قَالَ : لَعَلَّكُمْ أَيْبَحُ لَكُمْ ذَلِكَ .. لَكَانَ هَذَا أَيْضًا جَائِزًا .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان : إِنِّي أَهْلُ قَوْمٍ عَلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَخَشِيتُ أَنْ يَرَوْكُمْ فِي مُلْكِكُمْ أَنْ يَرْغَبُوا فِيهَا ^(١) ، فَأَمَرْتُهُمْ بِدُخُولِ مَسَاكِنِهِمْ لئَلَّا يَتَشَوَّشَ عَلَيْهِمْ زُهْدُهُمْ . وَلَئِنْ صَحَّ هَذَا فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ سِيَاسَةِ الْكِبَارِ لِمَنْ هُوَ فِي رِعْيَتِهِمْ . وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حَسَنِ الْإِحْتِرَازِ بِمَا يُخْشَى وَقَوْعُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ عَادَةُ النَّفْسِ وَمَا فَطُرُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّمْيِيزِ .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان : مَا الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ الْكِرَامَةِ ؟ .

فقال : سَخَّرَ لِي الرِّيحَ .

فقال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِشَارَةَ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِكَ مِمَّا أُعْطِيَ إِلَّا الرِّيحُ ؟ ^(٢) .

وهكذا يَنْبَغِي الْكَبِيرُ عَلَى لِمَانِ الصَّغِيرِ .

قوله جل ذكره : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا » .

(١) التفسير في (فيها) يعود على الدنيا .

(٢) أي أنه عطاء زائل لا مكث له ولا قرار .

التبسم من الملوك يندرج اراعاتهم حكم السياسة ، وذلك يدل على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسم ، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حسن سياسته لرعيته .

وفي القصة أنه استعرض جندَه ليراهم كم هم ، فعرضهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شهرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِراً فلم يفتهموا ، ومرَّ سليمان عليه السلام .

وفي القصة : أن عظيم النمل كان مثل البغل في عِظَم الجثثه ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جل ذكره : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ » .

في ذلك دليلٌ على أن نظره إليهم كان نظراً اعتبارياً ، وأنه رأى تعريف الله إياه ذلك ، وتنبهه عليه من جملة نِعَمِهِ التي يجب عليها الشكر .

وفي قوله : « وعلى والدي » دليلٌ على أن شكر الشاكر لله لا يختص بما أنعم به عليه

على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ما خصَّه وعمَّ من نِعَمِهِ .

قوله جل ذكره : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ

الصالحين » .

سأل حسن العاقبة ؛ لأنَّ الصالح من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة .

قوله جل ذكره : « وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ قَالِ مَا لِي لَا أَرَى

الهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » .

تطلبه فلما لم يره تعرّف ما سبب تأخره وغيبته .

وذلك ذلك على تيقظ سليمان في مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ، حيث

لم تخف عليه غيبة طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعة واحدة . . وهذا أحسن ما قيل .

ثم تهدده إن لم يكن له عذرٌ بعذاب شديد ، وذلك يدل على كمال سياسته وعدله

في مملكته .

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن المدهد يعرف أعماق الماء بإلهامٍ خُصَّ به ، وأن سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء ، فطلب المدهد ليهديهم إلى مواضع الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن في المدهد كثرة . وغيبة واحدٍ منها لا يحصل منها خللٌ — اللهم إلا إن كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء .. والله أعلم .

وروى أن ابن عباس سئل عن ذلك ، وأنه قيل له : إن كان المدهد يرى الماء تحت التراب ويعرفه فكيف لا يرى الفتح مخفياً تحت التراب ؟

قال : إذا جاء القضاء نعى البصر .

ويقال : إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَّةً ، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها ، فوق شعاع الشمس على الأرض ، فنظر سليمان فرأى موضع المدهد خالياً منه ، فعرف بذلك غيبته .. وهذا أيضاً ممكن ، وبدل على كمال تقديره ، وكال تيقظه — كما ذكرنا .

قوله جل ذكره : «لَأَعَذِّبَنَّ عَذَاباً شديداً أو لَأَذِيبَنَّه أو لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ» .

في هذه الآية دليل على مقدار الجرم ، وأنه لا عبرة بصغر الجنة وعظمتها . وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف ، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شرعٌ ، وأن لهم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعرف ذلك على وجه القطع .

وتعيين^(١) ذلك العذاب الشديد غير ممكن قطعاً ، إلا تجويزاً واحتمالاً .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كل ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجدَ في شيء ثقلٌ فهو مُتَّبَعٌ .

وقد قيل هو نتف ريشه وإلقاؤه في الشمس .

(١) وانصح هنا طريقة منافذة المسمى التي لم يرد به النقل . وكيف يعطى الثقل أهمية وتقديراً ، فإذا لم يكن ثقل فأنه لا التجويز لا القطع .

ووانصح كذلك منى استدلوا بهذا الموضع في توجيه كلامه للمريد والطلاب بطريق غير مباشر .

وقيل يُفَرِّقُ بينه وبين أليفه .

وقيل يَشْتَت عليه وقته .

وقيل يُلْزِمُه خدمة أقرانه .

والأولى في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، وألا يُقَطَعَ بشيء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنْ العذاب الشديد أن يُمنَحَ حلاوة الخدمة فيجد ألمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأنه ويوَكَّلَ إلى حَوَلِهِ ونَفْسِهِ ، ومن ذلك أن يُتَّعَنَ بالحِرْصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع في اسم المنزلة لا يرتفع^(١) . ومن ذلك سَلْبُ القناعة ، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري . ومن ذلك توهم الحدثن وحسبان شيء من الخلق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأخيصة من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق ، والتهاس الحق في صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات بده . ومنه الفقر في القرية .

قوله جل ذكره : « فَسَكَّتْ غَيْرَ بَعِيدٍ قَالَ أَحَطْتُ

بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بَنِيَّ يَقِينٍ »

فلم يلبث المدهد أن جاء ، وعلم أن سليمان قد تهذده ، فقال : أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ ، « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَقِينٍ » .

ثم ذكر حديث بلقيس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المال والملك والسرير العظيم

(١) عاد القشيري إلى الآية نفسها في رسالته حيث يقول : وقيل في قوله تعالى : لأعذبه عذاباً شديداً - يعني لأسلبه القناعة ولأبتليته بالطمع يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك (الرسالة - ص ٨٢) .

ما عَدَّه ، فلم يتغير سليمان — عليه السلام — لذلك ، ولم يستفزّه الطمع فيما سمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلْكٍ غيرهم ، فلما قال :

« وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَزَيَّنَّ لِمِ الشَّيْطَانِ أَعْمَالَهُمْ فَعَدَدْتُهُمْ مِنَ السَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ »

فبعد ذلك غاظَ هذا سليمان ، وَغَضِبَ فِي اللَّهِ ، وَ :

« قَالَ سَتَحْنُظُرُ أَمْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ »

وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلمَ فيجب التوقف فيه على حدِّ التجويز ، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَحُ بل يجب أن يُتَعَرَّفَ : هل هو صدق أم كذب ؟^(١)

ولمَّا عَرَفَ سليمانُ هذا العُدْرَ تَرَكَ عِقُوبَتَهُ وَمَا تَوَعَّدَهُ بِهِ .. وَكَذَلِكَ سَبِيلُ الْوَالِي ؛
فإنَّ عَدْلَهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الْحَيْفِ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ فِي صُورَةِ الْجُرْمِ إِذَا
صَدَّقَ فِي اعْتِنَاؤِهِ .

قوله جل ذكره : « اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلِّقْهُ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ » ماذا يَرْتَجِعُونَ ؟

في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كلَّ كلمة ، فإنه يجرُّ
العناء بذلك إلى نفسه ؛ وقد كان لسليمان من الخدم والخشَمِ وَمَنْ يَأْتُرُ بِأَمْرِهِ الْكَثِيرُ ،
ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا المهدد لأنه هو الذي قال ما قال ، فلزمه
الخروج من عهده ما قال .

ويقال لنا صَدْرَ فَمَا أَخْبَرَ لِمَا كَرِهَ عُوضَ عَلَيْهِ فَأَهْلَ السَّفَارَةِ وَالرَّسَالَةِ — على
ضعف صورته^(٢) .

(١) يضاف هذا الرأي في أخبار الأحاد إلى مذهب القشيري في المسائل الحديثية والفقهية .

(٢) هنا إشارة بعيدة إلى الرسل والأولياء ، وحض لما يقال عنهم من التهم .

ففى المدهد ، وألقى الكتاب إليها كما أمر ، واستحى إلى جانب ينتظر ماذا يفعلون
وبماذا يجاب .

قوله جل ذكره : « قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب
كريم * إنه من سليمان وإنه
بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تملأوا
علي وآتوني مسلمين » .

« كتاب كريم » الكرم نسي الدناءة ، وقيل لأنه كان مختوماً^(١) ، وقيل لأن الرسول
كان طيراً ؛ فعلمت أن من تكون الطير مسخرة له لا بد أنه عظيم الشأن . وقيل :
لأنه كان مصدراً بيسم الله الرحمن الرحيم . وقيل لأنه كتب فيه اسم نفسه أولاً ولم يقل :
إنه من سليمان إلى فلانة . ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في الملك بل كان دعاء
إلى الله : « ألا تملأوا علي وآتوني مسلمين » .

ويقال أخذ الكتاب بجميع قلبها ، وقهرها ؛ فلم يكن لها جواب ، قالت : « إني ألقى
إلى كتاب كريم » فلما عرفت قدر الكتاب وصلت باحترامها إلى بقاء ملكها ، ورزقت
الإسلام وصحبة سليمان .

ويقال إذا كان الكتاب كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريم من الصلاة مالا يتجرّد
عن التسمية ، وإذا تجرّدت كان الأمر فيها بالعكس .

قوله جل ذكره : « قالت يا أيها الملأ أفنوني في أمرى
ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون^(٢) » .

(١) يقال إنه طبعه بالمسك وختمه بخاتمه . قال صلى الله عليه وسلم : « كرم الكتاب ختمه » وقيل من كتب
إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به .

(٢) (حتى تشهدون) بكسر النون ، أما الفتح فلحن ؛ لأن النون إنما تفتح في موضع الرفع وهذا في موضع
النصب لأن ما سبق « حتى » أسلوب ملأى ، فالفعل ينصب بعدها بأن مضمرة . وأصله « تشهدوننى » فحذفت النون الأولى
لنصب ، والياء لدلالة الكسرة .

أَخَذَتْ فِي الْمَشَاوِرَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ فِي الْأُمُورِ الْعَظَامِ ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ ^(١) لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
مُسْتَبْدَأً بِرَأْيِهِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْبَعْدِ .

قوله جل ذكره : « قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولَا بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟ » .
أَجَابُوا عَلَى شَرْطِ الْأَدَبِ ، وَقَالُوا : لَسْنَا مِنْكُمْ إِلَّا بَدَلُ الْوَسْعِ ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِيظَاهَارُ
النَّصِيحِ ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا مُتَابَعَةُ الْأَمْرِ — وَتَمْشِيَةُ الْأَمْرِ وَإِمَاضَاؤُهُ .. إِلَيْكِ .

قوله جل ذكره : « قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » .

وَيَقَالُ إِنَّ : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » مِنْ قَوْلِهَا .

وَيَقَالُ : تَفْسِيرُ الْمُلُوكِ ^(٢) إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً — عَنْ صَفَتِهَا — مَعْلُومٌ ، ثُمَّ يُنْظَرُ .. فَإِنْ كَانَ
الْبَاطِلُ حَادِلًا أَزَالَ سُنَّةَ الْجَوْرِ ، وَأَثَبَتْ سُنَّةَ الْعَدْلِ ، وَإِنْ كَانَ الدَّاحِلُ جَانِبًا أَزَالَ
الْحَسَنَ وَأَثَبَتْ الْبَاطِلَ . هَذَا مَعْلُومٌ ؛ فَإِنَّ خَرَابَ الْبِلَادِ بِوَلَاةِ السُّوءِ ، حَيْثُ يَسْتَوْلِي أَسَافِلُ
النَّاسِ وَأَسْقَاطُهُمْ عَلَى الْأَعِزَّةِ مِنْهُمْ ، وَكَأَقِيلٍ :

يَا دَوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْعَالِي شَيْئٌ
زُولِي فَمَا أَنْتِ إِلَّا عَلَى الْكِرَامِ بَلْسِيَّةٌ

وعِمَارَةُ الدُّنْيَا بِوَلَاةِ الرُّشْدِ ، يَكْسِرُونَ رِقَابَ الْفَاقَةِ ، وَيُخَلِّصُونَ الْكِرَامَ مِنْ أَسْرِ
السُّفْلَةِ ، (وَيَأْخُذُ الْقَوْسَ بِأَرْيَافِهَا) ^(٣) ، وَتَطْلُعُ شَمْسُ الْعَدْلِ مِنْ بَرَجِ شَرَفِهَا .. كَذَلِكَ لِلْعَرَفَةِ

(١) نَعْلَمُ مِنْ سِيرَةِ الْقَشِيرِيِّ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِ السُّلْطَانَةِ فِي مَوْطِنِهِ خِلَافَاتٌ فِي الرَّأْيِ ، فَهِيَ هُنَا يَفْهَمُ
بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مَسَاحِبُ السُّلْطَانِ مِنْ آدَابٍ ، سَوَاءٌ فِي اخْتِيَارِ أَعْوَانِهِ ، أَوْ فِي قَبُولِ النَّصِيحِ وَالشُّورَى .

(٢) كَأَنَّمَا الْقَشِيرِيُّ يَنْفُسُ عَنْ نَفْسِهِ مَا قَاسَاهُ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ طَنْرَلٍ وَوَزِيرِهِ الْكَتَنْدَرِيِّ وَكَأَنَّمَا يَمْجِدُ مَا نَالَهُ
مِنَ الْخَيْرِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ . وَوَزِيرُهُ الْعَظِيمُ نَقَاطُ الْمَلِكِ (انْظُرْ مَدْخَلَ هَذَا الْكِتَابِ : الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ)

(٣) هَكَذَا فِي مَوْصُوفِيٍّ مِنْ (فَتَاخَةُ النُّفُوسِ بِأَرْيَافِهَا) .

والخصال الحمودة إذا باشرت قلب عبده أخرجت عنه الشهوات والعنى ، وسفاسف الأخلاق من الحقد والحسد والشح وصفر الهمة .. وغير ذلك من الأوصاف القمعية وتثبت بدلا من الأحوال العلية والأوصاف المرصنة ما به نظام العبد وتنام سعادته . ومتى استولت على قلب غاغة النفس والخصال المذمومة أزالته عنه عمارته ، وأبطلت نضارته ، فتخرب أوطان الحقائق ، وتتداعى مساكن الأوصاف الحميدة للأفول ، وعند ذلك ، يعظم البلاء وتراكم المحن .

قوله جل ذكره : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » .

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا ، ومن جملتها لبنة مصنوعة من الفضة وأخرى من الذهب . وأن الله أخبر سليمان بذلك ، وأوحى إليه في معناه . وأمر سليمان الشياطين حتى بنوا بساحة منزله ميدانا ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللبن المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأمره بأن توقف الدواب على ذلك وألا تنفث آثارها من روث وغيره ، وأن يترك موضعان للبعثتين خاليين في ممر الدخول . وأقبل رؤسها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلما رأوا الأمر ، ووقعت أبصارهم على طريقهم ، صغروا في أعينهم ما كان معهم ، وخجلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة .. كيف يتخلصون مما معهم ؟ فلما رأوا موضع اللبنتين فارغا ظنوا أن ذلك سرق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا هذا نسبنا إلى أننا سرقناها من هذا الموضع ، فطرحاها في الموضع الخالي ، ودخلا على سليمان :

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّوْنَ بِمَالِ مَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ » .

أتهدونى مالا ؟ ! وهل مثلى يستمال بمثل هذه الأفعال ؟ إنكم وأمثالكم تاملون بمثل ما عوملتم^(١) ! أرجع إليهم : —

(١) أي أنتم قوم لاتعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فذلك تفرحون بما تزدادون وبما يهدى إليكم ؛ لأن ذلك يبلغ همتكم — وحالك خلاف حالكم ، فأنا — بما آتاني الله — غني عن حظوظ الدنيا .

« ارجع إليهم قلنا تينهم يحنود لا قبل
لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم
صاغرون » .

فلما رجعوا إلى بلقيس ، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وجة لها سوى
الاستسلام والطاعة ، فعزمت على السير إلى خدمته ، وأوحى الله إلى سليمان بذلك ، وأنها
خرجت مستسلية ، قال : أياكم يأتيني بعرشها ؟ .

قوله جل ذكره : « قال يأيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل
أن يأتوني مسلمين » * قال عفریت من
الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم
من مقامك وإني عليه لقوي أمين » .

بسط الله — سبحانه — ملك سليمان م وكان في ملكه الجن والإنس والشیاطین ؛ الجن
على جهة التسخير ، والإنس على حكم الطوع ، والشیاطین وكانوا على أقسام .
ولما قال : « أياكم يأتيني بعرشها ؟ » قال عفریت من الجن — وكان أقوام — « أنا آتيتك به
قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين » ، فلم يرغب سليمان في قوله لأنه سبى القول
فيه على دعوى قوته^(١) .

قوله جل ذكره : « قال الذي عنده علم من الكتاب
أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك
فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من
فضل ربى ليبلونى أشكر أم أکفر
ومن شكر فإنا نكفر لنفسي ومن
کفر فإن ربى غنى کریم » .

(٢) هذه مفسرة ملائكية تعتمد على العوز من قوله تعالى "الذين آمنوا وطمعوا فلهم ما يجمعون" .

« الذي عنده علم من الكتاب » (قيل هو آصف)^(١) وكان صاحب كرامة . وكراماتُ الأولياء مُلتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصدِّقه ويكون من جملة أمته .

ومعلوم أنه لا يكون في وَسْعِ البَشَرِ الإيمانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقطعُ المسافة البعيدة في لحظة لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين : إما بأن يُقدِّم^(٢) الله المسافة بين (العرش وبين منزل سليمان)^(٣) ، وإما بأن يقدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان . وأى واحدٍ من القسمين كان — لم يكن إلا من قِبَلِ الله ، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله — سبحانه — واستجاب له في ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبتته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه .

ولمَّا رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله — سبحانه — والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِهِ ، والاستحياء ، والتواضع له ، وقال : « هذا من فضل ربي » : لا باستحقاقٍ مني ، ولا باستطاعةٍ من غيري ، بل أحد النعمة لربِّي حيث جعل في قومي ومن أمتي مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقةُ الشكرِ — على لسان العلماء — الاعترافُ بنعمة المُنِيعِ على جهة الخضوع والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناء على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل في هذا شكرُ الله للعبد لأنه ثنَّاهُ على العبد بِذِكْرِ إحسان العبد ، وشكرُ العبدِ ثنَّاهُ على الله بِذِكْرِ إحسانه .. إلا أنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامه ، وإحسانُ العبد طاعته وخدمته لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرَفُ النعمة في وجه الخدمة .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص

(٢) في م (يعدم) بالعين ، وإعدام المسافة أى جعلها في حكم العدم مقبول في المعنى ، وينسجم مع جعل العرش في حكم العدم وإعادة خلقه من جديد .. وكذلك تقديم المسافة (بالتأنيف) مقبول حتى يصبح ثقله من مكان إلى مكان قريب ميسوراً ، فالإعدام أو التقديم كلاهما مقبول لأن القدرة الإلهية تشملهما .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (بين القرينين) أى قرية سليمان وقرية بلقيس .

ويقال الشكر ألا تستعينَ بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهودُ النعم من غير ما كثر إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم^(١) » ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد ، غير متعرض لمنال العوض .

ويقال حقيقةُ الشكر قيد النعم وارتباطها ؛ لأنَّ بالشكر بقاءها ودوامها .

قوله اجل ذكره : « قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون » .

أراد سليمان أن يمتحنها وأن يختبر عقلها ، فأمر بتغيير عرشها ، فلما رآته : —
« قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو »

فاستدلَّ بذلك على كمال عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للمادة ، فصار لها آية وعلامة على صحة نبوة سليمان — عليه السلام — وأسكت : —

« وصَدَّهَا ما كانت تعبد من دونِ اللَّهِ إِنْهَا كانت من قومٍ كافرين » قيل لها ادخلي الصَّرحَ فلما رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ نُبَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قال إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قالت رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأُسَلِّتُ مَعَ سُلَيْمَانَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها . قد أمرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبةً

(١) آية ٧ سورة ابراهيم .

طبق كبير صافٍ مضيء ، ووضعه فوق بركة بها ماء كثير عميق ، يرى الماء من أسفل الزجاج ولا يميز بين الزجاج والماء ، وأمرت أن تخوض تلك البركة ، فكشفت عن ساقها ؛ لأنها وصفت لسلیمان بأنها جنية النسب ، وأن رجليها كخوافر الدواب ، فتقولا عليها . ولما توهمت أنها تخوض الماء كشفت عن ساقها ، فرأى سلیمان رجليها صحيحين . وقيل لها : « إنه صرح ثمود من قوارير » : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليفنيها . وآمنت وتزوج بها سلیمان عليه السلام .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخام صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون »

ذكر قصة ثمود ، وقصة نبيهم صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزة ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية . . إلى قوله :

« ومكروا مَكْرًا وَمَكْرُنا مَكْرًا وهم لا يشعرون »

ومَكْرُهُم ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح ، وعقرهم الناقة خفية ، وتوريت الذنب على غير جارمه^(١) ، والتبري من اختيارهم ذلك .

وأما مَكْرُ الله فهو جزاؤهم على مَكْرِهِم باخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم ، ثم إحلالها بهم بغتة . فالمَكْرُ من الله تخليته إياهم مع مَكْرِهِم بحيث لا يعصمهم ، وتزيين ذلك في أعينهم ، وتحبيب ذلك إليهم . . ولو شاء لعصمهم . ومن أليم مَكْرِهِ انتشار الصيت بالصلاح ، والعمل في الشر بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفي الآخرة لا يجوز في سوقها هذا النقْدُ^(٢) .

(١) أي إلغاء الجرم على غير من اقترف الجرم .

(٢) جميل من التشيرى تعبيره عن أسلوب (التعامل) بين الخلق والخلق مَكْرًا بمكر بلفظة (النقْد) . . وفي لآخرة لا يرى هذا النقد ، فلا يجلد مكرم فتلا لأن التعامل في (سوق) الآخرة يكون على نحو آخر .

قوله جل ذكره : « فانظر كيف كان عاقبة مكرهم
أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » .

أهلكهم ولم ينادر منهم أحداً : —

« فلك يورثهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية
لقوم يعلمون » .

وفي الخبر : « لو كان الظلم يبتأ في الجنة لسلط الله عليه الخراب » ؛ فالنفوس إذا ظلمت
يزلزلها خربت بلحوقها شؤم الذلة حتى يتمود صاحبها الكسل ، ويستوطن مركب الفشل ،
ويحرم التوفيق ، ويتوالى عليه الخذلان وقسوة القلب وجحود العين^(١) وانتفاء تعظيم الشريعة
من القلب . وأصحاب القلوب إذا ظلموها بالقفلة ولم يحاولوا طردها عن قلوبهم .. خربت
قلوبهم حتى تقسو بعد الرأفة ، وتبف بعد الصفوة .

غراب النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة ، وخراب القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة ،
وخراب الأرواح باستيلاء الحجة والوقفة ، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة »

وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون
الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم
قوم تجهلون » .

ذكر قصة لوط وأمه ، وما أصرّوا عليه من الفاحشة ، وما أحلّ الله بهم من العقوبة ،
واحلال العترة بامرأته التي كانت تطابق القوم ، وتخلص الحق لوطاً من بينهم ، وما كان
من أمر الملائكة الذين بعثوا لإهلاكهم .

قوله جل ذكره : « قل الحمد لله وسلام على عباده » .

الذين اصطفى الله خيراً أم ما يشركون .

(١) أي لا تكون مقراً للاعتبار .

(٢) هذه إشارة هامة توضح آفات الطريق في مراحل المختلفة .

هم الذين سَلَّم عليهم في آزاله وهم في كتم العَدَم ، وفي متناول علمه ومتملق قدرته ،
ولم يَكُونُوا أَعْيَانًا في العَدَم ولا أَفَادُوا ^(١) ، فَلَمَّا أَظْهَرَهُمْ في الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام ،
وَيُسَمُّهُمْ في الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك
والشُّبُه ، ومن فنون البِدْع ، ومن وجوه الأَلَم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من
الغيبية والحجبة وما ينافي دوام القربة .

ويقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّم عليهم قبل أن يَخْلُقَهُمْ وأبداهم ، وبعد أن
سَلَّم عليهم بودِّه لِقَائِهِمْ .

ويقال : اصطفاهم بنور اليقين وحُلَّة الوصلِ وكَلِّ المَيش .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
تَنْبِتُوا شَجَرَهَا .. » .

فثمراتُ الظاهرِ غذاءُ النفوس ، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياءُ القلوب ، وكما لا يَبْقَى في
وقت الربيع من وحشة الشتاء بقيَّةٌ فلا يَبْقَى في قلوبهم وأوقاتهم من الغيبة والحجبة والنفرة
والتهمية شَغْطِيَّة .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ
خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي » .

نفوسُ العابدين قَرَارٌ طاعتهم ، وقلوبُ العارفين قَرَارٌ معرفتهم ، وأرواحُ الواجدين قَرَارٌ

(١) ربما يقصد القشيري أنهم - وقد كانوا في كتم العدم - لم تصدر عنهم طاعة تفيدهم في استحقاق إثابة
لهم واستيجاب تسليم عليهم .. والمقصود - إن صح هذا الرأي - أن عمل الإنسان لا قيمة له بجانب الفضل الإلهي
والقصة السابقة .

محبتهم ، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم^(١) ، في أسرارهم أنوار الوصلة وعبود القربة ،
وبها يسكن ظمأ اشتياقهم وهيجان قلبيهم واحتراسهم .

« وجعل لها رواسي » من الخوف والرجاء ، والرغبة والرغبة .

ويقال « جعل لها رواسي » اليقين والتوكل .

ويقال الرواسي في الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد^(٢) ؛ بهم يديم إمساك الأرض ،
ويبركاتهم يدفع عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسي هم الأئمة الذين يهتدون المسترشدين إلى الله .

قوله جل ذكره : « وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع
الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

« جعل بين البحرين حاجزاً » بين القلب والنفس لثلاث يغلب أحدهما صاحبه .

ويقال بين العبودية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غلبت العبودية كانت جحداً
للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقة العبودية كانت طياً للشرية .

ويقال : السنة المريدن متر ذكره ، وأسماعهم محل الإدراك الموصل إلى الفهم ، والعيون
متر الاعتبار .

قوله جل ذكره : « آمن يحيب المضطر إذا دعاه

ويكشف السوء . . » .

فصل بين الإجابة وبين كشف السوء : فالإجابة بالقول والكشف بالطول ، الإجابة
بالكلام والكشف بالإنعام . ودعاه للضطر لا حبساً له ، وكذلك دعاء المظلوم « ولكن
لكل أجل كتاب » .

(١) هكذا في م وهي في من (مساعدتهم) ويبدو أن الهاء التبت على الناسخ ، فالمعروف أن الأسرار محل المشاهدة .
(٢) جاء في خلية الأولياء (٨٠ ص ٢٦٧) حديث عن النبي (ص) : « خيار أمتي في كل قرن خمسمائة
والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل
من الأربعين مكانهم » .

ويرى الجرجاني : أن الأبدال سبعة (التعريفات ص ٣٧ ط مصر سنة ١٩٢٨)

ويرى ابن عساكر : أنهم ٢٢ بالشام + ١٨ بالعراق (تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠ ص ٢٧٨) .

ويرى المجويزي : أن الأوتاد أربعة يطوفون العالم بجملة كل ليلة (كشف المحجوب ص ٢٦٩) .

ويقال للجناية : سراية ؛ فمن كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطراب عند سراية جرمه الذي صكف منه وهو مختار فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطراب سراية ما بدّر منهم في حال اختيارهم .

وما دام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من العجز والحيلة ، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه — فليس بمضطرب ، فالمضطرب يرى نفسه كالفریق في البحر ، أو الضال في المتاهة ، وهو يرى عيانه بيد سيده ، وزمامه في قبضته ، فهو كاليت بين يدي غليظه ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة (١) .

ولا ينبغي للمضطرب أن يستعين بأحد في أن يدعو له ؛ لأن الله وعد الإجابة له .. لا لمن يدعو له .

ثم كما وعد المضطرب الإجابة وكشف السوء وعده بقوله : —

« ... ويمهلكم خُلُفَاءُ الْأَرْضِ إِلَهٌ
مع الله قليلاً ما تذكرون » .

فإن مع العسر يسراً ، ولم يقل : للعسر إزالة ، ولكن قال : مع العسر يسر ؛ فنهائى العسر حاصل بعد ظلام العسر .

ثم قال : « إله مع الله قليلاً ما تذكرون » لأن العبد إذا زال عُسْرُهُ ، وكشف عنه ضُرُّهُ نسي ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كَانَ الْفَقْرُ لَمْ يَعْرِ يَوْمًا إِذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صَعُوكًا إِذَا مَا تَمَوَّلَا

(١) إذا اطمأن العبد لنفسه ، ولاحظ عمله ففقه عنصر هاماً من عناصر السير في هذا الطريق ، وهو الإخلاص .. وفي ذلك يقول أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص انتاج إخلاصهم إلى إخلاص . ويرى أبو عثمان المغربي : أن إخلاص الخواص : هو ما يجرى عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمنزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »
 إذا أظلم الوقتُ على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ
 بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على
 بعضٍ بشواهد العقل .. فمن الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير ، وللاستسلام لحكم
 التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوِّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتقويض الأمر إلى
 اختيار الحق ، والاستسلام لما جرت به الأقسام ، وسبقت به الأقدار ؟ .

« .. وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ
 يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ » .

مَنْ الذي يُرْسِلُ رِيحَ فَضْلِهِ بَيْنَ يَدَيْ أنوار اختياره فيمحو آثارَ اختيارِ نَفْسِكَ ،
 ويمجِّلَ بِحُسْنِ الكفاية لك ؟ .

ويقال : يرسل رِيحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأضرار التدبير ، ثم يُطْلِعُ
 شمسَ الرضا فيحصلُ بَرْدُ الكفاية فوق المأمول في حال سكينه القلب .. أَلَا اللَّهُ مَعَ اللَّهِ ؟
 « تعالى الله عما يشركون » : من إحالة المقادير على الأسباب .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ
 يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَا اللَّهُ مَعَ
 اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ » .

يُظْهِرُ ما يُظْهِرُ بِقُدْرَتِهِ على مقتضى سابق حُكْمِهِ ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحق فيه
 قوله ، وسبَّقَ به قضاؤه وقدره . فإذا زال وانتفى وانعدم بعض ما يظهر ويخصص .. فمن الذي
 يعيده مثلما بدأه ؟ ومن الذي يضيِّق الرزقَ ويوسِّعه ؟ ومن الذي يقبض في بعض الأوقات على

بعض الأشخاص ؟ وفي وقت آخر من الذي يسط على قوم آخرين ؟ .

هل في قدرة أحد غير الله ذلك ؟ .

إن توهمتم شيئاً من ذلك فأوضحوا عنه حُجَّتكم . وإذا قد عجزتم .. فهلاً صدقتم ؟
وبالتوحيد أقررتم ؟ .

قوله جل ذكره : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ » .

« الغيب » : ما لا يَطْلُغُ عليه أحدٌ ، وليس عليه للخلق دليل ، وهو الذي يستأثر بعله
الحق^(١) ، وعلومُ الخلق عنه متعصرة ، ثم ما يريد الله أن يخلص قوماً بعله أفردهم به .
« وما يشعرون أيان يبعثون » : فإنه أخفى علم الساعة عن كل أحد .

قوله جل ذكره : « بَلْ أَذَارُكُمْ^(٢) عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا سَمُونَ » .
فهم في الجَلَّةِ يَشْكُونَ فيه ؛ فلا ينفقونه ولا يقطع يحدوته .. وهكذا حُكْمُ كل مريضٍ
القلب ، فلا حياة له في الحقيقة ، ولا راحة له من يأسه ؛ إذ هو من البعث في شكٍّ ، ومن الحياة
الثانية في استبعاد : —

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا
وَأَبَاؤُنَا أَتَيْنَا لَمُخْرَجُونَ » لقد وَعِدْنَا
هذا نحن وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (الخلق) وهي خطأ في النسخ إذ الحق هو الذي يستأثر بعله الغيب .
(٢) يرى القرطبي أن القراءة هكذا والقراءة على (بل أدرك) معناها واحد لأن أصل (أذارك) تدارك وأدغمت
الدال في التاء وجيء بألف الوصل (الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ٢٢٦) .

وَعِدَ آبَاؤُنَا بِذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَحْقِيقٌ ، وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ ، وَكَانُوا يُسْأَلُونَ
مَتَى السَّاعَةُ ؟ :

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ؟ » .

قال الحق : إنه عن قريب سيحل بهم ميقاته : —

« قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ ^(١) لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » .

ثم قال جل ذكره :

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » .

لأنهم لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ بَحْتِهِمْ وَمِنْحِهِمْ . وعزَّزَ مَنْ يَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا هُوَ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ
لَهُ وَبَيْنَ مَا هُوَ مُعْنَةٌ ؛ فَإِذَا تَقَاصَرَ عِلْمُ الْعَبْدِ عَمَّا فِيهِ صَلَاحُهُ ، فَحَسَى أَنْ يَحِبَّ شَيْئًا وَيُظَنَّهُ خَيْرًا
وَبَلَاؤُهُ فِيهِ ، وَرُبَّ شَيْءٍ يَظُنُّهُ الْعَبْدُ نِعْمَةً فَيُشْكِرُ عَلَيْهَا وَيُسْتَدِيمُهَا ، وَهِيَ مُعْنَةٌ لَهُ يَحِبُّ الْعَصِيرَ
عَلَيْهَا وَالتَّضَرُّعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَرْفِهَا ؛ وَبِمَعْكَسِ هَذَا كَمَنْ شَيْءٌ يَظُنُّهُ الْإِنْسَانُ بِخِلَافِ مَا هُوَ بِهِ .
قوله جل ذكره : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » .

لَا تَلْتَمِيسُ عَلَى اللَّهِ أَحْوَالُهُمْ ؛ فَصَادِقٌ يَسْتَوِي ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ يَعْلَمُهُ ، وَمُنَافِقٌ يَخَافُ بَاطِنُهُ
ظَاهِرَهُ يُلَبِّسُ عَلَى النَّاسِ حَالَهُ .. وَهُوَ — سَبْحَانَهُ — يَعْلَمُهُ ، وَكَافِرٌ يَسْتَوِي فِي الْجَحْدِ مِيرُهُ
وَعَلَنُهُ يَعْلَمُهُ ، وَهُوَ يَجَازِي كَلًّا عَلَى مَا عَلِمَهُ .. كَيْفَ لَا .. وَهُوَ قَدَّرَهُ ، وَعَلَى مَا عَلَيْهِ
قَضَاءُ وَقَسَمَهُ ؟ :

(١) من أردف أى تبع ، وقال الفراء : ردف لكم أى دنا .

قوله جل ذكره : « وما مِن غائبة في السماء والأرض .

إِلَّا فِي كِتَابٍ مَّبِينٍ » .

ما من شيء إِلَّا مُنْبِتٌ فِي اللّوْحِ الْمَحْفُوظِ حُكْمُهُ ، ماضية فيه مشيئته ، متعلِّقٌ به عِلْمُهُ

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

وإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

وهم يُخَفُّونَ بعضًا ، وبعضًا يُظْهِرُونَ ، ومع ما يَهْوُونَ يدورون .

وفي هذه الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابهم ، وَعَصَمَ مِنْ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ

ما به يدينون . وهذه نعمة عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدى ورحمة

للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادق أنهم له مُحَرَّفُونَ مُبَدَّلُونَ .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » .

هو « العزيز » المعزُّ للمؤمنين ، « العليم » بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم

والعذاب الأليم .

قوله جل ذكره : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ

الْمُبِينِ » .

أى اجتهد في أداء فَرَضِهِ ، وثيقٌ بصدق وعده في نصره ورزقه ، وكفايته وعونه .

ولا يهولَنَّك ما يجرى على ظواهرهم من أذى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كله بتسليطنا

إِنْ كَانَ مَحْذُورًا ، وبتقيضنا وتسهيلنا إِنْ كَانَ مَحْبُوبًا . وإِنَّكَ لَعَلَى حَقٍّ وَضِيَاءٍ صِدْقٍ ،

وَمَعَى سَنَةِ رَحْمَةِ رَبِّكَ .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ

الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » .

الذين أَمَاتَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِالشَّرْكِ ، وَأَصَمَّهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ — فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهُمْ لِلرُّشْدِ أَوْ تَنْقِذَهُمْ مِنْ أَسْرِ الشُّكِّ .

« وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ
إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ » .

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة ، ولسكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالة إلى العرفان ، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .
أنت لا تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَلَا يَسْمَعُ مِنْكَ إِلَّا مَنْ أَسْعَدَنَاهُ مِنْ حَيْثُ التَّوْفِيقِ
وَالْإِرْشَادِ إِلَى الطَّرِيقِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ
دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » .

إذا حقَّ الوعدُ بإقامة القيامة أوضحنا أشراطها في كلام الدابة المخرجة من الأرض^(١) .
وغير ذلك من الآيات .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ
يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » .

وعند ذلك لا ينفع الإيمان ولا يقبل العذر : —

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو سميت في إيمانها غيراً = زيادة من صحيح مسلم) طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض » . ومن الأقوال في هذه الدابة : أنها فصيلة ناقة صالح ، ومنها أن هذه الدابة تكون إنساناً متكلماً يأسر أهل البدع والكفر ويحادلهم لينتظموها ، ومنها أنها تخرج من جبل الصفا بمكة بعد أن يتصدع ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة للصحابه والتابعين والمفسرين .

«وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فهُمْ
لَا يَنْطِقُونَ» .

ثم كرّر ذكر الليل والنهار واختلافهما : —

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا
فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

أى ليكون الليل وقت سكوتهم ، والنهار وقت طلب معاشهم .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَرْجَمَنَّ
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن
شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » .

أخبر أن اليوم الذى يُنْفَخُ فيه فى الصور هو يوم إزهاق الأرواح ، وإخراجها عن الأجساد ؛
فَمِنْ رُوحٍ تَرَقَّى إِلَى عِلِّيِّينَ ، وَمِنْ رُوحٍ تَذْهَبُ إِلَى سَجِّينَ . أولئك فى حواصل طير تسرح
فى الجنة تأوى بالليل إلى قناديل معلقة من تحت العرش صفتها التسبيح والروح والراحة ،
ولبعضها الشهود والرؤية ... على منادير استحقاقهم لما كانوا عليه فى دنياهم .

وأما أرواح الكفار فى النار تُعَذَّبُ على منادير أجرامهم .

قوله جل ذكره : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْمِلُهَا جَالِدَةٌ وَهِيَ
تَمُوتُ مَرَّةً السَّعْيِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتَمَّنْ
كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

وكثير من الناس اليوم من أصحاب التمكين ، هم ساكنون بنفوسهم^(١) سائمون فى
الملوكوت بأسرارهم .. قيل : إن الإشارة اليوم إليهم . كما قالوا : العارف كائن بائن ؛ كائن مع
الناس بظاهره ، بائن عن جميع الخلق بسرائره .

(١) عُرِفَ الجندُ بسكونه وقلة أسطرابه عند السماع ، فلما شئت فى ذلك تلا : « وترى الجبال تحمِلُها جالدة »

وهى » (اللمع للسراج ص ١٢٨) ..

قوله جل ذكره : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ

مِنْ فَزَعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ » وَمَنْ جَاءَ

بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ

يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ « خَيْرٌ » هَاهُنَا لِلْبَّالَغَةِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِمَّا مِنْهُ مِنَ الْقُرْبِ ؛ وَيَحْتَمِلُ فَلَهُ نَصِيبٌ خَيْرٌ أَوْ عَاقِبَةُ خَيْرٌ أَوْ ثَوَابٌ خَيْرٌ مِنْهَا . وَمَنْ آمِنُونَ مِنْ فَزَعِ الْقِيَامَةِ . وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ : فَكَمَا أَنَّ حَالَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُطِيعِينَ بِالْعَكْسِ فَحُكْمُهُمْ غَدًا فِي الْآخِرَةِ بِالضَّدِّ .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ

الْبَلَدَةِ ... »

أَخْبَرَ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِاللَّذِينَ الْخَنِيْقُ ، وَالتَّبَرُّيِّ مِنَ الشَّرِكِ ؛ الْجَلِيُّ مِنْهُ وَالْخَفِيُّ ، وَبِمِلَازِمَةِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ . وَأَخْبَرَ أَنْ مَنْ اتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ أَوْجَبَ الْحَقُّ ذِمَامَهُ وَحَقَّهُ .

قوله جل ذكره : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ .. »

سِيرِيكُمْ — عَنْ قَرِيبٍ — آيَاتِهِ ، فَطُوبَى لِمَنْ رَجَعَ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، وَالْوَيْلُ عَلَى مَنْ رَجَعَ بَعْدَ ذَهَابِ الْوَقْتِ وَفَوَاتِهِ ! .

سورة القصص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يسر له في دنياه وعقباه ، اسم عزيز من اشتاق إلى لقياه استعذب فيه ما يلقاه من بلواه . ومن طلب غيره مؤنساً في دنياه أو عقباه « ضلَّ مَنْ تدعون إلا إياه » .

قوله جل ذكره : « طسم * تلك آيات الكتاب المبين » .

« الطاء » تشير إلى طهارة نفوس العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار الموحدين عن شهود غير الله . « والسين » تشير إلى سر الله مع العاصين بالنجاة ، ومع المطيعين بالدراجات ، ومع المحبين بدوام النجاة . « واليم » تشير إلى منته على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات .

قوله جل ذكره : « تلا عليك من نبي موسى وفرعون

بالحق قوم يؤمنون » .

سماع قصة الحبيب من الحبيب يُوجب سلوة القلب ، وذهاب الكرب ، وبهجة السر ، وتلج الفؤاد . وقد كرر الحق ذكر قصة موسى تفضيلاً لشأنه وتعظيماً لتدريه ، ثم زيادة في البيان لبلاغة القرآن ، ثم إفاضة لزوائد في المذكور قوله في كل موضع يتكرر فيه .

قوله جل ذكره : « إن فرعونَ عَلَا في الأرضِ وجعلَ

أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبحُ

أبنائهم ويستحي نساءهم إنه كان من

الفسدين » .

تَكْبَرُ فرعونُ بنيرُ حقٍّ فأقامه بحقٍّ ، وَتَجَبَّرَ بنيرُ استعقاقِ فأذله الله باستعقاقِ واستيعابِ ، وجعل أهلها شيعاً يذبحُ أبناءهم^(١) بعدما استضعفهم ، ويستحي نساءهم ، وأفنى منهم من كان (...)^(٢) ، وبالقسادِ حَكَمَ فيهم ، واللهُ لم يَرْضَ بِتَرْكِ إِنْتِلَافِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

نريد أن نَمُنَّ عَلَى الْمُسْتَضَعْفِينَ بِالْخِلَاصِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، بِهِمْ يَهْتَدَى الْخَلْقُ ، وَمِنْهُمْ يَتَعَلَّمُ النَّاسُ سُلُوكَ طَرِيقِ الصَّدَقِ ، وَنُبَارِكُ فِي أَعْمَارِهِمْ ، فَيَصِيرُونَ وَارِثِينَ لِأَعْمَارِ مَنْ يُتَاوِيهِمْ ، وَتَصِيرُ إِلَيْهِمْ مَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ ؛ فَهُمْ هُدَاةٌ وَأَعْلَامٌ ، وَسَادَةٌ وَقَادَةٌ ؛ بِهِمْ يُقْتَدَى وَبُنُورِهِمْ يَهْتَدَى .

« وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » : نُزِيلُ عَنْهُمْ الْخُوفَ ، وَنُرْزِقُهُمُ الْبَسْطَةَ وَالْاِقْتِدَارَ ، وَنَعِدُ لَهُمْ فِي الْأَجْلِ . وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَوْمَهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ زَوَالِ مُلْكِهِمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ ؛ وَأَنَّ الْحَقَّ يُعْطَى — وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْخَلْقِ أَنَّهُ يُبْطَلُ .

قوله جل ذكره : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

(١) كَانَ سَبَبُ سُلُوكِهِ هَذَا السَّبِيلَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ الْكَهَنَةَ قَالُوا لَهُ إِنَّ مَوْلِدَهُ يُولَدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَذْهَبُ مُلْكُكَ عَلَى يَدَيْهِ ، أَوْ قَالَ لَهُ الْمُنْجِسُونَ ذَلِكَ ، أَوْ رَأَى رُؤْيَا فَهَبَتْ كَذَلِكَ . قَالَ الزَّجَّاجُ : الْعَجَبُ مِنْ حَقِيقَةِ لَمْ يَدْرِ أَنَّ الْكَاهِنَ إِنْ صَدَقَ فَالْقَتْلُ لَا يَنْفَعُ ، وَإِنْ كَذَبَ فَلَا مَعْنَى لِلْقَتْلِ .
(٢) مُشْتَبِهَةٌ .

أى ألقينا فى قلبها ، وأوحينا إليها وحى إلهام ، فأنفذت خاطرهما فى ذلك ، وجرى منها ذلك وهى مختارة باختيار أدخل عليها .

لما وضعت أم موسى موسى كانت تخاف قتله ، فإن فرعون قتل فى ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبنى إسرائيل ، رجاء أن يقتل مَنْ رأى فى النوم ما عُبر له أن ذهاب مُلكه على يدى إسرائيل .. فأتى الله فى قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنه رباه فى حجره ذلك اليوم — لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَهْلَارَ لَا تُغَالَبُ .

جعلت أم موسى موسى فى تابوت ، وألقت فى نيل مصر ، فجاء المساء به إلى بركة كان فرعونُ جالساً على حافتها ، فأخذوه وحملوه إليه ، وفتحوا رأس التابوت . فلما رآه فرعون أخذت رؤيته بمجامع قلبه ، وكذلك تمسَّك حُبُّه من قلب امرأة فرعون ؛ قال تعالى : « وَأَلْقَيْتْ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِي » : ^(١) حيث خلق الله ملاحظة فى عيني موسى ؛ فكان من يقع عليه بصره لا يتألك من حبه .

قوله جل ذكره : « فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ » .

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأة فرعون :

« قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

فلم يكن لها ولد ، وهم لا يشعرون إلى ماذا يشول أمره .

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

(١) آية ٣٩ سورة طه .

لَمَّا أَلْقَتْهُ فِي الْمَاءِ سَكَّنَ اللَّهُ قَلْبَهَا ، وَرَبَطَ عَلَيْهِ ، وَأَلْهَمَهَا الصَّبْرَ ، وَأَصْبَحَ نَوَادِمُهَا فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتَبْدَى بِهِ مِنْ حَيْثُ ضَعْفٌ ^(١) الْبَشَرِيَّةِ ، وَلَكِنْ اللَّهُ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا .

قوله جل ذكره : « وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

أَمَرَتْ أُمُّ مُوسَى أَخْتَ أَنْ تَتَّبِعَ أَمْرَهُ ، وَتَنْتَظِرَ إِلَى مَاذَا يَثُولُ أَمْرَهُ ، فَلَمَّا وَجَدُوهُ وَاسْتَمَكْنَ حُبَّهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ طَلَبُوا مَنْ يُرَضِّعُهُ :

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

أَبَى مُوسَى قَبُولَ قَدِيٍّ وَاحِدَةٍ مِنْ عُرُضَ عَلَيْهِنَ .. فَمَنْ بِالْقُدَاةِ كَانُوا فِي اهْتِمَامٍ كَيْفَ يَقْتُلُونَهُ أَمْسُوا — وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ — كَيْفَ يُغْذُّونَهُ ^(٢) !

فَلَمَّا أَعْيَاهُمْ أَمْرُهُ ، قَالَتْ لَمْ أَخْتَهُ : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ؟ » فَتَقَبَّلُوا نَصِيحَتَهَا شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيْهِ ، وَقَالُوا : نَعَمْ ، فَرَدُّوهُ إِلَى أُمِّهِ ^(٣) ، فَلَمَّا وَضَعَتْ ثَدْيَهَا فِي فَمِهِ ارْتَضَعَهَا مُوسَى فَسُرُّوا بِذَلِكَ ، وَكَانُوا يَدْعُونَ أُمَّهُ حَاضِنَةً وَمَرْضِعَةً .. وَلَمْ يُضِرَّهَا ، وَكَانُوا يَقُولُونَ عَنْ فَوْعُونَ : إِنَّهُ أَبَوْهُ .. وَلَمْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ ^(٤) !

(١) مكذا في م ، وقد أخطأ النسخ في م حين أضاف لفظة (الله) بعد (ضعف) .

(٢) مكذا في م ، وفي م (يمدبونه) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٣) مكذا في م ، وفي م (آمره) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٤) يتصدد التفسير إلى شيء بعيد هو أن أحكام الناس ليست بالضرورة سائبة ، وأن للأمور سقاقات وجواهر وبراطن خافية ، وأن أسماء الأشياء وظواهرها لا عبرة بها .

ولما أخذته أمه علمت بتصديق الله ظنّها ، وسكن عن الانزعاج قلبها ، وجرى من قصة فرعون ما جرى .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »
لَمَّا كَمُلَتْ سِنُهُ وَتَمَّ عَقْلُهُ ، واستوى كال خصاله « آتَيْنَاهُ حُكْمًا » : أى أَتَمَمْنَا لَهُ التحصيل ، وَوَقَرْنَا لَهُ العلم ، وبذلك جَرَتْ سُنَّتُنَا مع الأكابر والأنبياء .

قوله جل ذكره : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ » الآية .

قيل : دخل المدينة في وقت المهاجرة ، وتفرّق الناس ، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان : أحدهما إسرائيل من شيعة موسى وعلى دينه ، والآخر قبطي مغالف لهما ، فاستفث الإسرائيلي بموسى على القبطي ، فوكّزه موسى ليدفعه عن الإسرائيلي ، فمات الرجل بذلك الوكّز ، ولم يكن موسى يقصد قتله ، فقال موسى : —

« هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ » .

قد تميّ موسى أن لو دفعه عنه بأيسر مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان^(١) ، ولكن دفعه عنه بالنظرة نَسَبَهُ إلى الشيطان بأن حمّله على تلك الحدة .

وهكذا .. إذا أراد الله أمراً أجرى أسباباً ليحصل بها مراده ، ولولا أنه أراد فتنة موسى لما قبض روح الرجل بمثل تلك الوكزة ، قد يضرب الرجل الكثير من الضرب والسياط ثم لا يموت ؛ فموت القبطي بوكزة اجراء لما قضاه وأراد .

(١) يتصل ذلك برأى التشييعي : أن الشيطان ليس بيده شيء ؛ لأنه لو كان بيده شيء لأمسك كل الهداية نفسه ، وكل عمل الشيطان أنه يرسوس في صدور الناس .

قوله جل ذكره : « قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي

ففقر له إنه هو الغفور الرحيم » .

تاب موسى عما جرى على يده ، واستغفر ربّه ، وأخبر الله أنه غفر له ، ولا عتاب^(١)

بعد المغفرة .

قوله جل ذكره : « قال ربّ بما أنعمت عليّ قلنّ

أكون ظهيراً للمجرمين » .

قال موسى ربّ بما أنعمت عليّ من توفيقك لي بالتوبة^(٢) قلنّ أعودُ بعد ذلك إلى مثل

ما سلف مني .

قوله جل ذكره : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقبُ فإذا

الذي استنصره بالأمس يستصرخه

قال له موسى إنك لغويّ مبين *

قلنا أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوّه

لما قال يا موسى أتريد أن تقتلني

كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن

تكون جباراً في الأرض وما تريدُ

أن تكون من المصلحين » .

أصبح في المدينة خائفاً على نفسه من فرعون لأنه كان يدّعي أنه يحكم بالعدل ، وخاف

موسى أن ينسبه في قتل القبطي إلى العمد والقصد . فهو « يترقب » علم فرعون وأن يُخبر

بذلك في وقته .

(١) هكذا في النسختين ولا نستبعد أن تكون (مقاب) بالقاف فالسياق يحتملها أيضاً وإن كانت (مقاب)

أليق بمقام النبوة .

(٢) حقيقة التوبة أن يتوب الله عليك أولاً ، ويحوّله لك أسباب التوفيق لذلك ، فإذا شكرت فاشكر له ، فمعك

لا يكن ولا ينفي عن فضل الله .

وقيل « خائفاً » من الله مما جرى منه . ويقال « خائفاً » على قومه حلول العذاب بهم .
وقيل « يترقب » نصرة الله إياه . ويقال « يترقب » مؤنساً يأنس به .

فإذا الذي استنصره بالأمس يخاصم إنساناً آخر ، ويستعين به ليُعينه ، فهم موسى بأن
يعين صاحبه ، فقال الذي يخاصمه : « يا موسى ، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس ؟ » :
قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، ولكن لما قصد منه عن
صاحبه استدلالاً على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه
الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل .

قوله جل ذكره : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى

قال يا موسى إن لللاء يأتيمرون بك

ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين »

جاء اسرائيلي من معارف موسى يسمى ، وقال إن القوم يريدون قتلك ، وأنا واقف على

تدبيرهم ؛ وقد أرادوا إعلام فرعون .. فاخرج من هذا البلد ، إني لك من الناصحين .

« نخرج منها خائفاً يترقب » قال رب

نجني من القوم الظالمين » .

خرج^(١) من مصر « خائفاً » أن يقتلوا أثره ، « يترقب » أن يدركه الطلب ، وقيل

« يترقب » الكفاية والنصرة من الله ، ودعا الله فقال : « نجني من القوم الظالمين » .

قوله جل ذكره « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي

أن يهديني سواء السبيل » .

(١) ربما يذكرنا موقف موسى بقضية هامة في الطريق الصوفي هي « السفر » : وضرورته أو عدمها ،
وقد اختلف المشايخ في أمره (الرسالة ص ١٤٣) ، ويرى القشيري ضرورة السفر . إن نبا المكان واشتد البلاء .
(الرسالة ص ٢٠٢) وهو نفسه غادر بلاده عند إطباق الهمة عليه .

توجه بنفسه تلقاء مدين من غير قصد إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح^(١) ،
وتوجه بقلبه إلى ربه ينتظر أن يهديه ربه إلى النحر الذي هو خير له ، فقال : عسى ربي
أن يهديني إلى أرشد سبيل لي .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا وَرَدَ ماء مدين وَجَدَ عَلَيْهِ
أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ
دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ
الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » .

لما وافى مدين شعيب كان وقت الهجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون الماء
في الحياض ، ويستقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيب النبي عليه السلام قد كَفَّ بَصَرَهُ لكثرة بكائه ؛ ففي القصة أنه بكى فذهب
بَصَرُهُ ، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَهُ فبكى ، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُهُ ، فأوحى الله إليه :
لَمْ تَبْكِي يَا شُعَيْبُ .. ؟ إِنْ كَانَ بَكَؤُكَ يُلَوِّفُ النَّارَ قَدْ أُمْنَتُكَ ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْجَنَّةِ قَدْ
أُتْمَتَهَا لَكَ .

قال : رب .. إنما أبكى شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أَخْدَمْتُكَ نَبِيٍّ وَكَلِيمٍ
عَشْرَ حَجَجٍ .

وكانت لشعيب أغنام ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت بِلْتَاهُ تسوقان الغنم مكان الرعاة ،
ولم يكن لها قدرة^(٢) على استقاء الماء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انْقَضَوْا^(٣) فإن
بَقِيَّتْ في الحوض بَقِيَّةٌ من الماء استقت بنات شعيب .

(١) وهكذا سفر الأكابر .

(٢) هكذا في م وهو في م (قوة) .

(٣) من الجائز أن تكون في الأصل (انقضوا) بالفاء فالسياق يحتملها بدليل قوله فيما بعد (فلما انصرف الرعاة)

فلما وافى موسى ذلك اليوم وشاهد ذلك ورآهما يمتعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبه لهما وقال :
ما خطبكما ؟ فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير .
فلما انصرف الرعاء سَقَى لهما ، ثم تَوَلَّى إلى ظِلِّ جدارٍ بعد ذلك . كان الجوع قد أصابه
خلال سفره ، ولم يكن قد تمودَّ قط الرحلة والغربة ، ولم يكن معه مالٌ ، فدعا الله :

« قال ربِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » .

قيل طَلَبَ قُوَّةَ تَزِيلِ جُوعِهِ ، وقيل طَلَبَ حَالًا يَسْتَقِلُّ بِهَا . والأحسن أن يقال جاع
فَطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ — والعرفة توجب سؤال ما تحتاج إليه من الله قليلاً
أو كثيراً^(١) . فلما انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهِرِ الصَّعْرَاءِ على طريقِ الماشية
ليَمْسَها بيديه فوجدَ أثرَ الزيادة في تلك الكُرَّةِ ، فسألَهما فذكَّرتا له القصة ، وما سمعتا منه حين
قال : « ربِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » ، فقال شعيب : إذا هو جائع . وبعثَ
إحداهما لتدعوهُ : —

« بِنَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرٌ
مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ
الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »

قيل إنما استحييت لأنها كانت تخاطبُ مَنْ لم يكن لها محَرَّمًا^(٢) .
وقيل لما دَعَتْهُ للضيافة تكلمت مستحيَةً — فالكریم يستحي من الضيافة .
ويقال لم تطيب نفسُ شعيب لما أَحْسَنَ موسى إليه وأنه^(٣) لم يكافئه — وإن كان موسى

(١) لاحظ كيف طبق القشيري (أدب الزال) ومتى يجب ؟ وكيف يجب ؟ على موقف موسى النريب المسافر
الجالع المحتب ، وهذه الإشارة موجهة من بين إلى أرباب الطريق .
(٢) المحرم من الرجال والنساء للنبي يحرم التزوج به لرحمه وقربته .
(٣) الضمير في (وأنه) يعود على شعيب كما هو واضح من الآ . هـ .

لم يُرَدِّ مكافأةً منهم « فلما جاءه وقصَّ عليه القصص » : لم يَقُلْ : فلما جاءه قدَّم السُّفرةَ (١) بل قال : وقصَّ عليه القصص .. وهذا طَرَفٌ من قصته .

ويقال : وَرَدَ بظَاهِرِهِ ماءَ مَدِينٍ ، وَوَرَدَ بِقَلْبِهِ مَوَارِدَ الْإِنْسِ وَالرُّوحِ . والموارد مختلفة ؛ فواردُ القلبِ رِياضُ البَسَطِ بكشوفاتِ المحاضرة فيطربون بأنواع الملائقة ، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواحِ فَيُكاشِفُونَ بأنوارِ المشاهدة ، فيغيثون عن كلِّ إحساسٍ بالنفسِ ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ .. وعند ذلك الولاية لله ؛ فلا نَفْسَ ولا حِسَّ ، ولا قلبَ ولا أُنْسَ .. استهلاكٌ في الصمدية وفناء بالكلية ١ .

ويقال كانت الأجنبيةُّ والبعدُ عن الحرمية يوجبان إمساكاً عن مخاطبتهما ، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالهما .. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والمواقفة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألها عن قصتهما ، كما قيل :

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيانَ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ويقال : لما سألها وأخبرتاً عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أَمْرَ الضمفاء ووقف على موضع فاقهم لزمه إشكاؤهم .

ويقال مِنْ كَمَالِ الْبَلَاءِ عَلَى مُوسَى أَنَّهُ وَافَى النَّاسَ وَكَانَ جَائِعًا ، وَكَانَ مُقْتَضَى الرَّفْقِ أَنْ يُطْعِمُوهُ ، وَلَكِنَّهُ قَبَضَ الْقُلُوبَ عَنْهُ ، وَاسْتَقْبَلَهُ مِنْ مَوْجِبَاتِ حُكْمِ الْوَقْتِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا ؛ لِأَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي نَحَّاهَا عَنْ رَأْسِ الْبَثْرِ — وَحَدَّه — كَانَ يَنْقُلُهَا أَرْبَعُونَ رَجُلًا ، فَلَمَّا عَمِلَ عَمَلُ أَرْبَعِينَ رَجُلًا ، تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، وَقَالَ : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُطْعِمَنِي بَعْدَ مُقَاسَاةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. فَذَلِكَ فَضْلُكَ ١ .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسان أحلى من ذلك . وَسُنَّةُ الشُّكْوَى أَنْ تَكُونَ إِلَيْهِ لَا مِنْكَ .. بل منه إليه (٢) .

(١) السفرة طعام يصنع للمسافر ، أو مائدة وما عليها من طعام .

(٢) لأنك بلا أنت ، فبالضرورة ليس منك شكوى ، فعل الحقيقة لا وجود إلا له ، فاتركه ممسكاً بمنانك . واستسلم لما يخاف ، ولن يكون إلا الخير .

ويقال : تولّى إلى ظلّ الأنس وروح البسط واستقلال السرّ بحقيقة الوجود .
ويقال قال : « رب إني لما أنزلت إني من خير فقير » : فزِدْنِي قُرّاً ؛ فإنّ قُرى إليك
يوجبُ استماتتي بك^(١) .

قوله جل ذكره : « قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إن
خيرَ مَنْ استأجرتَ القويُّ الأمينُ » .
كان شعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير ، ولكن لا يسكن قلبه إلى أحدٍ ، فلما رأى
موسى ، وسمع من ابنته وصفه بالقوة والأمانة سأل :
عَرَفْتُ قُوَّتَهُ .. فكيف عَرَفْتَ أَمَانَتَهُ ؟
فقلت : كنتُ أمشي قُدَّامَهُ فَأَخَّرَنِي عَنْهُ فِي الطَّرِيقِ قَائِلاً : سِيرِي وَرَائِي وَاهْدِينِي ، لئلا
يَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ .. فقال شعيب :

« قال إني أريد بأنْ أُنِكَحَكَ إحدى
ابنتيَّ هاتين على أنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِيً
حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ،
وما أريد أنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سِتْجَدَنِي إِنْ
شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يصل عشر حججٍ لشعيب .
وفي القصة أن شعيباً قال لموسى : ادخلْ هذا البيتَ وَأَخْرِجْ مما فيه من العِصْيِ عَصاً ،
وكان البيتُ مَظْلِماً ، فَدَخَلَ وَأَخْرَجَ العَصَا ، تلك التي أظهر الله فيها معجزاته ، ويقال : إنها
كانت لآدم عليه السلام ، ووقعت لشعيب من نبيٍّ إلى نبيٍّ . إذ يقال : إنه لما هَبَطَ آدَمُ إلى
الأرض صال عليه ما على وجهها من السَّبَاعِ ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ اللهُ عَصاً ، وَأَمَرَ جَبْرِيْلُ أَنْ يَرُدَّ
السَّبَاعَ عَنْ نَفْسِهِ بِتِلْكَ العَصَا .

(١) إظهار الضعف آية العبودية فالدعاء هنا ليس من قبيل الشكوى ، ولكنه تعبير عن ضعف العبد أمام عظمة
الربوبية ، فكأنه نوع من التمدد (راجع قصة أيوب إذ نادى ربه)

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلما أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب :
 ردّها إلى البيت ، واطرحها فيه ، وأخرج عصاً أخرى ، ففعل غير مرة ، ولم تحصل كل مرة
 في يده إلا تلك العصا ، فلما تكرر ذلك علم شعيب أن له شأنًا فأعطاه إياها ،
 وفي القصة : أنه في اليوم الأول ساق غنمه ، وقال له شعيب : إنَّ طريقك يتشعب شعبين :
 على أحدهما كَلًّا كثيرٌ .. فلا تسلكه في الرعى فإنَّ فيه ثعباناً ، واسلك الشعب الآخر .
 فلما بلغ موسى مفرق الطريقين ، تفرقت أغنامه ولم تطاوعه ، وسامت في الشعب الكثير
 الكَلَّ ، فتبعها ، ووقع عليه النوم ، فلما اتبه رأى الثعبان مقتولاً ، فإن العصا قتلتها ، ولما
 انصرف أخبر شعيباً بذلك فسُرَّ به . وهكذا كان يرى موسى في عصاه آيات كثيرة ،
 ولذا قال : « ولي فيها مآرب أخرى » .

قوله جل ذكره : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله

آنس من جانب الطورِ ناراً قال لأهله
 امكثوا إني آنستُ ناراً لملى آتيكم
 منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النارِ لعلكم
 تصطلون » .

مضت عشرٌ حجاجٍ ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر ، فحمل ابنه شعيب ، وسار بأهله
 متوجّهاً إلى مصر . فمكث أهلُه في تسييره وكان هو في تسيير الحق ، ولما ظهر ما ظهر بامرأته
 من أمر الطلق استنصب عليه الوقت ، وبيناهو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً
 — أي أبصر ورأى — فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوع أنس : وإنَّ الله إذا أراد أمراً
 أجرى ما يلقى به ، ولو لم تقع تلك الحالة لم يخرج موسى عندها يابناس النار ، وقد توهم
 — أول الأمر — أن ما يستقبله في ذلك الوقت من جملة البلايا ، ولكنه كان في الحقيقة
 سبب تحقيق النبوة . فلولا أصرار التقدير — التي لا يهتدى إليها الخلق — لما قال لأهله :
 « امكثوا إني آنست ناراً لملى آتيكم منها بخبر » .

ويقال : ألاح له ناراً ثم لَوَّحَ له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ
وإنما سمع نداء : « إني أنا الله ربُّ العالمين » .

قوله جل ذكره : « فلما أتاهم نُودِي من شاطئ الوادِ

الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة
أن ... » الآية

أخفى تبيين قديم موسى على الفطنون بهذا الخطاب حيث قال : « من شاطئ الوادِ
الأيمن » ، ثم قال : « في البقعة المباركة » ثم قال « من الشجرة » .

وأخلاق بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فعندها سمع خطاب موله بلا واسطة ؛ وأعزُّ
الأما كن في العالم مشهدُ الأحباب :

ولمى لأهوى النار ما يستعزني لما الود إلا أنها من دياركا

ويقال : كم قَدَمٍ وَطِئَتْ لك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابها بها شيئاً ! . وكَم لَيْلَةٍ جَنَّتْ
تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة ! .

ويقال : شَتَّان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور مجتبه وفتنة ، وشجرة موسى
وعندها افتتاحُ نبوته ورسالته ! .

ويقال : لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة^(١) ، ولا يُدْرِي ما الذي كانت تتمره ، بل هي
شجرة الوصلة ؛ وثمرتها القربة ، وأصلها في أرض الحبة وقرعها باسِقٌ في سماء الصفوة ، وأوراقها
الزلفة ، وأزهارها تنفتحُ عن نسيم الروح والبهجة :

فلما سمع^(٢) موسى تغير عليه الحال ؛ ففي القصة : أنه غشي عليه ، وأرسل الله إليه الملائكة
ليُرْوِّحوه بمراوح الأنس ، وهذا كان في ابتداء الأمر ، والبتدي مرفوق به . وفي المرة
الأخرى خرَّ موسى صعباً ، وكان يفيق والملائكة تقول له : يا ابن الحيف . أمثلك مَنْ
يسأل الرؤية ؟ !

(١) قيل هي شجرة العليق وقيل العوسج والعوسج إذا علم يقال له الفرقد (القرطبي) .

(٢) معروف أن السماع عند الصوفية يصحبه -وخصوصاً لدى المبتدئين - تأثيرات عضوية ونفسية حادة

وكذا الحديث والقصة^(١) ؛ في البداية كُطِفَ وفي النهاية عُنِفَ ، في الأول خَتَلَ وفي الآخر قَتَلَ ، كما قيل :

فلما دارت القهيب^(٢) دعا بالنطع والسيف
كذا مَنْ يشرب الراح مع الثَّنين في الصيف^(٣)
قوله جل ذكره : « وَأَنْ أَلْتِ عَصَاكَ » .

يا موسى .. اجْلَعْ فَمْلِكَ والْتِ عَصَاكَ ، وأَقِمْ عندنا هذه الليلة ، فقد تَعَبْتَ في الطريق — وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال .

يا موسى .. كيف كُنْتَ في الطريق ؟ كيف صَعَدْتَ وكيف صَوَّبْتَ^(٤) وكيف شَرَقْتَ وكيف غَرَبْتَ ؟ ما كُنْتَ في الطريق وحدك يا موسى ! أَحْصَيْنَا خُطَاكَ — فقد أَحْصَيْنَا كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا . يا موسى .. تَعَبْتَ فَاسْتَرِحْ ، وبعد ما جِئْتَ فَلَا تَبْرَحْ — كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافة في القيامة ، وتبوأَ مَنْزِلَهُ من الجنة ؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون ، وآخرون يعضون من الطريق إلى بساط الزلزلة ، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بِلَدَ سُلْطَانِهِ . يبتدئ أولاً بخدمة الشدة العلية ثم بعدها ينصرف إلى منزله . وكذلك اليوم أمرنا^(٥) ؛ إذا أصبحنا كُلُّ يومٍ : ألا نَشْتَغِلَ بشيءٍ حتى نَفْتَحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نَخاطِبَ المخلوق ، نحضر بساط الخدمة — أي الصلاة — بل نحضر بساط الدنو والقربة ، قال تعالى : « واسجد واقترب »^(٦) : فَالْصَّلَاةُ مُنَاجَاةٌ رَبِّهِ . وَلَوْ عَلِمَ الْمُصَلِّي مَنْ

(١) يقصد حديث الحب وقصته

(٢) الرواية الصحيحة «فلما دارت الكأس» .

(٣) البيتان من المقطعة التي أنشدتها الحلاج وهو يواجه مصرعه ، وأولها :

نديمي غير منسوب إلى شيء من الخوف

(طبقات الشمراني ١٨ ص ١٢٠)

(٤) هكذا في « وهي في من (غربت) » ، وغرب في الأرض أي جبال وسار ، وقد أثبتنا (صوبت) لتلاصق مع الأفعال المضغفة طبقاً لما نعرف من حرص القشيري على الموسيقى اللفظية .

(٥) من هذا نفهم أن القشيري يكتب كتابه أو يعلِّيه من أجل الصوفية ، ففسير المتكلمين يدل على نوع من التخصص .

(٦) آية ١٩ سورة العلق .

يناجي ما التفت ؛ أى لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً وشمالاً في التسليم الذى هو التحليل (١).

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى

مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَمَخَّفْ

إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ » .

عند ما انقلبت العصا حيةً وَلَّى موسى مُذْبِرًا ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول :

حديث أوله تسليطُ ثعوانِ مَنْ ذَا يُطِيقُ أوله ؟ ١ .

فيل له : لَا تَمَخَّفْ يَا مُوسَى ؛ إِنْ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَقْلِبَ الْمَصَاحِيَةَ يَقْدِرُ أَنْ يَخْلُقَ لَكَ مِنْهَا

السلامة : « يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَمَخَّفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ » : ليس المقصودُ مِنْ هَذَا أَنْتَ ،

إِنَّمَا أُثْبِتَ هَذَا لِأَسْطَاطِهِ عَلَى عَدُوِّكَ ، فَهَذِهِ مَعْجَزَتُكَ إِلَى قَوْمِكَ ، وَأَيْتُكَ عَلَى عَدُوِّكَ .

ويقال : شتان بين نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من سماع

الخطاب وأتى بثعبانٍ سَكَطَهُ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَنَبِينَا — صلى الله عليه وسلم — رجع بعد ما أُسْرِىَ

به إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى — لِيُؤَافِيَ أُمَّتَهُ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ الْمُنَاجَاةُ ، وَقِيلَ لَهُ :

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، قَالَ : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قوله جل ذكره : « اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا

مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ

مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ » .

قيل له : اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ؛ لِأَنَّ الدَّرْعَةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ لَهَا كُمٌ .

وفى هذا إشارة إلى أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْبَرِّ لِلْوُصُولِ إِلَى مَرَادِهِ وَمَقْصُودِهِ أَنْ يَتَشَمَّرَ ، وَأَنْ يَجِدَّ ،

(١) التحليل : الإباحة ، والمقصود هنا أنه عقيب التسليم يحل له أن يخاطب الخلق وأن يشتغل بشيء بعدما تمت

مناجاته مع الحق ، تلك المناجاة التي يؤثر التشيرى دوامها واستمرارها . ومعلوم أن الصوفية إذا أنهوا صلاتهم يستمرون في الذكر والتأمل دون حدود .

وَأَنْ يُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُتْمِهِ . وَإِنِّه قَالَ لِمُوسَى : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ ، وَأَلْقِ عَصَاكَ نَجْعَلُهَا ثَعْبَانًا ، يَلْأَضْرِبُكَ بِهَا ، وَبَلَا اسْتَمَالِكَ لَهَا يَا مُوسَى : الْأَمْرُ بِنَا لَا بِكَ ، وَأَنَا لَا أَنْتَ .

« واضم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهاتان من ربك » : يا موسى ، في وصف خضوعك تجديني ، وبتهربك عن حولك وقوتك تصل إلى .

قوله جل ذكره « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » :

تَعَالَى بِكُلِّ وَجْهِ رَجَاءٍ أَنْ يُعَافَى مِنْ مَشَقَّةِ التَّبَايُغِ وَمَقَاسَةِ الْبَلَاءِ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ فِيهَا مَشَقَّةٌ ، فَلَمْ يَحِذْ الرُّخْصَةَ وَالْإِعْفَاءَ تَمَّامًا كَلَّفَ ، وَأَجَابَ سُؤْلَهُ فِي أَخِيهِ حَيْثُ سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ رِدْءًا ، وَضَمَّنَ لَهَا النُّصْرَةَ .

ثم إنهما لما أتيا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد^(١) ، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر^(٢) ، وجاوباه^(٣) بالحجة ، ودَعَوَاهُ إِلَى سُوءِ الْحِجَّةِ ، فَأَبَى إِلَّا الْجَحْدَ .

قوله جل ذكره « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

ادَّعَى الْإِنْفِرَادَ بِالْإِلَهِيَّةِ فَزَادَ فِي ضَلَالِهِ عَلَى عِبْدَةِ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ جَعَلُوا أَصْنَانَهُمْ شُرَكَاءَ ، ثُمَّ قَالَ لِهَامَانَ : « ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى » وَكَانَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ ضَلَالِهِ ،

(١) (والجحد) موجودة في م وغير موجودة في ص .

(٢) (والسحر) موجودة في ص وغير موجودة في م .

(٣) هكذا في م وهي في ص (وحارباه) .

حيث نَرَهُمْ أن المعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولنعمى لو كان فى جهة
لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه ا .

« واستكبر هو وجنوده فى الأرضِ
بغير الحق وظنوا أنهم إلبالا يُرجعون »
فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فأنظروا
كيف كان عاقبة الظالمين » .

أبى إلا أن يدومَ جحوده ، وعنوده ، فأغرقه الله فى البحر ، كما أغرق قلبه فى
بحر الكفر .

قوله جل ذكره : « وجعلناهم أمةً يدعون إلى النارِ
ويومَ القيامة لا ينصرون » .

لا لشرفهم جعلهم أمة ولكن لسبب تلقهم قدّمهم فى الخرى والموان على كل أمة ،
ولكن لم يرشدوا إلا إلى الضلال . ولم يدؤوا الخلق إلا على البهال ، وما حصلوا إلا على
سوء الحال ، وما ذاقوا إلا خيزى الوبال . أقاضوا على متبعيهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا
فى خسة^(١) مطلوبهم .

قوله جل ذكره : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويومَ
القيامة هم من المقبحين » .

كانوا فى الدنيا مُبْعِدِينَ عن معرفته ، وفى الآخرة مُبْعِدِينَ عن مغفرته ، فانقلبوا من
طرد إلى طرد ، ومن هجر إلى بعد ، ومن فراق إلى احتراق .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتاب من
بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر

(١) هكذا فى م ومى فى ص (غيبة)

لنَّاسٍ وَعُدِّي وَرَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ
يَتَذَكَّرُونَ .

إنما تطيب المنازلُ إذا خلَّتْ من الأجانب ، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتها يفقدُ
الرُّقباةَ وغَيَبَتِهِمْ ، فلما أهلك اللهُ فرعونَ وقومه ، وأورثَ بنى إسرائيلَ أموالهم وديارهم ،
ومحَا عن جميعها آثارهم — طالبَ لهم العيشُ وطلعتْ عليهم شمسُ السعادة .

قوله جل ذكروه : « وما كُنتَ بجانبَ الغربيِّ » إذ قضينا
إلى موسى الأمرَ وما كُنتَ من
الشاهدين .

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً ، ولكنهم رأوا أنَّ إخبارك عنهم بحيث لا يكذبك
كتابهم . وبالضرورة عرفوا حالَكَ ، وكيف أنَّكَ لم تعلمَ هذا من أحدٍ ، ولا قرأته من
كتاب ، لأنَّكَ أُمِّيٌّ لا تُحسِنُ القراءةَ ، وإذا فليس إخبارك إلا بتعريفنا إياك ، وإطلاعنا
لَكَ على ذلك .

ويقال : « وما كُنتَ بجانبَ الغربيِّ » : وما كُنتَ بجانبَ الطورِ إذ نادينا موسى ،
وكَلَّمْنَاهُ ، وخاطبناه في بابِكَ وبابِ أُمَّتِكَ ، ولم تقدح غيبتُكم في الحال ، وكوْنِي لَكُمْ
خيرٌ من كَوْنِكُمْ لَكُمْ .

ويقال : لما خاطَبَ موسى وكَلَّمَهُ سألَهُ موسى : إني أرى في التوراة أُمَّةً صفتهم كذا
وكذا .. مَنْ هم ؟ وسألَ عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يُجابُ بأنَّها أمةُ أحمد^(١) ،
فاشتاقَ موسى إلى لقائنا ، فقال له : إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم ، فإن شئتَ أسمعُكَ
كلامهم ، فأراد أن يسمعَ كلامنا ، فنادانا وقال : يا أمةَ أحمد .. فأجاب السكَلُ من أصلاب
آبائهم ، فسمعَ موسى كلامهم ولم يدركهم^(٢) . والغنى إذا سألَهُ فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن

(١) هكذا في م وهي في م (أمة محمد) ، ونحسب أن الأرجح أن تكون أحمد طبقاً للآية «ومبشراً برسول
يأتى من بعدى اسمه أحمد»

(٢) تنسب هذه الرواية إلى وهب (القرطبي ١٢٥ ص ٢٩٢) .

يردّه من غير إحسان إليه . (وفي رواية عن ابن عباس)^(١) أن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، ورحمتكم قبل أن تسترحموني » .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ثاوياً^(٢) في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنّا مرسلين »
وعما كان موسى عليه السلام يتلو عليهم من الآيات ذكرُ نبينا صلى الله عليه وسلم بالجميل .
وذكر أمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن في الوجود مُحدثٌ مخلوقٌ وفي ذكره متعلق لا باستفتاح .
ولم نكن في المَدَمِ أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشئّة .
وذكرنا في الخطاب الأزلي والكلام الصمدى والقول الأبدى .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانبِ الطورِ إذ نادينا
ولكن رحمةً من ربك لتُنذِرَ قوماً
ما أتاهم من نذيرٍ مِن قَبْلِكَ لعلهم
يتذكرون » .

ماطلبه موسى لأمته جلنائه لأمتك ، وكما نادينا موسى — وهو في الوجود والظهور —
ناديناكم وأتم في كتم المَدَمِ ، أنشدوا :

كُنْ لِي كَمَا كُنتَ فِي حَالٍ لَمْ أَكُنْ

قوله جل ذكره : « ولولا أن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فيقولوا رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولاً فَتَنْبِئَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا

(١) أضفنا ما بين قوسين من عندنا لنكتب الرواية بكاملها فهي ناقصة في المتن .

(٢) ثاوياً «مقيماً» .. قال العجاج : فبات حيث يدخل الثوى : أى الضيف المقيم .

قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى
أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل
قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بآيات
كافرون .

تمنوا في زمان الفترة أن يبعث الله إليهم رسولا يهتدوا به ، ووعدوا من أنفسهم الإيمان
والإجابة ، فلما أتاهم الرسول كذبوه ، وقالوا : هلا خص بمثل معجزات موسى في الظهور ،
وكان ذلك منهم خطأ ، واقتراحا في غير موضع الحاجة ، وتحمكنا بعد إزاحة العلة :
وكنا الملوك إذا أراد تلبية دلي الوصال وقال كان وكانا
ثم قال : أفلا تدركون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموها بالسر ؟

وقال : إن ارتبتم أن هذا الكتاب من عند الله فأثروا بكتاب مثله ، واستعينوا
بشركائكم . ومن وقته إلى يومنا هذا لم يأت أحد بسورة مثله ، وإلى القيامة لا يأتون
بكتاب مثله .

قوله جل ذكره : « ولقد وصّلنا لهم القول لئلا
يتذكرون » .

أنبأ رسولا بعد رسول ، وأردفنا كتابا بعد كتاب ، فما ازدادوا إلا كفرا وثبورا ،
وجحطا وعتوا .. فلا إلى الحق رجعوا ، ولا إلى الاستقامة رجعوا .

قوله جل ذكره : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم
بـ يؤمنون » .

من أكلنا بصيرتهم بنور الهداية صدّقوا بمتنقى مساعدة العناية ، ومن أغمينا عن شهود
التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس في غوايته ، وانهمك في ضلالتهم .

قوله جل ذكره : « وإذا يُنزل عليهم قالوا آمنا به إنه
الحق من ربنا إنا كنا من قبله
صالحين » .

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق ، واتقوا بحسن الاستسلام ، فلا جرّم يؤثرون
أجرهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجلهم ، مرة في الآخرة
وهي الثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القربة .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا
لَنَا أَعْمَالٌ وَلَكُمْ أَعْمَالٌ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » .

« اللغو » : ما يُلهي عن الله . ويقال « اللغو » ما لا يوجب وسيلة عند الله ، ويقال
ما لا يكون بالحق للحق ، ويقال هو ما صدّر عن قلب غافل ، ويقال هو ما يوجب
سماعه السهر .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بَالْمُهْتَدِينَ »^(١) .

الهداية في الحقيقة إمالة القلب من الباطل إلى الحق ، وذلك من خصائص قدرة الحق
— سبحانه — ونطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق — توسعاً ، وذلك جائز بل واجب
في صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وَإِنَّكَ تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ويقال : لك شرف النبوة ، ومنزلة الرسالة ، وجمال السفارة ، والمقام المحمود ،
والخوض للورود ، (وأنت سيد ولد آدم .. ولكنا لا تهدي من أحببت ؛ فخصائص
الربوبية لا تصلح)^(٢) لِمَنْ وَصَفَهُ البشرية .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ
نُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَمْ

(١) قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي طالب حين أبي أن ينطق بالشهادة
وقال : أنا ملأ ملة عبد المطلب فقال الرسول (ص) : لا تستخبرن الله ما لم أنه ذلك (أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٨)
(٢) ما بين القوسين موجود في م وسائط في م .

حرماً آمناً يُجَنَّبُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقَاتٍ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إن صدقناكَ ، وآمناً بِكَ ، (لإجماعهم على خلافنا ولا ملأنا لهم)^(١) قال الله تعالى : وكيف تخافونهم وترون اللهَ أظفركم على عدوكم ، وحَكَمنا بتعظيمِيتكم ، ونجعلنا مَكَّةَ تُجَنَّبُ إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ من أقطار الدنيا ؟

ويقال من قام بحقِّ الله — سبحانه — سَخَّرَ لَهُ الْكَوْنَ بِحِمْلِهِ ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِرِطَايَةِ سِرِّهِ ، وَقَامَ بِحَقِّ اللهِ ، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكَنَّ من التصرفِ بهِمته في مملكةِ الله ؛ فَالْخَلْقُ مُسَخَّرٌ لَهُ ، وَالْوَقْتُ طَوْعُ أَمْرِهِ ، وَالْحَقُّ — سبحانه — متولٍّ^(٢) أَيْامَهُ وَأَعْمَالَهُ يُحَقِّقُ نَتِجَتَهُ ، وَلَا يُضَيِّعُ حَقَّهُ .

أَمَّا الَّذِي لَا يَطِيعُهُ فِيهِلِكَ فِي أودية ضلاله ، وَيَتِيهِ^(٣) فِي مَفَازَاتِ خِزْيِهِ ، وَيَبْوءُ بِوَرِيْهِ هَوَاهُ .
قوله جل ذكره : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَلَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » .

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظامَ أمورهم ، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم ، فَخَرُّوا فِي أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم اللهُ من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بطَرِهِمْ ؛ فَلَمَّا كُنْهُمْ مِنْهُمْ خَالِيَةً ، وَسَقَوْهَا عَلَيْهِمْ خَاوِيَةً ، وَغَرِبَانُ الدَّمَارِ فِيهَا نَاعِيَةً .

(١) ما بين القوسين غير موجود في النص ، ولكنها تنسب لسبب نزول الآية كما أورده الواحدى ، حيث ذكر أن الآية نزلت في الحارث بن عَمَّان بن عبد مناف الذى قال للنبي (ص) : إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن يمنعنا من اتباعك أنا نخاف ... الخ (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨) .

(٢) ومن هذا المنطلق يصدر التشيرى رأيه في (الولاية) وما يتصل بها من (الكرامة) .

(٣) هكذا في الأصل وهي تحمل معنيين : التكبر ، والضلال في الأرض .

قوله جل ذكره : « وما كان ربك مهلك القرى حتى

يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ،

وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها

ظالمون » .

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا » : بالتكليف بأمرهم ، وبأمر

التكوين — على ما يريد — يتفهم . وهو — سبحانه — يبعث الرسل إنذاراً ويمضي السبل

عليهم اقتداراً ؛ يُوضِّحُ الحجة بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدي إلا من سبقته له السعادة

بحكم القسمة .

قوله جل ذكره : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة

الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى

أفلا تعقلون » .

الدنيا حلوة خضرة ، ولكنها في التحقيق مرة مدرة^(١) ، فبشرها يوم أنها صفوة

ولكن من وراء صفوها حسوة^(٢) ، وما عند الله خير وأبقى .

قوله جل ذكره : « أفمن وعدناه وعدًا حسنا فهو لاقب

كمن متعنا متاع الحياة الدنيا

ثم هو يوم القيامة من

المُخْضَرِينَ »^(٣) .

الدنيا سمومٌ حنظلها تتلو طعومٌ عسلها ، وتلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لطف ما يظهر

(١) ملوت البيضاء ملداً = فسد ، فهي ملدة ، وملوت ملته أى خبث وفساد (الوسيط) .

(٢) يقال يوم كحسو الطائر أى قصير جداً ، ونوم كحسو الطائر أى قليل متقطع .

(٢) من مجاهد أن هذه الآية نزلت في علي وحمزة وأبي جهل .

وقال السدي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة

وقيل نزلت في النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي جهل .

من أربها ، وليس من أكرم بوجدان نعيم عقابه كمن مُمَيَّ بالوقوع في جحيم دنياه
قوله جل ذكره : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي
الذين كنتم تزعمون ؟ » .

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضايل .. وإلا فَمَن أين لهم الجواب
فضلاً عن الصواب ! والذي يسألهم هو الذي على ما شاء جمَلَهُم ؛ فما وَرَدَ فَعَلَّ إلا على فِئِلِهِ ،
وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أَصْلِهِ . وإذا تَسَبَّرُوا بعضهم من بعض يَبَيِّنَ أنه لم يكن للأصنام
استحقاق العبودية ، ولا لأحد من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداث ذرَّة أو منه شظيَّة ..
كلّا بل هو الواحد القهار .

قوله جل ذكره : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم
المُرْسَلِينَ » .

يسألهم سؤال هيبه ؛ فلا يَبْتَقِي لهم تمييزٌ ، ولا قوةٌ عقل ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ ،
قال جل ذكره :

« فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ
لا يَسْمَعُونَ » .

إذ استولت عليهم الحيرةُ ، واستمكن منهم الدهشُ ؛ فلا تُطَقُّ ولا عقل ولا تمييز
ولا فهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَنَسِيَ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُتْلِحِينَ *
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ
لَهُمُ الْخِيسِرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ » .

يختار ما يشاء ومن يشاء من جملة ما يختار . ومن ليس إليه شيء من الخلق .
فأله والاختيار ؟ !

الاختيار الحق استحقاقٌ عِزٌّ يوجبُ أن يكون ذلك له ، لأنه لو لم يُنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العِزِّ ، فمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلاّ ذليلاً ؛ فالاختيارُ للحقُّ نعمتٌ عِزٌّ ، والاختيارُ للخلقِ صفةٌ ذمٌّ ونعمتٌ بلاءٌ وقصور ؛ فالاختيارُ العبدِ غيرُ مُبارَكٍ عليه لأنه صفةٌ هو غيرُ مُستحقٍّ لها ، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح في نفسه ، قال قائلهم :

ومعالي إذا ادّعاها سواء لزمته جناية السراق

والطينة إذا ادّعت ما هو صفة الحق أذهرت دعوتها ، فما للإنسان والاختيار ؟ !
وما للمملوك والمالك ؟ ! وما للعبد والتصدر في دست^(١) المملك ؟ !

قال تعالى : « ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »^(٢)

قوله جل ذكره : « وربك يعلم ما تكن صدورهم
وما يعلنون »

ولم لا وقد قال : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ فالعلم — الذي لا يعزبُ عنه
معلومٌ — نعمتٌ من لم يزل ، والإبداع من العدم إلى الوجود بفرْدٍ بالقُدرة عليه لم يزل .

قوله جل ذكره : « وهو الله لا إله إلا هو له الحمد
في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه
ترجعون »

« لا إله إلا هو » : تَوَحَّدَ بِعِزِّ هَيْبَتِهِ ، وَتَفَرَّدَ بِجَلالِ رُبُوبِيَّتِهِ ، لَا شَيْءَ يَسَاوِيهِ ،

(١) فكذا في م وهي الصواب ، أما في ص فقد وردت (درس) وهي خطأ في النسخ .
(٢) واضح من مذهب القشيري شيء هام جداً أنه يقف عند (ويختار) وتكون (ما) في هذه الحالة نافية ،
وهو بهذا ينسجم مع مذهب أهل السنة في أن الله خالق كل شيء حتى أكمساب العباد .
أما الزغشيري فيرى (ما كان لهم الخيرة) بياناً لقوله (ويختار) ولهذا لم يدخل العاطف . ويرفض الطبري
أن تكون (ما) نافية لأن يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل ، ويرد عليه بأن (ما)
تصلح لنفي الحال والاستقبال .

ولا نظير يُضاهيه . « له الحمد » استحقاقاً على عَظَمَتِهِ ، وله الشكر استيجاباً على نعمته ؛ ففي الدنيا الحمدُ لله ، وفي العقبى المشكورُ الله ؛ فالإحسان من الله لأن السلطان لله ، والنعمة من الله لأن الرحمة لله ، والنصرة من الله لأن القدرة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ »

إن دامت ليالى الفترة فمن الذى يأتى بنهار الثوبة غيرُ الله ؟
وإن دامت ليالى الطلب فمن الذى يأتى بصُبحِ الوجود غيرُ الله ؟
وإن دامت ليالى القبض فمن الذى يأتى بصبح البسط غيرُ الله ؟
وإن دام ليل الفراق فمن الذى يأتى بصبح الوصال غيرُ الله ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »

إن دام في الوصلة نهاركم فأى سبيل للواشين إلى تنقيص سروركم ؟
وإن دام نهار معاشكم ووقت اشتغالكم بمحظوظكم فمن إله غيرُ الله يأتىكم بليل تَسْكُنُونَ فيه إلى الله إلا الله ، وتستريحون من أشغالكم بانخلوة مع الله إلا الله ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِمَا لَكُمْ تَشْكُرُونَ »

(١) منذ أشرقت على التفسيرى آية : « وهو الله لا إله إلا هو ... »
ولفظ الجلالة لا يكاد يغيب عنا في إشاراته ، بما يدل - والله أعلم - على أن الرجل ذاكر أخلاقه حالة انمحاء في المذكور .. وقد سررنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذا الملاحظ ليشرح بالفرق بين المفسر التقليدى والمفسر الإشارى .. إن الكلمات هنا أشبه بالتساويح الواقعة من عالم بعيد !

الأوقات ظروف لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال ؛ فالظروف من الزمان متجانسة ،
ولمّا اختلف راجع إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالي أهل الوصال سادات الليالي ، وليالي أهل
الفراق أسوأ الليالي ؛ فأهل القرب لياليهم قصارة وكذلك أيامهم ، وأرباب الفراق لياليهم طوال
وكذلك جميع أوقاتهم في لياليهم ونهارهم ، يقول قائلهم :

والليالي إذا نابت طوال وأراها إذا دتوت قصار

وقال آخر :

والليل أطول وقت حين أقدها والليل أقصر وقت حين ألقاها

وقال ثالث :

يطول اليوم لا ألك فيه وتحول نلتقي فيه - قصير

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَزَعَمْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ »

كلا . . لا حجة لهم ، ولا جواب يعذرهم ، ولا شفيع يرحمهم ، ولا ناصر يمينهم .
اشتهرت ضلالتهم ، واتضعت للكافة جهالتهم ؛ فدام بهم عذاب الأبد ، وحق بهم
وبال السرمد .

قوله جل ذكره : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى
فَبَغَى عَلَيْهِمْ »

جاء في القصص أنه كان ابن عم موسى ، وكان من أعبد بني إسرائيل ، وكان قد اعتزل
الناس ، وانفرد في صومعته يتعبد ، فتصور له إبليس في صورة بشر ، وأخذ في الظاهر يتعبد
معه في صومعته حتى تعجب قارون من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لسا في شيء ؛ عيوننا

على أيدي الناس حتى يذهبوا إلينا شيئاً من خبز وورقنا ، ولا بُدَّ لنا من أخذه ، فقال له قارون :
وكيف يجب أن فعله ؟

فقال له : أن تدخل في الأسبوع يوماً السوق ، ونكتسب ، وتتفق ذلك القدر في
الأسبوع ، فأجابه إليه . فكأننا يخران السوق في الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لست أنا وأنت
في شيء ، فقال : وما الذي يجب أن فعله ؟

فقال له : نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا ، ويوماً نكتسب وتتصدق به ، فأجابه إليه .
ثم قال له يوماً آخر : لسان في شيء ، فقال : وما ذاك ؟

قال : إن مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوت يوم ، فقال : وما تفعل ؟

قال : نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للادخار ،
فأجابه إليه . . فلما علم أن حُب الدنيا استمكن من قلبه ودَّعه ، وقال :

إني مُفَارِقُكَ . . قدَّم على ما أنت عليه ، فصار من أمره وماله ما صار ، وحمله حُب الدنيا
على جميعها ، وحمله جمعها على حبها ، وحمله حبها على البني عليهم ، وصارت كثرة ماله سبب
هلاكه ، وكُم وعِظَ بترك الفرج بوجود الدنيا ، وبترك الاستمتاع بها ! وكان لا يَأْبَى
إلاَّ ضللاً .

ويقال خَسَفَ اللهُ به الأرض ، رُبط موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول :

يا أرض خذيه .. وبينما كانت الأرض تُخَسِّفُ به كان يستعين بموسى بحق القرابة ، ولكن
موسى كان يقول : يا أرض خذيه .

وفيما أوحى الله إلى موسى : لقد ناداك بحق القرابة وأنت تقول : يا أرض خذيه !
وأنا أقول : يا عبد ، نادني فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يَقُلْ .

وفي القصة أنه كان يُخَسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلما حبس الله يونس في بطن
الحوت أمر الحوت أن يطوف به في البحار لتلايض قلب يونس ، حتى انتهى إلى قارون ،
فسأله قارون عن موسى وحاله ، فأوحى الله إلى الملك :

لا تَزِدْ فِي حَسَنِهِ لِحُرْمَةِ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ابْنِ عَمِّهِ ، وَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ (١) .

قوله جل ذكره : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ

كَأَحْسَنِ اللَّهِ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ

فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »

وَعُظْمَ مَنْ حُرِّمَ الْقَبُولُ كَمَثَلِ الْبَذْرِ فِي الْأَرْضِ السَّيِّئَةِ ؛ وَلَمَّا لَمْ يَنْفَعَهُ نَصِيبُهُمْ إِيَّاهُ ،

وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَبُولِ فِيهِ مَسَافَةٌ .

« وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » : لَيْسَ النَّصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا جَمْعُهَا وَلَا مَنَعُهَا ،

إِنَّمَا النَّصِيبُ مِنْهَا مَا تَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ بِحَيْثُ لَا يُعْقِبُ نَدَمًا ، وَلَا يُوجِبُ فِي الْآخِرَةِ عَقُوبَةً

وَيُقَالُ النَّصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَحْمِلُ عَلَى طَاعَتِهِ بِالنَّفْسِ ، وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ بِالْقَلْبِ ، وَعَلَى ذِكْرِهِ

بِاللِّسَانِ ، وَعَلَى مَشَاهِدَتِهِ بِالسَّرِّ .

« وَأَحْسِنْ » كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ : إِنَّمَا كَانَ يَكُونُ مِنْهُ حَسَنَةٌ لَوْ آمَنَ بِاللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ

لَا حَسَنَةَ لَهُ . وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى الْكَافِرِ نِعَمًا دُنْيَوِيَّةً .

وَالْإِحْسَانُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ إِنْفَاقُ النِّعْمَةِ فِي وَجْهِ الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ ، وَمُقَابَلَتُهُ بِالشُّكْرِ

لَا بِالْكَفَرَاتِ .

وَيُقَالُ الْإِحْسَانُ رُؤْيَا الْفَضْلِ دُونَ تَوْفُّهِمِ الْإِسْتِحْقَاقِ .

قوله جل ذكره : « قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ... »

مَا لَاحَظَ أَحَدٌ نَفْسَهُ إِلَّا هَلَكَ بِإِعْجَابِهِ .

وَيُقَالُ السُّمُّ الْقَاتِلُ ، وَالَّذِي يَطْفِئُ السَّرَاجَ الْمُنْفَى ، النَّظَرُ إِلَى النَّفْسِ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ ،

(١) الْوَاقِعُ أَنَّ الْقِصَصَ وَالْأَخْبَارَ وَالرَّوَايَاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ مَوْضُوعَاتِ سُورَةِ الْقَصَصِ كَثِيرَةٌ جَدًّا ،

خُصُوصًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَدْرَسَتِهِ ، وَلَكِنْ الْمَلَا حَظَّ أَنَّ الْقَشِيرِيَّ يَخْتَارُ مِنْهَا - فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ - عَيْنَاتٍ خَاصَّةً
تَحَقِّقُ مَقَاصِدَ الْبَيِّنَةِ مِنْ أَجْلِ إِبْرَازِ الْمَوْضُوعَاتِ الصُّوْفِيَّةِ سِوَاهُ مِنْ نَاحِيَةِ الرِّيَاضَاتِ أَوْ الْمَجَاهِدَاتِ أَوْ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَذْوَاقِ
وَالْأَحْوَالِ .

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ عِندَ مَنْ تُرِيدُ وَتَكُونُ مِنَ الْغَالِبِينَ (١)

قوله جل ذكره : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآيَةِ لَنَا مِثْلَ

مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

تمنى مَنْ رآه يَمَنَّ كَانَ فِي حُبِّ الدُّنْيَا سَاوَاهُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللَّهُ مِثْلَ مَا أُعْطَاهُ .

أَمَّا مَنْ كَانَ صَاحِبًا عَنْ خَارِ غَفْلَتِهِ ، مُتَيَقِّظًا بِنُورِ بَصِيرَتِهِ فَكَانَ مَوْقِفُهُمْ : —

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ

ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ »

وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء :

« لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا

وَيَسْكَأَنَّه لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »

مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ تَنْجَرِفْ فِي نَهْجِهِ ، وَلَمْ تَنْخَرْطْ فِي سَلِيكِه ، وَإِذَا لَوَقَعَ بِنَا الْمَلَاكُ .

أَمَّا الْمُتَمَنُّونَ مَكَانَهُ فَقَدْ تَدِمُّوا ، وَأَمَّا الرَّاظُونَ بِقِسْمَتِهِ — سُبْحَانَهُ — فَقَدْ سَلِمُوا ؛

سَلِمُوا فِي الْعَاجِلِ إِلَى أَنْ تَظْهَرَ سَعَادَتُهُمْ فِي الْآجِلِ .

قوله جل ذكره : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ مَجْمُلُهَا لِلَّذِينَ

لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »

قيل « العلو في الدنيا » أن تَتَوَكَّلَ أَنْ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحَدًا هُوَ شَرُّ مَنَّا .

و « الفساد » أن تتحرك لحظًّا نَفْسِكَ وَنَصِيْبِكَ وَلَوْ بِنَفْسٍ أَوْ خَطْوَةٍ . . وهذا للأَكْبَرِ ،

(١) هذه نظرة عامة نَجْدُهَا عِنْدَ جَمِيعِ الصُّوفِيَّةِ وَلَكِنَّا أَصْلُهَا فِي تَعَالِيمِ أَهْلِ الْمَلَامَةِ تَقَرَّبَ عَلَيْهِ مَنَاجِجُ

فِي السُّلُوكِ .

فَأَمَّا لِلأَصَاغِرِ وَالْعَوَامِ فَتِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ « نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ «
كَعُلُوِّ فِرْعَوْنَ « وَلَا فُسَادًا « كَفَسَادِ قَارُونَ ^(١) .

ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوًّا ، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوًّا .
ويقال « تلك الدار الآخرة » للعباد والزهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار
والانكسار .

قوله جل ذكره : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا
السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثواب الحسنة في التضعيف ، وأمر السيئة بناؤه على التخفيف .
والمؤمن — وإن كان صاحبَ كِبائر — فسيئاته تَقْصُرُ في جنبِ حسناته التي هي
إيمانه ومعرفته .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ
إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

« لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » : في الظاهر إلى مكة . . . وكان يقول كثيراً : « الوطن الوطن » ^(٢) ،
فَحَقَّقَ اللهُ سُؤْلَهُ . وَأَمَّا فِي السِّرِّ وَالْإِشَارَةِ فَإِنَّهُ « فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ » أَيْ يَسَّرَ لَكَ قِرَاءَةَ
الْقُرْآنِ ، وَالْمَعَادُ هُوَ الْوَصْفُ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ رَوْحُكَ قَبْلَ حُلُولِ شَجِّكَ ^(٣) مِنْ مُلَادَغَاتِ
الْقُرْبِ وَمَطَالَعَاتِ الْحَقِّ .

(١) أحسن التفسيرى إذ جعل وظيفة هذه الآية التعقيب على القصتين السابقتين فأبان تماسك الأسلوب القرآنى .

(٢) ولهذا يرى ابن عباس أن هذه الآية لا مكية ولا مدنية وإنما نزلت في الجحفة .

(٣) هكذا في النسختين ، فإن صحت في النقل من الأصل فربما كان المقصود (ما أصابك من جراحات
الحب) ، ويتأيد فهمنا بما يل ذلك وربما كانت (شجتك) أى لوعة حبك - والله أعلم .

وقيل الذي ينصبت بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادك إلى عين الجمع بالتحقق بالحق والفناء عن الخلق .

ويقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادك إلى الفناء عنك بمحققك في وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ترجوا أن يُلقَى إليك الكتابُ إلا راحةً من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين » .

ما كنت تؤمل محل النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليك من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره : « ولا يصدنك عن آياتِ الله بعد إذ أنزلت إليك وادعُ إلى ربك ولا تكونن من المشركين » .

لا يصدنك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذؤب والشهود ، والإدراك والوجود . لا تتداخلك شهمة التجويز وسؤالات العلماء بما يدعون من أحكام العقول ؛ فَمَا يُدْرِكُ في شعاع الشمس لا يحكم ببطلانه خفاؤه في نور السراج .

قوله جل ذكره : « ولا تدعُ مع الله إلهاً آخرَ لا إله إلا هو كلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » .

كلُّ عملٍ باطلٍ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كلُّ حيٍّ ميتٍ إلا هو ، قال تعالى : « إن امرؤ هلك : أي مات ؛ فكلُّ شيءٍ معدٌّ لجوازِ الهلاك والعدم ، ولا يبقى إلا « وجهه » : ووجهه صفة من صفاته لا تستقل إلا به ،

فإذا بقي وجهه كَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بوجوده ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الناتية الواجبة له ؛ فبقى بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وقائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون^(١) العقل ؛ فخصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقُّ بصفاته .

(١) هكذا في م أما في ص فهي (نور) ، وتأويل الوجه على أنه صفة فيه رد على المشبهة .

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

- قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَعَدَأ ، وسماعه يوجب سلوة الواجدین تقدأ ^(١) .
اسم من ذكره وَصَلَ إلى مثوبته في آجله ، ومن سمعه ^(٢) حظى بقربته في عاجله .
- قوله جل ذكره : « السَّمِ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا
أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ »
- « الألف » إشارة إلى تفرده عن كل غير بوجه الغنى ، وباحتياج كل شيء إليه ؛ كالألف
تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرف .
- « واللام » تشير إلى معنى أنه ما من حرف إلا وفي آخره صورة تعويج ما ، واللام أقرب
الحروف شبهاً بالألف - فهي منتصبه القائمة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء .
ولكن اللام تتصل بنيرها - فلا جرم لا يكون في الحروف حرف واحد متكون من حرفين
إلا اللام والألف ويسى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .
- أما « الميم » فالإشارة فيه إلى الحرف « مِنْ » ؛ فَمِنْ الرَّبِّ انْخَلَقُ ، وَمِنْ الْعَبْدِ خِدْمَةُ
الحق ، ومن الربِّ الطَّوْلُ وَالْفَضْلُ . . .
- « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا . . . » بمجرد الدعوى في الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا
لا يكون ، تيمية كلٍّ أحده ببلواه ، فَمَنْ زَادَ قَدْرُ مَسْنَاهُ زَادَ قَدْرُ بِلَوَاهُ ؛ فعلى النفوس بلاء وهو

(١) النقد مكافأة في الدنيا وهي المواصلات والمكاشفات ، والوعد مكافأة في الآخرة وهي الجنة .

(٢) المقصود بالسماع هنا ما يوجب الإيمان .

المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل . وعلى القلوب بلاء وهو مطالبته بالطلب والفكر الصادق بتطالع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاء وهو التجرد عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب ، والتباعد عن كل المساكنة لشيء من المخلوقات . وعلى الأسرار بلاء وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلّي إلى أن تصير مُستَهْلَكاً فيه .

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات . وأشدُّ الفتن حفظ وجود التوحيد لئلا يجرى عليك مَكْرٌ في أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحق فيظن أنه الحق ، ولا يدري أنه من الحق ، وأنه لا يُقال إنه الحق - وعزير مَنْ يهتدى إلى ذلك^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »

لم يُخْلِهم من البلاء والمِحن ليُظْهِر صبرهم في البلاء أو ضده من الضَجَر ، وشكرهم في الرخاء أو ضده من الكفر والبَطَر . وهم في البلاء ضروب : فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء ، ويشكر في حال النعماء . . . وهذه صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يَضْجُ ولا يصبر في البلاء ، ولا يشكر في النعماء . . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يُوْثِر في حال الرخاء ألاَّ يستمتع بالعطاء ، ويستروح إلى البلاء ؛ فَيَسْتَعْذِب مقاساة الضَّرِّ والعناء . . . وهذا أجَلُّهم .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

يرتكبون المخالفات ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة . . . ساء حُكْمُهُمْ ! فمتى ينجو من العذاب مَنْ ألقى جليبَ التُّقى ؟ !

ويقال توهموا أنه لا حشر ولا نشر ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإمهالنا اليوم ، وتوهموا أنهم مينا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد آمنوا .

(١) يفيد هذا الكلام منه البحث في قضية الحلاج الذي قال وهو غائب في غلبات الشهود : « أنا الحق »

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئات أن جرى التقدير لهم بالسعادة ، وأن ذلك يؤخر حُكْمَنَا . . كلا ، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قَسَمَاتُهُ بالسعادة ، وهيئات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة !

قوله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

مَنْ خَافَ عَذَابَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَسَيَلْقَى يَوْمَ الْحَشْرِ الْأَمَانَ الْمَوْعُودَ مِنَّا لِأَهْلِ الْخَوْفِ الْيَوْمَ . وَمَنْ أَمَلَ الثَّوَابَ يَوْمَ الْبَعْثِ فَسَوْفَ يَرَى ثَوَابَ مَا أَسْلَفَهُ مِنَ الْعَمَلِ . وَمَنْ زَجَّيْ عُمْرَهُ فِي رَجَاءٍ لِقَائِنَا فَسَوْفَ نُبَيِّحُ لَهُ النَّظَرَ إِلَيْنَا ، وَسَوْفَ يَتَخَلَّصُ مِنَ الْغِيَةِ وَالْفِرْقَةِ . . « وَهُوَ السَّمِيعُ » لِأَيْنِ الْمَشْتَاقِينَ ، « الْعَلِيمُ » بِحَيْنِ الْحَبِيبِينَ الْوَالِهِينَ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

مَنْ أَحْسَنَ فَنَجَّاهُ نَفْسَهُ طَلِبَهَا ، وَسَعَادَةَ حَالَةٍ حَصَلَهَا . وَمَنْ أَسَاءَ فَمَقُوبَةٌ نَفْسُهُ جَدَّيْهَا ، وَشَقَاوَةُ جَدِّهِ اكْتَسَبَهَا .

ويقال ثوابُ الطَّيِّبِينَ إِلَيْهِمْ مَصْرُوفٌ ، وَعَذَابُ الْعَاصِينَ عَلَيْهِمْ مَوْقُوفٌ . . وَالْحَقُّ عَزِيزٌ لَا يُلْحِقُهُ بِالْوَفَاقِ زَيْنٌ ، وَلَا يَمَسُّهُ مِنَ الشَّقَاقِ شَيْنٌ . .

قوله جل ذكره . « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

مَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا خَطْوَةً نَالَ مِنَّا خَطْوَةً ، وَمَنْ تَرَكَ فِينَا شَهْوَةً وَجَدَ مِنَّا صَفْوَةً ، فَتَصِيبُهُمُ مِنَ الْخَيْرَاتِ مَوْفُورٌ ، وَعَمَلُهُمْ فِي الزَّلَّاتِ مَغْفُورٌ . . بِذَلِكَ أَجْرُنَا سُنَّتَنَا ، وَهُوَ مَتَنَاوَلُ حُكْمِنَا وَقَضَيْنَا .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » .

أَمَرَ اللهُ الْعِبَادَ بِرِعَايَةِ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ تَنْبِيْهًا عَلَى عَظَمِ حَقِّ التَّرْبِيَةِ . وَإِذَا كَانَتْ تَرْبِيَةُ الْوَالِدَيْنِ — وَهِيَ إِنْ حَسُنَتْ — فَإِلَى حَدٍّ يُوجِبُ رِعَايَتَهُمَا فَمَا الظَّنُّ بِرِعَايَةِ حَقِّ اللهِ تَعَالَى ، وَالْإِحْسَانِ الْعَمِيمِ بِالْعَبْدِ وَالْأَمْتَانِ الْقَدِيمِ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ؟

قوله جل ذكره : « وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَطِيعَهُمَا ، وَلَكِنْ رُدًّا بِلُطْفٍ ، وَخَالِفٌ بِرُفْقٍ .
قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » .

أَيُّ لِنُدْخِلَنَّهُمْ بِالَّذِينَ أَصْلَحُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ سُنَّتِنَا إِحْلَاقَ الشَّكْلِ بِشَكْلِهِ ، وَإِجْرَاءَ الْمِثْلِ عَلَى حُكْمٍ مِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ » . . .

الْحَنُّ تُظْهِرُ جَوَاهِرَ الرِّجَالِ ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى قِيَمِهِمْ وَأَقْدَارِهِمْ ؛ فَقَدَرُ كُلِّ أَحَدٍ وَقِيَمَتُهُ يَظْهَرُ عِنْدَ مَحْنَتِهِ ؛ فَمَنْ كَانَتْ مَحْنَتُهُ مِنْ فَوَاتِ الدُّنْيَا وَتَقْصَانِ نَصِيْبِهِ مِنْهَا ، أَوْ كَانَتْ مَحْنَتُهُ بِمَوْتِ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ فَقْدِ حَبِيبٍ مِنَ الْخَلْقِ فَتَقَرَّرَ قَدْرُهُ ، وَكَثِيرٌ فِي النَّاسِ مِثْلُهُ ، وَمَنْ كَانَتْ مَحْنَتُهُ فِي اللَّهِ وَفِي اللَّهِ فَتَقَرَّرَ قَدْرُهُ ، وَقَلِيلٌ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ ، فَهُمْ فِي الْعَدَدِ قَلِيلٌ وَلَكِنْ فِي الْقَدْرِ وَالْخَطَرِ جَلِيلٌ ؛ وَبِقَدْرِ الْوُقُوفِ فِي الْبَلَاءِ تَظْهَرُ جَوَاهِرُ الرِّجَالِ ، وَتَتَصَوَّرُ عَنْ الْخَبَثِ نَفُوسُهُمْ .

وَالْمُؤْمِنُ مَنْ يَكْفُ الْأَذَى ، وَيَتَحَمَّلُ مِنَ الْخَلْقِ الْأَذَى ، وَيَتَشَرَّبُ وَلَا يَتَرَشَّحُ بغير

شكوى ولا إظهار ؛ كالأرض يلتقى عليها كل شيء فتنبئت كل خضرة وكل نزهة^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وليعلمنَّ المنافقين » .

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا

اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم

بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم

لكاذبون »

ضمنوا بما لم يفوا به ، وأخلفوا فيما وعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على
حمل نفوسهم ؛ فاحتبوا وزراً ما كملوا ، وطولبوا بوزر ما به أمروا^(٢) ، فضعف عليهم
العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهنم إلى راحة ، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب
أخاه يثرب .

قوله جل ذكره : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْلَامَهُمْ

وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهُمْ كَانُوا

يَفْتَرُونَ »

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتشبهون بأهل الحقائق :

مَنْ تَحْلَى بَنِيرَ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَّ الْامْتِحَانُ مَا يُدَّعِيهِ

وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »^(٣) . . وهيئات هيئات !

(١) القشيري هنا مستفيد من قول الجنيد : (للمرئ كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل طيب) الرسالة ص ١٢٩ .

(٢) رأينا بناء (أمروا) للعلوم حتى يتضح أن وزرهم أشد نتيجة قولهم للذين آمنوا : (اتبعوا سبيلنا) ؛ فالداعي إلى السوء يحمل وزر نفسه ووزر من يقتدى به . ومن الجائز أن تبنى المجهول فتكون (أمروا) ولكن المعنى يكون أقل تأثيراً وأداء .

(٣) آية ١١١ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قَلْبَتْ

فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَ

الطوفانُ وَّهُمْ ظَالِمُونَ » فَأَنبِئْنَاهُ... الآية

ما زادم طولُ مقامه فيهم إلا شَكَا في أمره ، وجهلاً بحاله ، ومُرِيَّة في صدقه ، ولم يزد
نوح - عليه السلام - لهم إلا نُصْحًا ، وفي الله إلا صَبْرًا . ولقد عرَّفَه اللهُ أنه لن يؤمنَ منهم
إلا الشُّرْذِمَةُ اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأمرُهُ باتخاذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم ينادر
منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ . . فلا تبديلَ لِسُنَّتِهِ في نصرته دينه .

قوله جل ذكره : « وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لقومه اعبدوا اللهَ

واتقوه ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم

تعلمون »

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع ، وكيف أقام على قومه الحُجَّةَ ، وأرشدهم إلى سَوَاءِ
المحجة ، ولكنهم أصروا على ما جحدوا ، وتمصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا ، وكادوا لإبراهيم
كيداً . . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكرًا بهم واستدراجًا . ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُهُ ،
ولا وَجَدَ منهم مساعداً وَعَظْمًا .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا

وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا

فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا

لَهُ إِلَهِهُ تُرْجَعُونَ »

لا يَدْرِي أيهما أَقْبَحُ : . هل أعمالكم في عبادة هذه الجادات أم أقوالكم - فيما تزعمون
كذبًا - عن هذه الجادات ؟ وهي لا تملك لكم نفعًا ولا تلغ عنكم ضررًا ، ولا تملك لكم
خيرًا ولا شرًا ، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك .

وَيَنْ أَنَّهُمْ فِي هَذَا لَمْ يَكُونُوا خَالِينَ عَنْ مِلَاحِظَةِ الْخَطُوطِ وَطَلَبِ الْأَرْزَاقِ^(١) قَالَ :

« فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ » لَتَصِلُوا إِلَى خَيْرِ الدَّارَيْنِ .

وَابْتِغَاءُ الرِّزْقِ مِنْ اللَّهِ إِدَامَةُ الصَّلَاةِ ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ اسْتِفْتَاحُ بَابِ الرِّزْقِ ، قَالَ تَعَالَى :

« وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا »^(٢)

وَيُقَالُ ابْتِغَاءُ الرِّزْقِ بِشُهُودِ مَوْضِعِ الْفَاتِحَةِ فَمِنْ ذَلِكَ تَوَجُّهُ الرِّغْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي اسْتِجْلَابِ الرِّزْقِ .

وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمُ لَابْتِغَاءِ الرِّزْقِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِالْعِبَادَةِ إِلَّا بَعْدَ كِفَايَةِ الْأَمْرِ ؛ فَبِالْقُوَّةِ يُمْكِنُهُ أَدَاءُ الْعِبَادَةِ ، وَبِالرِّزْقِ يَجِدُ الْقُوَّةَ ، قَالُوا :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ

فَكُرُوهُ مَا يَلْقَى يَكُونُ جَزَاؤُهُ

« وَاشْكُرُوا لَهُ » : حَيْثُ كَفَاكُمْ أَمْرَ الرِّزْقِ حَتَّى تَقْرَعُمْ لِعِبَادَتِهِ^(٣) .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَإِنْ تُكَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ
أُمَّتٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

وَبِالْكَذِبِ عَائِدٌ عَلَى الْمُكَذِّبِ ، وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ - بَعْدَ تَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِيهِ تَقْصِيرٌ كَيْ يَكُونَ مُبَيَّنًا - شَيْءٌ آخَرُ . وَإِلَّا يَكُونُ قَدْ خَرَجَ عَنْ عَهْدِهِ الْإِلْزَامُ .
وَفِيهَا حَلٌّ بِالسَّكْذِبِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

(١) فَالْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ عَلَامَتُهَا أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلْمَعْبُودِ بِلَا تَطَلُّعٍ لِعَوَضٍ أَوْ غَرَضٍ ؛ وَالنِّيَّةُ عَنْ أَى (وَارِدٍ مِنْ تَذَكُّرِ ثَوَابٍ أَوْ تَفَكُّرِ عِقَابٍ) الرِّسَالَةُ ص ٤٠ .

(٢) آيَةُ ١٣٢ سُورَةِ طه .

(٣) عَنِ الْقَشِيرِيِّ بِتَوْضِيحِ النَّسَقِ فِي الْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ حِينَ نَاقَشَ تَرْتِيبَ الْكَلَامِ عَلَى نَحْوِ مَقْنَعٍ أَخَذَ .

الذى دَآخَلَهُمْ فِيهِ الشَّكُّ كَانَ بَعَثَ الْخَلْقَ ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَرَامَ مِنْ إِعَادَةِ فصول السَّنَةِ
بعد تَقْضِيهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِى كَانَ فِي الْعَامِ الْمَاضِ . وَيَبَيِّنُ أَنَّ جَمْعَ أَجْزَاءِ الْمُكَلَّفِينَ بعد انْقِضَائِهِ
الْبَيْتِ كإِعَادَةِ فصول السَّنَةِ ؛ فَكَمَا أَنَّ ذَلِكَ سَائِعٌ فِي قُدْرَتِهِ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ فَكَذَلِكَ
بَعَثَ الْخَلْقَ .

وكَمَا فِي فصول السَّنَةِ تَتَكَرَّرُ أحوالُ الْعِبَادَةِ فِي الْأحوالِ الْعَامَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ السَّكَافَةِ ،
وَفِي خَوَاصِّ أحوالِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اسْتِيلَاءِ شَهْوَاتِ النُّفُوسِ ، ثُمَّ زَوَالِهَا ، إِلَى مَوَالَاةِ الطَّاعَاتِ ،
ثُمَّ حَصُولِ الْفِتْرَةِ ، وَالْمُودِ إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ بعد ذَلِكَ الْإِتْبَاءُ بِالتَّوْبَةِ . . . كَذَلِكَ
تَتَكَرَّرُ عَلَيْهِمُ الْأحوالُ .

وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ تَتَعَاقَبُ أحوالُهُمْ فِي الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ ثُمَّ فِي الْهَيْبَةِ وَالْأُنْسِ ، ثُمَّ فِي التَّجَلَّى
وَالسُّرِّ ، ثُمَّ فِي الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ ، ثُمَّ فِي السُّكْرِ^(١) وَالصُّحُورِ . . . وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ . وَفِي هَذَا
الْمَعْنَى قَوْلُهُ :

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ
ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ »

وَفِي مَعْنَى تَكَرُّرِ الْأحوالِ مَا أَنْشَدُوا :

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى

فَإِلَيْهِ الْمَاءُ . يَوْمًا سَيَعُودُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ
وَالِلَّهِ تُقَلَّبُونَ »

أَجْنَاسُ مَا يُعَذِّبُ بِهِ عِبَادَهُ وَأَنْوَاعُ مَا يَرْحَمُ بِهِ عِبَادَهُ . . . لَا نِهَآيَةَ لَهَا وَلَا حَصْرٌ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ
أَنَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْخُذْلَانِ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْجُحُودِ وَالْعِنُودِ ،

(١) وَرَدَتْ فِي هَذَا (الشُّكُّ) وَفِي مِ (السُّكْرُ) وَالصُّوَابُ هَذِهِ لِأَنَّهَا تَلَامُ السِّيَاقَ . فَالسُّكْرُ وَالصُّحُورُ حَالَانِ
مِنْ أحوالِ الْفَنَاءِ .

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يعذب من يشاء بالحرم ويرحم من يشاء بالقناعة . يعذب من يشاء بفرقة الهم ويرحم من يشاء بجمع الهممة . يعذب من يشاء بإلقائه في ظلمة التدبير ، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير . يعذب من يشاء بالاختيار من نفسه ، ويرحم من يشاء بإنهاء محكم ربه . يعذب من يشاء بإعراضه عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يعذب من يشاء بأن يكلفه ونفسه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحسن توليه . يعذب من يشاء بحب الدنيا ويمتنعها عنه ، ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبسطها عليه . يعذب من يشاء بأن يثبت في أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

قوله جل ذكره : « وما أنتم بمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

نَقَلَبَ الْجَلَّةَ فِي الْقَبْضَةِ ، وَنَجَرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامَ التَّقْدِيرِ : جَعَدُوا أَمْ وَحَدُوا ، أَقْبَلُوا أَمْ أَعْرَضُوا .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَتِلْكَ أَوَّلُكَ يَنْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأَوَّلُكَ لَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

تَجَلَّتْ عَقُوبَتُهُمْ بِأَنْ يَنْسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ . . . وَلَا عَقُوبَةَ أَشَدَّ مِنْ هَذَا .

قوله جل ذكره : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

لَمْ أَعْجَزُوا عَنْ جَوَابِهِ وَلَمْ يَسَاعِدْهُمُ التَّوْفِيقُ بِالْإِجَابَةِ أَخَذُوا فِي مَعَارَضَتِهِ بِالْهَيْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالسَّفَاهَةِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى صَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ ، وَكَفَاهُ مَكْرَهُمْ ، وَأَفْلَحَ عَلَيْهِمْ حُجَّتُهُ (١) ،

(١) أَفْلَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حُجَّتُهُ أَيِ أَظْهَرَهَا وَأَثْبَتَهَا .

وأظهر للكافة عجزهم ، وأخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللعن والطردي ، وفنون الهوان والخنزى .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّنْ لَهُ لوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

لَا تَصِحُّ الْمُهْجَرَةُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِالتَّبَرُّيِّ — بِالْكَالِ — بِالْقَلْبِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ . وَالْمُهْجَرَةُ بِالنَّفْسِ يَسِيرَةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْمُهْجَرَةِ بِالْقَلْبِ — وَهِيَ هَجْرَةُ الْخَوَاصِّ ؛ وَهِيَ الْخُرُوجُ عَنْ أَوْطَانِ التَّفَرُّقَةِ إِلَى سَاحَاتِ الْجَمْعِ . وَالْجَمْعُ بَيْنَ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ التَّفَرُّقَةِ وَالْكُونِ فِي مَشَاهِدِ الْجَمْعِ مُتَنَافٍ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمُنِجُونَ الصَّالِحِينَ » .

لَمَّا لَمْ يُجِبْ قَوْمُهُ ، وَبَذَلَ لَهُمُ النَّصِيحَ^(٢) ، وَلَمْ يَدَّخِرْ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الشَّفَقَةِ — حَقَّقَ اللَّهُ مُرَادَهُ فِي نَسْلِهِ ، فَوَهَبَ لَهُ أَوْلَادَهُ ، وَبَارَكَ فِيهِمْ ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ الْكِتَابَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَاسْتَخْلَصَهُمُ لِلْغَيْرَاتِ حَتَّى صَلَحَتْ أَعْمَالُهُمُ لِلْقَبُولِ ، وَأَحْوَالُهُمُ لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَنَفْسُهُمُ لِلْقِيَامِ بِعِبَادَتِهِ ، وَأَسْرَارُهُمْ لِشَاهِدَتِهِ ، وَقُلُوبُهُمْ لِمَعْرِفَتِهِ .

« وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمُنِجُونَ الصَّالِحِينَ » لِلدُّنُوِّ وَالزُّلْفَةِ وَالتَّخْصِصِ بِالتَّوْبَةِ .

قوله جل ذكره : « وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنَارُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » .

(١) مَا يَكُونُ كَسِبًا لِلْعَبْدِ وَمَا يَلِيقُ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ فَهُوَ فَرْقٌ وَمَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْحَقِّ مِنْ إِبْدَاءِ مَعَانٍ وَإِسْدَاءِ لُطْفٍ وَإِحْسَانٍ فَهُوَ جَمْعٌ فَإِثْبَاتُ الْخَلْقِ مِنْ بَابِ التَّفَرُّقَةِ وَإِثْبَاتُ الْحَقِّ مِنْ نَعْتِ الْجَمْعِ (الرَّسَالَةُ ص ٢٨) .
(٢) فِي صِرَازِ النَّاسِخِ (فِي أَوْطَانٍ) وَهِيَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي مِ وَالسِّيَاقُ يُسْتَفْنَى عَنْهَا .

لأَمَهُمْ عَلَى خَصْلَتِهِمُ الشُّعَاءُ ، وَمَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْاجْتِرَاءِ ، وَمَا يُضَيِّقُونَهُ مِنَ
الْمَعْرُوفِ وَيَأْتُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي جَمَلَتْهُ تَحْلِيَّتُهُ الْفُسَّاقُ مَعَ فِسْقِهِمْ ، وَتَرَكَ الْقَبْضَ عَلَى أَيْدِيهِمْ ،
وَقَلَّةَ الْاحْتِشَامِ مِنَ احْتِلَاعِ النَّاسِ عَلَى قَبَاحِ أَعْمَالِهِمْ . وَمِنْ ذَلِكَ قَلَّةُ احْتِرَامِ الشُّيُوخِ وَالْأَكْبَرِ ،
وَمِنْهَا التَّسْوِيفُ فِي التَّوْبَةِ ، وَمِنْهَا التَّفَاخُرُ بِالزَّلَّةِ .

فَمَا كَانَ جَوَابُهُمْ إِلَّا اسْتَعْجَالَ الْعُقُوبَةِ ، فَخَلَّ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا أَهْلَكَهُمْ وَأَهْلَكَ
مَنْ شَارَكَهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى
قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » .

التبس على إبراهيم أمرهم فظنهم أضيافاً ؛ فتكلف لم تقديم العجل الحنيد جرياً على سُنَّتِهِ
فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ . فَلَمَّا أَخْبَرُوهُ مَقْصُودَهُمْ مِنْ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ تَكَلَّمَ فِي بَابِ لُوطٍ ... إِلَى أَنْ
قَالُوا : إِنَّا مُنْجُوهُمْ . وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ إِهْلَاكَ لُوطٍ — وَإِنْ كَانَ
بَرِيئًا — لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا ؛ إِذْ لَوْ كَانَ قَبِيحًا لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَعَ وَفَرَةٍ عَلَيْهِ —
بِشَكْلِ عَلَيْهِ حَتَّى كَانَ يَجَادِلُ عَنْهُ . بَلِ اللَّهُ أَنْ يَمْدُبَ مَنْ يَمْدُبُ ، وَيُعَافِي مَنْ يُعَافِي ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَنْخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ
إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » .

لَمَّا أَنْ رَآهُمْ لُوطٌ ضَاقَ بِهِمْ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ ، نَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَسَادِ قَوْمِهِ ؛
فَكَانَ ضَيْقُ قَلْبِهِ لِأَجْلِ اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — ، فَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ ، وَأَنَّ قَوْمَهُ لَنْ يَصِلُوا
إِلَيْهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَكَنَ قَلْبُهُ ، وَزَالَ ضَيْقُ صَدْرِهِ .

(١) أَيِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَلَلِ وَالْبَلَايَا وَأَمْسَهُ .

وقال أقرب ما يكون العبد في البلاء من التفرج إذا اشتد عليه البلاء ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مضطراً ، والله سبحانه وعَدَ المضطرين وشيك الاجابة^(١) . كذلك كان لوط في تلك الليلة ، فقد ضاق بهم ذرعاً ثم لم يلبث أن وجد الخلاص من ضيقه .
قوله جل ذكره : « ولقد تركنا منها آيةً بيّنةً لِقَوْمٍ يَعْتَلُونَ » .

فمن أراد الاعتبار فله في قصتها عبرة .

قوله جل ذكره : « وإلى مدين أخاهم شعيباً ... »
الآيات .

ذكر قصة شعيب وقصة عاد وثمود وقصة فرعون ، وقصة قارون .. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على منوال بعض ، وسلك مسلكهم ، ولم يقبلوا النصيح ، ولم يبألوا بمخالفة رُسُلِهِمْ ، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم ، إمضاء لِسُنَّتِهِ في نصرته الضعفاء وقهر الظالمين .

قوله جل ذكره : « مثلُ الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أولياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً ، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه ؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى .. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يبنى .
وبيتُ العنكبوت أ كثره في الزوايا من الجدران ، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ^(٢) والكتمان ، وأما المؤمن فظاهرُ للعامة ، لا يستر ولا يُدْخِسُ^(٣) .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وأمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » آية ٦٢ سورة النمل .

(٢) التقية عند بعض الفرق الإسلامية معناها إخفاء الحق ومصانعة الناس في غير دولتهم .

(٣) دخس عليه = لم يبين له ما يريد ، ودخس الشيء = ستره .

وبيتُ النكبتِ أوهنُ البيوتِ لأنه بلا أساسٍ ولا جدرانٍ ولا سقفٍ ولا يمسك على
أذونٌ^(١) دَفْعٌ .. كذلك الكافر ؛ لا أصلَ لشأنه ، ولا أساسَ لبنياته ، يرى شيئاً
ولكن بالتخيل ، فأمّا في التحقيق .. فلا .

قوله جل ذكره : « وتلك الأمثالُ نَضْرِبُهَا للناسِ
وما يَتَّبِعُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

الكلُّ يشتركون في سماعِ الأمثالِ ، ولكن لا يصنئ إليها مَنْ كان نَفْوَ القلبِ ،
كنودَ الحالِ ، متعوداً الكسلِ ، مُعَرَّجاً في أوطانِ الفشلِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

« بالحق » : أى بالقول الحق والأمر الحق .

قوله جل ذكره : « أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » .

أى من شأن المؤمن وسيله أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى ينبغى للمؤمن
أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى
للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن
الايمان — كذلك من لم ينته عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإن لم يكن من
العبد انتهاء فالصلاة ناهيةً على معنى ورود الزواجر على قلبه بالألا يفعل ، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع
تلك الخواطر .

(١) أى على أصنف دفع

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر . فإن كان — وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها

ويقال الفحشاء هي الدنيا ، والمنكر هو النفس .

ويقال الفحشاء هي المعاصي ، والمنكر هو المخلووظ .

ويقال الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسابُ النجاة بها ، وقيل ملاحظته الأعراض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

ويقال الفحشاء رؤيتها ، والمنكر طلب العوض عليها .

« ولذكر الله أكبر » (١) : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُحدث .

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ؛ لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذكر الله لك أكبر من ذكرك له .

ويقال ذكره لك بالسعادة أكبر من ذكرك له بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبقى للذاكر معه ذكر مخلوق .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبقى للزلة معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبقى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً ؛ فلحرمة ذكره زَلَّاتُ الذاكر منقورة ، وعيوبه مستورة .

قوله جل ذكره : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي

(١) رأى القشيري في «ولذكر الله أكبر» ، ليس فيه كما يلحظ القاريء تقليل من قيمة الصلاة العادية التي وردت في الآية نفسها ، كما قد يدعى بعض من يهتمون بالصوفية بأنهم يرفعون «ذكرهم» ويخفضون قيمة «الصلاة» وبالتالي لا يباهون بها . . وهذا — كما هو واضح — اتهام باطل .

هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ
لَهُ مُسْلِمُونَ »

يُقْبَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ لِلخَصْمِ تَبْيِينٌ ، وَفِي خُطَابِكَ تَلْيِينٌ ، وَفِي قَبُولِ الْحَقِّ إِعْصَافٌ ، وَاعْتِقَادُ
النَّصْرَةِ — لَمَّا رَأَاهُ صَحِيحاً — بِالْحُجَّةِ ، وَتَرَكَّ الْمِيلَ إِلَى الشَّيْءِ بِالْمَوَى .

قوله جل ذكره : « وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ
فالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَؤْمِنُونَ بِهِ
وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ » .

يَعْنِي أَنَّهُمْ عَلَى أَنْوَاعٍ : فَرَحُومٌ نَظَرْنَا إِلَيْهِ بِالْعَنَائَةِ ، وَمَحْرُومٌ وَسَمْنَاهُ بِالشَّقَاوَةِ .

قوله جل ذكره : « وما كنتَ تتلو من قبله من
كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا
لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » .

أَيُّ نَجَرْدٍ قَلْبِكَ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ . وَتَقْدَسُ سِرُّكَ عَنِ الْمُرْسُومَاتِ ، فَصَادَفَكَ مِنْ غَيْرِ مِمَّا رَجَا
طَبْعُ وَمِشَارَكَةِ كَسْبٍ وَتَكْلَفٍ بَشَرِيٍّ ^(١) ، فَلَمَّا خَلَا قَلْبُكَ وَسِرُّكَ عَنْ كُلِّ مَعْلُومٍ وَمُرْسُومٍ
وَرَدَّ عَلَيْكَ خُطَابُنَا وَتَهْمِينَا غَيْرَ مَقْرُونٍ بِهِمَا مَالِيَسٍ مِنَّا .

قوله جل ذكره : « بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

قُلُوبُ الْخُلَاصِ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ خَزَائِنُ الْغَيْبِ ، فِيهَا أُودِعَ بَرَاهِينُ حَقِّهِ ، وَبَيِّنَاتُ سِرِّهِ ،
وَدَلَالُ تَوْحِيدِهِ ، وَشَوَاهِدُ رُبُوبِيَّتِهِ ؛ قَانُونُ ^(٢) الْحَقَائِقِ قُلُوبِهِمْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَطْلُبُ مِنْ مَوْطِنِهِ

(١) أَيُّ أَنْ هَذِهِ الْآفَاتُ تَلْحَقُ عُلُومَ الْإِنْسَانِ حِينَ لَا تَكُونُ خَالِصَةً .

(٢) مِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ (الْقَانُونُ) طَرِيقُ الشَّيْءِ وَأَصْلُهُ .

ومحله ؛ فالدرُّ يُطلبُ من الصدف لأنَّ ذلك مسكه ، والشمسُ تطلب من البروج لأنها مطلعها ،
والشَّهيد يُطلبُ من التَّحِلِّ لأنه عِشهُ . كذلك المعرفة^(١) تُطلبُ من قلوب خواصه لأنَّ ذلك قانون
معرفة ، ومنها (. . .)^(٢)

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا أنزلَ عليه آياتٌ من ربِّه
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُبِينٌ »

خَفِيتُ عَلَيْهِمْ حَالَتُكَ - يا محمد - فطالبوك بإقامة الشواهد ، وقالوا : « لولا أنزلَ عليه
آيات . . . » أو لم يكفهم ما أَوْضَحْنَا عَلَيْكَ مِنَ السَّبِيلِ ، وَأَلْخَنَّا لَكَ مِنَ الدَّلِيلِ ؛ يُنْتَلَى عَلَيْهِمْ
ذلك ، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله ؟! هذا هو الجحود وغاية الكُفُود !

قوله جل ذكره : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ »

أنا على حقٍّ واللَّهُ - سبحانه - يعلمه ، وأنتم لستم على حقٍّ واللَّهُ يعلمه .

قوله جل ذكره : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ
مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

لولا أني ضربتُ لكلَّ شيءٍ أَجَلاً لَعَجَلْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمُ الْعَذَابُ - حين
يأتيهم - بَغْةً وَفَجْأةً .

(١) ورد في ص بدء كلمة المعرفة (وصف الحق) وربما كانت (بوصف الحق) وهي غير موجودة في م ،
ونرجح أنها موجودة في الأصل بدليل اقتران التفسير ؛ (خواصه) .
(٢) في ص (توقع نسخة توحيد) وفي م (يرفع نسخة توحيد) وكلاهما غامض في الكتابة وإن كنا نستطيع
أن نفهم أن التوحيد - وهو أقصى درجات المعرفة - محله قلوب الخواص .

قوله جل ذكره . « يومَ يَفْشَامُ العذابُ مِن فوقِهِم
ومن تحت أرجُلِهِم ويقول ذوقوا
ما كنتم تعملون »

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريح لهم ، كذلك - اليوم - من
أحاط به العذاب ؛ من فوقه اللعنُ ومن تحته الخسفُ ، ومن حوله الخزيُّ ، ويُلبَسُ لباسَ
الخذلان ، ويومسُم بكَيِّ الحرمان ، ويُسقى شرابَ القنوط ، ويتوجُّ بتاج الخيبة ، ويُقيَّدُ بقيد
السُّخْط ، ويُغْلَى بِغِلِّ المداوة ، فهم يُسَجَّبون في جهنم الفراق حُكْمًا ، إلى أن يُلقَوْا في جحيم
الاحتراق عينًا .

قوله جل ذكره : « يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أَرْضِي
واسعةٌ فأبأي فاعبدونِ »

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيق بمريدٍ مكان ، فإذا نبا به منزلٌ - لوجهٍ من الوجوه -
إِثْمًا لمعلومٍ حصل ، أو لقبولٍ من الناس ، أو جاء ، أو لعلاقةٍ أو تقريبٍ أو لبلاءٍ ضِدٍّ ، أو لوجهٍ
من الوجوه الضارة . . . فسبيله أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره ، كما قالوا^(١) :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيًّا
أن أرى غيرَ مُضِيحٍ حيثُ أُنْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقته مكانً انتقل إلى غيره من الأماكن^(٢) .

قوله جل ذكره : « كلُّ نفسٍ ذائِقَةُ الموتِ ثمَّ إلينا
نُرجِعون »

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور ؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطن نفسه

(١) البحري في السينة .

(٢) تعبر هذه الفقرة عن رأى التشيرى فيما يعرف عند الصوفية (بالسفر) فهو يميزه للعارف ، أما بالنسبة للمريد
فإنه يرى عدم السفر ؛ لأن ثبات المريد في مكان به ابتلاء هروب من مواجهة الابتلاء وذلك آية ضعف في الإرادة ؛
(ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلزم موضع لإرادته وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول
بالقلب إلى الرب ، ، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل) (الرسالة ص ٢٠٠) .

على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأجل فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحكم الوقت ، كما قالوا :

لو قال لي مُتْ مِتْ سَمَاءَ وطاعةً

وقلتُ لداعي الموت : أهلاً ومرحباً

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات -

لنبؤنهم من الجنة غُرَفًا يَجْرِي مِنْ

تحتها الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا يُعَمَّرُ

العامِلِينَ » .

هم - اليوم - في غُرَفٍ معارفهم على أَسِيرَةٍ وَصَلِهِمْ ، مُتَوَجِّونَ بَنِيَّانَ سيادتهم ، يُسْقَوْنَ كَاسَاتِ الْوَجْدِ ، وَيَجْبُرُونَ فِي جَنَّاتِ الْقُرْبِ ، وعداً كما قال : -

« الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة .

الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء ، الصبرُ حبسُ النَّفْسِ على فِطَامِهَا .

الصبرُ تَجَرُّعُ كَاسَاتِ التَّعْدِيرِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِيسٍ .

الصبرُ صفةٌ توجب مَعِيَّةَ الْحَقِّ . . وَأَعَزِّزُ بِهَا !

وأولُ الصبرِ تَصَبُّرٌ بِتَكْلِفٍ ، ثم صَبْرٌ بِسَهْوَةٍ ، ثم اصْطِبَارٌ وَعَمَلٌ مَمْرُوجٌ بِالرَّاحَةِ ، ثم مَحَقُّقٌ بِوَصْفِ الرِّضَا ؛ فيصير العبدُ فيه مَحْمُولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً .

والتوكلُ انتِظارٌ مع استِبْشَارٍ ، والتوكلُ سُكُونُ السَّرِّ إِلَى اللَّهِ ، التوكلُ اسْتِقْلَالٌ بِحَقِيقَةِ التوكلِ ؛ فلا تَتَبَرَّمْ فِي الْخَلْوَةِ بِاتِّقَاعِ الْأَغْيَارِ عَنْكَ . التوكلُ إِعْرَاضُ الْقَلْبِ عَنْ غَيْرِ الرَّبِّ .

قوله جل ذكره : « وَكَأَيُّنَ مِنْ حَايَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ

يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

« لا تحمل رزقها » أى لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه فى كيسه أو خزانته فإِنَّهُ يَرْزُقُهُ مِنْ غَيْرِ مَقَاسَاةٍ تَصِبُ مِنْهُ .

ويقال « لا تحمل رزقها » للتصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها بيت تجمع فيه القوت ، وليس لها خازن ولا وكيل .. الله يرزقها وإياكم .
ويقال إرادة الله فى أن يستبقيك ولا يقبض رُوحَكَ أقوى وأتم وأكبر من تعنيك لأجل بقاءك .. فلا ينبغي أن يكون اعتمادك بسبب عيشك أتم وأكبر من تدبير صانعك لأجل بقاءك .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

إذا سئِلُوا عن الخالق أقروا بالله ، وإذا سئِلُوا عن الرازق لم يستقروا مع الله .. هذه مناقضة ظاهرة !

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

الرزق على قسمين : رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب ، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعاني بحيث لا يحصره تكلف الكلام ، والناس فيهم مرزوق ومرقة عليه ، وفيهم مرزوق ولكن مضيق عليه .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ
اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ » .

كما عَلِمُوا أَنَّ حَيَاةَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَطَرِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فليعلموا أَنَّ حَيَاةَ النُّفُوسِ
بَعْدَ مَوْتِهَا — عِنْدَ النَّشْرِ وَالْبَعْثِ — بِقُدْرَةِ اللَّهِ . وكما عَلِمُوا ذَلِكَ فليعلموا أَنَّ حَيَاةَ الْأَوْقَاتِ
بَعْدَ نَفْسِهَا ، وَحَيَاةَ الْقُلُوبِ بِمَدْفَرَتِهَا ... بِمَاءِ الرَّحْمَةِ بِاللَّهِ .

قوله جل ذكره : « وما هذه الحياة الدنيا
إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ
الْحَيَوانِ لو كانوا يعلمون » .

الدنيا كالأحلام ، وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم . والآخرة هنالك العيش بكامله ،
والتخلص — من الوحشة — بتمامه ودوامه .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي
النُّفُوسِ دَعَا اللَّهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
تَبَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » .
الإخلاصُ تفرُّغُ القلبِ عن الكلِّ ، والتمتُّ بأن الإخلاص ليس إلا به — سبحانه ،
والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات ، فبعد ذلك يبدوونه مخلصين له
الدِّينَ . وإذا توالى عليهم الضرورات ، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين (فإذا كشف
الضرَّ عنهم عادوا إلى النِّفلة ، ونسوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل)^(١) :

إِذَا ارْعَوْى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذَى الضُّعْفُ عَادَ إِلَى نُكْسِهِ

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا
وَيُنْخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْبَالِبَاطِلٍ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » .

مَنْ عَلَيْهِمْ بِدَفْعِ الْخَنِّ عَنْهُمْ وَكَوْنِ الْحَرَمِ آمِنًا . وَذَكَرَهُمْ عَظِيمَ إِحْسَانِهِ عَلَيْهِمْ ،
ثُمَّ إِعْرَاضَهُمْ عَنْ شُكْرِ ذَلِكَ .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص ، والسياق يتطلبه ؛ لأن الشاهد الشعرى الموجود
في النسختين يؤيد معناه .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » .

أى لا أحد أشد ظلمًا ممن افترى على الله الكذب ، وعدّل عن الصدق ، وآثر البهتان

ولم يتصرف بالتحقق ، أولئك هم الشقاق في الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَسَنِينَ » .

الذين زبّنوا غلواهرهم بالمجاهدات حسّنت سرائرهم بالمشاهدات . الذين شغلوا غلواهرهم

بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف . الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم

بالقرب من حيث المواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرمات ، ثم بترك الشبهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بتقطع

العلاقات ، والتنفّي من الشواغل في جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الخواص لله ، وبصدّ الأنفاس مع الله .

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جوؤه ، بلاء التهمين قصودُه ، ضياء الموحدين عهدُه .
وسلوةُ المحزونين ذِكرُه ، وحِرقةُ^(١) المُتَحَنِّين شُكْرُه .

اسمٌ عزَّزَ رداؤه كبرياؤه ، وجَبَّارٌ سناؤه بهاؤه ، وبهاؤه علاؤه .
العابدون حَسْبُهُمْ عطاؤه ، والواجدون حَسْبُهُمْ بقاؤه^(٢) .

قوله جل ذكره : « آلمَ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ »

وم من بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *
في بضع سنين » .

الإشارة في « الألف » إلى أنه أَلِفٌ صُحْبَتُنَا مَنْ عَرَفَ عَظَمَتَنَا ، وأنه أَلِفٌ بِلَاءُنَا مَنْ
عَرَفَ كِبَرِيَاءَنَا .

والإشارة في « اللام » إلى أنه لَزَمَ بَابُنَا مَنْ ذَاقَ مَحَابَبَنَا ، ولَزَمَ بَسَاطَتَنَا مَنْ
شَهِدَ جِوَالَنَا .

والإشارة في « الميم » إلى أنه مُكَنَّ مِنْ قُرْبَانَا مَنْ قَامَ عَلَى خَلْمَتِنَا ، ومات على وفائنا
مَنْ تَحَقَّقَ بَوْلَانُنَا .

قوله : « غُلِبَتِ الرُّومُ » : سُرَّتِ السُّلْمُونَ بِظَفَرِ الرُّومِ عَلَى الْعِجَمِ — وإن كان الكفر
يجمعهم — إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الآية . .
فكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحُزْنُهُ واهتمامه لدين الله ؟

(١) الحِرقة هنا معناها دأبه وديدنه (الوسيط) .

(٢) لأن بقاءهم به خلف لهم عن كل شيء ، فكل شيء زائل .

قوله جل ذكره : « الله الأمر من قبل ومن بعد »

ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله

ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

« قبل » إذا أطلق انتظم الأزل ، « وبعده » إذا أطلق دل على الأبد ؛ فالمعنى الأمر الأزلي لله ، والأمر الأبدي لله ؛ لأنَّ الرَّبَّ الأزلي والسَّيِّدَ الأبديَّ اذ .

الله الأمر يوم العرفان^(١) ، والله الأمر يوم النيران .

الله الأمر حين القسمة ولا حين ، والله الأمر عند النعمة وليس أي معين^(٢) .

ويقال : لي الأمر « من قبل » وقد علمت ما تفعلون ، فلا يمنعني أحد من تحقيق عرفانكم ، ولي الأمر « من بعد » وقد رأيت ما فعلتم ، فلا يمنعني أحد من غفرانكم .

وقيل « الله الأمر من قبل » بتحقيق ودكم ، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم :

إني — على جنواتها — وبربها

وبكل متصل بها متوسل^(٣)

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

اليوم إرجاف السرور وإنما

يوم اللقاء حقيقة الإرجاف

اليوم ترح وغداً فرح ، اليوم عبرة وغداً حبرة ، اليوم أسف وغداً لطف ،
اليوم بكاء وغداً لقاء .

قوله جل ذكره : « وعد الله لا يخلف الله وعده »

ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

(١) هكذا في م وهي في من يوم (القربان) ، والمعرفة والقرب مجريان في هذه الحياة الدنيا ، أما النيران فهو في الآخرة يوم الحساب .

(٢) هكذا في م وهي في من : (والله الأمر عند النعمة وليس في مصر) وهي غامضة في الكتابة والمعنى ، وقد آثرنا ما جاء في م لوضوحه .

(٣) في موضع آخر من هذا المجلد نجد هنا البيت متبوعاً بالبيت التالي (الذي فيه خبر إن) :
لأحبها وأحب منزلها الذي نزلت به وأحب أهل المنزل

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لاسيما والصدقُ نته .

يقول المؤمنون : مينا يومَ الليثاقِ وعدُّ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومَ وعدُّ بالجنة ، فإن وقع في وعدنا تمصيرٌ لا يقع في وعده قصورٌ .

قوله جل ذكره : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا »
وهم عن الآخرة هم غافلون .

استغراقهم في الاشتغال بالدنيا ، وانهما كهم في تعليق القلب بها . . منهم عن العلم بالآخرة . وقصة كل امرئٍ علمه بالله ؛ ففي الأثر عن عليٍّ — رضى الله عنه — أنه قال : أهل الدنيا على غفلةٍ من الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في غفلة عن الله .

قوله جل ذكره : « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .

إن من نظر حق النظر ، ووضع النظر موضعه أثمر له العلم واجباً ، فإذا استبصر بنور اليقين أحكام الغائبات ، وعلم موعوده الصادق في المستأنف — نجا عن كد التردد والتجوير^(١) . فسبيل من صح عقله ألا ينجح إلى التمصير فيما به كمال سكونه .

قوله جل ذكره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثماروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم

(١) التردد والتجوير آفتان تصيبان — في نظر القشيري — العقل ، بينما القلب والروح والسر وعين السر لا تصاب بهما .

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

سَيَّرُ النفوسِ في أقطار الأرض ومنا كلها لأداء العبادات، وسَيَّرُ القلوبِ بِمَحْوَلَانِ الْفِكْرِ
في جميع المخلوقات ، وغايته الظَّفَرُ بِمَحَاقِقِ العلوم التي توجبُ نلج الصدر — ثم تلك العلوم على
درجات . وسير الأرواح في ميادين الغيب بنمت خرق سرادقات الملكوت ، وقصاراه الوصولُ
إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأسرار بالترقى عن الحدَّ ثانٍ ^(١) بأسْرِها ،
والتحقق أولاً بالصفات ، ثم بالمحود بالكلية عما سوى الحق ^(٢) .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
الشَّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا
بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ » .

مَنْ زَرَعَ الشَّوْكَ لَمْ يَحْصُدِ الْوَرْدَ ، وَمَنْ اسْتَنْبَتَ الْحَشِيشَ لَمْ يَقْطِفِ الثَّمَارَ ، وَمَنْ سَلَكَ
طَرِيقَ الْغَى لَمْ يَحْمِلْ بِسَاحَةِ الرُّشْدِ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ » .

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْجَحْرِمُونَ » .
شهودُهم ما جحدوه في الدنيا عياناً ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون
قطاً ^(٣) هو الذي يفتت أكيادهم ، وبه تتم محنتهم .

قوله جل ذكره : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ
وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ » .

(١) المقصود بالحدثان المخلوقات إذ لها أول وابتداء ولها آخر وانتهاء .

(٢) انظر بخصوص هذا الترقى صفحة ٤٨٦ (المجلد الأول من هذا الكتاب) .

(٣) لأن معرفتهم العينية تقطع كل شك كان يراودهم في الحياة الدنيا ، فلا مجال يومئذ لأمل زائف .

تقلب العداوة من بعض على بعض .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ » .
فريق منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل الفرقة . فريق للجنة والمِنَّة ، وفريق للعذاب
واللحنة . فريق في السَّعِير ، وفريق في السرور . فريق في الثواب ، وفريق في العذاب .
فريق في الفراق ، وفريق في التلاق .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » .

فهم في رياضٍ وغياضٍ .

« وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلَمَّا آتَاكَ الْآخِرَةَ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
مُخْضَرُونَ » .

فهم في بوارٍ وهلاكٍ .

قوله جل ذكره : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحُكْمُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » .

مَنْ كَانَ صَبَاحُهُ لِلَّهِ بُورِكَ لَهُ فِي يَوْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ مَسَاؤُهُ بِاللَّهِ بُورِكَ لَهُ فِي لَيْلِهِ :
وإِنَّ صَبَاحًا نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ صَبَاحٌ عَلَى قَلْبِ الْغَرِيبِ حَبِيبُ
شَتَانٍ بَيْنَ عَبْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِعِبَادَتِهِ وَمَسَاؤُهُ مُخْتَتَمٌ بِطَاعَتِهِ ، وَبَيْنَ عَبْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ
بِمَشَاهِدَتِهِ وَرَوَاحِهِ مُفْتَتِحٌ بِمَزِيدِ قُرْبَتِهِ !

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات ، والآية تتضمن الصلوات الخمس^(١) ،

(١) قيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية . (حين تمسرون)
صلاة المغرب والعشاء ، (وحين تصبحون صلاة الفجر ، (وعشيا) صلاة العصر ، (وحين تظهرون) صلاة الظهر .

وإرادة الحق من أوليائه بأن يجددوا العهد في اليوم واللييلة خمس مرات ؛ فتقف على بساط
المنجاة ، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

قوله جل ذكره : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » .

« يخرج الحي من الميت » : الطير من البيض ، والحيوان من النطفة .

و « يخرج الميت من الحي » : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .
والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

ويُظهِرُ أَوْقَاتًا مِنْ بَيْنِ أَوْقَاتٍ ؛ كالتقبض من بين أوقات البسط ، والبسط من بين
أوقات التقبض .

« ويحيي الأرض بعد موتها » : يحييها بالمطر ، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك
يوم النشور يحيي الخلق بعد الموت .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بِهِ تَنفُسُونَ » .

خلق آدم من التراب ، ثم من آدم الذرية . فذكرهم نسبتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال الأصل تُرْبَةٌ ولكن العبرة بالترية لا بالتربة ، القيمة لما عينة لا لأعيان المخلوقات .
اصطنع واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر ؛ ولكن
البيت مختاره وهذا المختار حجر ؛ واختار الإنسان ، وهذا المختار مدبر ؛ والفنى نبي آياته ،
غنى عن كل غير من رسم وأثر .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ

مودّةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

رَدُّ اللَّثْلِ إِلَى اللَّثْلِ ، وَرَبَطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ ، وَجَلَّ سَكُونُ الْبَعْضِ إِلَى الْبَعْضِ ،
وَلَكِنْ ذَلِكَ لِلْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ ، أَمَّا الْأَرْوَاحُ فَصُحْبَتُهَا لِلْأَشْبَاحِ كَرَهٍ لَا طَوْعٍ^(١) .
وَأَمَّا الْأَسْرَارُ فَمُعْتَقَةٌ لَا تَسَاكُنُ الْأَطْلَالَ وَلَا تَتَدَنَسُ بِالْأَعْلَالِ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَالْوَانِكُمْ^(٢) »
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي عُلُوِّهَا وَالْأَرْضَ فِي دُنُوِّهَا ؛ هَذِهِ بَنَاجُوهَا وَكَوَاكِبُهَا ، وَهَذِهِ بِأَقْطَارِهَا
وَمَنَاجِبُهَا . وَهَذِهِ بِشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا ، وَهَذِهِ بِمَائِهَا وَمَدَرِهَا .

وَمِنْ آيَاتِهِ اخْتِلَافُ لَوْنَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ نَسِيجَاتِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ سَكَانُ
السَّمَاءِ . وَإِنَّ اخْتِلَافَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِحُكْمٍ — شَاهِدٌ عَدْلٍ ، وَدَلِيلٌ صِدْقٍ عَلَى أَنَّهَا تَنَاجِي
أَفْكَارَ الْمُتَقَلِّظِينَ ، وَتَنَادِي عَلَى أَنْفُسِهَا . . أَنَّهَا جَمِيعُهَا مِنْ تَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَاجْتِنَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ^(٣) » فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

غَلَبَةُ النَّوْمِ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ صَاحِبِهِ ثُمَّ انْتِبَاهُهُ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ لَهُ بِوُسْطِهِ يَدُلُّ عَلَى مَوْتِهِ
وَبَشِيرِهِ بِدَ ذَلِكَ وَقْتِ نَشُورِهِ . ثُمَّ فِي حَالِ مَنَامِهِ يَرَى مَا يَسْرُهُ وَمَا يَضُرُّهُ ، وَعَلَى أَوْصَافٍ
كَثِيرَةٍ أَمْرِهِ .. كَذَلِكَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ .. اللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ حَالُهُ فِي أَمْرِهِ ، وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ خَيْرِهِ
وَشَرِّهِ ، وَنَفْعِهِ وَضَرَرِهِ ؟

(١) فكرة الخراب الروح عن مصدرها الأصل ، وليتها في داخل البدن ، ذلك التفصص المادي أو السجن
الذاتي — تحت اهتماماً كبيراً عند شعراء الصوفية (أنظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامي » فصل النظرية) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ يَرْسِلُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ » .

يُلْقَى فِي الْقُلُوبِ مِنَ الرَّجَاءِ وَالتَّوَقُّعِ فِي الْأُمُورِ ، ثُمَّ يَخْتَلِفُ بِهِمُ الْحَالُ ؛ فَمِنْ عَبْدٍ يَحْصُلُ
مَقْصُودُهُ ، وَمِنْ آخَرَ لَا يَتَّفِقُ مَرَادُهُ .

وَالْأَحْوَالُ اللَّطِيفَةُ كَالْبُرُوقِ ، وَقَالُوا : إِنَّهَا لَوَائِحُ ثُمَّ لَوَاعٍ ثُمَّ طَوَالٍ ثُمَّ شَوَارِقُ ثُمَّ مَتَوَعُ
النَّهَارِ^(١) ، فَالْوَائِحُ فِي أَوَائِلِ الْعُلُومِ ، وَالْوَوَاعِ مِنْ حَيْثُ الْفَهْمِ ، وَالطَّوَالِ مِنْ حَيْثُ
الْمَعَارِفِ^(٢) ، وَالشَّوَارِقُ مِنْ حَيْثُ التَّوْحِيدِ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ
إِذَا أَنْتُمْ كَخِرُجُونَ » .

يُقْنِي هَذِهِ الْأَدْوَارَ ، وَيُنِيرُ هَذِهِ الْأَطْوَارَ ، وَيَبْدُلُ أَحْوَالَ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ؛ إِمَاتَةً ثُمَّ
إِحْيَاءً ، وَإِعَادَةً وَقَبْلَهَا إِبْدَاءً ، وَقَبْرًا ثُمَّ نَشْرًا ، وَمَعَاتِبَةً فِي الْقَبْرِ ثُمَّ مَحَاسِبَةً بَعْدَ النَّشْرِ .

قوله جل ذكره : « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ
قَانِتُونَ » .

لَهُ ذَلِكَ مِنْكَ ، وَمِنْهُ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ بَدْءًا ، وَبِهِ إِجْبَادًا ، وَإِلَيْهِ رَجُوعًا .

قوله جل ذكره : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(١) يَتَّفِقُ مَوْقِفُ التَّشْيِيرِ مِنْ هَذِهِ الْمَصْطَلَحَاتِ هُنَا مَعَ مَا ذَكَرَهُ فِي «الرَّسَالَةِ» وَإِنْ كَانَ قَدْ زَادَ عَلَيْهَا هُنَا
(مَتَرَعُ النَّهَارِ) .

(٢) فَفَهِمُ مِنْ هَذَا أَنَّ التَّشْيِيرَ يَرَى هَذَا التَّرْتِيبَ : الْعِلْمُ ثُمَّ الْفَهْمُ ثُمَّ الْمَعْرِفَةُ أَوْ الْمَعْرِفَانِ ، وَفَفَهِمُ أَنَّ التَّوْحِيدَ
أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَعْرِفَانِ .

« وهو أهون عليه » أى فى ظنكم وتقديركم^(١) .

وفى الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز .

« وله المثل الأعلى » : له الصفة العليا فى الوجود بحق القدم ، وفى الجود بنعت الكرم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النصرة بوصف الكمال ، وفى العلم بعموم التطلق ، وفى الحكم بوجوب التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية^(٢) بحكم النفاذ ، وفى الجبروت بعين العز والجلال ، وفى المسكوت بنعت المجد والجمال .

قوله جل ذكره : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل

لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

فما رزقناكم فأنتم فيه سَوَاءٌ تخافونهم

كخيفتكم أنفسكم كذلك تفصل

الآيات لقوم يعقلون » .

أى إذا كان لكم ممالك لا تَرْضُونَ بالسواة بينكم وبينهم ، وأنتم متشاكلون^(٣) بكل وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكمهم - فما تقولون فى الذى لم يزل ، ولا يزال كما لم يزل ؟ .

هل يجوز أن يُقَدَّرَ فى وصفه أن يُساوِية عبده ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكه شريكه ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله جل ذكره : « بل اتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أهواءهم بغير علم

فمن يهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وما لهم

من ناصرين » .

(١) معنى هذه العبارة : حسب ظنكم وتقديركم الإعادة أسهل من الإنشاء .. فكيف أنكرتم الإعادة ؟ فضلاً عن أنه ليس عند الله سهل ولا عسير .

(٢) القضية : هى قضاء الله .

(٣) متشاكلون معناها : متشابهون ومتساوون ولا فرق فى الجوهرية بينكم وبينهم .

أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى ؛ لأنه قريبٌ من الشُّركِ ، قال تعالى : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » (١) . فَمَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ خَالَفَ رِضَا مَوْلَاهُ ؛ فهو يوضعه الشيءَ غيرَ موضعه صار ظالماً ، كما أن العاصيَ يوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالماً .. كذلك هذا بمتابعة هواه بدلاً عن مواظبة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متآمداً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

أَخْلَصْ قَصْدَكَ إِلَى اللَّهِ ، واحفظ عهدك مع الله ، وأفرِّدْ عملَكَ في سَكَنَاتِكَ وحركاتِكَ وجميع تصرفاتِكَ لله .

« حَنِيفًا » : أى مستقيماً في دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضًا عن غيره (٢) . والزم « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى أُنْبِتَهُمْ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ فِعْلٌ وَلَا كَسْبٌ ، وَلَا شِرْكٌَ وَلَا كُفْرٌ ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان . فاعرف بهذه الجملة ، ثم افعل ما أُمِرْتَ بِهِ ، واحذر ما تُهَيِّبُ عَنْهُ .

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى إعرَفْ واعْلَمْ . أن فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا : تَجَرُّدُهُمْ عَنْ أَضَالِهِمْ ، ثم اتصافهم بما يكسبون — وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله (٣) .

وعلى هذا تكون « فِطْرَةَ » الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ — كما قلنا .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) فكلمة وحيف من الأضداد .

(٣) يذكرنا هذا بتفسير أبي طالب المكي لقول رابعة « أحبك حين .. » فالحب الأول فطرى تفضل الله به ، والحب الثانى عانتى من بكسبها ولكنها حق في هذا الحب الكسبى لا فضل لها ، ولذلك استبركت :

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

أنظر (قوت القلوب للمكي ٢٥ ص ٦٦ وماتلها) وانظر أيضا كتابنا (نشأة التصوف الإسلامى) ط دار المعارف .

سبحانه فَطَرَ كُلَّ أَحَدٍ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاوَةِ ، وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ ،
وَلَا تَحْوِيلَ لِمَا عَلَيْهِ فَطَرَهُ . فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ سَعِيداً أَرَادَ سَعَادَتَهُ وَأَخْبَرَ عَنْ سَعَادَتِهِ ،
وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ سَعِيداً . وَمَنْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَقِيكاً وَأَخْبَرَ عَنْ شَقَاوَتِهِ وَخَلَقَهُ
فِي حُكْمِهِ شَقِيكاً .. وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ ، هَذَا هُوَ الدِّينُ السَّاتِمُ وَالْحَقُّ الصَّحِيحُ ^(١)

قوله جل ذكره : « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

أَي رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى بَقِيَّةٌ ، مُتَصِفِينَ بِوَفَائِهِ ، مُنَحْرِفِينَ
بِكُلِّ وَجْهِ عَنْ خِلَافِهِ ، مُتَّقِينَ صَغِيرَ الْإِثْمِ وَكَبِيرَهُ ، قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ ، مُؤَثِّرِينَ بِسِيرَتِهِ
وَفَائِهِ وَعَسِيرِهِ ، مُتَقِيمِينَ الصَّلَاةَ بِأَرْكَانِهَا وَمُسْتَتَابِينَ بِآدَابِهَا جَهراً ، مُتَحَقِّقِينَ بِمِرَاعَاةِ
فَضَائِلِهَا سِرّاً .

قوله جل ذكره : « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِعْماً كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ » .

أَقَامُوا فِي دِينِهِمْ فِي خِمَارِ الْغَفْلَةِ ، وَعِنَادِ الْجَهْلِ وَالْفِتْرِ ، فَرَكَنُوا إِلَى ظُنُونِهِمْ ،
وَاسْتَوَظَنُوا مَرْكَبَ أَوْهَامِهِمْ ، وَتَمَوَّعُوا مِنْ كَيْسِ غَيْرِهِمْ ، وَظَنُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ .
فَإِذَا انْكَشَفَ ضَبَابُ وَقْتِهِمْ ، وَانْتَشَعَ سَحَابُ جَحْدِهِمْ . . انْقَلَبَ فَرُوحُهُمْ تَرْحاً ،
وَاسْتَقْبَحُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ ، وَلَمْ يَعْزُجُوا إِلَّا فِي أَوْطَانِ الْجَهَالَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا
رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ
رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَشْرَكُونَ » .

(١) نَحْسِبُ أَنَّ التَّعْبِيرَ قَدْ حَاطَلَ لِإِضْطِحَاحِ مُشْكَلَةِ هَامَةٍ مِنْ مَشَاكِلِ عِلْمِ الْكَلَامِ ، فَلَيْسَتْ الْجَبَرِيَّةُ مِنْهُ بِنَاقِضَةٍ
لِحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ وَإِخْتِيَارِهِ ، مَا دَامَتِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مُرْتَبِطَةً بِعِلْمِ اللَّهِ الَّذِي سَبَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَبِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي نَعْلَمُ
عَلَى مَا عَلِمَ .

إذا أظلمت المحنة ونالتهم الفتنة ؛ وَمَسَّتْهُمُ الْبَلِيَّةُ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِأَجْمَعِهِمْ مُسْتَعِينِينَ ،
وبلطفه مستجيبين ، وعن محنتهم مستكشفين^(١) .

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم باللفظ فيما أصابهم : إذا فريق
منهم — لا كلهم — بل فريق منهم برهم يشركون ؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة
في الكفران ، ويقابلون إحسانه بالتسيان ، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء ، ولا
في مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره : « لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا
فَسُوفَ تَطْلُوتُ » .

أى عن قريب سيعطش بهم مثلما أصابهم ، ثم إنهم يعودون إلى التضرع ،
ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخشع ، فإذا أشكاهم وعاقاهم رجعوا إلى رأس
خطاياهم .

قوله جل ذكره : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ
يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » .

بين أنهم بنوا على غير أصل طريقهم ، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم ، وعلى
غير شرع من الله أو حجة أو بيان أسسوا مذاهبهم .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا
بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ » .

تستميلهم طوارق أحوالهم ؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح ، وإن كانت شدة فإلى
قنوط وترح . . وليس وصف الأكاير كذلك ؛ قال تعالى : « لَكَيْلًا تَأْسُوا عَلَى
مَأْثَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ »^(٢) .

(١) أى راجين كشف الفتنة عنهم .

(٢) آية ٢٣ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

الإشارة فيها إلى أن العبد لا يُلْقِ قلبه إلا بالله ؛ لأن ما يسوهم ليس زواله
إلا بالله ، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله ، فالبسطة التي يسرهم ويؤنسهم
منه وجوده ، والقبض التي يسوهم ويوحشهم منه حصوله ، فالواجب لزوم عقوبة^(١)
الأسرار ، وقطع الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره : « فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنِ
السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

القرابة على قسمين : قرابة النسب وقرابة الدين ، وقرابة الدين أمس ، وبالمواساة أحق
وإذا كان الرجل مشتغلا بالعبادة ، غير متفرغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمان بحاله ،
وإشراف على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم ، مما يكون له عون على الطاعة
وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يعمل حقه أكداً ، وتقديره
أونجباً .

« ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » : المريد هو الذي يُؤْتِرُ حق الله على حفظ
نفسه ؛ فإيثار المرید وجه الله أتم من مراعاته حال نفسه ، فهِمَّتْهُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْمَسَاكِينِ تَتَقَدَّمُ عَلَى نَظَرِهِ لِنَفْسِهِ وَعِيَالِهِ وَمَا بِهِمْ مِنْ خَاصَّةٍ .

قوله جل ذكره : « .. وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ » .

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجه الله ، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرُّه به من راققة^(٢) ،

(١) العقوبة الموضع التسع أمام الدار .

(٢) الرافقة = الرفق والطف ، تقول : أولاه رافقة (الوسيط) .

بل أفضل الصدقة على ذي رحمٍ كاشح^(١) . . . تكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيب لك فيه ، فهو لاءم الذين يضاعف أجورهم : قهرهم لأنفسهم حيث يخالونها ، وفوزهم بالعوض من قبل الله .

ثم الزكاة هي التطهير ، وتطهير المال معلوم ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البدن وزكاة القلب وزكاة السر . . كل ذلك يجب القيام به .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم

يميتكم ثم يخيبكم هل من شر كائكم

من يفعل من ذلك من شيء سبحانه

وتعالى عما يشركون » .

« ثم » حرف يقتضي التراخي ؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خلقه إياك أن يرزقك ؛ كنت في ضعف أحوالك ابتداء ما خلقك ، فأثبتك وأحياك من غير حاجة لك إلى رزق ؛ فإلى أن خرجت من بطن أمك : إما أن كان يُغنيك عن الرزق وأنت جنين في بطن الأم ولم يكن لك أكل ولا شرب ، وإما أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق — إن حق ما قالوا : إن الجنين يتغذى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المهود في الوقت المعلوم ، فيسر لك أسباب الأكل والشرب من لبن الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره

« ثم يميتكم » بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

« ثم يخيبكم » بحياة قلوبكم ثم بأن يخيبكم ربكم .

(١) كاشح أي مبغض . وربما كان غير مثل للتصدق على ذي رحم مبغض ، ما حدث من أبي بكر حينما امتنع عن تقديم الزكاة لمسطح على أثر قيامه بدوره المعروف في قصة الإفك ، فعوتب أبو بكر في ذلك ونزلت فيه « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أول القربى » آية ٢٢ سورة النور .

ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرزاق ومنها ما هو شهود الرزاق .

ويقال : لا مُسَكَّنَةَ لَكَ في تَبْدِيلِ خَلْقِكَ ، وكذلك لا قُدْرَةَ لَكَ على تَعْسُرِ رِزْقِكَ ،
فَالْمَوْسَعُ عليه رِزْقُهُ — بِفَضْلِهِ سُبْحَانَهُ . . لا يَمْنَأِبُ نَفْسِهِ ، وَالْمُقْتَرُّ عليه رِزْقُهُ بِحُكْمِهِ
سُبْحَانَهُ . . لا يَمْنَأِبُ نَفْسِهِ .

« هل من شركائكم مَنْ يفعل مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ هل من شركائكم الذين أثبتوهم
أى من الأصنام أو تومئتموهم من جملة الأنام . . مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ » سبحانه وتعالى «
نزيتها له وتقديساً .

قوله جل ذكره : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

الإشارة من البرِّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

فساد البرِّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات ، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف
الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشرِّ والفِسْقِ . . وغير ذلك . وعَقْدُ
الإصرارِ على المخالقاتِ من أعظمِ فسادِ القلب ، كما أَنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فعلها من
أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حق ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ في غير قيامٍ بِجَدِّ ،
والإغراق في الدعاوى من غير استحياء من الله تعالى .

« لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » : بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع
من القلب ، وعدم التأسف على ما فاتته من الحق .

قوله جل ذكره : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كيف
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ » .

« سيرا » بالاعتبار ، واطلبوا الحق بنعت الأفكار .

« فأنظروا » كيف كانت حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال ، وقيسوا عليها حكمكم في جميع الأحوال . « كان أكثرهم مشركين » كانوا أكثرهم عدداً ، ولكن كانوا في التحقيق أقلهم وزناً وقدرًا .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ » .

أخلص قصدك وصدق عزمك للدين القيم بالمواظقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فمن لم يتأدب بمن هو إمام وقته ولم يتلقف الأذكار عن هو لسان وقته كان خسرانه أتم من ربحه ، وقصانه أعم من نفعه (١) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتُشْكِرَ الْفُلُكُ مِنْ فَضْلِهِ وَلِتُكْمَلُوا شُكْرَكُمْ » .

يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف وغشاء اليأس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بساط الجهد ، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض ، وينشر فيها إرادة الوصال . ويرسل رياح التوحيد قهبا على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدواء الوصال .. فذلك ارتياح به ولكن بعد اجتياح عنك .

(١) يرى كبار الصوفية - والقشيري منهم - أن التأدب بشيخ أمر ضروري في الطريق الصوفي كي يكبح جماح المرید ، ويهديه إلى ربه عند رجوعه نفسه ، ويبعد به عن الزهو عندما تلوح له بوادر الكشوفات ، ويثير عليه بالسفر إن دعت الحاجة إلى ذلك ... ونحو هذا .

قوله جل ذكره : « وقد أرسلنا من قبلك رُسُلًا إلى

قومهم فجاءوهم بالبينات فاتقنا
من الذين أجمعوا وكان حقًا علينا
نصرُ المؤمنين » .

أرسلنا من قبلك رسلًا إلى عبادنا ، فمن قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق ،
ومن عارضهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود ، فاتقنا من الذين أجمعوا ، وأخذناهم من حيث
لم يحتسبوا ، وشوَّشنا عليهم ما أُمِّلوا ، وتقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَعَّموا ، وأخذنا بخناقهم
فحق بهم ما مكروا .

« وكان حقًا علينا نصرُ المؤمنين » بتوطينهم بأعقاب أعدائهم ، ولم يلبثوا إلا يسيرًا حتى
رقيناهم فوق رقابهم ، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم ، وهدَّمتنا بنيانهم ، وأخذنا نيرانهم ، وعطلَّنا
عنهم ديارهم ، ونحوَّنا بتهرِّ التدمير آثارهم ، فظَلَّتْ شمسُهم كاسفة ، ومكيدة قهرنا لم
بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره : « الله الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِحُ سَحَابًا
فَيُطْفِئُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ
كَيْسًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ
فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »

يرسل رياح عطفه وجوده مبشرات بوصوله وجوده ، ثم يُنْطَرِجُ جودَ غيبه على
على أسرارهم بلطفه ، ويطوى بساط الحشمة عن ساحات قربه ، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد
كشفه ، وينشر عليهم أزهار أنسه ، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قدسيه ، ويستقيهم بيده شراب حبه ،
وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاح — لا بهم — ولكن بنفسه ، فالعبارات عن ذلك خُرُوسٌ ،
والإشارات دونها طُمنٌ

قوله جل ذكره : « فانتظرُ إلى آثارِ رحمةِ الله كيف يحيي الأرضَ بعد موتها إن ذلك لحى الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ » .

يحيي الأرضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخرجَ زرعها ونمارها ، ويحيي النفوس بعد نفرتيها ، ويوقتها للخيرات بعد فترتها ، فيعمر أوطان الرُفاق بصادق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، ويحيي القلوب بعد غفلتها بأنوار الحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحسنِ الرعاية ، ويهتدى بأنوار أهل السر من أصحاب الإرادات ، ويحيي الأرواح بعد حجبتيها — بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسها عن بُرج السعادة ، ويتصل بمشام أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحب نفسٍ إلا حظي منه بنصيب ، ويحيي الأسرار — وقد تكون لما وَفَقَ في بعض الحالات — فتنتفي بالكلية آثارُ الفيرية ، ولا يَبْقَى في الدار ديار ولا من سكانها آثار ؛ فسَطَوَاتُ الحقائق لا تثبت لما ذَرَّةٌ من صفات الخلائق ، هنالك الولاية لله .. سقط الماء والقطرة ، وطاحت الرسوم والجملة^(١) .

قوله جل ذكره : « ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ » .

إذا انسَدَّتْ البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات .. كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جرَّته إلى نفسها — وإن تَبَوَّأُ الجنةَ منزلاً .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الْعُمْمُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » .

مَنْ قَدَّ الحَيَاةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقى والتَّماثُم ، وإذا كان في السَّريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمِعَ الظاهر لا يفيدُه آكدُ الحُجَّة . وكما لَا يُسْمِعُ^(٢) الْعُمْمُ الدُّعَاءَ فكذلك لا يمكنه أن يَهْدِيَ الْعُمَى عن ضلالتهم .

(١) أى انتفت آثار البشرية ، وصار العبد مستهلكاً بالكلية .

(٢) الفاعل ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على الرسول صلوات الله عليه ، فإن الخطاب في الآية الكريمة موجه إليه .

قوله جل ذكره : « الله الذى خلَقكم من ضَعْفٍ

ثم جَعَلَ من بعد ضَعْفٍ قُوَّةً ثم جَعَلَ

من بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ

مَا يَشَاءُ وهو العليمُ القديرُ » .

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية^(١) ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك فى ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية فى نمت التردد والخيرة فى الطلب ،

ثم بعد قوة الوصل فى ضعف التوحيد .

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان فى حال العرفان ؛ لأنه

بسطة الوجود ثم بعده ضعف الخلود ؛ لأن الخلود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر .

ويقال « خلَقكم من ضَعْفٍ » : أى حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود

ثم بعده ضعف المسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحيى مسكيناً وأمتى مسكيناً واحشرنى

فى زمرة المساكين »^(٢) .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسِمُ الجرمون

ما لبثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا

يُؤفكون » .

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إما لأنهم كانوا أمواتاً .. وليت لا إحساس له ، أو لأنهم

عدّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يروون ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق

يخبرونهم عن طول لُبثهم تحت الأرض . وإن ذلك الذى يقولونه من جملة ما كانوا يظلمون

من جحدهم على موجب جهلهم ، ثم لا يُسمعُ عذرهم ، ولا يدفعُ ضررهم .

(١) الطفولية = الطفولة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . ورواه الطبرانى

يسند رجال ثقات من عبادة بن الصامت . وادعى ابن الجوزى وابن تيمية أنه موضح ، وأبطل ذلك الحافظ بن حجر .

وأخير بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانها كهم في غيبيهم ، وأن ذلك نصيبهم من
القسم إلى آخر أعمارهم .

ثم ختم السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم
ومضارهم .

« فاصبر إن وعد الله حق »
ولا يستخفك الذين لا يوقنون .

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سمعها أقرَّ أنه لا يسمع مثلاً ، وَمَنْ عَرَفَهَا أُنْفَ أَنْ يسمع غيرها . كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُهُ ، وزالت بكلِّ وجعٍ غُصَّتُهُ ، وَتَمَّتْ من النِّعمِ في الدنيا والعقبى حِصَّتُهُ ، وزَهْدٌ في دنياه من غيرِ رغبةٍ في عقباه ؛ لأنها - وإنْ جَلَّتْ - غيرُ مولاة^(١)

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب في عماره فناءه ، ولم يتحشم^(٢) سرعةَ وفاته .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكُتُبَ الْحَكِيمَ »

الألف تشير إلى آلائه ، واللام تشير إلى لطفه وعطائه ، والميم تشير إلى مجده وسنائه ؛ فبآلائه يرفع الجعْدَ عن قلوبِ أوليائه ، وبلفظه وعطائه يثبت المحبةَ في أسرار أصفياه ، وبمجده وسنائه مستغفر عن جميع خَلْقِهِ بوصف كبريائه .

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » : المحروس عن التفسير والتبديل .

« هُدًى وَرَحْمَةً لِلْحَسَنِينَ » الذين يقيمون

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُوقِنُونَ «

هو هدى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله ، والمقيمين عبادة الله كأنهم

(١) قاله الخالص مستغفر عن القبرية .

(٢) لم يتحشم أى : لم يتجنب

ينظرون إلى الله . وشرطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله : دانيهم وقاصيهم ،
ومطيعيهم وعاصيهم .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » : يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة ،
وتقديم الطهارة ، واستقبال القبلة ، والعلم بدخول الوقت ، والوقوف في مكان طاهر .
وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السر عن الملائق ، وستر عورة الباطن بتنقيته عن
العيوب ، لأنها مهما تكن فالله يراها ؛ فإذا أردت ألا يرى الله عيوبك فاحذر ما حتى
لا تكون . والوقوف في مكان طاهر ، وهو وقوف القلب على الحد الذي أذنت في الوقوف فيه
مما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، ورحم الله من وقف عند حده . والمعرفة بدخول الوقت
فتعلم وقت التذلل والاستكانة ، وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القبلة بنفسك ،
وتعلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطر أو مكان .

قوله جل ذكره : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك

هم المفلحون »

الذين يقومون بشرط صلاحهم وحق آداب عبادتهم هم الذين اهتموا في الدنيا والعقبى
فصلوا ونجوا .

قوله جل ذكره : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث

ليُضِلَّ عن سبيل الله بضير علم
ويتخذ ما هزواً أولئك لهم عذاب مهين »

« لهو الحديث » : ما يشغل عن ذكر الله ^(١) ، ويحجب عن الله سماعه . ويقال : هو لهو
الظاهر الموجب سهو الضائر ، وهو ما يكون خوضاً في الباطل ، وأخذاً بما لا يعنيك .

(١) اعتاد كثير من المفسرين أن يفسروا الله هنا (بالغناء) ، لأجل هذا نلفت النظر إلى عدم صرف القشيري
المعنى في هذا الاتجاه ، لأننا نعلم من مذهبه أنه لا يرى أساساً في سماع الغناء ولكن بشرط أن يحرك الوجدان نحو غاية
سامية في السماع ، وألا يبعث فيها الهوى والمجون ، وألا يكون مصحوباً بشيء محرم . (أنظر كتابنا : الإمام القشيري
ونزعة في التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِ آبَانَا وَلِيَّ مُسْتَكْبِرًا

كَانَ لَمْ يَسْمَعْهُمَا كَانَ فِي أُذُنَيْهِ وَقُرَأَ

فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

الْمُفْتَرِقُ بِهِمَّةً ، وَالْمُتَشَنِّتُ بقلبه لا تزيد كثرة الوعظ إلا نفوراً ونُبُوًّا ؛ فسماعه كلاً

سماع ، ووعظه هبلاً وضياح ، كما قيل :

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمُلُوكَ فَإِنَّمَا

أُخْطُ بِأَقْلَامِي عَلَى الْمَاءِ أَحْرُقًا

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ

جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَمَعَ اللَّهِ

حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

« آمَنُوا » : صَدَّقُوا « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : تَحَقَّقُوا ؛ فإتصافٌ بتحقيقهم راجعٌ إلى

تصديقهم ، فَتَجَوَّا وَسَلَّمُوا ؛ فهم في راحتهم مقيمون ، دَائِمُونَ لَا يَبْتَزُّونَ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنْ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ »

أَمْسَكَ السَّمَوَاتِ بِقُدْرَتِهِ بِغَيْرِ عِمَادٍ ، وَحَفَظَهَا لَا إِلَى سِنَادٍ أَوْ مَشْدُودَةٍ إِلَى أَوْتَادٍ ، بَلْ

بِحُكْمِ اللَّهِ وَبِتَقْدِيرِهِ ، وَمَشِئَتِهِ وَتَدْوِينِهِ .

« وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ . . . » في الظاهر الجبال ، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد

الذين هم غياث الخلق ، بهم يقيم ، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصيهم .

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . » المطر من السماء الظاهر في رياض الخُضْرَةِ ؛ ومن السماء الباطن

في رياض أهل الدنُوِّ وَالْخُضْرَةِ .

قوله جل ذكره : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين

من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » .

هذا خلق الله العزيز في كبريائه ، فأروني ماذا خلق الذين عبدتم من دونه في

أرضه وسماؤه ؟

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر

الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه

ومن كفر فإن الله غني حميد » .

« الحكمة » الإصابة في العقل والعقد والنطق . ويقال « الحكمة » متابعة الطريق من حيث

توفيق الحق لا من حيث همة النفس . ويقال « الحكمة » ألا تكون تحت سلطان الهوى .

ويقال « الحكمة » الكون بحكم من له الحكم . ويقال « الحكمة » معرفة قدر نفسك

حتى لا تمتد رجليك خارجا عن كسائك . ويقال « الحكمة » ألا تستعصى على من تعلم أنك

لا تقاومه .

« أن أشكر الله » : حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاحظات الرب . فهو مقلوب

قولهم : كُشِرَتْ عن أنيابها الدابة ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذب وجبذ .

ويقال الشكرُ محققك بعجزك عن شكره . ويقال الشكر مابه يحصل كمال استلذاذ النعمة .

ويقال الشكر فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فينطلق بمدح المشكور .

ويقال الشكر نمت كل غنى كما أن الكفران وصف كل لثيم . ويقال الشكر قرع باب

الزيادة^(١) . ويقال الشكر قيد الإنعام . ويقال الشكر قصة يملها صميم القواد بنشر صحيفة الأفضال .

« ومن شكر فإنما يشكر لنفسه »^(٢) : لأنه في صلاحها ونصيحتها يسمى .

قوله جل ذكره : « وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني

لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » .

(١) إشارة إل قوله تعالى «لئن شكرتم لأزيدنكم» آية ٧ سورة ابراهيم .

(٢) آية ٤٠ سورة النمل .

الشُّرْكُ عَلَى ضَرِيَيْنِ : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ ؛ فَالْجَلِيُّ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، وَالْخَفِيُّ حَسْبَانُ شَيْءٍ مِنَ الْخُدَّانِ مِنَ الْأَنْامِ . وَيُقَالُ الشُّرْكُ إِثْبَاتٌ غَيْرٌ مَعَ شَهُودِ الْغَيْبِ . وَيُقَالُ الشُّرْكُ ظَلَمَ عَلَى الْقَلْبِ ، وَالْمَعَاصِي ظَلَمَ عَلَى النَّفْسِ ، وَظَلَمَ النَّفْسُ مُعَرَّضٌ لِلْغَفْرَانِ ، وَلَكِنْ ظَلَمَ الْقُلُوبَ لِأَسْبِيلِ إِلَيْهِ لِلْغَفْرَانِ .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي كَامِنٍ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » .

أوجب الله شُكْرَ نفسه وشُكْرَ الوالدين . ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، وألا يُكْتَفَى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِمَ أَنَّ شُكْرَ الْحَقِّ لَا يَكْفِي فِيهِ بِمَجْرَدُ الْقَوْلِ مَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مُوَافِقَةً الْعَقْلِ ؛ وَذَلِكَ بِالتَّزَامِ الطَّاعَةِ ، وَاسْتِمَالِ النِّعْمَةِ فِي وَجْهِ الطَّاعَةِ دُونَ صَرْفِهَا فِي الزَّهْوِ ؛ فَشُكْرُ الْحَقِّ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَشُكْرُ الْوَالِدَيْنِ بِالْإِنْفَاقِ وَالتَّوْفِيرِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ ، أَوْ تَسْمِيَ بِمَا هُوَ زَلَقَ فِي أَمْرِ اللَّهِ — فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَلَكِنْ عَاشِرُهُمَا بِالْجَلِيلِ ؛ تَخْشِينَ فِي تَلْيِينِ ، فَاجْعَلْ لَّهُمَا ظَاهِرَكَ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ حَرَجٌ ، وَانْفِرْ بِسِرِّكَ لِلَّهِ ، « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ » : وَهُوَ الْمُنِيبُ إِلَيْهِ حَقًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى بَقِيَّةٌ فِي النَّفْسِ .

قوله جل ذكره : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمة فلا محالة تصل إلى المقسوم له بغير
مرية . . « إن الله لطيف خبير » : عالم بدقائق الأمور وخفاياها .

قوله جل ذكره : « يَا بَنِي آدَمُ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصِرٌ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ
ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ » .

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تنهى عنه ، واشتغالك
واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك ، ومن لا حُكْمَ له عَلَى نَفْسِهِ لا ينفذ حكمه على غيره .
والمعروف الذي يجب الأمرُ به هو ما يوصلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذي يجب النهي
عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

« وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ » تنبيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَامَ لِلَّهِ بِحَقِّ امْتِحَانٍ فِي اللَّهِ ؛ فسيُبلِّغُه
أَنْ يَصْبِرَ لِلَّهِ — فَإِنْ مِنْ صَبْرٍ لِلَّهِ لَا يَخْسِرَ عَلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ
فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

يعنى لا تتكبر عَلَى النَّاسِ ، وطالِعُهُمْ مِنْ حَيْثُ النِّسْبَةُ وَالتَّحَقُّقُ بِأَنَّكَ بِمَشْهَدٍ مِنْ مَوْلَاكَ .
وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَوْلَاهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَتَكَبَّرُ وَلَا يَتَعَاطَلُ بَلْ يَتَخَاضِعُ وَيَتَضَاعَلُ .

قوله جل ذكره : « وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصَوْتِ
الْحَبِيرِ » .

كُنْ قَانِيًا عَنْ شَوَاهِدِكَ ، مُصْطَلَمًا عَنْ صَوْتِكَ ، مَأْخُودًا عَنْ حَوَالِكَ وَقَوَاتِكَ ،
مُنْتَشِقًا^(١) مِمَّا اسْتَوْلَى عَلَيْكَ مِنْ كَشُوفَاتِ سِرِّكَ .

(١) (انتشق) الماء وغيره : جذب منه بالنفَس في أنفه ، ورجل نشق إذا دخل في أمر لا يكاد يخلص منه
(الوسيط) .

وانظر من الذى يسمع صوتك حتى تستفيق من خمار غفلتك ؛ « إن أنكر الأصوات لصوت الخير » : فى الإشارة هو الذى يتكلم فى لسان المعرفة من غير إذن من الحق . وقالوا : إنه الصوفى يتكلم قبل أوانه .

وقال إنما ينطق الحمار عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكر الأصوات .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِ

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنُ

يَجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى

وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ » .

أثبت فى كل شئ منها نفعاً لكم ، فالسما لتكون لكم سقياً ، والأرض لتكون لكم فراشاً ، والشمس لتكون لكم سراجاً ، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب ، والنجوم لتتدوا بها .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » : الإسباغ ما يفضّل عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة .

قوله : « نعمه ظاهرة وباطنة » : تكلموا فيه فأكثرُوا . فالظاهرة وجودُ النعمة ، والباطنة شهودُ المنعم . والظاهرةُ الدنيويةُ ، والباطنةُ الدينيةُ . والظاهرةُ حُسْنُ الخلق ، والباطنةُ حُسْنُ الخلق . الظاهرةُ نفس بلا زلة ، والباطنةُ قلب بلا غفلة . الظاهرةُ العطاء ، والباطنةُ الرضاء . الظاهرةُ فى الأموال ونمائها ، والباطنةُ فى الأحوال وصفاتها . الظاهرةُ النعمة ، والباطنةُ العصمة . الظاهرةُ توفيقُ الطاعات ، والباطنةُ قبولُها . الظاهرةُ تسويةُ الخلق ، والباطنةُ تصفيةُ الخلق . الظاهرةُ محبةُ الصالحين ، والباطنةُ حفظُ حُرْمَتِهِمْ . الظاهرةُ الزهدُ فى الدنيا ، والباطنةُ الاكتفاءُ بالمولى من الدنيا والعقبى^(١) . الظاهرةُ الزهد ، والباطنةُ الوجدُ . الظاهرةُ توفيق

(١) هذه أمل درجات الزهد ، وهى تمهنا ونحن نؤرخ للتطور التاريخى الذى حدث عندما تطور الزهد إلى تصوف (أنظر كتابنا نشأة التصوف الإسلامى (ط دار المعارف) .

المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النفس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرة اشتغالك بنفسك عن الخلق ، والباطنة اشتغالك بربك عن نفسك . الظاهرة طلبه ، الباطنة وجوده^(١) . الظاهرة أن تصل إليه ، الباطنة أن تبقى معه .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » .

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى تحوّل أحوالهم . فأما من ست نفسه ، وخلص في الله قصده فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسلك الحجة الثلى : —

« وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ قَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُور » .

وعلى العكس : —

« وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

إلينا إياهم ، ومينا عذابهم ، وعلينا حسابهم . ولئن سألتهم عن خالقهم لأقروا ، ولكن إذا عادوا إلى غيهم تقضوا وأصروا .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

لله ما في السموات والأرض ملكاً ، ويُجرى فيهم حكمه حقاً ، وإليه مرجعهم حتماً .

(١) الوجود مرحلة تأتي بعد التواجد والوجد .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبحار كانت مداداً ، وبمقدار ما يقابله تنفق القراطيس ، ويتكلف الكتاب حتى تنكسر الأقلام ، وتنفى البحار ، وتستوفي القراطيس ، وتنفى أعمار الكتاب .. ما نفذت معاني مالنا معك من الكلام ، والذي نسمعك فيما نخطبك به لأنك معنا أبد الأبد ، والأبدى من الوصف لا يتناهى .

ويقال إن كان لك معكم كلام كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باق :
صحائف عندي للعتاب طويتهما ستشر يوماً والعتاب يطول
قوله جل ذكره : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُم إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

إيجاد القليل أو الكثير عليه وعنده سيان ؛ فلا من الكثير مشقة وعسر ، ولا من القليل راحة ويسر ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن فيكون » ^(١) بقوله بكلمته ولكنه بكونه بقدرته ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وسع ، ولا بدعاء خاطر ، ولا بطرؤه غرض .
قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الْبَاطِلِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » .

« الله هو الحق » : الكائن الموجود ، يحقق الحق ^(٢) ، وما يدعون من دونه الباطل :
من العدم ظهرَ ومعه جواز العدم ^(٣) .

(١) آية ٨٢ سورة يس .

(٢) في من جاء بعدها (وما يدمونه هو التلاوة) ويقول مجاهد ، إنه الشيطان . ويقال : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . .

(٣) شغلت قضية (الحق والباطل) أصحاب وحدة الوجود . ورأى التشيخي هنا يصلح عند المقارنة بين أرباب وحدة الشهود وأرباب وحدة الوجود في شأن هذين الاصطلاحين .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ
الْفَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

يتفرّد بِعِلْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ذِكْرَهَا وَإِنَائِهَا ، شَقِيهَا وَسَعِيدَهَا ، حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا
وَيَعْلَمُ مَتَى يُنَزِّلُ الْفَيْثَ ، وَكَمْ قَطْرَةً يُنَزِّلُهَا ، وَبِأَيِّ بَقْعَةٍ يُسْطَرُّهَا .

« وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (١) .

مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَوَفَاقٍ وَشَقَاقٍ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ ؛ أَتَتْرَكُ مَرَادَهَا أَمْ يَفُوتُ ؟ .

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذِهِ الْخَمْسَةُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ

بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

في الظاهر سلامتهم في السفينة ، وفي الباطن سلامتهم من حدثان الكون ، ونجاتهم في سفائن

المصمة في بحار القدرة .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ » وَقُوفٍ لَا يَنْهَزُ مِنَ الْبَلَاءِ ، شَكُورٍ عَلَى

مَا يَصِيبُهُ مِنْ تَصَارِيفِ التَّقْدِيرِ مِنْ جَنَسِ الْبَلَاءِ وَالْعُظَايَا .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلُمِ دَعَا

اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

الْبَرِّ فَنِمُّ مُقْتَصِدِينَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تُلغِظهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة ،

فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُنْصَافٍ عادوا إلى رأس خطاياهم :

وَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ ثُمَّ عُدْتُمْ بِحِلْمِنَا أُحْبَاءَنَا : كَمْ تَجْهَلُونَ وَنَحْلُمُ !

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا

يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَدٌ

هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

فَلَا تَقْرَنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَنُكُمْ

بِاللَّهِ الْفَرُورُ » .

يخوِّفهم مرةً بأفعاله فيقول : « اتَّقُوا يَوْمًا » ، ومرةً بصفاته فيقول : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى »

ومرةً بذاته فيقول : « وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

سُورَةُ الشَّجَّةِ

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم »

كَلِمَةُ سَمَاعُهَا رِيْعُ الْجَمِيعِ ، من العاصي والطيع ، والشريف والوضيع . مَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا
بَسَمَعَ الْخَضُوعَ تَرَكَ طَيِّبَ الْمَجْرُوعِ ، وَمَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا بَسَمَعَ الْحَبَابَ تَرَكَ لَذِيذَ
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ .

قوله جل ذكره . « السَّم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ الْحُبُونِ قَرِيبَتِي فَلَا يَصْبِرُونَ عَنِّي ، وَأَلِفَ الْعَارِفُونَ
تَمَجِيدِي فَلَا يَسْتَأْنِسُونَ بِنِيرِي .

والإشارة في اللام إلى لِقَائِي الْمُدْخِرِ لِأَحِبَّائِي ، فَلَا أَبَالِي أَقَامُوا عَلَى وَلَائِي أَمْ قَصَّروا
فِي وِفَائِي .

والإشارة في الميم : أَيْ تَرَكَ أَوْلِيَاءِي مَرَادَهُمْ لِمَرَادِي .. فَلِذَلِكَ آتَوْهُمْ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِي .
« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » : إِذَا تَعَدَّرَ لِقَاءَ الْأَحْبَابِ فَأَعَزُّ شَيْءٌ
عَلَى الْأَحْبَابِ كِتَابُ الْأَحْبَابِ ؛ أَنْزَلْتُ عَلَى أَحِبَّائِي كِتَابِي ، وَحَكَمْتُ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَةَ خُطَابِي ،
وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ عَنَابِي ، فَهُمْ فِي أَمَانٍ مِنْ عَنَابِي .

قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

الذي لكم من حقيقة ، وإن التبس على الأعداء فليس يضركم ، ولا عليكم ، فإنَّ

محبة الحبيب مع الحبيب ألذها ما كان مقروناً بفقد الرقيب .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلق السموات والأرض

وما بينهما في ستة أيام ثم استوى

على العرش مالكم من دونه من ولي

ولا شفيع أفلا تتذكرون » .

وتلك الأيام خلقها من خلق غير الأيام ، فليس من شرط الخلق ولا من ضرورته أن

يخلق في وقت ؛ إذ الوقت مخلوق في غير الوقت^(١) . وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى

الوقت عن الوقت .

« ثم استوى على العرش » : ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر ؛ استوى على

العرش ولكن القديم ليس له حد ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات

ولا البعد ، استوى على العرش ولكنه أشد الأشياء تعظيماً إلى شظية من الوصال لو كان

للعرش حياة ؟ ، ولكن العرش جامد . . وأنى يكون للجناد مراد ؟ استوى على العرش

لكنه صمد بلا ند ، أحد بلا حد .

« مالكم من دونه من ولي ولا شفيع » : إذا لم يرد بكم خيراً فلا سماء عنه تغليكم ،

ولا أرض بغير رضاه تغليكم ، ولا بالجواهر أحد ينصركم ، ولا أحد — إذا لم يكن

بشأنكم في الدنيا والآخرة — ينظر إليكم .

قوله جل ذكره : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض

ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره

ألف سنة مما تعدون »

خاطب الخلق — على مقدار أفهامهم ويجوز لهم — عن الحقائق التي اعتادوا في مخاطبتهم

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم »

« العزيز » مع المطيعين « الرحيم » على العاصين .

« العزيز » للمطيعين ليكسر صولتهم « الرحيم » للعاصين ليرفع زكّتهم .

(١) لأن الزمان سرمد لا يرتبط بالوقت ولا يقتطع به .

قوله جل ذكره : « الذي أحسن كل شيء خلقه »

وبدأ خلق الإنسان من طين • ثم جعل

نسله من سلالة من ماء مهين •

أحسن صورة كل أحد ؛ فالعرش يا قوتة حمراء ، والملائكة أولو أجنحة مثني وثلاث ورباع ، وجبريل طاووس الملائكة ، والحور العين — كما في الخبر — في جمالها وأشكالها ، والجنان — كما في الأخبار ونص القرآن . فإذا انتهى إلى الإنسان قال : « وخلق الإنسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » ^(١) . . كل هذا ولكن :

وكم أبصرت من حسن ولكن

عليك من الورى وقع اختيارى

خلق الإنسان من طين ولكن « يحبهم ويحبونه » ^(٢) ، وخلق الإنسان من طين ولكن : « فاذكروني أذكركم » ^(٣) ، وخلق الإنسان من طين ولكن « رضى الله عنهم ورضوا عنه ! »

قوله جل ذكره : « وقالوا أتإذا ضللنا في الأرض إنا

لن خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون »

لو كانت لهم ذرة من العرفان ، وشمة من الاشتياق ، ونسمة من المحبة لما تعصبوا كل هذا التعصب في إنكار جواز الرجوع إلى الله ولكن قال : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

قوله جل ذكره : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي

وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون »

لولا غفلة قلوبهم وإلا لما أحال قبض أرواحهم على ملك الموت ؛ فإن ملك الموت لا أثر منه في أحد ، ولا له تصرفات في نفسه ، وما يحصل من التوفى فن خصائص قدوة

(١) آية ٥٤ سورة المائدة .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

(٣) آية ٨ سورة البينة .

الحق . ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ مخاطبهم على مقدار فهمهم ، وعَلَّقَ بالأغيار قلوبهم ، وكلُّهُ يُخَاطَبُ بما يَحْتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِهِ وضعفه .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »

مَلَكَتْهُمْ الدَّهْشَةُ وَغَلَبَتْهُمُ الْحِجَّةُ ، فاعتذروا حينَ لَا عُذْرَ ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

لو^(١) شِئْنَا لَسَهَّلْنَا سَبِيلَ الاستدلال ، وأَدَمْنَا التوفيقَ لكلِّ أَحَدٍ ، ولكن تَعَلَّقَتْ المشيئةُ بِإِغْوَاءِ قَوْمٍ ، كما تَعَلَّقَتْ بِإِدْنَاءِ قَوْمٍ ، وأَرَدْنَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّارِ قُطَّانٌ ، كما أَرَدْنَا أَنْ يَكُونَ لِلْجَنَّةِ سُكَّانٌ ، وَلَآئِنَّا عَلَّمْنَاهُ يَوْمَ خَلَقْنَا الْجِنَّةَ أَنَّهُ يَسْكُنُهَا قَوْمٌ ، ويومَ خَلَقْنَا النَّارَ أَنَّهُ يَنْزِلُهَا قَوْمٌ ، فَمِنْ الْمُحَالِ أَنْ تُرِيدَ أَلَا يَقَعَ مَعْلُومُنَا ، ولو لم يحصل لم يكن عِلْمًا ، ولو لم يكن ذلك عِلْمًا لم نَكُنْ إِلَهًا . . . ومن المحال أن تريد ألا تكونَ إِلَهًا .

ويقال : مَنْ لَمْ يَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ مِنْ يَجِبُهُ لَمْ يَجْزِ فِي مُلْكِهِ مَا يَكْرَهُهُ .

ويقال : يَا مَسْكِينُ أَفَنَيْتَ مَهْمَرَكَ فِي الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ ، وَأَمْضَيْتَ أَيَّامَكَ فِي الْجُهِدِ وَالرَّجَاءِ ، غَيَّرْتَ صِفَتَكَ ، وَأَكْثَرْتَ مُجَاهَدَتَكَ . . . فَمَا تَعْمَلُ فِي قَضَائِي كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ؟ وَمَا تَصْنَعُ فِي مَشِيئَتِي بَأَيِّ وَسْعٍ تُرُدُّهَا ؟ وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا :

شَكََا إِلَيْكَ مَا وَجَدَ مِنْ خَانَةٍ فَيْكَ الْجَدَّ
حَيْرَانُ لَوْ شِئْتَ اهْتَدَى ظِلْمَانُ لَوْ شِئْتَ وَرَدَ

(١) هذه الإشارة المستوحاة من الآية تمثل أقصى درجات الجبرية في ملعب هذا الباحث الصوري ، ولكن القارئ لا يعزب عنه أن يمجدها جبرية متميزة بالحب . . . ويمكن أنها مرتبطة بمشيئة الخالق .

قوله جل ذكره : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا
إنا نسيناكم وذكروا عذاب الخلد
بما كنتم تعملون »

قاس من الهوان ما استوجبت به مصيبتك ، واخذ في دار الخزي لما أسلفته من كفرانك .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَمَا لَا يَسْتَكْبِرُونَ »

التصديق والتكذيب ضدان - والضدان لا يجتمعان ؛ التكذيب هو جحد واستكبار ،
والتصديق هو سجود وتحقيق ، فمن اتصف بأحد القسمين انحى عنه الثاني .

« خَرُّوا سُجَّدًا » : سجدوا بظواهرهم في المحراب ، وفي سرائرهم على تراب الخشوع
وبساط الخشوع بنعت الذبول وحكم الخود .

ويقال : كيف يستكبر من لا يحد كال راحته ولا حقيقة أنه إلا في تدلله بين يدي
معبوده ، ولا يؤثر أجل جسيمه على نعيمه ، ولا شقاءه على شفاؤه ١٩

قوله جل ذكره : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ »

في الظاهر : عن الفراش قياماً بحق العبادة والجهد والتهجد ، وفي الباطن : تباعد قلوبهم عن
مضاجعات الأحوال ، ورؤية قدر النفس ، وتوهم المقام — فإن ذلك بحملته حجاب عن الحقيقة ،
وهو للعبد سيم قاتل — فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم . ويفارقون مآلفهم ،
ويهجرون في الله معارفهم .

والليل زمان الأحياب ، ، قال تعالى : « لتسكنوا فيه » : يعني عن كل شغل وحديث
سوى حديث محبوبكم . والنهار زمان أهل الدنيا ، قال تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » ،
أولئك قال لهم : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » :

إذا ناجيتمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم ، واشتغلوا بحرفتكم .
وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إما في طرب التلاقى وإما في حَرَبِ الفراقِ ، فإن كانوا في
أنسِ القربة فليئلهُم أقصرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارني مَنْ هَوَيْتُ بِمَدِّ بَادٍ
بوصالِ مُجَدِّدٍ وودادِ
ليلةٌ كاد يلتقي طرفاها
قِصْرًا وهي ليلةُ اليعبادِ

وكما قالوا :

وليلةٌ زَيْنُ ليلَى الدهرِ قابلتُ فيها بدرها بيدر
لم تَسْتَبِينَ عن شقِّي وفجْرِ حقِ تولَّتْ وهي بِكْرِ الدهرِ
وأما إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقةٍ وانفرادِ بِكْرُبةٍ فليئلهُم طویل ، كما قالوا :
كم ليلةٌ فيك لا صباحَ لها أفْنَيْتُهَا قابضًا على كبدی
قد غُصَّتِ العينُ بالدموعِ وقد وضعتُ خدی على بنانِ یدی
قوله : يدعون ربهم خوفًا وطمعًا » : قومٌ خوفًا من المذاب وطمعًا في الثواب ، وآخرون
خوفًا من الفراقِ وطمعًا في التلاقى ، وآخرون خوفًا من المسكر وطمعًا في الوصلِ .
« وما رزقناهم ينفقون » : يأتون بالشاهد الذي خصصناهم به ؛ فإن طهرنا أحوالهم عن
الكدورات حضروا بأحوالٍ مُقدَّسة ، وإن دَسَّنا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسة ،
« وما رزقناهم ينفقون » ؛ فالعبدُ إنما يتجر في البضاعة التي يودعها لديه سيِّدُهُ :

يفديك بالروحِ صَبُّ لو يكون له

أعزَّ من روحه شيءٌ فداك به

قوله جل ذكره : « فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قُرَّةٍ
أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

إنما تَقَرُّ عَيْنُكَ بِرُؤْيَا مَنْ تَحِبُّ ، أَوْ مَا تَحِبُّ ؛ فَطَلِّبْ قَلْبَكَ وَرَاعَ حَالِكَ : فَيَحْصُلُ
الْيَوْمَ سُرُورُكَ ، وَكَذَلِكَ غَدًا . . . وَعَلَى ذَلِكَ تَحْشُرُ ؛ فَفِي الْخَبَرِ :
« مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا » .

ثم إنَّ وصفَ مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ — مُجَالٌ ، اللَّهُمَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا حَالٌ
عَزِيزَةٌ ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَفْنٌ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ » (١) .

أَفْنٌ كَانَ فِي حَالِ الْوَصَالِ يَجْرُ أَذْيَالُهُ كَمَنْ هُوَ فِي مَمْلَكَةِ الْفِرَاقِ يَقَاسِي وَبَالَهُ ؟
أَفْنٌ كَانَ فِي رَوْحِ الْقُرْبَةِ وَنَسِيمِ الزَّلَاقَةِ كَمَنْ هُوَ فِي هَوْلِ الْمُتَوَبِّةِ يَمَافِي مَشَقَّةَ
السَّكْفَةِ ؟

أَفْنٌ هُوَ فِي رَوْحِ إِقْبَالِنَا عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ فِي مَحَنَةِ إِعْرَاضِنَا عَنْهُ ؟
أَفْنٌ بَقِيَ مِنْهُ كَمَنْ بَقِيَ مَعْنَا ؟
أَفْنٌ هُوَ فِي نَهَارِ الْعِرْفَانِ وَضِيَاءِ الْإِحْسَانِ كَمَنْ هُوَ فِي لَيْلَى الْكُفْرَانِ وَوَحْشَةِ
الْعَصِيَانِ ؟

أَفْنٌ أَيْدٍ بَنُورِ الْبِرْهَانِ وَطَلَمَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الْعِرْفَانِ كَمَنْ رِبَطَ بِالْخِذْلَانِ وَوُسِمَ
بِالْحُرْمَانِ ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَلْتَقِيَانِ !

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ » .

« الَّذِينَ آمَنُوا » : صَدَّقُوا ، « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : بِمَا حَقَّقُوا — فَلَهُمْ حُسْنُ
الْحَالِ ، وَحَمِيدُ الْمَالِ وَجَزِيلُ الْمَنَالِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا ، وَفِي مَعَامِلَاتِهِمْ أَسَاءُوا

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ قَالَ لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : أَنَا أَحَدٌ مِنْكَ مَنَانًا ، وَأَبْطَلٌ مِنْكَ لِسَانًا ،
وَأَمْلًا لِلْكِتَابَةِ مِنْكَ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : اسْكُتْ فَإِنَّمَا أَنْتَ فَاسِقٌ . . . فَذُلتِ الْآيَةُ (الوَاحِدِيُّ ص ٢٣٦) .

وأفسدوا ، قصصهم الخزيُّ والموان ، وفنون من للحن وألوان .. كما راموا من محنتهم
خلاصاً ازدادوا فيها اتسكاساً ، وكلما أملوا نجاةً جرّعوا وزيدوا بأساً .

قوله جل ذكره : « وَلَنُذِيقَنَّهُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ
الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

قومٌ عذابهم الأدنى يحزن الدنيا ، والعذاب الأكبر لهم عقوبة العنبر .
وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتدخلهم في عبادتهم ، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ في
قلوبهم تصيبهم .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفةٌ في سلوكهم تُنبيهم ، والعذاب الأكبر لهم حجةٌ عن
مشاهدتهم تناولهم ، قال قائلهم :

أدبني بانصرافِ قلبك عني
فانظرُ إلىَّ فقد أحسنت تأديبي^(١)

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة ، والأكبر الهجران في الوضلة .
ويقال العذاب الأدنى تكدرٌ مشاربهم بعد صفوها ، كما قالوا :
لقد كان ما بيني زماناً وبينه كما بين ربح المسك والسبر الورد
ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولٌ أيام النياب من غير تبين آخر لها ، كما قيل :
تطاول تأيننا يا نور حتى كأن نسجت عليه الفسكويت

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ
ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ »
إذا نُبِّه العبدُ بأنواع الزجر ، وحُرِّك — لتركيه حدود الوقاق — بصنوف من التأديب

(١) الشطر الأول غير موزون ، والشطر الثاني من البسيط .

ثم لم يرتدع عن فعله ، واعتز بطول سلامته ، وأمن من هاجم مكره ، وخفايا سره . .
أخذه بفتة بحيث لا يجد خرجة من أخذه ، قال تعالى : « لا تجاروا اليوم إنكم منا
لا تنصرون »^(١)

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن
في مرية من لقائه وجعلناه هدى
لبني إسرائيل » .

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيتنا لنا^(٢) .

« وجعلناه هدى لبني إسرائيل » :

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم جعل رحمة للعالمين .

قوله جل ذكره : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا
لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

لما صبروا على طلبنا سعدوا بوجودنا ، وتعدى مانالوا من أفضالنا إلى متبعيهم ،
وانبسط شعاع شمسهم على جميع أهلهم ؛ فهم للخلق هداة ، وفي الدين عيون ،
وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم
القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

يحكم بينهم ، وعند ذلك يتبين الردود من القبول ، وللهجور من الوصول ، والرضى من

(١) آية ٦٥ سورة المؤمنون .

(٢) صرف التقدير، الرؤية واللقاء إلى موسى عليه السلام ، وأنه سيقى ربه ويراه . بينما يرى قتادة أن المقصود :
فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة وولقاءه - أي محمد - فيها ، كما لقيه ليلة الإسراء . وعن الحسن : فلا تكن
- يا محمد - في شك من أنك ستلقى ما لقيه من التكذيب والأذى ، فالحاء عائدة على محنوف .
وقيل إن الكلام متصل بقوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت ... فلا تكن في مرية من لقائه ، وجاءت « ولقد
آتينا موسى » اعتراضاً .

الفتوى ، والسعدون الولي ... فكم من بهجة دامت هنالك ! وكم من مهجة ذابت
عند ذلك !

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ »

أو لم يعتبروا بمنازل أقوام كانوا في حبرة فصاروا عبرة ، كانوا في سرور فآلوا إلى
ثبور ؛ فجميع ديارهم ومزارعهم صارت لأغيارهم ، وصنوف أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا
في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وكما قيل :

نعم كانت على قوم زماننا ثم بانت
هكذا النعمة والإله سان مذ كان وكانت

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرْزِ^(١) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ
أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ »

الإشارة فيه : تسقى حدائق وصلبهم بعد جناف عودها ، وزوال المأنوس من معبودها ،
فيعود عودها مورقاً بعد ذبوله ، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ • قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ • »

(١) يقول الزمخشري (الجرز) الأرض التي جزر نباتها أي قطع ، إما لعدم الماء وإما لأنه رعى وأزيل ،
ولا يقال التي لا تثبت كالسباغ جزر ، ويدل عليه قوله تعالى وفنخرج به زرعاً .
وقال مكرمة : هي الأرض الظلمى .
ويحارل بعضهم أن يطلقها على مكان بعينه (ابن عباس : أرض بايعن) ومجاهد : (أرض النيل) .

استبعلوا يومَ التلاقى وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا
شبهوه .

قوله جل ذكره : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ
مُتَنَظِرُونَ » .

أَعْرِضْ عَنْهُمْ بِاشْتِغَالِكَ بِنَا ، وَإِقْبَالِكَ عَلَيْنَا ، وَاقْطَاعِكَ إِلَيْنَا .

« وَانْتَظِرْ » زَوَائِدَ وَصَلَيْنَا ، وَعَوَائِدَ لَقَيْنَا .

« إِنَّهُمْ مُتَنَظِرُونَ » هَوَاجِمَ مَقْتِنَا وَخَفَايَا مَكْرِنَا .. وَعَنْ قَرِيبٍ يَجِدُ كُلُّ مَتَنَظِرَةٍ مُحْتَضِرًا .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله شهود وجوده يوجبُ لكَ تلقاً في تلقٍ ، ووجودُ جوده يوجبُ لكَ شرفاً في شرف ، ففي تلقكَ يكون (هو) ^(١) عَنْكَ الخلف ، وفي شرفك تصل إلى كلِّ لطف .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ

الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً

حَكِيماً » .

يَا أَيُّهَا الْمُشْرَفُ حَالاً ، الْمُنْعَمُ قَدْراً مِنَّا ، الْمُعَلَّى رُتْبَةً مِنْ قِبَلِنَا .. يَا أَيُّهَا الْمُرَقَّى إِلَى أَعْلَى الرُّتَبِ بِأَسْنَى الْقُرْبِ .. يَا أَيُّهَا الْمُخْبَرُ عَنَّا ، الْمَأْمُونُ عَلَى أَسْرَارِنَا ، الْمُبْلَغُ خُطَابِنَا إِلَى أَحِبَابِنَا ... اتَّقِ اللَّهَ أَنْ تَلَا حِظَّ غَيْرِا مَعْنَا ، أَوْ تَسَا كُنَّ شَيْئاً مِنْ دُونِنَا ، أَوْ تُثَبِّتَ أَحداً سِوَانَا ، أَوْ تَتَوَكَّمْ شُظْيَةً مِنَ الْحِدْثَانِ مِنْ سِوَانَا . « وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ » إشفافاً منك عليهم ، وطمعاً في إيمانهم بنا لو دافقتهم في شيء أرادوه منك ^(٢) .

والتنوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنهم في أنفاسهم ، وسكنائهم ، وحرّكاتهم أن ينظروا إلى غيره -- أو يُثَبِّتُوا معه غيره -- إلا منصوباً لقدرته ، مصرفاً بمشيئته ، نافذاً فيه حُكْمُ قَضِيَّتِهِ .

(١) وضعنا (هو) من عندنا ليتضح المعنى كما نفهم من أسلوب القشيري في مثل هذا المجال .

(٢) يقال نزلت هذه الآية حينما دخل أبو سفيان وأبو جهل وأبو الأعمور السلمي على النبي (ص) بعد قتال أحد ، وطلبوا الأمان ، وقالوا للرسول : « أرفض ، ذكر آلمتنا ، وقل إن لنا شفاعاً ومَنْعَةً ونلدك ربك » فشق على النبي (ص) قولهم ، فقال عمر بن الخطاب - وكان بصحبة النبي : انذن لي يا رسول الله في قتلهم ، فقال النبي : إني قد أعطيتهم الأمان ... وأمر بإخراجهم من المدينة . (الواحد ص ٣٦) .

التقوى لجام يكبحك عما لا يجوز ، زمام يقودك إلى ما تحب ، سوط يسوقك إلى ما أمرت به ، شاخص يحمك على القيام بحق الله ، حرز يحمك من توصل أعدائك إليك ، عود تشفيك من داء الخطأ .

التقوى وسيلة إلى سلطات كرمه ، ذريعة تتوصل بها إلى عقوة جوده .

قوله جل ذكره : « وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » .

اتبع ولا تبتدع ، واقتدر بما تأمر به ، ولا تهتد باختيارك غير ما نختار لك ، ولا تخرج في أوطان الكسل ، ولا تبجنح إلى ناحية التواني ، وكن لنا لا لك ، وقم بنا لا بك .
قوله جل ذكره : « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا » .

انسلخ عن إهابك ، واصلق في إيابك إلينا ، وتشاغل عن حساباتك معنا ، واحذر
ذهابك عنا ، ولا تقصّر في خطابك معنا .

ويقال التوكل تحقق ثم تخلق ثم توثق ثم تعلق ؛ تحقق في العقيدة ، وتخلق بإقامة الشريعة ،
وتوثق بالقسوم من القضية ، وتعلق بين يديه بحسن العبودية .

ويقال التوكل تحقق وتعلق وتخلق ؛ تحقق بالله وتعلق بالله ثم تخلق بأوامر الله .
ويقال التوكل كل استواء القلب في العدم والوجود .

قوله جل ذكره : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ
فِي جُوفِهِ » .

القلب إذا اشتغل بشيء شغل عما سواه ، فالاشتغال بما من العدم منفصل عن له
القدم ، وللتصل بقلبه بمن نعته القدم مشتغل عما من العدم . . والليل والنهار لا يجتمعان ،
والغيب والغير لا يلتقيان .

« وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون

منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم
أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم .

اللائي تظاهرن^(١) منهن لسن أمهاتكم ، والذين تبنتن لبنا بآبائكم ، وإن الذي
صرتم إليه من افتراءكم ، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردود عليكم ، غير
مقبول منكم ، وإن أمسكن عنه بعد البيان نجوتن ، وإن تماديتن بعد ما علمتم
أطلت المحنة عليكم .

قوله جل ذكره : « ادعوم لأبائهم هو أقطع

عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم
في الدين ومواليكم وليس عليكم
جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت
قلوبكم وكان الله غفورا رحيما » .

راعوا أنسلبهم ، فإن أردتم غير النسبة فالأخوة في الدين تجمعكم ، وقراءة الدين
والشكلية أولى من قرابة النسب ، كما قالوا :

وقالوا قريب من أبي وعمومة

هلت : وإخوان الصفاء الأقارب

تناسبهم شكلا وعِلما وألفة

وإن باعدتهم في الأصول المناسب

قوله جل ذكره : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم
وأزواجه أمهاتهم ، وأولوا الأرحام
بعضهم أولى ببعض في كتاب الله
من المؤمنين والمهاجرين » .

(١) يعني أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، وسيأتي تفصيل ذلك في سورة المجادلة (المجلة

الثالث .

الإشارة من هذا : تقديم سُنته على هواك ، والوقوف عند إشارته دون ما يتناقض به مُنك ، وإيثار مَنْ تتوسل به سبباً ونسباً على أَعِزَّتِكَ وَمَنْ وَالَاكَ .

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » :

ليكن الأجنب منك على جانب ، ولتكن صلتك بالأقارب . وصلة الرحيم ليست بمقاربة الديار وتساقب المزار ، ولكن بمواقة القلوب ، والمساعدة في حالي المكروه والمحبوب :

أرواحنا في مكان واحد وغدت

أشباحنا بشام^(٣) أو خراسان

قوله جل ذكره : « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم

ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا

غليظاً » .

أخذ ميثاق النبيين وقت استخراج النورية من صلب آدم — فهو الميثاق الأول ، وكذلك ميثاق الكل . ثم عند بعث كل رسول ونُبوءة كل نبي أخذ ميثاقه ، وذلك على لسان جبريل عليه السلام ، وقد استخلص الله سبحانه نبيّنا عليه السلام ، فأسمعه كلامه — بلا واسطة — ليلة المعراج . وكذلك موسى عليه السلام — أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا — صلى الله عليه وسلم — زيادة حال ؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشف الرؤية^(١) .

ثم أخذ الموائيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه ، فلكل من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يؤهلهم له ، قال صلى الله عليه وسلم « لقد كان في الأمم

(١) هكذا في ص وهي في (بمراق)

(٢) في كتاب الرؤية الكبير يرى الأشعري جواز ذلك ، أما القشيري : فيينا يشير هنا إلى ذلك إذ به كاسيات في بسلة سورة البروج يقول : « يسم الله اسم لم يره بصر إلا واحد ، وهو أيضاً منجيات فيهم » المجلد الثالث

مُحَدَّثُونَ فَلَا يَكُنْ فِي أَدْنَى كَشْفٍ « وغيرُ عمر مشركٌ لعمري في خواص كثيرة ، وذلك
شهرٌ ثم بينهم وبين ربهم .

قوله - جلّ ذكره : « يسأل الصادقين عن صدقهم
وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً » .

يسألهم سؤالٌ تشريفٍ لا سؤالٌ تنيف ، وسؤالٌ إيجابٍ لا سؤالٌ عتاب . والصدقُ
ألا يكون في أحوالك شائبَةً ولا في اعتقادك ريبً ، ولا في أعمالك عيبً . ويقال من أمارات
الصدق في المعاملة وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق . والصدق في الأحوال تصفيتها من
غير مداخلَة إعجاب .

والصدق في الأقوال سلامتها من الماريض فيما بينك وبين نفسك ، وفيما بينك وبين الناس
التباعدُ عن التلّيس ، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرّي من الحول والقوة ، ومواصلة
الاستعانة^(١) ، وحفظ الممودعة على السوام .

والصدق في التوكل عدمُ الاتزعاج عند التقدير ، وزوال الاستبشار بالوجود^(٢) .

والصدق في الأمر بالمعروف المعروف التصرّف من قليل المداينة وكثيرها ، وألا تترك ذلك لفزعٍ
أو لطمعٍ ، وأن تشربها مما تشتهي ، وتصف بما تأمر ، وتنبى (نفسك)^(٣) عما تزجر .

ويقال الصدق أن يهتدى إليك كلُّ أحد ، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد . ويقال
الصدق ألا تبجنح إلى التأويلات^(٤) .

(١) مكذافي من وهي في م (الاستعانة) وكلاهما مقبول في السياق .

(٢) مكذافي من وم وربما كانت (الموجود) إذ لم يحسب أن مقصد التشيرى أن تكون راضياً إذا فقدت
أو وجدت ، وفي ذلك يقول عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء (بالموجود) الرسالة
ص ٨١ والشاكر الذي يشكر على (الموجود) والشكور الذي يشكر على المفقود (الرسالة ص ٨٩) . ومع ذلك
فقد وردت (الوجود) في قول النوري : السوف نعت السكون عند العدم والإينار عند الوجود ... فالوجود بهنـ
المعنى ضد العدم ؛ أي وجود الأشياء وفقاً لها . ولكننا نقبل أن يقتصر اصطلاح (الوجود) على الدرجة القصوى بعد
التواجد والوجد ، وهو الحق . (الرسالة ص ٣٦ و ٣٧) وأنظر أيضاً تفسير التشيرى للآية ٣٩ سورة ماب (في هذا المجلد)

(٣) وضمنا (نفسك) من مكذافي ليوضح المعنى .

(٤) معروف أن التشيرى يكره التأويلات المازنية إلّا لآخر خاص بالنسبة للصوفية .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » .

ذكرُ نعمةِ اللهِ مُقَابَلَتُهَا بالشكر ، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عَنْكَ فِيمَا سَلَفَ لَهَاتَ عَلَيْكَ
مِقَاسَةُ الْبَلَاءِ فِي الْحَالِ ، ولو تذكرتَ مَا أَوْلَاكَ فِي الْمَاضِي لَقَرُبَتْ مِنْ قَلْبِكَ الثِّقَةُ فِي إِصْصَالِ
مَا تَوَمَّلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

ومن جملة ما ذكرهم به : ^(١) « إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ ... » كم بلاء سَرَفَهُ عَنِ الْعَبْدِ وَهُوَ لَمْ
يَشْعُرْ أَوْ كَمْ شُغْلٍ كَانَ يَقْصِدُهُ فَصَدَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يَلْمِ أَوْ كَمْ أَمْرٍ عَوَّقَهُ وَالْعَبْدُ يَضِجُ وَهُوَ —
— (سَبَّحَانَهُ) — يعلم أن في تيسيره له هلاك العبد فمنعه منه رحمة به ، والعبد يتهم ويضيق
صدره بذلك !

قوله جل ذكره : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا »

أحاط بهم شرادقُ البلاء ، وأحلق بهم عسكرُ العدو ، واستسلموا للاجتياح ، وبلغت
القلوبُ الحناجرَ ، وتَقَسَّمتِ الظنونُ ، وداخَلَتْهُمْ كَوَامِنُ الْارْتِيَابِ ، وبلدا في سويدائهم
جَوْلَانُ الشَّكِّ .

« هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا » .

ثم أزال عنهم جملتها ، وقشَع عنهم شدَّتها ، فانجَاب عنهم سحابُها ، وتفرَّقَتْ عن قلوبهم
همومُها ، وتَفَجَّرَتْ ينابيعُ سكِينَتِهِمْ .

(١) يوضح القشيري هنا ما يسمى غنمه (نِعَمُ الْمُنْع) وهي صنف آخر يختلف عن (نعم المنع) ، والعبد - لقصر
نظره - يشكر على هذه ، ويغفل عن تلك .

قوله جل ذكره : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
إِلَّا غُرُورًا » .

صَرَّحُوا بالتكذيب — لما انطوت عليه قلوبهم — حين وجدوا للمقال مجالاً .

قوله جل ذكره : « وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلِ
يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ
فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا
عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ
إِلَّا فِرَارًا » .

تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينهم من وشك ظَفَرِ الأعداء . قوله :
« ويستأذن فريق . . . » : بتعللون^(١) بانكشاف بيوتهم وضياح مخلفاتهم ، ويكذبون فيما
أظهروه عُذْرًا ، وهم لم يَحْمِلْهُمْ على فعلهم غيرُ جُبْنِهِمْ وقلةِ يقينهم .

قوله جل ذكره : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل
لا يُؤلُّون الأديارَ وكان عهدُ الله مشلولًا »
ولكن لما عزم الأمر ، وظهر الجِدَّة لم يساعدهم الصدقُ ، ولم يذكروا أنهم سَيُسْأَلُونَ
عن عهدهم ، ويُعاقَبُونَ على ما أسلفوه من ذنبهم .

قوله جل ذكره : « قل لن بنفسكم القرارُ إن فررتم
من الموتِ أو القتلِ وإذا لا تُنصتون
إِلَّا قَلِيلًا » .

لأنَّ الآجالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديمَ عليها ، وكما قالوا : « إنَّ المارِبَ عما هو
كائن في كَفِّ الطالب يتقلبُ » .

« وإذا لا تُنصتون إلا قَلِيلًا » : فإنَّ ما يدَّخِرُهُ العبدُ عن الله من مالٍ أو جاهٍ
أو نفيسٍ أو قريبٍ لا يُبارِكُ له فيه ، ولا يجدُ به مَنَعَةً ، ولا يُرزقُ منه غَبْطَةً .

(١) ينزr التشيرى هنا - من بعيد - يللمنظرين في الطريق بمثل الاسترخاس ودعوى النفس .

قوله جل ذكره : « قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَصْنَعُكُمْ مِنْ
اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » .

من الذي يَحْتَقُّ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مَرْجُوءٌ ؟ ومن الذي يَصْرِفُ عَنْكُمْ دُونَهُ عَذُوبًا ؟
قوله جل ذكره : « قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمَوْتُوكِينَ مِنْكُمْ وَالْقَاتِلِينَ
لِإِخْوَانِهِمْ هَلْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ
إِلَّا قَلِيلًا » .

هم الذين كانوا يَمْتَنِعُونَ بأنفسهم عن نصرة النبي عليه السلام ، ويمتنعون عنهم ليكون
جسمهم أكثر وكيدهم أخفى ، وهم لا يعلمون أن الله يُطْلِعُ رسوله عليه السلام عليهم
ثم ذَكَرَ وصفهم فقال :-

« أَشْحَتٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُفْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا
ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ »

إذا جاء الخوفُ طاشتْ من الرعبِ عقولُهم ، وطاحت بصائرهم ، وتعطلت عن
النصرة جميعُ أعضائهم . وإذا ذهبَ الخوفُ زَيَّنُوا كلامهم ، وقدموا خداعهم ،
واحتالوا في أحقاد خيبتهم ... أولئك هذه صفاتهم ؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبهم ، ولا صدقوا
فيما أظهرُوا من ادعائهم واستسلامهم .

قوله جل ذكره : « يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا
وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا » .

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، ويخافون من عودهم ، ويفزعون من ظلِّ أنفسهم

إذا وقعوا على آثامهم ، ولو اتفق مجرم الأعطال عليكم ما كانوا إلا في حذر منيوفهم
ودرية^(١) رماهم .

قوله جل ذكره : « لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة لمن كان يرجو الله
واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

« كان » صلة ومعناها : لكم في رسول الله أسوة حسنة ، به قدوتكم ،
ويجب عليكم متابعتها فيما يرسمه لكم . وأقوال الرسول (ص) وأفعاله على الوجوب
إلى أن يقوم دليل التخصيص ، فأما أحواله فلا سبيل لأحد إلى الإشراف عليها ، فإن
ظهر شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مكتسباً من
قبحه فيلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله ، وإن كان غير مكتسب له فهي خصوصية
له لا ينبغي لأحد أن يتعرض لمقابلته لاختصاصه — صلى الله عليه وسلم — بملو رتبة^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب
قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً »

كما أن المناهقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء ، فالؤمنون وأهل اليقين ازدادوا
يئة ، وعلى الأعداء جرأة ، ولحكم الله استسلاماً ، ومن الله قوة .

قوله جل ذكره : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
الله عليه فمنهم من قفى نجه ومنهم
من ينتظروا ما تبدلوا بتديلاً » .

شكر صنيعهم في اللراس ، ومدح يقينهم عند شهود الباس ، وسام رجالاً إيماناً

(١) الدرية ما يستر به الصائد فيرميه إذا أمكنه .

(٢) يفيد هذا الكلام في توضيح نظرة هذا الباحث إلى السنة كصدر أساسي من مصادر التشريع ، فالمحنة
أقوال وأفعال وأحوال ، منها ما يصلح العموم ، ومنها ما يختص به الرسول نفسه .

لخصوصية رتبهم^(١) ، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بملأ الحالة والنزلة ، فمنهم من خرج من دنياه على صدقه^(٢) ، ومنهم من ينتظر حكم الله في الحياة والمات ، ولم يزينوا عن عهدهم ، ولم يراوغوا في مراعاة حدتهم ؛ فحقيقة الصدق حفظ العهد وترك مجاوزة الحد .
ويقال : الصدق استواء الجهر والسر .
ويقال : هو الثبات عندما يكون الأمر جدياً .

قوله جل ذكره : « لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .
في الدنيا يجزي الصادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية ، وفي الآخرة بمجمل الثواب وجزيل المكافآت والخلود في النعيم للقيم والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم ..

« وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » على الوجه الذي سبق به العلم ، وتعلقت به المشيئة .
ويقال : إذا لم يحزم بقوبة المنافق وعلق القول فيه بالرجاء فبالحرى ألا يُخَيَّبَ المؤمن في رجائه .

قوله جل ذكره : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » .
لم يُشمت بالسليين عدواً ، ولم يُوصل إليهم من كيدهم سوءاً ، ووضع كيدهم في نحورهم ، واجتثهم من أصولهم ، ويُن بملك جواهر صدقهم وغير صدقهم ، وشكر من استوجب شكره من جلتهم ، وفضح من استحق الذم من اللدلسين منهم .

(١) من المؤمنين رجال .. : من أنس أنها نزلت في عمه أنس بن النضير الذي أبلى يوم أحد بلاءً عظيماً ، حتى قتل وبه ثمانون جراحة بين ضربة بالسيف وطلعة بالرمح ورمية بالسهم .. رواه البخاري عن بشار ، ومسلم عن محمد بن حاتم .

(٢) ومنهم من قضى نحبه نزلت في طلحة بن عبيد الله الذي ثبت بجانب الرسول يوم أحد حتى دعا له الرسول (ص) : اللهم أوجب لطلحة الجنة . (الواحد ص ٢٢٨) .

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا » .

إنَّ الحقَّ — سبحانه — إذا أُجِلَّ أَكَلٌ ، وإِذا شئى كفى ، وإِذا وَفَى أَوْفَى ..
فَأَظْفَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، وَأَوْرَثَهُمْ مَعَالِفَهُمْ ، وَأَذَلَّ مُتَعَزِّزَهُمْ ، وَكَفَّاهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ أَمْرَهُمْ ،
وَمَكَّنَهُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ وَأَسْرِهِمْ وَنَهَبِ أَمْوَالِهِمْ ، وَسَبَى ذُرَارِهِمْ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ
كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرِيقًا
فَتَمَّالِينَ أُمْتَعِنَ وَأَسْرُحْنَ سَرَاحًا
جَمِيلًا • وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » .

لم يُرِدْ أَنْ يَكُونَ قَلْبُ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْهُ فِي شُغْلٍ ، أَوْ يَسُودَ
إِلَى أَحَدٍ مِنْهُ أَذَى أَوْ تَسَبُّ ، فَخَيَّرَ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — نِسَاءَهُ ^(١) ، وَوَفَّقَ اللَّهُ سَبْعَانَهُ
مِائَةً أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — حَتَّى أَخْبِرَتْ عَنْ صِدْقِ ^(٢) قَلْبِهَا ، وَكَمَالِ دِينِهَا
وَيَقِينِهَا ، (وَبِمَا هُوَ الْمُنْتَظَرُ مِنْ أَصْلَاحِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا) ^(٣) ، وَالْبَاقِي جَرَيْنَ عَلَى مَنَاجِبِهَا ،
وَنَسَجْنَ عَلَى مَنَوَالِهَا .

قوله جل ذكره : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ يَاتٍ مِنْكُنَّ »

(١) يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ لِمَائِشَةٍ : إِنْ ذَاكَ لَكَ أَمْرٌ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَسْجُلَ فِيهِ حَتَّى تَسْأَلَ رِى أَبُوبِكَ ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهَا
الْقُرْآنَ ، فَقَالَتْ : أَيْ هَذَا أَسْتَأْذِنُ أَبُوبِي ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ . فَرَوَى الْفَرَحُ فِي وَجْهِهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٢) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي م (كُذِبَ) وَهِيَ خَطَأٌ قَطْعًا .

(٣) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي م .

بِغَاثَةِ عَيْبَةٍ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ
خِصْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أماراتِ العقوبة ، ولما فضل على الأعرار على العبد
وتقابل ذلك من أماراتِ النقص ؛ فلما كانت مَرْتَبَتُهُنَّ في الثَّرْوَةِ غَرِيْبَةً عَلَى مَرَدَّةِ . مع
النساء ضاعفَ عقوبتهن على أَجْرَامِهِنَّ ، وضاعفَ ثوابهن على طاعاتِهِنَّ . وقال :

« وَمَنْ يَتَّقْ مَفْكَنَ قُلٍّ وَرَسُولِهِ
وَيَسْمَعْ مَوْلَاهُ تَوْبِيحًا أُجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لِمَارِئًا كَرِيمًا .

ثم قال :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَمْثَلِ مِنَ النِّسَاءِ
إِنَّ أَهْيَأَكُمْ قُلُوبُكُمْ فَاسْمَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيُبَاعِ
الَّذِي فِي قُلُوبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَعْرُوفًا .

نهان عن التبذُّل ، وأمرهنَّ بمراعاةِ حُرْمَةِ الرَّسُولِ (ص) : والنساءون من تَطْلُعِ
الناقِثِينَ فِي مُلَايَمَتِهِنَّ .

قوله جل ذكره : « وَفَرْنَ فِي يَوْمَتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
تَبَرُّجَ الْعَالَمِيَةِ الْأُولَى وَأَيَّتَيْنِ الصَّلَاةِ
وَيَا أَيُّهَا الزَّكَاةُ وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا .

« الرِّجْسُ » : الْأَفْصَالُ الْخَبِيثَةُ وَالْأَخْلَافُ الدَّنِيَّةُ ؛ فالأفصال الخبيثة التواضع ، ما ظهر
منها وما بطن ، وما قل وما جل . والأخلاق الدنيئة الأهواء والبِدَعُ كالبخل والشح

وَقَطَعَ الرَّحِمَ ، ويريد بهم الأخلاقَ السَّكَرَمَةَ كَالْجُودِ وَالْإِيثَارِ وَالسَّخَاءِ وَصِلَةَ الرَّحِمِ ، ويدبر لهم التوفيقَ والمعصمةَ والتسديدَ ، ويُطهرهم من الذنوب والمعيوب .

قوله جل ذكره : « وَاذْكُرْ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » .

أذْكُرْ عَظِيمَ النِّعَةِ وَجَلِيلِ الْحَالَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي بُيُوتِكُمْ ؛ مِنْ نَزُولِ الْوَحْيِ وَبَحْيِ الْمَلَائِكَةِ ، وَحُرْمَةِ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَالنُّورِ الَّذِي يَقْتَسِبُ فِي الْأَفَاقِ ، وَنُورِ الشَّمْسِ الَّذِي يَنْبَسِطُ عَلَى الْعَالَمِ ، فَاعْرِفْ^(١) هَذِهِ النِّعَةَ ، وَارْعِنِ هَذِهِ الْحُرْمَةَ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . . »

الإسلام هو الاستسلام ، والإخلاص ، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة .

« وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . »

الإيمان هو التصديق وهو جمع الطاعات ، ويقال هو التصديق والتحقيق ، ويقال هو انتساب الحقيقة في القلب . ويقال هو حياة القلب أولاً بالمثل ، ولقومٍ بالعلم ، ولآخرين ، بالقهر من الله ، ولآخرين بالتوحيد ، ولآخرين بالمعرفة ، ولآخرين بإيمانهم حياة قلوبهم بالله .

« وَالْقَائِمِينَ وَالْقَائِمَاتِ . . . »

القنوت طولُ العبادة .

« وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . . . »

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم .

(١) عرف هنا بمعنى ذكر الفضل .. وهذه المناسبة أكشف للقارئ عن شيء خفي دهرًا طويلاً حينما كنت أقرأ فائية ابن الفارض التي أولها :

قلبي يحدثني بأنك متلئئ
روحى فذاك عرفت أم لم تعرف
فطالما أزعجني الشطر الثاني من هذا البيت ؛ لأن كنت أربط بين عرف وبين علم . فكنت أسألك لعمري كيف يخاطب ابن الفارض ربه على هذا النحو ؟ حتى إحتليت (لأن المعنى : ألقى سأفتديك بروحى حتى ولو ثلثت في ذلك ، وسألق عليه ، مواردي ذكرت لك ما أصح ، وإحسبه .. أم لم تعلم .

« والصابرين والصابرات .. »

على الخصال الحميدة ، وعن الصفات الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية .

« والخاشعين والخاشعات .. » .

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوايد الحقيقة .

« والمتصدقين والمتصدقات .. »

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم ، أو قالوا فيهم^(١)

« والصائمين والصائمات .. »

المسكين عمّا لا يجوز في الشريعة والطريقة .

« والحافظين فروجهم والحافظات .. »

في الظاهر عن الحرام ، وفي الإشارة عن جميع الآثام .

« والذاكرين الله كثيراً والذاكرات .. »

بالسنتهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يفترون ، ولا يتدأخلهم نسيان .

« أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً » .

فهؤلاء لهم جميلُ الحسنَى ، وجزيلُ العقبي .

قوله جل ذكره : « وما كان لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ

الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ قَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » .

الافتياتُ عليه في أمره والاعتراضُ عليه في حكمه وتركُ الاقبيادِ لإشارته .. قرعٌ لبابِ

الشركِ ؛ فمن لم يُسَيِّكْ عنه سريعاً وقَعَ في هودته .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ

(١) وهذا من آمارات الفتوة (أنظر الرسالة ص ١١٣)

عليه أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ
وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى
زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكَ
لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ
أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

أنعم الله عليه بأن ذَكَرَهُ وأفرده من بين الصحابة باسمه .

ويقال : أنعم الله عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَيَّنِكَ لَهُ . ويقال : بأن أُعْتَقَتَهُ ، ويقال : بالإيمان
والمعرفة . وَأُنْعِمْتَ عَلَيْهِ بِالتَّقَى وبأن تَبَيَّنْتَ . « أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » إقامة للشريعة مع
عِلْمِكَ بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ ، وقلت له : « اتق .. » .
قوله : « وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » : أى لم تُظْهِرْ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَرَفَكَ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَمْرِ
فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

« وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ .. » مِنْ مَيْلِكَ وَمَحَبَّتِكَ لَهَا لَا عَلَى وَجْهِ لَا يَحِلُّ . « وَتُخْفَى النَّاسَ .. »
أى وَتُخْفَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْعُوا فِي الْفِتْنَةِ مِنْ قِصَّةِ زَيْدٍ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْخُشْيَةُ إِشْفَاقًا مِنْكَ عَلَيْهِمْ ،
وَرَحْمَةً بِهِمْ .

ويقال : وَتَسْتَحْيِ مِنَ النَّاسِ — وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنْهُ .

ويقال : تَخْشَى النَّاسَ أَلَّا يَطْلِقُوا سَمَاعَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَلَا يَقْرَؤُوا عَلَى تَحْمُلِهَا ، فربما يَخْطُرُ
بِبَالِهِمْ مَا يَنْبَغِي عَنْهُمْ وَشَعْمُهُمْ ..

« فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. » لَكَ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَلَكَ لَا يَكُونُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي الزَّوَاجِ بِزَوَّجَاتِ أَدْعِيَائِهِمْ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ يُحَرِّمُ فِي الْإِبْنِ إِذَا كَانَ
مِنَ الصُّلْبِ .

« وكان أمرُ اللهِ قَدَرًا مقدورًا » .

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْتَد . وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ
لكونه معصومًا .

قوله جل ذكره : « الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ
حَسِيبًا » .

« ويخشونه » : علمًا منهم بأنه لا يُصِيبُ أحدًا ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛
فيفردونه بالخشية إذ علموا أنه لا شيء لأحدٍ من دونه .

قوله جل ذكره : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكُم
ولكن رسولَ اللَّهِ وخاتمَ النَّبِيِّينَ
وكان اللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمًا » .

لم يكن مضافًا إلى ولدهِ فله عليكم شفقة الآباء .. ولكن ليس بآبيكم .
ويقال نسبُه ظاهرٌ .. ولكن إنما يُعرَفُ بي لا بنسبِهِ ؛ فقلما يقال : محمدٌ بن عبد الله ،
ولكن إلى أبد الأبد يقال : محمد رسول الله . وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ — بعد لا إله إلا
الله — محمدٌ رسولُ الله .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أذكروا اللَّهَ ذِكْرًا
كثيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »
الإشارة فيه أُحِبُّوا اللَّهَ ؛ لأنَّ النبيَّ — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا
أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ » فيجب أن تقول : الله ، ثم لا تنسَ الله بعد ذكركَ الله .

ويقال : اذكروا الله بقلوبكم ؛ فإنَّ الذِّكْرَ الذي تمسكن استدامته ذِكْرُ القلبِ ؛ فأما ذِكْرُ
اللسانِ فإدامته مُسْتَرَمِدٌّ كالتعذر .

« وَسُبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » : التسبيحُ من قبيل الذكر ، ولكنه ذِكْرُهُ بلفظين لثلاث تعتريك سامة^(١) .

قوله جل ذكره : « هو الذى بُصِّلَ عليكم وملائكته
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وكان بالمؤمنين رحيماً » .

الصلاة في الأصل الدماء^(٢) ؛ فصلاته — سبحانه — دعاؤه لنا بالتقريب ، وصلاة الملائكة
دعائهم إليه لنا : بالقرآن للعاصي ، وبالإحسان للمطيع .

ويقال الصلاة من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة

« ليخرجكم من الظلمات إلى النور » : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أى يعصمكم من الضلال بَرُّوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق ، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال بصونكم من الشرك ، ويُبَيِّنُكُمْ بشواهد الإيمان .

قوله جل ذكره : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » ،

وأعدَّ لهم أجراً كريماً » .

التحية إذا قرَّنت بالرؤية ، واللقاء إذا قرَّنت بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البصر .
والسلام خطاب يفتح به الملوك لإخباراً عن علو شأنهم ورتبتهم ، فاللقاء حاصل وخطابه

(١) هذه لفظة هامة تهم البلاغيين .

(٢) يوضح القشيري هنا ما يسمى منه (نعم المنع) ، وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المنع) ، والعبد —
— لقصر نظره — يشكر على هذه ، وتحقق عليه تلك .

مسموعٌ ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر^(١) .

« أجراً كريماً » : الكرمُ قِيَّةُ الدَّاءَةِ ، وكرماً أى حسناً .

وفي الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير ؛ فإنَّ الكرم لا يستقصى عند البيع والشراء في الأعداد ، وذلك تعريفٌ بالإحسانِ السابق في وقت غيبتك^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً

وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

وَسَرَاجاً مَنيراً * وَبَشِيراً لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ

لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً » .

يَا أَيُّهَا الْمُشْرِفُ مِنْ قَبْلِنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً بوحْدانيَّتِنَا ، وشاهداً تُبَشِّرُ بِمَتَابَعَتِنَا ، وتحذِّرُ من مخالفةِ أَمْرِنَا ، وتُعَلِّمُ النَّاسَ مَوَاضِعَ الْخُطُوفِ مِنَّا ، وداعياً إِلَيْنَا بِنَا ، وسراجاً يَسْتَضِيئونَ بِهِ ، وشمساً يَنْبَسِطُ شَعَائُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ صَدَّقَكَ ، وآمَنَ بِكَ ، فلا يَصِلُ إِلَيْنَا إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ وَخَدَمَكَ ، وَصَدَّقَكَ وَقَدَّمَكَ .

« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » بِفَضْلِنَا مِنْهُمْ ، وَنَيْلِهِمْ طَوْلَنَا عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانِنَا إِلَيْهِمْ . وَمَنْ لَمْ تُؤَيِّرْ فِيهِ بَرَكَتَهُ إِيْمَانَهُ بِكَ فَلَا قَدْرَ لَهُ عِنْدَنَا .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ

أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ

وَكَيْلاً » .

لا توافِقْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ، وَأَضَلَّنَا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالشُّتَاقِ . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِدَوَامِ الْإِقْطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكُنْ بِاللَّهِ وَكَيْلاً .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ

(١) يضاف هذا الكلام إلى المبدأ الذي يتحسس له القشيري وهو الرؤية العيانة للحق في الآخرة .

(٢) يقصد القشيري : أولئك الذين أحسن الله إليهم في سابق علمه ، وهم مازالوا في كتم العلم - على حد تعبيره في مواضع مناظرة .

المؤمناتِ ثم طَلَّقْتُهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ
تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا
جَمِيلًا .

. إذا آتَيْتُمُ فَرَاقَهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ لِيَكُونَ لَكُمْ تَذَكُّرٌ فِي أَيَّامِ الْفُرْقَةِ فِي أَوَائِلِهَا إِلَى أَنْ
تُوحِلْنَ نَفْسُهُنَّ عَلَى الْفُرْقَةِ .

« وسرحوهن سراحاً جميلاً » : لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن
شيئاً تخلَّصنَّ به معهن ، فلا تجمعوا عليهن الفراق بالحال والإضرار من جهة المال .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ
الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ بِمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ
وَبَنَاتِ أَخِيكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ ...
غفوراً رحيمًا » .

وسَّعْنَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ فِي بَابِ النِّكَاحِ بِكُمْ شَيْئًا ؛ فَإِنَّكَ مَأْمُونٌ مِنْ عَيْبِ عَدَمِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُنَّ
وعدم مراعاة حقوقهن ، ومن الخيفِ عليهن . والتَّوَسُّعُ فِي بَابِ النِّكَاحِ تَدُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ
كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ .

« تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ
مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ
أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ
كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ... » .

« مَنْ تَشَاءُ » : على ما تتعلق به إرادتك ، ويقع عليه اختيارك ، فلا حرج عليك
ولا جناح .

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا » .

لَمَّا اخْتَرَهُنَّ أَثَبَتَ اللَّهُ لَهُنَّ حُرْمَةً ، قَالَ : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » فَكَمَا اخْتَرْتَنِي
فَلَا تَخْتَرِي عَلَيْهِنَّ امْرَأَةً أُخْرَى تَطْلُبِي لِقُلُوبِهِنَّ ، وَنَوْعًا لِلْعَادَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى
كَرَمِهِ — وَالْحِفَاطُ كَرَمٌ وَدِينٌ ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ
غَيْرِ نَازِلٍ فَإِنْ أُنذِرَكُمْ مِنْهُ فَلَسْئَلُكُمْ
فَادْخُلُوا ... » الآية .

أَمَرَهُمْ بِحِفْظِ الْأَدَبِ فِي الْأَسْتِذْنَانِ ، وَمِرَاعَاةِ الْوَقْتِ ، وَوَجُوبِ الْاحْتِرَامِ ؛ فَإِذَا أُذِنَ لَكُمْ
فَادْخُلُوا عَلَى وَجْهِ الْأَدَبِ ، وَحِفْظِ أَحْكَامِ تِلْكَ الْحَضْرَةِ ، وَإِذَا انْتَهَتْ حَوَائِجُكُمْ فَاخْرُجُوا ،
وَلَا تَتَغَافَلُوا عَنْكُمْ ، وَلَا يَمْنَعَنَّكُمْ حُسْنُ خُلُقِهِ مِنْ حِفْظِ الْأَدَبِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ فَرْطُ احْتِشَامِهِ
عَلَى إِبْرَامِهِ ^(٢) .

« فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ » :
حُسْنُ خُلُقِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — جَرَّهُمْ إِلَى الْمُبَاسَطَةِ مَعَهُ ، حَقٌّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .
« وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » : ثَقَلَهُمْ
عَنْ مَأْلُوفِ الْعَادَةِ إِلَى مَعْرُوفِ الشَّرِيعَةِ وَمَفْرُوضِ الْعِبَادَةِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْبَشَرَ بَشَرٌ — وَإِنْ كَانُوا
مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَقَالَ :

« ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ »

(١) ضَبَطْنَاهَا هَكَذَا (دِينَ) بِفَتْحِ الدَّالِّ وَتَسْكِينِ الْيَاءِ فِيهَا يَسْتَعِمُّ الْمَعْنَى وَيَقْوَى السِّيَاقُ .

(٢) أَيْ إِضْجَارَهُ وَإِمْلَاقَهُ .

فلا ينبغي لأحد أن يأمن نفسه — ولهذا يَشَدُّ الأمرُ في الشريعة ألا يخلو رجلٌ بامرأة
ليس بينهما محرمة .

« وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ
الله ولا أن تنكحوا أزواجه من
بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله
عظيماً ^(١) » .

وهذا من خصائصه — صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا ،
فيهم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إليهنَّ بغيرهن بعد وفاته — وإن كان التحرُّزُ عنه — وعن أمثال
هذا مِنْ تَرَكِ المخطوط — أتم وأعلى .

قوله جل ذكره : « إن تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفُوهُ فإن
الله كان بكلُّ شيءٍ عليماً » .

حِفْظُ القلبِ مع الله ، ومراعاة الأمر — بينه وبين الله — على الصُّحَّةِ في دوام الأوقات
لا يَقْوَى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور .

قوله جل ذكره : « لا جُنَاحَ عليهنَّ في آبائهنَّ
ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء
إخوانهنَّ ، ولا أبناء أخواتهنَّ
ولا نسلهنَّ ... » الآية .

لما نزلت آية الحجابِ شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار ، فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ
وجلَّ هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء ، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة .

(١) يستند القرطبي إلى رواية نقلها أبو نصر عبد الرحمن القشيري — ابن القشيري صاحب هذا الكتاب —
عن ابن عباس الذي يقول : قال رجل من سادات قريش من العشرة للذين كانوا مع الرسول على حراء — في نفسه —
لو توفي الرسول لتزوجت عائشة ، وهي بنت عسي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . ولكن هذا الرجل ندم
على ما حدث به نفسه ، فمشى إلى مكة على رجله وكفَّرَ بالتصدق وعتق الرقيق . (القرطبي ج ١ ص ٢٢٨) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ».

أراد الله — سبحانه — أن تكون للأمة عنده — صلى الله عليه وسلم — يدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يدُ نعمةٍ ، فأمرهم بالصلاة عليه ، ثم كافأ — سبحانه عنه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : مَنْ صَلَّى عَلَىَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ . وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يستغنى عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات ؛ إذ لا رتبة فوق رتبة الرسول ، وقد احتاج إلى زيادة صلوات الأمة عليه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » .

يؤذون الله ورسوله بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة ، ويؤذون أوليائه . وكما قال : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، فكذلك مَنْ آذَى رَسُولَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ آذَاهُ ، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبهم .

ثم ذكر قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. » وذكر عقوبتهم ، فجعل إيذاء الرسول مقروناً بما ذكر من إيذاء الله ، ثم ذكر إيذاء المؤمنين ، ويدل ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

(١) في هذا رد ضمني على من يدعى الوصول ، ويجهربأن لواء الأنبياء يعقد له في ساريجه ، وأن الأنبياء أدنى من الأولياء .

جلايين ذلك أدنى أن يُعرفن
فلا يؤذنين وكان الله غفوراً رحيماً .

هذا تنبيه لمن على حفظ الحرمات وإثبات الرتبة ، وصيانة لمن ، وأمر لمن بالتضامن
والتعفف . وقرن بذلك تهديده للمنافقين في تعاملهم ما كان يشغل قلب الرسول صلى الله عليه
وسلم من الإرجاف في المدينة : —

« لئن لم يئسنا المناقون والذين في قلوبهم
مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك
بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً
* ملمونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا
قتيلاً * سئنة الله في الذين خلوا من
قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

إنهم إلمم يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سئتنا في التلميع على من سلف
من الكفار^(١) .

ثم ذكر مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك ، ثم استعجالهم قيامها من غير
استعداد لها ، ثم أخبر بصوبة العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبهم بها ، وما يقع عليهم من الندامة
على ما فرطوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان
عند الله وجيهاً » .

نسبوه إلى الأذرة^(٢) ، وأن به عيباً في الخلقة ، ولكنه كان رجلاً حياً ، وكان إذا
اغتسل لا يتجرد^(٣) (من ثوبه) ، فوهوا به ذلك . وذات يوم خلا لنفسه ، ووضع ثيابه

(١) مكذبان . وهي في ص (الكبانر) .

(٢) الأذرة (على وزن الفرقة) = انتفاخ النخبة ، والآذر = المصاب بذلك .

(٣) ما بين قوسين من عندنا ليتضح السياق .

على حَجَرٍ فامشى الله الحَجَرَ بَثابه ، وموسى يعدو خَلقه حتى تَوَسَّطَ بنى إسرائيل ، وشاهدوا خَلقته سليمة ، فوقف الحَجَرُ ، وأخذ موسى ثيابه ولبسها^(١) ، وهذا معنى قوله : « فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » فى القَدَرِ والنزلة . والوجهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس ، قبولُ الناسِ لا عِبْرَةٌ به ولا خَطَرٌ له ، لاسيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُونَ بلا شيء ، ويرُدُّون بلا شيء قال قائلهم :

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مَطْرَحًا

فَمَنْدُ غَيْرِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْحَقِّ

وقالوا : فَإِنْ أَكُ فِى شِرَارِكُمْ قَلِيلًا

فَأِنِّى فِى خِيَارِكُمْ كَثِيرٌ

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا

قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » .

القول السديد كلمة الإخلاص ، وهى الشهادتان عن ضمير صادق .

ويقال سدادُ أقوالِكُم سدادُ أَعْمَالِكُم ، ولقد هَوَّنَ عليكم الأمرَ فَمَنْ رَضِيَ بالقالة —

وهى الشهادة بأن تركَ الشُّركَ — وقالها بِصِدْقٍ أصْلَحَ اللهُ له أَعْمَالَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ مِنَ الْخَلَلِ ، وَغَفَرَ له فى الآخرة الزَّكْلَ ، أى حصلت له سعادةُ الدارين .

ويقال ذَكَرَ « أَعْمَالَكُمْ » بالجمع^(٢) ، وقَدَّمَهَا على الْفُتْرَانِ ؛ لأنه ما لم يُصْلِحْ لك فى حَالِكَ

أَعْمَالَكَ وَإِنْ لَمْ يَكْفِكَ مَا أَهْمَكَ مِنْ أَشْغَالِكَ . . لم تنفرغْ إلى حديثِ آخِرَتِكَ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

(١) هذه رواية ابن عباس .. وفى رواية أخرى : اتهم بقتل أخيه هارون .

(٢) أى أن الله بفضلَه ينظر منك إلى القليل فيعتبره كثيراً .

وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ
ظَلُومًا جَهُولًا .

هنا إضمار أى : أهل السموات والأرض والجال .
وقيل أحياء وأعقَلَهَا ، وهو كقولهِ : « إِنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالْنَا أَنْتِنَا طَائِعِينَ ^(١) » .
« فأين أن يحملها » : أى أين أن تَحْنُ فيها ، « وحملها الإنسان » : أى خان فيها .
وهم مراتب : فالكفار خانوا فى الأصل الأمانة — وهى المعرفة — فسكفروا . ومن دُونهم
خانوا بالعاصى ، وبعضهم أشدَّ وبعضهم أهون ، وكلُّ احتجب من الوزرِ مقدارَه .
ويقال « أين » إِبَاءً إِشْفَاقٍ لا إِبَاءً اسْتِكْبَارٍ ، واستغفِن . . . فغفا عنهن ، وأعفاهن
مِنْ حَمَلِهَا .

« وحملها الإنسان » : قَبَلَهَا ثم مارعوها حقَّ رعايتها . . كلُّ بقدره .
« إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » بصعوبة حَمَلِ الأمانة فى الحال ، والقنوة التى عليها فى
المآل . وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانة على السموات والأرض وعَرَضَهَا على الإنسان ، فهن استغفِن
وهؤلاء ^(٢) لم يستغفوا ولم يراعوا .

ويقال : الأمانة القيام بالواجبات أصولها وفروعها .
ويقال : الأمانة التوحيد عقدًا وحفظ الحدود جهداً .
ويقال : لَمَّا حَمَلَ آدَمُ الأمانة وأولاده قال تعالى : « وحملناهم فى البر البحر » ^(٣) . . وهل
جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟
ويقال حمل الإنسان بالله لا بنفسه . ويقال ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث لم يُشْفِقْ عما أشفقت منه
السموات والأرضون . والظَلْمُ وَضْعُ الشئ فى غير موضعه .
ويقال كاشَفَ السموات والأرض بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا ، وكاشَفَ آدَمَ

(٢) الإنسان هنا اسم جنس .

(١) آية ١١ سورة فصلت .

(٣) آية ٧٠ سورة الإسراء .

وذُرِّيَّتَهُ بوصف اللطفِ قَبِيلُوا وحلوا ، وفي حال بقاء العبد بالله يحمل السموات والأرضَ بشعرة من جَفْنِهِ . ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجنث والمباني فأشفقوا من حمل الأمانة . والحِملُ إنما تحمله القلوب . وآدم كان صاحبَ معنى فَحَمَلَ ، وأنشدوا :

حملت جبال الحكم فوقى وإنتى لَا تُعْجِزُ عن حمل القميص وأضعفُ
ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخلقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَهُ ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها ، فلما أبوا وأشفقوا حَمَلَهَا الإنسان طوعاً لا كرهاً .

قوله جل ذكره : « لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً
رَحِيماً » .

اللام في « ليعذب » للصيرورة والعاقبة ؛ أى صارت عاقبة هذا الأمر عذاب المناقين
والمناققات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز
(تَمَّتِ السُّورَةُ)^(١) قد يقال : المناقون والمناقات والمشركون والمشركات والعاصون من
المؤمنين والمؤمنات وَرَدَّ ذِكْرُهُمْ . . . فإين العابدون وذکرهم ؟
ولكنهم في جملة مَنْ مَضَى ذِكْرُهُمْ ، وليسوا في المشركين ولا في المناقين ، فلا محالة
في جملة العاصين الذين تاب عليهم .

فيا أيها العاصي ، كنت تحذر أن يُخْرِجَكَ العابدون من جلتهم ، فاشهد الجبار — في هذا
الخطاب — كيف أدرجك في جلتهم^(٢) ؟ !

(١) هكذا في الأصل ، وهذه أول مرة يستدرك بها المصنف شيئاً عقب خاتمة سورة .
(٢) هذا الاستدراك لافت للنظر من حيث يدل على رحابة صدر الصوفية ، وشدة حرصهم على فتح أبواب
الأمل أمام العصاة الراغبين في التوبة ، « لا تقتلوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

سُورَةُ سَبَأًا

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله كلمةٌ سَلَابَةٌ غَلَابَةٌ ، نَهَابَةٌ وَهَابَةٌ ؛ تسلب القلوب .. ولكن لا كل قلب ، وتقلب الأبواب ولكن ليس كل لب ، وتذهب الأرواح ولكن من الأحباب ، وتذهب الأرياح .. ولكن لقوم مخصوصين من الطلائع .

قوله جل ذكره : « الحمد لله الذي له مافى السموات
ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو
الحكيم الخبير » .

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه ، ومدحه لنفسه إخباراً عن جلاله ، واستحقاقه لنعمت عزه وجماله ، فهو فى الأزل حامدٌ لنفسه محمودٌ ، وواحدٌ موجودٌ ، فى الأزل معبودٌ ، وبالطلبات مقصودٌ .

« الذى له مافى السموات ومافى الأرض » : المَلِكُ لا يكون بالشركة ؛ فلا مَلِكَ إلا الله .
وإن أجرى هذا الاسم على مخلوق فالزنجى لا يتغير لونه وإن سُميَ كافوراً !
« وله الحمد فى الآخرة » من الذين أعتهم ، وفى النعمة أغرقهم .
« وهو الحكيم » بتخليد قوم فى الجنة ، وتأيد قوم فى النار .

قوله جل ذكره : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج
منها وما ينزل من السماء وما يعرج
فيها وهو الرحيم الغفور » .

« يعلم ما يلج فى الأرض » من الحب تحت الأرض ، وللاء يرسب فيها ،

والأشياء التي تُنقَى عليها ، والناس يُقْبَرُونَ في الأرض .

« وما يخرج منها » من النبات والأزهار ، وللوحي يُعْمَنُونَ .

« وما ينزل من السماء » من القطر والثلج ، والبركة والرزق ، والحكم .

« وما يرج فيها » من الصحف ، وحوائج الناس : وهِمَمُ الأولياء .

« وهو الرحيم » بعباده ، « الفُور » لجميع اللذين من المسلمين .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ

قُلْ بلى وربي لتأتينكم عليم الغيب .

لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات

ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك

ولا أكبرُ إلا في كتابٍ مبين . »

كرّر في القرآن تكذيبهم بالساعة ، واستبعادهم لئلك ، والردّ عليهم . وأخبر عن سابق

علمه بهم ، وأنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه ، فأثبت علمه بكل شيء وشموه لكل

شيء . . . لأنه لو لم يكن له علم لكان قعماً ، ولأنه لو خرج معلومٌ واحدٌ عن علمه لكان

قدرته قصصاً ، والنقص — بأي وصف كان — لا يجوز في صفته بحال .

قوله جل ذكره : « ليعزى الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ

أولئك لم مَفْقَرَةٌ ورزقٌ كريم ،

الآيات . .

الحسنون منهم يحازيهم بالخبرات للتصلة ، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم

بالعقوبات غير منفصلة .

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أتيت به حقاً وحيداً . والذين كفروا قال

بعضهم لبعض : إنهم يرون أن هذا الذي قول به من النشروالحساب والبعث كذبٌ ، أو أن

يك جنةً ، ثم أقام عليهم حجة التجويز بما أجرى به سُنَّتُهُ في الخلق والإبداع . . فما

زادهم ذلك إلا جحوداً ، وما قابلوه إلا عنوداً .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال »

أوبي معه والطير وألنا له الحديد •
أن اعمل سابغات وقدر في السرد
واعملوا صلحا إني بما تعملون بصير »

« داود » اسم أعجمي ، وقيل سمي داود لأنه داوى (جرحه) ، ورد في القصة أنه قال في إحدى مناجاته : يا رب ، إني أرى في التوراة ما أعطيت لأوليائك وأنبيائك من الرب فأعطينيها ^(١) فقال : إني ابتليتهم فصبروا ، قال : إني أصبر على بلائك ، فأعطني ما أعطيتهم ، فأبلاه ، فوقف ، فأعطاه ما أعطاهم .

« ولقد آتينا داود منا فضلا » : تكلموا في هذا الفضل ؛ فهم من أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير : « أوبي معه » ، وكذلك الجبال ، وكان في ذلك تنفيس في وقت حزنه وبكائه . وقيل ذلك الفضل رجوعه إلى الله — في حال ما وقع له ^(٢) — بالتصل والاعتذار . ويقال هو شهوده موضع ضروره وأنه لا يصلح أمره غيره . ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حتى كان يرغب في متابته من يسمع إليه ^(٣) . ويقال حلوة صوته في المناجاة . ويقال حسن خلقه مع أمته الذين اتبعوه ، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل ...

قوله : « يا جبال أوبي معه والطير » أمر الجبال والطير بمجاوبته حتى خرج إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه .

ويقال أوحى الله له : يا داود ، كانت تلك الزلة مباركة عليك ! فقال . يا رب ، وكيف ؟ قال : كنت تبيء قبلها (كما يبيء المطيعون والآل) ^(٤) تبيء كما يبيء أهل الذنوب !

(١) ما بين القوسين ساقط من ص موجود في م .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى قصة داود مع زوجة أوريا ، وكيف تاب وأناب .

(٣) يقول القرطبي : كان قد أصلى من الصوت ما يتراحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكانت الجبال تتجاوب صدها ، والماء الجاري يتقطع جريه . ويضيف القرطبي : « أيد بمساعدة الجبال والطير للتلا بعد فترة ، فإذا دخلت الفترة احتاج أي ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير .

(٤) موجودة في ص وغير موجودة في م .

يا داود ، إن أنينَ للذَّنين أحبُّ إلى من صُراخِ العابدين !
 ويقال ، كان داود يقول . اللهم لا تنفّر للخاطئين ، غيرَةً منه وصلابةً في الدين ...
 فلما وقع له ما وقع كان يزل . اللهم اغفر للمذنبين ، فسى أن تنفّر لداود فيما بينهم .
 ويقال لما تاب الله عليه ، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطيرُ بمجلسه ، ورفَع صوته ، وأداره
 في حَنَكِهِ على حسب ما كان من عادته تفرقت الطيور وقالوا : الصوتُ صوتُ داود والحالُ
 ليست تلك ! فأوحى الله إليه هذه وحشةُ الزلّة ، وتلك كانت أنسُ الطاعة . . فكان داودُ
 يسكى وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه .

ويقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى ^(١) ، فالصاح كان مع داود لا مع الجبال
 والطير . . .

« أن أعملُ سابقاتٍ وقدَّر في السَّردِ وأعملوا صالحاً » . ألان له الحديدُ ، وجعل
 ذلك معجزةً له ، وجعل فيه توسعةَ رزقه ، ليجدَ في ذلك مكسباً ، ليقطعَ طمعه عن أمته في
 ارتقاؤه بهم ليبارك لهم في اتِّباعِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وسليمانَ الرِّيحَ عُذُوها شهرٌ
 ورواحها شهرٌ »

أى آتينا سليمانَ الرِّيحَ أى سَخَرناها له ، فكانت تحملُ بساطهُ بالندو مسيرة شهرٍ ؛
 وبالرواح مسيرة شهر .

وفي القصة أنه لاحظ يوماً مُلكه ، قال الرِّيحُ يبساطه ، قال سليمانُ للرِّيحِ : استوي ،
 قالت الرِّيحُ : استوي أنت ، فسادتَ مستويًا بقلبِكَ كنتَ مستويًا بك ، فلما
 مِلتَ مِلتُ .

« وأسلنا له عينَ القطرِ ومنَ الجنِّ
 من يعملُ بين يديه بإذن ربه ومن يرغِبُ
 منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذابِ السعيرِ »

(١) هذه غزوة بن يثظاهرون بالتواجد في مجالس السماع الصوفية ، إذ ينبغي الصديق ليتحول التواجد إلى وجد
 ثم إلى وجود .
 (٢) هذا تنبيه لمن يصدر منزلة الإمامة : ألا يرتفق ، وألا يطلب عوضاً ، وألا يطمع في الذين يتبعونه .

أى وآتيناه ذلك ، فكاف الشياطينُ مُسْخَرَةً لَهُ ، يعملون ما يشاء من الأشياء التى ذكرها سبحانه .

قوله جل ذكره : « اعملوا آلَ داود شكراً وقليلٌ من عبادي الشكور »^(١) .

أى اعملوا يا آل داود للشكر ، قوله : « شكراً » منصوب لأنه مفعول له .
ويقال شكراً ؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون »^(٢) .
وقد مضى طرْفٌ من القول فى الشكر . والشكور كثير الشكر ، والأصل فى الشكر الزيادة ،
والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تُعطى
من العلف ؛ فالشكور الذى يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثاله وأضرابه . وإذا كان الناسُ
يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره فى البلاء .

والشاكر يشكر على البذل ، والشكور على المنع^(٣) ... فكيف بالبذل ؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله ، والشاكر ببعض هذه .
ويقال فى « وقليل من عبادى الشكور » قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة منى ولا يحملها على الأسباب ؛
فلا يشكر الوسائطَ ويشكرنى . والأكثرُونَ يأخذون النعمة من الله ، ويمجدون الخيرَ مِنْ
قَبْلِهِ ثم يتقلدون المنَّةَ من غير الله ، ويشكرون غير الله .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ لِلْهِينَ » .

(١) يقول السهروردى فى موارفه : « فى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكره وأنا لا أستطيع أن أشكره إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ فأوحى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرته . (عوارف المعارف ص ٣٤٤)

(٢) آية ٤ سورة المؤمنین .

(٣) وردت العبارة فى الرسالة هكذا : الشاكر يشكر عند البذل والشكور عند المظل (الرسالة ص ١٩) .

كان سليمان — عليه السلام — يتكىء على عصاه وقتما قبض ، وبقى على ذلك الوصف مدة ، والشياطين كانوا مُسَخَّرِينَ يعملون ما أمرهم به ، ويتصرفون على الوجه الذي رَسَمَ لهم ، وينتهون عما زَجَرَهُمْ ، فقد كانوا يتوهمون أنه حي . ثم إنَّ الأَرْضَةَ^(١) أكلت عصاه فخرَّ سليمان فَعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات ، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة ، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير ؛ وهكذا الملكُ الذي يقوم مُلكُهُ بغيره ، ويكون استمساكه بمصا .. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه ، ومن قام بغيره زال بزواله .

قوله جل ذكره : « لقد كان لسبأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » .

كانوا في رَغَدٍ من العيش وسلامة الحال ورفاهته ، فأَمَرُوا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ ، ولكنهم أَعْرَضُوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وَضَيَّعُوا الشكر ، فَبَدَّلُوا وَبَدَّلَ بِهِمُ الْحَالُ ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حَسْرَةً لِيَنَّ ابْنِي عِوَضًا لِسَلَمَى قَلَمٍ يَمِيدِ

قوله جل ذكره : « فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَطْبٍ وَأُكُلٍ وَشْيٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ » .

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال ، واتصالٍ من التوفيق ، وطَرَبٍ من القلب ، ومساعدةٍ من الوقت ، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسىء أدباً أو يتبع شهوةً ، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به ، فيتغير عليه الحال ؛ فلا وقت ولا حال ، ولا طَرَب ولا وصال ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً ، كما قلنا^(٢) :

(١) الأرضه = دودة تأكل الخشب .

(٢) هكذا في ولكنها في ص : كما قالوا .

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أمِنتُ الزمانَ مَكْرَهُ
حالٍ على الصدودِ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدَتْ ذَرَّةُ
قوله جل ذكره : « ذلك جزيناهم بما كفروا واهل نجازي
إلا الكفور » .

* وجعلنا بينهم وبين القرى التي بارَكنا
فيها قرى ظاهرة وقَدَّرنا فيها السِرَّ
سبوا فيها ليالي وأياماً آمنين .

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سَقُوا إِلَّا بِمَا نَبِطُوا^(١) ، وما وقفوا إِلَّا في الوَهْدَةِ
التي حَفَرُوا ، وما قُتِلُوا إِلَّا بالسيف الذي صَنَعُوا
« وجعلنا بينهم وبين القرى .. » : ما كان من شأنهم إلا التماذي في عصيانهم ، والإصرار
على غيهم وطفيتهم .

« فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »
فرَقناهم فريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلاً مضروباً ؛ يقولون . ذهبوا أيدي سباً ، وتفرقوا أيدي
سباً . وفي قصتهم آياتٌ لكل صَبَّارٍ على العاقبة ، شكور على النعمة .

قوله جل ذكره : « ولقد صدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ
فاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *
وما كان لَه عليهم من سلطانٍ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ
هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ .

صدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ — وإن كان لا يملك لنفسه أمراً ، فإبليسُ مُسَلِّطٌ على أتباعه

(١) نبط = حنق في عمله .

من الجن والإنس ، وليس به من الإضلال شيء ، ولو أمكنه أن يضُرَّ غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نفسه ، قال تعالى : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ^(١) .

« وربك على كل شيء حفيظ » : يهذى من يشاء ويضل من يشاء . ثم أخبر — سبحانه وتعالى — أنه بملكه متفرد ، وفي الألوهية متوحد ، وعن الأضداد والأنداد متعزّز ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذرّةٍ ، ولا مقياسَ حبةٍ ، وليس منهم نصير ، ولا شريك ولا ظهير ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن الملائكة في السماء بوصف الهيبة فزعّون ، وفي الموقف الذى أثبتهم الحق واقفون ، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون .

ثم قال جل ذكره : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَى
هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

لم يقل أحدٌ — مع شريكه — إنه يُحمِلُ في الرزق على أحدٍ غيره ، فكما لا شريك له في الرزق ولا شريك له في الخلق فلا شريك له في استحقاق العبادة والتعظيم .

قوله جل ذكره : « قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ
عَمَّا تَعْمَلُونَ » قُلْ يجمع بيننا ربُّنا ثم يفتح
بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » .

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم . . . ويوم الجمع يحاسب الله كلاً على أعماله ، ويُطالب كلاً بشأنه ، لا يؤاخذ أحداً بعمل غيره ، وكلُّ يُعطى كتابه ، ويُطلبُ الله من كلٍّ واحدٍ حسابه .

وقد أجرى الله سنته بأن يجمع بين عباده ، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم . فللاجتماع أثرٌ كبيرٌ في الشريعة ، وللصلاة بالجماعة أثرٌ مخصوص . وقد عاتب الله — سبحانه — الذين يفترون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومدّح من لا يفترون إلا عن استئذان .

(١) آية ٦٥ سورة الإسراء .

والشيوخُ ينتظرون في الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية :

« قل يجمع . . . »

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُحَقِّمُ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، هو لك ، تملكه وما ملك^(١) ، لانهم اهتم في ضلالتهم . وبعد تحققتهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر ، ولا تسمع ولا تبصر ، وقعت لهم شبهة استحقاقها العبادة ، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم . . . وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين .

قوله جل ذكره : « وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

أرسلناك مُؤيِّداً بالمعجزات ، مُشرِّفاً بجميع الصفات ، سيداً في الأرضين والسموات ، ظاهراً لأهل الإيمان ، مستوراً عن بصائر أهل الكفران — وإن كنت ظاهراً لهم من حيث البیان ، قال تعالى : « وتراهم ينتظرون إليك وهم لا يصرون »^(٢)

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين * قل لكم ميعادُ يوم ، لا تتأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون »

لكثرة ما يقولون هذا كرّره الله في كتابه خيراً عنهم ، والجواب إن لكم ميعاد يوم ، وفي هذا الميعاد لا تتأخرون ساعة ولا تستقدمون .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لن تؤمنَ بهنا

(١) وردت التلبية مضطربة الكتابة وقد صححتها طبعاً لما جاء في الخبر لابن حبيب .

(٢) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم
يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول
اللين استضعفوا للذين استكبروا
لولا أنتم لكنا مؤمنين .

لو رأيتم يومذاك لرأيتَ منظرًا فظيعًا ؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القول ، ويُحيل
بعضهم على بعض الجرم ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ،
وإنكروا الذين استكبروا ويقولون : بل أنتم اتبعتمونا . . وهكذا أصحاب الزلات
الأخلاء في الفساد ، قال تعالى : « بعضهم لبعض عدو » (١) .

وكذلك الجوارح والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض ؛ فاليد تقول للجملة أخذت ،
والعين تقول أبصرت ، والاختلاف في الجملة عقوبة ، ومن عمل بالمعاصي أخرج الله عليه كل
من هو أطوع له ، ولكنهم لا يعلمون ذلك ، ولو علموا لاعتبروا ، ولو اعتبروا لتابوا
ووقفوا . . ولكن ليقض الله أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : « وما أرسلنا في قريةٍ من نذير إلا قال
مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون »

أى قابلوا رُسُلنا بالكذب ، وصبر رُسُلنا . . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟
فهم لنجاتهم أرسلوا ، ولصالحهم دعوا وبلغوا ، ولو واقفهم لسعدوا . . ولكن أقساماً
سبقت ، وأحكاماً حقت ، والله غالبٌ على أمره .

« وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً
وما نحن بمعتدين » .

ليس هذا بكثرة الأموال والأولاد ، وإنما هي بصائرٌ مفتوحةٌ لقوم ، وأخرى
مسدودةٌ لقوم .

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي
تُقربكم عندنا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضُّعْفِ بِمَا
عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفُرُفَاتِ آمِنُونَ » .

لا تستحق الزُلْفَى عند الله ؛ بالمال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية
والأنفاس الزاكية ، بل بالعناية السابقة ، والمداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة ، فأولئك لهم جزاء
الضعف « : يضاعف على ما كان لِيَمُنَّ قَدَمُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ » وَهُمْ فِي الْفُرُفَاتِ آمِنُونَ « مِنْ
تَكْدُرِ الصَّفْوَةِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ » .

قوله جل ذكره : « والذين يسمعون في آياتنا معاجزين
أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » .

هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقَّ الله في السرِّ ، فهم في عذاب الاعتراض
على أولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله ، ثم في عذاب
السقوط من عين الله .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

من الخَاف في الدنيا الرضا بالعدم والفقد ، وهو آثم من السرور بالوجود^(١) ؛ ومن
ذلك الأُنْسُ بالله في الخلوة ؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .

قوله جل ذكره : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة
أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » .

قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم ؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه ،

(١) استعمال القشيري هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وبهذا
يتأيد رأينا في مامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق .

يفتضح هؤلاء — والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة ، وفي بعض الأخبار :
أنَّ غداً من يسألم الحق فيقع عليهم من الخجل ما يحملهم يقولون : عذِّبنا ربنا بما شئت
من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال !

قوله جل ذكره : « فالיום لا يملكُ بعضكم لبعض
نعماً ولا ضرّاً وتقول للذين ظلموا
ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها
تكذبون » .

الإشارة في هذا أن مَنْ علق قلبه بالأغيار ؛ وظنَّ صلاح حاله بالاحتيال^(١) ؛
والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع الله الرحمة من قلوبهم ؛ ويتركهم ، ويشوش
أحوالهم ، فلا لهم من الأمثال والأشكال معة . ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار ،
ولا إلى الله رجوع ، وإن رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم ، ويقول لهم : ذوقوا وبال
ما به استوجبتم هذه العقوبة .

قوله جل ذكره : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا
ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما
كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك
مُفترى وقال الذين كفروا للحقِّ لما
جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبين » .

الحكام ، والأولياء — الذين هم الأئمة في هذه الطريقة — إذا دلّوا الناس على الله .
قال بعض إخوان السوء — مثل بعض التنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا^(٢) أريد :
ما هذا ؟ من الذي يطبق كل هذا ؟ ربما لا تتمُّ الطريق !
لا بُد من الدنيا ما دمت تعيش ! ... وأمثال ذلك ، حتى يميل هذا المسكين عند قبول
النصح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية . . . فيهلك ويضل .

(١) الاحتيال هنا معناه الاعتماد على جهده الإنساني ، وتفريغ الوسع فيه دون التمويل على فضل الله وموته ،
فالواجب إسقاط التدبير والاعتماد على التقدير .
(٢) يشبههم التشيبي في موضع آخر بمن كان يهوى المجاهدين قبيل القتال .

قوله جل ذكره : « وما آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وما أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ » .

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة ؛ يارضون أصحاب القلوب فيما يحرى من الأمور ، بما
تشوش إليهم نفوسهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مقتضى تفرقة قلوبهم — على قياس
ما يقع لهم — من غير استناد إلى الإلهام ، أو اعتماد على تدبير من الله وإفهام .

وأهل الحقائق — الذين هم لسان الوقت — إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فلو طولبوا
بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذي يتكلم عن القراءة أو عن الإلهام ، أو كان مستنطقاً
فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم^(١) . وأصحاب الغفلة ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا
سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيه لكونه فسيل هؤلاء الأكارع عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأيام^(٢)
تجيب أولئك .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا
لِلَّهِ مَتْنًى وَفُرَادًى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ
مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

يقول : إذا سؤلت لكم أنفسكم تكذيب الرسول فأنصروا النظر . . هل ترون فيه
آثار ما رميتوه به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . . قلتم إنه ساحر — فابن آثار السحر

(١) انظر ص ٣٤٨ من المجلد الثاني من هذا الكتاب .
وقد يظن أن هذا عمل طعن فيما يصدر عن المعارف من أقوال وأحوال ، والواقع أن مرد عجز المعارف عن إقامة
الحجة إلى أن ما يتشال عليه من كشوفات ليس من تدبيره أو احتياله ، ولا نتيجة مهارته أو ذكائه . . وإلا كان
مطلوباً منه أن يسوق حجة أو يقدم برهاناً . . إنما هي أنوار إلهية تنبجس في عاكس الباطن . . وليست تجربة الإمام
الغزالي إلا نموذجاً للمعارف الذي نهل من العلوم العقلية قدراً عظيماً ، ولكن ذلك لم يهديه سورة غليله ، ولم يقده إلى
الراحة والسكينة . . حتى يقض الله له في علوم القوم ما شفاء وكفاء (انظر الصفحات الأولى من : « المنقذ من الضلال »
للإمام الغزالي) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الأتنام) ونحن نرجح (الأيام) على معنى أن الدهر كليل بتوسيع الحقيقة —
وإن خلعت زمناً .

على أحواله وأفعاله وأقواله ؟ قلم إنه شاعر — فمن أى قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قلم إنه
مجنون — فأى جنون ظهر منه ؟

وإذا قد عجزتم عن ذلك . . . فهلا عرفتم أنه صادق ؟ !

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْضِى بِالحَقِّ عَلامًا
النَّبِىُّ » .

يقْضِى بِالحَقِّ على باطل أهل النقلة فتزول حيلهم ، ويظهر عجزهم . ويقْضِى بِالحَقِّ على
أحوال أهل الخلاف فيضطل اجتراؤهم ، ويحقق بهم شؤم معاصيهم .
ويقْضِى بِالحَقِّ — إذا حضر أصحاب المانى — على ظلمات أصطاب الدعاوى فيخمد
ثأرتهم ، ويفضحهم فى الحال ، ويفضح عوارهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ جَاءَ الحَقُّ وما يُبْدِى الباطلُ
وما يُبْىدُ » .

الباطلُ على تمرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوفاً ، والحَقُّ على تمرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً
وظهوراً .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّا أَضِلُّ على نفسى
وإنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىْ إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ » .

إِنْ كُنْتُ مُهْتَدِيًا فَبِرَبِّى لَا يَهْدِى . وَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ
عَانَدُوا عَلَىَّ ، وَلَنْ يَضُرَّكُمْ ذَلِكَ . فَانظُرُوا أَنْتُمْ إِلَى أَنْفُسِكُمْ . . . أَيْنَ وَقَعْتُمْ ؟ وَأَىْ ضَرَرِ يَعُودُ
عَلَيْكُمْ لَوْ أَطَعْتُمُونِى ؟ لَا فِى الْحَالِ تَخْسِرُونَ ، وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ تَعْيُونَ ، وَلَا فِى جَاهِكُمْ تَقْصُونَ .
وما أخبركم به عن نقص أصنامكم فى الضرورة (١) أنتم تعلمون ! فإلستم لا تبصرون ؟
ولا لأنفسكم تنظرون ؟

(١) أى لا جدال فى أنكم تجدونها لاتنفع ولا تضر ولا تستطيع أن تدفع عنها مكروهاً ، فهى لاتليق بتأليه
ولا تقديس .

قوله جل ذكره : « ولو ترى إذ فرّعوا فلا فوّت وأخذوا
من مكان قريب » .

أى لو رأيت ذلك رأيت منظرًا فظيماً ، وأمرًا عظيماً ؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال .
« وقالوا آمنا به وأنتى لم التناوش من
مكان بعيد » .

إذا تابوا — وقد أغلقت الأبواب ، وتدموا — وقد تطلعت الأسباب . . . فليس
إلا الحسرات والندم ، ولات حين ندامة !

كذلك من استهان بتفاصيل فترته ، ولم يستيق من غفلته بتجاوز عنه مرة ، ويعفى عنه
كثرة ، فإذا استمكنت منه القسوة وتجاوز سوء الأدب حد الغفلة ، وزاد على مقدار
الكثرة (١) . . . يحصل له من الحق رد ، ويستقبله حجاب ، وبعد ذلك لا يسمع له دعاء ،
ولا يرحم له بكاء ، كما قيل :

فخلّ سيل العين بمدك للبكا فليس لأيام الصفاء رجوع

قوله جل ذكره : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما
فعل بأشياءهم من قبل لهم كانوا في
شك قريب » .

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت ، وانلخصم يريد إرضاءه فيستعجى أن يذكر
في ذلك الوقت ، وينسئ لسانه ويعتقل ؛ فلا يمكنه أن يفضح بما في قلبه ، ويود أن لو كان بينه
وبين ما أسلفه بعد بعيد ، ويتمنى أن يطيع فلا تساعد القوة ، ويتمنى أن يكون له — قبل
خروجه من الدنيا — نفس . . . ثم لا يتفق .

(١) في رأى القشيري : الثلاثة — آخر حد الغفلة ، وأول حد الكثرة .

سُورَةُ فَاطِر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة سماعها يوجب رَوْحًا مَنْ كَانَ يَشَاهِدُ الْإِيمَانَ ، وَيُوجِبُ لَوْحًا مَنْ كَانَ يوصف البیان ؛ فَالرَّوْحُ مَنْ وَجُودُ الْإِحْسَانِ ، وَاللَّوْحُ مَنْ شُهُودُ السُّلْطَانِ ، وَكُلُّ مُصِيبٍ ، وَلِكُلِّ مِنَ الْحَقِّ نَصِيبٌ .

قوله جل ذكره : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل للملائكة رُسُلًا أولى أجنحة ... »

استحق المدح والثناء على انفراده ^(١) بالقدرة على خلق السموات والأرض .

« جاعل الملائكة رُسُلًا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء » : تعرّف إلى العباد بأفعاله ، وتنبههم إلى الاعتبار بها ، فمنها ما نفعل منه ذلك معاينة كالسموات والأرض وغيرها ، ومنها ما سبيل الإيمان به الخير والنقل — لا بدليل العقل — والملائكة من ذلك ؛ فلا تتحقق كيفية صورهم وأجنحتهم ، وكيف يطرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة ، ولكن على الجملة نفعل كمال قدرته ، وصدق كلمته .

قوله : « يزيد في الخلق ما يشاء » : قيل الخلق الحسن ، وقيل الصوت الحسن ، وقيل الصوت الحسن وقيل مَلَاخَةُ الْعَيْنَيْنِ ، وقيل الْكَيَاسَةُ فِي الْخَيْرَةِ ^(٢) ، وقيل الْفَصَاحَةُ فِي النُّطْقِ ، وقيل الْفَهْمُ عَنْ اللَّهِ ، ويقال السَّخَاءُ وَالْجُودُ ، ويقال الرِّضَا بِالتَّقْدِيرِ ، ويقال علو الهمة ، ويقال التَّوَاضُّعُ ، ويقال الْعِفَّةُ عِنْدَ الْفَقْرِ ، ويقال الظُّرْفُ فِي الشَّمَائِلِ ، ويقال أن تكون مُحِبًّا إِلَى الْقُلُوبِ ، ويقال خِفَةُ الرُّوحِ ، ويقال سَلَامَةُ الصَّدْرِ مِنَ الشُّرُورِ ، ويقال الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ بِلا تَأْمُلُ

(١) مَكْلَفٌ فِي م . وهي في ص (إرشاده) .

(٢) اسم من الاختيار .

برهان^(١) ، ويقال الشوق إلى الله ، ويقال التعطف على الخلق يحملهم ، ويقال تحرر القلوب من رِقِّ الحدَثان يحملته ، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً في الدارين^(٢) .

قوله جل ذكره : « ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا تُمَسِّك لها وما يُمَسِّك فلا يُرْسِلُ له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

المَوْسَعُ عليه رِزْقُهُ لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله ، والمحرومُ لا يَوْسَعُ عليه غيرُ الله .

ويقال : ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لاسحاب بسره ، ولا ضياء يقهره .
ويقال : ما يلزم قلوب أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له ، وما يُفَلِّقُ على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فَاتِحَ له غيره — سبحانه .

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا تُمَسِّكُ له ، والذي يمنعه عن أعدائه — بما يُلقِيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها — فلا مُيسِّرَ له من دونه .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هل من خالقٍ غيرِ اللَّهِ يرزقكم من السماء والأرض لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوَافِكَونَ » .

مَنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ فَصَاحِبُ عِبَادَةٍ ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ ، وَمَنْ ذَكَرَ النُّعْمَ فَصَاحِبُ إِرَادَةٍ ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ .. ولكن فرقاً بين زيادة وزيارة ؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاءه : اليوم سيراً بسيراً من حيث الشاهدة ، وغداً جهراً بجَهْرٍ من حيث المعاينة .

والنعمة على قسمين^(٣) : ما دَفَعَ عنه من المِحْنِ ، وما نَفَعَ به من المِنَنِ ؛ فذِكْرُهُ لما دَفَعَ عنه يوجب دوام العصمة ، وذِكْرُهُ لما نَفَعَ به يوجب تمام النعمة .

(١) من اختاره الله لمعرفته لا يتركه يتمنى في الأدلة والبراهين بعد اجتياز مرحلة البداية المسحقة بالعقل . بل يفك أسره من هذه القيود لينطلق في رحلة العرفان بالقلب ، ثم الروح ، ثم السر ، ثم عين السر .

(٢) يرى الزمخشري أن الآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق وميزة فيه .. وتلك أمور لا يحيط بها وصف .

(٣) مرة أخرى يعود التشيرى إلى ذكر نعم الدفع ، ونعم النفع ؛ وواضح أن الذكر والشكر لازمان على الدوام .. هذا هو المقصد الذي يطمح إليه التشيرى .

« هل من خالق غير الله ؟ » وفائدة هذا التعريف أنه إذا عرّف أنه لا رازق غيره لم يُلقَ قلبه بأحد في طلب شيء ، ولم يتدلل في ارتفاق الخلق ، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضاً ؛ فيتخلص من ظلمات تدبيره واحتياله^(١) ، ومن توهم شيء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يُخلص في توكله وتقويضه .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

هذه تسليّة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسهيل للصبر عليه ؛ فلذا علّم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله ، وأنهم صبروا وأن الله كفاهم ، فهو يسلك سبيلهم ويقتدى بهم ، وكما كفاهم علّم أنه أيضاً يكفيهم . وفي هذا إشارة للحكام وأرباب القلوب في موقفهم من العوام والأجانب عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، بينما أهل الحقائق أبداً منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالم عنهم^(٢) .

والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء^(٣) المتقنين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ »

(١) فالواجب إسقاط التدبير وشهود التقدير - كما قلنا في الخامس منذ قليل .
(٢) بلأ «ملائية» نيسابور إلى هذا السر ، واكتفوا بعلم الله بأسرارهم وصلاح باطنهم ، ولم يأبهوا بالمخلوقين . بل رغبة في تأكيد علاقتهم بالله ، وإيماناً في إخفاء حقائقهم كانوا يقومون بأشياء تستوجب الملامة ... نقول ذلك رغبة في توضيح أن أفكار هذا المذهب كانت مبروفة في مدينة نيسابور موطن القشيري ، كما كان السلمي جد أبي عبد الرحمن صديقه الحميم واحداً من رواد هذا المذهب وأئمة .
(٣) القراء جماعة من قراء القرآن ظهوروا منذ عهد مبكر (ولازموا الأعمدة في الليل يتهجدون ، حتى إذا جاء النهار استقوا الماء واحتطبوا لنبى وكانوا في صحبته (ابن سعد ج٢ ص ١٢٠ ق ١ ص ٣٦ ، ٣٧) ، ولكن اللفظة أطلقت فيما بعد بصفة عامة على (الذين يزورون عن الدنيا ويخصصون أنفسهم للعمل الصالح والزهد والتأمل) ابن سعد ج٢ ص ٢٥٥ . (ويقال تقرى بتسهيل الحزمة أى تنسك) (أمالى القتال ج٢ ص ٤٧) .. ولقد نبه عمر بن الخطاب إلى ضرورة تنقية هذا اللون من التعبد من كل الأغراض والأمراض حيث يقول : «يا أيها الناس إنه أقي على حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقرائهم وبأعمالكم» البيان والتبيين ج٢ ص ١٢٨ . ولكن يبدو أن الزمن قد فعل فعله في خروج طوائف من القراء عن هذا الخط ... الأمر الذي جعل القشيري - وقد عاش في القرنين الرابع والخامس - يتحفظ في الحكم عليهم .

فَلَا تَفْرَحُوا بِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَحُوا بِمَوْتِكُمْ
بِاللَّهِ الْغَرُورِ .

وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ ، فَوَعْدُهُ فِي الْقِيَامَةِ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ
بِكِفَايَةِ الْأُمُورِ وَالسَّلَامَةِ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ لِلْمُطِيعِينَ فِي الْآخِرَةِ بِوُجُودِ الْكَرَامَةِ حَقٌّ ، وَلِلْعَاصِينَ
بِالنَّدَامَةِ حَقٌّ ، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ اسْتَمَدَّ لِلْمَوْتِ ، وَلَمْ يَهْتِمْ بِالرِّزْقِ ، فَيَكْفِيهِ اللَّهُ شُغْلَهُ ،
فَيَنْشِطُ الْعَبْدُ فِي اسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ ثَقَّةً بِالْوَعْدِ ، وَلَا يُلِمُّ بِالْمُخَالَفَاتِ خَوْفًا مِنَ الْوَعِيدِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

عِدَاوَةُ الشَّيْطَانِ بِدَوَامِ مُخَالَفَتِهِ ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعَاوَنُهُ بِالْقَوْلِ وَلَكِنْ يُوَافِقُهُ بِالْفِعْلِ ،
وَلَنْ تَقْوَى عَلَى عِدَاوَتِهِ إِلَّا بِدَوَامِ الِاسْتِغَاثَةِ بِالرَّبِّ ، وَتِلْكَ الِاسْتِغَاثَةُ تَكُونُ بِصِدْقِ
الِاسْتِعَانَةِ . وَالشَّيْطَانُ لَا يَقْتَرِفُ عِدَاوَتَكَ ، فَلَا تَغْفَلْ أَنْتَ عَنْ مَوْلَاكَ لِحِظَةِ فَيَبْزُلَكَ عَدُوُّكَ ؛
فَإِنَّهُ أَبَدًا مَتَمَكِّنٌ لَكَ .

« إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ » وَحِزْبُهُ هُمُ الْمُعْرِضُونَ عَنِ اللَّهِ ، الِاسْتِغَاثَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ ، الْغَافِلُونَ عَنِ
لِلَّهِ . وَدَلِيلُ هَذَا الْخُطَابِ : إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوُّكُمْ فَأَبْغِضُوهُ وَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، وَأَنَا وَلِيُّكُمْ
وَحَبِيبُكُمْ فَأَحِبُّوْنِي وَارْضَوْا بِي حَبِيبًا .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ مُّجَلٌّ وَعَذَابٌ مُّؤَجَّلٌ ، فَتُجَلُّ تَفْرِقَةُ قُلُوبِهِمْ وَانْسِدَادُ بَصَائِرِهِمْ
وَوَقَاحَةُ هِمَّتِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِأَن يَكُونَ الصَّنَمُ مَعْبُودَهُمْ . وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَهُوَ مَا لَا نَخْفَى
عَلَى مُسْلِمٍ — عَلَى الْجَمَلَةِ — صَعُوبَتُهُ .

وأما « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فلهم مغفرة أى سترٌ لذنوبهم اليوم ، ولولا ذلك لا ففضحوا ، ولولا ذلك لهلكوا .

« وأجر كبير » : والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله في القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال . وفي الآخرة : تحقيقُ السؤلِ ونيلُ ما فوق المأمول .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ

حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ

حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

معنى الآية : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟ لا يستويان !

ومعنى « زين له سوء عمله » أن الكافرَ يتوهم أن عمله حسنٌ ، قال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »^(١) .

ثم الراغبُ في الدنيا يجمع حلالها وحرامها ، ويحوش^(٢) خطأها ، ولا يفكر في زوالها ، ولا في ارتحالها عنها قبل كمالها ؛ فلقد زين له سوء عمله (والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبداً راحاته في الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله^(٣)) . وإن الذي يؤثّرُ على ربّه شيئاً من المخلوقات لهوٌ من جملتهم . والذي يتوهم أنه إذا وجدَ نجاته ودرجاته في الجنة — وأنّ هذا يكفيه ... فقد زُيِّنَ له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة . والذي هو في صحبة حظوظه ولا يؤثّرُ حقوق الله فلقد زين له سوء عمله فرآه حسناً .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ » : يعنى إذا عرفتَ حقّ^(٤) التقدير ، وعلمتَ أنهم سقطوا من عين الله ، ودعوتهم جهراً ، وبذلتَ لهم نصيحاً ، فاستجابتهم ليست لك ، فلا تَبْجَلْ على قلبك من ذلك مشقة ولا غناء .

(١) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٢) حوش المال ونحوه = جمعه وادخره (الوسيط) .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

(٤) حكنا في م وهي في ص (سر) التقدير .

قوله جل ذكره: « والله الذي أرسل الرياح فتثير

سحاباً فسقنناه إلى بلد ميت فأحيينا

به الأرض بعد موتها كذلك النشور »

أجرى سُنَّتَهُ بأنه يُظهِرُ فَضْلَهُ في إحياء الأرض بالتدريج ؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب ، ثم يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء ، ويُمَطِّرُ هناك كيف يشاء . كذلك إذا أراد إحياء قلب عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته ، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء ، ويزعج بها كوامنَ الإرادة ، ثم ينشئ فيها سُحُبَ الاهتياج ، ولوعة الانزعاج ، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ في القلب أزهارَ البَسَطِ ، وأنوارَ^(١) الرُّوح ، فيطيب لصاحبه العيشُ إلى أن تتمَّ لطائفُ الأنسِ .

قوله جل ذكره: « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ

الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ

السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ

أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ »

مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ بِنَفْسِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْعِزَّةَ بِجَمَلَتِهَا لِلَّهِ ، فَلَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنَ الْعِزَّةِ . وَيُقَالُ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ لِنَفْسِهِ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ، أَيْ فَلْيَطْلُبْهَا مِنَ اللَّهِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى أُثْبِتَ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرُسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ هَاهُنَا « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً » ؛ وَوَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا أَنَّ عِزَّةَ الرَّبُّوبِيَّةِ لِلَّهِ وَصِفًا ، وَعِزَّةَ الرُّسُولِ ، وَعِزَّةَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَلِصَاحِبِهِ : فَإِذَا الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعاً . وَعِزُّهُ سُبْحَانَهُ — قُدْرَتُهُ . أَوْ يُقَالُ الْعَزِيزُ هُوَ الْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُقَهَّرُ ؛ فَيَكُونُ مِنْ صِفَاتِ فَعْلِهِ عَلَى أَوَّلِ الْقَوْلِينَ . . . وَمِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ . وَيُقَالُ الْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا يُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ : أَرْضٌ عَزَازٌ إِذَا لَمْ تَسْتَقِرْ عَلَيْهَا الْأَقْدَامُ ، فَيَرْجِعُ مَعْنَاهُ إِلَى جَلَالِ سُلْطَانِهِ .

وَيُقَالُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ : عَزَّ الطَّعَامُ فِي الْيَدِ ، فَيَرْجِعُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ لَصِفَاتِ الْمَجْدِ وَالْعُلُوِّ .

(١) أنوار هنا جمع نورة وهي الزهرة البيضاء .

قوله : « إليه يصعد الكلم الطيب » : الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة —
يعنى الشهادتين — عن إخلاص . وأراد به صعود قبول ؛ لأن حقيقة الصعود فى اللغة بمعنى
الخروج — ولا يجوز فى صفة الكلام^(١) .

« والعمل الصالح يرفعه » : أى يقبله . ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . ويقال
الكلم الطيب ما يكون موافقاً للسنة ، ويقال هو ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف . ويقال
هو نطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب . ويقال هو ما يكون دعاء للمسلمين . ويقال
ما يتجرد حقاً للحق ولا يكون فيه حظ للعبد . ويقال ما هو مستخرج من العبد وهو فيه
مفقود^(٢) . ويقال هو بيان التنصل وكلمة الاستغفار .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذى ليس فيه آفة ولا يطلب عليه عوض
قوله جل ذكره : « والذين يَمَكُرُونَ السِّتَاتِ لَمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ
يَبُورُ » .

أى يقلب عليهم مكرهم ؛ فأتوه من خير لم يقبله محنة عليهم . ويقال : تحليته
إياهم ومكرهم^(٣) — مع قدرته على عصمتهم ، وكونه لا يعصمهم من عذابهم الشديد .

قوله جل ذكره : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
نُفْثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ
مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

ذَكَرَهُمْ نِسْبَتَهُمْ لِثَلَاثِ عَجَبٍ بِحَالَتِهِمْ ، ثُمَّ إِنْ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الطِّينِ سَرِيعُ التَّغْيِيرِ ، قَلِيلٌ

(١) لأن الخروج يقتضى تحلاً .. والالوهية تنزه عنه .

(٢) أى ما يصدر عن العبد وهو مأخوذ مستلب عن نفسه — من المعارف .

(٣) نصبنا الراء فى (ومكرهم) لتكون مفعولاً معه فهكذا نفهم السياق .

القوة في المكث ، لكنه يقبلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته ؛ فإذا جاد الحق عليه بماء الجود أعاده بعد انكساره بالذنوب^(١) .

وإذا كان لا يخفى عليه — سبحانه — شيء من أحوالهم في ابتداء خَلْقِهِمْ ، فمن يُبالِ أن يَخْلُقَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْصِي فَلَا يَبَالِي أَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ رَأَاهُ يَعْصِي^(٢) .

قوله جل ذكره : « وما يستوى البحران هذا عذبٌ

فَرَأَتْ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ »

وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

الْفُلُكَ فِيهِ مَوَاقِرَ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

لا تستوى الحالتان : هذه إقبالٌ على الله ، واشتغالٌ بطاعته ، واستقلالٌ بمعرفته . . وهذه إغراضٌ عن الله ، وانقباضٌ عن عبادته ، واعتراضٌ — على الله — في قسمته وقبضته . هذه سببٌ وصلاته ، وهذه سببٌ هجرته وانفصاله ، وفي كلٍّ واحدٍ من الحالتين يعيش أهلها ، ويرزق أصحابها وقتها . ولا يستوى الوقتان : هذا بسطٌ وصاحبه في رَوْحٍ ، وهذا قبضٌ وصاحبه في تَوَحُّجٍ . هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح ، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح . هذا فرقٌ وصاحبه بوصف المبودية ، وهذا جمعٌ وصاحبه في شهود الربوبية .

« ومن كل تاكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » : كذلك كلٌّ يتقربُ في حالته لربه ؛ ويتزَيَّنُ على بابه ، وهو حليته التي بها يتحلَّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ .

(١) عرض القشيري فيما سبق لهذه النقطة عندما تحدث عن خلق آدم وإبليس ، وكيف أن ماء العناية جبر آدم حين أظهر المذنب فاجتياه ربه وتاب عليه ، وكيف أن الماء أطفأ نار إبليس فأنظره إلى يوم يبعثون ، ليبدل القشيري بذلك على أن الطين أفضل من النار ، وأن إبليس أخطأ في دعوى أفضليته على آدم .

(٢) أي أن معصية العبد من العبد عملاً — وفي هذا إثبات لحرية الإنسان واختياره — وإن كانت من الله علماً ... وهو من قبل ومن بعد غافر الذنب وقابل التوب .

قوله جل ذكره : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ
مِنْ قَاطِرٍ » .

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب ، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْسِ . وكذلك القبضُ والبسطُ
فقد يستويان ، ومرةً يغلب القبضُ على البسط ، ومرةً يغلب البسطُ على القبض ، وكذلك
الصحو والشُّكْرُ ، وكذلك الفناء والبقاء .

وسَخَّرَ شَمْسَ التَّوْحِيدِ وَأَقَارَ الْمَعْرِفَةِ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْ إظهاره على القلوب .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ » : فأروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه !
وإِذْ لَمْ يُكِنِّكُمْ ذَلِكَ . . . فَهَلَّا أَقْرَزْتُمْ ، وفي عبادته أخلصتم ، وعن الأصنام تبرأتم ؟ .

قوله جل ذكره : « إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ
بِشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

إِنْ اسْتَعْنَيْتُمْ بِأَصْنَامِكُمْ لَا يُعِينُوكُمْ ، وَإِنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا —
على جهة ضَرْبِ الْمَثَلِ — لَا يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ ؛ لأنهم لَا يَمْلِكُونَ نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ . . فكيف
يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ ؟ !

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ » : لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ
الْإِيمَانُ بَعْدَ زَوَالِ التَّكْلِيفِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

الفقر على ضربين : فقر الْخَلْقَةِ وقهر الصفة ؛ فَأَمَّا فقر الْخَلْقَةِ فهو عامٌّ لكلِّ أَحَدٍ ؛ فكلُّ
مَخْلُوقٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقِهِ ، فهو قد حَصَلَ مِنَ الْعَدَمِ ، فهو مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لِيُبدِيَهُ وَيُنْشِئَهُ ، ثم بعد

ذلك مفتقرٌ — في حال بقائه إليه — لِيُدِيَمَهُ وَيَقِيَهُ . فاللهُ — سبحانه — غنيٌّ ، والعبدُ فقيرٌ ؛
العبدُ فقيرٌ بعينه واللهُ غنيٌّ بعينه (١) .

وأما فقر الصفة فهو التجردُ ؛ فققرُ العوامِ التجردُ من المال ، وققرُ الخواصِ التجردُ من
الأعلالِ لِيَسْلَمَ لم الفقر .

والفقر على أقسام : فقر إلى الله ، وققر إلى شيء هو من الله ؛ معلومٌ أو مرسومٌ وغير ذلك .
ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء ؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله ، والافتقار
إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله ، فالفتقر إلى الله مُسْتَعْنٍ بالله ، والمستغنى بالله مفتقرٌ
إلى الله (٢) .

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر .
وشرفُ العبد في فقره ، وكذلك ذُلُّه في توهه أنه غنيٌّ : —

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابُ تَقَرُّبًا مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا (٣)

ومن الفقر المذموم ، أن يَسْتَرْ الحقُّ على صاحبه مواضع فقره إلى ربِّه ، ومن الفقر الحمود
أن يُشْهِدَهُ الحقُّ مواضع فقره إليه .

ومن شرط الفقر المحلص ألا يملك شيئاً ويملك كلَّ شيء .

ويقال : الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء (٤) .

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشْكُرِ عند كمالِ التَّكْسُرِ . ومن آداب الفقر كمالُ
المعنى وزوالُ الدعوى . ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى .

(١) أي أن العبد — كذات مستقلة — فقير ؛ لأنه مخلوق يحتاج إل خالفه ، والحق — كذات مستقلة —
غني ؛ لأنه خالق فهو في غير حاجة إل مخلوقه .

(٢) من أقوال الجنيد في هذا الصدد وقد مثل عن الافتقار إلى الله : أهو أُم أم الاستغناء بالله قال : إذا صح
الافتقار إلى الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كل الغنى به ؛ فلا يقال أيها أُم ؛ لأنهما حالتان
لا تُم إحداهما إلا بالأخرى (الرسالة ص ١٣٥) .

(٣) من أقوالهم في هذا الصدد : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالسونا عليه .

(٤) أي لا يكون أسيراً لغرض أو لغرض ، فتلك آفة الدنيا والنفس .

وحقيقة الفقر المحمود تجرّد السرّ عن العلوات وإفراد القلب بالله .

ويقال : الفقر المحمود العيش مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقت من غير استكراه شيء منه بكل وجه .

قوله : « والله هو الغنى الحميد » : الإشارة منه أن يُعطى حتى يُحمد .

ويقال الغنى إذا أظهر غناه لأحدٍ فإمّا للمفاخرة أو للسكّارة — وجلّ قدر الحق عن ذلك — وإمّا ليجود ويتفضل على أحد .

ويقال : لا يقول لنا أتم الفقراء للإزراء بنا — فإنّ كرمه يتقدّس عن ذلك — وإنما المقصود أنه إذا قال : والله الغنى ، وأتم الفقراء أنه يجود علينا .

ويقال إذا لم تدع ما هو صفته — من استحقاق الغنى — أولاك ما يُغنيك ، وأعطاك فوق ما يكفيك .

قوله جل ذكره : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » وما ذلك على الله بعزيز .

عرّفك أنه غنى عنك ، وأشهدك موضع فقرك إليه ، وأنه لا بدّ لك منه ، فما قصد من هذا إلا إرادته لإكرامك وإيوائك في كنف إنعامه .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

كلّ مُطالِبٍ بعمله ، وكلّ مُحاسِبٍ عن ديوانه ، ولكلّ معه شأن ، وله مع كلّ أحدٍ شأن . ومن العبادات ما تجرى فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجرى النيابة ؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاة مفروضة ، فلو قضى عنه ألف ولي وألف صنيّ تلك الصلاة الواحدة عن كل ركعة ألف ركعة لم تقبل منه إلا أن يجيء هو : معاذ الله أن نأخذ إلا بمن وجدنا متاعنا عنده ! فتأبك لا يحري مع غيرك ، والخطاب الذي معك لا يسمعه غيرك :

فَإِمْرٌ أَوْ أَقِمْ وَقِفْ عَلَيْكَ مَحَبَّتِي مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ

« إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »

بالغيبِ وأقاموا الصلاةَ ومن تزكَّى

فإنما يتزكَّى لِنَفْسِهِ وإلى الله المصير .

الإِنذار هو الإعلام بموضع الخفاة ، والخشية هي الخفاة ؛ فمعنى الآية ، لا ينفع التخويف إلا لمن صاحب الخوف — وطيرُ السماء على أشكلها تقع .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير *

ولا الظلمات ولا النور * ولا الظلُّ

ولا الحرور * وما يستوى الأحياء

ولا الأموات إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ

وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » .

كما لا يستوى الأعمى والبصير لا تستوى الظلمات والنور ، ولا يستوى الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات .. وكذلك لا يستوى الوصول بنا والمشغول عنا ، والمجذوب إلينا ، والمحبوب عنا ، ولا يستوى مَنْ اصطفيه في الأزل ومن أشقياه بحكم الأزل ، ولا يستوى من أشهدناه حقنا ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا :

أحبابنا شتان : وافي وناقض ولا يستوى قطُّ مُحِبٍّ وباغضٍ

قوله جل ذكره : « إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » .

أى وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إِلَّا بعثنا فيهم نذيراً ، وفى وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحق .

« بَشِيرًا وَنَذِيرًا » : تضمنت الآية بيان أنه لم يُخلِ زماناً ولا قومًا من شَرِيع .

وفى وقته صلى الله عليه وسلم أفرد به بأن أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له :

« وَإِنْ بُكَدُّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » .

أى لو قابلوكم بالكذب فتلك سنتهم مع كل نبي ، وإن أصرّوا على سنتهم فى النبوّة
فلن نجد لسنة الله تبديلاً فى الانتقام والحزى .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ
الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَعَرَابٍ سُوْدٌ » .

بين فى هذه الآية وأمثالها أن تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أكلة قصد الفاعل وبرهانه ،
وفى إتيان الفعل وإحكامه شهادة على علم الصانع وإعلامه .

وكذلك أيضاً « من الناس والدواب والأنعام » : بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان
مختلف ، وهو دليل ثبوت منشئها بنعت الجلال .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

« إِنَّمَا » كلمة تحقيق تجرى من وجه مجرى التحديد أى التخصيص والقصر ، فمن قدّ العلم
بالله فلا خشية له من الله .

والفرق بين الخشية والرهبّة أن الرهبّة خوفٌ يوجب هرباً صاحبها فيجرى فى هربه ،
والخشية إذا حصلت كبحت جماع صاحبها فيبقى مع الله ، قدمت الخشية على الرهبّة فى
الجملة^(١) .

والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : « وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »^(٢) فالخشية قضية العلم ،
والهيبة توجب المعرفة .

(١) يفيد هذا الكلام فى التفرقة بينهما عند بحث المصطلح الصوفى .

(٢) آية ١٧٥ سورة آل عمران .

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقّه . ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق .
ويقال حذراً من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتركُ احترامٍ ، وانبساطٌ في غير وقته بإطلاق
لفظٍ ، أو ترخُّصٍ بِتَرْكِ الأولى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ » .

الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه ، وإتيائهم بأنواع العبادات وصنوف
القُرْبِ فَلَهُمُ الْقَدَرُ الْأَجَلُّ مِنَ التَّقَرُّبِ ، والتصيبُ الأوفر من الترحيب . وأما الذين أجواهم
بالضدِّ فَمَنَالَهُمُ عَلَى الْعَكْسِ . أولئك هم الأولياء الأَعِزَّةُ ، وهؤلاء هم الأعداء الأَذِلَّةُ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ » .

ما عَرَفْنَاكَ — من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك ، وتقديعنا لك على الكافة — فلي
ما أخبرناك ، وأنشدوا :

لَا أَتَّبِعِي بَدَلًا سِوَاكَ خَلِيلَةً فَتُحَقِّقِي بِقَوْلِي وَالْكِرَامُ ثِقَاتُ

قوله جل ذكره : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ
وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ
هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

« أَوْرَثْنَا » : أى أعطينا الكتاب — أى القرآن — الذين اصطفينا من عبادنا ، وذَكَرَ
الإعطاء بلفظِ الْإِثْرِ توسعاً .

« اصطفينا » : أى اخترنا . ثم ذكر أقسامهم ، وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه
السلام : « أمتي وربُّ الكعبة » ثلاث مرات .

وفي الآية وجوه من الإشارة : فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالإيراث يقتضي صحة النسب على وجه مخصوص ، فمن لا سبب له فلا نسب له ، ولا ميراث له .

ومحل النسب ها هنا المعرفة ، ومحل السبب الطاعة . وإن قيل محل النسب فضله ، ومحل السبب فعلك^(١) . فهو وجه . ويصح أن يقال محل النسب اختياره لك بدءاً ومحل السبب إحسانه لك تالياً .

ويقال أهل النسب على أقسام : — الأقوى ، والأدنى كذلك في الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه التملك لا بد فيها من فعل للعبد كالبيع ، أمّا ما يملك بالهبة فلا يحصل إلا بالقبول والقسم ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك : والوصية لا تستحق إلا بالقبول ، وفي الزكاة لا بد من قبول أهل الشئمان ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله ، والنسب ليس من جملة أفعاله .

ويقال الميراث يستحق بوجهين : بالفرض والتعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بذوى الفروض ثم ما يتبقى فللمصبة^(٢) .

« فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » : تكلموا في الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظلم نفسه لكثرة ما حمله من الطاعة .

والأكثر : إن السابق هو الأفضل ، وقالوا : التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة ، ولهذا نظائر كثيرة^(٣) .

ويقال قرّن باسم الظالم قرينةً وهي قوله : « لنفسه » ، وقرن باسم السابق قرينةً وهي قوله :

(١) فالنسب وجهي والفعل كسبي كما أن المعرفة وهبية والطاعة كسبية وإن كان الصوفية يرون أن الكسب والاجتلاب والتصرف والتكليف كلها لا تتم إلا بفضل من الله (أنظر شرح المكي لأبيات رابعة المبدوءة بـ «أحبك حين...» في قوت القلوب) . وهذا المعنى واضح هنا أيضاً في تفسير القشيري .

(٢) العصبية واحدة العصب ، وعصبية الرجل (في الفرائض) من ليست له فريضة مائة في الميراث ، وإما يأخذ ما أبى ذوى الفروض . أنظر رأي القشيري في تفضيل التعصيب على الفروض (المجلد الأول من هذا الكتاب ص ٣١٧)

(٣) على نحو ما يذكره البلاغيون في ذكر الخاص بعد العام .

« يا ذن الله » ؛ فالظالمُ كانت له زَلَّةٌ ، والسابقُ كانت له صولةٌ ، فالظالمُ رَفَعَ زُلَّتَهُ بقوله :
لنفسه ، والسابقُ كَسَرَ صَوْلَتَهُ بقوله : يا ذن الله .

كأنه قال : يا ظالمُ ارفعْ رأسَكَ ، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك ، وبالسابقِ اخفضْ ^(١) رأسَكَ ؛
سَبَقْتَ — ولكن يا ذن الله .

ويقال إنَّ العزيزَ إذا رأى ظالماً قَصَمَهُ ، والكرِيمَ إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده ، كأنه قال :
يا ظالمُ ، إنَّ كانَ كونُكَ ظالماً يوجبُ قَهْرَكَ ، فكونُكَ مظلوماً يوجبُ الأخذَ بيدِكَ ^(٢) .
ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَّاتُهُ ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته ، والسابقُ مَنْ زادت
حسناته .

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه ، والمقتصدُ مَنْ رغب في عقباه ، والسابقُ مَنْ آثر على
الدارين مولاه .

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَّمَ كوكبُ عقله ، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ علمه ، والسابقُ مَنْ
ذَرَّتْ ^(٣) شمسُ معرفته .

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَهُ ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَهُ ، والسابقُ مَنْ بَقِيَ معه .

ويقال الظالمُ مَنْ تَرَكَ المعصية ، والمقتصدُ مَنْ تَرَكَ الغفلة ، والسابقُ مَنْ تَرَكَ العلاقة ^(٤) .

ويقال الظالمُ مَنْ جادَ بماله ، والمقتصدُ مَنْ لم يَبْخُلْ بِنَفْسِهِ ، والسابقُ مَنْ جادَ بروحه .

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين ، والمقتصدُ مَنْ له عين اليقين ، والسابقُ مَنْ له حق اليقين .

ويقال الظالمُ صاحب المودة ، والمقتصدُ صاحب الخلقة ، والسابقُ صاحب الحجة .

ويقال الظالمُ يترك الحرام ، والمقتصدُ يترك الشبهة ، والسابقُ يترك الفضل ^(٥) في الجملة .

(١) وردت في ص (إحفظ) والسياق يتطلب (اخفض) رأسك فما سبقت إليه ليس إلا يا ذن الله .

(٢) فآية كرم المولى سبحانه أنه ينظر إلى الظالم على أنه مظلوم ؛ مظلوم من قبل نفسه التي دعت إلى أن يظلم
غيره ولصرى إنها غاية الكرم كما يتصورها هذا الصوفي الجليل .

(٣) ذرت الشمس ذرواً أى ظهرت أول شروقها (الوسيط) .

(٤) أى العلاقة بالدنيا والنفس وما يتصل بهما .

(٥) الفضل هنا معناه ما زاد عن الحاجة الضرورية اتقاء للحرام والشبهة ، يقول سهل التستري : « إذا
كان الحلال في الدين هو مالا يُعصى الله فيه فإن الحلال عند الصوفي مالا يُنسَى الله فيه » .

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء ، والمقتصدُ صاحبُ جود ، والسابقُ صاحبُ إثارة^(١) .
ويقال الظالمُ صاحبُ رجاء ، والمقتصدُ صاحبُ بسْط ، والسابقُ صاحبُ أنس .
ويقال الظالمُ صاحبُ خوف ، والمقتصدُ صاحبُ خشية ، والسابقُ صاحبُ هيبة .
ويقال الظالمُ له المغفرة ، والمقتصدُ له الرحمة والرضوان ، والسابقُ له القربة والمحبة .
ويقال الظالمُ صاحبُ الدنيا ، والمقتصدُ طالبُ العُقْبى ، والسابقُ طالبُ المولى .
ويقال الظالمُ طالبُ النجاة ، والمقتصدُ طالبُ الدرجات ، والسابقُ صاحبُ المناجاة .
ويقال الظالمُ أَمِنَ من العقوبة ، والمقتصدُ فاز بالثوبة ، والسابقُ متحقق بالقربة .
ويقال الظالمُ مضروبٌ بسوطِ الحِرصِ ، مقتولٌ بسيفِ الرغبة ، مضطجعٌ على بابِ الحسرة .
والمقتصدُ مضروبٌ بسوطِ الندامة ، مقتولٌ بسيفِ الأسف ، مضطجعٌ على بابِ الجود .
والسابقُ مضروبٌ بسوطِ التواجد ، مقتولٌ بسيفِ المحبة ، مُضْطَجِعٌ على بابِ الاشتياق .
ويقال الظالمُ صاحبُ التوكل ، والمقتصدُ صاحبُ التسليم ، والسابقُ صاحبُ التفويض .
ويقال الظالمُ صاحبُ تواجد ، والمقتصدُ صاحبُ وَجْد ، والسابقُ صاحبُ وجود .
ويقال الظالمُ صاحبُ المحاضرة ، والمقتصدُ صاحبُ المكاشفة ، والسابقُ صاحبُ المشاهدة .
ويقال الظالمُ يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرة ، والمقتصدُ يراه في كل يوم مرة ، والسابقُ غير محبوبٍ عنه ألبتة .
ويقال الظالمُ مجذوبٌ إلى فِعْلِهِ الذي هو فضله ، والمقتصدُ مكشَفٌ بوصفه الذي هو عِزُّهُ ،
والسابقُ المستهلكُ في حقِّه الذي هو وُجُودُهُ .
قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » لأنه ذكر الظالم مع السابق^(٢) .

قوله جل ذكره : « جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُمَلَّوْنَ فِيهَا

(١) يفيد هذا التقسيم في بحث لغوي عن ترتيب : السخاء والجود والإيثارة .
(٢) أعجب الفرطلي بمنهج الصوفية في تفسير «الظالم والمقتصد والسابق» على هذا النحو فأورد طائفة كبيرة من أقوالهم استغرقت نحو صفحة ونصف الصفحة (١٤٠ ص ٣٤٨) .

من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ولِبَاسُهُمْ
فيها حريرٌ .

نبهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله ، وليس في الفضل تمييز .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمد لله الذي أذهبَ عَنَّا
الحزنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

تحققوا بمحائق الرضا ، والحزنُ سُمِّيَ حَزَنًا حَزُونَةً^(١) الوقتِ على صاحبه وليس في الجنة
حزونة وإنما هو رضا واستبشار .

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة . ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء
الأدب . ويقال هو سياسة النفس .

« إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ » للعصاة ، « شَكُورٌ » للطيعين . قَدَّمَ ما للعاصين رِقًّا بهم لضعف
أحوالهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ
لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا
لُغُوبٌ » .

« دار المقامة » : أى دار الإقامة ، لا يرغبون عنها حولا ، ولا يتمنون منها خروجًا .

« لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » : إذا أرادوا أن يروا^(٣) مولاهم لا يحتاجون
إلى قطع مسافة ، بل في غُرْفِهِمْ يلقون فيها تحيةً وسلامًا ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى قلب حلقه
أو تحديق مقلة في جهة^(٤) ؛ يروونه كما هم بلا كيفية .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى

(١) حزن المكان حزونة أى حزن أى خشن وغلظ ، وحزن الرجل اغتم .

(٢) يتجل هنا ما يتمتع به هذا الصوفى من نزوة الأمل وفتح الباب أمام العصاة .

(٣) يضاف هذا الرأى إلى موضوع « رؤية الله فى الآخرة » كما يتصوره القشيري .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (وجهة) وكلاهما صحيح إذ المقصود تنزيه من يروونه - سبحانه - عن التقيد

بالمكانية .. جلست الصمدية عن التقيد بمحل .

عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها
كذلك نجزى كل كفور .

لا حياة يَتَمَتَّعُونَ بها ، ولا موتَ يَسْتَرِيحُونَ به ، وهم مقيمون في العذاب والحجاب ، لا يفترون
عنهم العذاب ، ولا تُرْفَعُ عنهم العقوبة .

« وهم يَصْطَرِخُونَ فيها رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ
نُعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ
النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ نصير . »

يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، فيقال لهم أَو لَمْ نَعْمَرْكُمْ ... ؟
أَمَا جَاءَكُمْ النَّذِيرُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا زَمَانَ الشَّيْبِ ؟
ويقال : أَلَمْ تَسْتَوْفُوا مَدَّةَ الْإِمْهَالِ فِي النَّظَرِ ؟

« رَجَاءُكُمْ النَّذِيرُ » : الرسل ، ويقال ضعف الشيخوخة ، ويُقال سقوط السن ، ويقال تقوُّسُ الظَّهْرِ .
قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

أَيُّ عَالِمٍ بِإِخْلَاصِ الْمُخْلِصِينَ ، وَصِدْقِ الصَّادِقِينَ ، وَنِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ ، وَجَحْدِ الْكَافِرِينَ .
عَالِمٌ بِمَنْ يَرِيدُ بِالنَّاسِ السُّوءَ وَبِمَنْ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ
فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ،
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » .

أَهْلُ كُلِّ عَصْرِ خَلِيفٌ عَنْهُمْ قَدَمُهُمْ ؛ فَمِنْ قَوْمٍ هُمْ لِسَلَفِهِمْ حَمَالٌ^(١) ، وَمِنْ قَوْمٍ هُمْ أَرَاذِلُ
وَأَنْذَالُ ؛ فَالْأَفْضَلُ زَمَانُهُمْ لَمْ يَحْتَجُوا ، وَالْأَرَاذِلُ هُمْ لَزَمَانُهُمْ مُحْتَجُونَ . وَقَدْ قَالُوا :

(١) الحمال = الدية أو الفريضة يحملها قوم عن قوم (الوسيط) .

يَوْمَ وَحَسَبُ الدَّهْرِ مِنْ أَجَلِهِ حَيًّا غَدًّا وَالتَّقَتِ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَتَّبِعُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا » .

كَرَّرَ إِشْهَادَهُمْ عَجَزَ أَصْنَامِهِمْ ، وَنَقَصَ مَنْ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ أَوْثَانِهِمْ ؛ لِيُسَفَّهُ بِذَلِكَ آرَاءَهُمْ ، وَيُنَبِّهَهُمْ إِلَى ذَمِّ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَخِسْفِ هَمِيمِمْ ، وَنُقْصَانِ عَقُولِهِمْ .
ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ عَمَّا بِهِ يُطَالَبُونَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ صَوَابٌ عَمَّا يُسْأَلُونَ .

قوله جل ذكره : « إِنْ اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

أَمْسَكُهَا بِقُدْرَتِهِ ، وَأَتَقْنَاهَا بِحِكْمَتِهِ ، وَرَتَّبْنَاهَا بِمَشِئَتِهِ ، وَخَلَقَ أَهْلَهَا عَلَى مَوْجِبِ قَضِيَّتِهِ ، فَلَا شَيْءَ فِي إِبْقَائِهَا وَإِفْنَائِهَا يُسَاهِمُهُ ، وَلَا شَرِيكَ فِي وَجُودِهَا وَنِظَامِهَا بِقَائِمِهِ .

قوله جل ذكره : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا * اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... » .

لَيْسَ لِقَوْلِهِمْ تَحْقِيقٌ ، وَلَا لِعَهْدِهِمْ وَضَامَتُهُمْ تَوْثِيقٌ ، وَمَا يَعِدُّونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَصْرِيحٌ زُورٌ ، وَمَا يُؤْمِنُونَ مِنْ وَفَائِهِمْ قَصِيرٌ تَفْرِيرٌ . . . وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي أَوَانِ نَشَاطِهِ تُمْنِيَّةُ نَفْسِهِ

فتظاهر أمام مَنْ تقدّمه حالاً بأنه عاهد الله ، وأنه أكّد عقده مع الله . . فإذا غصّته شهوته ، وأراد الشيطان أن يكذبه صرّعه بكيده ، وأركسه في هوة غيّه ، ومُنّيّة نفسه ؛ فيسودّ وجهه ، وتذهب عند الله وجاهته^(١) .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا » .

في الجملة ما خاب له وليّ ، وما ربح له عدوّ ، ولا ينال الحقيقة مَنْ انعكس قصده ، بل
يرتدّ عليه كيّده ؛ وهو سبحانه يدمّر على أعدائه تدميراً ، ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا
مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارهم القليلة به ، وما اتسعت
أيامهم القصيرة له ، فأخّر ذلك ليوم الحشر . . فإنه طويل . والله على كل شيء قدير ،
وبأمور عباده خير بصير .

(١) هكذا في م وهي في ص (ماء وجهه) أي حياؤه ، وقد آثرنا ما جاء في م للاستبصار للسياق .

سورة يس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
« بسم الله » آيةٌ اختص بها خطابهُ ؛ فمن عَلِمَهَا أَجَزَلَ ثَوَابَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا أَكْثَرَ إِجَابَةٍ ،
وَمَنْ أَكْبَرَ قَدْرَهَا أَكْرَمَ مَا بِهِ .

قوله جل ذكره « يس » والقرآن الحكيم
يقال معناه : يا سيد . ويقال : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سِرِّهِ مع
الأحباب ؛ فيقال بحق يوم الميثاق وسِرِّهِ مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم : —

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

أى إِنَّكَ — يا محمد لَمِنَ المرسلين ، وإِنَّكَ لَعَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ »

أى هذا الكتاب تنزيل (العزيز) : المتكبر الغنى عن طاعة المطيعين ، (الرحيم) :
المتفضل على عباده المؤمنين .

قوله جل ذكره : « لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ
غَافِلُونَ » .

أى خَصَّصْنَاكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا حَصَلُوا فِي أَيَّامِ
الْفِتْرِ ، وَاقْرَءْ أَسْلَافَهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ .

قوله جل ذكره : « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

أى حقّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرّوا على جحدهم ، وأنهمكوا فى جهلهم ، فالعلوم منهم والمحكوم عليهم أنهم لا يؤمنون^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ »

سنجرهم إلى هوانهم وصغرهم ، وسنديقهم وبال أمرهم .

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

أغرقناهم اليوم فى بحار الضلالة ، وأحطنا بهم سرادقات الجهالة . وفى الآخرة سنغرقهم فى النار والأنكال ، ونضيق عليهم الحال ، بالسلاسل والأغلال .

« فَأَغْشَيْنَاهُمْ » : أعميناهم اليوم عن شهود الحجّة ، ونلبس عليهم فى الآخرة سبلّ المحجّة ، فيتعمّشون فى وهّات جهنم داخرين ، وييقون فى حرّقاتها مهجورين ، مطرودين ملعونين ، لا تقطع عنهم ما به يُعَذَّبُونَ^(٢) ، ولا ترّحمهم مما منه يشكون ؛ تماذى بهم حرمان الكفر ، وأحاطت بهم سرادقات الشقاء ، ووقعت عليهم السّمة بالفراق .

قوله جل ذكره : « وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

مهجور الحق لا يصلّيه أحدٌ ، ومردود الحق لا يقبله أحد . والذى قصمته المشيئة وأقمته القضية لا تنجح فيه النصيحة .

(١) أريد أن أنه دائما إلى أن الجبرية ضد الشيخ لا تتعارض مع الحرية الإنسانية ، فالإنسان حرّ فيما يفعل ولكن فى دائرة ما حددته له القضية السابقة التى ترتبط بالعلم الإلهى السابق للإبداع والإنشاء .. نحن نعلم ما يحدث ولكن العلم الإلهى يسجل يدها كل ما سيحدث .

(٢) من هذا نفهم أن القشيري لا يؤمن بأبدية الجنة وحسب ، بل يؤمن بأبدية النار أيضا . . على خلاف جهنم الذى يرى أن حركاتهم تتناهى ، فهما ليستا أبديتين - كما قلنا من قبل . وعلى خلاف ابن القيم الذى يرى أبدية الجنة فقط حيث يستوقفه الاستثناء فى قوله تعالى « لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » فيقول : إذا فعذابها ينقطع (حاشى الأرواح ص ٢٦٣ وشفاء الغليل ص ٢٦٢) ولكن يرد على ابن القيم أن المقصود فى الآية هم عصاة المؤمنين وليس الكفار الذين هم - طبقا لنصوص كثيرة - خالدون فيها أبدا ولا يجدون وليا ولا نصيرا .

« إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ »

أى إنما ينتفع بإذراك من اتبع الذِّكْرَ ؛ فإنَّ إندارك — وإن كان عاماً في الكلِّ^١ وللكلِّ — فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون . . . ألا ساء ما يحْكُمُونَ ، وإن كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون . أمَّا الذين اتبعوا الذِّكْرَ ، واستبصروا ، وانتفعوا بالذى سمعوه منك ، وبه عملوا — فقد استوجبوا أَنْ تُبَشِّرَهُمْ ؛ فَبَشِّرْهُمْ ، وأخبرهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم .

« وأجر كريم » : كبير وافير على أعمالهم — وإن كان فيها خلل .
قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ » .
نُحْيِي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُظَرُّ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلقة ، ونكتب ما قَدَّمُوا .
« وَآثَرَهُمْ » : خُطَاهُمْ إلى المساجد^(١) ، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا ، وَتَرْتَرُقْ
دموعهم على عَرَصَاتِ خدودهم ، وَتَصَاعِدَ أَنفُسِهِمْ .

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »
أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ . . لا لتناسينا لها — وكيف وقد أحصينا كل شيء
عدداً ؟ — ولكننا أحببنا إثبات آثار أحيائنا في الكنون من كتابنا .

قوله جل ذكره : « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ
إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » .

افترض زمانهم ، ونُسِيَ أوانهم وشأنهم ! ولكننا تذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم ،
ولا نرضى بالآل يجرى بين أحيائنا وعلى ألسنة أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين ، وهذا مخلوق
يقول في صفة مخلوق :

(١) قال أبو سعيد الخدري : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ،
فأنزل الله الآية ، وقال لهم النبي (ص) : « إِنْ آثَارَكُمْ تَكْتُبُ فَلَئِمَّ تَتَقَلَّبُونَ » أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٥ .

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ وَخَانَ الْمَوْدَّةَ خِلَانُهَا

فَعِنْدِي لِإِخْوَانِيَ النَّائِبِينَ مَخَافُ ذِكْرِكُمْ عَنْوَانُهَا

قوله جل ذكره : « قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ

الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمِ الْغَيْبَ

كَمَا تُلْقُونَ * » .

قال الرسل : « رَبَّنَا عَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَلَكِنْ لَمْ يَعْلَمِ الْغَيْبَ كَمَا تُلْقُونَ * » .

والإنذار .

« قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَكِنَّ لَمْ تَتَّخِذُوا

لَنَا حِجَابًا وَإِنَّا لَنَجْعَلُكُم مِّنَّا عَذَابًا

أَلِيمًا * » .

لَنَجْعَلَنَّكُمْ ، وَلَنَصْنَعَنَّكُمْ ، وَلَنَفْعَلَنَّكُمْ ... فأجابهم الرسل : إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف

تلقون ما تُوعَدُونَ .

قوله جل ذكره : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الدِّينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى

قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا

مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * » .

في القصة أنه جاء من قرية فسماها مدينة ، وقال من أقصى المدينة ، ولم يكن أقصاها وأدناها

لِيَتَفَاوَتْهَا بكَثِيرٍ ، ولكنه — سبحانه — أجرى سُنَّتَهُ في استكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِهِ

إِذَا كَانَ بِرِضَاهُ ، وَيُسْتَنْزِرُ الْكَثِيرَ مِنْ فَضْلِهِ إِذَا بَذَلَهُ وَأَعْطَاهُ .

« اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا .. » فَأَبْلَغَ الْوَعْظَ وَصَدَّقَ النَّصْحَ .. وَلَكِنْ كَمَا قَالُوا :

وَكَمْ سَقَتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَاءُ الْمُنْتَصَحُ

فَلَمَّا صَدَّقَ فِي حَالِهِ ، وَصَبَرَ عَلَى مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَرَجَعَ إِلَى التَّوْبَةِ ، لَقَاهُ حُسْنُ أَفْضَالِهِ ،

وَأَوَاهُ إِلَى كَنْفِ إِقْبَالِهِ ، وَوَجَدَ مَا وَعَدَهُ رَبُّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْضَالِهِ .

« قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي
ربي وجعلني من المُكْرَمِينَ » .

تَمَتَّى أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ حَالَهُ ، فَحَقَّقَ اللَّهُ مُنَاهُ ، وَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِ ، وَأَنْزَلَ بِهِ خُطَابَهُ ، وَعَرَفَ
قَوْمُهُ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا تَمَتَّى وَأَرَادَ ذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ ، لِيَعْمَلُوا مِثْلًا عَمِلَ لِيَجِدُوا مِثْلًا وَجَدَ .

قوله جل ذكره : « وما أنزلنا على قومه
من بعدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا
مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » .

مَا كَانَتْ إِلَّا قَضِيَّةً مِّنَّا بِمَقُورَتِهِمْ ، وَتَقْيِيرًا لِّمَا كَانُوا بِهِ مِنَ السَّلَامَةِ إِلَى وَصْفِ الْبَلَاءِ .
قوله جل ذكره : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .
إِنْ لَمْ يَتَحَسَّرُوا هُمُ الْيَوْمَ فَلَهُمْ مَوْضِعُ التَّحَسُّرِ ؛ وَذَلِكَ لِانْخِرَاطِهِمْ فِي سَبِيلِ وَاحِدٍ مِنَ
التَّكْذِيبِ وَمُخَالَفَةِ الرِّسْلِ ، وَمَنَاوَةِ أَوْلِيَائِهِ — سُبْحَانَهُ . .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِنْ
كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

أَلَمْ يَرَوْا مَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا عَامَلْنَا بِهِ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ
أَحَدٌ ، فَكُلُّهُمْ فِي قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ ، وَلَمْ يَفُتْنَا أَحَدٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَوَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْنَا عَوْنٌ وَلَا مَدَدٌ ،
وَلَا عَنْ حُكْمِنَا مُلْتَحِدٌ

قوله جل ذكره : « وَآيَةٌ لِّمَنَ الْأَرْضُ الْمَوْتَةُ أُحْيَيْنَاهَا
وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » .

لَمَّا كَانَ أَمْرُ الْبَعْثِ أَعْظَمَ شُبْهَةٍ ، وَكَثُرَ فِيهِ لِنَكَارِهِمْ كَانَ تَكَرَّارُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِحَدِيثِ

البعث ، وقد ضَرَبَ — سبحانه — المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات .
والعَجَبُ يَمُنُّ يُتَسَكَّرُ علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل ! وكيف بشكل
ذلك وأ كثر ما في القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أدلة العقول^(١) ؟
ولكن يَهْدِي اللهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم ، واشتغلوا بأهم شيء عندهم
لَمَا ضَيَّعُوا أصول الدين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوْا في الفروع رتبة الإمامة
والتصدُّر .. ويقال في معناه :

يَا مَنْ تَصَدَّرَ فِي دَسْتِ الْإِمَامَةِ فِي مَسَائِلِ الْفَقْهِ إِمْلَاءً وَتَدْرِيساً
غَفَلْتَ عَنْ حُجَجِ التَّوْحِيدِ تُحْكِمُهَا شَيْدَتَ فِرْعَاً وَمَا مَهَّدْتَ تَأْسِيساً !

قوله جل ذكره : « سبحانه الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا مِمَّا
تَنْبَتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا
لَا يَعْلَمُونَ » .

تُنَبِّهُ هذه الآية على التفكير في بديع صنعه ؛ فقال : تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياءَ المتشاكلةَ
في الأجزاء والأعضاء ، من النبات ، ومن أنفسهم ، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون
تفصيلها ، كيف جعل أوصافها في الطعوم والروائح ، في الشكل والهيئة ، في اختلاف الأشجار
في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها
في تفرُّقها واجتماعها ، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ : الطبائع ؛
في الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأحداث التي يخلقها الله عقيب شراب
هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان . ثم
اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، فالأوقات متجانسة ، والأزمان متماثلة ،
والجواهر متشاكلة .. وهذه الأحكام مختلفة ، ولولا تخصيص حكم لكل شيء بما يختص
به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أولى منه . وإنَّ مَنْ كَحَلَّ اللهُ عِيُونَ بصيرته يَمُنُّ التعريف ،
وَقَرَنَ أوقاته بالتوفيق ، وَأَتَمَّ نظره ، ولم يصدده مانع . فما أقوى في المسائل حُجَّتَهُ ! وما أوضح
في السلوك نَهْجَهُ ! .

(١) في هذا ردُّ على من يهتم بالصوفية بمجاهاتهم للعقل والعلم .

إِنِّهَا لِأَقْسَامٍ سَبَقَتْ عَلَى مَنْ شَاءَهُ الْحَقُّ بِمَا شَاءَ .

قوله جل ذكره : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ
فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » .

نُبْطِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ بِهَجُومِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ ، وَتَزِيلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ بِهَجُومِ النَّهَارِ عَلَيْهِ ، كَذَلِكَ
نَهَارُ الْوُجُودِ يَدْخُلُ عَلَى لَيْلَى التَّوَقُّفِ ، وَيَقُودُ يَدَ كَرَمِهِ عَصَا مَنْ صَحِيَ عَنْ سُلُوكِ رُشْدِهِ
فِيهِدِيهِ إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ .

قوله جل ذكره : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » .

عَلَى تَرْتِيبٍ مَعْلُومٍ لَا يَتَفَاوَتْ فِي فُصُولِ السَّنَةِ ، وَكُلِّ يَوْمٍ لَهَا مَشْرِقٌ جَدِيدٌ وَلَهَا مَغْرِبٌ
جَدِيدٌ . . . وَكُلُّ هَذَا بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

« وَالْقَمَرَ قَدَرْتَنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ *
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ
وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ » .

الْإِشَارَةُ مِنْهُ أَنَّ الْعَبْدَ فِي أَوَانِ الطَّلَبِ رَقِيقُ الْحَالِ ، ضَعِيفٌ ، مُخْتَصِرُ النَّهْمِ . . ثُمَّ يُفَكِّرُ
حَتَّىٰ تَزْدَادَ بَصِيرَتُهُ . . . إِنَّهُ كَالْقَمَرِ يَصِيرُ كَامِلًا ، ثُمَّ يَنْقَاصُ ، وَيَدْنُو مِنَ الشَّمْسِ قَلِيلًا قَلِيلًا ،
وَكُلَّمَا أَزْدَادَ مِنَ الشَّمْسِ دُنُوًّا أَزْدَادَ فِي نَفْسِهِ تَقْصَانًا حَتَّىٰ يَتَلَاشَى وَيَخْتَنِي وَلَا يُرَى . . .
ثُمَّ يَبْعُدُ عَنِ الشَّمْسِ فَلَا يَزَالُ يَتْبَاعِدُ وَيَتْبَاعِدُ حَتَّىٰ يَمُودَ بَدْرًا — مَنْ الَّذِي يُصَرِّفُهُ فِي ذَلِكَ
إِلَّا أَنَّهُ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ؟ وَشَبِيهُ الشَّمْسِ عَارِفٌ أَبَدًا فِي ضِيَاءِ مَعْرِفَتِهِ ، صَاحِبُ تَمَكُّنٍ غَيْرِ
مُتَلَوِّنٍ (١) ، يَشْرُقُ مِنْ بَرَجِ سَعَادَتِهِ دَائِمًا ، لَا يَأْخُذُهُ كَسُوفٌ ، وَلَا يَسْتُرُهُ سَحَابٌ .

وَشَبِيهُ الْقَمَرِ عَبْدٌ تَتَلَوَّنُ أَحْوَالُهُ فِي تَنَقُّلِهِ ؛ فَهُوَ فِي حَالٍ مِنَ الْبَسْطِ يَتَرَقَّى إِلَى حَدِّ الْوَصَالِ ،
ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى الْفَقْرِ ، وَيَقَعُ فِي الْقَبْضِ عَمَّا كَانَ بِهِ مِنْ صَفَاءِ الْحَالِ ، فَيَتَنَاقَصُ ، وَيَرْجِعُ إِلَى تَقْصَانِ
أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَرْفَعَ قَلْبَهُ عَنْ وَقْتِهِ ، ثُمَّ يَجُودُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — فَيُوقِّفُهُ لِرُجُوعِهِ عَنْ فَتْرَتِهِ ،

(١) سبق أن أوضحنا الفرق بين حال التلويح والتمكن .

وإفاته عن سكرته ، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال ، ويرزق صفة السكال ،
ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال .. كذلك حاله إلى أن يحق له بالقسوم ارتحاله ،
كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بدني من كثرة التلون من بدني^(١)
وأنشدوا : كل يوم تلون غير هذا بك أجل

قوله جل ذكره : « وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في
الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله
ما يركبون » .

الإشارة فيه إلى حمل الخلق في سفينة السلامة في بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنون من
التغير والتأثير . فكأن من عبث غرق في اشتغاله في ليله ونهاره ، لا يستريح لحظة من كد أفعاله
ومتساقط التعب في أعماله ، وجمع ماله .

فجاء ذلك إلى نسيان عاقبته وماله ، واستيلاء شغله بولده وعياله على فكره وباله —
وما سمعه إلا في وباله !

وكم من عبث غرق في لجة هواه ، فجاءته مناه إلى تحلل بلواه ، وخسيس من أمر
مطلوبه ومبتغاه .. ثم لا يصل قط إلى منتهاه ، خسر دنياه وعقباه ، وبقي عن مولاه !
ومن أمثال هذا وذاك ما لا يحصى ، وعلى عقل من فكر واعتبر لا يحصى .

أما إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرد — سبحانه — بالتحري من رق خناس
الأمر ، وشغله بظواهره بالقيام بحته ، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربه ، ورفاه إلى
ما قال : « أنا جليس من ذكرني » . . . وقل في علو شأن من هذه صفته . . . ولا حرج !

قوله جل ذكره : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم
ولا هم ينتقدون * إلا رحمة منا ومتاعاً
إلى حين » .

(١) البدة = النسيب والقصة (السان) .

لولا جُودُهُ وَفَضْلُهُ لَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا حَلَّ بِأَمْثَالِهِمْ ، لَكِنَّهُ بِحُسْنِ الْأَفْضَالِ ، يَحْفَظُهُمْ
فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ
وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » الآيات

هذه صفات من سَيِّبَهُمْ^(١) في أودية الخلدان ، وَوَسَّعَهُمْ بِسِجَّةِ الْحَرَمَانِ ، وَأَصَمَّهُمْ عَنْ سَمَاعِ
الرُّشْدِ ، وَصَدَّاهُمْ بِالْخُلْدَانِ عَنْ سُلُوكِ الْقَصْدِ . فَلَا تَأْتِيهِمْ آيَةٌ فِي الزَّجْرِ إِلَّا قَابَلُوهَا بِإِعْرَاضِهِمْ ،
وَتَجَافَوْا عَنِ الْإِعْتِبَارِ بِهَا عَلَى دَوَامِ اقْبَاضِهِمْ ، وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِتْقَانِ وَالْإِطْعَامِ عَارَضُوا بِأَنَّ اللَّهَ
رَازِقُ الْأَنْعَامِ ، وَإِنْ يَشَاءُ نَنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْعَامِ : —

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْتَقِيمُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ »

ثم قال جل ذكره : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ؟ » مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِجَّةً
وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ »

يَسْتَعْجِلُونَ هَيْجُومَ السَّاعَةِ ، وَيَسْقِطُونَ قِيَامَ الْقِيَامَةِ — لَا عَنْ تَصَدِيقِ يَرْجِعُهُمْ مِنْ شَكِّهِمْ ،
أَوْ عَنْ خَوْفِ يَمْنَعُهُمْ عَنْ غَيْبِهِمْ ، وَلَكِنْ تَكْذِيبًا لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ ، وَإِنْكَارًا لِصِجَّةِ النُّبُوَّةِ ،
وَاسْتِعَادًا لِلنَّشْرِ وَالْحَشْرِ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ، وَلَا يُكْشَفُ عَنْهُمْ ، وَلَا يُنْقَرُونَ .

قوله جل ذكره : « وَتُفْشَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ
الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » قالوا

(١) سيبه = تركه وخلاه يسوب حيث شاء (الوسيط) .

يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا

مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾

يموتون قَهْرًا ، وَيُخْشَرُونَ جَبْرًا ، ويلقون أمرًا ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرأ .

« قالوا يا ويلنا مَنْ بَعَثَنَا ^(١) من مرقدنا ؟ » يموتون على جهل ، لا يعرفون ربهم ،

وَيُبْعَثُونَ على مِثْلِ حَالِهِمْ ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهُمْ ، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة

الشديدة — بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة — نومًا ورقادًا ، وسيطئون من الفراق

للبرح والاحتراق العظيم الضخم مهادًا ، لا يذوقون بَرْدًا ولا شرابًا إلا حميًّا وَغَسَّاقًا ، ولقد

عوملوا بذلك استحقاقًا : فقد قال جل ذكره : —

« قَالِ يَوْمَ لَا تَنْفَعُ نَفْسٌ نَفْسًا

وَلَا تَنْجُزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

قوله جل ذكره : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ

فَاكِهُونَ » .

إنما يضاف العبدُ إلى ما كان الغالب عليه ذِكْرُهُ والآخذَ بمجامع قلبه ، فصاحب الدنيا مَنْ

في أَسْرِهَا ، وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ مَنْ هُمْ مُطْلَبُهَا وَالسَّاعُونَ لَهَا وَالْعَامِلُونَ لِنَيْلِهَا ؛ قال تعالى مخبرًا عن

أقوالهم وأحوالهم : « لِمَثَلِ هَذَا فليعمل العاملون » ^(٢) . وهذه الأحوال — وإن جَلَّتْ منهم

ولهم — فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تنقاصر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ

أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه » ^(٣) وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حُرًّا فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ عَنِ الْجَنَّةِ

حُرًّا ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ

(١) سقطت (بعثنا) من النسخ في ص .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(٣) جاء في اللسان أن الأبله من تغلب عليه سلامة الصدر ، وسجن الظن بالناس ؛ لأنه يغفل أمر دنياه ، ويقتل على آخرته ويشغل نفسه بها ، قال صلى الله عليه وسلم « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه » فهم أكياس في أمر الآخرة (اللسان ١٩٠ ص ٤٧٧ ط بيروت .

فاكهون» وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشغلهم الجنة عن أنس القربة ، وراحات الوصلة ، والقراغ للرؤية^(١)

ويقال : لو عَلِمُوا عَمَّنْ شُغِلُوا لَمَا تَهَنَّأُوا بِمَا شُغِلُوا .

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة : « إن أصحاب الجنة .. » كأنه يخاطبهم مخاطبة المعاينة إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، ويُرادُ به : أنت تفعل كذا .

ويقال : إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بعدُ لِعِصْيَانِهِمْ ؛ فيقول الحق : عبدي .. أهل النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم ، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذاتهم ، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم ، وذلك من أتمّ الأشغال ، وهي أشغال مؤنسة مريحة لا مُتعبة موحشة .

ويقال : الحق لا يتعلق به حق ولا باطل ؛ فلا تنافي بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم ، وشهودهم مولاهم ، كما أنهم اليوم مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالهم ، ولا يقدحُ اشتغالهم — باستيفاء حظوظهم — في معارفهم .

ويقال شغل نفوسهم بشهواتها^(٢) حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبة من إحساس النفس الذي هو أصعب الرقباء ، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فقد الرقيب .

قوله جل ذكره : « هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » .

(١) هكذا في « وهي في س (لله وبه) » ، وقد آثرنا (الرؤية) متأثرين برواية القرطبي عن الثعلبي والقشيري - ابن المصنف - حيث تقول هذه الرواية : « فينظر إليهم الحق وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعم ماداموا ينظرون إليه » القرطبي ١٥٠ ص ٤٥ .

(٢) قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم انقضاء العذاري .
وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري قال (ص) : « إن أهل الجنة كلما جامعوا نسأهم عدن أبكاراً . ذكر ابن عباس : كلما أتى الرجل من أهل الجنة الحوراء وجدها بكرأ ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، ولا يكون بينهما منى ، منه أو منها . (القرطبي ١٥٠ ص ٤٥) .

« أزوجهم » : قيل أشكلتم في الحال والمنزلة ، كقوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم »^(١) وقيل حظايلهم^(٢) من زوجاتهم .

« لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون »

« لهم فيها فاكهة » : أى نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس .

« ولهم فيها ما يدعون » : ما يريدون ، ويقال تسلم لهم دواعيهم ، والدعوى — إذا كانت بغير حق — معلولة .

قوله تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ »

يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة ، وأكَّدَ ذلك بقوله : « قَوْلًا » .

وبقوله : « من رب » ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

« من رب رحيم » . والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسَلَّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنْقِيَهُمْ في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : « من رب رحيم » ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفْسٌ ، ولرجائهم مساع ؛ فإن الذى يحتاج إلى الرحمة العاصي .

ويقال : قال ذلك ليعلم العبد أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

قوله جل ذكره : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .

غيبة الرقيب أتم نعمة ، وإبعاد العدو^(٣) من أجل العوارف^(٤) ؛ فالأولياء في إيجاب القرية ، والأعداء في العذاب والحجبة .

(١) آية ٢٢ سورة الصافات .

(٢) جمع حظية وهى المرأة التى تفضل على غيرها فى المحبة .

(٣) يقول قتادة فى « امتازوا » إنها بمعنى عزلوا عن كل خير .

(٤) العوارف جمع عارفة وهى الفضل والإحسان .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ الْآ

تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ *

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

لو كان هذا القول من مخلوق إلى مخلوق لَكَانَ شَيْبَةً اعْتِذَارٌ ؛ أَيْ لَقَدْ نَصَحْتُكُمْ
ووعظتكم ، ومن هذا حَدَرْتُكُمْ ، وكم أَوْصَلْتُ لَكُمْ القول ، وَذَكَرْتُكُمْ فلم تقبلوا وَغَضِبُوا ،
ولم تعملوا بِأَمْرِي ، فَأَنْتُمْ خَالَفْتُمْ ، وَعَلَى أَنْفُسِكُمْ ظَلَمْتُمْ ، وَبِذَلِكَ سَبَقَتْ الْقَضِيَةُ مِنَّا لَكُمْ .

قوله جل ذكره : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا

أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ » .

الْيَوْمَ سَخَّرَ اللَّهُ أَعْضَاءَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ ، وَغَدَاً يَنْقُضُ هَذِهِ الْمَادَّةَ ، فَتَخْرُجُ
بَعْضُ الْأَعْضَاءِ عَلَى بَعْضٍ ، وَتَجْرِي بَيْنَهَا الْخُصُومَةُ وَالزَّعَاجُ ؛ فَأَمَّا الْكُفَّارُ فَشَهَادَةُ أَعْضَائِهِمْ
عَلَيْهِمْ مُبِيدَةٌ ، وَأَمَّا الْعَصَاةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ بِالْعِصْيَانِ ، وَلَكِنْ
تَشْهَدُ لَهُمْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ أَيْضًا بِالْإِحْسَانِ ، وَكَأَقِيلٍ :

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ يَا ظَلُومُ الْوَقِيفُ وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ الْجَوَادُ الْمُنْصِفُ

وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ الْمَرْوِيَةِ الْمُسْنَدَةِ أَنَّ عَبْدًا تَشْهَدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ بِالزُّلْمَةِ فَيُطَايِرُ شَعْرُهُ مِنْ
جَفْنِ عَيْنِيهِ ، فَيَسْتَأْذِنُ بِالشَّهَادَةِ لَهُ فَيَقُولُ الْحَقُّ : تَكَلَّمِي يَا شَعْرَةُ جَفْنِ عَبْدِی وَاحْتَجِّي عَنْ
عَبْدِي ، فَتَشْهَدُ لَهُ بِالْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِهِ ، فَيَغْفِرُ لَهُ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ : هَذَا عَتِيقُ اللَّهِ بِشَعْرَةٍ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا

يَعْقِلُونَ ؟ »

يَرُدُّهُ إِذَا اسْتَوَى شَبَابُهُ وَقُوَّتُهُ إِلَى الْعَكْسِ ، فَكَمَا كَانَ يَزْدَادُ فِي الْقُوَّةِ يَأْخُذُ فِي النِّقْصَانِ
إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَرْدَلَ الْعُمُرِ فِي السَّنِ فَيَصِيرُ إِلَى مِثْلِ حَالِ الطُّفُولِيَّةِ فِي الضَّعْفِ ، ثُمَّ لَا يَبْقَى بَعْدَ
النِّقْصَانِ شَيْءٌ ، كَمَا قِيلَ :

طَوَى الْعَصْرَانَ مَا نَشْرَاهُ مِنِّي وَأَيْلَى جَدِّي نَشْرُوطِي

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع التقصان شَيْءٌ

هذا في الجثث واللباني دون الأحوال والماني ؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حدَّ
التخرِفِ (١) فَيَخْتَلُ رأيه وَعَقْلُهُ . وأهل الحقائق تشيب ذوائبهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيهم
في عنفوان شبابها ، وطراوة جدِّتها .

قوله جل ذكره : « وما عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وما يَنْبَغِي له
إِنْ هو إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

كلامه صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن أوزان الشُّعْر ، والذي أتاها به من القرآن لم يكن
من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تَحَيَّرَ القَوْمُ في بابه ؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ
أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا
لَهُمْ فِيهَا رَاكُعِينَ * وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ
فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ » .

ذَكَرَ عَظِيمَ مَنِّهِ عَلَيْهِمْ ، وَجَمِيلَ نِعْمَتِهِ لَدَيْهِمْ بما سخر لهم من الأنعام التي يَنْتَفِعُونَ بها
بوجوه الانتفاع .

ولفظ « أَيْدِينَا » تَوَسَّعَ . أى مما عملنا وخلقنا ، وذلك أنهم يَنْتَفِعُونَ بركوبها وبأكل
لحومها وشحومها ، وبشُرْبِ ألبانها ، وبالحملِ عليها ، وقَطْعِ المسافاتِ بها ، ثم بأصوافها
وأوبارها وشعرِها ثم بِعَظْمِ بعضها . . فطالبتهم بالشكر عليها ، ووصفهم بالتقصير في شُكْرِهِمْ .
ثم أَظْهَرَ -- ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية -- أنهم مع كل هذه الوجوه
من الإحسان : —

« وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُم يُنصَرُونَ »

(١) الخرف فساد العقل من الكِبَر .

* لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند
محضون .

اكتفوا بأمثالهم^(١) معبودات لهم ، ثم سأل نبيّه — صلى الله عليه وسلم بأن قال له : —
« فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون »
وإذا علم العبد أنه بمراى من الحق هان عليه ما يقاسيه ، ولا سب إذا كان في الله .

قوله جل ذكره : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من
نطفة فإذا هو خصيم مبين » .

أى شدّدنا أمرهم ، وجمعنا نشرهم ، وسوّينا أعضائهم ، ورَكَّبنا أجزائهم ، وأودعناهم
العقل والتمييز . . ثم إنه « خصيم مبين » : ينازعنا في خطابه ، ويعترض علينا في أحكامنا
بزعمه واستصوابه ، وكما قيل :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتدّ ساعده رماني

قوله جل ذكره : « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال

من ينجي العظام وهى رميم * قل يحييها
الذى أنشأها أول مرة وهو بكل
خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر
الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » .

مهّد لهم سبيل الاستدلال ، وقال إن الإعادة فى معنى الإبداء ، فأى إشكال بقى فى جواز
الإعادة فى الانتهاء ؟ وإن الذى قدر على خلق النار فى الأغصان الرطبة من المرنج والعفار^(٢)
قادر على خلق الحياة فى الرّمة البالية ، ثم زاد فى البيان بأن قال : إن القدرة على مثل الشئ

(١) أى أمثالهم من المخلوقين والمخلوقات .

(٢) نزلت حين سأل أبى بن خلف الجهمى رسول الله (ص) وقد جاءه يعظم حائل قائلا : يا محمد ، أنرى
الله يحيى هذا بعدما رم ؟ فقال : نعم ، ويبعثك ويدخلك فى النار . (أسباب النزول للواحدي ص ٢٤٦) .

(٣) المرنج شجر طويل ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى ، يفتح به . والعفار الجوز المأكول .
وفى المثل : « فى كل شجر نار واستجد المرنج والعفار » (الوسيط) .

كأقدرة عليه لاستوائهما بكل وجه ، وإته يحى النفوس بعد موتها فى العرصة كما يحى الإنسان من النطفة ، والطير^(١) من البيضة ، ويحيى القلوب بالرفق لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والظنانيان .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

« إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » بخلق وقدرته . وأخبرنا أنه تملق بالكون كلمته على ما يجب فى صفته ، وسيان عنده خلق الكثير فى كثرته والقليل فى قلته .

قوله جل ذكره : « فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكُوتُ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

أى بقدرته ظهور كل شىء : فلا يحدث شىء — قل أو كثر — إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شىء إلا بإبقائه ، فنه ظهور ما يحدث ، وإليه مصير ما ^{يحدث} .

(١) وردت (والطين) والصواب أن تكون (والطير) .

سورة الصافات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة إذا استولت على قلب أزالته عنه أولاً من الدارين أربّة ، ثم ألزمت على وجه التبعية حرّبه ، ثم شرفّت من حيث الهمّة طلبه .

قوله جل ذكره : « والصافات صفاً »

افتتح الله هذه السورة بالقسم بالصافات ، وهم الملائكة المصطفّون في السماء وفي الهواء ، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق — سبحانه — من المكان يلزمونه ، والأمر يعاقبون ؛ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

« فالزاجرت زجراً »

عظّمهم على ما تقدّم بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحاب . ويقال يزجرون الناس عن المعاصي . ويقال هي الخواطر الزاجرة عن الناهي .

« فالتاليات ذكراً »

يقال « الصافات » الطيور للصطفة في السماء ، « والتاليات ذكراً » الملائكة يتلون كتاب الله ، ويتلون الوحي على الأنبياء عليهم السلام .

« إن إلهمكم لواحد »

هذا هو المقسوم عليه .

أخبر أنه سبحانه واحد في ملكه ، وذلك لأنهم تعجّبوا أن يقوم الواحد بجميع أحوال العالم . ومعنى كونه واحداً تفرّده في حقّه عن القسمة ، وتقدّسه في وجوده عن الشبه ، وتزّهه في

مُلْكِهِ عن الشريك ؛ واحد في جلاله ، واحد في استحقاق جماله ، واحد في أفعاله ، واحد في كبريائه بنعت علائه ، ووصف سنائه .

قوله جل ذكره : « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَرَبُّ الْمَشَارِقِ »

مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَالِقُهُمَا ، وَأَكْسَابُ الْعِبَادِ دَاخِلَةٌ فِي هَذَا (١) .
« وَرَبُّ الْمَشَارِقِ » مشارق النجوم والشمس والقمر ، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها
ونجومها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَارِدٍ »

زَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بالنجوم ، وقلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال ، وحفظ السموات
بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً ، وكذلك زين القلوب بأنوار التوحيد ، فإذا قُرب منها
الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم .

قوله جل ذكره : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ
ثَاقِبٌ »

كذلك إذا اغتتم الشيطان من الأولياء أن يُلقَى إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا ، فإذا هم
مُبْصِرُونَ ، ورجعوا .. قال تعالى : « إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا (٢) » .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمْ أَوْ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مَنْ
خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ »

(١) هذا الرأي على جانب كبير من الأهمية من الوجهة الكلامية . وخلق أكساب العباد من الله حكماً وعِلماً .
لأن الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تخرج عن نطاق الحكم والعلم الإلهيين - هكذا أوقفنا القشيري في مواضع مختلفة .
(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

عَرَفَهُمْ عَجَزَهُمْ عَنِ الْإِثْبَاتِ ، وَضَعْنَهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ نَسَبَتَهُمْ أَنَّهَا إِلَى الطَّيْنِ
الْلازِبِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » .

حقيقة التعجب تغير النفس عما لم تجر العادةُ بمحدث مثله . وَهَرَأُ ^(٢) « عَجِبْتَ » بالفتح
خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم — وبالضم فكان الحق يقول ذلك مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ بَلْ
عَجِبْتُ ، وَيُقَالُ ذَلِكَ بِمَعْنَى إِكْبَارِ ذَلِكَ الشَّيْءِ ، إِمَّا فِي الْقَدْرِ ، أَوْ الْإِكْثَارِ فِي الذَّمِّ
أَوْ فِي الدَّحِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ »

إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِهِ يُعْرِضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا ، وَيَقُولُونَ : لَيْسَ هَذَا الَّذِي
أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ إِلَّا سِحْرًا ظَاهِرًا .

قوله جل ذكره : « أَأَنْتَ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَ

لَمُبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ »

قَالُوا : أَأَنْتَ مِتْنَا ، تَفَرَّقْتَ أَجْزَاؤُنَا ، وَصَرْنَا رَمِيًّا . . . أَأَنْتَ لَمُبْعُوثُونَ ؟ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ
يُيَعِّثُونَ كَذَلِكَ ؟ قَالُوا عَلَى جِهَةِ الْاسْتِغْنَاءِ ؛ فَالْمَعْرِفَةُ لَهُمْ مَقْقُودَةٌ ، وَالْبَصَائِرُ لَهُمْ مَسْدُودَةٌ ،
وَقُلُوبُهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ مَصْدُودَةٌ .

« قُلْ نَمِ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا

هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ »

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ؟ نَمِ ، وَعَلَى وَصْفِ الصَّفْرِ مَا يَبْعَثُكُمْ ، وَبَزَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ يَحْشُرُكُمْ ، بَعْدَ أَنْ
يُقِيمَ الْقِيَامَةَ عَلَى جَمِيعِكُمْ .

(١) لازب أى لاصق لصق بعضه ببعض ، أو لازق يلتزق بما أصابه ، وقال مجاهد والضحاك هو المنن (القرطبي)

ج ١ ص ٦٨ : ٦٩ .

(٢) بالفتح قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وبالضم قراءة عبد الله من مسعود ، والكوفيين إلا عاصم .
والذين ينكرون الضم يرون أن الله لا يعجب من شيء ، ولكن تخريج القشيري لذلك يكاد يكون سائفاً ، وقد
اختاره بعض الأئمة كالبيهقي .

« وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين *

هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون»

دَعُوا بِالْوَيْلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ يُقَالْ لَهُمْ : هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ ، وَقَدْ

عَابْتُمُوهُ الْيَوْمَ .

قوله جل ذكره : « احشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ

وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ *

وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مُسْتُولُونَ »

أَرَادَ بِأَزْوَاجِهِمْ قَرَنَاءَهُمْ وَأَشْكَالَهُمْ وَمَنْ عَمِلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ ، وَمَنْ أَطَاعَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ

بَقِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ .. وَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ : مَنْ أَعَانَ صَاحِبَ فِتْرَةٍ فِي فِتْرَتِهِ ، أَوْ صَاحِبَ

زَلَّةٍ عَلَى زَلَّتِهِ — كَانَ مُشَارِكًا لَهُ فِي عِقَابَتِهِ ، وَاسْتِحْقَاقِ طَرْدِهِ وَإِهَاتِهِ .

قوله : « وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مُسْتُولُونَ » : مَقَامُ السُّؤَالِ مَقَامٌ صَبٌّ : قَوْمٌ يَسْأَلُهُمُ الْمَلِكُ

وَقَوْمٌ يَسْأَلُهُمُ الْمَلِكُ ؛ فَالَّذِينَ تَسْأَلُهُمُ الْمَلَانِكَةُ أَقْوَامٌ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْلُحُ لِلْعَرْضِ

وَالْكَشْفِ ، وَأَقْوَامٌ لَهُمْ أَعْمَالٌ لَا تَصْلُحُ لِلْكَشْفِ ، وَهُمْ قَسَمَانِ : الْخَوَاصُّ يَسْتَرْهُمْ

الْحَقُّ عَنْ إِطْلَاعِ الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَقْوَامٌ هُمْ أَرْبَابُ الزَّلَّاتِ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ

فَلَا يَفْضَحُهُمْ ، ثُمَّ إِنْهُمْ يَكُونُونَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِمْ بِنِعْتِ الْهَيْبَةِ ، وَفِي بَعْضِ أَحْوَالِهِمْ بِنِعْتِ

الْبَسْطِ وَالْقُرْبَةِ ، وَفِي الْخَيْرِ : « أَنْ قَوْمًا يَسْتَرْهُمْ يَدُهُ وَيَقُولُ تَذَكَّرْ غَدًا رَبِّكَ » وَهَؤُلَاءِ

أَصْحَابُ الْخُصُوصِ فِي التَّحْقِيقِ : فَأَمَّا الْأَغْيَارُ وَالْأَجَانِبُ وَالْكَفَّارُ فَيُقَالُ لَهُمْ : « كُنْ بِنَفْسِكَ

الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَيًّا »^(١) ، فَإِذَا قَرَأُوا كِتَابَهُمْ يُقَالُ لَهُمْ . مَنْ عَمِلَ هَذَا ؟ وَمَا جَزَاؤُهُ ؟

فَيَقُولُونَ : جَزَاؤُهُ النَّارُ . فَيُقَالُ لَهُمْ : أَدْخُلُوهَا بِحُكْمِكُمْ .

ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ فِي بَعْضِ أَحْوَالِ اسْتِقْلَالِ الْفَرْعِ عَلَيْهِمْ : —

(١) آية ١٢ سورة الإسراء .

« مالكم لا تنصرون • بل هم
اليوم مستسلمون • وأقبل بعضهم على
بعض يتسائلون »

يُورثك بعضهم الذنب على بعض ؛ فهذا يجبراً من صاحبه ، وصاحبه يتبرأ منه ، إلى أن
يحكم الله عليهم بالخزي والهوان ، ويجمعهم في اللعن والإبعاد .

قوله جل ذكره : « فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون
• إنا كذلك نعملُ بالجرمين »

يشتركون في العذاب ولكن تفاوت أوصيائهم ، كما أنهم يشتركون في الزلة
ولكن تختلف مقادير زلاتهم .

قوله جل ذكره : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلهَ
إلا اللهُ يستكبرون »

احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم ؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته .
ولو عرفوه لا فتخروا بعبوديته ؛ قال تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن
عبادته »^(١) ، وقال : « لن يستكف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة
المقربون »^(٢) فإن من عرف الله فلا لذة له إلا في طاعته ، قال قائلهم .

ويظهر في الهوى عزُّ اللوالى فيلزمى له ذلُّ العبيد

قوله جل ذكره : « ويقولون أننا لتاركوا آلِهتنا لشاعر
مجنون • بل جاء بالحقِّ وصَدَقَ
المرسلين • إنكم لتذاقوا العذاب
الآليم » .

(١) آية ٢٠٦ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٧٢ سورة النساء .

لَمْ يَمْتَشُوا مِنْ وَصْفِهِ — سُبْحَانَهُ — بِمَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ لَمْ يُبَالُوا بِمَا أَطْلَقُوهُ مِنَ
الْمَثَالِبِ فِي وَصْفِ أَنْبِيَائِهِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »

الاستثناء راجع إلى قوله : * إِنَّكُمْ لَنَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ *
ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ — سُبْحَانَهُ — بالعبودية ، والذي يشوبُ عمله رياءٌ
فليس بمخلص .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العمل عن ملاحظة المخلوقين ، وفي الخبر : يامعاذ ، أخلص
العملَ يكفيك القليل منه .

ويقال : الإخلاصُ قَدْرُ رُؤْيَا الْأَشْخَاصِ (١) .

ويقال : هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال : هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص .

قوله جل ذكره : * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكُهُ
وَهُمْ مُكْرَمُونَ *

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعَيَّنَةٍ ، وفي وقت الرسول عليه السلام مَنْ كَانَ لَهُ
رِزْقٌ مَعْلُومٌ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْيَاسِيرِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؛ فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ رِزْقٌ مَعْلُومٌ
لِأَبْشَارِهِمْ وَلَأَسْرَارِهِمْ ، فَالْأَغْنِيَاءُ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لَأَنْفُسِهِمْ (٢) ، وَالْفُقَرَاءُ (٣) لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ
لِقُلُوبِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ .

* فَوَاكُهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * : مِنْ ذَلِكَ وَرُودِ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ،
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ الْخُطَابُ وَارِدٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِّ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِكُلِّ أَمْرٍ .

(١) أَيْ لَا يَكُونُ هُنَاكَ حِسَابٌ لِلْمَخْلُوقِينَ .

(٢) رِزْقُ النَّفُوسِ لِأَغْنِيَاءِ الْأَمْوَالِ .

(٣) وَرِزْقُ الْقُلُوبِ لِأَرْبَابِ الْأَحْوَالِ .

« فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ * عَلَى سُرُرٍ
مُتَقَابِلِينَ »

يَسْتَأْنِسُ بَعْضُهُمْ بِرُؤْيَا بَعْضٍ ، وَيَسْتَرْوِحُ بَعْضُهُمْ إِلَى لِقَاءِ بَعْضٍ .

« يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *
بِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ »

شَرَابٌ يَوْجِبُ لَهُمُ الطَّرَبَ وَلَا وَحْشَةً هُنَاكَ ، شَرَابًا يُحْضِرُهُمْ وَلَا يُسْكِرُهُمْ ،
لأنه قال :

« لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
يُنْزَفُونَ »

فَلَا تَغْتَالُ عَقُولُهُمْ ، وَلَا تُزِيلُ حِشْمَتَهُمْ ، وَلَا تَرْفَعُ عَنْهُمْ هَيْبَتَهُمْ ؛ قَوْمٌ يَشْرَبُونَ
وَهُمْ بِوَصْفِ السَّرِّ ، وَآخَرُونَ يُسْقَوْنَ فِي الْحَضَرِ — وَهُمْ عَلَى نَعْتِ الْقُرْبِ .

« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ *
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ »

لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ الْوَلِيِّ^(١) ، ثُمَّ الْوَلِيُّ قَدْ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ :
جُنُنًا يَلِيْلَى وَهِيَ جُنَّتٌ بَغِيرَنَا وَأُخْرَى بِنَا بِجَنُونَةٍ لَا نَرِيدُهَا

قوله جل ذكره : « فَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَنَاسَلُونَ ... »

يَتَنَاسَلُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَذْكُرُونَ مِنْ مَعَارِفِهِمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ
فَيَخْلُقُ اللَّهُ لَهُمْ إِطْلَاعًا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي النَّارِ يَحْتَرِقُونَ .

قوله جل ذكره : « قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ *

(١) المقصود به هنا الزوج ، أي نساء قد قصرت طرفتهن حل أزواجهن .

ولولا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُخْضَرِّينَ «

نطق الولي بالحق ولكنه لم يصرِّح بين التوحيد ؛ إذ جعل الفضل واسطة ، والأولى
أن يقول : ولولا ربى لكنت من المخضرين^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْتَوَرُّ الْعَظِيمُ • لِمِثْلِ
هَذَا فليعمل العاملون »

يقال : بل الملائكة يقولون لهم هذا ، ويقال : الحق — سبحانه — إذا أراهم مقامهم في
الجنة يقول لهم : « لِمِثْلِ هَذَا فليعمل العاملون » .

ويقال إن كان العابد يقول هذا ، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بدت شظية من
الحقائق وتباشير الوصلة ، أو ذرّة من نسيم القربة فبالحرى أن يقول القائلون : لِمِثْلِ هذه
الحالة تُبَدِّلُ الأرواحُ .

على مِثْلِ سَلَمَى يَقْتُلُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ
وإن بات من سَلَمَى على اليأس طاولا
وما هنا تضيق العبارات ، وتقتصر الإشارات .

قوله جل ذكره . « أَذْكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةٌ
الزَّقُومِ »

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء ، وما هم به من صفة اللذلة والعذاب في النار ؛ من أكل
الضريع ، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين ، ثم إن مرجعهم لآلئ الجحيم ...
إلى آخر القصة .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ •
وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ »

(١) أى نطق بين الفرق ولو كان يعين الجمع لقال : « ولولا ربى ... » .

لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوهُ ، وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ مَا كَانَ يَقُولُ مِنْ حَدِيثِنَا . .
رَجَعَ إِلَيْنَا ، نَخَاطِبُنَا وَخَاطِبُنَاهُ ، وَكَلَمْنَا وَكَلَمْنَاهُ ، وَنَادَانَا فَتَنَادَيْنَاهُ ، وَكَانَ لَنَا فُكْنًا لَهُ ،
وَأَجَابَنَا فَأَجَبْنَاهُ . . فَلَنَعْمَ الْحَجِيبُ كَانَ لَنَا وَلِنَعْمَ الْمَجِيبُونَ كُنَّا لَهُ !

« مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » : شَتَانُ بَيْنِ كَرْبِ نُوحٍ وَبَيْنِ كَرْبِ أَهْلِهِ !

وَمَا يَبْكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ

أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

قوله جل ذكره : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ »

لَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُم مِّنْ أَوْلَادِ نُوحٍ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَنْتَاسِلُوا^(١)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ »

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ مِنْ شِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ » إذ

جاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »

يعنى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوْحِيدِ — وَإِنْ اخْتَلَفَا فِي فُرُوعِ
شَرْعِيَّهِمَا .

« قَلْبٌ سَلِيمٌ » : لَا آفَةَ فِيهِ . وَيُقَالُ لِلدِّينِ مِنَ الْحُبَّةِ . وَيُقَالُ : سَلِيمٌ مَنْ حُبَّةِ
الْأَغْيَارِ . وَيُقَالُ سَلِيمٌ مَنْ حَفِظَ نَفْسَهُ وَإِرَادَتَهُ . وَيُقَالُ : مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ فِي قَضَائِهِ وَاخْتِيَارِهِ .

قوله جل ذكره : « إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَاذَا

تَعْبُدُونَ ؟ »

سَأَلَهُمْ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّنْبِيهِ لَهُمْ عَلَى مَوْضِعِ غَلْطِهِمْ .

« فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ »

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا خَرَجَ نُوحٌ مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مِنْ مَعِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَلَدَهُ وَنِسَاءَهُ .

إذا لقيتموه — وقد عبدتم غيره . . فما الذي تقولون له ؟ وكيف بكم في مقام الخجلة
بما بين أيديكم وإن كنتم اليوم — غافلين عنه ؟

قوله جلّ ذكره « فنظر نظرة في النجوم * فقال إني
سقيم » .

قيل أراد « إلى » النجوم فأقام « في » مقام « إلى »^(١) .

« إني سقيم » : كانت تأتيه الحمى في وقت معلوم ، فقال : قرب الوقت الذي
أسقم فيه من أخذ الحمى إياي ، فكأنه تمل بذلك ليتأخر عنهم عند ذهابهم إلى
عبيدهم لتمشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة اللعائض . وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في القول
بالنجوم لأنهم كانوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهم^(٢) .

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أن الله — عزّ وجلّ — قد عرفه بطريق
الوحي أنه يخلق — سبحانه — باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب .

ثم لما ذهبوا إلى عبيدهم كسّر أصنامهم ، فلما رجعوا قالوا ما قالوا ، وأجابهم
بما أجابهم به إلى قوله :

« قالوا ابنوا له بُنيانا فألقوه في الجحيم
* فأرادوا به كيداً فجعلناهم
الأسفلين » .

ردّ الله كيدهم إلى محورهم . وقد تعرّض له جبريل — عليه السلام — وهو في

(١) ربما نعترض على هذا . . . فمع تسليمنا بجواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض إلا أننا نرى أن
شتمال « في » أدق . . . فالمقصود من أن إبراهيم « نظر في » النجوم أنه تأمل وتفكر . بينما لا تؤدي « نظر إلى » أكثر
من التطلع بالعين وقرق بين التأمل بالفكر والبصيرة وبين التطلع بالبصر — والله أعلم .

(٢) أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدنا فاخرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع وقال : إن هذا يطلع مع سقمي سرعان
علم النجوم مستعملاً عندهم — فأراهم من معتقدهم عنراً لنفسه . وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان
المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم (القرطبي ص ٩٢ ج ١٥) .

المواء وقد رُمي من النجنيق فعرَضَ عليه نفسه قائلاً : هل مِنْ حاجة ؟

فأجاب : أمّا إليك .. فلا !

قوله جل ذكره : « وقال إني ذاهبٌ إلى ربي »

سيهدين »

يقال إنه طلب هداية مخصوصة ؛ لأنه كان صاحب هداية ، إذ لو لم تكن له هداية لما ذهبَ إلى ربه . ويحتمل أنه كان صاحب هداية في الحال وطلب الهداية في الاستقبال أي زيادة في الهداية ، ويقال طلب الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور ، ويقال طلب الهداية إلى نفسه لأنه قدّ في قلبه ونفسه ؛ فقال سيهدينني إلى لأقومَ بحقّ عبوديته ؛ فإن المسهلّ في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلّا بأن يُردَّ إلى حالة التفرقة والتميز .

ومعنى « إلى ربي » أي إلى المكان الذي يُعبَدُ فيه ربي .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : « إني ذاهب إلى ربي » : فأخبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا » ، فأخبر عن صفته لأن

قوله . .

وقال في صفة نبينا صلى الله عليه وسلم : « سبحان الذي أسرى بعبده . . . »

[فأخبر عن ذاته سبحانه ^(١)]

وفصل بين هذه المقامات ؛ إبراهيم كان بين الفرق ، وموسى بعين الجمع ؛ ونبينا

كان بعين جمع الجمع .

قوله جل ذكره : « ربُّ هب لي من الصالحين »

فبشرناه بعلامِ حلیم »

لما قال « حلیم » نَبَّه على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم في تحمله . .

(١) ما بين القوسين من عندنا أضيفناه للتوضيح .

قوله جل ذكره: « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين »

« فلما بلغ معه السعي » إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد ، رأى إبراهيم — عليه السلام — أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل^(١) ليلة القوية ، وسميت كذلك لأنه كان يُروى في ذلك طولَ يومه . هل هو حق أم لا^(٢) ؟ . ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق ، ففسي يوم عرفة .

وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة ، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات^(٣) : أن اذبح ابنك ، فقال لإسماعيل : « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » قال إسماعيل : « يا أبتِ افعل ما تؤمر » : أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا ، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل ، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه ، وإن كان لها تأويل فتثبت^(٤) ، قد يمكنك ذبح ابنك كل وقت ولكن لا يمكنك تلافيه .

ويقال بل قال : أترك حديث الرؤيا واحمله على الأمر ، واحمل الأمر على الوجوب ، ثم احمله على الفور ولا تقصّر .

ويقال قال له : إن كان يطيب قلبك بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا بطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله .

(١) اختلف الناس في الذبيح فقال قوم إنه إسحاق وآخرون إنه إسماعيل . وفريق ثالث يقول : الله أعلم به . وعن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي . أمن عزبة عنك علك ! ومنى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بقى البيت مع أبيه والمنحر بمكة . اهلاًما إسحق فكان بيت المقدس .

(٢) مع أن إبراهيم أخذ يتسائل بين وبين نفسه عن ذلك إلا أنه من الثابت أن الرسل يأتيهم الوحي أيقاظاً ودروداً ، فلو بهم لا تنام ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشرة الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » .

(٣) لأجل ذلك سميت الأيام الثلاثة على التوالي يوم القوية ويوم عرفة ويوم النحر .

(٤) هكذا في م وهي في ص (قبلت) ونحن فرجع (فتثبت) بدليل ما بعدها لأنه بعد الذبح يكون قد قضى الأمر . ويأسي إبراهيم إن كان ذلك غير المراد .

ويقال قال اسماعيل لأبيه : أنت خليلُ الله وتنام .. أَلَمْ تَعْلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله
يُؤْمَرُ بِذَبْحِ ابنه ؟ مَالِكٌ يَا أَبَتِ والنوم ؟

ويقال في القصة : إنه رآه ذات يوم راكباً على فرسٍ أشهب فاستحسنه ، ونظراً إليه
قلبه ، فأمرَ بِذَبْحِهِ ، فلما أخرجه عن قلبه ، واستسلم لذبحه ظَهَرَ القداء ، وقيل له كان المقصودُ
من هذا فراغَ قلبك عنه .

ويقال في القصة : أمرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورجليه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ ألمُ
الذَّبْحِ فَيَمُوتَ ، ثم لما مَّ بِذَبْحِهِ قال : افتح القيدَ عني حتى لا يقال لي : أُمْتُودَ اليدَ جثتي ؟
وإني لن أتحركَ :

ولو بيدِ الحبيبِ سَقِيتُ مُمْتَاً لكان الشَّمُّ من يديه بطيب

ويقال أيها كان أشدَّ بلاء ؟ قيل : إسماعيل ؛ لأنه وَجَدَ الذَّبْحَ من بدأبيه ، ولم يتعود
من يده إلا التربية بالجليل ، وكان البلاء عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك .

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاءً لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه يده ويعيش بعده .

«ستجدني إن شاء الله من الصابرين» فلم يأتِ إسماعيل بالدعوى^(١) بل تأدَّب بلفظ الاستثناء .

ويقال لو قال إسماعيل إِمَّا لَا تَقُلْ : « يَا بَنِيَّ » بهذه اللطافة ، وإِمَّا لَا تَقُلْ : « إني أذبحك »

فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب !

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا أَسْنَأْ وَتَلَّ لِلْجَبِينِ » ونادينا

أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ *

قيل في التفسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حلقه والسكين لا يقطع ، فتعجَّب إبراهيم ،

فتودى : يا إبراهيم كان المقصودُ من هذا استسلامكما .

ويقال إن الله سترَ عليها عِلْمَ ما أريد منها في حال البلاء ، وإِنَّمَا كَشَفَ عنها بعد مُضِيِّ

وقت الحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء . . . وهكذا يكون الأمر عند البلاء ؛ تَنَشُّدُ الوجوه

(١) أى دعوى النفس بالملكنة دون تقديم المشيئة الإلهية .

في الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبي صلى الله عليه وسلم في حال حديث الإفك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وإنما يتبين الأمر بعد ظهور آخر المحنة وزوالها ، وإلا لم تكن حينئذ محنة [إلا أنه يكون في حال البلاء إسبال^(١) يُولَى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذ بلاء ؛ قال تعالى : —

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ *

وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً .

والناس في « البلاء » على أقسام : فبلاء مستعصب وذلك صفة العوام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة من يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا يأسون حتى إذا قُتِلُوا .

قوله جل ذكره : « وَبَشِّرْناه إِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ »

وباركنا عليه وعلى إِسْحاقَ . . .

وكل هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ مَنَّنا على موسى وهارون »

مَنْ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

« وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ » .

يعني التوراة .

« وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

بالتبري عن الحبل والقوة ، وشهود عين التوحيد .

« وَتَوَكَّلْنا عليهما في الْآخِرِينَ * سلامٌ

على موسى وهارون » .

ثم قال جل ذكره : « وَإِنَّ إِيْلَاسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

« إِيْلَاس » : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صَنَمِهِمْ « بَعْل » ،

(١) ما بين القوسين موحود في من وساقط في م .

ومدينتهم بعلبك : أنذر قومه فكذبوه ، ووعظهم فاصدقوه ، فأهلك قومه .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ »

مضت قصته وكيف نجى أهله إلا امرأته التي شاركتهم في عصيانهم ، فحق العذاب عليها مثلما عليهم ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة ، ولكن لم يُعَفَّ ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نفسه في بطن الحوت في الظلمة : —

« فَالتَّمْهَ الحوتُ وهو مُلِمٌ »

أى بما يُلامُّ عليه ، والحق — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن الخيفِ في حُكْمِهِ ؛ إِذْ اَلْخُلُقُ خَلَقَهُ ، ثُمَّ اَللَّهُ رَأَى حَقَّ تَعَبُّدِهِ ، وَحَفِظَ ذِمَامَ مَا سَلَفَ لَهُ فِي آدَاءِ حَقِّهِ قَال : —

« فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ

فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

فإن كَرَّمَ الْعَهْدَ فِينَا مِنَ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ مِنَّا مِنْ جَمَلَةِ الْإِحْسَانِ ، « فَالْمُؤْمِنُ قَدْ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ خُلُقًا حَسَنًا » — بذلك ورد الخبر .

« فَتَبَذَنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ »

« سَقِيمٌ » : فِي ضَعْفٍ مِنَ الْحَالِ لِمَا أَثَرَمِنْ كَوْنِهِ قَضَى وَقْتًا فِي بطن الحوت .

وَأُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ »

لِتُظِلَّهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي الصَّحْرَاءِ وَشِعَاعُ الشَّمْسِ كَانَ يَصُرُّهُ ، وَقَبِضَ لَهُ اللَّهُ ظِلِيَّةً ذَاتَ وَنَدٍ كَمَا : تَجِيءُ فَيَرْضَعُ مِنْ لَبَنِهَا ، فَكَأَنَّ الْحَقَّ أَعَادَهُ إِلَى حَالِ الطُّفُولِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ ، وَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَأَكْرَمُوهُ وَآمَنُوا بِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ قَدْ كَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، لِأَنَّهُمْ حِينَمَا خَرَجَ يُونُسَ مِنْ بَيْنِهِمْ نَدَمُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ لَمَّا رَأَوْا أَوَائِلَ الْعَذَابِ قَدْ أَظْلَمَتْهُمْ ،

(١) نلاحظ أن القشيري يمر سريعاً إزاء قصص الأنبياء هنا لأنه توقف طويلاً عند كل منها في مواضع

سبقت .

فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وَآمَنُوا بِاللَّهِ ، وَكَانُوا يَقُولُونَ : لَوْ رَأَيْنَا يُونُسَ لَوْكَّرْنَاهُ ،
وَعَظَّمْنَاهُ ، فَرَجَعَ يُونُسُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَوْمُهُ ، وَأَدْخَلُوهُ
بِلَدِّهِمْ مُكْرَمًا .

ويقال : الذَّنْبُ وَالْجُرْمُ كَانَا مِنْ قَوْمِهِ ، فَهَمَّ قَدْ تَوَعَّدُوا بِالْعَذَابِ . وَأَمَّا يُونُسُ فَلَمْ
يَكُنْ قَدْ أَذْنَبَ وَلَا أَلَمَّ بِمَحْظُورٍ ، وَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَكَشَفَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ ،
وَسَلِمُوا .. وَاسْتَقْبَلَ يُونُسَ مَا اسْتَقْبَلَهُ بَلْ أَنَّهُ قَامَى اللَّتِي وَالَّتِي بَعْدَ نَجَاتِهِ ؛ وَيَا عَجَبًا مِنْ
مِرٍّ تَقْدِيرِهِ ! فَقَدْ جَاءَ فِي الْقِصَّةِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ — أَوْحَى إِلَى يُونُسَ بَعْدَ نَجَاتِهِ أَنَّ قُلُوبَ
لِفُلَانِ الْفَخَّارِ حَتَّى يَكْسِرَ الْجِرَارَ الَّتِي عَمَلَهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ كُلِّهَا ! فَقَالَ يُونُسُ : يَا رَبِّ ،
إِنَّهُ قَطَعَ مَدَّةً فِي إِنْجَازِ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ آمُرُهُ بِأَنْ يَكْسِرَهَا كُلِّهَا ؟

فَقَالَ لَهُ : يَا يُونُسَ ، يَرِيقُ قَلْبُكَ لِيَخْرَافَ بِتُلْفِ عَمَلِ سَنَةٍ .. وَتُرِيدُنِي أَنْ أَهْلِكَ
مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ عِبَادِي ؟! يَا يُونُسَ ، إِنَّكَ لَمْ تَخْلُقْهُمْ ، وَلَوْ خَلَقْتَهُمْ لَرَحِمْتَهُمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ الْبَنَاتُ وَلَمْ
الْبَنُونَ ؟ »

لَمَّا قَالُوا فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ إِنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ يَبَيِّنُ اللَّهُ قُبْحَ قَوْلِهِمْ ، فَقَالَ : سَلِّمُوا مِنْ
أَيْنَ قَالُوا ؟ وَبِأَيِّ حُجَّةٍ حَكَمُوا بِمَا زَعَمُوا ؟ وَأَيُّ شُبْهَةٍ دَاخَلْتَهُمْ . ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَنْكِفُونَ مِنَ
الْبَنَاتِ ، وَيُؤْثِرُونَ الْبَنِينَ عَلَيْهِنَ .. وَمَعَ كُفْرِهِمْ وَقُبْحِ قَوْلِهِمْ وَصَفْوِ الْقَدِيمِ — سَبَّحَانَهُ —
بِمَا اسْتَنْكَفُوا مِنْهُ لَا تُقْسِمُ !

قوله جل ذكره : « فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
بِعَاقِبِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ » .

(١) تتجلى براعة القشيري في التقاط نماذج من القصص تستخدم فكرته العامة بخصوص تأميل العصاة ،
وإفصاح باب التوبة أمامهم على عكس بعض الباحثين الذين لا يهتمون إلا بالتخويف والتبشيع ، والتحويل
والإقناعات .

[أى ما أنتم بفاتنين من الناس إلا من أغويته بحُكْمِي ، فيه ضلُّوا لا بإضلالكم ^(١) .

قوله جل ذكره : « وما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ » .

الملائكة لهم مقام معلوم لا يتخطون مقامهم ، ولا يتعدون حُدُوم ، والأولياء لهم مقام ^(٢) مستور بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً ، والأنبياء لهم مقام مشهور مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة ؛ لأنهم للخلق قدوة فأمرهم على الشهير ، وأمرُ الأولياء على السَّترِ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ » .

أى سبقت كلمتنا لهم بالسعادة ، وقَدَّمَ حُكْمُنَا لهم بالولاية والرعاية ، فهُمْ من قِبَلِنَا منصورون : —

« إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

مَنْ نَصَرَهُ لَا يُغْلَبُ ، وَمَنْ قَهَرَهُ لَا يَنْصِبُ .

وجُنْدُهُ الَّذِينَ نَصَبَهُمْ لِشَرِّ دِينِهِ ، وَأَقَامَهُمْ لِتَصْرِيقِ الْحَقِّ وَتَبْيِينِهِ . . . مَنْ أَرَادَ إِذْلَالَهُمْ فَقَلَى أَذْقَانَهُ يَنْزِرُهُ ، وَفِي حَبْلِ هَلَاكِهِ يَنْجِرُهُ .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ » .

تَوَلَّى عَنْهُمْ — يَأْمُرُ — إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ آجَالَهُمْ ، وَتَنْتَهِيَ أحوَالُهُمْ . وَاتَّظَرِ اقْتِضَاءَ أَيَّامِهِمْ ، فَإِنَّهُ سَيَنْصَرِمُ حَدِيثُهُمْ وَشَيْكَا : —

« أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » .

(١) في هذا إرأى رد على القدرية كما هو واضح .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين جاء في م وسقط في م .

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِفِرْطِ جهلهم ،
ثم لَهلة تصديقهم . فلذا نزل المذابُ بساحتهم ، وأننا البلاء بقوتهم فساء صباحهم . فتولَّ
عنهم فَعَنٌ قريبٌ سيحصل ما منه يَحْتَدُّون .

قوله جل ذكره : « سبحان ربُّ العِزَّةِ عما يَصِفُونَ »
وسلامٌ على المرسلين • والحمد لله ربُّ
المالين » .

« سبحان ربك » : تديساً له ، وسلامٌ على أنبيائنا ، « والحمد لله » : أى هو الحمود على
ما ساء أم سرَّ ، نفع أم ضرَّ .

سورة ص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

اسم عزيز اعترفت المعارف بالتصور عن إدراكه ، اسم جليل تقنعت العلوم خجلاً من الطمع في إحاطته ، اسم كريم صغرت الحوائج عند ساحات جوده ، اسم رحيم تلاشت قطرات زلات عباده في تلاطم أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : « من القرآن ذي الذكر » .

الصاد مفتاح اسمه الصادق والصبور والعبد والصانع . . أقسم بهذه الأشياء وبالقرآن .
وجواب القسم : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » .

ويقال : أقسم بصفاء مودة أحبابه والقرآن ذي الذكر أى : ذى الشرف .. وشرفه أنه ليس بمخلوق (١) .

قوله جل ذكره : « بل الذين كفروا في عزة وشقاق »

في صلابة ظاهرة ، وعداوة بيّنة ، وإعراض عن البعث للأدلة ، والسّر للشواهد .

قوله جل ذكره : « كم أهلكنا من قبلهم من قرن

فنادوا ولات حين مناص » .

بادوا حين هجم البلاء مستغيثين ، وقد فات وقت الإشكاء والإجابة .

قوله جل ذكره : « وعجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم وقال

الكافرون هذا ساحر كذاب »

عجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم ، ولم يعجبوا أن تكون النعوتات آلهة ، وهذه مناقضة

ظاهرة . فلما تحيروا في شأن أنبيائهم رمّوهم بالحر ، وقسموا فيهم القول .

(١) وهذا رأى أهل السنة بخلاف ما يراه المعتزلة .

قوله جل ذكره : « أَجْعَلِ الْآلِمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » .

لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم ، وبعثوا عن ذلك تجويزاً ، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحكماً ، فلا عرفوا الإله ولا معنى الإلمية ؛ فإن الإلمية هي القدرة على الاختراع . وتقدير قادرين على الاختراع غير صحيح لما يجب من وجود التمتع بينهما وجوازه ، ثم إن ذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا كاملي الوصف لم يكونا إلهين ، وكل أمر جرى ثبوت سقوطه فهو مطروح باطل .

قوله جل ذكره : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلمتكم إن هذا لشيء يراد » .

إذا تواصى الكفار فيما بينهم بالصبر على آلمتهم ، فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم .

قوله جل ذكره : « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ » .

ركنوا إلى السوء والعادة ، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة ، واستناموا إلى التقليد والهوادة .

قوله جل ذكره : « أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَنْزِقُوا عَذَابٍ » .

أى لو استبصروا في دينهم لما أقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم ، ولولا أننا أدمنا لهم العوائق لما تفرغوا إلى طغيانهم^(١) .

(١) قال تعالى : الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون وقال تعالى : « من يغفل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » تلك هي الحكمة الإلهية في إهمالهم .

« أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
الْوَهَّابِ » .

أى : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكذبوا واحتجوا .. أَعِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ
هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؟ أَمْ هَلْ هُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَيَفْعَلُوا مَا أَرَادُوا ، وَيَسْطُوا مِنْ
شَامُوا ، أَوْ يَرْتَقُوا إِلَى السَّمَاءِ فَيَأْتُوا بِالْوَحْيِ عَلَى مَنْ أَرَادُوا ؟

« جُنْدٌ مَا هُنَا لِكَ مَهْزُومٍ مِنَ
الْأَحْزَابِ » .

بل هم جُندٌ من الأحزاب المتحزبين . كُلُّهُمْ عَجْزَةٌ لا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، مَهْزُومُونَ .
شَبَّهَهُمْ فِي بَقَائِهِمْ عَنْ مَرَادِهِم بِالْمَهْزُومِينَ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ لَيْسَ مِنْهُمْ حُجَّةٌ ، وَلَا لَهُمْ قُوَّةٌ ،
وَلَا لِأَصْنَامِهِمْ أَيْضًا مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ مُكْنَةً ، وَلَا فِي الرَّدِّ وَالدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ قُدْرَةً .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ .. » الآيات .

ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْجَمْعِ ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْإِفْرَادِ^(١) ،
وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِفَادَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ . ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابٌ » .

أى ما كان منهم أحداً إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّتْ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ .
ثُمَّ قَالَ :

« وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ » .

أى ليسوا ينتظرون إِلَّا الْقِيَامَةَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِذَا قَامَتْ فَإِنَّهَا لَا تَسْكُنُ .

(١) المقصود بالجمع والإفراد هنا الجملة والتفصيل .

قوله جل ذكره : « وقالوا ربنا عجل لنا قطنًا قبل يوم الحساب » .

اصبر — يا محمد — على ما يقولون ، فإنه لن تطول مدتهم ، ولن نمد — في مقاساتك أدام — لبثك ومكثك ، وعن قريب سينزل الله نصره ، ويصدق لك بالتحقيق وعده .
قوله جل ذكره : « واذكروا عبداً داوداً ذا الأيد إنه أواب » .
« ذا الأيد » أى ذا القوة ، ولم تكن قوته قوة نفس ، وإنما كانت قوته قوة فعل ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً — وهو أشد الصوم ، وكان قوياً في دين الله بنفسه وقلبه وهمة .
« أواب » رجاع^(١) .

قوله جل ذكره : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن
بالشئ والإشراق^(٢) » • والطير محشورة
كل له أواب » .

كان داود يسبح ، والجبال تسبح ، وكان داود ينهم تسبيح الجبال على وجه تخصيص
له بالكرامة والمعجزة .

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبح الله ، وداود كان يرف تسبيح الطير ؛ وكل من
تحقق بحاله ساعده كل شيء كان بقربه ، ويصير غير جنبه بمحكمه ، وفي معناه أنشدوا :
رُبَّ ورقاء متوفٍ بالضحى ذات شجرٍ صرخت في قنن
ذكرت إلنا ودمراً صلحاً وبكت شوقاً فهاجت حزني
فبكائي ربنا أرقها وبكاهما ربنا أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفني

(١) من (آب) يشوب إذا رجع . فكان داود رجاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقضى به
(القرطبي ج ١٥ ص ١٥٩) .

(٢) يرى بن سيار أن (الإشراق) معناه صلاة الضحى إذ هى بعد طلوع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وفَصَلَ الْخَطَابِ » .

أى قُوَّتِنَا مُلْكَهُ بِأَنْصَارِهِ ، وفى التفسير : كَانَ يَحْفَظُ مُلْكَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثَةً وَثَلَاثُونَ
أَلْفَ رَجُلٍ .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وفَصَلَ الْخَطَابِ » .

أى شَدَدْنَا مُلْكَهُ بِنَصْرِنَا لَهُ ^(١) وَدَفَعْنَا الْبَلَاءَ عَنْهُ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكَهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَحُسْنِ السِّيَرَةِ فِي الرِّعْيَةِ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكَهُ بِقَبْضِ أَيْدِي الظُّلَمَةِ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكَهُ بِدَعَاءِ الْمُسْتَضْعِفِينَ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكَهُ بِأَنْ رَأَى النُّصْرَةَ مِنَّا ، وَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدُّونَه على ما فيه صلاح مُلْكِهِ .

ويقال بِتَتَبُّعِهِ وَحُسْنِ سِيَاسَتِهِ . ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد .

ويقال بِرَجُوعِهِ إِلَيْنَا فِي صُومِ الْأَوْقَاتِ .

« وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وفَصَلَ الْخَطَابِ » : أَى أَعْطَيْنَاهُ الرُّشْدَ وَالصَّوَابَ ، وَالتَّهْنِئَةَ وَالْإِصَابَةَ .

ويقال الْعِلْمَ بِنَفْسِهِ وَكَيْفِيَّةِ سِيَاسَةِ أَمْتِهِ .

ويقال الثَّبَاتَ فِي الْأُمُورِ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِحْكَامَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ .

ويقال صَحْبَةَ الْأَبْرَارِ ، وَمُجَانِبَةَ الْأَشْرَارِ .

وَأَمَّا « فَصَلَ الْخَطَابِ » فَهُوَ الْحُكْمُ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ

أَنْكَرَ . وَيُقَالُ : الْقَضَاءُ بَيْنَ الْخَصُومِ .

(١) يَفْهَمُ الْقَشِيرَى هُنَا بِأَصْحَابِ السُّلْطَانِ اللَّيْنِ لَا يَحْسِنُونَ سِيَاسَةَ الرِّعْيَةِ وَلَا اخْتِيَارَ الْوُزَرَاءِ وَالْأَعْوَانِ . . .

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ ابْتُلِيَ فِي عَهْدِ طُغْرُلٍ بِمِحْنَةٍ كَبِيرَى .

قوله جل ذكره : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا
الحراب » . . . الآيات

أرسل الله إلى داود عليه السلام مَلَكَينِ من السماء على صورة رجلين فتحاكما إليه
تنبيهًا له على ما كان منه من تزوجه بامرأة أوريا ، وكان ترك ذلك أولى — هذا على طريق
من رأى تنزية الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأما من جَوَّزَ عليهم الصفات فقال : هذا من جلته . وكفى الخصمان باسم النجعة عن
النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إِنِّي لَأَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنْتَ أَعْطَيْتَ الْأَنْبِيَاءَ
الرُّتَبَ فَأَعْطِينِيهَا ، فقال : إِنْهُمْ صَبَرُوا فِيمَا ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ ، فَوَعَدَ دَاوُدُ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ إِذَا ابْتَلَاهُ
طَمَعًا فِي نَيْلِ الدَّرَجَاتِ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَتْلِيهِ يَوْمَ كَذَا ، فَعَمِلَ دَاوُدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ
عِبَادَةٍ ، وَاخْتَلَى فِي بَيْتِهِ ، وَأَمَرَ حُرَّاسَهُ الْأَيُّوْذِيَّةَ أَحَدًا بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ ، وَأَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ ،
وَأَخَذَ يُصَلِّي زَمَانًا ، وَيَقْرَأُ التَّوْرَةَ زَمَانًا يَتَعَبَّدُ . أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ وَلَسَكَنَ لَمْ يُمْكِنَهُ غَلْقُ بَابِ
السَّمَاءِ . وَأَمَرَ حُرَّاسَهُ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ النَّاسِ وَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ — وَيَقَالُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ —
وَلَكِنْ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ حُكْمَ الْقَضَاءِ ، وَلَقَدْ قَالَ الْحَكَمَاءُ : الْهَارِبُ مِمَّا هُوَ كَاثِنٌ فِي
كَفِّ الطَّالِبِ يَتَلَبَّ .

وكانت في البيت كوة يدخل منها الضوء ، فدخل طير صغير من الذهب ، ووقع قريباً
منه ، وكان لداود ابن صغير فهم أن يأخذه ليدفعه إلى ابنه^(١) ، فتباعد عنه . وجاء في التفسير :
أنه كان إبليس ، قد تصور له في صورة طير ، فتبعه داود ، ولم يزل الطائر يتباعد قليلاً قليلاً ،
وداود يتبعه حتى خرج من الكوة ، ونظر داود في أثره فوقع بصره على امرأة أوريا وهي
تغتسل متجردة ، فعاد إلى قلبه منها شيء ، فكان هذا السبب .

ويقال لم يرع الاهتمام بسبب ولده حتى فعل به ما فعل ، وفي ذلك لأولى الأبصار عبرة^(٢) .

(١) نقل القرطبي هذه الرواية منسوبة إلى القشيري ج ١٥ ص ١٨٢ .

(٢) يحاول القشيري أن تلمسه لسبب محنة داود أن يوضح للمريدين أنه حتى الأكابر قد تحمل بهم البلوى نتيجة
المساكنة إلى غيرهم ، فيفار الحق عليهم ويمتزل بهم من الأمر ما يردمهم إلى الحق . . . وذلك بفضل الله سبحانه .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوجَ بها بعدُ ، وقد كان خطبها ، وأجابته في الزوج به ،
فخطب داود على خطبته . وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها ، فنزل على أمره
وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقتل وتزوج بها . فلما تسور الحصان
عليه ، وقيل دخلا من سور الحراب أى أعلاه ولذلك : —

« فَنَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ
بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَلَا تُسْطِطْ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ
الصُّرَاطِ » .

نحن خصمان ظلمَ بعضنا بعضاً ، فاحكم بيننا بالعدل :

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةً قَالِ أَكُفِّلْنِيهَا
وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » .

« أكفلنيها » أى انزل عنها حتى أكفلها أنا ، « وعزني في الخطاب » . أى غلبني ،
قال داود :

« قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ
إِلَى نِجَاحِهِ » .

فضحك أحدهما في وجه صاحبه ، وصعد إلى السماء بين يديه ، فظلم داود عند ذلك أنه ثنية
له وعتاب فيما سلف منه ، وظن واستيقن أنه جاءته الفتنة للعودة :

« فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » .

أخذ في التضرع ، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه من السجود
إلا (للصلاة)^(١) المكتوبة عليه ، وأخذ يبكي حتى نبت العشب من دموعه ، ولم يأكل ولم

(١) (الصلاة) غير واردة في النسختين وقد استعنا بالقرطبي في هذه التكملة (ج ١ ص ١٨٥) وقد وجدناها =

يشرب في تلك المدة ، حتى أوحى الله إليه بالمغفرة ، فقال : يارب ، فكيف بمحدث الخصر ؟
فقال : إني استوهبتك^(١) منه ، وقال تعالى :

« فَفَغَرَّنا لَهُ ذَلِكُمْ وَإِنْ لَهُ عِنْدنا لَزُلْفَى
وَحُسْنُ مَأْوى . »

إن له عندنا لقربةً وحسن رجوع ، وقيل : كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه .
ويقال لما التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستغناء
وجَدَ المغفرة والتجاوز .. وهكذا من رجع في أوائل الشدائد إلى الله فالله يكفيه مما ينوبه ،
وكذلك من صَبَرَ إلى حين طالت عليه المحنة . ويقال إن زَلَّةً أَسَفَكَ عليها يوصلك إلى ربك أجدى
عليك من طاعة إعجابك بها يُقْصِيكَ عن ربك^(٢) .

قوله جل ذكره : « يا داودُ إِنَّا جَعَلناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ
الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ
شَدِيدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الْحَسَابِ . »

« جَعَلناكَ خَلِيفَةً » أى بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ الْأَنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وقيل حاكماً من قَبْلِ
لتحكم بين عبادى بالحق ، وأوصاه ألا يتبع فى الحكم هواه تنبيهاً على أن أعظم جنایات العبد
وأقبح خطاياها متابعة الهوى .

ولما ذَكَرَ اللهُ هذه القصة أعقبها بقوله :

« وما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وما بَيْنَهُما »

= ضرورة لتوضح كيف أن التمسك بالفائق الذى يمارسه الخاصة لا يمنع من رجوعهم فى حال الفرق الثانى إلى أن يقوموا
بالتمسك الذى تفرضه الشريعة . وربما كان ذلك مقصد القشيري من اختيار هذه الرواية . . . والواقع أن القشيري
يجيد اختيار الشواهد من القصص والأخبار ، واضعاً فى الاعتبار خلة التصوف وأهله .

(١) أى استوهبتك منه بثواب الجنة (القرطبي ج ١٥ ص ١٨٥) .

(٢) هكذا يفتح القشيري أبواب الأمل أمام العصاة ، ويدفع عنهم القنوط من رحمة الله .

باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل

للكافرين كفروا من النار .

« باطلاً » أى وأنا مُبطلٌ فى خلقهما ، بل كان لى ما فعلتُ وأنا فيه مُحقٌّ .

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحق .

ثم أخبر أنه لا يحمل المفسدين كالحسنين قط ، ثم قال :

« كتب أنزلناه إليك مباركاً ليدبروا^(١)

آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

« مبارك » وهو القرآن ، ومبارك أى كبيرُ النفع ، ويقال مبارك أى دائمٌ باقٍ لا ينسخه

كتابٌ ؛ من قولهم ترك الطير على الماء . ويقال مبارك لمن آمن به وصدق . ثم إنه بين أن البركة فى تدبره والتفكر فى معانيه .

قوله جل ذكره : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبدُ

إنه أواب » .

« نعم العبدُ » لأنه كان أواباً إلى الله ، راجعاً إليه فى جميع الأحوال ؛ فى النعمة بالشكر ،

وفى المحنة بالصبر .

قوله جل ذكره : « إذ عرض عليه بالعشي الصافياتُ

الحياتُ » .

« الصافيات » جمع صافئة وهى القائمة ، وفى التفسير هى التى تقوم على ثلاث قوائم ؛

إذ ترفع إحدى اليدين على سُنْبُكها^(٢) . وجاء فى التفسير أن سليمان كان قد غزا أهلَ

(١) فى الألوسى أن علياً قرأ « ليتدبروا » بباء بعد الياء ، وكذا فى « البحر » لأبى حيان .

(٢) السبك طرف الخافر ، والصفون فى اللغة إدانة للقيام ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقوم

له الرجال صفونا فليتبوا مقعده من النار » ؛ وقال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه ما يقوم على الثلاث كسيرا

(السان : مادة صفن)

دمشق ، وأصابها منهم^(١) ، وقيل ورثها عن أبيه داود وكان قد أصابها من العاقلة^(٢) ، وقيل كانت خيلاً لما أجنحة خرجت من البحر^(٣) .

وفي بعض التفسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرس فشغلته عن بعض أذكاره لله .
« بالمشي » : في آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر^(٤) .

قوله جل ذكره : « رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَقِّقْ مَسْبَحًا بِالشُّوْقِ وَالْأَعْنَاقِ » .

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد أن فرغ من صلاته .

وقيل عَرَقَبَهَا (لِيَذْبَحَهَا فَتَحَبَّسَهَا بِالْمَرْقَبَةِ عَنِ النَّفَارِ)^(٥) ، وقيل وَضَعَ عليها الكي فسبَّلَهَا^(٦) . وإيش ما كان فكل ذلك كان جائزاً في شرعه .

قوله جل ذكره : « قَالِ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »^(٧) .

أى لَصَقْتُ بِالْأَرْضِ حُبَّ الْمَالِ . ويقال لَمَّا سَبَّلَ هَذِهِ الْأَفْرَاسَ عَوَّضَهُ^(٨) الله — سبعاته — بَأَن سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لله لم يخسر على الله .
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ » .

(١) هذه رواية الكلبي .

(٢) هذه رواية مقاتل .

(٣) هذه رواية الحسن والضحاك .

(٤) ينقل القرطبي عن أبي نصر القشيري بن عبد الكريم القشيري قوله : ما كان في ذلك الوقت صلاة ظهر ولا صلاة عصر وإنما كانت تلك الصلاة نافلة ، وشغل عنها ثم تذكرها .

(٥) ما بين القوسين زيادة أضفناها ، اقتبسناها من القرطبي من الموضع نفسه حتى يتضح المعنى الذي يتجه إليه القشيري (ج ١ ص ١٩٦) .

(٦) سبل الشيء أي أباحه ويجعله في سبيل الله .

(٧) اختلف في التي « توارت بالحجاب » فقيل هي الشمس ، وقيل هي الخيل وقد استعرضها حتى توارت للجهاد .

(٨) هكذا في م وهي في ص (مرصه) بالراء والصحيح ما أثبتناه عن م .

اختلف الناس في هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة قال : لأطوفنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدة منهن غلام يقاتل في سبيل الله «^(١) ولم يقل إن شاء الله ، ولم تحمِلْ إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيه ، فاستغفر ربه من ترك الاستنشاء ، وكان ذلك ترك ما هو الأوَّلَى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فهُمَّوا بِقَتْلِهِ ، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فلت الولد ، وألقته الريح على كرسيه ميتاً . فالتفتت كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأوَّلَى به التوكل وترك الاستعانة بالريح .

وقيل في التفسير : إنه تزوج بامرأة^(٢) كانت زوجة ملكٍ قهره سليمان ، وسبَّاهها ، فقالت له : إن أذِنتَ لي أن اتَّخِذَ تمثلاً على صورة لأبي لأنسلي بنظري إليه ؟ فأذِنَ لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواربها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سراً ، فمُوقِبَ عليه^(٣) .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نَسَائِهِ إِلَيْهِ ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَهُ إِلَيْهَا ، وهي على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ اسْتَرَدَّهُ . وجاء يوماً شيطانٌ يُقَالُ له « صخر » على صورة سليمان وقال لامرأته : ادْفِئِي إِلَى الْخَاتَمِ فدَفَعَتْهُ ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يُمَشِّيُ أُمُورَهُ — إِلَّا التَّصَرَّفَ فِي نَسَائِهِ — قَدْ مَنَعَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ . فلَمَّا خَرَجَ سليمان طَالَبَ الْمَرْأَةَ بِالْخَاتَمِ ، فقالت : السَّاعَةَ دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ . فَظَنَّ أَنَّهُ فُتِنَ ، وكان إذا أخبر الناس أنه سليمان لا يُصَدِّقُونَهُ ، نَفَرَ ج (هارباً إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحمل سَمَكُ الصَّيَادِينَ بِأَجْرَةٍ حَتَّى يَجِدَ قُوْتًا .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَهُ) نشروا التوراة بين يديه ،

(١) في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « قال سليمان لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا أَمْرَأَةً وَاحِدَةً . جاءت بشق رجل ، وأيم الذي نفسي محمد يبدلوا قال إن شاء الله لجأوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢) هذه المرأة — كما يقول الزمخشري — هي «جُرادة ابنة ملك جزيرة في البحر يقال لها صيدون .

(٣) وكانت عقوبته حرمانه من ملكه أربعين يوماً — هي مدة عبادة الصنم في بيته .

قرء ورعى بالخاتم فى البحر ، وطار فى الهواء . ولما أذن الله ردد ملك سليمان إليه ، ابتلعت سمكة خاتمه ، ووقعت فى جبال الصيادين ، ودفنوها إلى سليمان فى أجرته ، فلما شق بطنها ورأى خاتمه لبسه ، وسجد له الملاحون ، وعاد إلى سريره ملكه^(١) .

قوله جل ذكره : « قال رب اغفرلى وهب لى ملكاً لا يبنى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » .

أى ملكاً لا يسلبه أحد منى بعد هذا كما سلب منى فى هذه المرة .
وقيل أراد انفراد به ليكون معجزة له على قومه .
وقيل أراد أنه لا يبنى لأحد من بعدى أن يسأل الملك ، بل يجب أن يكمل أمره إلى الله فى اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء ، ولكن قال لا يبنى من بعدى لأحد من الملوك .
وإنما سأل الملك لسياسة الناس ، وإنصاف بعضهم من بعض ، والقيام بحق الله ، ولم يسأله لأجل ميله إلى الدنيا . . . وهو كقول يوسف : « اجعلنى على خزان الأرض إني حفيظ عليم »^(٢) .

ويقال لم يطلب الملك الظاهر ، وإنما أراد به أن يملك نفسه ، فإن الملك — على الحقيقة — من يملك نفسه ، ومن ملك نفسه لم يتبع هواه .
ويقال أراد به كمال حاله فى شهود ربه حتى لا يركى معه غيره .

ويقال سأل القاعة التى لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سر نبينا — صلى الله عليه وسلم — ألا يلاحظ الدنيا ولا ملكها

(١) نلاحظ أن القشيري — وإن تجنب الوقوع فى كثير من الروايات السخيفة مثل اجتماع سليمان بالنساء فى حوضه ، ومثل قصاته فى الناس بغير الحق ونحو ذلك — إلا أنه لم يستطع التخلص من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات لأننا لا نستطيع أن نصور وقوع نبي سليمان أو كدلود فى مثل هذه المزالق التى لا ينحدر إليها نبي .
(٢) آية ٥٥ سورة يوسف .

قَالَ : « لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » لِأَنَّهُ بَخِلَ بِهِ عَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ لَعَلَّهِ أَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » .

شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ بَدَلًا مِنَ الْأَفْرَاسِ ؛ فَلَا يَحْتَاجُ فِي إِمْسَاكِهَا إِلَى الْعَلْفِ وَالْمُؤْنِ .

« وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ *
وآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا
فَاصْنُ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

كما سَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ .

ثم قال : « هَذَا عَطَاؤُنَا . . » أَي فَاغْطِ أَوْ أَمْسِكْ ، وَاحْفَظْ وَلَيْسَ عَلَيْكَ حِسَابٌ .

وَالْمَشْيُ فِي الْمَوَاءِ لِلْأَوْلِيَاءِ ، وَقَطْعُ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ فِي مَدَّةٍ بِسِيرَةٍ مِمَّا يَعْلَمُ وَجُودَهُ قِطْعًا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ — وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْهُ الْأَفْرَادُ وَالْأَحَادُ عَلَى التَّعْيِينَ . وَإِظْهَارُهُ عَلَى خَدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِشَرَفِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَقَامَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَشْرَفُ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُغْصِبِ وَعَذَابٍ » .

أَيِّ بِمَا كَانَ يَوْسُوسُ إِلَيْهِ بِتَذْكِرِهِ إِيَّاهُ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْبَلِيَّةِ ، وَقِيلَ لِمَا كَانَ قَالَ (أَيُّ الشَّيْطَانِ) لِأَمْرَاتِهِ : اسْجُدِي لِي حَتَّى أَرِدَّ عَلَيْكُمْ مَا سَلَبْتَكُمْ .

وَيُقَالُ إِنْ سَبَبَ ابْتِلَاؤُهُ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ مَظْلُومٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ . . فَاغْبُطِي .

وَيُقَالُ اسْتِضَافَ النَّاسِ يَوْمًا فَلَمَّا جَاءَهُ ابْنُ فَقِيرٍ مَنَعَهُ مِنَ الدَّخُولِ .

(١) من مبادئ نظرية القشيري في الكرامة : أن كرامة الولي فرع لمعجزة النبي الذي ينتمي الولي إلى أمته ، فكل شرف الولي هو في الأصل شرف للنبي وآية حظوته ورتبته .

ويقال كان يغزو ملكاً كافراً ، وكان لأيوب غمٌّ في ولايته ، فداهته لأجل غمِّه في القتال .

ويقال حسده إبليس ، قال : كَيْنَ سَلَّطَنِي عَلَيْهِ لَمْ يَشْكُرْكَ .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، وقيل ^(١) سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

قوله جل ذكره : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ^(٢) » هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشرابٌ .

لَمَّا أَرَادَ اللهُ كَشْفَ الْبَلَاءِ عَنْهُ قَالَ لَهُ : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » ، فركض ، فظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ باردٍ فاغْتَسَلَ بِهِ ، فَعَادَ إِلَيْهِ جَمَالُهُ وَكَمَالُهُ . وقيل الأولى كانت عينا حارة والثانية باردة ، واغْتَسَلَ ، وَرَدَّ اللهُ لَحْمَهُ وَشَعْرَهُ وَبَشَرَهُ ، وَأَحْيَا أَوْلَادَهُ وَأَهْلَهُ ، وَقِيلَ بَلْ يَرُدُّهُمْ إِلَيْهِ فِي الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ .

قوله جل ذكره : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَمْنَحْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

الضِعْفُ الحزمة من القضبان ، وقيل كانت مائة ، وأَمَرَ أَنْ يَضْرِبَ بِهَا دَفْعَةً عَلَى امْرَأَتِهِ لثَلَا يَمْنَحْ فِي يَمِينِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَهَا مِائَةَ خَشْبَةٍ إِنْ صَحَّ (أَنَّهَا أَخْطَأَتْ) . فَشَكَرَ

(١) الرواية الأخيرة منسوبة إلى ابن عباس .

(٢) رفض أبو الفرج الجوزي احتجاج بعض المتصوفة بهذه الآية على إباحة الرقص . والواقع أن ذلك يمنع التفسير بتقديره خاصاً ؛ لأنه لو كان يؤيد ذلك الاحتجاج لقالبه ، بل لم يشر إليه ، كما لم يشر عند الآية التي سبقت في هذه السورة : « رُدُّوْهَا عَلَيَّ قَطْفًا ... » إلى ما يحتاج به بعض المتصوفة من تمزيق الحرقرة وتقطيع الثياب ، فهذه في رأيه استدلالات فاسدة يلجأ إليها الطغاف .

الله لها لبراءةٍ ساحتها ، وصبرها على خدمته . وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ : اسجدي لي ؛ أخبرت أيوبَ بذلك ، فعاظه حيث سمعت من إبليس ذلك وظننت أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهم في ذلك ريةً ، وكان أيوب يتعلق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شيء منها فتحلف (أن يضربها بعد شفائه) .

« إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا .. » : والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الحكم . ويقال التلذذ بالبلاء ، واستعداد به دون استصعابه .
ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم ينفِ قوله « مسنى الضر » اسمَ الصبر عنه ؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقلْ مَسْنَى الضَّرُّ ؛ فكان الحكمُ للغالب .

« نعم العبدُ إنه أواب » لم يشغله البلاء عن العبدِ . ونعم العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

ويعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ »

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ » .

« أُولَى الْأَيْدَى » : أى القوة^(١) . « وَالْأَبْصَارِ » أى البصائر .

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ » : أى بفضيلة خالصة وهى ذكر الجنة والنار ، أو بدعاء الناس إلى الجنة والمهرب من النار . ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين ؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكرى الدار ، « وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ

وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ » .

(١) يرى الطبري أن (الأيدى هنا معناها : النعم والإحسان لأنهم قد أحسنوا وقلعوا الخير) .

« وذا الكفل » : قيل كان تسكفل الله بعمل رجل صالح مات في وقته ، وقيل كفل مائة من بنى إسرائيل هربوا من أمير لم ظالم ، فكان ينفق عليهم .
ويقال كلن اليسع وذو الكفل أخوين .

قوله جل ذكره : « هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب » .

أى هذا القرآن فيه ذكر ما كان ، وذكر الأنبياء والتقصص .
ويقال إنه شرف لك ؛ لأنه معجزة تدل على صدقك ، وإن للذين يتقون المعاصي لحسن المُنْقَلَب .

« جنات عدن مفتحة لهم الأبواب »
أى إذا جاءوها لا يلحظهم ذل الحجاب ، ولا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالترحاب^(١) والتبجيل . متكئين فيها على أرائكهم ، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب على ما يشتهون ، وعندهم حور عِين قاصرات الطرف عن غير أزواجهن ، « أتواب » : لِدَات مُسْتَوِيَاتٍ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالشَّكْلِ .

قوله جل ذكره : « هذا وإن للطاغين لشر مآب » .
لَشَرٌّ مَرْجِعٌ وَمُنْقَلَبٌ ؛ وهى جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذِّبِينَ فيها ، ويُنْسَ الْمَكَانُ ذَلِكَ !

« هذا فليذوقوه حميمٌ وغساقٌ »
« حميم » : هو الماء الحار ، و « غساق » هو عصارة أهل النار^(٢) ، ويقال هو زمهرير جهنم^(٣) .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بالإيجاب) ونحن نؤثر (بالتراحاب) لتقابل ما يقال لأهل النار فيما بعد (لامرعباً بهم)
(٢) هذا قول محمد بن كعب .
(٣) هذا قول ابن عباس ، وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ نث . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة ، ومن نث لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح . وقال آخرون إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحمّره (القرطبي ١٥٠ ص ٢٢٢) .

« وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »

أى فنون أخرى من مثل ذلك العذاب .

قوله جل ذكره : « هَذَا فَوْجٌ مُتَقَتِحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ
لَهُمْ صَلَواتُ النَّارِ » .

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم ، ويقول الأتباع للمتبعين :

لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدامتموه لنا بأمركم فواقفناكم ، ويقولون :

« رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا
فِي النَّارِ » .

فيقال لهم كُلُّكُمْ فِيهَا ، ولن يفتَرَ العذابُ عنكم .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ
مِنَ الْأَشْرَارِ » ؟ .

يقول الكفار عندما يدخلون النار : ما لنا لا نرى رجلاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَشْرَارِ
وَالْمُسْتَضْعِفِينَ . . فَلَسْنَا نَرَاهُمْ هَاهُنَا ؟ أَمْ لَيْسَ وَهَاهُنَا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا ؟ يَقُولُهُ أَبُو جَهْلٍ
وَأَصْحَابُهُ يَعْزُونَ بِإِلَهِائِهِمُ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ ، فَيَعْرِفُونَ بِأَنَّهُمْ فِي الْقَرْدُوسِ ، فَيَزِدُّونَ حَسْرَتَهُمْ .

(إِنَّ ذَلِكَ لَخَلْقٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) .

أى إن مخاصمة أهل النار في النار خلقت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) .

قل يا محمد : إنما أنا مُنْذِرٌ مُخَوِّفٌ ، مُبَلِّغٌ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي

لَا شَرِيكَ لَهُ .

« قُلْ هُوَ قَبْلُ كُلِّ عَظِيمٍ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ »

ما كان لي من عِلْمٍ بالملأ الأعلى إذ
يختصمون * إن يوحى إليّ إلا أنا أنا
نذيرٌ مبينٌ .

أى الذى أتيتكم به من الأخبار عن القيامة والحشر ، والجنة والنار ، وما أخبركم
به عن نبوتى وصدقى هو نبأ عظيم ، وأتم عرضتم عنه .

وما كان لي من عِلْمٍ بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أن الله عرّفنى ، وإلا ما كنتُ
عَلِمْتُهُ . والملأ الأعلى قومٌ من الملائكة فى السماء العليا ، واختصامهم كان فى شأن آدم حيث
قالوا : أمجعل فيها من يفسد فيها ؟

وقد ورد فى الخبر : « أن جبريل سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الاختصام
فقال : لا أدرى . فقال جبريل : فى الكفارات والدرجات ؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء
فى السَّيرَات^(١) ، ونَقْلُ الأقدامِ إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإفشاء السلام ، وإطعامُ الطعام ،
والصلاةُ بالليل والناسُ نيامٌ^(٢) . وإنما اختلفوا فى بيان الأجر وكية الفضيلة فيها — فيجتهدون
ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم فى الأصل لا يحددون .
.. وهذا إنما يوحى إليّ وأنا منذر مبين .

قوله جل ذكره : « إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ
بَشَرًا من طين »

إخباره الملائكة بذلك إنما يدلُّ على تفخيم شأن آدم ؛ لأنه خلق ما خلق من الكونين^(٣) ،

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء ، وهى الغداة الباردة .

(٢) روى الخبر أبو الأشهب عن الحسن هكذا : « سألتُ ربى فقال : يا محمد ، فمِ اختصم الملأ الأعلى ؟
قلت فى الكفارات والدرجات ، قال : ما الكفارات ؟ قلت :
المنى على الأقدام إلى الجماعات » أخرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب ، وعن
معاذ بن جبل أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (المكذبين) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

والجنة والنار ، والعرش والكرسي ، والملائكة ، ولم يقل في صفة شيء منها ما قال في صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم ، وسبحان الله ! خلقَ أعزَّ خلقه من أدلِّ شيءٍ وأخسَّ وهو التراب والطين .

« فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » .

روحُ آدم — وإن كانت مخلوقة — فلها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلما سوى خلقَ آدم ، وَرَكَّبَ فيه الروحَ جَلَّلهُ بأنوار التخصيص ، فوقعتْ هيئته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرتْ لإبليسَ شقاوته ، ووقع — بامتناعه — في اللعنة .

« قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بِيدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ
كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ » قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

من هنا وقع في الغلط ؛ تَوَقَّعَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيل من حيث القسمة دون الخلقة .

ويقال ما أودع الله — سبحانه — عند آدم لم يوجد عند غيره ، ففيه ظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : « قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *
وإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يوم الدين » .

قال فاخرج من الجنة ، ومن الصورة التي كنت فيها ، ومن الحالة التي كنت عليها ،
« فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » مَرْمِيٌّ بِاللَّعْنِ مِنِّي ، وبالشَّهْبِ مِنَ السَّمَاءِ ، وبالرجوم من قلوب الأولياء
إِنْ تَعَرَّضْتَ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : « قال ربّ قأنظرنى إلى يومـ

يُبْعَثُونَ * قال فإنّك من المنظرين *

إلى يومـ الوقتِ المعلوم » .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه^(١) ، وتعلّقت إرادته بسؤال إنظاره ، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته ، فأنظره الله ، وأجابه ، لأنه بلسانه سأل تمام شقاوته .

« قال فبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمِينَ *

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

ولو عوّف عزّته لما أقسم بها على مخالفته .

ويقال تجاسّره في مخاطبة الحقّ — حيث أصرّ على الخلاف وأقسم عليه — أقبح وأولى في استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم^(٢) .

قوله جل ذكره : « قال فالحقّ والحقّ أقول *

لَأُمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ

منهم أَجْمِينَ » .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّهُ هُوَ

(١) في هذه الإشارة دقة تحتاج إلى تأمل ، فقول القشيري « جرى على لسانه » تفيد أن مأساة إبليس ترجع إلى مشيئة عليا ، وإن كان ظاهر اللفظ أنه بلسانه اختار طريقه ، وإرادته سعى إلى إنظاره .

وهكذا يغمز القشيري بمن يحاولون نسبة الحرية للإنسان — مع أن الحرية وبال ونكال .
ويذكرنا هذا الموقف بقولة ابن مربي في (شجرة الكون) عند شرح « كن فيكون » أن في « كن » كل شيء ؛ في الكاف كمال الدين والكفر ، وفي النون النعمة والتقمة ... فاقه خالق كل شيء حين خاطب الكون : « كن »

(٢) في هذه الإشارة لفتة إلى مقصد بعيد : أن الوقوع في الذنب أمر قبيح ولكن الإصرار على الذنب أقبح . وهذا حث للمصاة على الإقلاع عن المعاصي ، وعدم اليأس من رحمة الله . وتطالعنا ساحة القشيري في هذا الخصوص في مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وكذلك أنظر باب « التوبة » في الرسالة .

إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ
بَعْدَ حِينٍ .

ما جئكم من حيث أنا^(١) ، ولا باختيارى ، وإنما أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ .

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعنى القرآن ، عظة لكم .

« وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » وَعُلِّمَ صِدْقُهُ بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّتْ شَرِيعَتُهُ ، فَإِنْ مِثْلَ ذَلِكَ
إِذَا كَانَ بَاطِلًا لَا يَدُومُ^(٢) .

(١) أى من طرفى أو من جهتى .

(٢) أى أن دوام الشريعة وخلودها من آيات صحتها وصدقها .

سورة الزمر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمة سماعها يوجب للقلوب شفاءها ، وللأرواح ضياءها ، وللأسرار سناءها وعلاها .

كلمة مَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة .
وَمَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ الْوَجْدَ ظَلَّتْ أَلْبَابُهُ مَبْهُورَةً ، وَأَسْرَارُهُ بِقَهْرِ الْكَشُوفَاتِ مَفْشُورَةٌ .

قوله جل ذكره : « تنزيل الكتاب من الله العزيز

الحكيم » .

أى هذا كتاب عزيز نزل من رب عزيز على عبد عزيز بلسان ملك عزيز فى شأن أمة عزيزة بأمر عزيز . وفى ورود الرسول به من الحبيب الأول نزهة لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، وارتياح عند قراءة فصولها .

وكتاب موسى فى الألواح التى كان منها يقرأ موسى ، وكتاب نبيينا صلى الله عليه وسلم نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى صلوات الله عليه . . وفصل بين من يكون كتاب ربه مكتوباً فى ألواح ، وبين من يكون خطاب ربه محفوظاً فى قلبه ، وكذلك أمته ، قال تعالى :
« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ^(١) » .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق

فاعبد الله مخلصاً له الدين » .

أى أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا نحيق فى إنزاله .

(١) آية ١٩ سورة المنكبر .

والعبادة الخالصة معاتقة الأمر على غاية الخشوع . وتكون بالنفس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص ، والتى بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص ، والتى بالروح فالإخلاص فيها التنقى عن طلب الاختصاص^(١) .

قوله جل ذكره : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

الدين الخالص ما تكون جملة لله ؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ فإنه إذا أمرَ العبدَ أن يحسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لما صحَّ أن يكونَ في العالمِ مُخْلِصٌ .

« والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . » أى الذين عبدوا الأصنام قالوا : « ما نعبدهم إِلَّا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولم يقولوا هذا من قبل الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فَرَدَّ اللهُ عليهم . وفى هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القربِ بنشاطِ نفسه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يعقد بينه وبين الله من عقود ثم لا يبنى بها . . فكل ذلك اتباعُ موسى ، قال تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا^(٢) » .

قوله جل ذكره : « إِنْ لِلَّهِ لَآ يَهْدِيَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ » .

لا تهديهم اليومَ لدينه ، ولا فى الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرض لغير مقامه ، ويدعى شيئاً ليس بصادق فيه ، فاللهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سدادُه ورُشدُه . وعقوبته أن يحرمه ذلك الشيء الذى تصدى له بدعواه قبل تحقُّقه بوجوده وذوقه .

(١) تصلح هذه الفقرة لتوضيح درجات العبادة ودرجات الإخلاص ، والآفات التى تلحق كل درجة منها ، وكيفية التنقى عن هذه الآفات -- وبمعنى آخر فإنها تهمنى عننا نبحث أصول ما أطلقنا عليه : علم النفس الصوفى .
(٢) آية ٢٧ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لا مصطفى
مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
الوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : للشيخ ابن الله ، وعزير ولد الله ؛ فقال :
لو أراد أن يتخذ ولداً للتبني والكرامة لاختار من الملائكة الذين هم منزّهون عن الأكل
والشرب وأوصاف الخلق .

ثم أخبر عن تقدسه عن ذلك فقال : « سبحانه هو الله الواحد القهار » تنزيهاً له عن اتخاذ
الأولاد . . لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نعمته ، ولا بالتبني لتقدسه عن الجنسية والحالات ،
وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ؛ إذ لو كان ذلك فكيف كان يكون حكمه ؟ كقوله
تعالى : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ^(١) » .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » .

أى خلقهما وهو مُحِقٌّ في خلقهما .

« يُكْوَرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » .

يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ، ويدخل النهار على الليل في الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلاف أحوال العبد في القبض والبسط ، والجمع والفرق ،
والأخذ والرد ، والصحو والشكر ، ونجوم العقل وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ونهار
التوحيد ، وليالي الشك والجحد ونهار الوصل ، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها ، وزيادتها
ونقصانها .

« أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

« العزيز » المتميز على المحيين ، « الغفار » المذنبين .

(١) آية ٢٢ سورة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى نُصْرَتُونَ » .

« من نفس واحدة وخلق منها زوجها » يعنى آدم وحواء .

« وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » أى خلق لكم ، « ثمانية أزواج » فمن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن اللواشى اثنين .

« يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ » : أى يصوركم ، ويركب أحوالكم .

« فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ » : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة^(١) . ذَكَرَهُمْ نَسَبَتَهُمْ ثَلَاثًا يُعْجَبُوا بِأَحْوَالِهِمْ .

ويقال يَبَيِّنُ آثارَ أفعاله الحكيمة في كيفية خَلْقَتِكِ — من قطرتين — أمشاجاً متشاكلة الأجزاء ، مختلفة الصور في الأعضاء ، سَخَّرَ بعضها تَحَالٌ للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة . . . وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسَخَّرَ بعضها تَحَالٌ للحواس كالسمع والبصر والشم وغيرها .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم الله بها علينا فَذَكَرْنَا بِهَا — والنفوسُ مُجْبُولَةٌ ، وكذلك القلوبُ على حُبٍّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا — استجلاباً لمحبتنا له .

« ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ . . . »^(٢) أى إن الذى أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربكم .

(١) هكذا في م وهي الصواب أما في ص فهي (البشيمة)

والظلمات الثلاث التي أوردتها القشيري على هذا النحو قالها ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال أبو عبيدة : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم (القرطبي ج ١٥ ص ٢٣٦) .

(٢) يبدو أن القشيري منذ هذه اللحظة وحتى الآية الكريمة التالية انتهت حادثة من حالات الذكر ، فجاءت كلماته أشبه بالتسبيح والنجوى .

أى : أنا خلقتكم وأنا رزقتكم فأحسن صوركم ، وأنا الذى أسبغت عليكم
إنعابى ، وخصيتكم بحملى إكرامى ، وأغرقكم فى بحار أفضالى ، وعرفتكم استحقاق جمالى
وجلالى ، وهديتهم إلى توحيدى ، وألزمتكم رعاية حدودى . . . فما لكم لا تنقطعون بالكلية
إلى ؟ ولا تهجون ما وعدتكم لدى ؟ وما لكم فى الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلى ؟

قوله جل ذكره : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم
ولا يرضى لعباده الكفروا إن تشكروا
يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر
أخرى » .

إن أعرضتم وأبیتم ، وفى جحودكم تماديتم . . . فما نفتقر إليكم ؛ إذ نحن أغنياء عنكم ،
ولكنى لا أرضى لكم أن تبقوا عنى !

يا مسكين . . . أنت إن لم تكن لى فأنا عنك غنى* ، وأنا إن لم أكن لك فمن تكون
أنت ؟ ومن يكون لك ؟ من الذى يُحسن إليك ؟ من الذى ينظر إليك ؟ من الذى يرحمك ؟
من الذى ينثر التراب على جراحك ؟

من الذى يهتم بشأنك ؟ بمن نسلو إذا بقيت عنى ؟ من الذى يبذلك رغيفاً بمثاقيل
ذهب ١٠٩ .

عبدى . . . أنا لا أرضى ألا تكون لى وأنت ترضى بالأن تكون لى ! يا قليل الوفاء ،
يا كثير التجنى !

إن أطمعتنى شكرتك ، وإن ذكرتنى ذكرتك ، وإن خطوت لأجلى خطوة ملأت
السموات والأرضين من شكرك :

لو علمنا أن الزيارة حق* لفرشنا الحدود أرضاً لترضى

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ
مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ
مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ
لِلَّهِ أُتْدَادًا » .

إِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ خَشَعَ وَخَضَعَ ، وَإِلَى قُرْبِهِ فَزَعَ ، وَتَمَلَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَضَرَّعَ . فَإِذَا أزال عنه
ضُرَّهُ ، وَكفاه أَمْرَهُ ، وَأَصْلَحَ شَغْلَهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أُتْدَادًا ، فَيَعُودُ
إِلَى رَأْسِ كُفْرَانِهِ ، وَيَنْهَمُكَ فِي كِبَائِرِ عَصِيَانِهِ ، وَيُشْرِكُ بِمَعْبُودِهِ . هَذِهِ صِفَتُهُ . . . فَسُحْقًا لَهُ
وَبُعْدًا ، وَلَسَوْفَ يَلْقَى عَذَابًا وَخِزْيًا .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً
رَبِّهِ ^(١) » .

« قَانِتًا » : الْقَنُوتُ هُوَ الْقِيَامُ ، وَقِيلَ طَوَّلَ الْقِيَامَ . وَالْمُرَادُ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِمَحَقُوقِ الطَّاعَةِ
أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَى فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ .

وَالْهَمِزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ أَى أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَمَنْ لَيْسَ بِقَانِتٍ ؟ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَالْكَافِرِ الَّذِي
جَرَى ذِكْرُهُ ؟ أَى لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَيُقَالُ الْقَنُوتُ الْقِيَامُ بِآدَابِ الْخِدْمَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ وَلَا تَقْصِيرٍ . « يَحْذَرُ »
الْعَذَابَ الْمَوْعُودَ فِي الْآخِرَةِ ، « وَيَرْجُو » الثَّوَابَ الْمَوْعُودَ . وَأَرَادَ بِالْحَذَرِ الْخَوْفَ .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا
الْأَلْبَابِ » .

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةِ عَطَاءَ : نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي مَيْمَانَ بْنِ مَعْقَانَ .

وَقَالَ مِقَاتِلٌ : نَزَلَتْ فِي عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ .

(أَسْبَابُ النُّزُولِ لِلرَّوَاهِطِيِّ ص ٢٤٧)

أى هل يستويان ؟ هذا فى أعلى الفضائل وهذا فى سوء الرذائل ! « الذين يعلمون » : العلمُ فى وصف الخلق على ضربين : محبوبٌ مُكتسبٌ للعبد ، وموهوبٌ من قِبَلِ الربِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمٌ برهانٍ وعلمٌ بيان ؛ فالعلومُ الدينية كلها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

أطيعوه واحذروا مخالفة أمره . « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا » بأداء الطاعات ، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان) ^(١) .

« وأرض الله واسعة » : أى لا تتعللوا بأذى الأعداء ؛ إِنْ نَبَأَ بِكُمْ مَنْزِلٌ فَتَعَلَّلْكُمْ بِمَعَادَةِ قَوْمٍ وَمَنْعِهِمْ إِلَاكُمْ — لَا يَسْمَعُ ، فَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، فَأَخْرَجُوا مِنْهَا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ تَمَّ لَكُمْ فِيهِ عِبَادَتُكُمْ ^(٢) .

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . والصبر حبسُ النفس على ما تكرهه . ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعيس .
ويقال هو التهدُّفُ ^(٣) لسهام البلاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » .

(١) تأخر ما بين قوسين فجاء بعد (السهم البلاء) فوضعتاه فى هذا المكان لأنه يوضح المقصود بتوضيح « أحسنوا » .

(٢) يقول القشيري فى إحدى وصاياه للمريدين سائلاً عن السفر : « إن ابتلى مرید بجاه أو معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو استقامة إلى معلوم وليس هناك شيخ يدلّه على ما به يتخلص من ذلك فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ليشوش على نفسه تلك الحالة » (الرسالة ص ٢٠٢) .
(٣) التهدف = الدنو والاستقبال .

مضى القول في معنى الإخلاص . وفي الخبر : إن الله يقول : « الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِهِ »^(١) .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُهُ الشيطان ، ولا يَطْلُعُ عليه المَلَكُ .
« أَمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. » أَمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِي وَفِي شَرَعِي . وَالْإِسْلَامُ
الْإِقْبَادُ لِلَّهِ بِكُلِّ وَجْهِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

أَخَافُ أَصْنَافَ الْعَذَابِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

قوله جل ذكره : « قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي *
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنْ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ
الْبَئِينُ » .

هذا غاية الزجر والتهديد ، ثم بَيَّنَّ أَنَّ ذَلِكَ غَايَةُ الْخُسْرَانِ ، وَهُوَ الْخُرْبَى وَالْهَوَانُ . وَالْخَاسِرُ
— عَلَى الْحَقِيقَةِ — مَنْ خَسِرَ دُنْيَاهُ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى ، وَخَسِرَ عُقْبَاهُ بِارْتِكَابِهِ مَا أَرَبُ عَنْهُ نَهْيُ ،
وَوَسْوَسَ مَوْلَاهُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ مِنْهُ فِيمَا رَأَى .

قوله جل ذكره : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ
تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ
يَا عِبَادِ قَاتِلُوا أَنْفُسَكُمْ » .

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ؛ فَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَلَا يَفْتُرُونَ عَنْهَا . كَمَا أَنَّهُمْ الْيَوْمَ فِي جَهَنَّمَ

(١) أَخْبَرَنَا النَّاسِخُ فِي مَنْ إِذْ جَعَلَهَا (مُتَر) بِالنَّاءِ وَالْعَوَابِ هِيَ (سِر) ، وَتَه وَرَدَ الْخَبَرُ فِي الرِّسَالَةِ مَكْلُودًا :
أَخْبَرَ النَّبِيَّ (ص) عَنْ جِبْرِيلَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَنَّهُ قَالَ : « الْإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتَهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتَهُ مِنْ عِبَادِي »
(الرِّسَالَةُ ص ١٠٤) .

عقائدهم ؛ يستديم حجابهم ، ولا يتقطع عنهم عقابهم^(١) .
 « ذلك يخوف الله به عباده ... » إن خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلا فبين
 يدك عقبة كئود .

قوله جل ذكره : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن
 يعبدوها^(٢) وأنا بوا إلى الله لهم البشري »
 طاغوت كل إنسان نفسه ؛ وإنما يجتنب الطاغوت مَنْ خالف هواه ، وعانق رضا مولاه .
 وعبادة النفس بموافقة الهوى — وقيل مَنْ لا يعبد هواه ، ويجتنب حديث النفس .
 « وأنا بوا إلى الله » : أى رجعوا إليه فى كل شىء .

قوله جل ذكره : « فَبَشِّرْ عِبَادِ^(٣) * الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ
 الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَبَابِ » .
 « يستمعون القول » يقتضى أن يكون الاستماع لكل شىء ، ولكن الاتباع يكون
 للأحسن . « أحسنه » : وفيه قولان ؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحسن ولا تكون الميزة للمبالغة ،
 كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أَى عزز . والثانى : الأحسن على المبالغة ، والحسن ما كان مأذوناً فيه فى
 صفة الخلق ويعلم ذلك بشهادة العلم^(٤) ، والأحسن هو الأولى والأصوب . ويقال الأحسن
 ما كان لله دون غيره ، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له . ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع
 إلا بالله .

(١) إن استيلاء الحب على قلب الصوفى يجعله ينظر إلى العقوبة فى الآخرة على أنها أقل تعذيباً إذا قيست بمذاب
 الهجر والنأى ، أو على حد تعبيرهم سجنهم الاحتراق أخف من جهنم الفراق ولم فى ذلك أقوال جريئة كثيرة
 (انظر كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف ص ٢٤٨) .
 (٢) قال ابن زيد : نزلت هذه الآية فى ثلاثة أنفار كانوا فى الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، وهم
 زيد بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى (الواحدى ص ٢٤٧) .
 (٣) نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص وكان استماعهم
 لأب بكر وهو يخبرهم بإيمانه (الواحدى ص ٢٤٧، ٢٤٨) .
 (٤) استخدم القشيري هذا المفهوم فى تأييد وترخيص «الساج» بالمعنى الصوفى (الرسالة ص ١٦٦) .

ويقال إن للعبد دواعي من باطنه هي هواجس النفس ووساوس الشيطان وخواطر الملك وخطاب الحق يلتقي في الرّوع ؛ فوساوس الشيطان تدعو إلى المعاصي ، وهواجس النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النفس وأن لها في شيء نصيباً ، وخواطر الملك تدعو إلى الطاعات والقرب ، وخطاب الحق في حقائق التوحيد .

« أولئك الذين هدام الله وأولئك هم أولو الألباب » : —

أولئك الذين هدام الله لتوحيده ، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة^(١) .

قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ

تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » ؟

الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب فريقان : فريق حَقَّتْ عليهم كلمة بعذابهم في النار ، وفريق حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب بالحجاب اليوم ، فهم اليوم لا يخرجون عن حجاب قلوبهم ، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان — وإن كانوا من أهل الإيمان^(٢) .

قوله جل ذكره : « لَسَكُنَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يُغْرَفْ

مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَافُ اللَّهُ

الْمِيْعَادُ » .

وَعَدَّ الْمُطِيعِينَ بِالْجَنَّةِ — وَلَا مُحَالَةَ لَا يُخْلِفُ ، وَعَدَّ التَّائِبِينَ بِالْمَغْفِرَةِ —

وَلَا مُحَالَةَ يَنْفِرُ لَهُمْ ، وَعَدَّ الْمُرِيدِينَ بِالْوُجُودِ وَالْوُصُولِ — وَإِذَا لَمْ تَقَعْ لَهُمْ فِتْرَةٌ فَلَا مُحَالَةَ مُصَدِّقٌ وَعَدَّهُ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) (عقولهم غير معقولة) أى غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتصحيح الإيمان ، فهذه هي المهمة الأساسية للعقل في نظر المصنف — كما نوهنا بذلك . وربما كانت في الأصل (مقفولة) فيها أيضاً يستقيم المعنى .

(٢) نعلم أن كثيرين في أوساط أهل السنّة يمارضون العديد من مسائل التصوف ، ومن أمثالهم ابن تيمية وابن الجوزي .

فَسَلَكَهُ بِنَائِجَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ
زَرَئًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا
ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا
لِلأُولَى الْأَلْبَابِ .

أخبر أنه يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِلطَّرَفِ فَيُخْرِجُ بِهِ الزَّرْعَ فَيَخْضَرُ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي الْجَنَافِ ، ثُمَّ يَصِيرُ
هَشِيئًا وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا إِلَى الْإِنْسَانِ ، يَكُونُ حَقْلًا ثُمَّ شَابًا ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا ثُمَّ يَصِيرُ
إِلَى أَرْضِ الْعَمْرِ ثُمَّ فِي آخِرِهِ يَحْتَرَمُ .

وَيَقَالُ إِنَّ الزَّرْعَ مَا لَمْ يَأْخُذْ فِي الْجَنَافِ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ الْحَبُّ ، فَالْحَبُّ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ . .
كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْ نَفْسِهِ وَصُولٌ لَا يَكُونُ لَهُ قَدَرٌ وَلَا قِيَمَةٌ .

وَيَقَالُ إِنَّ كَوْنََ الْمُؤْمِنِ بِقُوَّةِ عَقْلِهِ يَوْجِبُ اسْتِفَادَةً لَهُ بِعِلْمِهِ إِلَى أَنْ يَبْدُوَ مِنْهُ كَلٌّ يُمْكِنُ
مِنْ أَنْوَارِ بَصِيرَتِهِ ، ثُمَّ إِذَا بَدَتْ لَأْمَحَةٌ مِنْ سُلْطَانِ الْمَعَارِفِ تَصِيرُ تِلْكَ الْأَنْوَارُ مَغْمُورَةً . فَإِذَا
بَدَتْ أَنْوَارُ التَّوْحِيدِ اسْتَهْلَكَتْ تِلْكَ الْجِلَّةُ ، قَالُوا :

فَلَمَّا اسْتَبَانَ الصَّبْحُ أَدْرَجَ^(١) ضَوْؤُهُ

بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارَ تِلْكَ السُّكَاكِبِ

قوله جل ذكره : « أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

جوابُ هذا الخطابِ مخوفٌ أَيُّ أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ كُنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟
لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ سُئِلَ الرَّسُولُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — عَنِ الشَّرْحِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ،
قَالَ : « ذَلِكَ نُورٌ يَقْدَفُ فِي الْقَلْبِ ، قَصِيلٌ : وَهَلْ لَكَ أَمَارَةٌ ؟ »

(١) أَدْرَجَ الشَّيْءَ أَيَّ أَفْنَاهُ (الْوَسِيطُ) . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَنْوَارَ مَصَابِيحِ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ تَتَلَاشَى وَتَفْتَقِرُ عِنْدَ
سَطْوَةِ شَمْسِ الْحَقِيقَةِ . وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ص ٤٢ مِنَ الرِّسَالَةِ (أَدْرَكَ) وَالْمَصْرُوبُ فِي نَظَرِنَا (أَدْرَجَ) .

قال : نعم ؛ التجافى عن دار الفرور والإقامة إلى دار الخلود ، والاستعداد للهوت قبل نزوله^(١) .

والنور الذى من قبلك — سبحانه — نورُ اللوائح بنجوم العلم ، ثم نورُ اللوامع ببيان الغم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ للكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نورُ المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بمقتضى التوحيد . . . وعند ذلك فلا وجد ولا قد^(٢) ، ولا قرب^(٣) ولا بُعد . . . كلاً بل هو الله الواحد القهار^(٤) .

« فويل للأسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين »^(٥) : أى الصلبة قلوبهم ، لم تفرعها خواطر التعريف فبقيت على فكرة الجحد . . أولئك فى الضلالة الباقية ، والجهالة البائسة . .

قوله جل ذكره : « الله نزل أحسن الحديث »^(٦)

كتاباً متشابهاً مثاني تشعير منه جلود
الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم
وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك مهدى الله

(١) أورد الفزالي هذا الخبر فى مقدمه ، وشرح مهمة هذا النور بأنه الذى يُطلب منه الكشف ، وأنه ينبجس من النور الإلهى (المنقذ من الضلال ط القاهرة ص ٢٥٥) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ض (تصد) بالصاد وهى خطأ فى النسخ ، فالوجد يقابله الفقد .

(٣) فى ص (ولا فرق) والصواب أن تكون (ولا قرب) لتقابل (ولا بُعد) لأنه لو قال (ولا فرق) لكان قد قال (ولا جمع) مع أن الموقف هنا موقف (جمع) .. والمقصود اختفاء تقلبات التلوين ، والوصول إلى مرتبة التمكن ، أى الوصول إلى حال (جمع الجميع) .

(٤) تفيد هذه الفقرة فى فهم كثير من المصطلحات ، وهذه أول مرة تصادف للقشيري عبارة (بظهور الذات) لأنه فى مواضع كثيرة يلح على أن المشاهدة (الصفات كالجمال أو الجلال أو ... الخ) أما (الذات) فقد جلست الصمدية — كما يقول — من أن يستشرف منها مخلوق .

(٥) نزلت فى أبي لب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله . (الواحدى ص ٢٤٨) واختار الطبرى القول بأن (من) فى الآية بمعنى (من) أى قست قلوبهم عن ذكر الله .

(٦) قال سيد بن أبي وقاص : قال أصحاب رسول الله (ص) : لو سجدت لنا . . فانزل الله عز وجل « الله نزل أحسن الحديث » فقالوا : لو قصصت علينا . . فنزل ونحن نقص عليك أحسن القصص .

يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

« أحسن الحديث » لأنه غير مخلوق^(١)

« كتابا متشابها » في الإعجاز والبلاغة .

« مثاني » : يثنى فيها الحكم ولا يُملَّ بتكرار القراءة ، ويشتمل على نوعين :

الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » إذا سمعوا آيات الوعيد .

« ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ، ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأنس ،

ويقال بالتجلى والاستتار^(٢) .

قوله جل ذكره : « أفمن يلقى بوجهه سوء العذاب

يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم

تكسبون » .

أى فمن يلقى بوجهه سوء العذاب كمن ليس كذلك ؟ وقيل إن الكافر يلقى

النار أول ما يلقاها بوجهه ؛ لأنه يُرمى فيها منكوساً . فأباً المؤمنين فيوق ذلك ؛ وإنما

يلقى النضرة والسرور والكرامة ؛ فوجهه ضاحكٌ مُسَبِّحٌ .

قوله جل ذكره : « كذب الذين من قبلهم فأتاهم

العذاب من حيث لا يشعرون » .

(١) سُمِّيَ القرآن حديثاً لأن الرسول (ص) كان يُحدِّث به أصحابه وقومه ، وهو كقولهِ : « فبأى

حديث بعده يؤمنون » وقوله : « أقسمين هذا الحديث تعجبون » ويخطئ أهل السنة من يستند في أن القرآن

مخلوق إلى أن « الحديث » من الحديث بالكلام مُحَدَّثٌ فقالوا : الحديث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، كالذكر

مع المذكر إذا ذكرنا أسماء الله وصفاته الحسنى .

(٢) يستفيد الصوفية من هذه الآية في تدعيم نظريتهم في « السماع » والنأثرات النفسية والعضوية الناجمة عن

تقلب الأحوال .

أشدُّ العذابِ ما يكونُ بفتنةً ، كما أنَّ أتمَّ السرورِ ما يكونُ قلتهُ .
ومن المجرانِ والفراقِ ما يكونُ بفتنةٍ غيرِ متوقعٍ ، وهو أنكى للفؤادِ وأشدُّ وأوجعُ
تأثيراً في القلبِ ، وفي معناه قلنا :

فَبِتَّ بِخَيْرٍ وَالذَّنَى مَطْمَئِنَةٌ
وَأَصْبَحْتَ يَوْمًا وَالزَّمَانُ تَقَلَّبًا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكونُ فجأةً ، قال قائلهم :
بينما خاطر المني بالتلاقى ساجح في فؤاده وفؤادى
جمع الله بيننا فالتقينا هكذا صدقةً بلا ميعادٍ
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
* قَرَأْنَا عَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » .

أى أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .
« غير ذى عوج » : فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه .
قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

مَثَلُ الْكَافِرِ وَمَعْبُودِيهِ يَعْبُدُ اشْتَرَكٍ فِيهِ مُتَشَاكِعُونَ .
« فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » : فالصنم يدعى فيه قومٌ وقوم آخرون ؛ فهذا بقول :
أنا صنعتُهُ ، وذلك يقول : أنا استعملتُهُ ، وثالث يقول : أنا عبدتُهُ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يُشَبَّه « عَبْدًا سَلَمًا لِرَجُلٍ » أَيْ ذَا سَلَامَةٍ
مِنَ التَّنَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ .

وَيُقَالُ « رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مَتَشَاكِسُونَ » تَتَجَاذَبُهُ أَشْغَالُ الدُّنْيَا ، شُغْلُ الْوَالِدِ وَشُغْلُ
الْعِيَالِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْخَوَاطِرِ الْمُشْتَتَةِ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ نَصِيبٌ ؛ وَلَا لِلدُّنْيَا مَعَهُ سَبَبٌ إِذْ لَيْسَ مِنْهَا
شَيْءٌ ، وَلَا لِلرِّضْوَانِ مَعَهُ شُغْلٌ ^(١) ، إِذْ لَيْسَ لَهُ طَاعَاتٌ يُدِلُّ بِهَا ، وَقَلَى الْجُمْلَةِ فَهُوَ
خَالِصٌ لِلَّهِ ، قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى : « وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » ^(٢) أَيْ أَبْقَيْتُكَ لِي حَتَّى
لَا تَصِلِحَ لغيري .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » : الثَّنَاءُ لَهُ ، وَهُوَ مُسْتَحَقٌّ لَصِفَاتِ الْجَلَالِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ »

نَمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
تُخْتَصِمُونَ .

نَعَاهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — إِلَيْهِ . وَنَعَى الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ فَتَزَمُّعُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ
مَآئِهِمْ ^(٣) ، وَلَا تَعَزَّيْةٌ فِي الْعَادَةِ بَعْدَ ثَلَاثٍ . وَمَنْ لَمْ يَتَفَرَّغْ مِنْ مَآئِمِ نَفْسِهِ وَأَنْوَاعِ
هُومِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ^(٤) شَيْءٌ ، فَإِذَا فَرَّغَ قَلْبُهُ مِنْ حَدِيثِ نَفْسِهِ ، وَعَنِ
الْبُكُونِ بِجَمَلَتِهِ فَيَنْشِئُ يَجِدُ الْخَيْرَ مِنْ رَبِّهِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَّا بَعْدَ فَنَائِهِمْ عَنْهُمْ ،
وَأَنْشُدْ بَعْضَهُمْ :

(١) لَقِيتُ الْجَنَّةَ مِنْ كِبَارِ الشُّيُوخِ مُوَاقِفَ لَا يَخْلُو التَّعْيِيرَ عَنْهَا — عِنْدَ مَنْ لَا يَفْقَهُونَهَا — الْكَثِيرَ مِنَ الْأَسْتَفْرَابِ ،
مِنْ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِيُّ : مَا الْجَنَّةُ إِلَّا لَعِبَةٌ صَبِيحَانٍ ! وَيَقُولُ : الْجَنَّةُ هِيَ الْحَوَابِ الْأَكْبَرُ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ
سَكَنُوا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَكُلُّ مَنْ سَكَنَ إِلَى الْجَنَّةِ سَكَنَ إِلَى سَوَاءٍ فَهُوَ مُحِبُّوبٌ .

(٢) آيَةُ ٤١ سُورَةِ طه .

(٣) هَكَذَا فِي ضَوْءٍ وَهِيَ مَقْبُولَةٌ لِتَنَاسُبِ الْخُصُومَةِ الَّتِي سَيَتَرْتَبُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ الْإِخْتِصَامُ .

(٤) يَقْصِدُ حَدِيثَ الْفَنَاءِ عَنْ كُلِّ أَرَبٍ وَسَبِيبٍ ، أَيْ الْفَنَاءَ بِالنَّمَى الصَّوْقِ .

كتابي إليكم بعد موتى بليلة

ولم أدر أنى بعد موتى أكتب

قوله جل ذكره : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى

اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعى وجودَ أشياء لم يَدُقْ شيئاً منها ،

قال تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ »^(١) .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأما المُدَّعى الذى لم يَبْلُغْ ما يدَّعيه فليس يكذب على

ربه إنما يكذب على نفسه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَدُقْها ولم يَحْدِثْها ، فأما غيرُ المتحقق الذى

يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذى يقول فى صفة الحقِّ — سبحانه — ما يتقدَّسُ

ويتعالى عنه^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » لم ما يشاءون عند

ربِّهم ذلك جزاء للمُحْسِنِينَ » .

الذى جاء بالصدق فى أفعاله من حيث الإخلاص ، وفى أحواله من حيث الصدق ،

وفى أسرارهِ من حيث الحقيقة .

« ذلك جزاء المحسنين » : الإحسان — كما جاء فى الخبر — أن تعبد الله كأنك تراه .

فَمَنْ كَانَتْ — اليومَ — مشاهدته على الدوام كآلة رؤيته غداً على الدوام ، وَمَنْ لَا قَلْبَ^(٣) .

(١) آية ٦٠ من هذه السورة .

(٢) وإلى أمثال هؤلاء أشار القشيري فى مسهل رسالته قائلاً : « .. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء الأفعال ، حتى أشاروا إلى أهل الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا عن رقة الإغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو ، وأنهم كوشقوا بأسرار الأسماء وزالت عنهم أحكام البشرية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا » الرسالة ج ٣ .

(٣) روى مسلم عن جابر « بحث كل عبد على مامات عليه » ٤٥٧/٦ فى نفس القدير للمناوى « ومن كان بحالة لى الله عليها » .

قوله جل ذكره : « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

من لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة . ومن كان معه إيمان : فإذا كفر عنه
أسوأ ما عمله فأسوأ أعماله كباثره ؛ فإن غفرت يجزى بهم بأحسن أعمالهم . وأحسن أعمال
المؤمن الإيمان والمعرفة ، فإن كان الإيمان مؤقتاً كان ثوابه مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على
الدوام فثوابه على الدوام . ثم أحسن الأعمال عليها أحسن الثواب ، وأحسن الثواب الرؤية
فيجب أن تكون على الدوام^(١) — وهذا استدلال قوی .

قوله جل ذكره : « أليس الله بكاف عبده . . » .

استفهام والمراد منه التقرير ؛ فالله كاف عبده اليوم في عرفانه بتصحيح إيمانه ومنع
الشرك عنه ، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه ، وما بينهما فكفايته تامة وسلامته طامة .

قوله جل ذكره : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ
بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

قرّر عليهم علو صفاته ، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرّوا بذلك ، ثم طالبهم بذكر
صفات الأصنام التي عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية ، والبعد عن الحياة
والعالم والقدرة والتمسك من الخلق ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهلا
استحييتهم من إطلاق أمثال ذلك في صفته ؟ .

(١) « فيجب أن تكون الرؤية على الدوام » نلاحظ إلحاح التفسير على هذا الرأي في خاتمة تفسيره للآية السابقة
وفي هذه الآية ، ولهذا الرأي أهميته في مسألتين : خلود الجنة والرؤية .. مسألتان كان حولهما جدل كثير
أشرنا إلى بعضه في تعليقات سابقة .

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللَّهُ ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافيَّ الله المتفرِّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، للتَّفَضُّلِ علىِّ بما يشاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا قومِ اعملوا على مكانتكم إني

عاملٌ فسوف تعلمون * مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ

يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ »

سوف ينكشف ربُّنا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا وتقصانكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُعَذِّبُكُمْ فلا شفيحَ لكم ، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريحَ لكم .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ

بِالْحَقِّ قَمِينَ اهْتَدَى فَلَئِنْ نَفْسِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَفْضِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ . »

مَنْ أَحْسَنُ فإِحْسَانُهُ إِلَى نَفْسِهِ اكَتْسَبَهُ^(١) ، وَمَنْ أَسَاءَ فَبِلَاؤِهِ عَلَى نَفْسِهِ جَلَبَهُ - وَالْحَقُّ غَنَى^٢ عَنِ التَّجَمُّلِ بِطَاعَةِ مَنْ أَقْبَلَ وَالتَّنْقِصِ بِزَلَّةٍ مَنْ أَعْرَضَ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ . »

يقبض الأرواح^(٢) حين موتها ، والتي لم تَمُتْ من النفوس في حال نومها ، فإذا نامت

(١) (اكتسبه) موجودة في م وسقطت في ص .

(٢) واضح هنا أن القشيري لا يكاد يميز بين (النفس) و (الروح) مع أنه في الرسالة ص ٤٨ يميز بينهما فيقول (يحتل أن تكون النفس لطيفة مودعة في القالب) = البدن وهي محل الأخلاق المعلولة (موجودة في الرسالة خطأ المعلومة) كما أن الروح لطيفة في القالب هي محل الأخلاق المحمودة.. والجميع إنسان واحد ، وكونهما بصفة =

فيقبض أرواحها^(١) . وقبضُ الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح ، ويخلق بَدَلَ الاستشمارِ والعِلْمِ الغفلةَ والغيبةَ في مَحَالِّ الإحساس والإدراك . ثم إذا قبضَ الأرواح عند الموت خَلَقَ في الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة ، والموتُ ينافي الإحساس والعلم . وإذا رَدَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ في محل الاستشمار فيصير الإنسان متيقظاً ، وقبضُ الله الأرواحَ في حال النوم ووردت به الأخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإنَّ روحاً تُقبضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات . « والله أعلم » .

قوله جل ذكره : « أم اتخذوا من دون الله شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يُنْقِلُونَ » .

أى أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار - فإنَّ الله تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إِلَّا إذا أُذِنَ بها ، وإنَّ الذي يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره : « وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزَّتْ قلوبُ »

= اللطافة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة ثم يعود بمقتل متحدثاً عن الروح فيقول : الأرواح تختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة فمنهم من يقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة في القلب (اللطائف ٣ ص ٣٩٧) .

وفي تقديرنا أن المسألة ذات جانبين : فإذا نظرنا إلى الموضوع خارج دائرة التصوف فالروح والنفس بمعنى واحد متصل بالحياة ، وقبضهما معناه موت البدن بدليل ما ورد عن الرسول (ص) ، فهو مرة يقول (كما في حديث أم سلمة) : دخل رسول الله (ص) على أبي سلمة وقد شق (= انفتح) بصره فأغضه ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » وفي مرة أخرى يقول (ص) في حديث صحيح أخرجه ابن ماجه : « تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخبرني أيها النفس الطيبة » وفي صحيح مسلم : قال « ص » : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها » .

أما الجانب الآخر للمسألة فهو كونهما مصطلحين صوفيين ؛ فالنفس محل المملولات والروح محل المحمودات .. وذلك ركن هام في مذهب القشيري لم يتخل عنه في كتاب من كتبه ، كما هو مذهب كثيرين من المتصوفة . (١) قبض الروح عند النوم معناه تزيقها (الرسالة ص ٤٨) .

الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ

الذين من دونه إذا هم يستبشرون .

اشمأزت قلوب الذين جحدوا ولم تسكن نفوسهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين من

دونه استأنسوا إلى سماعه : —

« قل اللهم فاطر السموات والأرض

عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين

عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

عَلَّمَهُ — صلى الله عليه وسلم — كيف يثنى عليه — سبحانه^(١) .

وتشتمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبئ من التنصّل والتذلل ، وابتغاء العفو

والفضل ، وتحقيق الالتجاء بحسن التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال :

« ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً

ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب

يوم القيامة .

لافتدوا به .. ولكن لا يُقبل منهم ، واليوم لو تصدقوا بمثل ذرة لقبل منهم . كما أنهم

لو بكوا في الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم ، ولكنهم بدمعة واحدة — اليوم — يُمْتَحَنُ

الكثير من دواوينهم .

قوله جل ذكره : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا

يَحْتَسِبُونَ » .

في سماع هذه الآية حرّات لأصحاب الانتباه .

(١) في صحيح مسلم : أن عائشة سئلت بأى شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من

الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ،

... يختلفون » ، إلهي لما اختلف فيه من الحق يا ذاك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

وقال سعيد بن جبير : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : « قل

اللهم فاطر يختلفون » .

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤمَرُ بهم إلى النار [فإذا وافوها بقول لهم مالك : مَنْ أَنْتُمْ ؟ إن الذين جاءوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوههم كانت مُسْوَدَّةً ، وعيونهم ^(١)] كانت مُزْرَقَةً . . . وأنتم لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » ^(٢) .

« وبدا لهم سيئات ما كَسَبُوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

حق بهم وبال استهزائهم وجزاء مَكْرِهِم .

قوله جل ذكره : « فإذا مَسَّ الإنسانَ ضَرْبٌ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

في حال الضَرْبِ يَتَبَرَّءُونَ من الاستحقاق والحوْلِ والقُوَّةِ ، فإذا كَشَفَ عنهم البلاء وقعوا في مغاليطهم ، وقالوا : إِنَّمَا أُوتِينَا هَذَا بِاسْتِحْقَاقٍ مِنَّا ، قال تعالى : « بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّمَا يَكْمُرُ بِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُذْهِقُوا غُلَامًا خَوَّلْتُمُوهُمُ إِنَّمَا يَحْمِلُونَهُمْ إِنْ أُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَئِنْ أُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَتَأْتِيَ حُمُومًا كَاتِبَةً » .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(١) ما بين القوسين مستدرك في هامش الورقة ٤٩٦ من النسخة من
(٢) عن مجاهد قال : إنهم عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات .
وقيل عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا .
أما التفسير فيصرفها إلى المؤمنين العصاة ، وواضح أنه يميز بين حالة ورودهم إلى النار ، وورود الكفار ،
فهؤلاء على التأييد وأولئك إلى حين .

أولم يروا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق : فَمِنْ مُوسِعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمِنْ مُضَيِّقٍ عَلَيْهِ ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ عَمَّا خُصَّ بِهِ مِنَ التَّقْلِيلِ أَوِ التَّكْثِيرِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (١)

التسمية « بياعبادي » مذح^(٢) ، والوصف بأنهم « أسرفوا » ذم . فلما قال :

« يا عبادي » طمع الطمعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية ، فرفضوا رموسهم ، ونكس

العصاة رموسهم وقالوا : مَنْ نَحْنُ . . حتى يقول لنا هذا ؟

قال تعالى : « الَّذِينَ أَسْرَفُوا » فانقلب الحال ؛ فهؤلاء الذين نكسوا رموسهم انتعشوا

وزالت ذلتهم ، والذين رفعوا رموسهم ألقوا وزالت صولاتهم^(٣) .

ثم أزال الأعجوبة عن القصة بما قوى رجاءهم بقوله : « على أنفسهم » يعني إن أسرفت

فلي نفسك أسرفت .

« لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » : بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عنا .

« إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » الألف واللام في « الذنوب » للاستغراق والعموم ،

والذنوب جمع ذنب ، وجاءت « جميعا » للتأكيد ؛ فكأنه قال : أَعْفِرُ وَلَا أَتُوكِ ،

وَأَعْفُو وَلَا أَبْقِي .

(١) أورد الواحدي في أسباب النزول عدة أقوال بشأن من نزلت فيه هذه الآية للكرامة ، ومن هذه الروايات :

من ابن عباس قال : نزلت في أهل مكة حين قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله .

وقال ابن عمر : نزلت في عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا

وعذبوا فتركوا دينهم .

ويروى أنها نزلت في وحشي قاتل حمزة . (الواحدي ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

(٢) يقول الدقاق : ليس شيء أشرف من العبودية ، وقد سمي بها الحق نبيه (ص) فقال : سبحان الذي أسرى

بعبه ، وقال : فالوحي إل عبده ما أوحى - ولو كان اسم أجل من العبودية لسماه به . (الرسالة ص ١٠٠) .

(٣) راجع ما قاله القشيري في قصة داود : (إن زلّة أسفك عليها يوسلك إل ربك أجدي عليك من طاعة

إعجابك بها يقصيك عن ربك) . ويقول مل بن أبي طالب : ما في القرآن أوسع من هذه الآية . ويقول عبد الله

ابن عمر : هذه أرجى آية في القرآن .

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة^(١).

قوله جل ذكره : « وأنبئوا إلى ربكم وأسلّموا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لاتنصرون » .

الإنباء الرجوع بالكلية . وقيل الفرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة ، وصاحب الإنابة يرجع استحياء لكرمه^(٢) .

« وأسلّموا له » : وأخلصوا في طاعتكم ، والإسلام — الذي هو بعد الإنابة — أن يعلم أن نجاته بفضل لا بإنابته ؛ بفضل يصل إلى إنابته . لا بإنابته يصل إلى فضله .

« من قبل أن يأتكم العذاب » قبل الفراق . ويقال هو أن يفوته وقت الرجوع بشهود الناس ثم لا ينصرف عن ذلك .

قوله جل ذكره : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السّافرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرامة فأكون من المحسنين » .

يقال هذا في أقوام يرون أمثالهم تقدموا عليهم في أحوالهم ، فيتذكرون ما سلف من تقصيرهم ، ويرون ما وفق إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة .

(١) واضح أن القشيري يحاول بطرق شتى أن يفتح كل أبواب الأمل أمام اليائسين ، فمهما كانت الذنوب كثيرة فمفوء الله أكبر وأشمل ، وبدا أن النص القرآني يحتمل كل المحاولات التي يبذلها القشيري بسماحته الصوفية الأصيلة .

(٢) ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله في هذا الخصوص : « أرها توبة وأوسطها إنابة وآخرها أوبة » . ثم يطلق على ذلك قائلا : فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر — لا لرغبة في ثواب أو رهبة من عقاب — فهو صاحب أوبة . ويقال التوبة صفة المؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون) . والإنابة صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منيب) ، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (نعم العبد إنه أواب) الرسالة ص ٥٥ .

أو يقول : لو أن الله هداني لكنتُ كذا ، ويقول آخر : لو أن لي كربةً فأكون
كذا ، فيقول الحق — سبحانه :

« بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها
واستكبرت وكنت من الكافرين » .

فَذُقْ مِنَ الْعَذَابِ مَا عَلَى جُرْمِكَ اسْتَوْجِبْتَ .

قوله جل ذكره : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا
على الله وجوههم مسودةً أليس في
جهنم مثوىً للمتكبرين » .

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يصدِّقوا فيها ، وأظهروا الحجة لله ولم يتحققوا بها ،
وكفاهم اقتضاحاً بذلك ! وأنشدوا :

وَلَمَّا ادَّعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ كَذَبَتْنِي

فَالْيَ أَرَى الْأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا ١٤

فَا الْحُبُّ حَتَّى تَنْزِفَ الْعَيْنَ بِالْبُكَ

وَتُخْرَسَ حَتَّى لَا تَجِيبَ الْمُنَادِيَا^(١)

قوله جل ذكره : « وَيُعْجِبُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ
لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

كما وقَّاهم — اليوم — عن المخالقات ، حمَّاهم — غداً — من العقوبات ، فالتقون فازوا
بسعادة الدارين ؛ اليوم عصمة ، وغداً نعمة . اليوم عناية وغداً حماية وكفاية .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » .

(١) ورد الشاهد الشعري في الرسالة ص ١٦٠ هكذا : البيت الأول مطابق ، والثاني هكذا ومتبوعاً بثالث :-
فَا الْحُبُّ حَتَّى يَلْصُقَ لِلْقَلْبِ بِالْحُشَا وَتَذِلُّ حَتَّى لَا تَجِيبَ الْمُنَادِيَا
وَتُنْعَلُ حَتَّى لَا يَبْقَى لَكَ الْهَوَى سِوَى مَقْلَةٍ تَهْكِي بِهَا وَتُنَاجِيَا
وقد أورده صاحب المعجم على هذا النحو (المعجم ص ٢٢١) .

تدخل أ كسابُ العباد في هذه الجملة ، ولا يدخل كلامه فيه ؛ لأن الخطاب لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته^(١) .

قوله جل ذكره : « له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمراد منه أنه قادر على جميع المقدورات ، فما يريد أن يوحده أو جدّه .

قوله جل ذكره : « قل أغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون » .

أى متى يكون لكم طمع في أن أعبد غيره . . . وبتوحيد رباني ، وبتفريده غدائي ، وبشراب حبه سقائي ؟^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولقد أوجى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » .

لئن لاحظت غيري ، وأثبتت معي في الإبداع سواي أحببت عملك ، وأبطلت سميتك ، بل الله — يا محمد — فاعبد ، وكُن من جملة عبادي الشاكرين .

قوله جل ذكره : « وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ والأرضُ جميعاً قبضته يومَ القيامةِ والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يُشركون » .

(١) هذه إشارة خطيرة في شأن الموضوعات الكلامية المحصلة بالفعل الإنساني ، وبمسألة خلق القرآن (أنظر كتابنا : الإمام القشيري : تصوفه وأدبه ط مؤسسة الحلبي للنشر) .

(٢) هذه هي الترية التي عناها القشيري في موضع سابق حين قال : « ليس الاعتبار بالتربة بل بالتربة » .

ما عرفوه حَقَّ معرفته^(١) ، وما وصفوه حَقَّ وصفه ، وما عظموه حَقَّ تعظيمه ؛ فَمَنْ اتصف
بتمثيل ، أو جَنَحَ إلى تعطيل^(٢) - حَادَّ عن السُّنَّةِ الشُّلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى . وصفوا
الحقَّ بالأعضاء ، وتَوَهَّمُوا في نَعْتِهِ الأجزاء ، فاقْدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ ؛ فَاتَّخَذُوا في قبضة قدرته ،
والسَّمَوَاتِ مطويات يمينته ، ويمينه قُدْرَتُهُ^(٣) . ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السَّمَوَاتِ ويطويها فهو
قادر على ذلك .

« سبحانه وتعالى » تزيها له عما أشركوا في وصفه .

قوله جل ذكره : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَلَإِ هُمْ
يَنْظُرُونَ » .

في النفخة الأولى تموتون ، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُونَ ، والنفختان متجانستان ؛
ولكنه يخلق عند إحداها إزهاق الأرواح ، وفي الأخرى حياة النفوس ؛ لِيُعْلَمَ أن النفخة
لا تعمل شيئا لعينها^(٣) ، وإنما الجبارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ

(١) أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم بلفك أن الله يحمل الخلائق على
أصبع والأرضين على أصبع والشجرة على أصبع والثرى على أصبع ! فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه ،
فأنزل الله تعالى : « وما قدرُوا الله حقَّ قدره » (الواحدى ص ٢٥٠) .

(٢) التعطيل على ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه . وتعطيل الصانع - سبحانه - عن كماله
المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته بما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .. ومن هذا شرك
طائفة أهل وحده الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ولا مخلوق (الجواب الكافي ص ٩٠ لابن القيم ط التقدم) .

(٣) نحسب أن من دواعي التأويل أن الله سبحانه وتعالى قد يخاطبنا عن ذاته وصفاته بما نخاطب به فيما بيننا
حتى نفهم ، والآية تشير إلى ذلك في وضوح فقه عبر عن قدرته مرة بالقبضة ومرة باليمين ، ومعنى هذا أن الله يقدر
على قبض الأرض وجميع ما فيها بقوة أحدنا على ما يحمل بأصبعه .

(٤) كلام القشيري عن تجانس الشخصيتين واختلاف تأثيريهما ، ثم كلامه بعد قليل عن تجانس السوقين واختلاف
وجهيهما .. مقصود منه - كما نظن - أن القياس الإنساني ليس دائماً على صواب ، مثال ذلك قوله تعالى : « مطويات
يمينته » ، ونسبة الوجه واليد واليمين .. ونحو ذلك لله سبحانه ليس بالضرورة أن يكون على نحو ما يفهم الإنسان
من هذه الماديات ، فالكلمة هي الكلمة .. ولكن شتان بين الدلالة هنا والدلالة هناك .. والله أعلم بمقصود القشيري ..
ولكن هكذا نظن .

الكتابُ وجيء بالنبيين والشهداء

وقُضِيَ بينهم بالحقِّ وهم لا يظلمون .

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامةُ به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكفارُ يَبْقَوْنَ في الظلمات ، والمؤمنون نورُهم يسمى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرضِ بنور ربها . ويقال غداً أنوار التوَلَّى للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلَّى للعارفين .

قوله جل ذكره : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا سَعَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَفْعَلُونَ » .

إن كان خيراً فَخَيْرٌ ، وإن كان غير خيرٍ فَخَيْرٌ خير .

قوله جل ذكره : « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا

حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ

عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ

الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

الكفار يُسَاقُونَ إلى النار عِيقًا ، وللمؤمنون يُسَاقُونَ إلى الجنة لُطْفًا ؛ فالسَّوقُ يجمع

الجنسين . . ولكن شتان بين سَوْقٍ وَسَوْقٍ ! .

فإذا جاء الكفارُ قابلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريم ولا تعظيم ،

ولا سؤال ولا استقبال . . بل خِزْيٌ وهوانٌ ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان .

قوله جل ذكره : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّهَمُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ

زُمَرًا حتى إذا جاءوها وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » .

سَوْتٌ وَلَكِنْ بغير نمير ولا نصيب ، سَوْتٌ وَلَكِنْ بَرَوْحٍ وَطَرَبٍ .

« زعراً » جماعاتٍ ، وهؤلاء هم عوامُ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : « يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »^(١) وفوقهم مَنْ قال فيهم : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ »^(٢) وُفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يُسَاقُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَبَيْنَ مَنْ تُقَرَّبُ مِنْهُ الْجَنَّةُ . . هؤلاء الظالمون ، والآخرون المقتصدون ، والآخرون السابقون^(٣) .

« حَقٌّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . » وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لثلاثِ بصيلهم نَصَبُ الانتظار .

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاقَ ، ولعل هؤلاء لا رغبة لهم في الجنة بكثير ، فَلَهُمْ مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ قَوْلُ « طِبِّتُمْ » ؛ أي أنهم يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِلُطْفٍ دُونَ عُنْفٍ .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » .

صَدَقْنَا وَعْدَهُ بِإِدْخَالِنَا الْجَنَّةَ ، وَإِكْلَالِ الْمِنَّةِ .

« وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ » أي أرضَ الجنة ؛ تَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ . وهؤلاء قومٌ مَخْصُوصُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ « الْغُرَفِ » أَقْوَامٌ آخَرُونَ .

قوله جل ذكره : « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ مِنْهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ فِي عُمُومِ الْأَوْقَاتِ . . هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش ، وَقُضِيَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِالْحَقِّ ، لَهُؤَلاءِ دَرَكَاتٌ وَأُولَئِكَ دَرَجَاتٌ . . إلى غير ذلك من فنون الحالات . وَقُضِيَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ أَيْضاً فِي مَقَامَاتِهِمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ الْحَقُّ فِي عِبَادَاتِهِمْ .

(٢) آية ٣١ سورة ق .

(١) آية ٨٥ سورة مريم .

(٣) إشارة إلى الآية : « وَفِيهِمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » (آية ٢٢ سورة قاطر) .

سورة المؤمن^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من تحقق بها شرف من الحق مناله ، وصفت عنده أحواله ، وخلع على نفسه رداء الأفضال ، وألبس قلبه جلال الإقبال ، وأفرد روحه بروح لطف الجلال ، واستخلص سره بكشف وصف الجلال .

قوله جل ذكره : « حم »

أى حم أتم كائن^(٢) .

ويقال « الحاء » إشارة إلى حطيه ، « واليم » إشارة إلى مجده أى : يحلى ومجدى لا أخلد في النار من آمن بي .
ويقال هذه الحروف (مفاتيح أسمائه)^(٣) .

« تنزيل الكتاب من الله العزيز
العليم » .

(١) تسمى سورة غافر ، وسورة الطول ، وسورة المؤمن لقوله تعالى فيها : « وقال رجل مؤمنه (السيولى : الإتيان - ١ ص ٥٤) .

(٢) أى قضي ووقع ، قال كعب بن مالك :

فلما ثلاثتهم ودارت بنا الراسي وليس لأمر حبه الله مدفع
أو تكون بمنى قريبا كما قال الشاعر

قد سمى بوى تسر قوم قوم بهم غفلة ونوم

(٣) ما بين القوسين سقط من ص ، وهى موجودة فى م .

عن أفس أن أعرابيا سأل النبي (ص) ما سم ؟ فإنا لانعرفها فى لساننا ، فقال النبي (ص) : « بدء أسماء وفواتح سورة » .

« العزيز » : المُرُّ لأوليائه ، « العليم » بما كان ويكون منهم ، فلا يمنعه علمه
بما سلف منهم عن قضائه .

قوله جل ذكره : « غافر الذنب وقابل التوب »
شديد العقاب ذي الطول لا إله
إلا هو إليه المصير .

كتاب « مَعْنُونٌ » بقبول توبته لِعِبَادِهِ ؛ عَلِمَ أَنَّ الْعَامِيَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ فَأَزَالَ عَنْهُ
الانكسارَ بِأَن قَدَّمَ نَصِيحَهُ ، فَهَدَمَ اسْمَهُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ . فَكَفَّنَ نَفْسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ
بِاسْمَيْنِ يُوجِبَانِ الرَّجَاءَ ؛ وَهَذَا قَوْلُهُ : « غافر الذنب وقابل التوب » .

ثم عقبهما بقوله : « شديد العقاب » ثم لم يرضَ حتى قال بعدئذ « ذي الطول » .
فَيُقَابِلُ قَوْلَهُ : « شديد العقاب » قَوْلُهُ : « ذي الطول » .

(ويقال : غافر الذنب لِمَنْ أَصْرَ واجْتَرَمَ ، وقابلُ التوبِ لِمَنْ أَقْرَأَ وَتَلَمَّ ،
شديد العقاب لِمَنْ جَحَدَ وَعِنَدَ ، ذِي الطول لِمَنْ عَرَفَ وَوَحَدَ)^(١) .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمتصدين ، شديد العقاب للمشركين ،
ذِي الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا خَوَّفَ الْعِبَادَ بِاسْمِهِ أَوْ لَفْظٍ تَدَارَكَ قُلُوبَهُمْ بِأَن
يُشْرَمَ بِاسْمَيْنِ أَوْ بِوَصْفَيْنِ^(٢) .

« إليه المصير » : وَإِذَا كَانَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ فَقَدْ طَلَبَ إِلَيْهِ الْمَسِيرَ .

قوله جل ذكره : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي
الْبِلَادِ » .

(١) ما بين القوسين بأجمعه ساقط من ص و موجود في م .

(٢) وهذه آية كرمه سبحانه .

إذا ظهر البرهانُ واتَّضحَ البيانُ استسلمتْ الألبابُ الصاحبةُ للاستجابة والإيمان .

فأما أهلُ الكفرِ فلمْ عَلَى الجودِ إصرارٌ ، وشَوْمٌ شَرٌّ كَيْهِمْ يَحُولُ مِنْهُمْ وَبَيْنَ
الإنصافِ . . . وكذلك مَنْ لَا يَحْتَرِمُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَيُصِرُّونَ عَلَى إنكارِهِمْ ،
ويعترضونَ عَلَيْهِمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَيَجَادِلُونَ فِي جَعْدِ الْكَرَامَاتِ ، وَمَا يَخْصُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ
مِنَ الْآيَاتِ . . . فَهَؤُلَاءِ لَا يُمِيزُونَ بَيْنَ رَجَائِهِمْ وَتَقْصَاتِهِمْ ، وَسَيَفْتَضِحُونَ كَثِيرًا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ

أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ

لِيُدْخِلُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابُ . »

كذلك مَنْ اقْرَضَ مِنَ الْكُفَّارِ كَانَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ

— سبحانه — اتَّخَذَ مِنْهُمْ ، وَعَلَى كُفْرِهِمْ اخْتَرَمَهُمْ .

وَالْمُنْكَرُ لِهَذَا الطَّرِيقِ^(١) يَدِينُ بِإِنْكَارِهِ ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِهِ ، وَيَعِدُ وَقِيمَتَهُ فِي

أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِنْ جَمَلَةِ إِحْسَانِهِ وَخَيْرَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ — سبحانه — يَعَذِّبُهُمْ فِي الْعَاجِلِ
بِتَخْلِيَتِهِمْ فَيَأْخُذُهُمْ فِيهِ ، وَصَدُّ قُلُوبِهِمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، وَحَرَمَانِهِمْ مِنْهَا .

قوله جل ذكره : « وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » .

إذا انْخَسَمَ عَلَى عَبْدٍ حُكْمُ اللَّهِ بِشَقَاوَتِهِ فَلَا تَنْفَعُهُ كَثْرَةُ مَا يُوْرَدُ عَلَيْهِ مِنَ النَّصِيحِ . .

وَاللَّهُ عَلَى أَمْرِهِ غَالِبٌ . وَمَنْ أَسْرَتْهُ يَدُ الشَّقَاوَةِ فَلَا يُخَلِّصُهُ مِنْ مَخَالِهَا جُهْدٌ
وَلَا سَعَاةٌ .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ

(١) يَقْصِدُ الطَّرِيقَ الصَّوْقِي .

حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ
بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا فَاعْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ .

حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ مِنْ خَوَاصِّ الْمَلَائِكَةِ (١) ، مَأْمُورُونَ بِالتَّسْبِيحِ
لِلَّهِ ، ثُمَّ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْعَاصِينَ — لِأَنَّ الْاسْتِغْفَارَ لِلذَّنْبِ وَالتَّوْبَةَ إِنَّمَا تَحْصِلُ مِنَ الذَّنْبِ —
وَيَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ لَهُمْ عَلَى نَحْوِ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا ؛ فَيَدْعُونَ لَهُمْ بِالنَّجَاةِ ،
ثُمَّ يَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ ، وَيَحْمِلُونَ الْأَمْرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ
الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آلِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ
السَّيْئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيْئَاتِ يَوْمَئِذٍ
قَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

« وَمَنْ تَقِ السَّيْئَاتِ يَوْمَئِذٍ قَدْ رَحِمْتَهُ » : قُلْتُ سَلَطَ عَلَيْكَ أَرَادِلَ مَنْ خَلَقَهُ
— وَهُمْ الشَّيَاطِينُ — فَلَقَدْ قَبِضَ بِالشَّفَاعَةِ أَفْضَلَ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَادُونَ لَمَقْتٌ
اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » .

أَشَدُّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي يُوصِلُهَا الْحَقُّ إِلَيْهِمْ آثَارُ سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ ، وَأَجَلُ النَّعْمِ

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله (ص) : « أذن لي أن أحدث عن ملكٍ من ملائكة الله
من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » ذكره البيهقي ، وقال : هو أعظم المخلوقات .

التي يفروهم بها آثارُ رضاء عنهم . فإذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرة أن ربه عليه غضبانُ فلا شيء ، أصعبُ على قلبه من ذلك ؛ لأنه عَليمٌ أنه لا بُكاءَ ينفعه ، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يُسمعُ له تضرُّعٌ ، ولا تُرجى له حيلة .

قوله جل ذكره : « قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » .

الإمامةُ الأولى إمامَتُهُم في الدنيا ثم في القبر يحْيِيهِمْ ، ثم يمَيِّتُهُمْ فهي الإمامةُ الثانية . والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشْر^(١) .

« فاعترفنا بذنوبنا » : أقروا بذنوبهم — ولكن في وقتٍ لا ينفعهم الإقرار .
« فهل إلى خروجٍ من سبيل » مما نحن فيه من العقوبة ، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ . فيقال لهم : —

« ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ » .

أي تُصَدِّقُوا المشركين ليُكْفَرُوا . [وهوؤلاء إمامَتُهُمْ محصورة ، فأما أهلُ الحجةِ فلم في كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ ، قال قائلُهُم :

أَمُوتَ إِذَا قَدَّكَ ثُمَّ أَحْيَا فَمِ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
فَلَنْ الْحَقُّ — سبحانه — يُرَدِّدُ أَبَدًا الْخُصَاصَ مِنْ عِبَادِهِ بَيْنَ الْقَنَاءِ وَالْبَقَاءِ ،

(١) هذا الرأي يذهب إليه السُّدِّيُّ أيضاً ، وإنما إحيائُهُم في القبور للمسألة ، ومن هذا استدلَّ العلماءُ على سزال القبر .

واستدلَّ من الآية كذلك على إحياء الأجساد ، لأن الروح — عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح — لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، فلو كان الثواب والعقاب للروح — دون الجسد — فإمضى الإحياء والإماتة ؟
ويذهب ابن عباس وابن مسعود وقاعدة والضحَّاك إلى أنهم كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، ثم أحياء . ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا ، ثم أحياء . للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان .

والحياة واللوت ، والحو والإثبات]^(١) .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُرِيكم آيَاتِهِ وَيُنْزِلُ لَكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ
يُذِيبُ » .

يُرِيهم آيَاتِ فَضْلِهِ فيما يُبْلِغُهُمْ ، ويرِيهم آيَاتِ قَهْرِهِ فيما يَكْشِفُهُمْ ، ويرِيهم آيَاتِ عَفْوِهِ
إِذَا تَنَصَّلُوا^(٢) ، وآيَاتِ جُودِهِ إِذَا تَوَسَّلُوا ، وآيَاتِ جَلَالِهِ إِذَا هَابُوا غَنَابُوا ، وآيَاتِ جَمَالِهِ إِذَا
آبَوْا وَاسْتَجَابُوا . « وينزل لكم من السماء رزقاً » لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، وقلوبكم
وهو تحقيق المشاهدات ، (ولأسراركم وهو فتون المواصلات والزيادات)^(٣) .

« وما يتذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُذِيبُ » : يرجع من العادة إلى العباد ، ومن الشك إلى اليقين ،
ومن الخلق إلى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن النكرة إلى العرفان .

قوله جل ذكره : « فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
ولو كره الكافرون » .

شَرَطُ الدِّعَاءِ تَهْدِيمُ للمرة لتعرفَ مَنْ الذى تدعوه ، ثم تدعو بما تحتاج إليه مما لا بدَّ لك
منه ، ثم تنظر هل أعطاك ما تطلب وأنت لا تدري ؟ والواجبُ ألا تطلب شيئاً تكون فيه
مخالفة لأمره ، وأن تباعدَ عن سؤالك الأشياء الدنيوية والدينية ، وأن ترضى بما يختاره لك
مولاك . ومن الإخلاص فى الدعاء ألا ترى الإجابة إلا منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقاً
إلا بفضلِهِ ، وأنتَ تعلم أنه إن بقيتَ فى سؤالك عن مطلوبك — الذى هو حظك — لا تَبْقُ
عن عبادة ربك — التى هى حقّه ؛ فإنَّ الدعاء مُخِ العبادَة ، ومن الإخلاص فى الدعاء أنْ

(١) فاللوت بالقبح والفناء والحو ، والحياة بالبسط والبقاء والإثبات . ونحسب أن الكلام الموجود بين القوسين
الكبيرين يتصل بالآية السابقة نظراً لتلازم تقلب الأحوال مع الإمامة والإحياء وكنا نريد أن نضمه فى مكانه حسبما
رأينا لولا أنه موضح هنا فى م و ص . ويبدو أن القشيري اعتبر الآيتين كياناً مضمياً واحداً ، فجاءت الإشارة
منهما جميعاً .

(٢) أى تنصلوا من ذنوبهم .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

نكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداءً جُرمًا لك ، وتكون ضرورتك لسراية
جنايتك .

قوله جل ذكره : « رفيع الدرجات ذو العرش يُلقى
الروح من أمره على من يشاء من
عباده لينذره يوم التلاق » .

رافع الدرجات للعصاة بالنجاة^(١) ، وللطيعين بالمثوبات ، وللأصفياء والأولياء بالكرامات ،
ولنوى الحاجات بالكفايات ، وللعارفين بقتيبيهم عن جميع أنواع الإرادات .

ويقال درجات الطيعين بظواهرهم في الجنة ، ودرجات العارفين بقلوبهم في الدنيا ؛ فيرفع
درجاتهم عن النظر إلى الكونين دون المساكنة إليهما . وأما المحبون فيرفع درجاتهم عن أن
يطلبوا في الدنيا والعقب شيئاً غير رضا محبوبهم^(٢) .

« ذو العرش » : ذو الملك الرفيع . ويقال العرش الذي هو قبلة الدعاء ، خلقه أرفع
المخلوقات وأعظمها جنة^(٣) .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » روح بها ضياء أبدانهم — وهو سلطان
عقولهم ، وروح بها ضياء قلوبهم — وهو شفاء علومهم ، وروح بها ضياء أرواحهم

(١) وانح ان القشيري لا يكاد يترك فرصة دون أن يفتح أبواب الأمل أمام العصاة حتى لا يقتلوا من رحمة
الله .. وهذا نابع من سباحته الصوفية الأصيلة :

(٢) هنا نلاحظ أن القشيري جعل الحب أمل درجة من المعارف — مع أن العرفان الذي غايته التوحيد — هو أعلى
مراتب الطريق الصوفي . ولكن نظراً لأن الحب والفناء والمعرفة كلها من الحب وإلى الحب فكثيراً ما نجد كتاب
التصوف كالقشيري والفزالي وغيرهما لا يتقيدون تقيداً حرفياً بهذا الترتيب الذي يفيد في الدراسة فقط ، وقد تناولنا
هذه النقطة بالتفصيل في كتابنا «نشأة التصوف الإسلامي ط دار المعارف» في مقابلة باب «المذاقات» .

(٣) نلاحظ أن القشيري هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة الدعاء ثم يعود فيقول (....) وأعظمها
جنة) بمعنى أن مجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه النسبة المادية ، فإذا كان ذلك بقصد مخاطبة الناس
على قدر فهمهم — كما قلنا من قبل فهذا جائز .. ولكن الواقع أن القشيري يعبر عن شيء من الاضطراب الذي أصاب
الأشاعرة إزاء التشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل في كتابنا (لإمام القشيري — تصوفه وأدبه) ... ولعل
خير ما انتهى إليه الرازي قوله «حاصل مذهب السلف أن هذه التشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله منها شيء
غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها» (أساس للتقديس للرازي ط
الكردي ص ٢٢٣) :

— والذي هو للروح دَوْنٌ — بماؤم بالله .

ويقال : روحٌ هو روح إلهام ، وروح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

ويقال : روح النبوة ، وروح الرسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة .

ويقال : روح بها بقاء الخلق ، وروح بها ضياء الحق .

قوله جل ذكره : « يومٌ تُم بارزونَ لا يَخْفَى على اللهِ

منهم شيءٌ » .

يعلم الحاصل الوجود ، ويعلم للعدم المنقود ، والذي كان والذي يكون ، والذي لا يكون

مما عِلِمَ أنه لا يجوز أن يكون ، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون .

« لَمِنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ اللهُ الْوَاحِدِ

الْقَهَّارِ » .

لا يتقيد مُلْكُهُ بيومٍ ، ولا يختصُّ مُلْكُهُ بوقتٍ ، ولكنَّ دَعَاوَى الْخَلْقِ — الْيَوْمَ —

لا أصلَ لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترضع تلك الأوهام .

قوله جل ذكره : « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحَسَابِ »

يمجازيهم على أعمالهم بالجنان ، وعلى أحوالهم بالرضوان ، وعلى أنفاسهم بالقربة ، وعلى

محبتهم بالرؤية .

ويمجازي المذنبين على توبتهم بالغفران ، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء .

« لا ظُلْمَ الْيَوْمَ » : أى أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه ، وكل ما يفعل فله أن يفعله . « وهو

سريع الحساب » مع عباده ؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريع الحساب مع أوليائه في الحال ؛

يطالبهم بالصغير والكبير ، والنقيير والقطمير .

قوله جل ذكره : « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى

الحنَّاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسَمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .

قيامه الكلُّ مَوْجَلَّةً ، وقيامه المحبين مَعْجَلَّةً ؛ فَلَهُمْ فِي كُلِّ نَفْسٍ قِيَامَةٌ مِنَ الْعِقَابِ
وَالْعَذَابِ وَالثَّوَابِ ، وَالبُعَادِ وَالْاقْتِرَابِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي حِسَابٍ ^(١) ، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْأَعْضَاءُ ؛
فَالِدَمْعُ يَشْهَدُ ، وَخَفَقَانُ الْقَلْبِ يَنْطِقُ ، وَالتَّحْوِيلُ يُخْبِرُ ، وَاللَّوْنُ يَفْصِحُ . . . وَالْعَبْدُ يَسْتُرُ
وَلَكِنَّ الْبَلَاءَ يَظْهَرُ :

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ لَجِيعٌ مَا ظَنُّوا بِنَا تَصَدِيقًا ^(٢)

وَأَنْشَدُوا :

لِي فِي مَحَبَّتِهِ شُهُودٌ أَرْبَعٌ وَشُهُودٌ كُلُّ قَضِيَّةٍ اثْنَانِ
ذُوبَانُ جَسْمِي وَارْتِمَادُ مَفَاصِلِي وَخُفُوقُ قَلْبِي وَاعْتِقَالُ لِسَانِي
وَقُلُوبُهُمْ — إِذَا أَزِفَ الرَّحِيلُ بَلَغَتْ الْحَنَاجِرُ ، وَعَيُونُهُمْ شَرِقَتْ بِدُمُوعِهَا إِذَا نَوْدَى
بِالرَّحِيلِ وَشَدَّتْ الرُّوَاهِلُ .

قوله جل ذكره : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الصدورُ » .

لَخَائِنَةُ أَعْيُنِ الْمُحِبِّينَ اسْتَحْسَانَهُمْ شَيْئًا ، وَلِهَذَا قَالُوا :

يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ : سَلْ عَيْنِي هَلْ اكْتَحَلْتُ

بِمَنْظَرٍ حَسَنٍ مُذْ غِثْتُ عَنْ بَصَرِي ؟

وَلَذَلِكَ قَالُوا :

فَعَيْنِي إِذَا اسْتَحْسَنْتُ غَيْرَكَ أَمَرْتُ الشَّهَادَةَ بِتَعْذِيرِهَا

(١) أى وما لم يخطر لم يبال ،

(٢) معنى الشاهد الشمرى فيما نطق : يا أيها الذى تتغير صورتي عنه تجليه على ، فيكشف أمرى رغم محاولتى
سرهالى ، وبذا تصدق ظنون الماذلين واللاميين .

ومن خائنة أعينهم أن تأخذم السنة والشبات في أوقات النجاة ؛ وقد جاء في قصة داود عليه السلام : كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتي ، فإننا جنة الليل ثم عني ا

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خبيرة بقلوبهم مما تقع عليه عيونهم .

ومن خائنة أعين الموحدين أن تخرج منها قطرة دمع تأسفاً على مخلوق يفوت في الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائنة أعين المحبين النظر إلى غير المحبوب بأي وجه كان ، ففي الخبر : « حُبُّكَ الشيء يعنى ويضم » .

« وما تخفى الصدور » : فالحق به خير (١) .

قوله جل ذكره : « والله يقضى بالحق والذين يدعونون

من دونه لا يقضون بشيء » إن الله

هو السميع البصير .

يقضى للأجانب بالبعد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يوم القدوم بمنزل عمال الصدود ، وإذا ذبح الموت غداً بين الجنة والنار على صورة كبش أملح فلا غرابة أن يذبح الفراق على رأس سكة (٢) الأحياء في صورة شخص منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إليه أهل الحضرة .

قوله جل ذكره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم

كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً

(١) كان عبد الله بن أبي سرح يكتب الوحي لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة .

ويروى أنه لما جرى به إلى الرسول (ص) بعدما أطاع أهل مكة ، وطلب عثمان رضى الله عنه له الأمان صمت الرسول طويلاً ثم قال : « نعم » ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليهم بعضكم فيضرب عنقه » فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : إن النبي لا تكون له خائنة أعين . . . (٢) السكة = الطريق المستوى .

في الأرض فاعبدوا الله بذنوبهم
وما كان لهم من الله من واق .

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم ، ويطوفوا مشارقها ومقاربها ليعتبروا بها فيزهدوا
فيها ؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت يحولان الفكر ليشهدوا أنوار التجلي فيستبصروا بها ؟
أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق ، وليتخلصوا من جميع
الخلوقات قاصيها ودانيها ؟ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رُسُلهم
بالبينات فكفروا فآخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ
شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

إن بني من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فليعلم أن موجب حجبِهِ اعتراضٌ
خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته ؛ فإن الشيخ يحملُ السفراء للمريدين . وفي الخبر :
« الشيخ في قومه كالنبي في أمته » (١) .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ
مبين * إلى فرعون وهامان وقارون
فقالوا ساحرٌ كذابٌ » .

أكرمُ خلقه في وقته كان موسى عليه السلام ، وأخسُ خلقه وأذلهم في حكمه وأشدهم
كفراً كان فرعون ؛ فما قال أحدٌ غيره : « ما علِمْتُ لكم من إلهٍ غيري » (٢) .
فبعثَ اللهُ - أخصَّ عبادِهِ إلى أخصَّ عبادِهِ ، قاتله بالكذب ، ونسبه إلى السحر ،

(١) يقول السهروردي في عوارفه : « وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله (ص) وهم أحق الناس
بإحياء سنته في كل ما أمر وتنب وأنكر وأوجب (ص ٢٩٣) عوارف المعارف ، وفي موضع آخر يقول : « فليعلم
المريد أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذي يعتمد مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول الله
عليه الصلاة والسلام . ص ٢٨٥ .
(٢) آية ٢٨ سورة القصص .

وَأَنبَهُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ التَّائِبِ . ثُمَّ لَمْ يُعَجِّلِ اللَّهُ عِقَابَهُ ، وَأَمَهَلَهُ إِلَى أَنْ أَوْصَلَ إِلَيْهِ شِقْوَتَهُ —
لأنه سبحانه حلِيمٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » .

عَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِ قَوْمِهِ ، وَاسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِمُحَنِّدِهِ وَخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ ، وَلَكِنْ كَانَ
كَأَقَالِ اللَّهِ : « وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » ، لِأَنَّهُ إِذَا حَفَرَ أَحَدٌ لَوْلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ
تَعَالَى حُفْرَةً مَا وَقَعَ فِيهَا غَيْرُ حَافِرٍهَا ... بِذَلِكَ أَجْرَى الْحَقُّ سُنَّتَهُ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى
وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ » .

« وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أَيْ لِيَسْتَعِينْ بِرَبِّهِ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ ، وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ
فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ الْمُسَدُّ هُوَ فِرْعَوْنُ ، وَهُوَ كَأَقِيلِ فِي الْمَثَلِ : « رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ » .
وَلَكِنْ كَادَ لَهُ الْكَيدُ ، وَالْكَائِدُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْ كَيْدِهِ .

فَاسْتَعَاذَ مُوسَى بِرَبِّهِ ، وَانْتَدَبَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِمُوسَى كَانَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ عَنْ
فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : —

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ
وَأِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ
يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ » .. الْآيَاتِ

نَصَحَهُمْ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ نَصْحٌ وَلَا قَوْلٌ . وَكَمْ كَرَّرَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ
آلِ فِرْعَوْنَ الْقَوْلَ وَأَعَادَ لَهُمُ النَّصْحَ ! فَلَمْ يَسْتَمْعُوا لَهُ ، وَكَانَ كَمَا قِيلَ :

وَكَمْ سَقَّتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغِضَةُ مِنَ النَّصْحِ
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ
فَازِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ
رَسُولًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » .

يَبِينُ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ كَتَكْذِيبِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، وَكَأَمْهَلِكِ أَوْلَئِكَ قَدِيمًا كَذَلِكَ
يَفْعَلُ بِهِؤُلَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَاجِمَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا
لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ
فَأُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ
كَاذِبًا » .

السَّبَبُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ ؛ أَيُ لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى السَّمَاءِ فَأُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى . وَلَوْ لَمْ
يَكُنْ مِنَ الْمَضَاهَاةِ بَيْنَ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَعْبُودَ فِي السَّمَاءِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ إِلا هَذَا لَكُنِيَ بِهِ خِزْيَانًا لِمَذْهَبِهِمْ (١) .
وَقَدْ غَلِطَ فِرْعَوْنُ حِينَ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ فِي السَّمَاءِ ، وَلَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ لَكَانَ فِرْعَوْنُ مُصِيبًا
فِي طَلَبِهِ مِنَ السَّمَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ
وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِي تَبَابٍ » .

أَخْبَرَ أَنَّ اعْتِقَادَهُ أَنَّ الْمَعْبُودَ فِي السَّمَاءِ خَطَأٌ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ مَصْدُودٌ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .
قوله جل ذكره : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ

(١) هنا يغمز القشيري بالمشبهة غمزة قاسية (انظر ص ٣٤٥ من هذا المجلد) .

أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
دَارُ الْقَرَارِ .

أَصْرًا عَلَى دَعَائِهِ لَهُمْ وَأَصْرُوا عَلَى جَعْدِهِمْ وَعُنُودِهِمْ .

« مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

« فلا يجزى إلا مثلها » : في التقدير لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأة من الله
عليها حسنة وليست بسية .

« وهو مؤمن » يعني في الحال^(١) ، لأنَّ مَنْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فِي الْحَالِ لَا يَكُونُ مِنْهُ الْعَمَلُ
الصَّالِحُ ، « فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » : أي رزقًا مؤبدًا مُخَلَّدًا ،
لا يخرجون من الجنة ولا يمَّام عليه من المال .

« وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ
وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ » .

وهذا كُلهُ مِنْ قَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَقُولُهُ عَلَى جِهَةِ الْاِحْتِجَاجِ لِقَوْمِهِ ، وَيُلْزِمُهُمُ
الْحُجَّةَ بِهِ .

« تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعِزِّ
الْقَنَّارِ » .

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ لِي بِصِحَّةِ قَوْلِكُمْ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى
مَا أَوْضَحَهُ بِالْبُرْهَانِ ، وَأَقِيمْ عَلَيْهِ الْبَيَانَ .

(١) في الحال هنا معناها في هذه الحياة الدنيا .

« لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدُّنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ »
لَا جَرَمَ أَنْ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ بَاطِلٌ ؛ فَلَيْسَ لَتِلْكَ الْأَصْنَامِ حَيَاةٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا قُدْرَةٌ ، وَهِيَ
لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا — بِقَوْلِ الَّذِينَ ظَهَرَ صِدْقُهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ — كَذِبَكُمْ فِيهَا
تَقُولُونَ .

« فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوَضُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

أفوض أمري إلى الله ، وأتوكل عليه ، ولا أخاف منكم ، ولا من كيدكم .

قوله جل ذكره : « فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا
وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ *
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ،
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

والآية تدلُّ على عذاب القبر^(١) .

ويقال إنَّ أرواحَ الكفار في حواصل طير سودٍ تُعرضُ على النار غدواً وعشياً إلى يوم
القيامة . يث تدخل النار^(٢) .

« أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » : أَي يَا آلَ فِرْعَوْنَ أَدْخِلُوا أَشَدَّ الْعَذَابِ ، فَنَصَبَهُ
عَلَى النِّدَاءِ الْمُضَافِ . وَيَقْرَأُ « أَدْخِلُوا » عَلَى الْأَمْرِ^(٣) .

(١) بدليل قوله تعالى فيما بعد عن عذاب الآخرة : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ومن
استنتج هذه النتيجة مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب .

(٢) أي هذا دأبها في الدنيا تذهب في القداة أفواجاً أفواجاً ييضاً صفاراً ثم يعمود في العشاء سوداً قد احترقت
رياشها (الأوزاعي - والنص عند القرطبي ١٥٥ ص ٣١٩)

(٣) فيكون الأمر عندئذٍ للملائكة العذاب .

« أشد العذاب » : أى أصعبه ، وأصعبُ عذابٍ للكفار في النار يأمُهم من الخروج عنها .
أَمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين ، فإذا عرفوا
ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ *
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ
اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » .

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضللتُمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم واقتسمونا
باختياركم^(١) ؛ فحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد في غيظ قلوبهم ، فكما يُعَذِّبون بنفوسهم يعذبون
بضيقِ صدورهم ويُنْقِصُ بعضهم بعض .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَلَزَنَةِ جَهَنَّمَ
ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ
الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ
رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا :
فادْعُوا ، وما دُعاه الكافرين إلا
في ضلال » .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية ، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربهم^(٢) . ثم إن الله
ينزع الرحمةَ عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم .

(١) لاحظ هنا كيف يحرس القشيري على إبراز عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه
ينادي بأن الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاتجاهين فقال : يجري هذا من البد
فعلا ومن الله حكماً .

(٢) من ذلك نفهم أن القشيري لا يرى بالواسطة عند الدعاء ، بل ينبغي أن تدعو الله مباشرة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا كَنُصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

تنصرهم بالآياتِ وفتونِ التعريفاتِ حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظفرَ وضدّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله .

ويقال تنصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ؛ تنصرهم في الدنيا بالمعرفة^(١) وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وتنصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك ، ويعرفوا — بالاضطرار^(٢) — أنَّ التأثيرَ من الله ، وغاية النصرَةِ أن يَمُتَلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره ، فإذا أراد حَتَفَهُ^(٣) تَحَقَّقَ بأن لا عدوَّ على الحقيقة ، وأنَّ الْخَلْقَ أَشْبَحَ تجري عليهم أحكامُ القدرة ؛ فالوليُّ لا عدوَّ له ، ولا صديق له إلا الله ، قال تعالى : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا »^(٤) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ

الْعَذَابُ وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ » .

دليلُ الخطابِ أن المؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهُمْ ، ولم من الله الرحمة، ولم حُسْنُ الدار ، وما بقى من هذه الدنيا إلا البسير

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْثَرْنَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى

وَذِكْرًى لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » .

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى .

(١) في من (بالمعرفة) والملائم للسياق (بالمعرفة واليقين) كما جاء في م .

(٢) أي تكون معرفة ضرورية ، ونحن نعلم من مذهب القشيري أنَّ المعرفة في الابتداء كمية (من العبد) وفي الانتهاء ضرورية (من الرب) .

(٣) في من (حققه) والملائم للسياق أنه يريه (حتف) عدوه .

(٤) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ
لذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ » .

الصبرُ في انتظار الموعد من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فمن كان تصديقه و يقينه
أتمَّ وأقوى كان صبره أتمَّ وأوفى .

« إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » : وهو — سبحانه — يُعْطِي وإن تَوَهَّم العبدُ أنه يُبْطِئ .
ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ
من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر^(١) .

« واستغفر لذنبك » . وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جميعُ استغفاره
لأتمته لأنه قال في موضع آخر « وللمؤمنين والمؤمنات »^(٢) وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حملُ
الذنبِ على ما كان قبل التوبة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزلَّة ثم يجب عليه
الاستغفار منها كلها ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة^(٣) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَانُمُ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُمْ بِبَالِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ » .

« بغير سلطان » : أى بغير حجة .

« إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ » أى ليس في صدورهم إلا كِبَرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق ،
ويعتقون به عن الله ، ولا يصلون إلى مرادهم .

(١) لأن قوة الإنسان قد تنسبه ذكر المنعم فيصبر عنه — وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان في البلاء يدفعه
إلى الصبر في الله ، قال قائلهم :

والصبر عنك فمعلوم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

(٢) آية ١٩ سورة محمد .

(٣) تنبيه هذه الآراء عند بحث قضية كلامية هي : عصمة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

أى خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْثِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ
صَارُوا رَمِيماً ؛ فَالْقَوْمُ كَانُوا يُقِرُّونَ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيُنْكِرُونَ أَمْرَ الْبَعْثِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ
قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ » .

أَرَادَ بِهِ : مَا يَسْتَوِى الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ، وَلَا لِلرَّبُّوطِ بِشَهْوَتِهِ كَالْبَسُوطِ بِصَفْوَتِهِ ،
وَلَا الْمَجْذُوبُ بِقُرْبَتِهِ كَالْمُحْجُوبِ بِعُزْبَتِهِ ، وَلَا الْمُرْتَقَى إِلَى مَشَاهِدَتِهِ كَالْمُبْقَى فِي شَاهِدِهِ ،
وَلَا الْمَجْدُودُ^(١) بِسَعَادَتِهِ كَالْمَرْدُودِ لَشَقَاوَتِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ
فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ » .

إِنَّ مِيقَاتَ الْحِسَابِ لَكَائِنٌ وَإِنْ وَقَتَ الْمُدَّةِ فِي أَوَانِهِ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

معناه : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ شَيْئاً ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : « فَيَكْشِفُ
مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ »^(٣) .

(١) جُدٌّ فهو مجدود أى كان له حظ .

(٢) أى إِنْ وَقَتَ الْحِسَابِ لَكَائِنٌ مِمَّا طَالَبَ الْمُدَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ وَقْتِ حَصْرِهِ .

(٣) آيَةُ ٤١ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

ويقال ادعوني بشرطِ الدعاء ، وشرطُ الدعاء الأكل من الحلال ؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُ الحاجة ، وأسبابُ القعة الحلال .

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إما بما يشاء له ، أو بشيء آخر هو خيرُ له منه .

ويقال الكافر ليس يدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك ، وهو لا شريك له .
ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو الله ويسأله شيئاً .
إلا أعطاه في الدنيا ، فأما في الآخرة فيقول له : هذا ما طلبته في الدنيا ، وقد أخرته لك لهذا اليوم حتى ليتمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً في الدنيا قط .

ويقال ادعوني بالطاعات استجب لكم بالثواب والدرجات .

ويقال ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . ويقال ادعوني بالتوصل أستجب لكم بالتفضل . ويقال ادعوني بحسب الطاقة أستجب لكم بكشف الغافة .
ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالنوال والأفضال .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتي . . » أي يستكبرون عن دعائي ، سيخطون جهنم صاغرين .

قوله جل ذكره : « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً »
... الآيات

سكونُ الناس في الليل على أقسام : أهلُ الغفلة يكونون إلى غفلتهم ، وأهلُ المحبة يكونون بحكم وصلتهم ، وشتان بين سكونِ غفلة وسكونِ وصلة !
قومٌ يكونون إلى أمتلهم وأشكالهم ، وقومٌ يكونون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لبسطهم واستقلالهم ، وقومٌ يديمون التمرار في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشفاق . . .
أبداناً في الاحتراق .

« ذلکم اللہُ ربکم » الذی جعل سکونکم معہ ، وانزعاجکم لہ ، واشتیاقکم إلیہ ،
ومحبتکم فیہ ، وانتطاعکم إلیہ .

قوله جل ذکرہ : « اللہُ الذی جعل لکم الأرضَ
قَرَاراً والسماءَ بِناءً وصوّرکم فأحسنَ
صوّرکم » .

« صوّرکم فأحسن صوّرکم » : خَلَقَ العرشَ والكرسىَ والسمواتِ والأرضینَ
وجمیعَ المخلوقاتِ ولم یَقُلْ هذا الخطابُ ، وإنما قال لنا : « وصوّرکم فأحسن صوّرکم »
ولیس الحسنُ ما یستحسنه الناسُ بل الحسنُ ما یستحسنه الحیبُ :

ما حَطَّكَ الواشون عن رتبةٍ عندی ولا ضَرَّكَ مُقْتَابُ
کأنهم أُنْتُوا — ولم یصلوا — علیک عندی بالذی عابوا
لم یَقُلْ للشمس فی علائها ، ولا للأقمار فی ضیائها : « وصوّرکم فأحسن
صوّرکم » .

ولما انتهى إلینا قال ذلک ، وقال : « لقد خلقنا الإنسان فی أحسن تقویم »^(١)
ویقال إن الواشین قَبَّحُوا صورتکم عندنا^(٢) ، بل الملائكةُ کَتَبُوا فی صحائفکم
قیحَ ما ارتکبتم . . . ومولاکم أحسن صوّرکم ، بأن عا من دیوانکم الزلات ،
وأثبت بدلاً منها الحسنات ، قال تعالی : « یمحو الله ما یشاء ویثبت »^(٣) ، وقال :
« فأولئك ُیبدِّل اللهُ سیئاتهم حسنات »^(٤) .

قوله جل ذکرہ : « ورزقکم من الطیبات » .
لیس الطیبُ ما تستطیبه النفسُ إنما الطیبُ ما یستطیبه القلبُ ، فالخبزُ

(١) آية ٤ سورة التین .

(٢) ربما یقصد التشیرى بذلك إبلیس الذى استمل بکونه مخلوقاً من نار عل آدم المخلوق من الطین .

(٣) آية ٢٩ سورة الرعد .

(٤) آية ٧٠ سورة الفرقان .

التقار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنى للتسخط .

ورزقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوبِ لِنِازاتِ الطامعات .

قوله جل ذكره : « هو الحى لا إله إلا هو فادعوه

مُخلصين له الدينَ الحمدُ لله

ربُّ العالمين »

« هو الحى » : الذى لا يموت ، ولا فضله يفوت ، فادعوه بلسان القوت ،

وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي

الْيَقِينَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

قُلْ — يا محمد — إني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله ؛ أى أمرتُ

بالتبرئ عما عبدتم ، والإعراض عما به اشتغلتم ، والاستسلام للذى خلقنى ،

وَالنَّبِوةَ اسْتَخَصَنِي .

قوله جل ذكره : « هو الذى خلقكم من ترابٍ

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبِلِفَؤِ أَسَدَكُمْ ثُمَّ

لَتَكُونُوا شِوْخًا . . . »

فمن تُرْبَةٍ إِلَى قَطْرَةٍ ؛ ومن قَطْرَةٍ إِلَى عَلَقَةٍ . . ثم من بطون أمهاتكم إلى

ظهوركم في دنياكم . . ثم من حال كونكم طِفْلًا ثُمَّ شَابًا ثُمَّ شَيْخًا . .

وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يبعث فى أخرى الدارين .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

في آياتِ الله أنى يُضَرَفُونَ .

في آياتِ الله يَتَبَلَّدُونَ ؛ فلا حُجَّةَ يوردُونَ ، ولا عذابَ عن أنفسهم يَرُدُّون ،
سيعلمون حينَ لا ينفعهم عِلْمُهُمْ ، ويستذرون حينَ لا يسمعُ عُدْرُهُمْ ، وذلك
هندما :

« إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ
يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ » . . . الآيات .

يُسْحَبُونَ في النارِ والأغلالُ في أعناقهم ، ثم يُذَاقُونَ ألوانَ العذابِ . . فإذا
أَقْرَبُوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم : أدخلوا أبوابَ جهنمِ خالدينَ فيها ، فبئسَ مثوam
ومصيرهم ، وساءَ ذهابُهم ومسيرهم .

قوله جل ذكره : « فاصبر إن وعدَ الله حقٌّ »
فإِذَا تُرِيتُكَ بعضَ الذي نَعِدُهُمْ أو
نَتَوَفِّيكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ .

كُنْ بِقَلْبِكَ فارغاً عنهم ، وانظرْ منْ بَعْدُ إلى ما يُفعلُ بهم ، واستيقنْ بأنه
لا بقاءَ لجولةِ باطلهم . . فَإِنْ لَقِيتَ بعضَ ما نَتَوَعَّدُهُمْ به وإِلَّا فلا تَكُ في ريبٍ من
مقاساتهم ذلكَ بَعْدُ . ثم أَكْثَرُ تسليتهِ إِيَّاهُ وتَجْدِيدِ نصيره وتعريفه بقوله :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ
مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ » .

قصصنا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن في وسع أحدٍ الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا . فكَذلك إنَّ طالبُوكَ بآيةٍ قدَّ أظهرنا عليك من الآيات ما أزعجنا به العُذرُ ، وأوضحنا صِحَّةَ الأمرِ . . وما اقترحوه ... فإنَّ شئنا أظهرنا ، وإنَّ شئنا تركنا .

قوله جل ذكره : « اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُخَمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ
آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ »

ذَكَرَهم عَظِيمَ إِنْعامِهِ بِتَسخيرِ الْأَنْعامِ ؛ فقال جعلها لكم لتتغنموا بها بالركوب
والحمل والعمل ، ولتستقوا ألبانها ، ولتأكلوا لحومها وشحوماتها ، ولتتغنموا بأصوافها
وأوبارها وأشعارها ، ولتقطعوا مسافةً بعيدةً عليها . . . فلي الأنعام وفي الْفُلْكِ تَنْتَقِلُونَ
من صُفْعٍ إِلَى صُفْعٍ . . وَأَنَا الَّذِي يَسِّرْتُ لَكُمْ هَذَا ، وَأَنَا الَّذِي أَلْهَمْتُكُمْ الِاتِّفَاعَ
بِهِ ؛ فَتَقُوا فِي ذَلِكَ وَاعْرِفُوهُ .

قوله جل ذكره : « أَقْلَمُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا
فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ » . . . الآيات

أَمَرَهُم بِالاعتبارِ بِمَن كَانُوا قَبْلَهُمْ ؛ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَطْوَلَ
أَعْمَارًا ، فَانْجَرُّوا فِي حِبَالِ آمَالِهِمْ ، فَوَقَعُوا فِي وَهْلَةِ غُرُورِهِمْ ، وَمَا بَقِيَ الْحَقُّ

عن مراده فيهم ، واغترؤا بسلامتهم في مُدَّةٍ ما أرخينا لهم عنان إيمانهم ، ثم فاجأناهم بالمقوبة ، فلم يُعْجِزُوا اللَّهَ في مُرادِهِ منهم .

فلما رأوا شِدَّةَ البأسِ ، ووقعوا في مِزلة الخيبة واليأس تَمَنَّوْا أن لو أُعِيدُوا إلى الدنيا من الرأس . . . فآباهم الله بالخيبة^(١) ؛ وخرَّطهم في سِتْكِ مَنْ أَبَادَهُم من أهل الشُّرْكِ والسَّخَطِ .

(١) لأن التوبة لا تكون بعد حصول العلم الضروري ووقية العذاب ، فإن أوانها يكون قد انقضى .

سورة فصلت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

أفصح مَنْ عرف « بسم الله » ، وما ربح مَنْ بقى عن « بسم الله » .

مَنْ أحب لسانه « بسم الله » ، وحسب جَنَانُهُ « بسم الله » كفى له شفيماً « بسم الله » إلى مَنْ يُعِيدُنَا بِذِكْرِ « بسم الله » .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » .

بحقّ وحياتي ، ومجدي في صفاتي وذاتي . . . هذا تنزيل من الرحمن الرحيم .

قوله جل ذكره : « كتاب فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآنا عربياً لقوم يعلمون » .

بُيِّنَتْ آيَاتُهُ ودلالاته .

« قرآنا عربياً لقوم يعلمون » : الدليل منصوبٌ للكافة ولكن الاستبصار به للعالمين — دون المعترضين الجاحدين .

« بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » .

« بشيراً » : لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم .

« ونذيراً » : لِمَنْ أقيناهم ، وعن شهود آياتنا أعميناهم .

« فأعرض أكثرهم . . » عند دعائنا إياهم ، فهم مُشَبِّتُونَ فيما أردناهم ، وعلى ذلك

(الوصف) (١) عَيْنَانَا (٢)

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا

إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ » .

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرة لكان ذلك منهم توحيداً (٣) ،

فَمَنُوا بِالْمَقْتِ لِمَا هَدَوْا مِنْ تَحْقِيقِ الْقَلْبِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ

أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ

وَاسْتَغْفِرُوا . وَوَيْلٌ لِلشَّارِكِينَ * الَّذِينَ

لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

كَافِرُونَ » .

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الصُّورَةِ وَالْبَنِيَّةِ ، وَالذَّاتِ وَالْخَلْقَةِ . وَالْفَرْقَانُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَنَّهُ

يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ؛ فَالْخُصُوصِيَّةُ مِنْ قَبْلِهِ لَا مِنْ قَبْلِي ، وَلَقَدْ بَقِيَتْ فِيكُمْ عَمْرًا ،

وَلَقَبْتُمُونِي دَهْرًا . . . فَمَا عَثَرْتُمْ مِنِّي عَلَى غَيْرِ صَوَابٍ ، وَلَا وَجَدْتُمْ فِي قَوْلِي شَوْبَ كَذَابٍ . وَأَمْرِي

إِلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَقِيمُوا فِي طَاعَتِهِ ، وَاسْتَسْلِمُوا لِأَمْرِهِ . . . وَطُوبَى لِمَنْ أَجَابَ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ

أَصْرًا وَعَابًا ! .

(١) سقطت (الوصف) من ص وهي موجودة في م .

(٢) روى أن قريشاً اختارت عتبة بن ربيعة كي يعرض على النبي (ص) أنه يكف من سب آلهم وتسفيه أحلامها

مقابل ريادة أومال .. الخ ؛ وظل يتحدث ، في ذلك حتى انتهى ، وعندئذ سأله النبي (ص) : أفرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .. فقال : اسمع .. بسم الله الرحمن الرحيم . سم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت

إلى قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . فوثب عتبة ، ووضع يده على فم النبي

وناشده ليسكن ... ثم مضى إلى قريش فأنبأها بما سمع ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، لأن ما سمعه ما هو بشعر

ولا كهانة ولا سحر .. ثم أردف : ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لا يكذب ..

(٣) لأنه يكون حينئذ أشراً إنهم بوجود غطاء من ظلمة البشرية يحجبهم عن حقيقة الأحديّة ، ويكون اعترافهم

بمصدرهم بداية لاستخدامهم لفشل من الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَمْ أَجْزْ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

« آمَنُوا » : شاهدوا ، « وعملوا الصالحات » : لازموا بساط العبودية .

« آمَنُوا » : شهدوا الحضرة ، « وعملوا الصالحات » : وقفوا بالباب .

« آمَنُوا » : حضروا ، « وعملوا الصالحات » : بعد ما حضروا لم ينصرفوا .

« لم أجر غير ممنون » : غير منقوص^(١) ؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ ، وأجرُ القلوب الرضا بالله ، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله ، وأجرُ الأسرارِ دوام المشاهدة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْمَلُونَ لَهُ

أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

خَلَقَ الزَّمانَ ولم يكن قبله زمان ، وَخَلَقَ المَكَانَ ، ولم يكن قبله مكان ؛ فالخلقُ — سبحانه — كان ولا مكان ولا زمان ؛ فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُه المكانُ ، ولا يَمْلِكُه الزمانُ .

« وتَجْمَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا » .. وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل^(٢) نِدَاً للذي لم يَرَلْ .. ولا يزال كما لم يزل ؟ ذلك ربُّ العالمين .

قوله جل ذكره : « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ

فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَوَاءً لِّلْأَسَاكِينِ » .

الْجِبَالُ أَوْتَادُ الْأَرْضِ فِي الصُّورَةِ ، والأولياء أوتادٌ ورواسٍ للأرض في الحقيقة .

(١) يقال منلت الجبل إذا قطعت ، ومنه قول ذي الإصبع :

إني لممرك ما بابي يلى غلقت على الصديق ولا خيرى بممنون

وقيل نزلت الآية في المرضى والزمنى والمرضى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصبح ما كانوا يعملون .

(٢) الذي لم يكن ثم حصل هو الحادث ، المخلوق من العدم .. كيف يكون نداءً للتقديم الأزلى المزمع ؟ !

« وبارك فيها » : البركةُ الزيادة . - فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء ، ويتدفع عنهم البلاء ببركات الأولياء .

« وقدر فيها أقواتها » : وجعلها مختلفةً في الطعم والصورة والمقدار . وأرزاقُ القلوب والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم .

قوله جل ذكره : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان »
قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها
قالتا أتينا طائمين »

« استوى » أى قصدَ ، وقيل فعل فملاً هو الذى يعلم تعيينه^(١) .

ويقال رتبَ أقطارها ، وركبَ فيها نجومها وأزهارها .

« قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائمين » : هذا على ضرب المثل ؛ أى لا يتعسر عليه شيء مما خلقه ، فله من خلقه ما أراد . وقيل بل أحيأها وأعقلها وأنطقها فقالتا ذلك . وجعل نفوس العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فلكاً لنجوم علمه وشموس معرفته .

وأوتادُ النفوسِ الخلوْفُ والرجاء ، والرغبةُ والرغبة . وفي القلوب ضياءُ العرفانِ ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والمقولات والنفوس . والقلوبُ بيده يُصرفُها على ما أراد من أحكامه .

قوله جل ذكره : « بقضائهن سبعَ سمواتٍ في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم » .

(١) تقول الغريب : فعل فلان كذا ثم استوى إلا عمل كذا ؛ يريدون أنه أكل الأول وابتدأ الثاني ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (النسب ٤٠ ص ٨٩) .

ومن قال إنه صفة ذاتية زائدة تكون مل متى استوى في الأول بصفاته (القرطبي ١٥ ص ٢٤٣) وعمل الرأى الأول يكون الاستواء من صفات الفعل وعمل الثاني يكون من صفات الذات .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصاييح ، وزَيَّنَ وجه الأرض بمصاييح هي قلوب الأحباب ؛ فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »

أى أخبر المكذِّبين لك أَنَّ لكم سَلَفًا . . فإن سلكتم طريقهم في العناد ، وأيتم إلا الإصرار ألحقناكم بأمثالكم .

« فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » .

ركنوا إلى قوة نفوسهم نخاتهم قوام ، واستمكنت منهم بلوهم .

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ ^(١) لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » .

فلم يغادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

(١) في قراءة أبي عمرو « نَحِيسَاتٍ » ويسكن الحاء على أنها جمع المصدر « نحس » مستدلاً بقوله تعالى : « في يوم نحس مستمر » ولو كان صفة لم يضاف اليوم إليه .

قيل لآلهم فى الابتداء آمنوا وصدقوا ، ثم ارتدوا وكذبوا ، فأجرام مجرى إخوانهم
فى الاستئصال .

« ونجينا الذين آمنوا . . » : منهم من نجى من غير أن رأوا النار ؛ فصبروا القنطرة
ولم يعلموا ، وقوم كالبرق الخاطف وهم أعلام ، وقوم كالرا كض . . وهم أيضاً من الأكابر ،
وقوم على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط . فبعد وبعد . . قوم بعدما دخلوا
النار ففهم من تأخذه إلى كمييه ثم إلى ركبته ثم إلى حقويه^(١) ، فإذا ما بلغت النار القلب
قال الحق لها : (لا تحرقى قلبه)^(٢) ؛ فإنه محترق فى . وقوم يخرجون من النار بعدما
امتجشوا^(٣) فصاروا محمما^(٤) :

قوله جل ذكره : « ويومَ يُحْشَرُ أعداء الله إلى النارِ
فهم يُوزَعُونَ » حتى إذا ما جاءوها
شهدَ عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم
بما كانوا يعملون • وقالوا للجلود
لِمَ شَهِدْتُمْ علينا قالوا أنطقنا الله الذى
أنطق كلَّ شيء وهو خلقكم أولَ مرة
وإليه ترجعون • وما كنتم تسترون
أن يَشهدَ عليكم سمعكم ولا أبصاركم
ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله
لا يعلم كثيراً مما تعملون • وذلك ظنكم
الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم
من الخاسرين .

(١) الحقو = الخصر .

(٢) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٣) أمش الحر أو النار جلده . أى أحرقه وقشره عن اللحم . ويقال هذه ستة أمش كل شيء إذا كانت جديدة .

(٤) المحمم = الفحم أو الرماد . وكل ما احترق من النار .

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن في حسابهم أن الله سَيُنْطِقُها وهو الذى أنطق كلَّ شىء ،
ولم يَدُرْ بخَلْدِهم ما استقبلهم من الصير الأليم .

« ذلك ظنكم ... » : وكذا مَنْ قعد في وصف الأقوال ، ووَسَمَ موضِعَه ، وحَكَمَ
لنفسه أنه مُقَدَّمٌ بِلَدِه . فلا يُسْمَعُ منه إلا بِيَرهَانٍ ودليلٍ من جماله ، فَإِنْ خالف الحالُ قولَه فلا
يُعتمد عليه بعد ذلك^(١) .

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق ، أمّا إذا كان نتيجة الغرورِ وغيرِ
مأذونٍ به في الشرع فإنه يُرَدَى صاحِبُه .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ يَصْبِرُوا فالنارُ مثوى لهم وإن
يَسْتَعْتِبُوا فإهم من المعتبين » .

فإنَّ يَصْبِرُوا على موضع الخسف فيستقبلون إلى النار . وإنَّ يَسْتَعْتِبُوا — فعلى ما قال —
فإهم بمعتبين^(٢) .

« وقَيِّضْنَا لهم قُرَنَاءَ فزَيَّنُوا لهم ما بين
أيديهم وما خَلْفَهُمْ وحقَّ عليهم القولُ
في أمْرِهم قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمِ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنْهُمْ كانوا خاسرين » .

إذا أراد الله بعبْدٍ خيراً قَيَّضَ له قُرَنَاءَ خَيْرٍ يُعِينُونَه على الطاعات ، وَيَحْمِلُونَه عليها ،
ويدعونَه إليها . وإذا كانوا إِخْوَاناً سوءَ حَلْوَةٍ على الخالفات ، ودَعَوُهُ إليها .. ومن ذلك
الشيطانُ ؛ فإنه مُقَيَّضٌ مُسَلِّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالخالفات .. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ .
فإنَّها بئس القرين !! فهي تدعو العبدَ — اليومَ — إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عليه غداً بفعل
الزَّللَةِ . فالنفسُ — وشرٌّ قرين للمرء نفسه — والشياطينُ وشياطينُ الإنسِ .. كلها تُزَيِّنُ لهم

(١) يعود التشيرى بعد قليل إلى هذا المعنى نفسه حين يتحدث عن يكلفون بالقالة دون صفاء الحالة .

(٢) أى أن النار مثوى لهم في الخالين ، ولا مهرب لهم منها ؛ فلا صبرهم بنافع ، ولا طلب الرضا عنهم بنافع ،
ولا بد لهم من النار .

« ما بين أيديهم » من طول الأمل ، « وما خلفهم » من نسيان الزلزال ، والتسوية في التوبة ،
والتقصير في الطاعة .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا

القرآن والفتوا فيه لعلكم تفلحون »

استولى على قلوبهم الجحْدُ والإنكارُ ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتالوا بكل
وجه ، وتواصوا فيما بينهم ألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب ، ويسلب العقول ، وكل
من استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أخذَ محمدٌ في القرآن فأكثرُوا عند قراءته اللغوَ واللفظَ حتى يقع في السهو
والغلط .

ولم يعلموا أن الذي نُورَّ قلبه بالإيمان ، وأُيدَ بالهم ، وأمدَّ بالنصرة ، وكُشف بسماع
السِّرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبه ،
ولا يباشر السماعُ سِرَّهُ^(١) .

قوله جل ذكره : « فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً

ولنجزيَنَّهُمْ أسوأ الذي كانوا يعملون »

اليومَ بإدامة الجحيم الذي هو الفراق ، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

« ذلك جزاء أعداء الله النارُ لهم فيها

دارُ الخلدِ جزاء بما كانوا بآياتنا

يُجْحَدُونَ » .

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام .

« وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين

(١) إذا تذكرنا أن السر أعلى من القلب ومن الروح عرفنا أن «السمع» عند الشيخ ذو مرتبة عالية على عكس

ما يظنه المفرضون

أضلانا من الجن والإنس بجملتهما تحت
أقدامنا ليكونا من الأسفلين .

من الجن إبليس - ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول من سنّ المعصية (حين قتل
أخاه)^(١) .

« بجملتهما تحت أقدامنا » ؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً ؛ لأنهم يتأذون
بتلك الإرادة وهذا التمني ؛ فهم يجدون أنه لا نفع لهم من ذلك إذ لن يجابوا في شيء ، ولن يمنع
منهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرّي فيما بينهم ، فبعضهم يتبرأ من بعض ، كما يفيد
بأن الندم في غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره : « إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا
تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا
ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم
توعّدون » .

« ثم » استقاموا : ثم حرف يقتضي التراخي ، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون
مستقيمين ، ولكن معناه استقاموا في الحال ، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى
وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخر أحوال كونهم مكلّفين .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف
التقليد ، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة .

« استقاموا » : الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلال بشيء من
أقسامها . ويقال : هم على قسمين :

(١) زيادة من عندنا لتوضيح وليست موجودة بالمتن .

مستقيم (في أصول) (١) التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين (٢) .

ومستقيم في الفروع من غير عصيان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فمنهم . . ومنهم ، ومنهم .
« وأبشروا بالجنة » : الذين لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد ، ولم يشرك . . فله الأمان من الخلود (٣) . ويقال : مَنْ كَانَ لَهُ أَصْلُ الاستقامة أَمِينَ (٤) من الخلود في النار ، ومن له كمال الاستقامة أَمِينَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحال . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم ؛ فمستقيم في عهده . ومستقيم في عقده ، ومستقيم في جهده ومراعاة حدّه ، ومستقيم في عقده وجهده وحدّه وحبّه وودّه . . وهذا أنتمهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى أفراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا في تصفية المقدم في توفية العهد ثم في صحة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم .

ويقال : أقاموا على طاعته ، واستقاموا في معرفته ، وهاموا في محبته ، وقاموا بشرائط خدمته .

ويقال : استقامة الزاهد ألا يرجع إلى الدنيا ، وألا يمنة الجاه بين الناس عن الله . واستقامة العارف ألا يشوب معرفته حظ في الدارين فيحجبه عن مولاه . واستقامة العابد ألا يعود إلى فقرته واتباع شهوته ، ولا يتدخله رياء وتصنع . واستقامة (٥) المحب ألا يكون له أرب من محبوبه ، بل يكتفي من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه وجوده .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » : إنما يكون الخوف في المستقبل من الوقت ، من حلول مكروه أو فوات محبوب ، فاللائكة يشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون ، وكل محذور لهم لا يكون .

(١) هكذا في م وهي في من (عل أصل) وهي مقبولة حسب قوله تعالى في موضع آخر (استقاموا على الطريقة) ولكتنا آثرنا (في أصول) لتنسجم مع الفروع .

(٢) عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) : « هم أمي ورب الكعبة » .

(٣) أي التخليد في النار . . ويقصد بهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين .

(٤) لاحظ الربط بين الأمن والأمان من ناحيتي والإيمان من ناحية أخرى .

(٥) أي أن مجرد ذكر المحب لله (الباقي) يكفي عن تذكر أي عطاء أو منع ، فحسبه الله .

والحزن من حُزونة الوقت ، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزن له في عيشه . والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حُزونة في أحوالهم ، وإنما هم في الرّوح والراحة .

« وأبشروا بالجنة » : أى بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللهُ من جميل الثواب .

والذى هو موعودٌ للأولياء بسفارة الملكِ موجودٌ اليومَ لخلاص عبادِهِ بِعطاء الملكِ ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوفٌ ؛ لأن الخوف — كما قلنا من قبل — ينشأ من تطلع إلى المستقبل إماماً من زوال محبوبٍ أو حصولٍ مكروه ، وإن الذى بصفة الرضا^(١) لا حُزونة في حاله ووقته .

ويمكن القول : « لا تخافوا » من العذاب ، « ولا تحزنوا » على ما خلقتُم من الأسباب ، « وأبشروا » بحسن الثواب في المآب .

ويقال : « لا تخافوا » من عزل الولاية ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الجناية ، « وأبشروا » بحسن العناية في البداية .

ويقال : « لا تخافوا » مما أسلفتم ، « ولا تحزنوا » على ما خلقتُم ، « وأبشروا » بالجنة التى لها تكلفتم .

ويقال : « لا تخافوا » المذلة ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الزلة ، « وأبشروا » بدوام الوصلة .

قوله جل ذكره : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا
وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى
أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » نزلاً
من غفورٍ رحيم .

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النصرة .

(١) هذا من أدق الشروح لمعنى « الرضا » الذى كما نعرف من ملهيب القشيري مرحلة انتقال من المقامات إلى الأحوال .

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قبيل اللائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطاب من الله .

والنصرة تصدر من المحبة ؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصر في الحال .

ويقال : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » بتحقيق المعرفة ، « وفي الآخرة » بتحصيل المغفرة .

ويقال « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » بالعناية ، « وفي الآخرة » بحسن الكفاية وجميل الرعاية .

« في الحياة الدنيا » بالشاهدة ، « وفي الآخرة » بالمعينة .

في الدنيا بالرضا بالقضاء ، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء .

في الدنيا بالإيمان ، وفي الآخرة بالغفران .

في الدنيا بالمحبة ، وفي الآخرة بالقربة .

« ولكم فيها » أي في الجنة « ما تشتهي أنفسكم » : الولاية قدس ، وتحصيل الشهوات وعد ، فمن يشتغل بنقده قلما يشتغل بوعده (١) .

« ولكم فيها ما تدعون » : أي ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيكم .

« نزلاً » : أي فضلاً وعطاءً ، وتقدمة لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبار (٢) .

(١) تفيد هذه الإشارة المتعة حقاً في توضيح الفكرة الصوفية الشائعة التي تقول إن العبادة الحقة هي المجرى عن الطمع في الثواب والخوف من العقاب .. وهي عند القشيري من أمارات الولاية والمحبة الصافية .. ويعني بعض الصوفية في ذلك فيدفعهم طلب الله لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك ثواباً ولكني أريدك للعقاب
فكل ما أرى قد نلت منها سوى ملوذي وجدي بالعذاب

(٢) فتكون (نزلاً) منصوب على المصدر أي أنزلناه نزلاً . وقيل : على الحال . وقيل هو جمع نازل أي لكم ما تدعون نازلين .

« من غفور رحيم » : وفي ذلك مساعٍ لآمال المذنبين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة ، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته .

قوله جل ذكره : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين » .

أى لا أحد أحسن قولا منه ، ويكون المراد منه النبي صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله .

وقيل هم المؤذنون . ويقال الداعي إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله وترك طلب العوض من الله ، وبِكُلِّ أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

« وعمل صالحا » : أى كما يدعو الخلق إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريق الله ، ثم سلكوا طريق الله ، ثم دعوا الناس إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا الخلق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه .

« وقال إنني من المسلمين » : المسلمون لحكمهم الراضون بقضائه وتقديره .

قوله جل ذكر : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة »

أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

ادفع بالخصلة التى هي أحسن السيئة يعنى بالمغو عن الكفائة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الاتصاف^(١) .

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » يشبه الولي الحميم — ولم يصِر ولياً مخلصاً .. وهذا من جملة حسن الأدب فى الخلعة فى حق صحتك مع الله ؛ تحلم مع عباده لأجله .

(١) هذه الأوصاف التى ذكرها القشيري من أمارات الفتوة — كما ورد فى الفصل الذى عقده لما فى « رسالته » .

ومن جملة حُسن الخلق في الصفة مع الخلق ألا تنتقم لنفسك ، وأن تغفوَ عن خصمك .

قوله جل ذكره : « وما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

وما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ بتوفيق الصبر ، ورُقِيَ عن سفاسف الشيم إلى

معالي الأخلاق . ولا يصل أحسن الدرجات إِلَّا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

إذا اتصلت بقلبك نزغات الشيطان فبادِرْ بذكر ربك ، وارجعْ إليه قبل أية خطوة^(١) ..

فإنك إن لم تخالف أول هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة ، ثم بعد ذلك يحصل العزم

على ما يدعو إليه الشيطان . . فإذا لم تتدارك ذلك تجرى الزلة ، وإذا لم تتدارك ذلك بحسن

الرُّجى صار فسقا . . وبتأدي الوقت تصبح في خطرٍ كل آفة .

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إِلَّا بصدق الاستماعة وصدق الاستغاثة وبذلك

ينجو من الشيطان ، وقد قال تعالى : « إِن عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »^(٢) ؛ فكما ازداد

العبدُ في تبرُّيه من حَوْلِهِ وقوته^(٣) ، وأخلص بين يدي الله بتضرعه واستماعته واستعاذته زاد

اللهُ في حِفْظِهِ ، ودَفَعَ الشيطان عنه .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الليلُ والنهارُ

والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمسِ

ولا للقمرِ واسجدوا لله الذي خلقهنَّ

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (خطرة) بالراء ، ونحن لا نرفض ذلك إذ يقول القشيري في رسالته ص ٤٦ :

«الخواطر خطاب يرد على الضائر وقد يكون الخاطر بإلقاء ملكك ، أو بإلقاء الشيطان ، وقد يكون حديث النفس» .. ويقول في نفس الموضع : كل خاطر لا يشهد الظاهر فهو باطل .

(٢) آية ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) لأنه كلما ازداد في ذلك ازدادت عبوديته ، فتدخل في زمرة «عبادي» الذين ليس للشيطان عليهم سلطان .

وهذا الفهم يتأيد السياق ويتأسس في ظل الشاهد للقرآن .

أَوْضَحَ الْآيَاتِ ، وَالْأَحَ الْيِّنَاتِ ، وَأَزَاحَ عِلَّةَ مَنْ رَامَ الْوَصُولَ . وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَدَوَّرَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ جَمَلَةِ أَمَارَاتِ قُدْرَتِهِ ، وَدَلَالَاتِ تَوْحِيدِهِ .
« لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ » فِي عِلَّاتِهَا ، « وَلَا لِلْقَمَرِ » فِي ضِيَائِهِ : « وَاسْجُدُوا لِلَّهِ » فَقَدْ غَارَ^(١) عَلَيْكَ أَنْ تَسْجُدَ لغيرِهِ .

وَالشَّمْسُ — وَإِنْ عَلَّتْ ، وَالْقَمَرُ — وَإِنْ حَسُنَ . . فَلَا تُجِلِّكَ خَلْقُنَاهُمَا ، فَلَا تَسْجُدْ لَهَا ، وَاسْجُدْ لَنَا .

وَيَقَالُ : خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ — وَمَعَ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ ، وَمَعَ تَقَدُّمِهِمْ فِي الطَّاعَةِ — قَالَ لَهُمْ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، وَحِينَ امْتَنَعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِعَيْنِ إِلَى الْأَبَدِ . وَقَالَ لِأَوْلَادِ آدَمَ الْعَصَاةِ الْمَذْنُوبِينَ : « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ... » فَشَتَّانِ مَا هُمَا !!

وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — بِأَمْرِكَ بِصِيَانَةِ وَجْهِكَ عَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . . وَأَنْتَ لِأَجْلِ كُلِّ حَفْظٍ خَسِيسٍ تَنْتَقِلُ قَدَمُكَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ؛ وَتَدْخُلُ بِمُحْيَاكَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ !!

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ »^(٢)

أَيْ : إِنْ تَرَفَّعَ الْكَفَّارُ فَلَا خَلَلَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ غَنَى عَنْ كُلِّ أَحَدٍ ، ثُمَّ إِنْ الْمَلَائِكَةُ — الَّذِينَ هُمْ سُكَّانُ الْآخِرَةِ — يَسْجُدُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِهِ .

(١) يَقُولُ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ص ١٢٦ « الْغِيْرَةُ كِرَاهِيَةٌ مُشَارَكَةُ الْغَيْرِ ، وَإِذَا وَصَفَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ بِالْغِيْرَةِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِمُشَارَكَةِ الْغَيْرِ مَعَهُ فِيمَا هُوَ حَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةِ عِبْدِهِ » .

(٢) هَذِهِ آيَةُ سَجْدَةٍ ، وَاخْتَلَفَ فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ مِنْهَا . . فَقَالَ مَالِكٌ إِنْ مَوْضِعُهُ « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » « لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْأَمْرِ » . . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ إِنَّهُ : « وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ » لِأَنَّهُ تَعَامُ الْكَلَامُ وَغَايَةُ الْعِبَادَةِ وَالْإِمْتِثَالِ .
وَقَدْ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ صَلَاةَ الْكُسُوفِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَقُولُ : إِنْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَكْشِفَانِ إِلَّا لِمَوْتِ عَظِيمٍ . . فَصَلَّى النَّبِيُّ (ص) صَلَاةَ الْكُسُوفِ (الْقُرْطُبِيُّ - ١٥ ص ٣٦٤) .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنك ترى الأرضَ

خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزتْ

ورَبَّتْ إِنَّ الذي أحيها لُمعنى الموتى

إِنَّه عَلَى كل شيء قديرٌ »

الأرضُ تكونُ جَدْبَةً يَابِسَةً في الشتاء ، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرت
وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما أَلَمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه ،
ظهرت فيها بركاتُ الندم ، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صِدْقِ القَدَمِ . وكذلك إذا
وقعت للعبد فترةٌ في معاملاته ، أو غيبةٌ عن بساط طاعته ، ثم تَعَمَّدَهُ الحقُّ — سبحانه —
بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود
سداده غَضًّا طريًّا ، ويصير شجر وفاقه — بعدما أصابته الجدوبة — بماء العناية مستقيًّا .

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة ، أو حدثت لهم من جرّاء سوء أدبٍ بَدَرٌ
منهم حجةٌ ثم نظر الحقُّ — سبحانه — إليهم بالرعاية.. اهتزت رياضُ أنسِهِم ، واخضرت
مشاهدُ قُرْبِهِم ، وانهزمت وفودُ وقتِهِم .

« إن الذي أحيها لحي الموتى إِنَّه على كل شيء قديرٌ » : إن الذي أحيأ الأرضَ بعد موتها
قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد
الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ في آياتِنَا لَا يَحْقُقُونَ

علينَا أَقَمَنَ يُلْقَى في النارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ

يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّه

بِمَا تَعْمَلُونَ بصيرٌ » .

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه .. فَلْيَعْمَلُوا مَا شَاءُوا .. فليسوا يَسْعَوْنَ إِلَّا في ذَمِّهِمْ ،
وليسوا يمشون إِلَّا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ
لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » .

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عتياً ، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد .
« وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » : كِتَابٌ عَزِيزٌ لا مِثْلَ لَهُ حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله .
كِتَابٌ عَزِيزٌ غَالِبٌ لِسَبِّهِ المبتدعين والكفار .
عَزِيزٌ لا يَقْدِرُ عَلَى مَعَارَضَتِهِ أَحَدٌ . . . من قولم أرض عزاز^(١) .
كِتَابٌ عَزِيزٌ لِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ عَزِيزٍ إِلَى رَسُولٍ عَزِيزٍ بِسَفَارَةِ مَلَكٍ عَزِيزٍ إِلَى أُمَّةٍ
عَزِيزَةٍ .

كِتَابٌ عَزِيزٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ كِتَابٌ حَيِّهِمْ . . . وَكِتَابٌ الْحَيِّيبِ إِلَى الْحَيِّيبِ عَزِيزٌ .
« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .
أَي لا يَنْقُضُهُ كِتَابٌ آخَرُ لَا مِمَّا قَدَّمَ مِنْ الْكُتُبِ ، وَلَا مِمَّا يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ . . . أَيْ
لَا كِتَابَ بَعْدَهُ ، وَلَا نَسْخَ لَهُ .
وَيَقَالُ لَا يَدْفَعُ^(٢) مَعْنَاهُ لَفْظُهُ ، وَلَا يَخَالِفُ لَفْظُهُ مَعْنَاهُ . . .
وَيَقَالُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ
مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَذُو
عِقَابٍ أَلِيمٍ » .

أَصُولُ التَّوْحِيدِ لَا تَخْتَلِفُ بِالشَّرَائِعِ ؛ فَجُوهَرُهَا فِي الْأَحْكَامِ وَاحِدٌ : هُوَ أَنَّهُ تَجِبُ مَوَاقِفَةُ
أَوَامِرِهِ ، وَاجْتِنَابُ مَزَاجِرِهِ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كُلِّ كِتَابٍ ، وَشَرَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَنْ يَعْرِفُوا

(١) الْأَرْضُ الْعَزَازُ = الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ السَّرِيعَةُ السَّيْلُ (الْوَسِيلُ) .

(٢) دَفَعَ الشَّيْءُ = نَحَاَهُ وَأَزَالَهُ ، قَالَ تَعَالَى : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

أنه للمطيعين مُثيبٌ ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد .

قوله جل ذكره : « ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا

فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أعجميٌّ وعربيٌّ قُلْ هو

للذين آمنوا هُدىً وَشِفاءٌ والذين

لا يؤمنون في آذانهم وقرٌّ وهو عليهم

عمى أولئك يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » .

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ لِيَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ صِدْقَ الدَّعْوَةِ ، وصحة الشريعة .

ثم وصف الكتاب بأنه شفاء للمؤمنين ، وسببُ شقاء للكافرين .

وهو شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن كدِّ الفكر وتحيرِ الخواطر .

وهو شفاء لضيق صدور المریدين لما فيه من التَّيَمُّنِ بقراءته ، والتلذُّدِ بالتفكير فيه .

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعيج الاشتياق لما به من لُطْفِ اللواجيد .

وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وآثار خطاب الرب العزيز .

« والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » : هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق ،

ولا يستجيبون . . . بقوا في ظلمات الجحد والجهل .

« وهو عليهم عمى » : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فاخْتُلِفَ

فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ

بينهم ولما نهم لنى شكٍ منه مُريبٍ » .

آتينا موسى التوراة ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا في أمره . . . فَمَنْ كَحَلْنَا سرَّه بنور

التوحيد صدَّقه ، وَمَنْ أَعْمَيْنَاهُ عَنْ مَوَاقِعِ الْبَيَانِ قَابَلَهُ بِالتَّكْذِيبِ وجعده .

« ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » وهى أن عقوبتهم فى النار بعد قيام القيامة لَعَجَلْنَا

استصلحهم ، ولأذقناهم في الحال وبآلمهم (١) .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ

فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

« فلنفسه » لأن النفع عائدٌ إليه . وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا سَيِّئًا فَإِنَّمَا ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وأساءَ إليها ؛ لأنه

هو الذي يقامى ضرره ويلاقى شره .

قوله جل ذكره : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ

ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ

وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ

شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِثْلًا مِنْ

شَهِيدٍ » .

لَمَّا استمجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامة التي يتوعدنا بها ؟ قال الله تعالى : إِنْ عِلْمُ

القيامة ينفرد به الحق فلا يعلمه غيره ، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذي يخرج من الأشجار من الثمار ،

وما الذي تنطوي عليه أرحامُ النساء من أولادهما ذكورا وإناثا ، وما هم عليه من أوصاف

الخلق ، وما يحصل من الحيوانات من نتائجها — فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله — فكذلك

لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ » : يتبرءون من شركائهم ، ولكن في وقت لا تنفعهم

كثرة نذيرهم وبكائهم .

قوله جل ذكره : « لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ

مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّلْ قَنُوطًا » .

(١) في موضع سبق أوضح القشيري أنه ربما كان من أسباب الحكمة الإلهية في تأخير عقوبة أمة النبي «ص»

— كما حدث للأمم السابقة — هو تأخير العذاب بسبب ما يخرج من أصلابهم من المؤمنين .

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة ، وإنَّ مَسَّهُ الشرُّ فيثومُ^١ لا يرجو زواله لِمَدَمَ
عليه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه .

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ
ضُرِّاءِ مَسِّئَتِهِ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِيتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنِّي
لِيَ عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ » .

لئن كَشَفْنَا عنه البلاءَ ، وأوجبنا له الرجاء لادِّعَاءِ استحقاقًا أو اتفاقًا ، وما اعتقد أن
ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول : لو كان لي حشرٌ ونشرٌ لكان لي من الله لطفٌ وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه
بخلاف ما تَوَهَّمُ . . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ
وَنَآىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاةٍ
عَرِضٍ » .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاء هو مكرٌ واستدراجٌ . . . وهو
يستدعيه . وكثيرٌ مما هو فضلٌ وصَرَفٌ^(١) وعطاء يظنه من البلاء فيعافه^(٢) ويكرمه .

ويقال إذا أُنْمِنَّا عليه صاحبُه بالبَطَرِ ، وإذا أبلينا قَابَلَهُ بالضجر .

ويقال إذا أُنْمِنَّا عليه أعْجِبَ بنفسه ، ونكبرَ مختللاً في زَهْوِهِ ، لا يشكر ربَّه ، ولا يذكر
فضله ، ويتباعد عن بِساط طاعته .

(١) صَرَفَ الله المكاره صَرَفًا أي أبعدا .

(٢) في م (فيمافيه) وهي خطأ في النسخ .

والمستغنى عنا يهيم على وجهه ، وإذا مته للشر فلودعاء كثير ، وتضرع عريض ،
وابتهال شديد ، واستكشاف^(١) دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عتوه ونُبُوّه عَوْدٌ ، ولسوء طريقته في الجحود إعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ
كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِنْ أُولَئِكَ مَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ
وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ
رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُونَهُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَحْمِلُ :

« سنريهم » : السين للاستقبال ؛ أى سيظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التي تجري
في أحوال العالم ، وما سيحل بهم من اختلاف الأمور ما يتبين لهم من خلاله أن هذا الدين
حق ، وأن هذا الكتاب حق ، وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — حق ، وأن المجري
لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشأ له هو الحق — سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قهر الكفار ، وعكس الإسلام ، ونلاشي أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات في الآفاق اختلاف أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها في التجانس ..
وهذه آيات حدوث العالم ، واقتضاء المحدث لصفاته .

« وفي أنفسهم » : من أمارات الحدوث واختلاف الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : « في الآفاق » للعلماء ، « وفي أنفسهم » لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا
ألموا بذنوب ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبض وبسط ، وجمع وفرق ، وحجب

(١) الاستكشاف والاستصراف طلب كشف النُسخة ومصرّفها

وجذب . . . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم^(١) .

« أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » : هو الكافي ، ولكنهم — أى الكفار —
في مِرْيَةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوام كفى شك من تجويز ما يُكاشَفُ
به أهلُ الحضور من تعريفات السرِّ .

« ألا إنه بكل شيء محيط » : عالم لا يَحْتَقِ عليه شيء .

(١) يتفق هذا مع ما يلحظ إليه جمهور الصوفية حين يميزون الأحوال والمقامات ، فالأحوال مواهب من الحق ،
والمقامات مكاسب للعبد — وإن كانت هذه المكاسب تتم هي الأخرى بفعل الله وعونه .

سُورَةُ الشُّورَى

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

سُلُوةُ الْعَاصِينَ فِي سَمَاعِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَحِظْوَةُ الْعَابِدِينَ فِي رِجَائِهِمْ نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَرَاحَةُ الْفُقَرَاءِ فِي رِضَاهُمْ بِقِسْمَةِ اللَّهِ . . . لِكُلِّ مَنْ حَالَهُ نَصِيبٌ ، وَكُلٌّ فِي مُتَنَفِّسٍ مُصِيبٍ .

قوله جل ذكره : « حَمْدٌ * عَسَقٌ »

الْحَمْدُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ : حَلِيمٌ وَحَافِظٌ وَحَكِيمٌ ، وَالْحَمْدُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ : مَلِكٌ وَمَاجِدٌ وَمَجِيدٌ وَمَنَّانٌ وَمُؤْمِنٌ وَمُهَيِّمٌ ، وَالْحَمْدُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ : عَالِمٌ وَعَدْلٌ وَعَالٍ ، وَالْحَمْدُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ : سَيِّدٌ وَسَمِيعٌ وَسَرِيعُ الْحِسَابِ ، وَالْحَمْدُ مِفْتَاحُ اسْمِهِ قَادِرٌ وَقَاهِرٌ وَقَرِيبٌ وَقَدِيرٌ وَقُدُّوسٌ ^(١) .

« كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَهَذِهِ الْحُرُوفِ إِنَّهُ كَمَا أَوْحَى إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، كَمَا أَوْحَى إِلَيْهِمُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُلْكًا .

« وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » : عُلُوُّهُ وَعَظَمَتُهُ اسْتِحْقَاقُهُ لِأَوْصَافِ الْمَجْدِ ؛ أَيْ وَجُوبُ أَنْ يَكُونَ

بِصِفَاتِ الْمَجْدِ وَالْجَلَالِ .

(١) رَجَاءٌ يَتَأَيَّدُ اتِّجَاهَ التَّشْيِيرِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُتَعَمِّدَةِ هُنَا بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَوْصَافِ الْإِلَهِيَةِ بِخَتَامِ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ بِالْعَزِيزِ الْحَكِيمِ وَالْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَالْقُدُّوسِ الرَّحِيمِ .. كَانَ هَذَا هُوَ الْمَتَاخِ الَّذِي تَوَحَّى بِهِ الْفَتْاحَةُ السُّورَةُ .

قوله جل ذكره : « تكاد السمواتُ
يتفطرْنَ من فوقهن والملائكةُ يُسَبِّحون
بمحمديهم ويستغفرون لِمَن في الأرضِ
أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

أى تكاد السموات تنشق من عظمة من فوقهن وهو الله تعالى ، والفوقية هنا فوقية
رتبة^(١) ؛ وذلك من شدة هيبتهم من الله .

ويقال من ثقل الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم . وفي الخبر : « أظت^(٢)
السماء أظاً وحق لها أن تنط ؛ ما من موضع قدم في السموات إلا وعليه قائم أوراكم
أو ساجد » . .

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشق له . . وهنا
لُقبِح قول المشركين ولجأتهم على الله تعالى ، ولِعِظَم قولهم كادت السموات تنشق . . قال
تعالى : « لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً .
أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلِئَا »^(٣) وعلى هذا التأويل : « يتفطرن من فوقهن » أى إلى أسفلهن ،
أى تنفطر جملتها^(٤) .

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ،
ويستغفرون لمن في الأرض . . ثم قال : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » : أى يغفر لهم مع
كثرة عصيانهم . وفي الوقت الذى يرتكب فيه الكفار هذا الجرم العظيم بسبب شرهم فإنه
— سبحانه — لا يقطع رزقه ونعمته عنهم — وإن كان يريد أن يذنبهم في الآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين اتخذوا من دونه أولياء الله

(١) لجأ التفسيرى إلى التأويل كى يتفادى نسبة المكانية إلى الألوهية .

(٢) أظاً الظاهر = صَوَّت من ثِقَل الجمل (الوسيط) .

(٣) آيات ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ سورة مريم .

(٤) يقول النسق : كان القياس أن يقال يتفطرن من تحت من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر ، ولكنه
برلغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل : كدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن دع الجهة التى تحتهم .
(النسق = ٤ ص ١٠٠) .

حفيظٌ عليهم وما أنتَ عليهم بوكيلٍ ،

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِن دونه ، وذلك بمواقفتهم لها فيما توسوس به إليهم .
وليس يخفى على الله أمرهم ، وسيعذبهم بما يستوجبونه . ولست — يا محمد — بمُسَلِّطٍ عليهم .
وفي الإشارة : كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك الله حداثاً أو ينقض له عهداً فهو يتخذ
الشياطينَ أولياءَ ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابه . ثم إن شاء عذبه ، وإن
شاء غفر له .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً
لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ
يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ
وفريقٌ فِي السَّعِيرِ » .

أنزلنا عليك قرآنًا يُتلى بلغة العرب لتخوِّفَ به أهلَ مكة والذين حولها . وجميعُ العالمِ
مُحْدِقٌ بالكعبة ومكة لأنها سرَّةُ الأرض .

« وتنذر يومَ الجمعِ » : تنذرهم بيوم القيامة . والإنذارُ الإعلامُ بموضع الخفاقة . ويوم الجمع
— وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه أَتْلَقُ كلُّهم ، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله ، وبين الجسد وروحه^(١) ،
وبين المرء وشكله في الخير والشرِّ — لا شكَّ في كونه . وفي ذلك اليومَ فريقٌ يُبْعَثُ إلى
الجنة وفريقٌ يحصل في السعير . وكما أنهم اليومَ فريقان ؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة
العبادات ، وفريق في ظلمة الشرِّ وعقوبة الجحد . فكذلك غداً ؛ فريقٌ هم أهل اللقاء ،
وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء .

قوله جل ذكره : « ولو شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
ولكن يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ
والظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نصيرٍ » .

إنَّ أراد أن يجمعهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذا لا زَمَنَ لهم . ولو شاء

(١) من هذا نفهم أن القشيري يؤمن بالبعث الكامل أي بعودة الجسد والروح معاً إلى الحياة مرة أخرى .

أن يجمعهم كلهم على الفساد والعناد لم يكن دافع — وإذا لاشين منه . وحيث خلقهم مختلفين — على ما أراد — فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحد جبار غير مأمور ، متولٍ جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذى يحيى النفوس والقلوب اليوم وغداً ، ويميت النفوس والقلوب اليوم وغداً^(١) .. وهو على كل شيء

قوله جل ذكره : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب » .

« فحكمه إلى الله » : أى إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة ، وشواهد القياس . والمعبرة بهذه الأشياء فهى قانون الشريعة ، وجملتها من كتاب الله ؛ فإن الكتاب هو الذى يدل على صحة هذه الجملة^(٢) .

ويقال : إذا لم تهتدوا إلى شيء وتعارضت منكم الخواطر فدعوا تديركم ، والتجئوا إلى ظل شهود تقديره ، وانتظروا ما ينبى لكم أن تفعلوه بحكم تيسيره^(٣) .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ؛ لا تدرون أبا السعادة جرى حكمكم أم بالشقاوة مضى اسمكم ؟ فكلوا الأمر فيه إلى الله ، واشغلوها فى الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لكم سبيل إلى عليه من عواقبكم .

قوله جل ذكره : « فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ليس كمثل شوه وهو السميع البصير » .

خلق لكم من أنفسكم أزواجاً : أى أشكالاً ؛ تخلق حواء من آدم وخلق

(١) الإحياء والإماتة اليوم مرتبطان بالمعاني الصوفية من صفاء وكثورة ونحو ذلك .
(٢) هذا رد على من يجهلون الصوفية بعدم الاحتفال بالمصادر الأساسية للشريعة ، فضلاً عن أننا نشعر بامتنانهم بالجانب العقل حين يبرزون «القياس» كصدر من مصادر التشريع .
(٣) وهذا المصدر الأخير خاصة بالسادة الأولياء الأصفياء — يهتأ أمره حين تدرس مصادر الفقه الصوفى .

— بسبب بقاء التناسل — جميع الحيوانات أجناساً .

« يذروكم » : يُكثِرُ خَلْقَكُمْ . « فيه » الماء تعود إلى البطن أى فى البطن ، وقيل : فى الرَّحِم ، وقيل : فى التزويج^(١) .

« ليس كئله شئ » : لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا مِثْلَ يُضَارِعُهُ ، ولا شكل يشاكله . والكاف فى ليس « كئله » صلة أى ليس مثله شئ . ويقال : لفظ « مثل » صلة ؛ ومعناه ليس كهو شئ . ويقال معناه ليس له مثل ؛ إذ لو كان له مثل لكان كئله شئ وهو هو ، فلما قال : « ليس كئله شئ » فمعناه ليس له مثل ، والحق لا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحكامه .

وقد وقع قوم فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون فى المكان ، وأقبح قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَرَهُ فى حدقة ، وسمعه فى عضو ، وقدرته فى يدٍ . . . إلى غير ذلك .

وقوم قاسوا حكمه على حكم عباده ؛ فقالوا : ما يكون من الخلق فيبجأ منه قبيح ، وما يكون من الخلق حمفاً منه حسن !! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه — والحق مستحق للتزويه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للحصول دون التعطيل والتمثيل .

قوله جل ذكره : « له مقاليد السموات والأرض يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقدوراته . وكما أن فى الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن المعرفة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأنس . . . وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبه والرضا . وقائدة التعريف بأن لتقاليد له : أن يقطع العبد أفكاره عن الخلق ، ويتوجه

(١) يقول السنى : اختير «فيه» حل «به» لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للبث والتكثير .

في طلب ما يريد من الله الذي « يسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، والذي هو « بكل شيء عليم » :
يوسّع ويضيّق أرزاق النفوسِ وأرزاق القلوب حسبما شاء موَحَكَمَ وَعَلِمَ .

قوله جل ذكره : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ
نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصّينا
به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا
الدِّينَ ولا تفرقوا فيه كبر على المشركين
ما تدعوم إليه الله يُحْتَبَى إليه مَنْ يشاء
ويَهْدِي إليه مَنْ يُنِيب » .

« شرع » : أى يَبَيِّنَ وأظهر . « من الدين » أراد به أصول الدين ؛ فإنها لا تختلف في جميع
الشرائع ، وأمّا الفروع فمختلفة ، فالآية تدلُّ على مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة .
ثم يَبَيِّن ذلك بقوله : « أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » . . وفي القصة أن تحرّم البهائم
والأخوات إنما شرّع في زمان نوح عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم
العلمُ بنبأٍ بينهم ولولا كلمة سبقت من
ربك إلى أجلٍ مسمى لَفُضِيَ بينهم »
يعنى أنهم أصرّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عذر ولا شك
« ولولا كلمة سبقت من ربك » . . وهو أنه حَكَمَ بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة لتعجل لم
ما يتمنونه .

قوله جل ذكره : « فلذلك فادعُ واستقيم كما أمرتَ
ولا تتبع أهواءهم وقل آمنتُ بما
أنزل الله من كتابٍ وأمرتُ لأعدل
بينكم الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم
الله يجمع بيننا وإليه المصير .

أى ادعُ إلى هذا القرآن ، وإلى الدين الحنيف ، واستقيم في الدعاء ، وفي الطاعة . أمرَ
الكلَّ من الخلق بالاستقامة ، وأفرده بذكر التزام الاستقامة .

ويقال : الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة ؛ أى سأل منى أن أقيمك ،
« ولا تتبع أهواءهم ، وقُلْ : آمَنْتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » : أمرت
بالعدل في القضية ، وبأن أعلم أن الله إله الجميع ، وأنه يحاسب غداً كلَّاً بعمله ، وبأن الحجة
لله على خلقه ، وبأن الحاجة لهم إلى مولاهم .

قوله جل ذكره : « والذين يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا
اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » .

يجادلون في الله من بعد ما استُجيبَ لدعاء محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ على المشركين .
حُجَّةٌ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل ، وهم من الله مستوجبون
للعنة والعقاب (١) .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَئِلَّا السَّاعَةُ قَرِيبٌ » .

أنزل الكتاب ، وأنزل الحكم بالميزان أى بالحق .

ويقال ألهمهم وزن الأشياء بالميزان ، ومراعاة للعدل في الأحوال .

« وما يدريك لئلا الساعة قريب » : يزجرهم عن طول الأمل ، وينبههم إلى انتظار
مجوم الأجل .

(١) سماها حجة حسب زعمهم - وإن كانت شبهة في حقيقة أمرها . ومن أمثلة حجج أهل الكتاب أنهم كانوا
يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فنحن خير منكم وأول بالحق . وكل هذه الحجج
داحضة بعدما دخل الناس في الإسلام ، وتركوا الجاهلية وآثامها ، استجابة لدعاء الرسول : اللهم إن تهلك هذه
المصيبة فلن نعبده في الأرض .

قوله جل ذكره : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها

والذين آمنوا مُشْفِقُونَ منها ويعلمون

أنها الحقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارون في

الساعة لفي ضلالٍ بعيدٍ » .

المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، وَيَكِلُونَ أمورهم إلى الله ؛ فلا

يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء ، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له (١) .

قوله جل ذكره : « اللهٌ لطيفٌ بعباده يَرْزُقُ مَنْ يَشاء

وهو القويُّ العزيز » .

« لطيف » (٢) أى عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلَطِّفُ الحسن . .

وكلاهما في وصفه صحيح . واللطف في الحقيقة قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليوم

هو لُطْفٌ منه به .

وأكثرُ ما يستعمل اللطف — في وصفه — في الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : « لطيف بعباده » : أى يعلم غوامضَ أحوالهم من دقيق

الرياء والتصنع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخَاطَبَ العَصَاةَ بقوله : « لطيف » : لئلا

يأسوا من إحسانه .

ويقال : خَاطَبَ الأغنياء بقوله : « لطيف » : ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم في جمع المال

من غير وجهه بنوع تأويل ، وخَاطَبَ الفقراء . بقوله : « لطيف » أى أنه مُحْسِنٌ يرزق

من يشاء .

ويقال : سَمِعَ قوله : « الله » يوجبُ الهيبة والفرع ، وسماعُ « لطيف » يوجبُ السكونَ

(١) لأن الموت يقربهم من اللقاء .. لقاء المحبوب .

(٢) تضاف أقوال التفسير هنا في « اللطيف » إلى ما ذكره في كتاب التعمير في التذكير (تحقيق بسبون) وما ذكره في كتاب : شرح أسماء الله الحسنى (تحقيق الحلواني) صدر بالقاهرة سنة ١٩٦٩ من ١٧٦ وما بعدها .

والطمانينة . فسمعُ قوله : « الله » أوجب لهم تهويلاً ، وسمعُ قوله : « لطيف » أوجب لهم تأميراً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطى قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ عِلْمُهُ بأنه لطيف ، ولولا لُطْفُهُ لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَهُ دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ إِيْهِامُ عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادته لا تَكَلَّ عليه ، وأَقْلَّ عمله . ولو عَلِمَ شقاوته لَأَبْسَ وَلَتَرَكَّ عَمَلَهُ . . فأراد أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ إخفاء أَجَلِهِ عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُهُ .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ أَنَّهُ يُنْسِيَهُ ما عمله في الدنيا من الزَلَّةِ ؛ لئلا يَنْفَضَّ عليه العَيْشُ في الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نُورُ الأسرار^(١) ، وحفظ على عبده ما أودَعَ قلبه من الأسرار^(٢) ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ

لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

نَصِيبٍ » .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ » : نَزِدْهُ — اليومَ — في الطاعات توفيقاً ، وفي المعارف

وصفاء الحالات تحقيقاً . ونَزِدْهُ في الْآخِرَةِ ثَوَاباً واقتراباً وفتونَ نِجَاتٍ وصنوفَ درجاتٍ .

« وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا » : مكثفياً به نُؤْتِهِ منها ما يريد ، وليس له في الْآخِرَةِ

نَصِيبٍ .

(١) هذه (الأسرار) جمع السر وهو الملكة الباطنية التي تملو الروح — كما نعرف من المذهب العرفاني

للقشيري .

(٢) وأما (الأسرار) الثانية فهي جمع السر كما نعرفه — بمعنى الشأن الخفي .

قوله جل ذكره : « أم لهم شرٌّ كما شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذابٌ أليم »

« ما لم يأذن به الله » : أى ليس ذلك مما أمَرَ به ، وإنما هو افتراء منهم .

« ولولا كلمة الفصل » . . أى ما سبق به الحكمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .

« ترى الظالمين مُشْفِقِينَ مما كَسَبُوا وهو واقعٌ بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في روضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءون عند ربِّهم ذلك هو الفضلُ الكبير » .

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهُم الله في الغالب، ولكنه لا محالةً يَمْزِيهِمْ. وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمَّا الكفار.. فعداً يُشْفِقُونَ مما يقع بهم عند ما يقرءونه في كتابهم ، لأنَّ المذابَّ — لا محالةً — واقعٌ بهم .
« والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات » : في الدنيا جنات الوصلة ، ولذاذة الطاعة والعبادة ، وطيب الأنس في أوقات الخلوة . وفي الآخرة في روضات الجنة : « لهم ما يشاءون عند ربهم » : إن أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم ، وإن أرادوا تمامَ الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضلُ الكبير .

قوله جل ذكره : « ذلك الذي يُبَشِّرُ الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ذلك الذي يُبَشِّرُ الله عباده قدامى ذِكْرُهُ في القرآن متفرقاً ، من أوصاف الجنة وأطايها، وما وَعَدَ الله من الثوبة .. ونحو ذلك .

« قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

قل — يا محمد — لا أسألكم عليه أجراً. مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً ، ولكن الله — وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيِّه بما لهم من الكرامات الأبدية — لم يطلب عليه أجراً ،

فَاللَّهُ — سبحانه — لا يطلب عَوْضًا ، وكذلك نبيّه — صلى الله عليه وسلم — لا يأل أجرًا ؛
فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقًا حَسَنًا . . . فمَن يطلب الرسولُ منهم أجرًا ؟! وهو — صلوات
الله عليه — يشنع لكلِّ من آمن به ، والله — سبحانه — يعطي الثواب لكلِّ من آمن به .
« إلا المودة في القربى » : أراد أن تثبت مودتك في القربى ؛ فتودَّ من يتقرَّب إلى الله
في طاعته (١) .

« وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا
حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » .

تضعيف الثواب في الآخرة للواحد من عشرة إلى سبعمائة . . . هذه هي الزيادة .

ويقال : الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .

ويقال : إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضلنا بزيادة . . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال من يقترِف حَسَنَةَ الْوُضَائِفِ (٢) تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنَ اللَّطَائِفِ .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ (٣) الْبَشَرِ .

قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ

يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ

الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّدُورِ » .

أَي أَنَّا إِنْ افْتَرَيْنَاهُ حَتَّمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَىٰ رَبِّكَ .

ومعنى الآية أَنَّ اللَّهَ يَقْصِرُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ : مِنْ إِجَابَةٍ وَتَقَرُّبٍ ، وَإِدْنَاءٍ وَتَبَعِيدٍ (٤) .

(١) استغلت هذه الآية الكريمة استغلالاً عقدياً وسياسياً في عصور متأخرة خصوصاً من جانب الملتجئين لكرم الله وجهه وبينه . . . وواضح أن التفسير أطلاق القرابة على كل من يتقرب إلى الله بالطاعة ؛ فهي عنده قرابة في الله ، وربما كان ذلك نتيجة سنيته وعصره على سنيته . (أنظر مدخل اللطائف ص ١٥ ص ٢٥) .

(٢) المقصود بالوظائف أداء العبادات والتزام آداب الشريعة .

(٣) في من وردت (طرق) بالراء وهي خطأ في النسخ .

(٤) يقول مجاهد : « ويخيم على قلبك » أي يربط عليه بالعبر على أذاهم واتهامهم له بالافتراء والكذب لتلا تدخله شقة بسبب تكذيبهم .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون »

« ويعفو عن السيئات » الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهى هنا للعبد ؛ أى تلك السيئات التى تكفى التوبة المذكورة فى الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء^(١) . « ويعلم ما تعملون » : من الأعمال على اختلافها^(٢) .

وهو « الذى » .. : الذى من الأسماء الموصولة التى لا يتم معناها إلا بصفة ، فهو قد تعرف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزلة — وإن كانت توجب للعبد ذميمة الصفة — فإن قبولها يوجب للحق حمداً الاسم .

ويقال : قوله : « عباده » اسم يقتضى الخصوصية (لأنه أضغفه إلى نفسه)^(٣) حتى تمنى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين لعله يقول له : عبدى . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود فى « التوبة عن عباده » ؛ وإذا فلا ينبغي لهم أن يتنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لى يصلوا إلى ذلك .

ويقال لما كان حديث العفو عن السيئات ذكرها على الجمع والتصريح^(٤) فقال : « ويعفو عن السيئات » . ثم لما كان حديث التهديد قال : « ويعلم ما تعملون » فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : ويعلم زلتك — بل قال ويعلم « ما » تعملون ، وتدخل فى ذلك الطاعة والزلة جميعاً^(٥) .

قوله جل ذكره : « ويستجيب الذين آمنوا و عملوا

الصلحَاتِ ويزيدهم من فضله ..

(١) يشير القشيري إلى الآية الكريمة «إن الله لا يفر أن يشرك به ويعتبر ما دون ذلك لمن يشاء»

(٢) ويدخل فى ذلك — كما سأتى بعد قليل — المعاصى والطاعات .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عندنا طيفاً لما نعرفه من أسلوب القشيري فى مثل هذا الموضع .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (والتصرع) وهى خطأ فى النسخ لعدم ملاحظتها للسياق ؛ فالتصريح يقابل «التلويح»

المذكور فيما بعد .

(٥) فى هذه الإشارة وما تلاها يبدو انفتاح باب الأمل أمام العصاة ، وكيف يحتم هذا الإمام الجليل على التوبة

الآملة والرجاء الوطيد فى رحمة الله .

(أى إذا دَعَوْهُ استجلبَ لم) ^(١) بعظيم الثواب فى الآخرة .

« ويزيدهم من فضله » : يقول المفسرون من أهل السُّنة فى هذه الزيادة إنها الرؤية .

ذَكَرَ التَّوْبَةَ وَأَهْلَهَا ، وذكر العاصين بوصفهم ، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فلما وصل إلى الزيادة — التى هى الرؤية — قال : « ويزيدهم » على الجمع ؛ والكناية ^(٢) إذا تَلَّتْ مذكورات رجعت إليها جميعاً ؛ فيكون المعنى أن الطاعات فى مقابلها الدرجات ، وتكون بمقدارها فى الزيادة والنقصان ، وأما الرؤية فسييلها الزيادة والفضل . . والفضل ليس فيه تمييز .

ويقال : لما ذكر أن التائبين تُقْبَلُ توبتهم ، وَمَنْ لَمْ يَتَّعِبْ غُفِرَ زَلَّتْهُ ^(٣) ، وأن المطيعين لهم الجنة . . فلربما خَطَرَ بَالِ أَحَدٍ : وإذا فهذه النارُ لِمَنْ هى ؟ ! فقال جل ذكره :

« والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ » .

فالمصاةُ من المؤمنين لم عذابٌ . . أما الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضى هذا وذاك ؛ يقتضى أن المؤمنين لم عذابٌ . . ولكن ليس بشديد ، وأما عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال : إن لَمْ يَتَّعِبْ العبدُ خوفاً من النار ، ولا طمعاً فى الجنة لَكَانَ من حقِّه أن يتوب لِيَقْبَلَ الحقُّ — سبحانه .

ويقال إن العاصى يكون أبداً منكسراً القلب ، فإذا عَلِمَ أن اللهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتعنى أن ليت له طاعةٌ مُيسَّرةٌ ليقبلها ، فيقول الحقُّ : عبدى ، إنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ طاعةٌ تصلح للقبول فَلكَ توبةٌ إنْ أَتَيْتَ بِهَا تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوْا فى الأرضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ

(١) ما بين القوسين زيادة من عتدنا وجدناها ضرورية لتوضيح العبارة .

(٢) يقصد القشيري بالكناية التفسير فى « ويزيدهم » .

(٣) لأنه ربط ذلك بمشنيته — سبحانه — فقال « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في مخاطب الآدميين . والمعنى : أتني لم أبسط عليك أيها الفقير في الدنيا لِمَا كَانَ لِي مِنَ الْعِلْمِ أَتَنِي لَوْ قَسَمْتُ عَلَيْكَ الدُّنْيَا لَطَفَيْتَ ، وَلَسَعَيْتَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ .

ويقال : قوله : « ولكن .. » : لكن كلمة استدراك ، فالمعنى : لم أَوْسَعْ عليك الرزق بمقدار ما تريد ؛ ولم أَمْنَعْ عنك (الكُلِّ)^(١) ؛ لَأَنِّي أَنْزَلْتُ بِقَدَرٍ مَا أَشَاءُ .

قوله جل ذكره : « وهو الذي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ » .

الله — سبحانه يُخَيِّمُ الْقُلُوبَ ؛ فَكَمَا أَنَّهُ « هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ » ، فَبَعْدَ مَا أَصَابَتِ الْأَرْضَ جَدُوبَةٌ ، وَأَبْطَأَ نَزْلُ الْغَيْثِ ، وَقَنِطَ النَّاسُ مِنْ عَيْءِ الْمَطَرِ ، وَأَشْرَفَ الْوَقْتُ عَلَى حَدِّ الْقَوَاتِ يُنَزِّلُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ الْغَيْثَ ، وَيُخَيِّمُ الْأَرْضَ بَعْدَ قَنَاطِ أَهْلِهَا . . . فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ ؛ إِذَا ذَبَلَ غُصْنُ وَقْتِهِ ، وَتَكَدَّرَ صَفْوُ وَدَّهِ ، (وَكَسَفَتْ)^(٢) شَمْسُ أَنْسِهِ ، (وَبَعَدَ)^(٣) عَنِ الْحَضَرَةِ وَسُلْحَاتِ الْقَرَبِ عَهْدُهُ فَلَرَبَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْحَقُّ بِرَحْمَتِهِ ؛ فَيَنْزِلُ عَلَى سِرِّهِ أَمْطَارَ الرَّحْمَةِ ، وَيَعُودُ عَوْدُهُ طَرِيًّا ، وَيُثَبِّتُ فِي مَشَاهِدِ أَنْسِهِ وَرَدًّا جَنِيًّا . وَأَنْشَدُوا :

إِنْ رَاعَنِي مِنْكَ الصَّدُودُ فَلَعَلَّ أَيْامِي تَسْوَدُ
وَلَعَلَّ عَهْدَكَ بِاللَّوَى يَحْيَا قَدِّ تَحْيَا الْمَهُودُ
وَالنَّصْنُ يَبْسُ نَارَةً وَتَرَاهُ مُخَضَّرًا يَمِيدُ

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »

(١) هكذا في م ، وهي في ص (الكيل) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .
(٢) هكذا في ص ، وهي في م (كشفت) بالثين وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .
(٣) سقطت في ص وموجودة في م والسياق يطلبها .

وما بَثَّ فيهما من دابةٍ وهو على جمعِهِم
إذا يشاء قديرٌ .

جعل الله في كلِّ شيءٍ من المخلوقات دلالةً على توحيده في جلاله ، وتفرده بنعت كبريائه
وجماله (١) .

« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » : والإشارة منها أن الحقَّ — سبحانه — يفار على
أوليائه أن يسكنَ بعضهم بقلبه إلى بعضٍ ؛ فأبداً يبَدُّ شملهم ، ولانكاد الجماعة من أهل
القلوب تنفق في موضعٍ واحدٍ إلا نادراً ، وذلك لمدية يسيرة .. كما قالوا :
رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنهم

بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحيان قد يتفضل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم — في الظاهر —
اجتماعٌ والتقاءٌ ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ — سبحانه — بفضله إلى أن في اجتماعهم
بركاتٍ لحياة العالم .

وهذا — وإن كان نادراً — فإنه على جمعِهِم — إذا يشاء — قدير .

قوله جل ذكره : « وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كَسَبَتْ
أيديكم وبغفوا عن كثير » .

إذا تحقق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه ، وعلمَ أن ذلك جزاء
له ، وعقابٌ على ما بدَّرَ منه من سوء الأدب لاستحبي بنجاسته من فعله ، ولشغله ذلك عن رؤية
الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئهم أو يدعو عليهم ، وإنما يشغله تلافى ما بدَّرَ منه
من سوء الفعل عن محاولة الاتصاف لنفسه بمن يقسِّط عليه من الخلق .. تاركاً الأمرَ كله لله .
ويقال : إذا كثرت الأسبابُ من البلايا على العبد ، ونوالى عليه ذلك .. فلْيَفَكِّرْ
في أفعاله للذمومة .. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله — مع العفو الكثير — هذا المبلغ ؟ !
فعند ذلك يزداد حزُّه وتأسُّفه ؛ لِعِلْمِهِ بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

(١) سبق أن نبينا التثنية إلى توحيد العقالة وتوحيد الدلالة .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » .
يريد بها السفن التي تجرى في البحار ؛ يرسل الله الريح فتسيرها مرة ، ويسكنها أخرى ،
وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة .. وهو بهذا يحثهم على التفكير والتنبه دائماً .
والإشارة في هذا إلى إمساك الناس ^(١) في خلال فترة الوقت عن الأنواء المختلفة ،
وحفظهم في إيواء السلامة ، فالواجب الشكر في كل حالة ، وإذا خلص الشكر استوجب
جزيل المزيد .

قوله جل ذكره : « فما أوتيتُم من شيء فمتاعُ الحياةِ
الدُّنيا وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين
آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .
يعني أنِّ الراحة في الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإن اتفق وجود البعض
منها في أحيان فإنها سريعة (الزوال) ^(٢) ، (وشيكة) ^(٣) الارتفاع .
« وما عند الله » من الثواب للعود « خيرٌ » من هذا القليل الموجود .

قوله جل ذكره : « والذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
والفواحش وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرُونَ »
« كَبَائِرُ الْإِثْمِ » : الشِّرك . و « الفواحش » : ما دون ذلك من الزلات . فإذا تركوها
لا يتجرعون كأساً غضب بل تسكن لديهم سورة النفس ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم
في عوم الأحوال .

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا
الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما
رزقناهم يُنفِقُونَ » .

(١) المقصود بإمساك الناس هنا حفظ الله سبحانه وتعالى لهم .

(٢) وردت (المداب) في ص وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (وسكية) في ص وهي خطأ في النسخ .

« استجابوا لربهم » : فيما دعاهم إليه وما أمرهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحيدُ المآبِ .

والمستجيبُ لربه هو الذي لا يبقى له نفسٌ إلا على موافقة رضاه^(١) ، ولا تبقى منه لنفسه بقية .

« وأمرهم شورى بينهم » : لا يستبدُّ أحدُهم برأيه ؛ لأنه يتَّهمُ أمره ورأيه أبداً^(٢) . ثم إذا أراد القطعَ بشيءٍ يتوكل على الله .

قوله جل ذكره : « والذين إذا أصابهم البغيُّ هم ينتصرون » .

« البغيُّ » : الظلمُ ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذي أصابه هو من قبل نفسه ، فينتصر على الظالم وهو نفسه ؛ بأن يكبحَ عنانها عن الركض في ميدان المخاللات .

قوله جل ذكره : « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » .

(يعني لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام)^(٣) .

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » : مَنْ عفا عن الجاني ، وأصلح ما بينه وبين الله — أصلح الله ما بينه وبين الناس . « فأجره على الله » : فالذي للعبد من الله وعلى الله ، وعند الله خيرٌ مما يعمل به باختياره .

قوله جل ذكره : « وَلَكِنْ أَتَّصِرْ بِدُ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(١) هذا ما يعرف عند الصوفية بمراعاة الأتقاس .

(٢) هذا أصل من أصول أهل الملاحة النيسابورية .

(٣) ما بين القوسين سقط في ص وموجود في م .

عَلَّمَ اللَّهُ أَنْ الْكُلَّ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَجِدُ التَّحَرُّرَ مِنْ أَحْكَامِ النَّفْسِ ، وَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْ مُحَاسِنِ الْخَلْقِ فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي الْمَكَاثِفَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَدْلِ وَالْقِسْطِ — وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَى بِهِمُ الصَّفْحُ وَالْعَفْوُ .
 « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ . . » : السَّبِيلُ بِالْمَلَامَةِ لِمَنْ جَاوَزَ الْحَدَّ ، (وَعَدَا الطَّوْرَ)^(١) ، وَأَتَى غَيْرَ الْمَأْذُونِ لَهُ مِنَ الْفِعْلِ . . فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

قوله جل ذكره : « وَلَكِنْ صَبَرْ وَغَفَّرْ إِنْ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

صَبَرَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ غَيْرِ شَكْوَى ، وَغَفَّرَ — بِالتَّجَاوُزِ عَنْ الْخَلَصِ — وَلَمْ تَبْقَ لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ دَعْوَى ، بَلْ يُبْرَى خَصَمَهُ مِنْ كُلِّ دَعْوَى ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . فَذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .
 قوله جل ذكره : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » .

إِنَّ الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ اللَّهُ ، وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ ، وَأَوْقَعَهُمْ فِي كَدِّ عِقَابِهِمْ ، وَحَرَمَهُمْ بَرْدَ الرِّضَا لِحُكْمِ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا مَانِعَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ . وَتَرَاهُمْ إِذَا رَأَوْا الْعَذَابَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ النِّجَاةَ فَلَا يُنَالُونَهَا .

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ خَاشِعُونَ مِنَ الذَّلِيلِ ؛ لَا تَنْفَعُهُمْ تَدَامَةُ ، وَلَا تُسْعَى مِنْهُمْ دَعْوَةٌ ، وَيُسَيَّرُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا ذَكَّرُوهُمْ بِهِ فَلَا يَسْمَعُونَ ، فَالْيَوْمَ لَا نَاصِرَ يَنْصُرُهُمْ ، وَلَا رَاحِمَ يَرْحَمُهُمْ .

قوله جل ذكره . « اسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّكِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ » .

الاستجابةُ لِلَّهِ الْوَفَاءُ بِهِدْءٍ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَالرَّجُوعُ عَنْ مَخَالَفَتِهِ إِلَى مُوَاقِفَتِهِ ، وَالِاسْتِسْلَامُ

(١) فِي ص (وَعَد) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ . وَيُقَالُ عَدَا وَتَعَدَى الطَّوْرَ أَيَّ جَاوَزَ حَدَّهُ وَقَدَّرَهُ (الْوَسِيطُ) .

في كل وقتٍ مُحْكَمِهِ . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سيُفلقُ البابُ على القلبِ بفتةٍ ، ويؤخذُ فلتةً .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا
إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

فإنَّ أَعْرَضُوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة ، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به .
« وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ
بِهَا ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ » .

إذا أذقنا الإنسان مِنَّا رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة ، وقابلها بالبَطْرِ ، ونوَصَّلَ بتمام
هافيته إلى المخالفة ، وجعل السلامة ذريعةً للمخالفة . وإنَّ أصابته فتنةٌ وبليّةٌ ، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ
ورزية فإنه كفُورٌ بنعمائنا ، جحودٌ لآياتنا .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَآآ وَيَهَبُ لِمَنْ
يَشَاءُ الذَّكَورَ » (١)

يهب لمن يشاء الذكور ، ولن يشاء الإناث ، ولن يشاء الجنين ، ويجعل من يشاء عقياً ،
فلا اعتراضَ عليه في تقديره ، ولا اختياريَّ في اختياره ، فهو أَوْلَى بعباده من عباده .

قوله جل ذكره : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولاً فَيُوحِي بِلَاذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ
حَكِيمٌ » .

لله بحقُّ مُلْكِهِ أَنْ يفعلَ ما يشاء ، ويعطي مَنْ يشاء مِنْ عباده ما يشاء ، ولكن أجرى

(١) يرى النسخ أنهُ قدّم الإناث على الذكور هنا ليوضح أنه فاعل لما يشاءه لا لما يشاء الإنسان ، فكان تقديم
الإناث الثلاث من جملة ما لا يشاءه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم . ص ١١١ .

العادة وحسبكم بأنه لا يفعل إلا ما وُردَ في هذه الآية ؛ فلم يُكلّم أحداً إلا بالوحى ، أو من وراء حجاب ؛ يعنى وهو لا يرى الحق ، فالحجوب هو العبد لا الرب ، والحجاب أن يخلق فى محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى الله عن أن يكون من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفة الأجسام المحدودة التى يُسبَلُ عليها ستر . إنه « عَلَى » : فى شأنه وقدره ، « حَكِيمٌ » : فى أفعاله .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

أى ذلك مثلاً أوحينا إليك « روحاً » من أمرنا يعنى القرآن ؛ سمّاه روحاً لأنه من آمن به صار به قلبه حياً .

ويقال « روحاً من أمرنا » : أى جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .
« ما كنت تدري ما الكتاب . . » : ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن ، « ولا الإيمان » : أى تفصيل هذه الشرائع .

« ولكن جعلناه » : أى القرآن « نوراً » نهدي به من نشاء من عبادنا للمؤمنين .
« ألا إلى الله تصير الأمور » : لأن منه ابتداء الأمور .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم « الله : اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ لَمْ يُعَلِّقْ بِغَيْرِهِ صَوَاعِدَ هِمَمِهِ ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَى سُدَّةٍ مَخْلُوقٍ بِقُدَمِهِ فِي ابْتِغَاءِ كَرَمِهِ . اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَهُ خَفَايَا لُطْفِهِ ^(١) لَمْ يَتَذَكَّلْ ^(٢) فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى غَيْرِهِ فِي شَرِّهِ وَخَيْرِهِ .

قوله جل ذكره : « حم » والكتاب المبين * إنا جعلناه

قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون »

الحاء تدل على حياته والميم على مجده . . وهذا قسم ؛ ومعناه : وحياتي ومجدي وهذا القرآن إن الذي أخبرت عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌ وصدقٌ . وجعلناه قرآنًا عربيًا ليتيسرَ عليكم فهمُ معناه .

قوله جل ذكره : « وإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا

لَعَلِّيْ حَكِيمٌ »

« فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا » : أَيْ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ .

« لَعَلِّيْ حَكِيمٌ » لَعَلِّي الْقَدِيرُ ، حَكِيمُ الْوَصْفِ ؛ لَا تَبْدِيلَ لَهُ وَلَا تَحْوِيلَ .

قوله جل ذكره : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا

أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ »

أَيْ أَتُنَالَا فَعَلَ ذَلِكَ ؛ (فَيَكُونُ مَعْنَى الْاسْتِفْهَامِ) ^(٣) أَفَنَقْطَعُ عَنْكُمْ خُطَابَنَا وَتَعْرِيفَنَا

(١) هكذا في م وهي في ص (بخفاء حكمه) . وقد آثرنا الأول لأنها أكثر تسمية لسياق .

(٢) هكذا في م وهي في ص (لم تبدل) وواضح الخطأ الناسخ .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عدنا ليهما لك السياق . والاستفهام في الآية يفيد الإنكار .

إن أسرفتم في خلافكم ؟ لا ... إنما لا نرفع التكليف بأن خالفتم ، ولا نهجركم — يقطع الكلام عنكم — إن أسرفتم .

وفي هذا إشارة لطيفة وهو أنه لا يقطع الكلام — اليوم — عن تَمَادَى في عصيانته ، وأسرف في أكثر شاته . فأحرى أن من لم يقصر في إيمانه — وإن تَلَطَّحَ بعصيانته ، ولم يدخل خلل في عرفاته — ألا يمنع عنه لطائف غفرانه^(١) .

قوله جل ذكره : « وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون » .

ما أتاهم من رسول فقابلوه بالتصديق ، بل كذب به الأَكثَرُونَ وجحدوا ، وعلى غيهم أصروا ...

فأهلكنا أشد منهم بطشاً ،

أى لم يُعْجِزْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ ، ولم نقادر منهم أحداً ، وانتقمنا من الذين أساءوا .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم من خلق السموات

والأرض ليقولنَّ خَلَقْنَهُنَّ العزُّزُ العليم »

كانوا يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ خالقهم ، وأنه خلق السموات والأرض ، وإنما جحدوا حديث الأنبياء ، وحديث البعث وجوازه .

« الذى جعل لكم الأرض مهذا فجعل

لكم فيها سُبُلًا لعلكم تهتدون »

كما جعل الأرض قراراً لأشباحهم جعل الأشباح قراراً لأرواحهم ؛ فأنخلق سُكَّانَ الأرض ، فإذا انتهت المدة — مدة كَوْنِ النفوس على الأرض — حَكَمَ اللهُ بخرابها . . . كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّةِ قضى اللهُ بخرابها .

(١) هكذا تتجلى نزعَةُ الأمل والتفاؤل عند هذا الصوفى حيث يحاول في إشارته أن يبين كيف أن رحمة الله تمتد لتشمل المزمين العصاة حتى من أسرف منهم على نفسه .

قوله جل ذكره : « والذي نَزَّلَ من السماء ماءً يَقْدَرِ

فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ »

يعنى كما يُحْيِي الْأَرْضَ بِالْمَطَرِ يُحْيِي الْقُلُوبَ بِحُسْنِ النَّظَرِ .

قوله جل ذكره : « والذي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا »

أَي الْأَصْنَافَ مِنَ الْخَلْقِ

« وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْقُلُوبِ وَالْأَنْعَامِ

مَا تَرَوْنَ كَبُونَ »

كَذَلِكَ جَنَّسَ عَلَيْكُمْ الْأَحْوََالَ كُلَّهَا ؛ فَمِنْ رَغْبَةٍ فِي الْخَيْرَاتِ إِلَى رَهْبَةٍ بِمَا تَوَعَّدَكُمْ بِهِ مِنْ

الْعُقُوبَاتِ . وَمِنْ خَوْفٍ يَحْمِلُكُمْ عَلَى تَرْكِ الزَّلَّاتِ إِلَى رَجَاءٍ يَبْعَثُكُمْ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ طَمَعًا

فِي الْمَثُوبَاتِ . . . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ الصِّفَاتِ

« لَتَسْتَبْشِرُوا عَلَى ظُهُورِهِ » .

يعنى الْقُلُوبَ وَالْأَنْعَامَ . .

« ثُمَّ تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ

عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا

وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ »

مُطِيعِينَ ، وَكَأَسَخَّرَ لَمْ الْقُلُوبَ فِي الْبَحْرِ ، وَالْأَنْعَامَ لِلرُّكُوبِ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْهِمُ النِّعَةَ بِذَلِكَ

فَكَذَلِكَ (سَهَّلَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَرْكَبَ التَّوْفِيقِ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى بَسَاطَةِ الطَّاعَةِ ^(١)) ، وَسَهَّلَ

لِلْمُرِيدِينَ مَرْكَبَ الْإِرَادَةِ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى عَرَصَاتِ الْجُودِ ، وَسَهَّلَ لِلْعَارِفِينَ مَرْكَبَ الْمَعْرِفَةِ

فَأَنَافَخُوا بِعِزَّةِ الْعِزَّةِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ تَحَطُّ الْكَافَّةُ ؛ إِذْ لَمْ تَخْرُقْ سَرَادِقَاتِ الْعِزَّةِ هِيَّةً

مَخْلُوقٍ : سِوَاهُ كَانَ مَلَكًا مُقَرَّبًا أَوْ نَبِيًّا مُرْسَلًا أَوْ وَلِيًّا مُكْرَّمًا ، فَعِنْدَ سَطَوَاتِ

الْعِزَّةِ يَتَلَاشَى كُلُّ مَخْلُوقٍ ، وَيَقِفُ وَرَاءَهَا كُلُّ مُخَدَّثٍ مُسَبِّقٍ ^(٢) .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي صَرْفٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٍ فِي مَقَابِلَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ مَرْتَبَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةٌ

تَلِيهَا مَرْتَبَةُ الْمُرِيدِينَ وَهِيَ خَاصَّةٌ ، ثُمَّ لِلْعَارِفِينَ وَهِيَ خَوَاصُّ الْخَوَاصِّ .

(٢) يَرْتَبِطُ ذَلِكَ بِمَذْهَبِ الْقَشِيرِيِّ فِي «الْفَتَا» ، وَكَيْفَ أَنَّ الصَّدِيقَةَ تَجَلُّ عَنِ الْإِسْتِثْرَافِ .. نَافِيكَ بِمَا يَزْعُمُهُ

آخَرُونَ مِنْ حُلُولِ وَاتِّحَادِ .. وَغَيْرِ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : « وجعلوا له من عباده جزءاً إنَّ
الإنسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ »

هم الذين قالوا : الملائكةُ بناتُ الله ؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة
مخلوقاته . . . تسكَّأ لم في قولهم ذلك وخزياً ^(١) ! ! فردَّ عليهم ذلك قائلاً :

« أَمْ اتَّخَذَ عَمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم
بِالْبَنِينَ »

قال لهم على جهة التوبيخ ، وعابهم بما قالوا ؛ إذ - على حدِّ قولهم - كيف يُؤثِّرُهم
بالبنين ويجعل لنفسه البنات ؟ ! ففى قولهم ضلالٌ ؛ إذ حكموا للقديم بالولد . وفيه جهلٌ ؛
إذ حكموا له بالبنات ولم بالبنين - وهم يستنكفون من البنات . . . ثم . . . أى عيب فى البنات ؟
ثم . . . كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ - وهم لم يشاهدوا خَلْقَتَهُمْ ؟
كلُّ ذلك كان منهم خطأ محظوراً .

قوله جل ذكره : « وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم
ما لم بذلك من علمٍ إنَّ هم
إلا يَخْرُصُونَ »

إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً ، قال تعالى : « ما لم بذلك من علم »
ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً .

ثم قال : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
مُتَسَمِّكُونَ »

أى ليس كذلك ، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضَى إلى العلم ، قال :

« بل قالوا إِنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وَإِنَّا
على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ »

(١) في م (وخزياً) وهي غير ملائمة - كما هو واضح .

فنحن قتلناهم ، ثم قال :

« وكذلك ما أرسلنا من قبلك في
قرية من نذير إلا قال مُتْرَفُوهَا إِنَّا
وجدنا آبائنا على أمةٍ وإنا على آثارهم
مقتدون »

سلكوا طريق هؤلاء في التقليد لأسلافهم ، والاستنامة إلى ما اعتادوه من السيرة
والعادة .

قوله جل ذكره : « قال أو لو جئتكم بأهدى
مما وجدتم عليه آبائكم قالوا إنا بما
أُرْسِلْتُمْ به كافرون »

فلم ينجح فيهم قوله ، ولم ينفعهم وعظله ، وأصرُّوا على تكذيبهم ، فانتقم الحق
— سبحانه — منهم كما فعل بالذين من قبلهم .

قوله جل ذكره : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه
إني بريء مما تعبدون »

أخبر أن إبراهيم لما دعا أباه وقومه إلى الله وتوحيده أبوا إلا تكذيبه ؛ فتبرأ
منهم بأجمعهم ، وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقبه وقومه .

قوله جل ذكره : « بل متَّبِعُ هؤلاء وآباءهم
حتى جاءهم الحق ورسول مبين » .

أَرْخَيْنَا عَنَانَ إِمَهُالْمِ مَدَّةً ، ثم كان أمرهم^(١) أن انتصرونا منهم ، ودَمَرْنَاهم
أَجْمَعِينَ .

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ

(١) هكذا في م ومي في م (آخرهم) ومي مقبولة في السياق على معنى (آخر أمرهم) أو (آخر شأنهم) .

عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبَيْنِ عَظِيمٍ ،

إِنَّمَا أَبِي مَسْعُودٍ التَّقِيُّ^(١) أَوْ أَبِي جَهْلٍ ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ .

« أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟
نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ،
وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »

أَمْ يَقْسِمُونَ - يَا مُحَمَّد - رَحْمَةَ رَبِّكَ فِي التَّخْصِيسِ بِالنَّبِوَةِ ؟ أَيْ كَوْنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ
- سُبْحَانَهُ - عَلَى مُقْتَضَى هَوَاهُمْ ؟ بَلَسَ مَا يَحْكُمُونَ !

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ » فَلَمْ نَجْعَلِ الْقِسْمَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَهُمْ فَكَيْفَ نَجْعَلِ
قِسْمَةَ النَّبِوَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ ! ؟

والإشارة من هذا : أَنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - لَمْ يَجْعَلِ قِسْمَةَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ إِلَى
أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا الْمَرْدُودُ مَنْ رَدَّ بِحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَالْمَقْبُولُ - مِنْ جِهَةِ عِبَادِهِ - مَنْ
أَرَادَهُ وَقَبِلَهُ . . . لَا لِمَلَّةٍ أَوْ سَبَبٍ ، وَلَيْسَ الرَّدُّ أَوْ الْقَبُولُ لِأَمْرِ مُكْتَسَبٍ^(٢) . . .
ثُمَّ إِنَّهُ قَسَمَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ النِّعْمَةَ وَالْفَنَى ، وَلِبَعْضِ الْقَلَّةِ الْفَقْرَ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَكَنًا يَسْكُنُونَ إِلَيْهِ يَسْتَلُونَ بِهِ ؛ فَلِلْأَغْنِيَاءِ وَجُودُ الْإِنْعَامِ وَجَزِيلُ
الْأَقْسَامِ . . فَشَكَرُوا وَاسْتَبَشَرُوا ، وَالْفُقَرَاءُ شُهِدُوا الْمُنْعَمَ وَالْقَسَامَ . . فَحَمَدُوا وَافْتَخَرُوا .
الْأَغْنِيَاءُ وَحَدُوا النِّعْمَةَ فَاسْتَغْنَوْا وَانْشَغَلُوا ، وَالْفُقَرَاءُ سَمِعُوا قَوْلَهُ : « نَحْنُ » فَاسْتَغْلَوْا^(٣) .

(١) هُوَ أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّقِيُّ مِنَ الْمَائِثَةِ ، وَأَبُو جَهْلٍ مِنْ مَكَّةَ فَالْقَرِيبَتَانِ هُمَا الطَّائِفَتَانِ وَمَكَّةُ .
وَرَوَى أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ - وَكَانَ يُسَمَّى رِيحًا بِقَرِيشٍ - كَانَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَزَلَ عَلَى
أَوْحَلِ أَبِي مَسْعُودٍ .

(٢) مَرَّةً أُخْرَى يَنْبَغِي الْقَشِيرَى إِلَى أَنَّ الْمَعْمُولَ عَلَيْهِ فِي الْأَمْرِ فَضْلُ اللَّهِ وَقِسْمَتُهُ ، وَلِهَذَا الرَّأْيُ شَأْنُهُ فِي مَسْأَلَةِ
النَّوَابِ وَالْعِقَابِ الَّتِي اتَّخَذَهَا الْمُعْتَزِلَةُ وَسِيلَةً مِنْ مَسَائِلِ تَبْرِيرِ الْحُرِّيَةِ الْإِنْسَانِيَةِ - كَمَا نَبَهْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي هَوَامِشِ كَثِيرَةٍ
مِنَ الْكِتَابِ .

(٣) أَيْ (اسْتَغْلَوْا) بِأَنَّهُ طَاعَتُهُ دُونَ غَايَةِ غَيْرِيهِ أَوْ مُطَاعٍ زَائِلٍ . وَنَحْنُ لَا نَسْتَجِدُّ أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ فِي الْأَصْلِ
(فَاسْتَغْلَوْا) فَهَذَا هُوَ تَعْبِيرُ الشَّيْخِ الْمَأْثُوفِ فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ .

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأَنْصار : أما ترضون أن يرجع الناس بالفتى ؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم ؟

« ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا .. » : لو كانت المقاديرُ متساويةً لَتَعَطَّلَتِ المَعايشُ ، وَلَبَقِيَ كُلُّ عِنْدَ حَالِهِ ؛ فَجَمِلَ بَعْضُهُمْ مَخْصُومِينَ بِالرَّقَةِ وَالْمَالِ ، وَآخَرِينَ مَخْصُومِينَ بِالْفَقْرِ وَرَقَةِ الْحَالِ .. حَتَّى احْتِاجَ الْفَقِيرُ فِي جَبْرِ حَاجَتِهِ إِلَى أَنْ يَعْمَلَ الْغَنِيُّ كَمَا يَرْتَفِقُ مِنْ جِهَتِهِ بِأَجْرَتِهِ فَيَصْلُحُ بِذَلِكَ أَمْرُ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ جَمِيعًا .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ »

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر ؛ فالذي يبقى عنا لو صَبَّحْنَا عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ جَبْرَانًا لِمَصِيبَتِهِ . وَلَوْ لَا فِتْنَةُ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَجَعَلْنَا لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ مِنْ فُضَّةٍ ، وَكَذَلِكَ مَا يَكُونُ شَيْئًا بِهَذَا .

ولو فعلنا .. لم يكن لِمَا أُعْطِينَاهُ خَطَرٌ ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا خَطَرٌ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ يَفْسُقْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ
تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ الْخُلُوعِ مَعَ اللَّهِ فَخَادَ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَأَخْلَدَ إِلَى الْخُلُوطِ الرَّدِيَّةِ قَيِّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يَشْغَلُهُ مِنَ اللَّهِ — وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْأَدْبَ فِي الْخُلُوعِ . وَإِذَا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ فِي خُلُوعِهِ بِرَبِّهِ .. فَلَوْ تَعَرَّضَ لَهُ مَنْ يَشْغَلُهُ عَنْ رَبِّهِ مَرَّفَهُ الْحَقُّ عَنْهُ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ ، وَمَرَّفَ دَوَاعِيَهُ عَنْ مَفَاتِحِهِ بِمَا يَشْغَلُهُ مِنَ اللَّهِ .

ويقال : أَصْعَبُ الشَّيَاطِينِ نَفْسُكَ ؛ وَالْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ خَطَرَ فَرَاغِ قَلْبِهِ ، وَاتَّبَعَ شَهْوَتَهُ ، وَفُتِحَ ذَلِكَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ بَقِيَ فِي يَدِ هَوَاهُ أَسِيرًا لَا يَكَادُ يَتَخَلَّصُ عَنْهُ إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » حَتَّى إِذَا جَاءَنَا

قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين
فبئس القرين »

الذي سوّت له نفسه أمراً يتوّهم أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبه على مواقفته في باطله ، ويدّعي أنه على حق . وهو بهذا يضر بنفسه ويضر بغيره . ثم إذا ما انكشف — غداً — الفطاء تبين صاحبه خيانتته ، وتقدم على صُحبته ، ويقول : « يا ويلتي ليتني لم آتخذ فلاناً خليلاً »^(١) و « يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين » . ولكن هذه الندامة لا تنفع حينئذ ؛ لأن الوقت يكون قد فات ، لهذا قال تعالى :

« ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم
في العذاب مشتركون »

قوله جل ذكره : « أفأنت تسمع الصم أو تهدي
العمى ومن كان في ضلال مبين » .

هذا الاستفهام فيه معنى النفي ؛ أي أنه ليس يمكنك هداية من سددنا بصيرته ، ولبسنا عليه رُشدّه ، ومن صَببنا في مسامع فهمه رصاص الشقاء والحُرمان... فكيف يمكنك إسماعه؟! قوله جل ذكره : « فإما نذعن بك فإنا منهم منتقمون »

بني : إن انقضى أجلك ولم يتفق لك شهود ما تتوعدهم به فلا تتوهم أن صديق
كلامنا يشوبه مَين^(٢) ، فإن ما أخبرناك عنه — لا محالة — سيكون .

قوله جل ذكره : « أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم
مقتدرون »

أثبتته على حدّ الخوف^(٣) والرجاء ، ووقفه على وصف التجاوز لاستبداده^(٤) — سبحانه

(١) آية ٢٨ سورة الفرقان .

(٢) في م (مين) وهي خطأ في النسخ إذ الصواب (المين) أي الكذب .

(٣) في ص (الحزن) ؛ لكننا آثرنا عليها ما جاء في م فالخوف — لا الحزن — يقابل الرجاء في المصطلح الصوفي (أنظر رسالة القشيري ص ٣٥) .

(٤) استبد بالامر — انفرد به (الوسيط) .

بعلم الغيب . والمقصود كذلك أن يكون كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير —
فإنه يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : « فاستمِعْ بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
على صراطٍ مستقيم »

اجتهد من غير تقصير وتوكل على الله من غير فتور ، وقف حيناً أمرت ، وثق بأنك
على صراطٍ مستقيم .

قوله جل ذكره : « وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ
تُسْأَلُونَ » .

أى إنَّ هذا القرآن لَذِكْرٌ لك ؛ أى شرف لك ، وحسن صيت ، واستحقاق منزلة .

قوله جل ذكره : « واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا أَجَبْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً
يُعْبَدُونَ » .

حشرَ أرواحَ الأنبياء — عليهم السلام — ليلة الإسراء ، وقيل له — صلى الله عليه وسلم :
سَلِّمْ : هل أمرنا أحداً بعبادة غيرنا ؟ فلم يشك النبي — صلى الله عليه وسلم — ولم يسأل^(١)
ويقال : الخطابُ له ، والمرادُ به غيره . . فمن يرتاب في ذلك ؟ (ويقال : المراد منه سَلِّ
أقوامهم ، لكى إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم)^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولقد أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ »

كرر قصة موسى غير مرة في القرآن ، وأعادها هنا مجلَّة ؛ أرسلناه بدلائلنا ، أرسلناه بحجة
ظاهرة قاهرة ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط ، قوبل بالهزم والضحك

(١) عن ابن عباس أنه قال : « لا أسأل قد اكتفيت » وعنه أيضاً : أنه لم يسأل لأنه كان أعلم بالله منهم .
(٢) ما بين القوسين ساقط في م ، والمقصود بها : أسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة
والانجيل — وعلى هذا رأى جمهور من المفسرين منهم مجاهد والضحك وقتادة .

والتكذيب . ومع أنَّ الله سبحانه لم يُجِرْ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضح مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاء أو حشٍّ مما قبله . فلما عضَّهم الأمرُ قالوا : يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ، اذْغُ لَنَا رَبَّكَ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْبَلِيَّةَ لِنُؤْمِنَ بِكَ ، فدعا موسى ... فكشف الله عنهم ، فعادوا إلى كفرهم ، ونقضوا عَهْدَهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

تعرَّزَ بملك مصر ، وجَرى النيل بأمره ! وكان في ذلك هلاكه ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تعرَّزَ بشيء من دون الله لِحُفْنِهِ وهلاكه في ذلك الشيء .

« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » .

استصغر موسى وحديثه ، وعابه بالفقر . . فسَلَّطَه اللهُ عليه ، وكان هلاكه بيديه ، فاستصغر أحدهُ أحداً إلا سَلَّطَه اللهُ عليه^(١) .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »

أطاعوه طاعة الرهبة ، وطاعة الرهبة لا تكون مخلصَةً ، وإنما تكون الطاعة صادقة إذا صدرت عن الرغبة .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم فَأغرقناهم أجمعين » .

« آسَفُونَا » أغضبونا ، وإنما أراد أغضبوا أوليائنا ، فاستقمنا منهم . وهذا له أصل في باب

(١) يحاول الشقي أن يفتخر بأولئك الذين يتعرضون للأولياء والعارفين ، وكيف أن الحق - سبحانه - يتول عنهم ردَّ كيد الكائدين .

الجمع^(١) ؛ حيث أضاف إيساقهم لأوليائه إلى نفسه . . وفي الخبر : أنه يقول : « مَرَضْتُ فَمَ تَعْدُنِي »^(٢) .

وقال في قصة إبراهيم عليه : « يأتوك رجالاً .. »^(٣)

وقال في قصة نبيينا — صلى الله عليه وسلم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »^(٤) .

قوله جل ذكره : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

وَضَرْبُ الْمَثَلِ بعيسى هو قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »^(٥) ؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين . فاجعلوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »^(٦) ، فقالوا : رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعُزَيْرُ وَالْمَلَائِكَةِ ، وليس لهم في الآية موضع ذِكرٍ ؛ لأنه سبحانه قال : « وما » تعبدون ، ولم يقل « ومن » تعبدون^(٧) .

قوله جل ذكره : وقالوا هاهنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هم قومٌ خصِمُونَ .

ما ضربوه لك إِلاَّ جَدَلًا : وذلك أنهم قالوا : إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة ، وإن قال : عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعبد ، وإن قال : ليس واحدٌ منهم

(١) عندما يضاف الفعل إلى الحق يكون المعنى منصرفاً إلى حال الجمع ، وعندما ينسب إلى الخلق يكون منصرفاً إلى حال الفرق ، مثلما أوضح القشيري هنا ، ومثلما أوضح عند قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٢) أصل الحديث : أنه تعالى يقول : « يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدني ، واستمعتك فلم تستني ، واستعلمتك فلم تعلمني » القرطبي : ج ٢٠ ، ص ٥٥ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج ، والخطاب في الآية لإبراهيم في مقام الفرق ، والنجينا في مقام الجمع .

(٤) آية ٨٠ سورة النساء .

(٥) آية ٥٩ سورة آل عمران .

(٦) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

(٧) لأن « من » لما قبل و « ما » لنير لما قبل فالمقصود الأصنام .

خيراً قد نفى ذلك عن عيسى عليه السلام . هم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم يكن سؤالهم للاستفادة . فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعبَد ؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام يستحق أن يكون معبوداً من دون الله . وهكذا بين الله — سبحانه — لنبيه أنهم قوم جدِّلون^(١) ، وأنَّ حُجَّتَهُم راحضةٌ عند ربهم

قوله جل ذكره « إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » .

فليس عيسى إلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالنبوة .

« وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ »

ولو شئنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الْأَرْضِ بِدَلَّكُمْ .
ثم قال : « وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ »
« وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ » : يعنى به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للسَّاعَةِ ، « فَلَا تَمْتَرُنَّ » ينزوله بين يدي القيامة^(٢) .

« وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »

ولا يصدنكم الشيطان عن الإيمان بالسَّاعَةِ ، وعن اتِّبَاعِ الْإِيمَانِ بِهِدَايِ .

(١) سبب نزول هذه الآية وما سبقها تلك المناظرة التي حاول بها عبد الله بن الزبيرى السهمى أن يستهوى فريشاً بإثارة اعتراضات باطلة ، فأفحمه المتعلق القرآنى ، وأخبره بلججه .

يقول معروف الكرخى : إذا أراد الله بعبده خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبده شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل (الروض الفائق ، ج ١ ، ص ١٣٩) .

(٢) عن أبي هريرة — كما ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه — قال قال رسول الله (ص) : ليترن عيسى ابن مريم حكماً عادلاً فليكرموا الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتركن القلاص فلا يسمنن إليها ، ولتلهبن الشحاه والتباقض والتحامد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد .

قوله جل ذكره : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون » .

ذكر بحجى عيسى عليه السلام أول مرة ؛ حيث آتى قومه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تحزّبوا عليه^(١) ، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة .

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

ما كان لغير الله فآله إلى الضياع . والأخلاء الذين اصطحبوا على متنفذى الهوى بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرأ بعضهم من بعض ، فلا ينفع أحداً أحداً .

وأما الأخلاء في الله فيشفع بعضهم في بعض ، ويتكلم بعضهم في شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله : « إلا المتقين » .

وشرط الخلّة^(٢) في الله ؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعض ؛ حتى تكون الصحبة خالصة لله لا لنصيب في الدنيا ، ويكون قبول بعضهم بعض لأجل الله ، ولا تجرى بينهم مداينة ، وبقدّر ما يرى أحدهم في صاحبه من قبول لطريق الله يقبله ، فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه غاد هذا إلى مودته ، وإلا فلا ينبغي أن يساعد على معصيته ، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكن إليه لنرضى دنيوى أو لطمع أو لِعِوض .

قوله جل ذكره : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

يقال لهم غداً : « يا عبادى^(٣) لا خوف عليكم اليوم » مما يلقاه أهل

(١) كان تحزّبهم إلى فرق متعددة هم : البعقوية والنسطورية والملكانية والشمونية .

(٢) تضاف هذه الآراء إلى ما ذكره القشيري في رسالته في باب « الصحبة » .

(٣) بالياء في الرّسل والوقف مدنى وشامى وأبو عمرو ، وفتح الياء أبو بكر ، والباقون بحذف الياء .

الجمع^(١) من الأهوال ، ولا أنتم تمزنون فيما قصرتُم من الأعمال ...

أما الذنوب . . فقد غفرناها ، وأما الأهوال ... فكفيناهما ، وأما المظالم . . فقضيناها .
فإذا قال المنادى : هذا الخطاب يُطعمُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :
« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين »

أيس الكفارُ ، وقوى رجاء المسلمين^(٢) .

قوله جل ذكره : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم
تُحَبَّرُونَ^(٣) »

في رياض الجنة ، وترتعون .

ويقال : « تحبَّرون » من لذة السماع .

قوله جل ذكره : « يُطَافُ عليهم بصِحَافٍ من ذهبٍ
وأَكوابٍ وفيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذُّ
الأعينُ وأنتم فيها خالدون » .

العَبَاد لهم فيها ما تشتهي أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا — بحكم الجاهدات — الجوعَ
والعطشَ ، وتحملوا وجوهَ المشاقِّ ، فيُجازون في الجنةَ بوجوهٍ من الثواب .

وأما أهل المعرفة والمحبتون ، فلهم ما يلدُ أعينهم من النظر إلى الله^(٤) لطول ما قاسوه من
فَرْطِ الاشتياقِ بقلوبهم ؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليهم .

(١) يفسر النسبُ أهل الجميع بأنهم أهل مكة (آية ٥ : سورة القصر) .

(٢) قريبٌ مما ذكره القشيري ما أورده الحارث المحاسبي في رعايته . (ينادى المنادى يوم القيامة : يا عبادي
لا خوف عليكم اليوم ... فيرفع الخلائق وموسمهم ، ويقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : « الذين آمنوا ... »
ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتنون » فينكس أهل الكبائر وموسمهم ، ويبقى أهل التقوى والنفى وموسمهم ،
قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم) .

(٣) تحبَّرون أي تسرون مروراً يظهر - باره (= أثره) على وجوهكم .

(٤) الجنة الحقيقية عند أرباب الأحوال رؤية الله ، ورد في الخبر : أسألك لذة النظر إلى وجهك .

قوله جل ذكره : « وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون »

أى يقال لهم — والخطاب للمطيعين غداً — : أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم ؛ والصدق في أحوالكم :

« لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفي الأنس تتقبلون .

قوله جل ذكره : « إنَّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون » . هؤلاء هم الكفار المشركون ، فهم أهل الخلود^(١) ، لا يُفتر عنهم العذاب ولا يُخفف . وأمَّا أهل التوحيد : فقد يكون منهم قوم في النار . ولكن لا يخلدون فيها . ودليل الخطاب يقتضى أنه يُفتر عنهم العذاب . ورد في الخبر الصحيح : أنه يُعيتهم الحق — سبحانه — إمامة إلى أن يُخرجهم من النار — واليت لا يحس ولا يتألم^(٢) . « لا يُفتر عنهم وهم فيه مُبلسون » .

الإبلاس^(٣) من الخيبة ، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها ، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم ؛ يمدون أيامهم إلى أن ينتهى حسابهم .

ولقد قال الشيوخ : إنَّ حال المؤمن في النار — من وجه — أروح قلبه من حاله في الدنيا ؛ فاليوم — خوف الملاك ، وغداً — يقين النجاة ، وأنشدوا :

عيب السلامة أن صاحبها متوقع لقواصم الظهور
وفضيلة البلوى ترقب أهلها — عقب الرجاء — مودة الدهر

(١) يضاف هنا للكلام الدارأى التشيرى في أبدية النار ، على خلاف ما يقرب إليه ببعض الساجدين من أن القوة الجسمانية منافية فلا به من ثباتها ، ولأن دوام الإحراق مع بقاء الحياة خروج عن حكم القتل (انظر شرح المواضع ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ وشرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٢٨) .

(٢) روى أحمد في مسنده : « . . أماتهم إمامة حتى إذا كانوا فعلاً أذن بالشفاعة ، فجاء بهم يسائر بضائر ، فبشروا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة . أفيضوا عليهم ملبسون لبات الجنة . . » (٣) أبليس : سكنت لممرته وانلطاع حجبته .

قوله جل ذكره : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين »

هذا الخطاب يُشبه كلمة العذر — وإن جل قدره — سبحانه — عن ذلك .

قوله جل ذكره : « ونادوا يا مالِكُ ليقضِ علينا ربُّك »

قال إنكم ما كثون * لقد جئناكم بالحقِّ

ولكن أكثركم للحقِّ كارهون .

لو قالوا : « يا مالِكُ » لعل أقوالهم ^(١) كانت أقرب إلى الإجابة ، ولكن الأجنبية حالت

بينهم وبين ذلك ^(٢) ، فكان الجواب عليهم :

« إنكم ما كثون » فيها . . . نصيحتهم فلم تنتصحو ، ولم تقبلوا القول في حينه ، وكان

أكثرهم للحق كارهين .

قوله جل ذكره : « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » ^(٣)

بل أمورهم مُنتَقِضة عليهم ؛ فلا يتمشى لهم شيء مما دبّروه ، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو

ما قدّروه — وهذه الحال أوضح دليل على إثبات الصانع .

قوله جل ذكره : « أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم

ونجواهم بل ورسلنا لديهم يكتبون » .

إنما خوفهم بسمع الملك ، وبكتابتهم أعمالهم عليهم لغفلتهم عن الله — سبحانه ، ولو كان

لهم خبرٌ عن الله لما خوفهم بغير الله ، ومن علم أن أعماله تُكتب عليه ، وأنه يُطالبُ بمقتضى

ذلك — قلّ إلماؤه بما يخاف أن يُسأل عنه . .

قوله جل ذكره : « قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ

للعابدين » .

(١) في (أحوالكم) وقد آثرنا عليها (أقوالكم) التي في م كما يتضح من السياق القرآني والسياق التفسيري .

(٢) يلفت القشيري نظرنا — من بعيد — إلى أن الدعاء ينبغي أن يتجه بالكلية إلى الرب سبحانه ، وقد يكون لذلك أهميته في فكرة الاستشفاع بالوسيلة — كما يتصورها هذا الإمام .

(٣) يقال إن الآية نزلت في تدبير الكائدين المكر بالنبي (ص) في دار الندوة حين استقر أمرهم — حسب مشورة أبي جهل — على أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ثم يشتركون في قتله فتضعف المطالبة بدمه صلوات الله عليه . وكانت النتيجة أن قتلوا جميعاً يوم بدر .

أى إن كان فى ضميركم وفى حُكمِكم وفى اعتقادكم أن للرحمن ولداً فأنا أول مَنْ
يستنكِفُ من هذه القالة .

قوله جل ذكره : « سبحان ربَّ السمواتِ والأرضِ ربَّ
العرشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

تنزَّه الله تنزهاً ، وتقدَّس تقدُّساً عما قالوه . وفى هذه الآيات وأمثالها دليلٌ على جوازِ
حكاية قول المبتدعة — فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود — قصداً للردِّ عليهم ، وإخباراً
بتقبيح أقوالهم ، وبطلانِ مزاعمهم .

ثم قال جل ذكره : « قَدْ زَمُّمُ يَخُوضُوا ويلعبوا حتى يُبْلِقُوا
يومَهُم الذى يُوعَدُونَ » .

إذ ليس يقوت أمرهم ، وهم لا محالة سيلقون صفرهم .
وفى هذا دليلٌ على أنه لا ينبغي للمعبود أن يَمْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ المواقبَ غيرُ مأمونة .
قوله جل ذكره « وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرضِ
إلهٌ وهو الحكيمُ المليمُ » .
المعبودُ — فى السماء — الله ، والمقصودُ — فى طلب الحوائج فى الأرضِ — الله .
أهلُ السماءِ لا يعبدون غيرَ الله ، وأهلُ الأرضِ لا يَقْضِي حوائجهم غيرَ الله .
« وهو الحكيمُ » فى إِمهاله للمصاة ، « المليمُ » بأحوالِ العباد .

« وتبارك الذى له مُلْكُ السمواتِ
والأرضِ وما بينهما وعنده علمُ الساعةِ
وإليه تُرجعون » .

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكَبَّرَ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ .
السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر . لا هو بظهورها يتعزَّزُ^(١) .

(١) الصوفية يستدلون بالخالق على ما خلق ، لأنه حاضر ومشهود ، وهو قديم قامت به الحادثات ...
يقول ابن عطاء الله السكندرى : « متى غبت حتى تكون الأكوام شاهدة عليك ؟ »

قوله جل ذكره : « ولا يملك الذين يدعون من دونه

الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

أى شهد — اليوم — بالتوحيد ، فيثبت له الحق حق الشفاعة . وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة^(١) .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله

فأنى يؤفكون » .

فكيف لا يعتبرون ؟ وكيف يتكبرون عن طاعة الله .

« وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون »

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون »

أى يعلم علم الساعة ويعلم^(٢) « قيله يارب »

« فاصفح عنهم . . . » أى أمهلهم ، وقل لكم منى سلام . . . ولكن سوف تعلمون عقوبة

ما تستوجبون .

(١) واضح أن الفشيرى يعترف الآية إلى المسلمين عامة ويخرج المشركين ، وتذهب بعض التفاسير إلى أن معنى « الذين من دونه » هم عيسى وعزير والملائكة ، فهم لا يملكون الشفاعة .

(٢) عاصم وحزة يجران (قيله) على الإضافة وعنده علم الساعة وعلم قيله يارب ، والسبب على النصب : ويعلم قيله . . .

سورة الدخان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من ذكرها نال في الدنيا والمُتقى بهجته ، ومن عرفها بذل في طلبها مهجته .

كلمة إذا استولت على قلب عطّلت عن كل شغل ، كلمة إذا واظب على ذكرها عبد أمنت من كل هول .

قوله جل ذكره : « حم * والكتاب المبين »

الحاء تشير إلى حقه ؛ والميم تشير إلى محبته . ومعناه : بحق وبمحبة لِعِبَادِي ، وبكتابي العزيز إليهم : إني لا أعذب أهل معرفتي بفرقتي (١) .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا

مُنذِرِينَ * فيها يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »

« في ليلة مباركة » : قيل هي ليلة القدر ، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصلح (٢) .

أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كل سنة بمقدار ما كان جبريل ينزل به على الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) .

وسمّاها : « ليلة مباركة » لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالي بركة ليلة يكون العبد

فيها حاضراً بقلبه ، شاهداً لرَبِّه ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة .

(١) يبدو أن التثنية لم يعتبر « إنا أنزلناه... » جواباً للقسم ، وإلّا هذا يذهب بعض النحاة الذين يعتبرون

ذلك صفةً المُقَسَّم به ، ولا تكون صفة المُقَسَّم به جواباً للقسم (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٦ ص ١٢٥) .

(٢) من أسماء هذه الليلة : الليلة المباركة ، ليلة البراءة ، ليلة الصلح .

(٣) أي على مدى ثلاث وعشرين سنة .

وأحوال هذه الطائفة^(١) في لياليهم مختلفة ، كما قالوا :

لا أَظْلِمُ اللَّيْلَ ولا أَدْعَى أَنَّ نَجْمَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَزُولُ
لَيْلِي كما شَاءَتْ : قَصِيرٌ إِذَا جَادَتْ ، وَإِنْ ضَنْتُ فَلَيْلِي طَوِيلٌ .
« فيها يفرق كل أمرٍ حكيم » يكتب من أم الكتاب في هذه الليلة ما يحصل في السنة كلها
من أقسام الحوادث في الخير والشر ، في الحزن والعين ، في النصر والهزيمة ، في الخصب والقحط .
ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوال من الخصب والجذب ، والوصل والفصل ، والوفاء
والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والتبضع والبسط . . فكم من عبد ينزل له الحكم والقضاء
بالعبد والشقاء ، وآخر ينزل حكمه بالرؤفد والوفاء .

قوله جل ذكره : « أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين »
رحمة من ربك إنه هو السميع العليم .
« رحمة من ربك » : وهي الرسول — صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه :
« أنا رحمة مهداة »

ويقال : « إنا كنا مرسلين » رحمة لنفوس أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتحقيق .
« إنه هو السميع العليم » : « السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بمخمين المحبين .
قوله جل ذكره : « رب السموات والأرض وما بينهما
إن كنتم موقنين »
مالك السموات والأرضين ، ومالك ما بينهما — وتدخل في ذلك أكساب العباد .
وتملكها بمعنى القدرة عليها ، وإذا حصل مقدور في الوجود دلّ على أنه مفعول ؛ لأن معنى
الفعل مقدور وجده^(٢) .

(١) يقصد طائفة الصوفية .

(٢) لاحظ كيف يحاول القشيري أن يدخل في « وما بينهما » أفعال العباد ، فعلى أكساب العباد — في نظر هذا
المفكر داخلة — من حيث هي مقدورة — في نطاق المخلوق المنسوب إلى الله .

قوله جل ذكره « لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب
آبائكم الأولين »

هذه الكلمة فيها نفى ما أثبتوه بجهلهم ، وإثبات ما نفوه بمجدهم .
« ربكم ورب آبائكم الأولين » : مرَّبِّي^(١) أضلكم ونسلكم .

قوله جل ذكره : « بل هم في شك يلعبون »

اللَّعِبُ فعلٌ يجرى على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللَّعَابِ الذي يسيل لا^(٢) على نظام مخصوص ؛
فَوَصَفَ المنافقَ باللَّعِبِ ؛ وذلك لتردُّده وتخيُّره نتيجةً شكِّه في عقيدته .

قوله جل ذكره : « فارتقب يوم تأتي السماء
بدخان مبين » .

هذا من أشراط الساعة ؛ إذ يتقدم عليها^(٣) .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أى تتم هنا في هذه الدنيا) فيومهم الذى تأتي
السماء فيه بدخان مبين هو يومٌ غيبةِ الأحباب ، وانسدادٍ ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبوابِ
الأنسِ بالأحباب وفي معناه قالوا :

فما جانب الدنيا بَسْهَلٍ ولا الضُّحَى بَطَاقِي ولا ماءُ الحياةِ يبارِدُ

قوله جل ذكره : « يغشى الناس هذا عذابٌ أليم » .

(١) لاحظ كيف يربط القشيري بين « التربية » و « الرب » .

(٢) سذقت (لا) من ص . . . وهى ضرورية كما هو واضح من السياق ، وهى موجودة في م ، ولا تخل
على القارئ ، روعة الربط بين « اللعب » و « اللعاب » ، ومدى السخرية من دماغ المنافق وقد ماثلت فما تتحرك فيه
الشكوكُ تحركُ اللعاب .

(٣) هناك اتجاهاً في معنى « الدخان » في هذه الآية : أحدها أنه - كما يذكر القشيري أنه من أشراط الساعة ،
خارجٌ العلوي عن حذيفة أنه سأل النبي (ص) : « يأتى الله ، ما الدخان في هذه الآية ؟ فقال : هو دخان يملأ ما بين
المشرق والمغرب يحكث أربعين ليلة ويوماً ، فأما المؤمن فيحميه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة
السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينه وأذنيه ودبره . وأما الاتجاه الثانى فهو ما أصاب قريشاً من الجوع
بدعاء الذى عليهم ، وقد كشفه الله عنهم . ويؤيد ابن مسعود هذا القول الثانى بهذا الكشف ، لأنه لو كان قبل
يوم القيامة ما كشفه الله عن الناس .

وعذاب هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيم في الغالب ، وهو عذابٌ مُستَعَذَّبٌ ، أولئك يقولون :

« ربنا اكشف عنا العذاب إننا مؤمنون »

وهؤلاء يستزبدون — على العكس من الخلق — العذاب ، وفي ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ ما ربي قد نلتُ منها سوى ملوِّذٍ وجدي بالعذاب^(١)

فهم يسألون البلاءَ والخلقُ يستكشفونه ، ويقولون :

أنت البلاءُ فكيف أرجو كشفه

إِنَّ البلاءَ إِذَا فَتَتْ بِلَائِي

قوله جل ذكره : « أُنِّي لَمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُم رَسُولٌ مُّبِينٌ »

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر^(٢) التي تردُّ من الحقِّ عليهم عوقبوا — في الوقتِ بما لا يتَّسعُ لهم ويُسعِفهم ، فإذا أخذوا في الاستغاثة^(٣) يقال لهم : أُنِّي لَكُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَكُمْ الرِّسُولُ^(٤) على قلوبكم تخالفتم ؟ !

قوله جل ذكره : « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ » .

(١) البيت الحلاج مسبق بهذا البيت :

أريدك ، لا أريدك للشواب ولكني أريدك للعقاب

(ديوان الحلاج المقطعة السابعة)

(٢) الخواطر من الحق ، والهواجس والوسوس من الشيطان .

(٣) هكذا في م وهي في ص (الاستغاثة) وكلاهما مقبول في السياق .

(٤) الرسول هنا — لأن الحديث هنا عن الصوفية — مقصود به ما يردُّ على قلوبهم من لدن الحق من الكشوفات والمراصلات

حيث نورثكم حزنا طويلا ، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلا .

قوله جل ذكره : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّنِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ .

فَتَنَهُمْ (١) بعد ما أَصْرُوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشيد من ثرة عنودهم (٢) « وجاءهم رسول كريم » : يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل ، وأن يستبصروا ، واستنفرهم لله ، وأظهر الحجة من قبل الله .

« فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ » .
أَمْرَهُ بِأَنْ يَسْرِيَ بعباده المؤمنين ، وعرفهم أنهم سَيُنْقَذُونَ ، وَأَنَّ عَدُوَّهُمْ « جُنُودٌ مُفْرَقُونَ »

قوله جل ذكره : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْون * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ » .

ما خلفوه من أحوالهم ومن ريشهم ، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .
« كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

وَأَسْكَنَّا قُومًا آخَرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدُورِهِمْ .

قوله جل ذكره . « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » .

لم يكن لهم من القدر والخطر ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن ، أو يسكن متحرك

(١) مكدا في من رعى حقيرة في السبان إشارة إلى ما في الآية الكريمة : « وَلَقَدْ فَتَنَّا . . . » أما في م نهى (فتنهم) وواضح فيها خعاً للناسخ .
(٢) نفر الجلاء : ودرهم وتجانى عن اللحم ، ونفرت المرأة عن زوجها : أعرضت وصدت ، ونفر من الشيء : فرغ منه وانقبض غير راض به .

فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ ، ولا الفبراء لفبيتهم اخضَرَّتْ . لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثرٌ ، ولم يظهر مِن قِبَلِهِمْ على قلبٍ أحدٌ من عبادنا أثرٌ . وكيف تبكى السماءُ لفقْدٍ من لم تستبشر به من قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذي تُسرُّ السماءُ بصعودِ عمله إليها ، فإنها تبكى عند غيابه وفقْدِهِ (١) .

قوله جل ذكره : ولقد نَجَّيْنَا بنى إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * من فرعون إِنَّه كَانَ عَلِيًّا من الْمُسْرِفِينَ * ولقد اخترناهم على عِلْمٍ على الْعَالَمِينَ .

نَجَّاهُمْ ، وَأَقَمَى عِدْوَهُمْ ، وَأَهْلَكَهُ .

« ولقد اخترناهم . . . » أى عَلِمْنَا ما يَحْتَقِبُونَ من أَوْزَارِهِمْ (٢) ، فرفعنا — باختيارنا — من أقدارِهِمْ ما وَضَعَهُ فِعْلُهُمْ وتدنسُهُمْ بأَوْزَارِهِمْ .

ويقال : « على علم منا » بأحوالهم أنهم يُؤَثِّرُونَ أمرنا على كل شيء .

ويقال : « على علم منا » بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : « على علم منا » بما نودع عندهم من أسرارنا ، وما نكشفهم به من حقائق حقنا .

قوله جل ذكره : « وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ »

من مطالبته بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكدِّ والعناء (٣) .

قوله جل ذكره : إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُنَّ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا

(١) عز شريع الخضري : قال النبي (ص) : « ألا لا غربة على مؤمن ، فإما مات مؤمن في غربة غائباً عنه بواكيه إلا بكى عليه السماء والأرض » .

(٢) في ص (إنذارهم) والسياق يرفضها ، والصواب ما في م .

(٣) لأن البلاء يكون بالنعمة والنقمة ، قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

الأولى وما نحن بِمُنْشَرِينَ * فأتوا

بآبائنا إن كنتم صادقين .

اقترح أبو جهل على النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يحییَ لهم نفساً^(١) :

« لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ » فأخبر الله — سبحانه — أنهم اقترحوا هذا بعد قیام الحُجَّةِ عليهم، وإظهار ما أزعاج لهم من العذر : ثم قال جلّ ذكره :

أهم خيرٌ أم قومٌ تُبَّعُ والذين من قبلهم

أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين * وما خلقنا

السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما لأعين * ما خلقناهما

إلا بالحقِّ ولكن أكثرهم لا يعلمون .

« تُبَّعُ » هو ملك لليمن ، وكان مسلماً ، وكان في قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومه

على كثرة عددهم ، وكال قوتهم :

قوله جل ذكره : « وما خلقنا السموات والأرض . »

ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، بالحُكْمِ الحقِّ ؛ وبالأمرِ الحقِّ ... « فأنّا مُحِقٌّ في خلقِهما » : أى كان لى خلقُهما .

قوله جل ذكره : « إنَّ يومَ الفصلِ ميقاتُهم أجمعين * يومَ

لا يُغْنِي مولىٌ عن مولى شيئاً ولا هم

يُنصرون * إلا من رَحِمَ اللهُ إنه هو

العزيزُ الرحيمُ »

(١) حدّد أبو جهل ذلك حين قال النبي : إبعث لنا — إن كنت صادقاً — رجلاً مثل قصى بن كلاب لنسأله عما يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبي جهل فيه ضعف ؛ لأن البعث يكون الجزاء لا التكليف .

يومئذ لا يُفنى ناصرٌ عن ناصر ولا حميمٌ عن حميم ، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ . . شيئاً .
ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَهُ اللهُ ؛ وبِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ
* كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ » .

« الأثيم » مرتكبُ الذنوب . « المهل » : التحلس المذاب . « الحميم » : الماء الحار .

قوله جل ذكره : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ *
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » .

ادفوا به إلى وسط الحميم . ويقال له :

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » :

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليلٌ مهينٌ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » .

آمنين من الجن من جميع الوجوه ، لباسهم من حرير ، وفراشهم من سندس واستبرق ،
« متقابلين » : لا يبرحون ولا ينفون عنها حولاً .

قوله جل ذكره : « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » .

تباح لهم صُحْبَتُهُنَّ ، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاق ، ويمكن الوليُّ بهذه
الأوصاف من هذه الألفاظ . ثم قد يُختطف قومٌ من بين هذه الأسباب ، فيتحررون عن هذه
الجللة ؛ فكما أنهم في الدنيا يُختطفون عن كلِّ العلائق فإنهم في الآخرة تطمع الحورُ العينُ
في صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شيء .^(١)

(١) الصديقة الخُلص يبدون الله لا طمعا في جنة ولا خوفاً من عذاب ، لرؤية الله جنهم ، واحتجابهم عنهم
جهنهم الكبرى . ومبطل ذلك أنهم يحبون الله لذاته ، وفي ذلك يقول قائلهم :

إِنْ ذَا الْحُبِّ لَمْ يَفْنِ لَهُ لَا لِدَارِهِ ذَاتُ لُحُورٍ وَطُرُفٍ
لَا وَلَا الْفَرْدُوسُ - لَا يَأْلِفُهَا لَا وَلَا الْحُورَاءُ مِنْ فَوْقِ غُرُفٍ

الزاهدُ في الدنيا يحميه منها ، والعارفُ في الجنة يحميه من الجنة .

قوله جل ذكره : « لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولى
ووقاهم عذابَ الجحيم » .

الموتة الأولى هي قبض أرواحهم في الدنيا ، وقيهم الله في الآخرة العذابَ بفضلِهِ ، وذلك
هو الظفرُ بالبغية ، ونجاح السؤل .

قوله جل ذكره : « فإِذَا يَسْرُناه بِلِسَانِكَ . . » .

يا محمد ، ليتذكر به أهلُك ، فارتقبِ العواقبَ تَرَّ العجائب . إنهم يرتقبون ، ولكن لا يرون
إلا ما يكرهون .

سورة الجاثية

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » باسم مَلِكٍ لا يستظهر بيمينه ، أحدٍ لا يستمسك بيمينه^(١) ، جبارٍ ارتدى بكبريائه ، قهارٍ اتصف بعرّ سنائه .

« بسم الله » باسم كريمٍ صمدٍ ، لا يستغرق وجوده أمدٌ ، أبدى عظيمٍ أحدٌ ، لا يوجد من دونه مفترٍ ولا ملتحذ .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيلُ الكتابِ من الله العزيز الحكيم » .

« العزيز » : في جلاله ، « الحكيم » : في أفعاله .

« العزيز » : في آزاله ، « الحكيم » : في لطفه بالعبد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

شواهد الربوبية لا تُحصى ، وأدلة الإلهية واضحة ؛ فمن صحابين سَكْرَةِ الغفلة ، ووضع سيره في محال العبرة^(٢) حَظِيَ — لا محالة — بمحقق الوصلة .

قوله جل ذكره : « وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

(١) هكذا في ص ، وفي م . . ولو صح أنها هكذا عن القشيري فربما كان قصده أن الله سبحانه — حتى بدون مرامل احتسائك تثبت هذه الحياة .. فهو حتى لا بسبب أو عارض لأنه لا يفتقر إلى ذلك ، أما المحدث فإنه يعتمد في حياته على ما يحفظ حياته ، وتنزل هذه الحياة بزوال مرامل هذا الحفظ .

(٢) هكذا في م وهي في ص (بخره) ونحن نؤثر الأول للامعة الاحتبار لسياق التدبر في المخلوقات .

إذا أنعم العبدُ نظرَه في استواء قدَّه وقامته ، واستكمال عقله وتَمَام تمييزه ، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب ؛ في أجزائها وأعضائها . . ثم وقف على اختصاص وامتيازه بنى آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم في الإيمان والعرفان ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة في فنون الإحسان — عَرَفَ تَخَصُّصَهُم بِمَنَاقِبِهِمْ ، وانفرادهم بفضائلهم ، فاستيقن أن الله كَرَّمَهُمْ ، وعلى كثير من المخلوقات قَدَّرَهُمْ .

قوله جل ذكره : « واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون » .

جَعَلَ اللهُ العلومَ الدينيةَ كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل ، مُحَقَّقةً بالشواهد . فمن لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُهُ عن الصراط المستقيم^(١) ، ووقع في عذاب الجحيم ؛ فالיום في ظلمة الخيرة والتقليد ، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد .

قوله جل ذكره : « تلك آياتُ الله تتلوها عليك بالحق فبأى حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون ؟ »
فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَبَأَى حَدِيثٍ يُؤْمِنُ ؟ ومن أى أصل يستمد بعده ؟ ومن أى بحرٍ في التحقيق ينترف ؟ هيئات ما بقى للإشكال في هذا مجال .

قوله جل ذكره : « ويلٌ لكلٌ أفاكٍ أثيمٍ • يسمعُ آياتِ الله تُتْلَى عليه ثم يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كأن لم يسمعها فبشرُهُ بعذابٍ أليمٍ » .

(١) في هذا ردٌّ على من يزعمون أن الصوفية يتكبرون بالعلوم الكسبية ؛ فهي كما هو واضح ذات أهمية قصوى في تثبيت الإيمان . هذا في الوقت الذي يقر القشيري بالعلوم الوهية كما يتضح من الهامش رقم (٢) في الصفحة التالية .

كل صامت ناطق؛ بصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم^(١) .

فمن استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد فاز بدخُر الدارين ، وتصدَّى لِعِزِّ
المنزلين . ومن تصام بحكم الفعلة وقع في وهدة الجهل ، ووَسِمَ بِكَيِّ الهَجَر .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا
هُزُوًا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

قابه بالناد ، وتألَّوه على ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيح بإسناد . . .
فهؤلاء « لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه منها
شكٌّ فيما هو به من حاله . . . فإذا استهان بها وقع في ذُلِّ الحجة وهوانِ الفرقة^(٢) .

قوله جل ذكره : « مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ
مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

ف عند هذه الفترة ، وفي وقت هذه الحنة فلا عَذْرَ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطاب يُسْمَعُ عنهم ،
ولم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بِمَلِكٍ لِبَكَا فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَى
الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

عندما يركبون البحر فلربما تسلمُ السفينةُ ولربما تفرق .

(١) يشير التشيرى بذلك إلى أن كل شيء ناطق بالوحدانية .. إما نطقاً قاله - كما في حال الإنسان ، وإما نطقاً
دلالة - كما في حال الجمادات .

(٢) يشير التشيرى بذلك إلى العلوم الوهية ، وضرورة اعتبارها رافداً هاماً من روافد الإيمان الكشفي والتوحيد
الشهودي .

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير ، تمشى به رياح العناية ، وأشرعة التوكل مرفوعة ، والشُّبُلُ في بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينَةُ ناجية . أما إن هبت نكباتُ الفتنةِ فمُنْدُودٌ لا يَبْقَى يَدُ المَلَّاحِ شَيْءٌ ، والمقاديرُ غالبَةٌ ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ .

قوله جل ذكره : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

« جميعاً منه » : كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها — كُلُّهُ منه سبحانه ؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلا — ومن وجه — للانسان به انتفاع . . وكلها منه سبحانه ؛ فالسماوات لم يَبْنِها ، والأرضُ لم يَهْدِها . . إلى غير ذلك . وَمِنْ الغَيْبِ أَنْ يَسْتَخْرِكَ مَا هُوَ مُسَخَّرٌ لَّكَ ^(١) وَلِيَتَأَمَّلَ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ . . كيف إنَّ كَانَ خَلَقَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ؟ ! فلو لا الشمسُ . . كيف كان يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي النَّهَارِ ؟ ^(٢) ولو لم يكن اللَّيْلُ كيف كان يُمْكِنُ بِاللَّيْلِ ؟ ولو لم يكن الْقَبْرُ . . كيف كان يَهْتَدَى إِلَى الْحِسَابِ وَالْأَجَالِ ؟ . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات .

قوله جل ذكره : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَتَّقُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ^(٣) .

نَدَبَهُمْ إِلَى حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَجَمِيلِ الْعِشْرَةِ ، وَالتَّجَاوُزِ عَنِ الْجَهْلِ ، وَالتَّنَقُّيِ مِنْ كَدُورَاتِ الْبَشَرِيَّةِ . وَمُقْتَضِيَاتِ الشُّحِّ .

(١) هذا الكلام ينصرف إلى الدنيا بأسرها . فلا ينبغي أن يستوفك ما هو هبة لك .

(٢) بحثاً عن معاشه .

(٣) يقال إن الآية نزلت بسبب أن رجلاً من قريش شتم عمر بن الخطاب فهِمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ . وَيُقَالُ نَزَلَتْ فِي عَمْرٍاءَ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِنِجْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَسْتَقِي فَمَنَعَهُ حَتَّى مَلَّتْ قَرِيبَ النَّبِيِّ وَقَرِيبَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ : مَا مَثَلُنَا وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَمَا قِيلَ : سَمْنٌ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ ، فَلَمَّا بَلَغَ عَمْرٍاءَ ذَلِكَ اشْتَمَلَ سَيْفَهُ وَأَرَادَ التَّوَجُّهَ لِقَتْلِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

وَيَبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ — سبحانه — لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ ،
وَكَيْفَ يُدَمِّرُ أَعْدَاءَهُ . فَلْيَصْبِرْ أَيَّامًا قَلِيلًا لِيَعْلَمَ كَيْفَ صَارَتْ عَوَاقِبُهُمْ .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ مَهْنَاهُ ، وَمَنْ ارْتَكَبَ سَيِّئَةً قَامِيَ بِلَوَاهِ . . . ثُمَّ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ » .

كَرَّرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ذِكْرَ مُوسَىٰ وَذِكْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . بِمَضَىٰ عَلَى الْجُمْلَةِ وَبِمَضَىٰ
عَلَى التَّفْصِيلِ . وَهَذَا أَجْمَلٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ عَقِبَهُ حَدِيثُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :

« ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ
فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »
أَفْرَدْنَاكَ بِلَطَائِفَ فَاعْرِفْهَا ، وَسَلَّنَا لَكَ طَرَائِقَ فَاسْلُكْهَا ، وَأَثْبَتْنَا لَكَ حَقَائِقَ فَلَا تَتَجَاوَزْهَا ،
وَلَا تَجْنَحْ إِلَىٰ مِتَابَعَةِ غَيْرِكَ :

« إِنَّهُمْ لَنْ يُفْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. »
إِنْ أَرَادَ بِكَ نِعْمَةً فَلَا يَمْنَعُهَا أَحَدٌ ، وَإِنْ أَرَادَ بِكَ فِتْنَةً فَلَا يَصْرِفُهَا عَنْكَ أَحَدٌ .
فَلَا تُعَلِّقْ بِمَخْلُوقٍ فَيُكْسِرَكَ ، وَلَا تَتَوَجَّهْ بِضَمِيرِكَ إِلَىٰ شَيْءٍ ، وَثِقْ بِرَبِّكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : « هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ » .

أَنْوَارُ الْبَصِيرَةِ إِذَا تَلَأَلَّتْ انْكَشَفَتْ دُونَهَا تَهْمَةُ التَّجْوِيزِ .
وَنَظَرُ النَّاسِ عَلَىٰ مَرَاتِبِهِ ^(١) : فَمِنْ نَظَرٍ بِنُورِ نَجْمِهِ ^(٢) — وَهُوَ صَاحِبُ عَقْلِ ،

(١) مَكْدَلًا فِي م وَهِيَ فِي صِي (مَرَاقِبِ) يُكَافِ وَهِيَ خَطَا مِنْ النَّاسِخِ

(٢) (وَمَاهُو) وَهِيَ خَطَا مِنْ النَّاسِخِ .

ومن ناظر بنور فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقَوِّيه لَوْحٌ — ولكنه من وراء السُّرِّ (١) ،
ومن ناظر يتيقن عِلْمٍ بحكم برهانٍ وشرطٍ فِكْرٍ ، ومن ناظر بعين إيمان بوصف اتباع ،
ومن ناظر بنور بصيرةٍ هو على نهاريٍّ ، وشمسه طالعةٌ وسماؤه من السحاب (٢) مصححة (٣) .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ
أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءٌ بحِجَابٍ ومَنَافِتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

أَمِنْ خَفَضْنَاهُ فِي حَضِيضِ الضَّعَةِ كَمَنْ رَفَعْنَاهُ إِلَى أَعَالَى الْمَنَعَةِ ؟

أَمِنْ أَخَذْنَا بِيَدِهِ وَرَحِمْنَاهُ كَمَنْ دَاسَهُ الْخِذْلَانُ فَرَجَمْنَاهُ ؟

أَمِنْ وَهَبْنَاهُ بَسْطَ وَقْتٍ وَأَنْسَ حَالٍ وَرَوَّحَ لُطْفٍ حَتَّى خَصَصْنَاهُ وَرَقَّقَيْنَاهُ ، ثُمَّ قَرَّبْنَاهُ
وَأَدْنَيْنَاهُ كَمَنْ تَرَكَ جَهْدَهُ وَاسْتَفْرَاغَ وَسْعِهِ وَإِسْبَالَ دَمْعِهِ وَاحْتِرَاقَ قَلْبِهِ ... فَمَا أُنْعَشْنَاهُ ؟

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ
اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ
عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ... » .

مَنْ لَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ الْإِتْبَاعِ ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ أَحْكَامَ الرِّيَاضَةِ ، وَلَمْ يَنْسَلِخْ عَنْ هَوَاهُ
بِالْكَلْبَةِ ، وَلَمْ يُؤَدِّبْهُ إِمَامٌ مُقْتَلَى فَهُوَ يَنْجَرُ فِي كُلِّ وَهْدَةٍ ، وَيَهِيمُ فِي كُلِّ ضَلَالَةٍ ، وَيَضِلُّ
فِي كُلِّ فِتْنَةٍ ، خَسِرَانُهُ أَكْثَرُ مِنْ رَنِيمِهِ !! أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ؛ يَعْمَلُونَ الْقُرْبَ عَلَى مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ
نَشَاطٍ فَوْسَهُمْ (٤) ، زِمَامَتِهِمْ يَدُ هَوَاهُمْ ، أُولَئِكَ أَهْلُ (٥) الْمَكْرِ ... اسْتَذِرْجُوا وَمَا يَشْمُرُونَ !

(١) الفراسة بما يخلقه الله في قلب العبد من غير كسب منه ، وهي من ثمرات الإيمان الكامل ، وما يسميه
القشيري هنا (لوحاً) يسميه في موضع آخر (سواطع) أنوار تلمع في القلب تدرك بها المعاني (الرسالة ص ١١٦) .
ولمعرفة الفرق بين اللوائح والسواطع أنظر الرسالة ص ٤٢ . ويعرف الجنيد الفراسة فيقول : هي مصادقة الإصابة ،
ثم يذكر أنها موهبة كائنة دائمة (التعرف للكلاباذي ص ١٥٧) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (المصاحب) بالصاد وواضح في ذلك غلط النسخ .

(٣) هذه الدرجة الأخيرة — كما هو واضح — أعلى درجات النظر تملوها من الآفات .

(٤) لأن النفس محل المعلومات ، فعملهم مرتين بنفوسهم وأهوائهم .

(٥) هكذا في (م) وهي في م (أصل) وهي غلطاً من النسخ لأنهم «أهل» المكر إشارة إلى قوله تعالى :

« وَكَرُوا وَمَكْرُوهٌ » .

قوله جل ذكره : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ

ونحيا وما يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وما لهم

بذلك من عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » .

لم يَعتَبِرُوا بما وجدوا عليه خَلْفَهُمْ وسَلَفَهُمْ ، وأزجوا في البهيمية عَيْشَهُمْ وعُمْرَهُمْ ، وأعفوا
عن كُدِّ الفكرة قلوبهم ... فلا بالعلم استبصروا ، ولا من التحقيق استمدوا . رأسُ مالهم
الظنُّ — وهم غافلون .

قوله جل ذكره : « وإذا نُتِلَى عليهم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

ما كان حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآبَائِنَا

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

طلبوا إحياء موتاهم ، وسوف يَرَوْنَ ما استبعدوا .

ثم أخبر أن مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ ، وإذا أقام القيامة يُخَشِّرُ أصحابُ البطلان ،

فإذا جاءهم يومُ الخِصَامِ :

« وترى كلَّ أمةٍ جاثيةٍ كلُّ أمةٍ تُدْعَى

إلى كتابِها اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون » .

كلُّ بحسابه ^(١) مطالبٌ ... فأما الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا ، وأما الذين كفروا

فهلكوا وبادوا ^(٢) .. ويقال لهم : أنتم الذين إذا قيل لكم حديثٌ عُقِبَاكم كَذَّبْتُمْ مولاكم ؟

فاليومَ — كما نسيتمونا — نُنْساكم ، والنارُ مأواكم .

قوله جل ذكره : « قللِ الحمدُ ربُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ

رَبُّ الْعَالَمِينَ * وله الكبرياءُ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وهو العزيزُ الْحَكِيمُ » .

لله الحمدُ على ما يُبْدَى وَيُفْشَى ، ويمحي ويُفْنِي ، ويجزِي ويُضِي .. إذ الحُكْمُ لله .

والكبرياءُ لله ، والعظمةُ والسَّناءُ لله ، والرفعةُ والبهاءُ لله .

(١) هذا أيضاً رأى يحيى بن سلام ، وقيل : كتابها السُّرُّلُ عليها لينظر هل علوا بما فيه . وقيل : الكتاب

منها هو اللوح المحفوظ .

(٢) مكذافي م ، وهي في ص (ونادوا) وهي خطأ من النسخ .

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة للقلوب سالبة ، للعقول غالبة ، للطبعين واهبة ، للعارفين ناهية . . فالذين يهيمون عليهم لطفه ، والذين ينهبهم فمن مَصَّصه فهو عنه خَلَقُهُ (١) .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

حَمَيْتُ قُلُوبَ أَهْلِ عَنَابِي قَصَّرْتُ عَنْهَا خَوَاطِرَ التَّجَوُّزِ ، وَتَبَّهْتُ فِي مَشَاهِدِ الْيَقِينِ بِنُورِ التَّحْقِيقِ ؛ فَلَاحَتْ فِيهَا سِوَاهِدُ الْبِرْهَانِ ؛ قَاضَتْهَا إِلَيْهَا لَطَائِفُ الْإِحْسَانِ ؛ فَكَمَّلَ مِنْهَا مَنْ عَيْنِ الْوَصْلَةِ ، وَغَذَيْنَاهُمْ بِنَسِيمِ الْأَنْسِ فِي سَاحَاتِ الْقَرِيبَةِ .

« العزيز » : الْمُعَزُّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِإِتْرَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ .

« الحكيم » ، الْمُحْكِمُ لِكِتَابِهِ عَنِ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْوِيلِ .

قوله جل ذكره : « مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ » .

الكَافِرُونَ مُعْرِضُونَ عَنْ مَوْضِعِ الْإِنْذَارِ ، مُقِيمُونَ عَلَى حَدِّ الْإِصْرَارِ .

(١) وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ :

أَلَسْتُ لِي خَلْقًا ؟ كَفَى شَرَفًا فَمَا وَرَأَاكَ لِي قَصْدٌ وَلَا أَمَلٌ

ويقول أبو حمزة موضحاً كيف أن هذا الموت في سبيل محبوبه عين الحياة :

وَنَحْيِي مُجِبًا أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَتْفُهُ وَذَا عَجَبٌ .. كَوْنِ الْحَيَاةِ مَعَ الْحَتْفِ !

(اللوح للعلاج ص ٢٢٥) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَتَوَكَّلُونَ بِكُتَابٍ مِنْ
قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمِ إِبْرَاهِيمَ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

أروني .. أى أثرٍ فيهم في الملك ، أو القدرة على النفع والضرر ؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ
فأُظهِرُوهَا ، أو دلالة قَبِيْنُوهَا .. وإذ قد عَجَزْتُمْ عَنْ ذَلِكَ فَهَلَّا رَجَعْتُمْ عَنْ غَيْبِكُمْ وَأَقْلَعْتُمْ ؟

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ
دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ » .

مَنْ أَشَدُّ ضَلَالًا مِمَّنْ عَبْدَ الْجَادِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَيَاةٌ وَلَا لَهُ فِي النِّفَعِ أَوْ الضَّرَرِ إِثْبَاتٌ ؟
قوله جل ذكره . « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ
وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .
إِذَا حُشِرَ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وَقَمَتِ الْعِدَاوَةُ بَيْنَ الْأَصْنَامِ وَعَابِدِيهَا .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ » .

رَمَوْا رُسُلَنَا بِالسَّحَرِ ثُمَّ بِالْإِفْتِرَاءِ وَالْمَكْرِ .. قُلْ — يَاعَمَد — كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا ؛ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ ، وَأَنَا أَخْلَصْتُ لَهُ تَوْحِيدًا . وَمَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ ؛ فَلَسْتُ بِأَوَّلَ
رَسُولٍ أُرْسِلَ ، وَلَا بَغِيرٍ مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ أَصُولِ التَّوْحِيدِ جِئْتُ ، إِنَّمَا أَمَرْتُكُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِي
التَّوْحِيدِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالِدَعَاءِ إِلَىٰ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ

اتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

وهذا قبل أن تزل قوله تعالى : « لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » (١) .

وفي الآية دليلٌ على فساد قول أهل التَّدَرُّع والبدع حيث قالوا : « إبْلَامُ الْبَرَى قَبِيحٌ فِي الْعَقْلِ » . لأنه لو لم يَجْزُ ذلك لكان يقول : أَعْلَمُ — قطعاً — أي رسول الله ، وأني معصومٌ .. فلا محالة يغفر لي ، ولكنه قال : وما أدرى ما يُفْعَلُ بي ولا بكم ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ ، وَالْحُكْمَ حُكْمُهُ ، وله أن يفعلَ بعباده ما يريد (٢) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ (٣) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُ بِحَالٍ ، وَلَا أَمَانَ لَهُ مِنْ عِقَابَةِ اللَّهِ . وما يستروحون إليهم مِنْ حُبِّهِمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كُلِّهَا — فِي التَّحْقِيقِ — باطلٌ . وأخبر أن الكفار قالوا : لو كان هذا الذي يقوله

(١) آية (٢) سورة الفتح وبزولها نسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بهت بما يفعل به — وبزول هذه الآية أرفع الله أنوفهم ، وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! وهنيئاً لنا !

(٢) القشيري ينكر أن يذهب البشر إلى التماس تعليقات للأفعال الإلهية ؛ لأن أفعال الله سبحانه لا تخضع للأغراض ، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يعود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطالما هما في غير نطاق الإنسانية فلا ينبغي إخضاعهما للمفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وغير وشر ؛ لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والغرض .. والله بمنزه عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يقودها إلا إلى الخير فما ظنك برب البرية وخالق كل شيء ؟ !

(٣) هو عبد الله بن سلام عند الجمهور ، ولهذا قيل إن هذه الآية مدنية ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبي عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال الرسول (ص) : أول أشراط الساعة نار تحترق من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل فزجه وإن سبق ماء المرأة فزعه . فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . (صحيح البخاري - ٢ ص ٢٢٦) .

من الحشر والتشريعاً لم تقاصر ربُّنا عند الله عن رتبة أحقر ، ولتقدّمنا — في الاستحقاق —
على الكلِّ . ولما لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرّحوا :

« فيقولون هذا إفاك قديم » .

ولقد بعث الله أنبياءه — عليهم السلام — وأنزل عليهم الكتب ، وبين في كلِّ كتاب ،
وعلى لسان كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً ، ولكن القوم الذين في عصر نبينا — صلى الله
عليه وسلم — كتموه ، وحسدوه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

مضى تفسيرُ الاستقامة . وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حظي بكلِّ كرامة ،
ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين في « الاستقامة » سين الطلب ؛ وإن المستقيم هو الذي يتהל إلى الله تعالى
في أن يُقيمه على الحق ، ويثبتته على الصدق .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » . .

أمر الإنسان برعاية حقِّ والديه على جهة الاحترام ، لما لها عليه من حقِّ التربية والإنعام ،
وإذا لم يُحسِّن الإنسان حرمة مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد . ولولم يكن
في هذا الباب إلا قوله — صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب من رضا الوالدين ، وسخطه في
سخطهما » لكان ذلك كافياً . ورعاية حقِّ الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حقِّ الأم من
حيث الشفقة والإكرام . ووعد الله على برِّ الوالدين قبول الطاعة بقوله جل ذكره :

« أولئك الذين نتقبلُ عنهم أحسن ما عملوا

وتتجاوزُ عن سيئاتهم في أصحاب الجنة

وَعَدَ الصديق الذي كانوا يوعدون » .

قبولُ الطاعة وغفرانُ الزَّلة مشروطان ببرِّ الوالدين . وقد ذمَّ الله — سبحانه — الذي

يتصف في حقهما بالتأفف ، وفي ذلك تنبيه على ما وراء ذلك من أى تعسف ، وعلى أن الذى يسلك ذلك يكون من أهل الخسران ، وبالتالي يكون ناقص الإيمان .

وسبيل العبد في رعاية حق الوالدين أن يصلح ما بينه وبين الله ، حينئذ يصلح ما بينه وبين غيره — على العموم ، وأهله — على الخصوص .

وشرُّ خصال الولد في رعاية حق والديه أن يتبرم بطول حياتهما ، ويتأذى بما يحفظ من حقهما . وعن قريب يموت الأصل ويبقى النسل ، ولا بد من أن يتبع النسل الأصل^(١) ، وقد قالوا في هذا المعنى .

رويدك إن الدهر في كفاية لتفريق ذات البين . . . فانتظر الدهر^(٢)

قوله جل ذكره : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار

أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا

واستمتم بها فالיום تمحزون عذاب

الهُون بما كنتم تستكبرون في الأرض

بغير الحق وبما كنتم تفسئون » .

سبيل العبد ألا ينسى في كل حال معبوده ، وأن يتذكر أنه معه في همه وسروره ، وفي مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أن حصل له أنس ، وغلب عليه رجاء وبسط ثم هجم على قلبه قبض أو مسة خوف . . . فليخاطب ربه حتى لا يكون من جملة من قيل له : « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا . . . »

قوله جل ذكره : « واذا كرأخا عاد إذ أنذر قومه

بالأحاف^(٣) وقد خلت النذر من بين

(١) أى أن أولاده سوف يعاملونه بالكيفية التى عامل بها أبويه .

(٢) إذا لاحظنا اهتمام القشيري هنا برعاية حقوق الأبرين ، وإذا تذكرنا أنه في موضع آخر يرى أن حقوق الشيوخ والمربين لا تقل عن ذلك ؛ « لأن الوالدين يربون الأشباح . والشيوخ يربون الأرواح » علمنا أن هذه الإشارة موجهة إلى المريدين بنفس الدرجة الموجهة إلى العموم .

(٣) الأحاف = ج حقف . وهى رمال عظام معوجة لا تبلغ أن تكون جبالا . وقال الكلبي : أحفاف الجبل ما نصب عنه الماء زمن الفرق . وهناك اختلاف في مكان ديار عاد يرجع إليه في كتب التفسير .

يديه ومن خلقه ألا تعبدوا إلا الله إني

أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

أخبر بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجه عليهم من العتاب ، وأخذهم باليم العذاب .

قوله جل ذكره : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ... »

فلم يُننِ عنهم ما آتيناهم ... وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : « وإذ صرّفنا إليك نفراً من الجنّ

يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا

أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم

منذرين . »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الجنّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس : وإن قوماً أنه ليلة الجن^(١) وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ؛ فالיום في الجنّ مؤمنون ، وفيهم كافرون .

« فلما حضروه قالوا أنصتوا . . » الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ ؛ ولهذا لما حضر الجنّ بساطَ خدمته — صلى الله عليه وسلم — تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا بساطه : « أنصتوا » ، فأهلُ الحضور صفتهم الذبولُ والسكونُ ، والهيبة والوقار . والثورانُ أو الانزعاجُ يدل على غيبةٍ أو قلةٍ تيقظٍ أو نقصان اطلاع^(٢) . « فلما قضى . . » يعني الوحي « ولوا إلى قومهم منذرين » وأخبروهم بما رأوه وسمعوه .

قوله جل ذكره : « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا

(١) حدث ابن مسعود عن هذه الليلة ، وأبان كيف سمع — وقد كان وحده بصحبة النبي وهو يقرأ القرآن — لَغَطًا وغممةً ، وشاهد أمثال النور تهوى وتمشي في رفرنها ... الخ .

(٢) هنا نجد القشيري ينصح بالكتمان ولا يرى الإفصاح ، وقد مثل الجنيد في ذلك فأجاب : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب (أنظر بحث هذه القضية في كتابنا «نشأة التصوف الإسلامي» ط المعارف ص ٢٢٩) .

به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم
من عذاب أليم .

يقال الإجابة على ضربين : إجابة الله ، وإجابة للداعي ؛ فإجابة الداعي بشهود الواسطة — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . وإجابة الله بالجهر إذا بَلَّغَتْهُ الرِّسَالَةُ على لسان السفير ، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفات من الواردات على القلب ؛ فمستجيب بنفسه ومستجيب بقلبه ومستجيب بروحه ومستجيب بسرّه . ومن توقف عن دعاء الداعي إِيَّاه ، ولم يبادر بالاستجابة هَجَرَ فيما كان يُخَاطَب به^(١) .

قوله جل ذكره : « أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ ؟ بَلَى :
إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الرؤية هنا بمعنى العلم .

« وَلَمْ يَتَّخِذْ » أى ولم يعجز ولم يضعف .

قوله جل ذكره : « وَبِیَوْمٍ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَلَى النَّارِ » .

ثم يقال لم على سبيل تأكيد لإزام الحجة :

« أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبَّنَا . قَالَ : فَذُوقُوا
الْعَذَابَ . . . »

جزاء لكم على كُفْرِكُمْ .

فقواه جل ذكره : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ
مِنَ الرُّسُلِ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (يطالب به) وكلاما مقبول في السياق فالدعاء خطاب ومطالبة المدعو .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد
صلى الله عليهم وسلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب
وأيوب ويونس .

والصبر هو الوقوف لحكم الله ، والثبات من غير بث ولا استكراه .

قوله جل ذكره : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ

لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » .

ويقال مُدَّةُ الخلق : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتهى آجالهم بالإضافة إلى الأزلية^(١) كلحظة

بل هي أقل ؛ إذ الأزل لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأى خطر لما حصل في لحظة . . خيراً كان

أَوْ شَرّاً ؟ !

(١) بالإضافة إلى = بالنسبة إلى .

سورة محمد "صلى الله عليه وسلم" (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

مَنْ ذَكَرَ « بسم الله » جَلَّتْ رُتْبَتُهُ ، وَمَنْ عَرَفَ « بسم الله » صَفَتْ حَالَتُهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ « بسم الله » أَشْكَلَتْ قِصَّتُهُ (٢) ، وَمَنْ صَحِبَ « بسم الله » امْتَحَنَتْ أُنْيَتُهُ (٣) ، وتلاشت بالكلية — بُجَلَّتُهُ .

قوله جل ذكره : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله

أضلّ أعمالهم • والذين آمنوا وحمّلوا

الصلوات وآمنوا بما نزل على محمد وهو

الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم

وأصلح بهم » .

« الذين كفروا » : امتنعوا ، وصدّوا قُصَمُوا ؛ فلا تُهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا

الحجبة والغيبة .

« أضلّ أعمالهم » : أى أحبطها .

« والذين آمنوا .. » بما نُزِّلَ على محمد ، « وهو الحق من ربهم .. »

(١) وتسمى عند بعض المفسرين « سورة القتال » .

(٢) الكلام في هذه النقطة كثير لا يتسع له هامش خفيق ، ومن أراد أن يعرف كيف أن قصة المحبين الإلهيين مشكلة فيمكن أن يعلم أن قصة الوصول إلى التوحيد .. أن يختلج الموحّد في الموحّد فلا يكون هناك إلا واحد ، إن تحدث فبالله ، وإن تحرك فبالله . هو بين الناس كائن وعندهم بائن ، يقضى عمره بين وجد وفقد .. (أنظر قصة هذا الحب بتفاصيلها الدقيقة في كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى ، باب الحب والفناء والمعرفة .

(٣) تلاشت آثار بشريته لا بشريته .

أصاحح حالهم ، قال كفروا للأعمالِ مُخْبِطًا ، والإيمانُ للتخليدِ (١) مُسْقِطًا .
ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ الله ، ولم يعملوا (٢) شيئًا مما خالفَ الله — فلا محالة — تقوم
بكفاية اشتغالهم بالله .

قوله جل ذكره : « ذلك يَأْنِ الذين كفروا اتَّبِعُوا الباطلَ
وَأَنَّ الذين آمنوا اتَّبِعُوا الحقَّ من ربِّهم
كذلك يضربُ الله للناسِ أمثالهم » .

أى يضرب أمثال هؤلاء لحسناتهم ، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم .
ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقةِ السُّنَّةِ ، ورعايةِ حقوقِ الله ، وإيثارِ رضاه ، والقيامِ بطاعته .
ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداعِ ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الحفظِ ، وارتكابِ المعصية .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كفروا فَضَرِبْ
الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَثْمَتْتُمُوهم فَشَدُّوا الوُثَاقَ
فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الحربُ
أُوزَارَها » .

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالمدِّ فالغزوُ عنهم وتركُ المبالغةِ في التشديدِ عليهم — للتدبيرِ مُوجِبٌ ،
وللفُرصةِ تضييعٌ ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهِم ، واستئصالُ أصولِهِم ، واقتلاعُ شجرِهِم
من أصلِهِ .

وكذلك العبدُ إذا ظنَّ بنفسه فلا ينبغي أن يُبْقِيَ بعد انتفاشِ شوكتها بقيةً من الحياة ،
فَمَنْ وَضَعَ عليها إصبعًا بَيَّتْ سُمُّها فيه (٣) .

« فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراجِ

(١) المذاب المؤبد .

(٢) هكذا في م وهي في ص (ولم يعملوا) وهي خطأ من النسخ .

(٣) ذلك لأن نفسك التي بين يديك هي أعداؤك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر . . لأنها تعودك إلى

دواعي الهوى ، وفي ذلك عند الصوفية شركٌ عَنِي .

الكفار عن قوم من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء .. وأمثال هذا ، فحينئذ ذلك
مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام (١) .

كذلك حال المجاهدة مع النفس : حيث يكون في إغناء ساعة أو في إفطار يوم ترويح
للنفس من الكد ، وتقوية على الجهد فيما يستقبل من الأمر — فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به
الاستصواب من شيخ المريد ، أو فتوى لسان الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة (٢) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ

يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سيهديهم ويصلح بالهم *
ويُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » .

إذا قُتِلَ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ تَوَلَّى وَرَثَةٌ لِلْقَتْلِ بِأَحْسَنَ مِنْ تَوَلِيَةِ الْقَتْلِ .

وكذلك يَرْفَعُ دَرَجَاتِهِ ؛ فَيُعْظِمُ ثَوَابَهُ ، وَيُكْرِمُ مَا بِهِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا لِلَّهِ

يَنصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

نصرة الله من العبد نصرة دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته ، وقمع أعداء الدين ببركات سعيه ومهمته .

« وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » بإدامة التوفيق لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأُضِلَّ

أَعْمَالَهُمْ * ذلك بأنهم كَفَرُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » .

(١) للإمام الحق في أن يقتل أو يمن أو يفدى أو يسترق . والرسول نفسه . قتل عقبة بن معيط والنضر
ابن الحارث يوم بدر ، وفدى سائر أسارى بدر ، ومن على ثمانية الحق وهو أسير ، ومن على سبى هوازن ، وأخذ
من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين .. هذه كلها ثابتة في الصحيح — وهذه الأربعة إليها مذنب
الشافعي .

(٢) تهتمنا هذه الفقرة إذا تذكرنا أن التشيرى مشدد في الرخص ، وقياس الرخصة هنا على آية القتال وعلى
حرب المشركين وعلى تصرف الإمام .. فيها دقة تحتاج إلى تدبر . ثم تهتمنا في معرفة من الذي يمنح الرخصة للمريد ؟

تسأ لهم : لنا وطرداً ، وقمناً وبعداً !

« أضل أعمالهم » : هتك أستارهم ، وأظهر المؤمنين أسرارهم ، وأخمد نارهم .

قوله جل ذكره : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقامهم ؟

قوله جل ذكره : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .

المولى^(١) هنا بمعنى الناصر^(٢) ؛ قاله ناصر للذين آمنوا ، وأما الكافرون فلا ناصر لهم .
أو المولى من الموالاة وهي ضد المعادة ، فيكون بمعنى الحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أى يحبهم ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى في آية أخرى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت »^(٣) .

ويصح أن يقال إن هذه أرجى^(٤) آية في القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : إن الله مولى الذين آمنوا ، ولم يقل : مولى الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد ؛ فالؤمن — وإن كان عاصياً — من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما و « آمنوا » فعل ، والفعل لا عموم له)^(٥) .

قوله جل ذكره : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار »

(١) تضاف أقوال القشيري هنا في (المولى) إلى حديثه عن ذلك الاسم في كتاب «التحجير في التذكير» وإلى حديثه في (الولاية والولى) في مواضع متفرقة من مصنفاته .

(٢) جاءت (الناظر) في ص وهي خطأ في النسخ .

(٣) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

(٤) جاءت (أوسى) في ص وهي خطأ في النسخ .

(٥) سقطت المباره بين القومين من ص وجاءت في م . والقشيري مستفيل من السياق القرآني إذ عبّر عن الإيمان بالفعل وهو « آمنوا » وعبر عن الكفر بالاسم فقال : « وأن الكافرين لا مولى لهم » .

مضى الكلام في هذه الآية .

«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون

كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» .

الأنعام تأكل من أى موضع بلا تمييز ، وكذلك الكافر لا تميز له بين الحلال والحرام .

[كذلك الأنعام ليس لها وقت لا أكلها ؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الكافر ،

وفي الخبر : « إنه يأكل في سبعة أمعاء » . أمّا المؤمن فيكتفى بالقليل كما في الخبر : « إن كان

ولا بُد ففُتِلَ للطعام وثُلُث للشراب وثُلث للنفس » و« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »^(١) .

ويقال : الأنعام تأكل على الغفلة ؛ فمن كان في حال أكله ناسياً ربّه فأكله كما كَلِ

الأنعام .

قوله جل ذكره : « وكأئن من قرية هي أشد قوة

من قريتك التي أخرجتك أهلكتهم فلا

ناصر لهم »^(٢) .

« أهلكتهم » : يعنى بها مَنْ أهلكتهم من القرون الماضية في الأعصر الخالية .

قوله جل ذكره : « أفمن كان على بينة من ربه كمن

زُيّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » .

« البينة » : الضياء والحجة ، والاستبصار بواضح الحجة : فالعلماء في ضياء برهانهم ،

والعارفون في ضياء بيانهم^(٣) ؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام

والوصول يستبصرون .

(١) ما بين القوسين الكبيرين ماقط بتمامه من ص وثابت في م ، وهذه الأخبار موجودة في الجامع الصغير

ص ٢٤٣ وفي كتاب « الأطعمة » بالجزء الثالث من صحيح البخارى ، هو الأذكار للتوى . وتكملة الخبر الأول :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : يأكل المسلم في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء ، وروى كذلك عن ابن عمر .

(٢) عن ابن عباس قال : لما خرج النبي (ص) من مكة إلى الفار التفت إلى مكة وقال : « اللهم أنت أحب البلاد

إلى الله وأنت أحب البلاد إلى » ولولا المشركون أهلكت أخرجوني لما خرجت منك » فنزلت الآية - ذكره الثعلبي ،

وهو حديث صحيح .

(٣) هكذا في ص وهي في م (ثباتهم) ولكن ما في ص هو الأصوب ؛ لأننا نعرف من مذهب القشيري أن

(البيان) للمازفين والبرهان لأرباب العلم .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا

أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
لِلْشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » .

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء ، فلهم شرابُ الوفاء ، ثم شرابُ الصفاء ، ثم شرابُ الولاء ،
ثم شرابُ حالِّ اللقاء .

ولكلٍّ من هذه الأشربة عَمَلٌ ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو ؛ فَمَنْ تَحَسَّى شرابَ الوفاء
لم ينظر إلى أحدٍ في أيام غيبته عن أحبابه :
وما سرَّ صدرى مُنذ شطَّ بك النوى

أَنِيسٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا مُتَصَرَفٌ

وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الصَّفَاءِ خَلَعَ لَهُ عَنْ كُلِّ شَوْبٍ ، فلا كدورة في عهده ، وهو في كلِّ
وقتٍ صافٍ عن نفسه ، خالٍ من مطالباته^(١) ، قائمٌ بلا شغلٍ — في الدنيا والآخرة —
ولا أربٍ .

وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الْوَلَاءِ عَدِمَ فِيهِ الْقَرَارُ ، ولم يَضِبْ بِسِرِّهِ لحظةً في ليلٍ أو نهار .
وَمَنْ شَرِبَ فِي حَالِ الْقَاءِ أُنِيسَ عَلَى الدَّوَامِ بَيَقَانَهُ ؛ فلم يطلب — مع بقاءه — شيئاً
آخَرَ مِنْ عَطَائِهِ ؛ لاستهلاكه في علاته عند سطوات كبريائه^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا
خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا

(١) أى مطالبات المخلوظ ؛ مخلوظ النفس .

(٢) تنبه إلى أهمية هذه الفقرة التي أطلال فيها القشيري حديثه عن الأشربة حيث لم يتناولها بتفصيلٍ في رسالته
عنه بحث مصطلح السُّكْرِ .

الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آتِياً أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَعَهُ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .

هم المناقضون الذين كرهوا ما أنزل الله ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ افْتِضَاحِهِمْ .

« والذين اعتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ
تَوَاهُماً »

« اعتدوا » : بأنواع الجاهلات ، « فزادهم هُدًى » : بأنوار المشاهدات .

« اعتدوا » : بتأمل البرهان ، « فزادهم هُدًى » : بروح البيان .

« اعتدوا » : بعلم اليقين ، « فزادهم هُدًى » : بحق اليقين .

[« اعتدوا » : بأدب النجاة ، « فزادهم هُدًى » : بالنجاة ورفَعَ الدرجات .

« اعتدوا » : إلى ما فيه من الحق ولم يختلفوا في أنه الحق ، « فزادهم هُدًى » بالاستقامة

على طريق الحق ^(١) .

قوله جل ذكره : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم

بشنة قد جاء أشرافها فأنى لهم إذا

جامتهم ذِكْرَاهُمْ » فاعلم أنه لا إله إلا الله

واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » .

كان عالماً بأنه : « لا إله إلا الله » فأمره بالثبات عليها ؛ قال (ص) : « أنا أعلمكم

بالله ، وأخشاكم له ^(٢) » .

ويقال : كيف قيل له : « فاعلم .. » ولم يقل : عَلِمْتُ ، وإبراهيم قيل له : « أَسْلِمَ ^(٣) .. »

فقال : « أَسْلَمْتُ ... » ؟ فيُجَاب بأن إبراهيم لما قال : « أَسْلَمْتُ » ابْتُئِلَ ، وَنَبِّئْنَا صلى الله

عليه وسلم لم يقل : عَلِمْتُ فَعُوِّقَ .

(١) ما بين القوسين الكبيرين ماقط في ص وموجود في م .

(٢) البخاري عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له)

والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٣) آية ١٣١ سورة البقرة : « قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَهُ شَرَعَ كَشَفَ سِرَّهُ ، وَنَبَّيْنَا صلي الله عليه وسلم لم يأتِ بَعْدَهُ شَرَعَ .

ويقال : نَبَّيْنَا صلي الله عليه وسلم أخبر الحقُّ عنه بقوله : « آمَنَ الرسولُ »^(١) .. « والإيمان هو العلم — وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَتَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه : « عَلِمْتُ » .

ويقال : فرقَ بين موسى عليه السلام لَمَّا احتاج إلى زيادة العلم فَأُحِيلَ على الخضر ، وَنَبَّيْنَا صلي الله عليه وسلم قال له : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا »^(٢) .. فَكَم بين مَنْ أُحِيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحقِّ !! .

ويقال لَمَّا قال له « فاعلم أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »^(٣) . كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخلق ، ثُمَّ بالانقطاع منه — أَي من الرسول — إِلَيْهِ .. أَي إلى الحقِّ سبحانه . والعبدُ إِذَا قال هذه الكلمة على سبيلِ العادةِ والغفلةِ عن الحقيقة — أَي كان بصفة النسيان — فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ ؛ كَأَن يُقال عند التعجب من شيء .. فليس لهذا قَدْرٌ . أَمَّا إِذَا قالها مخلصاً فيها ، ذا كَرَأَ لمعناها ، متحققاً بحقيقتها .. فَإِنَّ كان بنفسه فهو في وطن التفرقة .. وعندهم^(٤) هذا من الشُّرْكِ الخفيِّ ، وَإِنْ قالها بِحَقِّ فهو الإخلاص . فالعبد يعلم أولاً رَبَّهُ بِدليلٍ وَحُجَّةٍ ؛ فَعِلْمُهُ بنفسه كَسْبٌ .. وهو أصلُ الأصول ، وعليه يبنى كل علم استدلالِيٍّ^(٥) ! ثُمَّ تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج ، ويتناقص علمه بنفسه لَفَلَّاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب . فَإِذَا انتهى إلى حالِ المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ في تلك الحالة ضرورياً . وَيَقُلُّ إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالِيِّ وَكَأَنَّهُ غافلٌ^(٦) عن نفسه أو ناس لنفسه .

(١) آية ٢٨٥ سورة البقرة : « آمَنَ الرسولُ بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » .

(٢) آية ١١٤ سورة طه .

(٣) هنا يفرق القشيري بين التوحيد المنطوق باللسان ، والتوحيد عند أرباب الحقيقة .

(٤) أَي عند أرباب الحقائق ، لأنَّ أئمة شعور بالغيرية نتيجة عدم الإخلاص نقص في التوحيد .

(٥) من هذا يتضح أَنَّ الصوفية لا يميلون العقل تماماً بل يحترمون في مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان ، ولكنهم لا يميلون عليه تماماً في بقية معراجهم الروحي . وهذا رد حاسم على من ينتكرون على الصوفية علاقتهم بالعقل والعلوم العقلية .

(٦) في ص (وكانه قال) وهي خطأ من النسخ كما هو واضح من السياق بعده .

ويقال : الذى على البحر يئلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك^(١) .

« واستغفر لذنبك » : أى إذا علمت أنك علمت فاستغفر لذنبك من هذا ؛ فإن الحق — على جلال قدره — لا يعلمه غيره^(٢) .

فه له حل ذكره : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة

فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها

القتال رأيت المؤمنين فى قلوبهم مرض

ينظرون إليك نظر الغشى عليه من

الموت . . .

كان المسلمون تضيق قلوبهم بقباط الوحي ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة فقال تعالى : « فإذا أنزلت سورة محكمة^(٣) وذكر فيها القتال » رأيت المنافقين يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم من القتال ، فكانوا يفتضحون عندئذ ، وكانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم — بغاية الكراهة .

... فأولئى لهم .

(١) القشيري هنا مستفيد من شيخه أبي علي الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قائلا : « التواجد يوجب استيحاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر » الرسالة ص ٢٧ .

(٢) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضتها فى الصلاة والاستغفار : « إن صلاتنا فى حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا فى حاجة إلى استغفار » كما يذكرنا بقول القشيري فى موضع مماثل : « ... جلست الصديقة من أن يستشرف من إدراكها بشر » ، وفى ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبار فى القيد ؟

هو الذى أحدث الأشياء مبتدعاً فكيف يدركه مستحدث النسم ؟

(شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٤٩) .

(٣) قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة . وقيل معناها مينة غير متشابهة : لا نحتمل وجهاً إلا وجوب القتال .

تهديد^(١) .

قوله جل ذكره : « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » .

وهو قولهم : « لولا أنزلت سورة ... » .

ويقال : فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله . « وقول معروف » بالإجابة لما أمروا به من الجهاد .

ويقال : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمثلُ بهم .

قوله جل ذكره « فإذا عزم الأمرُ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

إذا عزم الأمرُ — أى جدَّ وفُرضَ القتالُ — فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم وثباتهم وتقاعدهم عن الجهاد .

قوله جل ذكره : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرضِ وتقطعوا أرحامكم » .

أى فلكم إن أعرضتم عن الإيمان — بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم — ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض ، وتسفكوا الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم ، وتعودوا إلى جاهليتكم .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين كفهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

أصمهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم ، وأعمى بصائرهم .

(١) يقول الشاعر :

فأول ثم أول ثم أول	وهل لك درُّ يُحلبُ من مرَدٍّ
وقال الأصمعي معناها : قاربه ما يهلكه وأقشد :	
فمادى بين هاديتين منها	وأول أن يزيد على الثلاث
وقال المراد : يقال لمن همَّ بالمطب : أول لك ! أى : قاربت المطب .	

قوله جل ذكره : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

أَقْفَالٌ » .

أى إن تدبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان ، وأراحهم من ظلمة التحير .

« أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالٌ » : أَقْفَالُ الْحَقِّ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِ فَلَا يُدَاخِلُهَا زَاجِرُ التَّنْبِيهِ ، وَلَا يَنْبَسِطُ عَلَيْهَا شِعَاعُ الْعِلْمِ ، فَلَا يَحْصِلُ لَهُمْ فَهْمُ الْخُطَابِ ؛ فَالْبَابُ إِذَا كَانَ مُقْفَلًا .. فَكَمَا لَا يَدْخُلُ فِيهِ شَيْءٌ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ كَذَلِكَ قُلُوبُ الْكَافِرِ مُقْفَلَةٌ ، فَلَا الْكُفْرُ الَّذِي فِيهَا يَخْرُجُ ، وَلَا الْإِيمَانُ الَّذِي هُمْ يَدْعَوْنَ إِلَيْهِ يَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَأَهْلُ الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ قَدْ سُدَّتْ بَصَائِرُهُمْ وَغُطِّيَتْ أَسْرَارُهُمْ ، وَلُبْسَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ الْحَقِّيقِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ

لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ » .

الَّذِي يَطْلُعُ فَجْرُ قَلْبِهِ ، وَيَتَلَأَلُ نَوْرُ التَّوْحِيدِ فِيهِ ، ثُمَّ قَبْلَ مَتَوَعٍ نَهَارٍ إِيْمَانِهِ انْكَسَفَتْ شَمْسُ يَوْمِهِ ، وَأَظْلَمَ نَهَارُ عِرْفَانِهِ ، وَدَجَا لَيْلُ شَكِّهِ ، وَغَابَتْ نَجْمُ عَقْلِهِ .. فَخُذَتْ عَنْ ظُلُمَاتِهِ ١٠٠ وَلاَ خَرَجَ (١)

[ذَلِكَ جَزَائُهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ مَعَ الْمُنَاقِقِينَ ، وَتَظَاهَرَهُمْ .. فَإِذَا تَوَقَّعَهُمُ الْمَلَائِكَةُ تَنْصِلُ آلَامَهُمْ ، وَلَا تَنْقَطِعُ بَعْدَ ذَلِكَ عِقَابُهُمْ] (٢) .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » .

لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَقَّعُوهُ ، بَلِ اللَّهُ يَفْضَحُهُمْ وَيَكْشِفُ تَلْيِيسَهُمْ ، وَلَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولَ عَنْهُمْ ،

وَعَرَّفَهُ أَعْيَانَهُمْ .

(١) التَّشِيرُ هُنَا يَفْهَمُ بِمَنْ يَتِمُّونَ إِلَى طَرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ ثُمَّ يَفْسُخُونَ عَقْدَهُمْ مَعَ اللَّهِ ، وَيَتَخَلَّوْنَ عَنْ طَرِيقِ

الْإِرَادَةِ بَعْدَ قَطْعِهِمْ مَسَافَةَ قَصِيرَةٍ .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ سَاقِطٌ فِي مَوْقَافَتِهِ فِي م .

قوله جل ذكره : « ولو نشاء لأريناكم قللهم »

بسيامهم ولتقرقهم في لحن القول .

أى فى معنى الخطاب ، فالأسيرة تدل على السيرة ، وما يخامر القلوب فعلى الوجوه
يلوح أثره :

لست ممن ليس يلقى ما هو ان من كرامة

إن للحب والبغض على الوجه علامة

والمؤمن ينظر بنور الفراسة^(١) ، والعارف ينظر بنور التحقيق ، والموحد ينظر بالله
فلا يستتر عليه شئ^(٢) .

ويقال : بصائر الصديقين غير مغطاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدوا كل
خوخة غير خوخة أبى بكر »^(٣) .

قوله جل ذكره : « ولنبؤنكم حتى تعلم المجاهدين

منكم والصابرين ونبؤ أخباركم » .

بالابتلاء والامتحان تبين جواهر الرجال ، فيظهر الخلق ، ويفتضح المآذق ، وينكشف
للفايق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نبجوا وتخلصوا ، والذين كفروا وناقوا وقعوا^(٤) فى الهوان
وأذلوا ، ووسموا بالشقاوة وقطعوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

(١) هكذا فى م وحى فى ص (يعين الفراسة) . روى الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة ، والترمذى
من حديث أبى سعد ، والطبرانى وأبو نعيم والبزاز بسند صحيح عن أنس « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

(٢) يفيد هذا الكلام فى ترتيب القوم : مؤمن ثم عارف ثم موحد فالموحدون أهل درجات السائرین .

(٣) يقول القشيري فى كتابه « المعراج » ص ٧٢ : (كان الصديق مخصوصاً من البصيرة بما لم يخص به غيره

قال (ص) : « سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر » . وذلك لما افتتحوا فى المسجد من كل دار خوخة ،
والإشارة فيه أن الصديق ليس بمنوع من الإبصار بحال) .

(٤) سقطت (وقعوا) فى ص ، وموجودة فى م .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالرياء والإعجاب والملاحظة .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالساكنة إليها . « ولا تبطلوا أعمالكم » بطلب الأعراض عليها .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله^(١) .

قوله جل ذكره : « فلا تهنؤوا وتدعوا إلى السلم وأنتم

الأعلون والله معكم » .

أى لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة^(٢) .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله « والله معكم » . أى بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم — والله معكم — لا يخفى عليه شيء منكم ، فهو على الدوام يراكم .
ومن علم أن سيده يراه يتحمل كل مشقة مشتغلاً برويته :

« ولن يترككم أعمالكم »

أى لا ينقصكم أجر أعمالكم .

قوله جل ذكره : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن

تؤمنوا وتتقوا فؤنكم أجوركم

ولا يسألكم أموالكم »

تجنبوا الشرك والمعاصي حتى يفيكم أجوركم .

والله لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة^(٣) .

« إن يسألكموها فيخفيكم تبخلوا

ويخرج أضغانكم » .

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الذين يزعمون أن الطاعة توجب على الله الثواب . ويرى القشيري أنه لا وجوب على الله ؛ فكل شيء من فضله ؛ لأن طاعة العبد لا توجب لله زينة ، ومعصيته لا تلحق به سبحانه شيئاً . « والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » .

(٢) عند هذا الحد انتهت النسخة م ، ولذا فإننا نعتمد على النسخة من في بقية السورة ، وهي مساحة كبيرة .

(٣) وهي على حد تعبير سفيان بن عيينة : غيظ من فيض .

« الإحفاء » الإلحاح في المسألة ... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نفسه ، فأما الإخوان
وَمَنْ عَلَتْ رِيبُهُمْ فِي بَابِ حُرِيَةِ الْقَلْبِ فَلَا يُسَاعِدُونَ فِي اسْتِيفَاءِ ذَرْوِهِ ، وَيُطَالِبُونَ بِبَذْلِ
الرُّوحِ ، وَالتَّزَامِ الْفَرَامَاتِ .

قوله جل ذكره : « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفَقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ
يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ » .

البخلُ مَنْعُ الْوَاجِبِ ، وَإِذَا بَخَلَ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَحَصَلَ لَهُ
الثَّرَاءُ — هَكَذَا يَظُنُّ .

وقوله جل ذكره : « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » .

« غَنِيٌّ » بِنَفْسِهِ عَلَى قَوْلٍ ، وَغَنِيٌّ بِوَصْفِهِ عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي^(١) . وَغِنَاهُ كَوْنُهُ لَا تَتَقَيَّدُ
مَرَادَاتُهُ . أَمَّا الْعَبْدُ فَهُوَ فَقِيرٌ بِنَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ مَوْلَاهُ ؛ فِي الْإِبْتِدَاءِ مِنْذُ خَلَقَهُ
إِلَى الْإِنْتِهَاءِ ، وَهُوَ فِي دَوَامِ الْأَوْقَاتِ مُفْتَقِرٌ إِلَى مَوْلَاهُ .

وَالْفَقِيرُ الصَّادِقُ مَنْ يَشْهَدُ افْتِقَارَهُ إِلَى اللَّهِ . وَصِدْقُ الْفَقِيرِ فِي شَهَادَةِ قَرَرِهِ إِلَى اللَّهِ . وَمَنْ
افْتَقَرَ إِلَى اللَّهِ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ ، وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَقَعَ فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ .

وَيَقَالُ : اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَحْمَتِهِ .

وَيَقَالُ : اللَّهُ غَنِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ لِأَنَّكُمْ لَا بَدِيلَ لَكُمْ عَنْهُ .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .

يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ بِكَوْنِنِ أَشَدَّ مِنْكُمْ طَاعَةً ، وَأَصْدَقَ مِنْكُمْ وِفَاءً ؛ فَهُوَ قَادِرٌ
عَلَى خَلْقِ أَمْثَالِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَالَكُمْ فِي الْعَصِيَانِ وَالْإِعْرَاضِ وَتَرْكِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ ...
بَلْ سَيَكُونُونَ خَيْرًا مِنْكُمْ .

(١) أى يمكن أن تكون من صفات الذات أو من صفات الفعل انظر « الغنى » في كتاب « التحبير في التذكير »
للإمام القشيري تحقيق د . بسيوني .

سورة الفتح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » تشير إلى سُموّه في أزلِهِ ، وعلوّه في أبدِهِ ؛ وُسُموّه في أزلِهِ نَفْيُ البداية عنه بحقّ القِدَم ، وعلوّه في أبدِهِ نَفْيُ الانتهاء عنه باستحالة المدَم ؛ فمعرفة سُموّه توجبُّ للعبدِ سُموّاً ، ومعرفة علوّه توجبُّ للعبدِ علوّاً^(١) .

قوله جل ذكره : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

قضينا لك قضاءً بيّناً ، وحكنا لك بتقوية دين الإسلام ، والنصرة على عدوك ، وأكرمناك بفتح ما اتفق على قلب من هو غيرك — من قبلك — بتفصيل شرائع الإسلام ، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزلت الآية في فتح مكة ، ويقال في فتح الحديبية^(٢) .

ويقال : هديناك إلى شرائع الإسلام ، وبسرّنا لك أمور الدين .

« ليغفرَ لك الله ما قدّم من ذنبك

وما تأخر » .

(١) واضح أن مذهب التشيرى في معرفة أسماء الله سبحانه لا يقتصر على المعرفة الكلامية النظرية بل يتجاوز ذلك إلى التأدب بها ، والتخلق بأخلاق الله . فالعمل مترتب على العلم (انظر مقلتنا لكتاب التحبير في التذكير) .

(٢) يقال مرثى . . . رواية بين مكة والمدينة (رواية محمد بن اسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم) وأنها نزلت في سن الحديبية . (كذلك في البخاري في سماع قتادة عن أنس) . وقال الضحاك : «سيناه أى بغير قتال . وقال مجاهد : كان فتح الحديبية آية عظيمة إذ نزع ماؤها فمج فيها قدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال الشعبي : هو فتح الحديبية ؛ فقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة : غفر الله له ذنبه ، وبويج بيعة الرضوان ، وأطمعوا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على الفرس .

كلا القسمين — المتقدم والمتأخر — كان قبل النبوة^(١) .

ويقال « ما تقدم » من ذنب آدم بحرمتك ، « وما تأخر » : من ذنوب أمّتك^(٢) .
وإذا حُلّ على ترك الأوّل^(٣) قد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك ، قبل النبوة
وبعدها^(٤) .

ولما نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك ! فأنزل الله تعالى :

« ليدخل المؤمن والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » . . . ويقال :
حسنات الأبرار سيئات القريين .

« وَبِمِ نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا » .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وببسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله
غداً ، [ويأظهر دينه على الأديان ، وبأنه سيد ولد آدم ، وبأنه أقسم بحياته ، وخصه بالبيان]^(٥) .
وبسماع كلامه سبحانه ليلة المراج ، وبأن بعثه إلى سائر الأمم . . . وغير ذلك من مناقبه .
« ويهديك صراطاً مستقيماً » يثبتك على الصراط المستقيم ، ويزيدك هدايةً على هداية ،
ويهدي بك الخلق إلى الحق .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حظك .

« وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

(١) نصّ القشيري على « قبل النبوة » لأن الأنبياء معصومون من الذنب .

(٢) هذا أيضاً قول عطاء الخرماني .

(٣) ترك الأوّل تعبير أدبي مهذب عن « الذنب » . ويقال : كان الذنب المتقدم على يوم بدر قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض » . والذنب المتأخر كان يوم حنين حيث رمى جمرات في وجوه المشركين قائلاً : « شامت الوجوه » . سم . لا ينصرون ، فانهزم القوم عن آخرهم ، ولم يبق أحد إلا امتلأت عيناه وملا وحشاه . وعند عودة النبي مع أصحابه قال لهم : لو لم أرمهم لم ينهزموا ! فأنزل الله عز وجل :
وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(٤) روى الترمذي عن أنس أن النبي فرح بهذه الآية فرحاً شديداً وقال : لقد أنزلت على آبه أحب إلي ما على وجه الأرض .

(٥) ما بين القوسين الكبيرين موجود في ص وغير موجود في م .

لا دُلَّ فيه ، وتكون غالباً لا بفعلِكَ أحدٌ .

ويقال : ينصرك على هوائِكَ ونفْسِكَ ، وينصرك بحُسْنِ خُلُقِكَ ومقاساةِ الأذى من قومك .

ويقال نصراً عزيزاً : مُعِزاً لك ولن آمن بك .

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أكرمَ بها نبيّه — صلى الله عليه وسلم — وخصّه بها من الفتح والظفرِ على النفسِ والعدو ، وتيسير ما انطلق على غيره ، والمفخرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصٌ عظيمةٌ .

قوله جل ذكره : « هو الذى أنزل السَّكينةَ فى قلوبِ

المؤمنين » . .

السَّكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائرِ والحجَجِ ، فيرتقى القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْجِ اليقين وتلجُّ القوادرُ ، فتصير العلومُ ضروريةً^(١) . . وهذا للخواصِّ .

فأما عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكونُ والطمأنينةُ واليقينُ .

ويقال : من أوصافِ القلبِ فى اليقين المعارفِ والبصائرِ والسَّكينةُ .

وفى التفسير : السَّكينة ریح هفائة . وقالوا : لها وجهٌ كوجه الإنسان . وقيل لها جناحان .

« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

أى يقيناً مع يمينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

« والله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان

اللهُ علماً حكماً » .

« جنود السمواتِ والأرضِ » : قيل : هى جميع القلوب الدالَّة على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما به من قوى تَهْزِ أعداءَ الله .

(١) أى لا يعود كسبه حيث لم يعد للإنسان من نفسه لنفسه شيء .

ويقال : هم أنصار دينه .

ويقال : ما سلطه الحق على شيء فهو من جنوده ، سواء سلطه على وليه في الشدة والرخاء ، أو سلطه على عدوه في الراحة والبلاء .

قوله جل ذكره : « لِيَدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَيُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ

عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً » .

يَسْتُرُ ذُنُوبَهُمْ وَيُحِطُّهَا عَنْهُمْ . . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظفرُ بالبغية^(١) .

وسؤالُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه ، ومُبتَغاه ومقصودُه مختلفٌ . . . وقد وعدَ الجميعَ ظَفَرًا به .

قوله جل ذكره : « وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ

وَالْمُشْرِكَاتِ ، الْظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ

عليهم دائرة السوء » .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .

و« ظن السوء » : هو ما كان بخير الإذن ؛ ظنوا أَنَّ الله لا ينصر دينه ونبيّه عليه السلام .

« عليهم دائرة السوء » : عاقبته تدور عليهم وتحيق بهم .

« ولعَنهم » : أبعدهم عن فضله ، وحقت فيهم كَلْبَةُ ، وما سبقت لهم — من الله سبحانه —

قِسْمَتُهُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً » .

« أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً » : على أَمَّتِكَ يومَ القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .

ويقال : شاهداً بوحدايتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأَمَّتِكَ بتوحيدها . « ومبشراً » :

لهم مِنَّا بالثواب ، . « ونذيراً » للخلق ؛ زاجراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات .

(١) هكذا في م ومن في من بالنعمة .

ويقال : شاهداً من قَبْلِنَا ، وَمُبَشِّرًا بِأَمْرِنَا ، وَنَذِيرًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلِنَا وَمِنَّا .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

قرى^(١) : ﴿ لَتُؤْمِنُوا ﴾ بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أى ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أى الرسول ، ويوقروه : أى يُعظموا الرسول . وتُسَبِّحوه : أى تُسَبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلًا^(٢) .

وقرى^٣ : ﴿ لَتُؤْمِنُوا ﴾ — بالياء — أيها المؤمنون بالله ورسوله وتعزروه — على الخطابية . وتعزروه يكون بإيثاره بكل وجه على نفسك ، وتقديم حكمه على حكمك . ونوقيره يكون باتباع سنته ، والعلم بأنه سيد بريته^(٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سمره^(٥) .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عثمان رضى الله عنه إلى قريش ليُكلِّمهم فأرجفوا بقتله . وأتى عروة بن مسعود^(٥) إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

جئت بأوشاب الناس لتفض بيضتك يدك ، وقد استعدت قريش لقتالك ، وكأني بأصحابك

(١) قراءة ابن كثير وابن عيصن وأبي عمرو .. وكذلك «سبحوه» بالياء ، والباثون بالياء على الخطاب (٢) ونلاحظ أن القشيري قد توقف قبل تسبحوه فجعلها بالياء ، وهناك من المفسرين من يرى ذلك أيضاً (انظر القرطبي ١٦٨ ص ٢٦٧) .

(٣) عزوت الرجل أى رددت عنه ونصرتة وأيدته — وهو من الأضداد — لأنه قد يأتي بمعنى أدبته ولئسته .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : وقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة والسمة : شجرة الطلع .

(٥) جاء في السيرة لابن اسحاق ٣ ص ٧٧٨ :

بعد أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، فلما سمعت قريش بذلك استعدت لقتاله مع أنه لم يكن ينوى قتالا وتعاقبت السفراء بينه وبينهم ، وكان كل سفير من قريش يذهب إلى النبي ثم يعود ليقتنع قريش بحقيقة نية النبي ولكنهم كانوا لا يرضون بما جاء به ، حتى جاء دور عروة بن مسعود الثقفي — وهو عند قريش غير متهم وقال النبي «إن قريش قد خرجت معها العوة المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يهاهدون الله لا تدخلها أبداً عليهم عوة . وحيثما قال عروة : وإيم الله لكأنى هؤلاء — يريد أصحاب الرسول — قد انكشروا عنك غداً . فانبرى أبو بكر قائلاً : أنحن نكشف عنه ... الخ .

قد انكشفوا! عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح! قال أبو بكر : أتظنُّ أننا نسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبايعهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أن يُقاتِلُوا وألا يهربوا^(١) ، فأنزل الله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » : أى عقدك عليهم هو عقد الله .

قوله جل ذكره : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » .

أى « يد الله » : فى المنة عليهم بالتوفيق والهداية^(٢) : « فوق أيديهم » بالوفاء حين بايعوك .
ويقال : قدرة الله وقوته فى نصرته دينه ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم فوق نصرهم لدين الله ورسوله .

وفى هذه الآية تصريحٌ بيمين الجمع^(٣) كما قال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »
قوله جل ذكره : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ »
أى عذابُ النكثِ عائِدٌ عليه .

« وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْرُ يَمْثِرُ لَهُ أَجْرًا كَبِيرًا » .

أى من قام بما عاهد الله عليه على التمام فمِثْرُ يَمْثِرُ لَهُ أَجْرًا عَظِيمًا .
وإذا كان العبد بوصف إخلاصه ، بما مِلَّ الله فى شىء هو به متحقِّقٌ ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التى تُظهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجمعُه محوًّا فى أسرارِهِ . . والحكم عندئذ راجعٌ إلى الواحد — جلَّ شأنه^(٤) .

(١) قال جابر بن عبد الله بايعنا رسول الله (ص) تحت الشجرة على الموت وعلى ألا نفر فبايعنا فبايعنا .
إلا جده بن فليس وكان منافقاً اختبأ تحت بطر بغيره ولم يسر مع القوم .
(٢) نلاحظ أن القشيري هنا يؤول اليد حتى ينشئ عن الله الاتصاف بالممارسة .
(٣) أنت حين بايعت أو حين رميت فأنت من حيث الظاهر تقوم بعمل وأنت فى حال الفرق ، ولكن الحقيقة أنه لا فاعل إلا الله فمته التوفيق والهداية والإصاية . . وهذا هو حال الجمع . وبمقدار ما يكون العبد فى منزلة التمكن وبعبداً عن التلوين يكون دنوه من حال الجمع ، التى بعدها حال جمع الجمع . . ونبيينا صلى الله عليه وسلم كان عندهما إذ هو صلوات الله عليه محمول لا متحمل ؛ أى بربه لا بنفسه .
(٤) أى إذا أفضى العبد بشيء من العرفان عندئذ فيكون نقطة وما يظهر عليه من الله وبالله .

قوله جل ذكره : « سيقول لك المخلفون من الأعرابِ

شغللتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا

يقولون بالستهم ما ليس في قلوبهم »

لما قصد رسول الله عليه وسلم التوجه إلى الحديبية تحلف قوم من الأعراب عنه . قيل : هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع ، وقالوا : « شغللتنا أموالنا وأهلونا » وليس لنا من يقوم بشأنا ، وقالوا : انتظروا ماذا يكون ؛ فما هم في قريش إلا أكلة رأس^(١) . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوه مُعْتَذِرِينَ بأنه لم يكن لهم أحد يقوم بأمرهم ، وقالوا : استغفر لنا .

فأطلعه الله — سبحانه — على كذبهم ونفاقهم ؛ وأنهم لا يقولون ذلك اخلاصاً ، وإنما هم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ »

فَضَحَّهِمْ . ويقال : ما شغل العبد عن الله شؤم عليه .

ويقال : عُذْرُ الْمَآذِي وَتَوْبَةُ النَّافِقِ كَلَاهَا لَيْسَ حَقَاقُ .

قوله جل ذكره « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ

إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ

وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

حسبتم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً ، وزَيَّنْتُ لَكُمْ الْأَمَانِي الْأَيُّودِيَّةَ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَنْ يَنْصُرَهُمْ . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » أي هالكين فاسدين .

(١) أي هم قليل .

ويقال : إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمتَّى ما تنقاصر عنه مُكِبُّهُ ، وتلك صفةُ كلِّ عاجز ، ونعتُ كلِّ لئيم . ثم إنَّ الله — سبحانه — بعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده « ولا يَحْنِقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »^(١) .

ويقال : من العقوبات الشديدة التي يعاقبُ اللهُ بها المُبْطِلُ أن يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نفسه عليه لقرط جهله . ويُلقى الحقُّ في قلبه ذاك التمتي حتى تسول له نفسه أن ذلك كالكائن .. ثم يعذبه الله بامتناعه .

قوله جل ذكره : ومن لم يؤمن باللهِ ورسوله فإنا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً «

وما هو آت قريب . . وإنَّ الله ليرخي عنانَ الظَّلَمَةِ ثم لا يفلتون من عقابه . . وكيف — وفي الحقيقة — ما يحصل منهم هو الذي يحريه^(٢) عليهم ؟

قوله جل ذكره : « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُفْقَرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً »

يفقَرُ — وليس له شريك بقول له : لا تفعل ، ويعذب من يشاء — وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له : لا تفعل .

قوله جل ذكره : « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمَ لَنَأْخُذْهَا ذُرُونا نَتَّبِعْكُمْ يَرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّنْ تَتَّبِعُونَا »

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعلم الله خيرَ ،

(١) آية ٤٣ سورة فاطر .

(٢) هكذا في ص وهي في م (يجزيه) بالزاي وقد رجعنا (يجزيه) أولاً لاتصالها بذهب القشيري وكون الله — على الحقيقة — فاعل كل شيء حتى أكساب العباد . وثانياً لأنها لو كانت بالزاي لقال : يجزيهم عليه .

وَأَنَّ فِيهَا سِيفَةٌ بِأَعْدَائِهِ ، فَلَمَّا هَمَّ بِالْخُرُوجِ أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْخَائِفُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ لِمَا عَلِمُوا فِي ذَلِكَ مِنْ الْفَنِيْعَةِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا يُخْرَجُ مَعِيَ إِلَى خَيْرٍ مِنْ خُرُوجٍ إِلَى الْحَدِيدِيَّةِ ، وَاللَّهُ بِذَلِكَ حَكَمٌ أَلَّا يُخْرَجُوا مَعَنَا »

قَالَ الْمُتَخَلِّفُونَ : إِنَّمَا يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ حَسْداً لَنَا ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِتَكْذِيبِهِمْ ، وَلِيُبَيِّنَ حُكْمَهُ أَلَّا يَسْتَصْحِبَهُمْ فَهَمَّ أَهْلُ طَمَعٍ ، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا مَرَادَهُمْ ، وَرُدُّوا بِالْمَلَّةِ وَافْتَضَحَ أَمْرُهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ

إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤَيِّنْكُمْ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَاتِبُوتٍ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً »

جَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْإِمَامَةِ أَصْحَابُ مَسِيلَةٍ — وَقَدْ دَعَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَحَارِبُهُمْ ، فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى إِمَامَتِهِ . . وَقِيلَ هُمْ أَهْلُ فَارَسَ — وَقَدْ دَعَاهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَحَارِبُهُمْ ؛ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَتِهِ . وَصِحَّةُ إِمَامَتِهِ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ . « أُولَى بِأْسٍ شَدِيدٍ » أُولَى شَدَّةً . فَإِنْ أُطِيعْتُمْ اسْتَوْجِبْتُمْ الثَّوَابَ ، وَإِنْ تَخَلَّفْتُمْ اسْتَحَقَقْتُمُ الْعِقَابَ . وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ يُجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَبْدِ بَدَايَةُ غَيْرِ مُرَضِيَةٍ ثُمَّ يَتَغَيَّرُ بَعْدَهَا إِلَى الصَّلَاحِ — كَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ وَأَنْشَدُوا :

إِذَا فَسَدَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ صَلَاحِهِ

فَرَجَّ لَهُ عَوْدَةُ الصَّلَاحِ . . لَعَلَّهُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) العبارات التي وردت في إثبات صحة الإمامين جاءت في م ولم ترد في ص .

يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَنْ يَقُولُ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا»

هؤلاء أصحاب الأعذار . . رفع عنهم الحرج في تحملهم عن الوقعة في قتال المشركين .

وكذلك مَنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ فِي الْجَاهِدَةِ مَعَ النَّفْسِ . . فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عِزَّتُهُ (١) .

قوله جل ذكره : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ

يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » .

هذه بيعة الرضوان ، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ . . » .

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقليل وثلاثمائة وقليل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخول مكة ، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صائدين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، قصده المشركون ، ثم صالحوه على أن ينصرفوا هذا العام ، ويقم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً) (٢) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمة حتى قال الصديق : لم يقل العام ! فسكنت قلوبهم بنزول الآية : « لَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ عَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِضْطِرَابِ وَالتَّشَكُّكِ » . فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ،

(١) هذه لفظة هامة جداً ، حيث لم تتعود من القشيري في سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حيناً يتحدث عن الصوفية يعتبر الجور إلى الرخصة بمثابة فسح فقد الإرادة (أنظر الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) ما بين الأقواس تكملة من عندنا اعتماداً فيها على المصادر المختلفة . أوردناها ليتضح السياق

وَبَيَّنَهُم بِالْيَقِينِ . « وَأَتَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » هو فَتْحُ خَيْرٍ بعد مدة يسيرة ، وما حصلوا عليه من مَنَامٍ كثيرةٍ من خَيْرٍ . وَقِيلَ مَا يَأْخُذُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ^(١) .

وفي الآية دليلٌ على أنه قد تَخَطَّرَ بِيَالِ الْإِنْسَانِ خَوَاطِرُ مُشْكِكَةٍ ، وفي الرَّيْبِ مَوْقِعَةٌ ، ولكن لا عبرة بها ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خَيْرٍ لَازِمَ التَّوْحِيدِ قَلْبَهُ ، وَقَارَنَ التَّحْقِيقَ مِرَّةً فَلَا يَضُرُّهُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ ، قَالَ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ^(٢) .

« وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَنَامٍ كَثِيرَةً نَأْخُذُونَهَا » ويدخل في ذلك جميعُ ما يُغْنِمُهُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْقِيَامَةِ فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ — يَعْنِي خَيْرٍ ^(٣) ، وَقِيلَ : الْحَدِيثِيَّةُ .

« وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » لِمَا خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ حَرَسَهُمُ اللَّهُ ، وَحَفِظَ عِيَالَهُمْ ، وَحَمَى بَيْتَهُمْ حِينَ هَبَّ الْيَهُودُ ^(٤) فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ ، فَغَنِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ .

أَوْ يُقَالُ : كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِيَّةِ .

« وَلَتَكُونَنَّ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا »

لَتَكُونَنَّ هَذِهِ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةً يَسْتَنْدِلُونَ بِهَا عَلَى حِرَاسَةِ اللَّهِ لَهُمْ .

« وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » : فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةِ بِهِ .

وَيُقَالُ : كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنِ الْعَبْدِ هُوَ أَنْ يَرْزُقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، لِئَلَّا يَحْتَاجَ إِلَى أَنْ يَتَكَفَّفَ النَّاسُ .

وَيُقَالُ : أَنْ يَرْقَعَ عَنْهُ أَيْدِيَ الظَّالِمَةِ .

(١) هذا أيضا قول ابن عباس ومجاهد .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) يرجع أنها خير ، لأن الحديثية كان فيها صلح .

(٤) يرجع الطبري ذلك ، لأن كف أيدي المشركين في الحديثية مذكور في قوله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ »

ويقال : ألا تحمله المطالبة بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه ؛ فيأخذ من الأشياء — برخصة التأويل — ما ليس بطيب^(١) .

قوله جل ذكره : « وأخري لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً »

قيل : فتح الروم وفارس^(٢) . وقيل : فتح مكة^(٣) .

وكان الله على كل شيء قديراً : فلا تعلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره : « ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوْا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً »

يعنى : خير وأسد وعظمان وغيرهم — لو قاتلوكم لانتهزموا ، ولا يجدون من دون الله ناصرأ

قوله جل ذكره : « مُسِنَّةٌ اللهُ التي قد خَلَّتْ من قبل

ولن تجدَ لِسِنَّةِ اللهِ تبديلاً »

أى مُسِنَّةُ اللهِ خذلانهم ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

قوله جل ذكره : « وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم

وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن

أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً »

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل

التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل الله هذه الآية في شأنهم^(٤) .

(١) مرة أخرى تنبه إلى إضافة هذا الكلام إلى موقف التفسيرى من الرخصة ومداها .

(٢) قال ابن عباس : هى أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليل .

(٣) عن الحسن أيضاً وقتادة ، وقال عكرمة : حنين .

(٤) فى ص ، وم (فأعلمهم سليمان) ، وما خطأ فى النسخ ، فالرواية عن يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن (ثمانين) رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي (ص) من جبل التنعيم متسلحين يريدون

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين — بلا عهد — فمن عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم^(١) وقيل : هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل ترامي الأحجار بينهم ؛ فاضطرب المسلمون إلى يوتهم ، فأنزل الله هذه الآية بمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا عن عجز ؛ فلما الكفار فكفوا أيديهم رعباً وخوفاً ؛ وأما المسلمون فنهتاً من قبل الله ، لما في أصلاهم من المؤمنين — أراد الله أن يخرجوا ، أو ليأعلم أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه : أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يسلم الناس منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك ، فلا من أحد عليهم حيف ، ولا منهم على أحد حيف ولا حساب ولا مطالبة ولا صلح ولا معاتبة ، ولا صداقة ولا عداوة . . وكذا من كان بالحق — وأنشدوا :

فلم يبق لي وقتٌ لذكرٍ مخالفٍ

ولم يبق لي قلبٌ لذكرٍ موافق .

« قوله جل ذكره : » هم الذين كفروا وصدؤكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله »

« كفروا » وجعدوا ، « وصدؤكم » ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

« والهدى معكوفاً^(٢) » : أي منعوا الهدى أن يبلغ منحره ، فمعكوفاً حالاً من الهدى أي محبوساً .

— غرة (أن يصيبوه على غفلة) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذناهم ملأً فاستحييناهم . (أي أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم) (وقال ابن الأثير) السلم (بكسر السين وفتحها لفتان في الصلح) . وفي رواية قتادة أن النبي سلم : « هل لكم على ذمة ؟ » (= أي عهد) قالوا : لا ، فأرسلهم فنزلت . وفي رواية الترمذي أنهم ثمانون رجلاً هبطوا عليه عند صلاة الصبح ، فأخذهم واعتقهم . وذكر ابن هشام أنهم يستحقون العتق . . ومنهم معاوية وأبوه .

(١) عن قتادة : أن المشركين رموا رجلاً من أصحاب النبي يقال له زعيم بنهم فقتلوه ، فبعث النبي غيلاً تأتو بآني حشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبي (ص) : هل لكم على ذمة ؟ ... النخ .

(٢) في البخاري عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله (ص) معتزين فحال كفار قريش دوننا فصر الرسول وحلق رأسه ، فنحروا بنحره وحلقوا ، وقد غضب الرسول من توقف عن ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السِّنة سبعين بدنة .

قوله جل ذكره : « ولولا رجالٌ مؤمنونٌ ونساءٌ

مؤمناتٌ لم تعلموا أن تطئروهم ^(١) فتصيبكم
منهم مَعْرَةٌ بغير علم ليدخل الله في رحمته
من يشاء »

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرة منكم بغير علم لسلطناكم عليهم ولا ظفرناكم بهم .
وفي هذا تعريف للعبد بأن أموراً قد تنقلق وتتسَّر فيضيق قلب الإنسان . . والله في ذلك
صيرٌ ، ولا يعلم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري . . كما قالوا :

كم مرة خفت بك للكاره خير لك الله . . وأنت كاره

قوله جل ذكره : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم

الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزل الله سكينته
على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم
كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها
وكان الله بكل شيء عليماً »

يعنى الألفة ^(٢) ؛ أى دَفَعَتْهُمْ أُمَّةُ الجاهلية أن يَمْنُوكُمْ عن المسجد الحرام سنة الحديبية ،
فأنزل الله سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والحاربة ، ووقفوا واستقبلوا
الأمر بالحلم .

« وألزمهم كلمة التقوى » وهى كلمة التوحيد تصدُرُ عن قلب صادق : فكلمة التقوى
يكون معها الانتقاء من الشرك .

(١) أن تطئروهم : بالقتل والإيقاع بهم . يقال وطئت القوم : أى أوقعت بهم . فجواب لولا محنوف والمعنى :
ولو أن تعثروا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموا لأذن الله لكم في دخول مكة ، وسلطكم عليهم ، ولكننا
صنا من كان فيها يكم وإيمانه .

(٢) مكذا في م وهى في ص (الأنية) وقد رجحنا الأول .

« وكانوا أحقَّ بها » حسب سابق حُكْمِهِ وقديم^(١) علمه... « وكان الله بكل شيء عليماً »
ويقال : الإلزام في الآية هو إلزام إكرايم ولطف ، لا إلزام إكراه وعُتْفٍ ؛ وإلزام برّ
لا إلزام جبر . .

وكم باسطين إلى واصلتنا

أَكْفَهُمْ... لم يتألوا نصيباً !

ويقال كلمة التقوى : التواهي بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هي أن تكون لك حاجة فتسأل الله ولا تمّتديها للناس .

ويقال : هي سؤالك من الله أن يحرُسَك من اللطامع .

قوله جل ذكره : لقد صدّق اللهُ رسوله الرؤيا بالحقّ
لتَدْخُلَنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله
آمنين مُحَلِّقِينَ رءوسكم ومُقَصِّرِينَ
لا تخافون فاعلم ما لم تعلموا فجعل من دون
ذلك فتحةً قريباً . .

أى صدقه^(٢) في رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أراه^(٣) من دخول مكة « آمنين مُحَلِّقِينَ
رءوسهم ومُقَصِّرِينَ » كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه . فوطئ أصحابه نفوسهم
على دخول مكة في تلك السنة . فلمّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء ،
حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دُخُولُهُمْ في هذا العام ، ثم أذن الله في العام القابل ، فأنزل الله :
« لقد صدّق الله رسوله الرؤيا بالحق » فكان ذلك تحقيقاً لما أراه ، فرؤياه صلوات الله عليه حق ؛
لأن رؤيا الأنبياء حق .

(١) مكذّاب صريح في م (وقد) وقد رجحنا الأول .

(٢) أى على حدّ الجار كنزوله تعالى : « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

(٣) إشارة إلى الرؤيا التي أراه إليها من دخوله وصحبه مكة آمنين .

وكان في ذلك نوعُ امتحانٍ لهم : « فلم مالم تعلموا » أنتم من الحكمة في التأخير^(١) .
 وقوله : « إن شاء الله » معناه إذ شاء الله كقوله : « إن كنتم مؤمنين »
 وقيل . قالها على جهة تنبيههم إلى التأدُّب بتقديم المشيئة في خطابهم^(٢)
 وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمين أو غير آمين .
 وقيل . يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلهم أو دخول بعضهم ؛ فإن الدخول كان بعد سنة ،
 ومات منهم قومٌ .

قوله جل ذكره . « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
 الحق ليظهره على الدين كله وكنى بالله
 شهيداً » .

أرسل رسوله مجداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفي ، وشريعة الإسلام ليظهره على كل
 ما هو دين^(٣) ؛ فإما من دين لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سرٌّ ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه
 بالحجج والآيات .

وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام^(٤) .

وقيل : في القيامة حيث يظهر الإسلام على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جل ذكره . « محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشداءُ
 على الكفارٍ رحماءُ بينهم »

(١) قد تكون الحكمة في التأخير هو ما سيحدث لهم من الخير والصلاح والتفوق وكثرة العدد ، فإنه عليه السلام
 رجع من مكة إلى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموال وعدة ورجال أضعاف ما كان عليه في ذلك العام ،
 وأقبل على مكة في أهبة وعدة . يدلك على ذلك أنهم كانوا عام الحديبية ستة ست عدهم ألف وأربعمائة ، وكانوا بعده
 عشرة آلاف .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » .

(٣) أي : (الدين) في الآية اسم جنس ، أو اسم بمعنى المصدر ، ويستوى فيه المفرد والجمع .

(٤) أي عند نزوله لا يبقى على وجه الأرض كافر .

« أشداء » . جمع شديد ، أى فيهم صلابة مع الكفار .
« رحماء » . جمع رحيم ، وصفهم بالرحمة والتوادف فيما بينهم .
« ... تراهم ركعاً سجداً أيتقون فضلاً من الله ورضواناً »
تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .
« ... سيأثم في وجوههم من أثر السجود »

أى علامة التخشع التى على الصالحين .
ويقال : هى فى القيامة يوم تبيض وجوه ، وأنهم يكونون غداً محجلين .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »^(١)
ويقال فى التفسير : « معه » أبو بكر ، و « أشداء على الكفار » صر ؛ و « رحماء بينهم » :
عثمان ، وتراهم ركعاً سجداً « على رضى الله عنهم »^(٢)
وقيل : الآية عامة فى المؤمنين .

« ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم
فى الإنجيل كزراع أخرج شطأه فأزرعه
فاستغلف فاستوى على سوقه يعجب
الزراع ليفيط بهم الكفار » .

هذا مثلهم فى التوراة ، وأما مثلهم فى الإنجيل فكزراع^(٣) أخرج شطأه أى : فراخه .

(١) جاء فى سنن ابن ماجه : حدثنا اسماعيل بن محمد الطلخى قال : حدثنا ثابت بن موسى عن شريك عن الأعشى
من أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته ... » وقال ابن العربى : هو
مدسوس على وجه القلط .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فلم يرد ذكر الصحابة ورضوان الله عليهم سوى الجزء الأخير الخامس بعل كرم الله
وجهه ، وقد يمكن لو تذكرونا ما جاء فى هامش ص ٤٢٥ - أن نستبط أن ناسخ ص - الذى هو فارسي الأصل كما قلنا
فى مدخل الكتاب - ربما كان شيعياً .

(٣) فعل هذا يجوز الوقف على (التوراة) ثم يستأنف الكلام فيكون هناك مثلاً . وقال مجاهد : هو مثل
واحد . وعند النسب : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم يثبتون نبات الزرع يأمرؤن بالمعروف ويثبتون عن المنكر
(ص ١٦٤) .

نقال : أشطأ الزرعُ إذا أخرج صفاره على جوانبه . « فأزره » أى عاونهُ . « فاستفاظ » أى غلظ واستوى على سوقه ؛ وأزرت الصفار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزراعَ ليفيظ بالمسلمين الكفار ؛ شبهَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت، حولها فتشتد ، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فَسَنَ حمل الآية على الصحابة : فمن أبغضهم دخل في الكفر، لأنه قال: « ليفيظ بهم الكفار » أى بأصحابه الكفار. ومن حمله على المسلمين ففيه حُجَّةٌ على الإجماع ، لأنَّ من خالف الإجماع — فالله يغافل به الكفار — فمخالفُ الإجماع كافرٌ

قوله جل ذكره: « وعدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم

مغفرةً وأجرًا عظيمًا »

وعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة الذنوب ، وأجرًا عظيمًا في الجنة فقوله : « منهم » للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

[« بسم الله » : إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ
الْقِدَمِ .

« الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقاءه بوصفِ
القلاء والكَرَمِ .

كَاشَفَ الْأَرْوَاحَ بِقَوْلِهِ : « بسم الله » فَهَيَّيْمَا .
وَكَشَفَ النَّفُوسَ بِقَوْلِهِ : « الرحمن الرحيم »
فَهَيَّيْمَا ؛ فَالْأَرْوَاحُ دَهَشَتْ فِي كَشْفِ جَلَالِهِ ، وَالنَّفُوسُ
عَطَشَتْ إِلَى لُطْفِ جَمَالِهِ] .

عبد الكريم القشيري

في

بسملة « الشمس »

سُورَةُ الْجُرَات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسم كريم من تنصل إليه من زلاته تفضل عليه بنجاته ، ومن توسل إليه بطاعته تطول عليه بدرجاته .

« بسم الله » اسم عزيز من تقرب إليه بمناجاته قابله بلطف أفضاله ، ومن تحبب إليه بإيمانه أقبل عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ

يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » : شهادة للننادي بالشرف .

« لَا تَقْدُمُوا » أمر بتحمل الكلف . قدم الإكرام بالشرف على الإلزام بالكلف أي

لا تقدموا بحكمكم « بين يدي الله ورسوله » : أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله ، أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً .

ويقال : قفوا حيثما وقفت ، وافعلوا ما به أمرتم ، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع . .

لأرباب الابتداء والابتداع .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ

فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ

تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

أمرهم بحفظ حرمة ، ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته ، وألاً ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخلقه يُلاينهم فيقبنى ألا يتبسطوا معه متجاسرين ، ولا يكونوا مع ما يماشرهم به من تخلفه عن حدودهم زائدين .

ويقال : لا تبدأوه بحديث حتى يُفَاتِحَكُم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُغَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَقَرٌّ وَمُفَرِّقٌ عَظِيمٌ » .

هم الذين تقع السكينة عليهم من هبة حضرته ، أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى بانزعاج حب الشهوات منها ، فاتقوا سوء الأخلاق ، وراعوا الأدب .

ويقال : هم الذين انسلخوا من عادات البشرية .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ • وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

أى لو عرفوا قدرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَكَ ، والزموا هَيْبَتَكَ .

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم (١) .

أما أصحابه — صلوات الله عليه وسلامه — الذين يعرفون قدره فإن أحدهم — كما في الخبر : « كَأَنَّهُ يَفْرَعُ بَابَهُ بِالْأُظْفَرِ » .

(١) يقال : نزلت في قوم من بني تميم منهم الأقرع بن حابس وسويده بن هاشم ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة ابن حصن ، وأن الأقرع نادى النبي (ص) من وراء حجرتة أن اخرج إلينا فإن مدحنا زيناً ودمنا شيناً . وكان ذلك وقت الظهيرة والنبي في راحته وبعض مشغولته الخاصة . فاستيقظ وخرج لم .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ
بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » .

دلَّت الآية (١) على ترك السكون إلى خبر الفاسق إلى أن يظهر صدقه .
وفي الآية إشارة إلى ترك الاستماع إلى كلام الساعي والتمائم والفتن للناس .
والآية تدلُّ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً .
والفاسق هو الخارج عن الطاعة (٢) . ويقال هو الخارج عن حد الروعة .
ويقال : هو الذي أتى جلباب الحياء .

قوله جل ذكره : « وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » .

أى لو وافقكم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير مما تطلبون منه لوقعتم في العنت
— وهو الفساد (٣) . ولو قيل قول واحد (قبل وضوح الأمر) لأصابكم من ذلك شدة .
والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يرَ في ذلك مصلحة لكم
واللدين .

(١) يقال: نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط .. أرسله النبي (ص) ليحبي الصدقات من بني المصطلق .
فلما أبصروه تقدموا نحوه فهاهم ؛ فقد كانت بينه وبينهم إحنة .. فعاد من فوره إلى النبي وأخبره أنهم ارتدوا عن
الإسلام ، فلم يقنع النبي (ص) بما سمع وأرسل إليهم خالده بن الوليد ليثبت من الأمر فأخبروه أنهم على إسلامهم ،
وأنهم كانوا خارجين إلى سفير النبي لإكرامه ، واستيقن خالده من ذلك حين سمع أذانهم وصلاتهم .. فعاد إلى النبي
رجل حقيقة الأمر .

(٢) مشتق من فسقت الرطبة أي خرجت من قشرها ، والفأرة من جحرها .

(٣) لعنت ممان أخرى : فهو : الفجور والزنا — كما جاء في سورة النساء . وهو : الوقوع في أمر شاق كما جاء
في آخر سورة براءة .

« ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان » : الإسلام والطاعة والتوحيد ، وزَيَّنَهَا في قلوبكم .

« وكرَّهَ إليكم الكفر والفسق والعصيان . . » : هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ في القَدَر^(١) ، وتخصيص المؤمنين بالطافٍ لا يشترك فيها الكفارُ . ولولا أنَّه يوفَّر الدواعي للطاعات لحَصَلَ التفريط والتقصير في العبادات .

« فضلاً من الله ونعمة » : أى فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً . والله عليم حكيم .

قوله جل ذكره : « وإن طائفتان^(٢) من المؤمنين اقتتلوا

فأصلِحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداها على

الأخرى قتلتها التي تبغى حتى تقيء إلى

أمرِ الله فإن فاءت فأصلِحوا بينهما

بالمَدْلِ وأقْسِطوا ، إِنَّ الله يُحِبُّ

المُقْسِطِينَ » .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه — والفسق دون الكفر — لا يخرج عن الإيمان لأن
إحدى الطائفتين — لا محالة — فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرته المظلوم ؛ حيث قال : « فإن بَغَتْ إحداها على
الأخرى . . . » .

والإشارة فيه : أن النفس إذا ظَلَمَتِ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها في فسادها فيجب

(١) ينص القشيري أن القائلين بأن الله سبحانه المتفرد بخلق ذوات العباد وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف
السننهم . . . على صواب لأن الآية صريحة في خلق الأفعال ؛ فهو الذي حَبَّبَ إلى الإيمان والعكس .

(٢) يقال نزلت في ابن أبي حنيفة حين وقف الرسول على مجلس به بعض الأنصار وهو على حمار فقال ابن أبي
سليمة سبيل حمارك فقد أذانا ، فأنبرى له عبد الله بن رواحة قائلاً :
واقف إن بول حماره لأطيب من مسكك .

وبعد أن مضى الرسول (ص) طال الخوض بينهما حتى استتبَّا وتجالدا ، واشتبك الأوس والخزرج وتجالدوا
بالمعص . وقيل بالأيدى والنعال والسف ، فرجع الرسول (ص) إليهم فأصلح بينهم .

أن يقاتلها حتى تشن بالجراحة بسيف المجاهدة . فإن استعجبت إلى الطاعة يُغْفَر عنها لأنها هي
المطية إلى باب الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا لِلَّذِينَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ
أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

إيقاع الصلح بين المتخاصمين من أوكد عزائم الدين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عظيم وزر الواشى والتمام ؛ والمصدر في إفساد ذات البين .
(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صدق همة عبد في إصلاح ذات
البين) (١) فإنه يرفع عنهم تلك المصيبة (٢) .

فأما شرط الأخوة : فمن حق الأخوة في الدين ألا تُخَوِّجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس
النصرة عنك ، وألا تُقَصِّرَ في تنقذ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج
إلى مساءلتك .

ومن حقه ألا تُلَجِّئَهُ إلى الاعتذار لك بل تبسط عذره ؛ فإن أشكل عليك وجهه عُدَّتْ
باللائمة على نفسك في خفاء عذره عليك ومن حقه أن تتوب عنه إذا أذنب ، وتعوده
إذا مرض . وإذا أشار عليك بشيء فلا تطالبه بالدليل عليه وإبراز الحجة — كما قالوا :

إِذَا اسْتَنْجَدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لَأَيَّةٍ حَرْبٍ أَمْ لَأَيِّ مَكَانٍ

وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَحْفَظَ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ ، وَأَنْ تَرَاعِيَ حَقَّهُ فِي أَهْلِهِ لِلتَّصْلِيحِ بِهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ،
وَفِي حَالِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ (٣) — كما قيل :

وخليل إن لم يكن متصفاً كنت متصفاً

(١) ما بين القوسين موجود في م وسقط في ص .

(٢) هكذا في م وهي في ص المصيبة ونحن نؤثر الأولى لئلا يفسد السياق .

(٣) في هذه الفقرة ما يدحض مزاعم الذين يقولون بأن السوقية قوم انمزاليون ، لا يفهمون معنى العلاقات
الاجتماعية ولا يتدبرونها .

تَحَسَّى لَهُ الْأَمْرَ بَيْنَ وَكُنْ مَلَاظِفًا
إِنْ يَقُلْ لَكَ اسْتَوِ احْتَرَفَ تَ رَضَى لَا نَسْكَفًا

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِنْ

قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ
وَلَا نَسَاءَ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ
خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

نهى الله — سبحانه وتعالى — عن ازدراء الناس ، وعن الغيبة ، وعن الاستهانة
بالحقوق ، وعن ترك الاحترام .

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » : أى لَا يَعْيِّنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، كقوله : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » (١) .
ويقال : ما استصغر أحدٌ أحدًا إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِ . ولا ينبغي أَنْ يُعْتَبَرَ بِظَاهِرِ أَحْوَالِ النَّاسِ
فَإِنَّ فِي الزَّوَايَا خُبَايَا . والحقُّ يستر أوليائه في حجاب الضَّعة (٢) ؛ وقد جاء في الخبر :
« رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبَرُ ذِي طَمَرِينَ لَا يُؤْتِيهِ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » (٣) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ
الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، أُتِيبُ

(١) آية ٢٩ سورة النساء .

(٢) الضمة هنا بمعنى خول الذكر وانطفاء المنظر .

(٣) في بعض الروايات زيادة : « وَإِنَّ الْبِرَّ مِنْهُمْ » ، وعند مسلم بلفظ « رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبَرُ مَدْفُوعٌ إِلَى
الْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » .

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً
فكرهتموه واتسوا الله إن الله
توابٌ رحيم .

النفس لا تصدق ، والقلب لا يكذب . والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ وَمِنْ
بَقِيَّتْ عليه من حظوظه بقيّةٌ — وإن قلّت — فليس له أن يدّعي بيان القلب بل هو بنفسه
مادام عليه شيء من نفسه ، ويجب أن يتّهم نفسه في كل ما يقع له من نقصان غيره .. هذا
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخاطب . « كلُّ الناس أمةٌ من عمر ..
امرأةٌ أمةٌ من عمر » .

« ولا تجسّسوا » . والعارف لا يتفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق .. فكيف
يتفرغ إلى تجسّس أحوالهم ؟ وهو لا يتفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره ؟ « ولا ينتب بعضكم
بعضاً » : لا تحصل الغيبة للخلق إلّا من الغيبة عن الحق .

« أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً .. » جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة ،
وعلى ذلك بدل ظاهر الآية . وأخس الكفار وأقلّهم قدراً من يأكل الميتة .. وعزير رؤية
من لا ينتاب أحداً بين يديك .

قوله جل ذكره : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكركم
وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله
عليمٌ خيرٌ » .

إنا خلقناكم أجمعكم من آدم وحواء ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا
ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصول تربةً ونظفةً وعلقةً .. فالتفاخر بماذا ؟ أبا لحا المسنون ؟ أم
بالنظفة في قرار مكين ؟ أم بما ينطوى عليه ظاهرك مما تعرفه ؟ ! (١) وقد قيل :

(١) ربما نفهم من هذه العبارة ما يقصده القشيري في موضع آخر مماثل من سخرية بالإنسان وتعليم لتجبره :
كان يقول له : من أنت أيها الإنسان ؟ أنت كئيف في قميص ! ألا ترى إلى ريح إبطك إذا عرقت ، وإلى ريح
فمك إذا همت ! ؟ ... ونحو ذلك .

إِنَّ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ
أم بأفلاك التي هي بارياء مشوبة ؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بماملاتك
التي هي ملأى بالحياة ؟

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ أتقاكم أي أبعدكم عن نفسه ، فالتقوى هي التحرر
من النفس وأطاعها وحفظها . فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب
إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا
ولكن قولوا أسلمنا » .

الإيمان هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس ، والنفس لا تموت ولكنها
تغيب ، ومع حضورها لا يتم خير ، والاستسلام في الظاهر إسلام . وليس كل من استسلم
ظاهراً مخلص في سره .

« وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ »

في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب . كما أنه في وصف المناقين قال تعالى :
« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » ؛ ومرضى القلب والإيمان ضدان .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله
أولئك هم الصادقون » .

جعل الله الإيمان مشروطاً بنحوال ذكرها ، ونص عليها بلفظ « إنما » وهي لتحقيق
الذي يقتضى طرد العكس ؛ فمن خرج عن هذه الشرائط التي جعلها للإيمان فردود
عليه قوله .

والإيمان يوجب للعبد الأمان ، فإلم يكن الإيمان موجباً للأمان فله حبه بغيره أولى .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

تدل الآية على أن الوقوف^(١) في المسائل الدينية يُعتبر واجباً ؛ فالأسامي منه تُؤخذ ، والأحكام منه تُطلب ، وأوامره مُتَّبعة^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِلَّا بِإِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

من لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإن رآها من نفسه كان شريكاً ، وإن رآها لنفسه كان مكرماً فكيف بمن العبد بما هو شريك أو بما هو مكرماً ؟ !

والذي يجب عليه قبول المِنَّة ... كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة ؟ ! هذا لعمري فضيحة ! بل المِنَّة لله ؛ فهو وليُّ النعمة . ولا تكون المِنَّة مَنَّةً إلا إذا كان العبد صادقاً في حاله ، فأما إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنة لصاحبها لا مِنَّة .

والمِنَّة تُكَدَّرُ الصَّنِيعَ إذا كانت من المخلوقين ، ولكن بالمِنَّة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

(١) هكذا في م وهي بمعنى (التوقف) (والتوقيف) عند بعض الأصول . ولهذا فما جاء في م وهو (التوقيف) خطأ في النسخ .

(٢) فالاتباع واجب ولا بداع مرفوض - كما نهى القشيري من قبل .

وَمَنْ وَقِفْ مَا هُنَا تَكْدَّرَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ ؛ إِذْ لَيْسَ يَدْرِي مَا غَيْبُهُ فِيهِ ، وَفِي مَعْنَى هَذَا
قَوْلُ الْقَائِلِ :

أَبْكِي .. وَهَلْ تَدْرِينَ مَا يَكُونِي ؟
أَبْكِي حَتَّى أَنْ تَفَارِقِيَنِي
وَمَقْطَعِي وَضَلِّي وَتَهْجُرِيَنِي^(١)

(١) فِي (الْمَع) لِلْمَرَاكِ وَتَقْطَعِي (سَبِيل) وَتَهْجُرِيَنِي (الْمَع مَرَّةً ٣٠٥) وَكَلَامُهَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى مُلَائِمٌ لِلوُزْنِ .

سُورَةُ قَت

« بسم الله » اسم جَبَرِ أحوالَ مَنْ رَحِمَهُ ، متَجَبَّرٌ بكبريائه على مَنْ أَقَامَهُ قَهْرَهُ وحرَمَهُ .

« بسم الله » لطيفٌ يعلمُ خفايا تصنعُ العابدين ، غافرٌ لجلالِ ذنوبِ العاصين .

قوله جل ذكره : « قَ وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ » .

قَ مفتاحُ أسمائه : « قوى وقادر وقدير وقريب » . . . أَسْمَ بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ .
وجوابُ الْقَسَمِ محذوفٌ ومعناه لَتُبْعَنَّ فِي الْقِيَامَةِ .

ويقال جوابه : « قد علمنا ما تنقصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظٌ » أى لقد علمنا .
وحذفت اللامُ لأنَّ تطاولَ الخطابُ .

ويقال : جوابه قوله : « ما يبدلُ القولُ لدى » .

قوله جل ذكره : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » .
فقال الكافرون هذا شيءٌ عَجِيبٌ .

« منذرٌ منهم » : هو محمد صلى الله عليه وسلم

والتعجبُ نوعٌ من تعبيرِ النَّفْسِ عَنْ استبعادها لأمرٍ خارجِ العادة لم يقع به عِلْمٌ مِنْ قَبْلُ .
وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك :

« أَأَنْذَرْنَاكُمْ وَأَكُنَّا تَرْابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »

أى يَبْعُدُ عِنْدَنَا أَنْ نُبْعَثَ بَعْدَ مَا مِتْنَا . فقال جل ذكره :

« قد عَلَّمْنَا ما تنقص الأرض منهم
وعندنا كتابٌ حفيظٌ . »

في هذا تسليةٌ للعبد فإنه إذا وُسِدَ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته
الأحباب .. فَمَنْ يَتَفَقَّدُهُ وَمَنْ يَتَعَهَّدُهُ ... وهو في شفير قبره ، وليس لهم منه شيء سوى
ذكره ، ولا أحد منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرَتِهِ ؟ فيقول الحقُّ — سبحانه :
« قد علمنا ... » ولعله يخبر الملائكة قائلاً : عَبْدِي الذي أَخْرَجْتَهُ من دنياه — ماذا بقي بينه
من يهواه ؟ هذه أجزاؤه قد تَفَرَّقَتْ ، وهذه عِظَامُهُ بَلَّيَتْ ، وهذه أعضاؤه قد تَفَقَّتْ !

« وعندنا كتابٌ حفيظٌ » : وهو اللّٰهُ الحفوظ ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوال الخلق من
غير نسيان ، وبيّنا فيه كل ما يحتاج العبد إلى تذكّره .

قوله جل ذكره : « بل كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ
فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ » .

« مَرِيجٌ » أي مختلط ومُلتبس ؛ فهم يترددون في ظلمات تحيرهم ، ويضطربون في شكهم .

قوله جل ذكره : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » .

أَوَلَمْ يَتَبَرَّأُوا ؟ أَوَلَمْ يَسْتَدْرِئُوا بما رفعنا فوقهم من السماء ، رفعنا سَمَكُهَا فسَوَّيْنَاهَا ، وأثبتنا
فيها الكواكب وبها زَيَّنَّاهَا ، وأدْرَنَاهَا فيها شَمْسُهَا وقمرها ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ جَلَّسْنَا عَيْنَهَا
وَنَوَّعْنَا أَثَرَهَا ؟

« والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ بهيجٍ » .

والأرض مَدَدْنَاهَا ؛ فجعلناها لم مهاداً ، وجعلنا لها الجبال أوتاداً ، وأنبتنا فيها أشجاراً
وأزهاراً وأنواراً .. كل ذلك :

« تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَيْبٍ »

علامة ودلالة لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهود حقنا وذاتنا^(١) .

قوله جل ذكره : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » .

أنزلنا من السماء ماء مباركاً كثيراً النفع والزيادة ، فأنبطنا به « جنات وحب الحصيد » :
أى الذى يُحصَد — كما تقول : مسجد الجامع .

الأجزاء متجانسة . ولكن أوصافها فى الطعوم والروائح والألوان والهيئات والمقادير مختلفة .

قوله جل ذكره : « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » .

والنخلُ باسقاتٌ : طويلاتٌ ، لها طلعٌ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع أو لما فيها من الثمار . وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالنفاخ والكثرى وغيرهما ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالناب والرطب وغيرهما . . كل ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينتفعوا به .

« . . . وَأُحْيَيْنَا بِهِ بَلَدًا مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجِ » .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها ، وكما فعلنا كلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك — كذلك نجعلكم فى الحشر والنشر ، فليس بعنكم أبداً من هذا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّءْسِ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

(١) هذا الترتيب فى منازل الشهود له أهمية فى فهم المراحل الروحى عند هذا الإمام ، وواضح منه أن أعلى درجات الشهود شهود الذات .. وذلك بشرائط سبقت الإشارة إليها فى غير موضع من الكتاب ، ولكننا مع ذلك لا ننسى أن القشيري — كما نعرف من منهجه — يرى الاستشراف من (الذات) من المحال ، فقد جلت العمودية عن الدرك والحق .. مهما ما العبد فى سراجيه الروحى .

لوط * وأصحاب الأيكة وقوم نبتع
كل كذب الرسل حق وعيد .

إننا لم نَعجز عن هؤلاء — الذين ذكر أسماءهم — وفيه تهديد لهم وتسلية للرسول .

« أفَعِينَا بِأَخْلَقِ الْأَوَّلِ ؟ بَلْ هُمْ فِي
لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

أى إننا لم نَعجز عن أخلق الأول . . فكيف نَعجز عن أخلق الثانى — وهو الإعادة ؟ لم
يعتص علينا فعل شيء ، ولم نتعب من شيء .. فكيف يشق علينا أمر البعث ؟ أى ليس كذلك (١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ
بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ
الوريد » .

نعلم ما توسوس به نفسه من شهواتٍ تطلب استنفاذها ، مثل التصنع مع أخلق ، وسوء أخلق ،
والخذ . . وغير ذلك من آفات النفس التى تُشَوِّش على القلب والوقت .

« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » فَحَبْلُ الْوَرِيدِ أَقْرَبُ أَجْزَاءِ نَفْسِهِ إِلَى نَفْسِهِ ، والمرادُ
من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولهم ، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم .
وفى هذه الآية هَيْبَةٌ وَفَزَعٌ وَخَوْفٌ لِقَوْمٍ ، وَرَوْحٌ وَسَكُونٌ وَأَنْسٌ لِقَلْبٍ لِقَوْمٍ .

قوله جل ذكره : « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ
الشمالِ قَعِيدٌ » .

خوفهم بشهود الملائكة وحضور الحفظة ، وبكتابتهم عليهم أفعالهم ، فهما قعيدا (٢) كلٌّ

(١) فلاستفهام هنا للإنكار أو التوبيخ .

(٢) عبر عن المتلقى بالمفرد للدلالة بواحدٍ على الاثنين مثل قول الشاعر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئاً ومن أجل الدلوى رمانى
أى رمانى بأمر كنت منه بريئاً وكان والدى منه بريئاً .

أحد : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه ، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه ، وإذا قام فواحدٌ عند رأسه وواحدٌ عند قدميه ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرٌ خلفه .

ويقال : هما اثنان بالليل لكل واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذي يكتب الخيرات اليوم يكون غيره غداً ، وأما الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذي يكتب المعصية اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران لئلا يُعلمَ من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ للمعاصي متفرقاً فيهم^(١) .

قوله جل ذكره : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

إذا أشرقت النفسُ على الخروج من الدنيا فأحوالهم مختلفة ؛ فمنهم من يزداد في ذلك الوقت خوفه ولا يتبين إلا عند ذهاب الروح حاله . ومنهم من يكشف قبل خروجه فيسكن روعه ، ويُحفظُ عليه عقله^(٢) ، ويتم له حضوره وتمييزه ، فيُسَلِّمُ الروح على مهلٍ من غير استكراه ولا جبر . . . ومنهم ، ومنهم . . . وفي معناه يقول بعضهم :

أنا إن ميتٌ - والهوى حشوقلي - فبداه الهوى يموت الكرامُ

ثم قال جل ذكره : « ونفخ في الصور ذلك يومٌ

الوعيد • وجاءت كل نفس معها سائقٌ وشهيدٌ » .

سائقٌ يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار ، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشر .

(١) واضح من ذلك مقدار ما يبحث الصوفية في نفوس المعصاة من تفاؤل ورجاء أملًا في فتح باب التوبة

(٢) سقطت (عقله) من النسخة م ، وموجودة في ص .

ويقال له : « لقد كُنتَ في غفلةٍ من هذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

المؤمنون — الْيَوْمَ بَصَرُهُمْ حَدِيدٌ ؛ يُبْصِرُونَ رُشْدَهُمْ وَيَحْذَرُونَ شَرَّهُمْ .
والكافر يقال له غداً : « بَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » أى : ها أنتِ عَلِمْتَ مَا كُنتَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ؛ فَالْيَوْمَ لَا يُسْمَعُ مِنْكَ خُطَابٌ ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْكَ عَذَابٌ .

قوله جل ذكره : « وقال قريئته هذا ما لدى عتيد » .
لَا يَخْفَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا ذُكِرَ ، إِنْ كَانَ خَيْرًا يُجَازُونَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ خَيْرٍ يُحَاسِبُونَ عَلَيْهِ ؛ إِمَّا بِرَحْمَةٍ مِنْهُ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وَإِمَّا عَلَى مَقْدَارِ جُرْمِهِمْ يُعَذِّبُونَ .
« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ *
مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ » .

مَنَّاعٍ لِلزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ .
ويقال : يَمْنَعُ فَضْلَ مَالِهِ وَفَضْلَ كَلِمَتِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .
ويقال : يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيَسِيءُ الْقَوْلَ فِيهَا حَتَّى يُزْهَقَ النَّاسَ فِيهِمَا .
ويقال : الْمَنَّاعُ الْخَيْرِ هُوَ الْمِعْوَانُ عَلَى الشَّرِّ .
ويقال : هُوَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ : « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » (١) .
« مرِبٍ » : أَيْ يُشَكِّكُ النَّاسَ فِي أَسْرِهِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُخْلِصٍ ، وَيُلْبَسُ عَلَى النَّاسِ حَالَهُ لِأَنَّهُ مُنَافِقٌ .

قوله جل ذكره : « قال قريئته ربنا ما أطفئته ولكن
كان في ضلالٍ بعيدٍ » .
يقول الْمَلِكُ مِنَ الْحَفَظَةِ الْمَوْكَلُ بِهِ : مَا أَعْجَلْتُهُ عَلَى الزَّلَّةِ .

(١) آية ٧ سورة الماعون .

وإنما^(١) كتبتُها بعد ما فعلها — وذلك حين يقول الكافر : لم أفعل هذا ، وإنما أعجلني بالكتابة على ، فيقول الملك : ربنا ما أعجلته ..

ويقال : هو الشيطان المقرون به ، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطان : ما أكرهته على كفره ، ولكنه فل — باختياره — ما وسوستُ به إليه .

فيقول جل ذكره : « قال لا تختصموا لديّ وقد قَدِّمْتُ

إليكم بالوعيد * ما يُبَدِّلُ القولُ لديّ وما أنا بظلامٍ للعبيد » .

لا تختصموا لديّ اليومَ وقد أمرتُكم بالرُّشدِ ونهيْتُكم عن الفئ .

قوله جل ذكره : يومَ تقولُ لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد ^(٢)

« تقول لجهنم ، « وتقول » : القولُ هنا على التوسُّع ؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجب لقات ذلك بل يُحْيِيها حتى تقولَ ذلك .

« هل من مزيد » : على جهة التخليط ، والاستزادة من الكفار .

ويقال : بل تقول « هل من مزيد » : أى ليس فى زيادة كقولهِ عليه السلام لما قيل له :

يومَ فتح مكة : هل ترجع إلى دارك ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل داراً ؟ ^(٣) أى لم يترك ، فإن الله — تعالى — يملأ جهنم من الكفار والعصاة ، فإذا ما أُخْرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفار حتى تمتلئ بهم جهنم .

(١) هكذا فى ص و هـ ق م (ما) والصواب ما أثبتنا .

(٢) عن قتادة عن أنس عن النبي (ص) قال : يلقى فى النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول قط قط . وفى رواية أبي هريرة : يقال لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط قط (البخارى ٣٠ ص ٤١٢٨) .

(٣) عن الزهرى عن علف بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن النخج : يا رسول الله ، أين تنزل غداً ؟ قال النبي (ص) : وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ ثم قال : لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر المؤمن (البخارى ٣٠ ص ٤٢) .

قوله جل ذكره : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدَ » .

يقال : إِنَّ الْجَنَّةَ تُقَرَّبُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، كما أَنَّ النَّارَ تُجَرَّبُ بِالسَّلاسلِ إِلَى الْحَشَرِ نَحْوِ الْمُجْرِمِينَ .

ويقال : بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . . وهم خواص الخواص .

ويقال : هم ثلاثة أصناف : قوم يُحْشَرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مَشَاءً وهم الذين قالَ فيهم : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ^(١) » — وهم عوام المؤمنين ^(٢) وقوم يحشرون إلى الجنة ركباناً على طاعتهم المصوّرة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قالَ فيهم جَلَّ وعلا : « يَوْمَ نُحْشَرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ^(٣) » — وهؤلاء هم الخواص وأما خاص الخواص فهم الذين قالَ عنهم : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ أَى تُقَرَّبُ الْجَنَّةُ مِنْهُمْ »

وقوله : « غَيْرَ بَعِيدَ » تأكيد لقوله : وَأُزْلِفَتِ » .

ويقال : « غَيْرَ بَعِيدَ » : من العاصين تطيباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره : « هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ » .

الأَوَّابُ : الراجعُ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ .

« حَفِيفٌ » : أى محافظ على أوقاته ، (ويقال محافظ على حوائصه فى الله حافظ لأنفاسه مع الله) ^(٤) .

قوله جل ذكره : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » .

الخشية من الرحمن هى الخشية من القراق . (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأنس ؛ ولذلك لم يقل : من خشى الجبار ولا من خشى القهار) ^(٥) .

(١) آية ٧٣ سورة الزمر .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص

(٣) آية ٨٥ سورة مريم .

(٤) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

(٥) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ويقال : الخشية من الله تقتضى العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا ينأل عما يفعل .

ويقال : الخشية أُلْفٌ من الخوف ، وكأنها قريبة من الهيبة^(١) .

« وجاء بقلب منيب » : لم يقل بنفسٍ مطيعة بل قال : بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاة في هذا أملٌ ؛ لأنهم — وإن قصّروا بنفوسهم وليس لهم صدقُ القَدَم — فلهم الأسفُ بقلوبهم وصدقُ النَّدَم .

قوله جل ذكره : « ادخلوها بسلام ذلك يومُ الخلود » .

أى يقال لهم : ادخلوها بسلامٍ من كل آفةٍ ، ووجودِ رضوانٍ ولا يستعدُّ عليكم الحقُّ أبداً .

ومنهم من يقول له الملكُ : ادخلوها بسلام ، ومنهم من يقول له : لكم ما تشاءون فيها — قال تعالى :

« لم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

لم يقل : « لم ما يسألون » بل قال : « لم ما يشاءون » : فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤالهم يتحقق لهم في الوهلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

« ولدينا مزيد » : اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه^(٢) . وقومٌ يقولون : المزيد على الثواب في الجنة — ولا منافاة بينهما .

(١) يقول الدقاق شيخ القشيري : هي مراتب : الخوف والخشية والهيبة : فالخوف من شرط الإيمان « وخافون إن كنتم مؤمنين » والخشية من شرط العلم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . والهيبة من شرط المعرفة : « ويحذرهم الله نفسه » . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رغبة وخشية ؛ فصاحب الرغبة يلتجئ إلى الحرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب (الرسالة ص ٦٥) .

(٢) أجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ؛ لأن ذلك كرامة من الله تعالى لقوله : « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة » . وجوزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ؛ وإنما جاز في العقل لأنه موجود ، وكل موجود تجوز رؤيته إذا وضع الله سبحانه فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : « أرني أنظر إليك » جهلاً وكفراً . وجاء السمع بوجوبه في مثل : —

قوله جل ذكره : « وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هم أشدُّ

منهم بطشًا فنقبوا في البلاد . . هل

من محيص ؟ » .

أى اعتبروا بالذين تقدّمواكم ؛ انهكموا في ضلالتهم ، وأصرّوا ، ولم يُقِلّوا . . فاهلكناهم
وما أبقينا منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « إن في ذلك لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ
أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد » .

قيل : « لمن كان له قلب » : أى من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على
الإحسان مُقبِل . ويقال : قلبٌ غيرُ قلب .

« أو ألقى السمع » : استمع إلى ما يتنادى به ظاهره من الخلق وإلى ما يعود إلى سرّه
من الحق^(١) . ويقال : لمن كان له قلبٌ صاِح لم يَنكُر^(٢) من الغفلة . ويقال : قلبٌ يعد
أنفاسه مع الله . ويقال : قلبٌ حى بنور الموافقة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعرِضٍ عن
الاعتبار والاستبصار .

ويقال : « القلبُ — كما فى الخبر — بين إصبعين من أصابع الرحمن » : أى بين نعمتين ؛
وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما ينفعه به من النِّعَاء ، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ
الذميمةَ وألزمه النعمتَ الحميدةَ فهو الذى قال فيه : « إن فى ذلك لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ » .
وفى الخبر : « إن لله أوانيَ الآوى القلوب ، وأقربها من الله مارقٌ وصفا » شبه القلوب
بالأواني ؛ قلبُ الكافر منكوسٌ لا يدخل فيه شيء ، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور ، ما يُلْقَى فيه
من أوّله يخرج من أسفله ، وقلبُ المؤمنِ إناءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويبقى .

« كلا إنهم عن ربهم يومئذ مُحْجَوون » . « ووجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » . . وقوله « ص » . . إنكم سترون
ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة . . وأجمعوا على أنه لا يرى فى الدنيا بالآبصار ،
ولكن بالقلوب ؛ لأن الدنيا دار فناء ولا يُمَرُّ الباقى فى الدار الفانية . . وهى على العموم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يسكن) وهى خطأ فى النسخ .

ولكن هذه القلوب مختلفة ؛ قلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات ؛ فالشرابُ الذي يُلقَى فيه يصحبه أثرٌ ، ويتلطخ به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قدراً .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » .

وَأَنى يَمَسُّ اللُّغُوبُ . . وهو صمدٌ لا يحدث في ذاته حادث ؟ !

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » .

إِنْ تَأَذَّتُمْ كَمَا يُقُولُونَ فِي مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَقَدَّسُ عَنْهَا تَعَتَّى فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاسْتَرِوحْ عَنْ ذَلِكَ بِقَسِيحِكَ لَنَا .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ النُّجُودِ » .

فالليلُ وقتُ الخلوة — والصفاة في الخلوة أتمُّ وأصفى .

قوله جل ذكره : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي لِلنَّادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » .

النداءُ من الحقِّ — سبحانه — واردٌ عليهم ، كما أَنَّ النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداءُ الذي يَرُدُّ عليهم يكون بفتة ولا يكون للعبد في فعله اختيارٌ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ » .

إِلَيْنَا مَرْجِعُ الْكُلِّ وَمَصِيرُهُمْ .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا
ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ » .

هذا يسيرٌ علينا : سواء خلقناهم جملةً أو فرادى^(١) ؛ قال تعالى : « ما خلقكم ولا بشيء
إلا كنفساً واحدة »^(٢) .

قوله جل ذكره : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم
بجبارٍ فذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدَ » .

ما أنت عليهم بِمَنَسَلٍ تُكْرِمُهُمْ .

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإِندَارُ والتذكيرُ في الخلقين ، فأما مَنْ لا يَخَافُ فلا يَنْجِعُ فِيهِ
التخويفُ — وطيرُ السماءِ على أَلْفِهَا مِئَةً .

(١) هكذا في م وهي في م (فرداً)

(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَهَا عَزَّ لِسَانُهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا اهْتَزَّتْ بِصَحْبَتِهَا جَنَانُهُ
« بسم الله » كلمةٌ للألبابِ غَلَابَةٌ ، كلمةٌ لأرواحِ المحبِّينِ سَلَابَةٌ .

قوله جل ذكره : « والذارياتِ ذُرُوءًا * فالحاملاتِ وِقْرًا *
فالجارياتِ يُسْرًا * فالمقسَّماتِ أَمْرًا *
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ * وَإِنَّا
الدينَ لَوَاقِعُ » .

والذارياتُ : أى الرياحِ الحاملاتِ « وِقْرًا » أى السحابِ « فالجارياتِ » أى السفنِ .
« المقسماتِ أَمْرًا » أى لللائكةِ .. أقسمَ ربُّ هذه الأشياءِ وقدرته عليها . وجواب القسم :
« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ .. » والإشارة في هذه الأشياءِ أن من جملة الرياحِ . الرياحِ الصبيحية^(١)
تحملُ أنينَ المشتاقينَ إلى ساحاتِ العزَّةِ فيأتى نسيمُ القربةِ إلى مَشَاكِمِ أسرارِ أهلِ الحبةِ ..
فمُندَثِرٌ يمدونَ راحةً من غَلَبَاتِ اللوعةِ ، وفي معناه أنشدوا :

وإني لأستهدى الريحَ نسيكُم إذا أقبلتَ من أرضِكُم بهبوبِ
وأسألُها حِلَّ السلامِ إليكمو فإني هي يوماً بَلَغْتُ .. فأجيبني

ومن السحابِ ما يُمطرُ بعتابِ الغيبةِ ، ويؤذِنُ بهواجمِ النوى والفرقةِ . فإذا عَنَّ لهم من
ذلك شيءٌ أبصروا ذلك بنورِ بصائرهم ، فيأخذونَ في الابتغالِ ، والتضرُّعِ في السؤالِ استعاذةً
منها .. كما قالوا :

(١) إشارة إلى صيحاتهم عند اشتداد الوجع .

أقول — وقد رأيتُ لها سحاباً من المجران مقبلة إلينا
وقد سَحَّتْ عزاليها^(١) بَيْنَ حوائنا الصدودُ ولا علينا
وكما قد يَحْمِلُ المَلَّاحُ بعضَ الفقراء بلا أجر طمعاً في سلامة السفينة — فهو لاه^(٢) يرجو
أن يُحْمَلُوا في فُلْكَ العناية^(٣) في بحار^(٤) القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .
ومن الملائكة مَنْ ينزِلُ لتفقد أهل الوصلة ، أو لتعزية أهل المصيبة ، أو لأنواع من
الأمور تتصل بأهل هذه القصة ، فهو لاه القوم يسألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خيرٌ عن
فراقهم ووصالهم — كما قالوا :

بربِّكما يا صاحبي قِنَّا يا أسائلكم عن حالكم وآسألاننا
« إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » : الحق — سبحانه — وَعَدَ المطيعين
بالجنة ، والتائبين بالرحمة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، وَعَدَ أرباب المصائب بقوله :
« أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة^(٥) » وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد — والله
رهوفٌ بالعباد .

بقوله جل ذكره : « والسماء ذات الحُبك » • إنكم لفي
قول مُخْتَلَفٍ • يُوَفِّكُ عنه مَنْ
أَنْكَ

« ذات الحُبك » أي ذات الطرائق الحسنة — وهذا قَسَمٌ ثانٍ ، وجوابه : « إنكم لفي
قول مُخْتَلَفٍ » يعني في أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول :
مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . وغير ذلك .

(١) الأعزل من السحاب مالا مطر فيه (الوسيط ج ٢ ص ٦٠٥) .

(٢) يقصد الصوفية .

(٣) هكذا في م وهي في م (الكفاية) .

(٤) هكذا في م وهي في م (محال) .

(٥) إشارة إلى الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

« الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإشارة فيه إلى التسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقر الحجة ، ونجوم القرب .. إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف ؛ كَمِنْ مُنْكَرٍ يَجِدُ الطَّرِيقَةَ ، وَمِنْ مُعْتَرِضٍ يَعْتَرِضُ عَلَى أَهْلِهَا يَتَوَقَّمُ قِصَاصَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ الشَّرِيعَةِ^(١) ، وَمِنْ مُتَعَسِّفٍ^(٢) لَا يَخْرُجُ مِنْ ضَيْقِ حُدُودِ الْعِبُودِيَّةِ وَلَا يَعْرِفُ خَيْرًا عَنْ تَخْصِيسِ الْحَقِّ أَوْلِيَاءَهُ بِالْأَحْوَالِ السَّنِيَّةِ ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا
فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

قوله جل ذكره : « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » .

أَيُّ يُصْرَفُ عَنْهُ مَنْ صُرِفَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهُ^(٣) وَيَقُولُونَ :
لَئِنَّهُ لَمَجْنُونٌ .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ » .

لَئِنَّ الْكَذَّابُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةِ الضَّلَالَةِ وَظُلْمَةِ الْجَهَالَةِ سَاهُونَ لَاهُونَ .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ
عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِه تَسْتَعْجِلُونَ » .

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ ، يَسْتَعْجِلُونَ بِهَا ، فَلَأَجَلٍ تَكْذِيبُهُمْ بِهَا كَانَتْ نَفْسُهُمْ لَا تَسْكُنُ

(١) نلاحظ هنا حرص الإمام القشيري على أن أرباب الحقيقة لا ينتكرونها بحال من الأحوال لأي حق من حقوق الشريعة .

(٢) هكذا في م وهو في م (متعسف) التي هي خطأ في النسخ .

(٣) واضح أن القشيري يرى التفسير في (عنه) التي في الآية عائداً إلى الرسول (ص) . ويبيده بعض المفسرين إلى القرآن أو إلى الدين أو إلى (ما توعدون) . ومعنى عبارة القشيري أنه يصرف عنه من صرفه في سابق علمه .

إليها . ويوم هم على النار يُحَرَّقُونَ وَيُعَذَّبُونَ يقال لهم : قاسوا عقوبتكم ، هذا الذي كنتم به تَسْتَعِجِلُونَ .

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبُونَ في أعمالهم لِمَا يتدخلهم من الرياء ، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتدخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعون من الأحوال . . قَتَلُوا وَلَعَنُوا . . وسيلقون غيباً تلييسهم بما يُحَرِّمُونَ من اشتام رائحة الصدق .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلتَّقِيَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَعِیُونَ • آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » .

في عاجلهم في جناتٍ ومصلهم ؛ وفي آجلهم في جناتٍ فضيلهم ؛ فغداً درجات ونجاة ، واليوم قرُبات ومناجاة ، فما هو مؤجلٌ حظاً أنفسهم ، وما هو معجلٌ حق ربهم . هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم ؛ يأخذون نصيبهم منه بِيَدِ الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفد .

وَمَنْ كَانَ الْيَوْمَ آخِذَهُ بِلَا واسطة من حيث الإيمان والإلتقان ، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان . كان غداً آخِذَهُ بِلَا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان . « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا^(١) ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا . . فهم كما في الخبر : « أعبد الله كأنك تراه . . . »^(٢) .

قوله جل ذكره : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ • وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .

(١) العارف كائن بالثبوت (هذا رأى يحيى بن معاذ : رسالة القشيري ص ١٥٧) والمعنى أنه وإن بدا بين الناس بشاركتهم ويعاشرهم إلا أنه مشغول عنهم بمعرفة لا يشغل عنه طرفة عين .

(٢) جاء في الحلية عن زيد بن أرقم : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وأحسنه نفيلك في الموق ، وأتق دعوة المظلوم » كذلك رواه الطبراني والبيهقي عن معاذ بلفظ : « أعبد الله ولا تشرك به شيئاً وأصل كأنك تراه ، وأعد نفسك في الموق » .

المعنى إما : كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل (كقوله تعالى : « وقليلٌ من عبادى الشكور » ^(١) أو : كان نومهم بالليل قليلاً ، أو : ^(٢) كانوا لا ينامون بالليل قليلاً ^(٣) .

« وبالأَسْحَارِ هم يستفرون » : أخبر عنهم أنهم — مع تهجدهم ودُعائهم — يُنزِلون أنفسهم فى الأسحار منزلة الماصين ، فيستفرون استصغاراً لِقُدْرِهِمْ ، واستحقاراً لِفِعْلِهِمْ .

والليلُ . . . للأحباب فى أنس النجاة ، وللمصاة فى طلب النجاة . والسهرُ لهم فى لياليهم دائماً ؛ إما لِقَرْطِ أَسَفٍ أو لِشِدَّةِ حَفٍّ ، وإما لاشتياقٍ أو لقرانٍ — كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لاصباحٍ لها أفنيتها قابضاً على كبدى
قد غصت العينُ بالدموعِ وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

وإما لكمال أنسٍ وطيب روح — كما قالوا :

سقى اللهُ عيشاً قصيراً مضى زمان الهوى فى الصبا والجون
لياليه تحكى انسدادَ لحاظٍ لعيني عند ارتداد الجفون

قوله جل ذكره : « وفى أموالهم حقٌ للسائل والمحروم » .

السائلُ هو المُتَكَنِّفُ ، والمحرومُ هو المتكفف — ويقال هو الذى يحرم نفسه بترك السؤال . هؤلاء هم الذين يُعْطُونَ بشرط العلم ^(٤) ، فأما أصحابُ الروة : فقير المستحق للملم أو لى من المستحق ^(٥) . وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهل الإيثار — فى الوقت — لكل ما يُفْتَحُ عليهم به .

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وسقط فى ص .

(٣) يقول النسق : ولا يجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يجمعون من الليل قليلاً ويمحوته كله لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فلا تقول : زيدا ما ضربت (النسق حـ ٤ ص ١٨٤) .

(٤) أى حسب شرائط الشريعة فى الزكاة .

(٥) هكذا فى م وهى مشطوبة بخط فوقها فى ص . . . والعبارة قد تبدو غامضة ، وقد يكون مراد الفشيرة — إن صحت عنه العبارة هكذا — أن أهل الروة لا يتقيدون فى عطايتهم بما تفرغه الشريعة للمستحقين وحسب فإن المستحق يأخذ ما هو حق له ، وإنما يعطون دائماً ويمتنحون دائماً بنفس النظر عن استحقاق أو عدمه .

قوله جل ذكره : « وفي الأرض آيات للموقنين * وفي

أنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وفي السماء

رِزْقُكُمْ وما توعَدُونَ » .

كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيءٍ فكذلك العارف يتحمل كلَّ أحدٍ .

وَمَنْ استنقل أحداً أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فَنَقِيَّتُهُ عن الحقيقة ، ولطالعه الخلق بعين
الفرقة — وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة .

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلقَى عليها كلُّ قذارة وقامة — ومع ذلك تُنبتُ
كلُّ زهرٍ ونورٍ .. كذلك العارف يتشرب كلَّ ما يُسقى من الجفاء ، ولا يترشح إلا بكلِّ
خلقٍ على شعبة زكية^(١) .

ومن الآيات التي في الأرض (أن ما كان منها سبغاً يُترك ولا يُعمر لأنه لا يحتمل
العارة — كذلك الذي لا إيمان له بهذه الطريقة يُهمل ، فتقابلته بهذه الصفة)^(٢) كإلقاء
البذر في الأرض السبغة .

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » : أي وفي أنفسكم أيضاً آيات ، فمنها وقاحتها في همتها^(٣) ،
ووقاحتها في صفتها ، ومنها دعاؤها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم
أنَّ ذرَّةً أو (. . .)^(٤) بها أو منها .

« وفي السماء رزقكم وما توعدون » : أي قسمة أرزاقكم في السماء ، فاللائكة الموكِّلون
بالأرزاق ينزلون من السماء .

ويقال : السماء هاهنا المطر ، فبالمر ينبت الحب والمرعى .

(١) يقول الجنيد : « الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل طيب » ، وقال أيضاً :
« إنه كالأرض يطرد البر والفاجر » (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) ما بين القومين موجود في م وساقط في ص .

(٣) هكذا في م وحى في ص (صفتها) ويدو أن للهاء اشتبهت على الناسخ .

(٤) مشبهة في النسختين .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمَّنَهَا .

ويقال : قوله : « وفي السماء رزقكم » وما هنا وقف ثم تبتدىء : « وما توعدون » .

قوله جل ذكره : « قَوَّيْتُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلُ

مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ » .

أى : إنَّ البعثَ والنَّشْرَ لَحَقٌّ .

ويقال : إنَّ نصرى لمحمدٍ ولدينى ، وللهى أناكم به من الأحكام — لِحَقٍّ مِثْلِ

مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ .

كما يقال : هذا حقٌّ مِثْلُ مَا أَنْتَ مَاهِنَا .

ويقال : معناه : « أَنْ اللَّهَ رَازِقُكُمْ » — هذا القولُ حقٌّ مِثْلًا أَنْتُمْ إِذَا سَأَلْتُمْ :

مَنْ رَبُّكُمْ ؟ وَمَنْ خَالِقُكُمْ ؟ قُلْتُمْ : اللَّهُ . . فكما أَنْتُمْ تَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ خَالِقٌ — وهذا حقٌّ . . .
كذلك القولُ بَأَنَّ اللَّهَ رَازِقٌ — هو أَيْضًا حقٌّ .

ويقال : كما أَنَّ نُطْقَكَ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِ غَيْرُكَ فَرِزْقُكَ لَا يَأْكُلُهُ غَيْرُكَ .

ويقال : الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء ، ولا سبيلَ لك إلى

العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تنعَى في طلب ما لا تصل إليه .

ويقال : في السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُمْ . . فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ

رِزْقُكَ فَأَصْبِحْ إِلَى السَّمَاءِ عَمَلَكَ — ولهذا قالوا : الصَّلَاةُ قَرْنُ بَابِ الرِّزْقِ ، وقال تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا » (١) .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ إِبْرَاهِيمَ

الْمَكْرَمِينَ » .

(١) آية ١٣٢ سورة طه .

قيل في التفسير : لم يكن قد أتاه خبرهم قبل نزول هذه الآية .
وقيل : كان عددهم اثني عشر ملكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل :
كانوا ثلاثة .

وقوله : « المكرمين » قيل لقيامه — عليه السلام — بخدمتهم . وقيل : أكرم الضيف
بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يتكلف إبراهيم لهم ، وما اعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى
لا تكون من المضيف عليه منة فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : ستمهم مكرمين لأن غير المدعو عند الكرام كرم .

ويقال : ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جل ذكره : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال
سلام قوم منكرون » . .

أى سلمنا عليك (سلاماً) فقال إبراهيم : لكم منى (سلام) .

وقولهم : « سلاماً » أى لك منا سلام ، لأن السلام : الأمان .

« قوم منكرون » : أى أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مثلهم في الأضياف .
ويقال : غرباء .

قوله جل ذكره : « فرأغ إلى أهله فجاء بعجل سمين *
فقربته إليهم قال ألا تأكلون » .

أى عدل إليهم من حيث لا يعلمون^(١) ، وكذلك يكون الروغان^(٢) .

(١) أى من حيث لا يعلم الأضياف .

(٢) وكذلك يكون روغان للكرام : خفية حتى لا يسبب لأضيافه الحرج .

« فجاء بمجلى سمين » فشواه ، وقرب به منهم وقال : « ألا تأكلون ؟ » وحين امتنعوا عن الأكل :

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا : لا تَخَفْ ، وَبَشِّرْوه بِنُفْلٍ عَظِيمٍ .

تَوَمَّ أَنْهُمْ لَصُوصٌ فَقَالُوا لَهُ : « لا تَخَفْ » .

« وبشروه بنفل عظيم » : أى بشروه بالولد ، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير علياً ؛ والعظيم مبالغة من العلم ، وإنما يصير علياً بعد كبره .

« فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » .

« فى صرّة » أى فى صيحة شديدة ، « فصكت وجهها » أى فضربت وجهها بيدها كفعل النساء « وقالت عجوز عقيم » : أى أنا عجوز عقيم . وقيل : إنها يومها كانت ابنة ثمان وتسعين سنة ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة .

« قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

أى قلنا لك كما قال ربك لنا ، وأن نُخْبِرَكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُخَيَّمُ لِأَفْعَالِهِ ، « العليم » الذى لا يخفى عليه شئ^(١) .

« قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ » .

سألم : ما شأنكم ؟ وما أمركم ؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ ؟

« قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ *

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ *

(١) روى أن جبريل قال لما حين استجبت : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا بدوعه مودقة مشعة .

مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ • فَأَخْرَجْنَا
مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ •

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غير لوط ومن آمن به .

قوله جل ذكره : « وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

تركنا فيها علامة يعتبر بها الخائفون — دون القلبية قلوبهم^(١) .

قوله جل ذكره : « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » .

أى بحجة ظاهرة باهرة^(٢) .

.... إلى قوله : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَكُوسِعُونَ » : أى جعلنا بينها وبين الأرض
سعة ، « وَإِنَّا لَتَاقِدُونَ » : على أن تزيد في تلك^(٣) السعة .

« وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ لِلْمَاهِدُونَ » .

أى جعلناها مهاداً لكم . ثم أثبت على نفسه قائلاً : « فَنِعْمَ لِلْمَاهِدُونَ » .
دل بهذا كله على كمال قدرته ، وعلى تمام فضله ورحمته .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

أى صنفين في الحيوان كالثور والاعتى ، وفي غير الحيوان كالحركة والسكون ، والسواد
والبياض ، وأصناف المتضادات .

(١) قيل هى ماء أسود متزن .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قاهرة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (ملك) والسياق لا يقبل هذه .

قوله جل ذكره: « قَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

أى قارجعوا إلى الله — والإنسان بإحدى حالتين؛ إمّا حالة رغبة في شيء، أو حالة رغبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرر... وفي الحالتين ينبغي أن يكون قراره إلى الله؛ فإن النافع والضار هو الله.

ويقال: مَنْ صَحَّ قَرَّارُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ قَرَّارُهُ مَعَ اللَّهِ .

ويقال: يجب على العبد أن يقرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقى، ومن الشك إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أن يقرّ من فعله — الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحته، ومن نفسه — حيث قال: « ويحذركم الله نفسه » إلى نفسه حيث قال: « قَرُّوا إِلَى اللَّهِ »^(١).

قوله جل ذكره: « وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

أخوفاكم أليم عقوبته إن أشركتم به — فإنه لا يغفر أن يُشركَ به .

ثم بين أنه على ذلك جرت عادتهم في تكذيب الرسل، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك. قوله جل ذكره: « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » .

فأعرض عنهم فليست تلحقك — بسوء صنيعهم — ملامة^(٢).

قوله جل ذكره: « وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ذَكَرَ الْعَاصِينَ عِقَابِي لِيَرْجِعُوا عَنْ مَخَالِفَةِ أَمْرِي، وَذَكَرَ الْمُطِيعِينَ جَزِيلَ ثَوَابِي لِيَزِدَادُوا

(١) هنا استخدم القشيري ثقافته الكلامية فيما يتصل بصفات (الفعل) وصفات (الذات) (أنظر تقديمنا لكتاب التعبير في التذكير).

(٢) هكذا في م وهي في ص (ملايه) وهي خطأ من الناسخ.

طاعةً وعبادةً ، وَذَكَرَ العارفينَ ما صَرَفَتْ عَنْهُمْ من بلائٍ ، وَذَكَرَ الأغنياءَ ما أُنْخَسَتْ (١)
لَهُم من إحسانٍ وعطائي ، وَذَكَرَ الفقراءَ ما أُوجِبَتْ لَهُم من صَرْفِ الدنيا عَنْهُمْ وَأُعِدَّتْ لَهُم
من لقاءٍ .

قوله جل ذكره : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » • مَا أريد منهم من رِزْقٍ
وَمَا أريد أَن يُطْعَمُوا • إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

الذين اصطفيتهم في آزالى ، وَخَصَّصْتُهُمْ — اليومَ — بِحَسَنِ إِقْبَالِي ، وَوَعَدْتُهم جَزِيلَ
أَفْضَالِي — مَا خَلَقْتُهم إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .

والذين سَخَطْتُ عليهم في آزالى ، وَرَبَطْتُهم — اليومَ — بِالْخِذْلَانِ فيما كَلَّفْتُهم من أَعْمَالِي ،
وَخَلَقْتُ النَّارَ لَهُم — بِحُكْمِ إِلَهِيّ وَوَجوبِ حُكْمِي في سُلْطَانِي — مَا خَلَقْتُهم إِلَّا لِعَذَابِي
وَأَنْكَالِي ، وَمَا أُعِدَّتْ لَهُم من سِلَاسٍ وَأَغْلَالِي .

مَا أريد منهم أَن يُطْعَمُوا أو يَرْزُقُوا أَحَدًا من عِبَادِي فَإِنَّ الرِّزْقَ أَنَا .

وَمَا أريد أَن يُطْعَمُوا فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ « ذُو الْقُوَّةِ » : الْمَتِينُ الْقَوِيُّ .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا . مِثْلَ ذُنُوبِ
أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ » .

لَهُم نَصِيبٌ من العَذَابِ مِثْلَ نَصِيبِ مَنْ سَلَفَ من أَصْحَابِهِم من الكُفَّارِ فَلِمَ اسْتَعْجَلُوا
العَذَابَ — والعَذَابُ لَن يَفُوتَهُمْ ؟ .

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا من يَوْمِهِم الَّذِي
يُوعَدُونَ » .

وهو يوم القيامة .

(١) هكذا في م وهي في ص (الحث) وهي غير ملائمة للسياق .

سُورَةُ الطُّورِ

• قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة ما استولت على قلب عارفٍ إِلَّا نَيْمَتُهُ بِكَشْفِ جلاله ، وما استولت على قلب مُتَأَفِّفٍ إِلَّا أكرمتَه بلطف أفضاله . . . فهي كلمة قَهَّارَةٌ للقلوب . . . ولكن لا لكل قلب ، مَذْهَبَةٌ للكروب . . . ولكن لا لكل كرب .

قوله جل ذكره : « والطور * وكتابٍ مبسطورٍ *
في رَقٍّ منشور » .

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة) ، وجواب القسم قوله : « إن عذاب ربك لواقع » . والطور هو الجبل الذي كُلِّمَ عليه موسى عليه السلام ؛ لأنه مَحَلٌّ قَدَمِ الْأَحْبَابِ وقتَ سماع الخطاب . ولأنه الموضع الذي سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وذِكْرَ أُمَّتِهِ حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال : أعطيتكم قبل أن تسألوني « وكتابٍ مبسطور » : مكتوب في المصاحف ، وفي اللوح المحفوظ .

وقيل : كتاب الملائكة في السماء يقرءون منه ما كان وما يكون .

ويقال : ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده .

ويقال ما كتب من قوله : سبقت رحمتي غضبي^(١) .

ويقال : هو قوله : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون »^(٢) .

(١) في الحديث أن الله كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : « إن رحمتي سبقت غضبي » .

(٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

ويقال : الكتاب السطور فيه أعمال العباد يُعطى لعباده بأثمتهم وشمائلهم يوم القيامة .
« في رُق منشور »^(١) : يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

« والبيت المعمور » .

في السماء الرابعة^(٢) . ويقال : هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبتته ومعرفته . ويقال :
هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكعبة .

« والسقف المرفوع »

هي السماء . وقيل سماءهم في اللكوت .

« والبحر للسجور »

البحار الملوثة .

أقسم بهذه الأشياء : إن عذابه لواقع . وعذابه في الظاهر ما توعد به عباده العاصين ،
وفي الباطن الحجاب بعد الحضور ، والستر بعد الكشف ، والرد بعد القبول .

« ماله من دافع »

إذا ردَّ عبداً أبرم القضاء برده :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر - الدهر - مشيل

قوله جل ذكره : « يومَ تَمُورُ السماءُ مَوْرًا » وتسير الجبالُ

سيرا .

« تمور » : أى تدور بما فيها ، وتسير الجبالُ عن أماكنها ، فتسير سيرا .

« فويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبِينَ » الذين هم في خوض

يلعبون .

(١) الرق هو الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه ، منشور لا غم عليه أو لائح .

(٢) يقابل الكعبة معمور بالملاحة .

الويلُ كلمة قولها العربُ لمن وقع في الهلاك .

« في خوض يلعبون » : في باطل التكذيب يخوضون .

« يومَ يُدْعَوْنَ إلى نارِ جهنمِ دَعَاءً * هذه النار التي كنتم
بها تُكذِّبون * أفسَحَرْنَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » .

يومَ يُدْعَوْنَ إلى النارِ دَعَاءً ، ويقال لهم : هذه هي النار التي كنتم بها تُكذِّبون . .
ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّيَ على أبصاركم ؟ !

قوله جل ذكره : « أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ »

عليكم إنما تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون »

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لاقية له ، لأنَّ عذابهم عقوبةٌ لهم :

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ »

بما آتاهم ربُّهم ووقاهم ربُّهم عذابَ

الجحيمِ » .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً^(١) . « فَاكِهِينَ » أي مُعْجِبِينَ بما آتاهم ربُّهم
وما أعطاهم .

ويقال : « فَاكِهِونَ » : أي ذوو فاكهة : كقولهم رجل تامر أي ذو تمر ، ولا بن أي
ذو لبن .

قوله جل ذكره : « كُلُّوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون »

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطعمه ولذته ، وقوم يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم

(١) يشير القشيري إلى النعيم العاجل الذي هو الوصلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم
في حياة وسطى فيها قيامة وحشر ونشر وثواب وعذاب ، بما يشعرون ؛ من هجر ووصل ، وخوف ورجاء .
ونحو ذلك من الأحوال .

عنه — سبحانه — هنيئًا ، وقوم يصير لم ذلك هنيا لينا وهم بمشهد منه :

فاشرب على وجهها كغُرَّتِها مُدَامَةً في الكئوس كالشَّرِّ

«مُتَّكِئِينَ عَلَى سُورٍ مُصْفُوقَةٍ

وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»

يظللون في سرور وحبور ، ونصيب من الأنس موفور .

قوله جل ذكره : «والذين آمنوا واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم

بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»

يُكْمِلُ عَلَيْهِمُ سرورهم بأن يُلْحِقَ بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ ؛ فإنَّ الاثراء بالنعمة عمّن

القلبُ مشتغلٌ به من الأهل والولد والذرية بوجِب تنفص العيش .

وكذلك كلُّ مَنْ قلبُ الوليِّ يلاحظه من صديقٍ وقريب ، ووليٍّ وخادم ، قال تعالى

في قصة يوسف : «وَأَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ»

وفي هذا المعنى قالوا :

إنيُّ على جنواتها — فبريًّا وبكلُّ مُتَّصِلٍ بِهَا متوسِّلٍ

لأحبها ، وأحبُّ منزلها الذي نزلت به وأحبُّ أهل المنزل

«وما ألتئام من عملهم من شيء»

كلُّ أمرئ بما كَسَبَ رَهِينٌ»

أى ما ألتصنا من أجورهم من شيء بل وفينا ووفرنا . وفي الابتداء نحن أولينا وزدنا

على ما أعطينا .

« كل امرئ بما كسب رهين » مُطَالَبٌ بعمله ، يوفى عليه أجره بلا تأخير ، وإن كان ذنباً فالكثير منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جل ذكره : « وأمددناهم بقاكه ولحم مما يشتهون »
* يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم »

أى لا يجرى بينهم باطل ولا يؤثمهم كما يجرى بين الشرب^(١) في الدنيا ، ولا يذهب الشرب بقولهم فيجرى بينهم ما يخرجهم عن حد الأدب والاستقامة .
وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم من يستقيم ، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه ؟ .

قوله جل ذكره : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » .

والقوم عن الدار وعن في الدار مُحْتَظَفُونَ لاستيلاء ما يستفرقهم ؛ فالشراب يؤنسهم ولكن لا يمن يجانسهم^(٢) ؛ وإذا كان — اليوم — للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعة^(٣) امتناع عن سماع خطاب الأغيار ، وشهود واحد من المخلوقين — وإن كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شقيقاً — فإن الحال أن يظن أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى . . إن كان من أهل القبول والجنة ، ومن الحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبد في الدنيا يقاسى في غربته من مقاساة اللثا والتي — فماذا يجب أن يقال إذا

(١) الشرب بالفتح القوم يشربون ويحتمون على الشراب (الوسيط واللسان) .

(٢) هكذا في م وهي أقرب إلى الصواب مما جاء في ص (يجالسم) باللام لأن السياق يتقدم بالأول ؛ فالأنس الحاصل يومئذ بالحق لا بالخلق .

(٣) هذه محاولة طيبة يقدمها التفسير الإنشائي عند بحث قضية التنعم في الآخرة ونفي الحسبات عن هذا المتنم ؛ لأنه إذا تصورنا أن العبد في ساعة الفناء يكون محوياً فيما يشهد ، وأن ذلك يحدث في الدنيا . . فما بالك في الآخرة وهم ناظرون إل ربهم ؟ !

رجع إلى منزله ؟ أيتى على ما كان عليه في سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يقامى في سفرته ، ويتجرع غير ما كان يُسْتَى من كاسات كُرْبته ؟ .

قوله جل ذكره : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون •

قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين •

فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم •

لولا أنهم قالوا : « فمن الله علينا » لكانوا قد لاحظوا إشفائهم ، ولكن الحق - سبحانه -

اختطفهم عن شهود إشفائهم ؛ حيث أشهدهم منته عليهم حتى قالوا : « فمن الله علينا ، ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » .

قوله جل ذكره : « فذكرنا أن ربك بكاهن

ولا مجنون •

أى أنهم يعلمون أنك ليست بكهانة ولا جنون ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسخيف ؛

فالتفيه يسط لانه فيمن يسه بما يلم أنه منه برى •

• أم يقولون شاعر فتربص به ريب

المنون • قل تربصوا فإني معكم من

المتربصين •

تربص به حوادث الأيام ؛ فإن مثل هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات من قبله كهان

وشعراء •

ويقال : قالوا : إن أباه مات شاباً ، ورجوا أن يموت كما مات أبوه ، فقال تعالى :

« قل تربصوا ... » فإننا منتظرون ، وجاء في التفسير أن جميعهم ماتوا . فلا ينبغي

لأحد أن يؤمل موت أحد . فقل من تكون هذه صنعتها إلا سبقتة المنيّة - دون أن يدرك ما يتمناه من الأمنية .

قوله جل ذكره : « أَمَّا نَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ » .

أَأْمُرُهُمْ عَقُولُهُمْ^(١) بهذا ؟ أَمْ تَحْمِلُهُمْ مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي ضَلَالِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ عَلَى هَذَا ؟
قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ » فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين .
إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول^(٢) من ذاتِ نَفْسِكَ فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين فيما رَمَوْكَ بِهِ !

قوله جل ذكره ، « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ » .

كلَّا ليس الأمرُ كذلك ، بل اللهُ هو الخالقُ وهم المخلوقون .
أَمْ هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ أَمْ عِنْدَهُم خَزَائِنُ رَبِّكَ .
— أَى خَزَائِنِ أَرْزَاقِهِ وَمَقْدُورَاتِهِ ؟ أَمْ هُمُ السَّيِّطَرُونَ الْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى النَّاسِ ؟ .
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَرْقُونَ فِيهِ فَيَسْتَعْمُونَ مَا يَجْرَى فِي السَّمَوَاتِ ؟ فليأتِ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ .
ثم إنه سَفَهَ أَحْلَامُهُمْ فَقَالَ :

« أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ » أَمْ

تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ عَلَى نَبْلِيخِ الرِّسَالَةِ أَجْرًا فَهُمْ مُثْقَلُونَ مِنَ الْغُرْمِ وَالْإِزَامِ فِي الْمَالِ (بِحَيْثُ يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ فِي اتِّبَاعِكَ ؟) .

(١) كانت قریش يدعون أهل الأحلام والنهى — فإِسناد الأحلام إلى الكفار في الآية مجاز فيه سخرية منهم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كي يتضح السياق — فالقشيري كما هو واضح في آخر المودة لا يعطى سوى كلمات مقتضبة ، وإنما يهتم بالجانب الإشاري — إن وجد .

أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك ؟
أم يريدون كيدا^(١) أى أن يمكروا بك مكرًا فالذين كفروا هم المكيدون .
أم لهم إله غير الله يفعل شيئًا مما يفعل الله ؟ تنزيهاً له عن ذلك ! .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا
يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » .

أى إن رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم قالوا : إنه سحبٌ مركوم^(٢) رُكْم بعضه على
بعض والمقصود أنهم مهما رأوا من الآيات لا يؤمنون . ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء حتى
شاهدوا بالعين لقالوا : إنما سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا ، وليس هذا عيانًا ولا مشاهدة .

قوله جل ذكره : « فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .
أى فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يموتون ، يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئًا ،
ولا يمتنعون من عذابنا .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

دون يوم القيامة لهم عذاب القتل والنسج ، وما نزل بهم من الهوان والخزي يوم
بدر وغيره^(٣) .

« وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » : أن الله ناصر لدينه .

قوله جل ذكره : « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ
بِأَعْيُنِنَا » .

(١) يقال هو كيدهم للرسول وللمؤمنين بدار النلوة - وقد يقصد به الكفاز أجمعين .

(٢) فى ص (مكروم) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) ويقال عذاب القبر لأنه يسبق القيامة .

أنت بمرأى مِنَّا ، وفي نصرة مِنَّا .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا »^(١) : في هذا تحقُّفٌ عليه وهو يقاسى الصبر .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » .

أى تقوم للصلاة المفروضة عليك .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ »

قبل : للغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أمره أن يذكره في كل وقت ، وألا يخلو وقت من ذكره .

والصبرُ لحكم الله شديدٌ ، ولكن إذا عرَّفَ اطلاعَ الربِّ عليه سهَّلَ عليه ذلك وهان .

(١) التعبير بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية في حق المصطفى صلوات الله عليه ، خصوصاً إذا ذكرنا أنه سبحانه قال في حق موسى عليه السلام « وَلَتَصْنَعَنَّ عَلَى عَيْنِي » فالتميز في هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

سُورَةُ النَّجْمِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» اسمٌ جليلٌ رحيمٌ ، يعلم^(١) فيما يعلم ، ويستر ما يصير ويفقر^(٢) ، وعلى العقوبة بقدر ، يرى ويخفى ، ويعلم ولا يُدَى .

قوله جل ذكره: «والنجم إذا هوى» ما ضل صاحبكم وما غوى

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال: هو جنس النجوم أقسم بها .

(ويقال: هي الكواكب)^(٣) . ويقال: أقسم بنجوم القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ويقال هي الكواكب التي ترمى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من المراج .

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقول الطالبين .

وجواب القسم قوله: «ما ضل صاحبكم وما غوى»: أى ما ضل عن التوحيد قط ، «وما غوى»: النى: تفيض الرشد . . وفي هذا تخصيص للنبي صلى الله عليه وسلم حيث تولى — سبحانه — الذب عنه فيما رُمى به ، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأذن له حتى قال: «ليس بي ضلالة»^(٤) ، وهود قال: «ليس بي سفاهة»^(٥) . . وغير ذلك ، وموسى

(١) هكذا في م وهـ، في ص (يكلم) وواضح أنها خطأ من النسخ .

(٢) هكذا في م وهـ في ص (يفسر) وهي خطأ من النسخ .

(٣) مزجود في م وسائط في ص .

(٤) آية ٦١ سورة الأعراف .

(٥) آية ٦٧ سورة الأعراف .

قال فرعون : « وإني لأظنُّكَ يا فرعونُ مشبوراً »^(١) . وقال لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم :
« ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » : معناه ما ضلَّ صاحبكم ، ولا غفلَ عن الشهود طرفة عين .

قوله جل ذكره : « وما ينطق عن الهوى * إن هو
إلا وحيٌ يُوحى » .

أى ما ينطق بالهوى ، وما هذا القرآنُ إلا وحيٌ يُوحى . وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له
بالشهادة ؛ إذ قال لداود : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى »^(٢) .
وقال في صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : « وما ينطق عن الهوى » .

(ومتى ينطق عن الهوى وهو في محل النجوى ؟ في الظاهر مزمومٌ بزمام التقوى ، وفي
السرائر في إيواء الولي ، مُصنَّف عن كدورات البشرية ، مُرَقَّى إلى شهود الأحديَّة ،
مُكَاشَفٌ بجلال الصمدية ، مُخْتَطَفٌ عنه بالسكُّلية ، لم تبقَ منه إلا لُحَقُّ بالحقِّ بقية . . ومن
كان بهذا النفث . . متى ينطق عن الهوى ؟)^(٣) .

قوله جل ذكره : « علَّمهُ شديداً القوي * ذو مِرَّةٍ
فاستوى * وهو بالأفقي الأعلى » .

أى جبريل عليه السلام . و « ذو مِرَّةٍ » : أى ذو قوة وهو جبريل . « وهو بالأفقي
الأعلى » أى جبريل .

« ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَى » .

دنا جبريلٌ من محمدٍ عليه السلام ، فتدلى جبريلٌ : أى نَزَلَ من العُلُوِّ إلى محمد .
وقيل : « تدلى » تفيد الزيادة في القُرب ، وأنَّ محمداً عليه السلام هو الذى دنا من ربِّه
دُنُوَّ كرامة ، وَأَزَّزَ إِلهيًّا هنا معناها السجود .

(١) آية ١٠٢ سورة الإسراء .

(٢) آية ٢٦ سورة ص .

(٣) كل ما بين القوسين موجود في مكان آخر ، وضمناه في مكانه الصحيح حتى يستقيم السياق .

ويقال : دنا محمدٌ من ربِّه بما أودعَ من لطائفِ المعرفة وزوائدها ، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه .

« فكان قاب قوسين أو أدنى » : فكان جبريل — وهو في صورته التي هو عليها — من محمد صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قدرُ قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه — صلى الله عليه وسلم — وبين الله قدرُ قوسين : أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة .

ويقال : كان من مآدمهم إذا أرادوا تحقيقَ الألفَةِ بينهم إلصاقُ أحدهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن^(١) عقد الموالاة بينهما ، وأنزل الله — سبحانه — هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم . ثم رفع الله هذا فقال : « أو أدنى » أى بل أدنى .

قوله جل ذكره : « فأوحى إلى عبده ما أوحى »
أى أوحى الله إلى محمدٍ ما أوحى . ويقال : أحسنَه أحسنًا^(٢) لم يَطْلِعْ عليها أحدٌ .
ويقال : قال له : ألم أجعلك نبياً فأوَيْتُكَ ؟ ألم أجعلك ضالاً فهدَيْتُكَ ؟
ألم أجعلك عائلاً فأغنَيْتُكَ ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟
ويقال : بَشَّرَه بالخوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أنَّ الجنةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمَّتكَ . والأوَّلَى أن يقال : هذا الذى قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم يَطْلِعْ أحدٌ .. كله أيضاً كان له فى تلك الليلة وحده ، إذ رَقَّاه إلى مارقاه ، ولَقَّاه بما لَقَّاه ، وأدناه حيث لا دُنُوَّ قبله ولا بعده ، وأخذَه عنه حيث لا غيرٌ ، وأصحاه له فى عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال .. دون أن يَطْلِعَ أحدٌ على ما كان بينهما من السِّرِّ^(٣) .

(١) كما نقول فى أسلوبنا الآن (تميراً عن ..)

(٢) هكذا فى سر وحى أصوب مما جاء فى م (أجمله إجمالاً) بالجيم فالسياق يرفضهما .

(٣) هذه الفقرة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب فى قصة الإسراء والمعراج . ومضمون كلام القشيري أننا لو كنا نستطيع حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التى تتاح للأولياء العارفين .. فكيف لا نتقبلها بالنسبة للمصطفى عليه صلوات الله وسلامه ؟ وبمعنى آخر : نجد التفسير الصوفى يبرز نفسه فى قوة ونصاعة لتوضيح قضية من قضايا التدين ، كانت موضع جدل فى زمانها وبعد زمانها .

قوله جل ذكره : « ما كَذَّبَ القَوَادُ ما رَأَى » .

ما كَذَّبَ قَوَادُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رآه يبصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربه تلك الليلة على الوصف الذي علمه قبل أن يراه^(١) .

قوله جل ذكره : « أَفْتَمَّارُونَهُ عَلَى ما يَرَى » .

أَفْتَمَّادُونَهُ عَلَى ما يَرَى ؟

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ المنتهى * عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى » .

أى جبريلُ رأى الله مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرَةِ المنتهى ؛ وهى شجرة فى الجنة ، وهى منتهى الملائكة ، وقيل : تنتهى إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهى إليها أرواحُ الخلق ، ولا يعلم ما وراءها إلا الله تعالى — وعندها « جنة المأوى » وهى جنة من الجنان .

قوله جل ذكره : « إِذْ يَفْشَى السُّدْرَةُ ما يَفْشَى » .

يفشاها ما يفشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفى خبر : يفشاها رفرف طير خُضِر .

ويقال : يفشاها فَرَّاشٌ من ذهب .

(١) يقول القشيري فى كتابه المعراج ص ٩٤ : « واختلفوا فى رؤية الله سبحانه ليلة المعراج : فقالت عائشة رضى الله عنها : إن النبى (ص) لم يَرِ ربه ليلة المعراج ، ومن زعم أن محمداً رأى ربه ليلة المعراج فقد أعظم على الله الفرية . وقال ابن عباس : إن نبينا (ص) رأى ربه ليلة المعراج .

ثم اختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ ففى رواية أنه رآه بعين رأسه ، وفى رواية أنه رآه بقلبه . وتاله اهل التحقيق من أهل السنة : اختلافهم فى هذه المسألة دليل على إجماعهم أن الحق سبحانه يجوز أن يُرى ؛ لأنه لو لا أنهم كانوا متفقين على جواز الرؤية لم يكن لاختلافهم فى الرؤية فى تلك الليلة معنى .

وقد رويت فى هذا الباب أخبار ، والله أعلم بصحتها ، فإن صحَّ ذلك فلها وجود من التأويل ، من ذلك ما روى أنه قال : « رأيت ربي فى أحسن صورة » - فهذا الخبر يحتمل وجوهاً منها : رأيت ربي وأنا فى أحسن صورة يعنى فى أكل رتبة وأتم فضيلة ، وأقوى ما كنت ؛ لم يصحبنى دعش ، ولا دهقنى حيرة .

ويمكن أن تكون الرؤية بمعنى العلم ، أى رأيت من قدرة الله تعالى ودلائل حكمته ، ولم يشغنى شهود الصور عن ذكر المصور ، بل رأيت الفاعل فى الفعل .

وقيل : الصورة بمعنى الصفة ، يقال : أرى صورة هذا الامرأى : صفته . وهى « على معنى » أى رأيت ربي على أحسن صفة من جلالة وصفه وإفضاله معى

ويقال : أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) عندها خواتيم البقرة ، وَغُفِرَ لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِهِ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : « ما زاغ البصر وما طغى »

ما مَالَ — صلوات الله عليه وسلامه — يبصره عما أُبَيِّحَ لَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْآيَاتِ ،
والاعتبار بدلائلها .

فَمَا جَاوَزَ حَدَّهُ ، بَلْ رَاعَى شُرُوطَ الْأَدَبِ فِي الْحَضَرَةِ (١) .

قوله جل ذكره : « لقد رأى من آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

أَي « الْآيَةِ » الْكُبْرَى ، وَحَدَفَ الْآيَةَ . . . وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي رَأَاهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ . وَيُقَالُ :
هِيَ بَقَاؤُهُ فِي حَالِ لِقَائِهِ رَبَّهُ بِوَصْفِ الصَّخْرِ ، وَحَفَظَهُ حَتَّى رَأَاهُ (٢) .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟

* تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » .

هذه أصنام كانت العرب تعبدونها ، قاللات صنم لثيف ، والعزى شجرة لفظان ، ومناة
صخرة لهذيل وخرأعة (٣) .

ومعنى الآية : أَخْبِرُونَا ... هَلْ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَنْ تَفْعَلَ
بِعَائِدِهَا مَا فَعَلْنَا بِحَنِ لِحَمْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الرُّتْبِ وَالتَّخْصِصِ ؟ .

(١) قَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ : حَفِظَ النَّبِيُّ (ص) طَرَفَهُ فِي الْمَسْرِ ، فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لَعَلَّهُ بِمَا يَفْعَلُ
لَهُ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ ، فَلَمْ يَشَهِدْ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَمْ يُسِرْ طَرَفَهُ أَحَدًا ، ثُمَّ لَمَّا رُدَّ إِلَى عِلَلِ التَّأْدِيبِ نَظَرَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ،
وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ لِلْإِخْبَارِ عَنْهَا ، وَنَادَيْبِ الْخَلْقِ بِهَا ، فَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ مَقَامُ خُصُوصِ الْمَقَامِ الثَّانِي مَقَامُ عُمُومِ .
وَقَالَ رُوَيْمٌ : لَمَّا أُكْرِمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَعْظَمِ الشَّرَفِ فِي الْمَسْرِ عَمَلَتْ هَيْمَتُهُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْآيَاتِ
وَالْكَرَامَاتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، أَيْ مَا أَغَارَ طَرَفُهُ شَيْئًا مِنَ الْأَكْوَانِ ، وَمَنْ شَاهَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ
الْأَنْهَارَ وَالْأَوْدِيَةَ .

(٢) مَثَلُ الشَّيْلِ : « كَيْفَ ثَبَتَ النَّبِيُّ (ص) فِي الْمَرَاجِ الْقَلَامِ وَالْمُخَاطَبَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ مُسَيِّءٌ لِأَمْرٍ فَمُسْكِنٌ فِيهِ »
وَيُقَارَنُ الْقَشِيرَى فِي مَوْضِعِ آخِرِ بَيْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ خَرَّ صَحْقًا بِمَجَرَّدِ سَمَاعِ النِّدَاءِ وَبَيْنَ نَفْسِنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ إِذْ ثَبَتَ فِي مَحَلِّ الْمَشَاهِدَةِ ، وَيُضَيَّفُ : إِنْ مُوسَى فِي حَالِ التَّلَوُّينِ ، وَنَحْنُ فِي حَالِ التَّسْكِينِ .

(٣) هَذِهِ الْأَصْنَامُ كُلُّهَا مَوْثِقَاتٌ .. وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنْ الْمَلَائِكَةُ وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ بَنَاتُ اللَّهِ !

ثم ويختمهم فقال : أرايتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله ؟ تلك إذا
قصة ناقصة ١

قوله جل ذكره : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم
 وآبائكم ما أنزل الله بهامن سلطان إن
 يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس
 ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

أنتم ابتدعتم هذه الأسماء من غير أن يكون الله أمركم بهذا ، أو أذن لكم به .
فأنتم تتبعون الظن ، « وإن الظن لا يبغي من الحق شيئاً » (١)

« ولقد جاءهم من ربهم الهدى » : فأعرضوا عنه ، وكما أن ظن الكفار أوجب لهم الجهل
 والخيرة والحكم بالخطأ — فكذلك في هذه الطريقة (٢) : « ن عرج على أوصاف الظن لا يحظى (٣)
 بشيء من الحقيقة ؛ فليس في هذا الحديث إلا القطع والتحقيق ، فهارهم قد متع (٤) ، وشمسهم
 قد طلعت ، وعلومهم أكثرها صارت ضرورية .

أمّا الظن الجميل بالله فليس من هذا الباب ، والتباس عاقبة الرجل عليه ليس (٥) أيضاً من
 هذه الجلة ذات الظن العلول في الله ، وفي صفاته وأحكامه .

قوله جل ذكره : « أم للإنسان ما تمنى » .

أى ليس (٦) للإنسان ما يتمناه ؛ فإنه يتمنى طول الحياة والرفاهية وخصب العيش ..
 وما لا نهاية له ، ولكن أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه .

(١) آية ٢٨ في السورة نفسها .

(٢) يقصد طريقة الصوفية .

(٣) في م (يخطئ) وهي خطأ في النسخ

(٤) في ص (منع) بالنون وهي خطأ ، فمتوع النهار من المصطلحات الصوفية التي زادها الفشيرى على (الرائع
 والطوالع واللوامع) كما نوهنا من قبل .

(٥) هكذا في م وهي في ص (ليبين) وهي خطأ من النسخ .

(٦) هي (أم) المنقطعة ، ومعنى الهمة فيها للإنكار ، أى للإنسان — يعنى الكافر — ما تمنى من شفاعة الأصنام ،

وغير ذلك من التمنى .

ويقال : ما يتمناه الإنسان أن يرتفع مراده واجبا في كل شيء — وأن يرتفع مراده
عبد واجبا في كل شيء ليس من صفات الخلق بل هو لله ، الذي له ما يشاء :
« فله الآخرة والأولى » .

له الآخرة والأولى خلقا وملكا ، فهو الملك المالك صاحب الملك التام . فاما الخلق
فالتقص لازم للكل .

قوله جل ذكره : « وكم من ملك في السموات لا تغني
شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن
الله لمن يشاء ويرضى » .

وهذا رد عليهم حيث قالوا : إن الملائكة شفعاؤنا عند الله (١) .

قوله جل ذكره : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليدُسُّونَ
الملائكةَ تسمية الأئني * وما لهم به
من علم إن يتبعون إلا الظن وإن
الظن لا يفي من الحق شيئا » .

هذه التسمية من عندهم ، وهم لا يتبعون فيها علما أو تحقيقا . . بل ظنا — والظن
لا يقيد شيئا .

قوله جل ذكره : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم
يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم
من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل
عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

أى أعرض عمن أعرض عن القرآن والإيمان به وتدبر معانيه ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا .

(١) لا تنفع شفاعة أحد إلا إذا أذن الله . . فإذا كانت الملائكة مع كثرتها وقربها من الله لا تصلح للشفاعة
إلا بأذن من الله — فكيف تصلح هذه الأصنام للشفاعة ؟ !

ذلك مبلغهم من العلم ؛ وإنا نرضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة ، وإن ربك عليم بالضال ، عليم بالهتدي .. وهو يجازي كلًا بما يستحق .

قوله جل ذكره : « ولله ما في السموات وما في الأرض
ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي
الذين أحسنوا بالحسن » .

يجزي الذين أساءوا بالمقوبات ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .
قوله جل ذكره : « الذين يَحْتَنِبُونَ كِبَاءَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ
إِلَّا اللَّيْمَ » .

الذنوب كلها كِبَاءٌ لأنها مخالفة لأمر الله ، ولكن بعضها أكبر من بعض . ولا شيء أعظم من الشرك . « والفواحش المعاصي » .
« إلا اللم » : تكلموا فيه ، وقالوا : إنه استثناء منقطع ، واللم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش .

ويقال : اللم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهًا — فأخير أنه ينفرد بها .
ويقال : اللم هو أن يأتي المرء ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة .
وقال بعض السلف : هو الوقعة من الزنا تحصل مرة ثم لا يعود إليها ، وكذلك شرب الخمر ، والسرقه .. وغير ذلك ، ثم لا يعود إليها .
ويقال : هو أن يهيم بالزلة ثم لا يفعلها .

ويقال : هو النظر . ويقال : ما لاحدٌ عليه من المعاصي ، وتكفر عنه الصلوات .
(والأصح أنه استثناء منقطع وأن اللم ليس من جملة المعاصي)^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ
بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

أَجِنَّةٌ فِي بَطُونِ أَمْهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا
أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى .

« إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » : يَعْنِي خَلَقَ آدَمَ .

وَيَقَالُ : تَزَكِيَةُ النَّفْسِ مِنْ عِلَامَاتِ كَوْنِ الْمَرْءِ مُحِبِّاً عَنِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْجَذُوبَ إِلَى الْغَايَةِ
وَالْمُسْتَفْرَقَ فِي شَهْوَةِ رِبِّهِ لَا يُزَكِّي نَفْسَهُ (١) .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى » : لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ مِنْكُمْ .

وَيَقَالُ : مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحْلاً شَرّاً مِنْهُ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ .

وَيَقَالُ : الْمُسْلِمُ يُجِبُّ أَنْ يَكُونَ بِمَحِثٍ يَرَى كُلَّ مُسْلِمٍ خَيْراً مِنْهُ ؛ فَإِنْ رَأَى شَيْخاً ، قَالَ :
هُوَ أَكْثَرُ مَنِّي طَاعَةً وَهُوَ أَفْضَلُ مَنِّي ، وَإِنْ رَأَى شَابَاً قَالَ : هُوَ أَفْضَلُ مَنِّي لِأَنَّهُ أَقْلُ
مَنِّي ذَنْباً .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَفْرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً
وَأَكْثَى » .

أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَصَدَّقَ بِالْقَلِيلِ . « وَأَكْثَى » أَيَّ قَطْعِ عَطَاءٍ .

« أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرٌّ »

« فَهُوَ يَرَى » : فَهُوَ يَعْلَمُ صِحَّةَ ذَلِكَ . يُقَالُ : هُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يُبْعِنُ عَلَى الْجِهَادِ قَلِيلاً
ثُمَّ يَقْطَعُ ذَلِكَ :

« أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ » : فَهُوَ يَرَى حَالَهُ فِي الْآخِرَةِ ؟

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *
وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(١) قَارَنَ ذَلِكَ بِقَوْلِ النَّسْفِيِّ فِي ذِكْرِ الْمَرْءِ لَطَاعَتِهِ : « . . . وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْجَابِ أَوْ الرِّيَاءِ لَا عَلَى
سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ فَإِنَّهُ سَائِزٌ لِأَنَّ الْمُسْرَةَ بِالطَّاعَةِ طَاعَةً وَذَكَرَهَا شُكْرٌ » النَّسْفِيُّ ج ٤ ص ١٩٨ . وَنَظَنُّ أَنْ فِي
عِبَارَةِ النَّسْفِيِّ شَيْئاً يَسْتَحِقُّ التَّصْوِيبَ : فَالْأَوَّلُ أَنْ يُقَالَ : وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ — لَا عَلَى سَبِيلِ
الْإِعْجَابِ أَوْ الرِّيَاءِ — فَإِنَّهُ جَائِزٌ ..

أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ هَذَا الْكَافِرُ بِمَا فِي صَاحِبِ مُوسَى ، وَصَاحِبِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ؛ أَيْ أَتَمَّ مَا طُولِبَ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ .

قوله جل ذكره : « أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » .

النَّاسُ فِي سَعْيِهِمْ مُخْتَلِفُونَ ؛ فَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا خَسِرَتْ صَفْقَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الْجَنَّةِ رَجَحَتْ صَفْقَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي رِيَاضَةِ نَفْسِهِ وَصَلَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي الْإِرَادَةِ شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ ثُمَّ هَدَاهُ إِلَى نَفْسِهِ .

وَأَمَّا الْمَذْنِبُ — فَإِذَا كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ غَفْرَانِهِ ، وَنَدَّمَ الْقَلْبَ عَلَى مَا اسْوَدَّ مِنْ دِيْوَانِهِ ، فَسَوْفَ يَجِدُ مِنَ اللَّهِ الثَّوَابَ وَالْقُرْبَةَ وَالْكَرَامَةَ وَالزَّلَّةَ .

وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي عَدِّ أَنْفَاسِهِ مَعَ اللَّهِ ؛ لَا يَمُرُّجُ عَلَى تَقْصِيرٍ ، وَلَا يَفْرِطُ فِي مَأْمُورٍ فَسِيرَى جَزَاءَ سَعْيِهِ مَشْكُوراً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ بِشُكْرِهِ بَأْنَ يُخَاطِبُهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى بِإِسْمَاعِهِ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ : عَبْدِي ، سَعْيُكَ مَشْكُورٌ ، عَبْدِي ، ذَنْبُكَ مَغْفُورٌ .

« ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » : هُوَ الْجَزَاءُ الْأَكْبَرُ وَالْأَجَلُّ ، جَزَاءٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ .
قوله جل ذكره : « وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، فَابْتِدَاءُ الْأَشْيَاءِ مِنَ اللَّهِ خَلْقًا ، وَانْتِهَاءُ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ مَصِيرًا .
وَيُقَالُ : إِذَا انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَاسْكُتُوا .

وَيُقَالُ : إِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ إِلَّا الْطَائِفَةُ مِنْ مَالٍ أَوْ مَنَالٍ أَوْ تَحْقِيقِ آمَالٍ أَوْ أَحْوَالٍ . . . يُجْزِيهَا عَلَى مَرَادِهِ — وَهِيَ حِفْظُهَا لِلْعِبَادِ .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى » .

أَرَادَ بِهِ الضَّحْكَ وَالْبُكَاءَ الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهِمَا بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يُجْزِيهِ وَيَخْلُقُهُ .

ويقال : أضحك الأرضَ بالنباتِ ، وأبكى السماءَ بالمطرِ .
 ويقال : أضحك أهلَ الجنة بالجنة ، وأبكى أهل النار بالنار .
 ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا ، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة .
 ويقال : أضحكهم في الظاهر ، وأبكاهم بقلوبهم .
 ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه ، وأبكى الكافرَ بهوانه .
 ويقال : أضحك قلوبَ العارفين بالرضا ، وأبكى عيونهم بخوف الفراق .
 ويقال : أضحكهم برحمته ، وأبكى الأعداء بسخطه .
 قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » .
 أماته في الدنيا ، وأحياه في القبر ؛ فالتبر إما للراحة وإما للإحساس بالمقوبة .
 ويقال : أماته في الدنيا ، وأحياه في الحشر .
 ويقال : أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة ، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة .
 ويقال : أمات نفوسهم بالمعاملات ، وأحيا قلوبهم بالمواصلات .
 ويقال : أماتها بالهيبة ، وأحيائها بالأنس .
 ويقال : بالاستتار ، والتجلى .
 ويقال : بالإعراض عنه ، والإقبال عليه .
 ويقال : بالطاعة ، والمعصية .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » .

سماها زوجين لازدواجهما عند خلقهما من النطفة .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » .

« أغنى » : أعطى الغنى ، « أقنى » : أكثر القنية أى المال . وقيل « أقنى » :
 أى أحوجه إلى المال — فعلى هذا يكون المعنى : أنه خَلَقَ الغنى والفقر .

ويقال : « أقي » أى أرضاه بما أعطاه^(١).

ويقال : « أغنى » أى أقتع ، « وأقي » : أى أرضى .

« وأنه هو ربُّ الشَّمْرى »

(الشَّمْرى : كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خِراعة تعبدها فأعلم الله أنه ربُّ معبودهم هذا)^(٢) .

« وأنه أهلك عاداً الأولى * وثموداً

فما أبقى * وقومَ نوحٍ من قَبْلُ منهم
كانوا هم أظلمَ وأظنى » .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هى إرم ذات اللباد ، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً . وأهلك من قَبْلِهِم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلمَ من غيرهم وأغوى يطول أعمارهم ، وقوة أجسادهم .

« والمؤتفكة أهوى * فغشاهما ما غشى »

أى المحسوف بها ، وهى قرى قوم لوط ، قلبها جبريل عليهم ، فهى مقلوبة معكوسة .
وقوله : « أهوى » أى : أسقطها الله إلى الأرض بعدما اقتلها من أصلها ، ثم عكسها وألقاها فى الأرض ، فغشاهما ما غشاهما من المذاب .

قوله جل ذكره : « فبأى آلاء ربك تبارى ؟ »

فبأى آلاء ربك — أيها الإنسان — تشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عُدَّ إنعامه عليهم وإحسانه إليهم .

قوله جل ذكره : « هذا نذيرٌ من النُّذُرِ الأولى » .

(١) أقي : من سائيا أرضى — كما ورد فى أكثر المعاجم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من بجانبنا اعتماداً على كتب التفسير ، وهى غير موجودة فى نص القشبرى : ولكننا أردنا إضافتها لنتلفت النظر إلى خاطرة تراودنا .. أليس هناك ارتباط بين افتتاحية السورة « والنجم إذا هوى » وبين هذه النهاية ؟ . عابدون ومعبدون يهودون ويتساقطون ويهلكون .. أبعد هذا أيها الإنسان تشكك فى أن هذا النذير صاوات الله عليه لم يأت بهما ؟ !

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .

« أَزِفَتِ الآزِقَةُ » * ليس لها من دون
الله كاشفةٌ .

أى قُرِبَتِ القيامة . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على
ردّها وكشفها إلا الله .

ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة — اليوم — فليس لها كاشفٌ غيره . وقيامتهم تقوم
في اليوم غير مرة . تقوم بالمَجْرِ والنُّوى والفراق .

قوله جل ذكره : « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » .

.. أفمن هذا القرآن تعجبون ، وتكونون في شكٍّ ، وتستهزئون ؟

« وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » : أى لاهون ..

« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه^(١) .

(١) عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : « ... فسجد رسول الله (ص) وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته
أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيت أنه بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف » (البيخارى ج ٣ ص ١٣٠) .

سُورَةُ الْقَمَرِ ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : كلمة بها نور القلوب والأبصار ، وبرقاتها يحصل مرور الأرواح والأسرار .
كلمة تدلُّ على جلاله — الذي هو استحقاقه لأوصافه . كلمة تدل على نعمته الذي هو غاية
أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

أجمع أهل التفسير على أنَّ القمر قد انشق على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال ابن مسعود ^(٢) : « رأيت حراء بين فلقتي القمر » ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك ؛
قد روى أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم . . كلهم روى
هذا الخبر .

وفيه إعجاز من وجهين : أحدهما رؤية من رأى ذلك ، والثاني خفاء مثل ذلك على من
لم يره ؛ لأنه لا ينكتم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة .

وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى « اقتربت الساعة » : أي ما بقي من الزمان إلى القيامة إلا قليلٌ بالإضافة إلى ماضى .

قوله جل ذكره : « وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا »

(١) يسميها البخاري : سورة « اقتربت الساعة » .

(٢) عن يحيى بن شعبة وسفيان بن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال : انشق القمر على
عهد رسول الله (ص) فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله (ص) : اشهدوا .
وعن قتادة عن أنس قال : انشق القمر فرقتين .

وعن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع النبي (ص) فنصار فرقتين . فقال لنا : اشهدوا
اشهدوا . (البخاري ٣ ص ١٣٠) .

وقد جاء في النسق : قال ابن مسعود رضى الله عنه « رأيت حراء بين فلقتي القمر » (النسق ص ٢٠١) .

سِحْرٌ مُسْتَعِيرٌ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ أَمِيرٌ مُسْتَعِيرٌ .

يعنى أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النفاذ فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلم واجباً .

« سحر مستمر » : أى دائمٌ قوىٌ شديد .. (ويقال إنهم قالوا : هذا ذاهب لا تبقى مدته)^(١) فاستمر : أى ذهب .

« وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » : التكذيب واتباع الهوى قريبان ؛ فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب ؛ لأن الله يُلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر^(٢) الرشد . أما اتباع الرضا فترون بالتصديق ؛ لأن الله يبركات اتباع الحق يفتح عين البصيرة فيحصل التصديق .

وكل أمرى جرت له القسمة والتقدير فلا محالة يستقر له حصول ما قسم وقدّر له .
« وكل أمر مستقر » : يستقر عمل المؤمن فتوجب له الجنة ، ويستقر عمل الكافر فيجازى .

قوله جل ذكره : « ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مژد جر »
حكمة بالغة فما تغن النذر .

جاءهم من أخبار الأنبياء والأمم الذين من قبلهم والأزمنة الماضية ما يجب أن يحصل به الارتداع ، ولكن الحق — سبحانه — أسبل على بصائرهم سجوف الجهل فعموا عن مواضع الرشد .

« حكمة بالغة .. » : بطل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مژد جر) .

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكر فيها .

« فما تغن النذر » : وأى شيء يعنى إنذار النذير وقد سبق التنذير لهم بالشقاء ؟

(١) ما بين القوسين موجود في م وغيره ، وجود في ص .

(٢) مكذاني ص . وهي في م (لا يستبصر) ، والأصوب ما أثبتنا .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ
سُكْرًا * خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ » .

« فتول عنهم » : هاهنا تمام الكلام — أى فأعرض عنهم . وهذا قبل الأمر بالقتال .
ثم استأنف الكلام : « يوم يدعُ الداع .. » والجواب : « يخرجون من الأجداث » —
أراد به يوم القيامة .

ومعنى « نُكِرَ » : أى شئ ينكروته (يَهْوُلُهُ وَفُظَاعَتُهُ)^(١) وهو يوم البعث والحشر .
وقوله : « خَشَعًا » منصوب على الحال ، أى يخرجون من الأجداث — وهى القبور —
خاشعي الأبصار .

« ... كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ *
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ
هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ » .

كانهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، « مهطعين » : أى مُدْبِئِي النظر إلى الداعي — وهو
إسرافيل .

« يقول الكافرون هذا يوم عسير » : لتوالى الشدائد التى فيه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا

عَبْدَنَا وَقَالُوا بِجُنُونٍ وَازْدُجِرَ *
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ *
فَتَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ »

كذب قوم نوح نبيهم ، وقالوا : إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .

وقيل : « ازدجر » : أى استطار عقله ، أى قوم نوح قالوا له ذلك .

فدعا ربه فقال : إني مغلوب ؛ أى بتسلط قومى على ؛ فلم يكن مغلوباً بالحجة لأن الحجة
كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهم فانتصر منهم أى انتقم .

(١) ما بين القوسين توضيح من جانبنا غير موجود فى النص .

ففتحنأ أبواب السماء بماء مُنْصَبٍ ، وشَقَقْنَا عِيُونَنَا بِالماء ، فالتقى ماء السماء وماء الأرضِ
على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ ، وَقُدِّرَ عَلَيْهِ يَاهِلَا كَهْم !

وفي التفاسير : أن الماء الذي نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ . والماء الذي نزل من السماء هو
البخارُ اليوم .

« وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ »

وحملنا نوحاً على « ذات ألواح » أى سفينة ، « ودسر » يعنى المسامير وهى جمع دسار
أى مسمار .

« تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا »

« بأعيننا » : أى بمرأى مِنَّا . وقيل : تَجْرَى بِأُولِيَانَا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم .

ويقال : بأعين الماء الذى أنبعناه من أوجه الأرض .

« جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا » : أى الذين كفروا بنوح^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »

جعلنا أمرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَن يَتَذَكَّرُ .

« فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » : فهل منكم من يعتذر ؟ . أمرهم بالاعتذار بها^(٢) .

قوله جل ذكره : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ »

قالها على جهة انتعظيم لأمره .

وقد ذُكِّرَ قصة نوحٍ هنا على أفصح بيانٍ وأقصرِ كلامٍ وأتمِّ معنى^(٣) .

(١) يرى بعض المفسرين أن (الذى كفر) هو نوح عليه السلام لأنه مكفور به ، فكل نبي رحمة لأمنه ، فكان نوح رحمة مكفورة .

(٢) أى أن الاستفهام - بلغة البلاغيين - قد خرج عن معناه الأصلي إلى الأمر .

(٣) كأن القشيري يريد أن يوضح تعليلاً (ل تكرار) قصة نوح . ونحن نعلم أن القشيري لا يستريح تماماً
لمكرة القول بالتكرار في القرآن .

وكان نوحٌ — عليه السلام — أطول الأنبياء عمراً ، وأشدّهم للبلاء مقاساةً

ثم إن الله — سبحانه — لما نَجَّى نوحاً مَتَّعَهُ بِمَدِّ هَلاكَ قَوْمِهِ وَمَتَّعَ أَوْلَادَهُ ، فَكُلُّ مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ أَوْلَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَفِي هَذَا قُوَّةٌ لِرَجَاءِ أَهْلِ الدِّينِ ، إِذَا تَوَافَى دِينَ اللَّهِ مَحَنَةً ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُهْلِكُ — عَنْ قَرِيبٍ — عَدُوَّهُمْ ، وَيُمْكِّنُهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَبِلَادِهِمْ ، وَيُورِثُهُمْ مَا كَانَ إِلَيْهِمْ .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنة الله في جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أَوْلِيَاءَهُ بَعْدَ أَنْ يَزْهُقَ أَعْدَاءُهُ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَدِّ كَرٍ »

يَسَّرْنَا قِرَاءَتَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، وَيَسَّرْنَا عِلْمَهُ عَلَى قُلُوبِ قَوْمٍ ، وَيَسَّرْنَا فَهْمَهُ عَلَى قُلُوبِ قَوْمٍ ، وَيَسَّرْنَا حِفْظَهُ عَلَى قُلُوبِ قَوْمٍ ، وَكَلَّمَهُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، وَكَلَّمَهُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ .

ويقال : كَاشَفَ الْأَرْوَاحَ مِنْ قَوْمٍ — بِالْقُرْآنِ — قَبْلَ إِدْخَالِهَا فِي الْأَجْسَادِ .

« فَبَلَّ مِنْ مَدِّ كَرٍ » لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي جَرَى لَنَا مَعَهُ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

وَنَذُرٌ » إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا

فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ

كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ تَخَلَّيْ مُنْقَعِرٍ » .

كَذَّبُوا هَوْدًا ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ « رِيحًا صَرْصَرًا » أَي : بَارِدَةً شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ ، يُسْمَعُ

لَهَا صَوْتُ .

« فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أَي : فِي يَوْمٍ شَتَّى اسْتَمَرَّ فِيهِ الْعَذَابُ بِهِمْ ، وَدَامَ ذَلِكَ

فِيهِمْ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَ لَيَالٍ . وَقِيلَ : دَامَ الشَّوْمُ تَنْزِعَ رِيَّاحَهُ النَّاسَ عَنْ حُفَرِهِمُ الَّتِي حَفَرُوهَا

حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنْقَطِعٍ . وقيل : كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم
ثم تُلقِي بهم كأنهم أصولُ نخلٍ قطعت رؤوسها .

« ولقد يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدِّكِرٍ ؟ » .

هَوَّنَا قِرَاءَتَهُ وَحَفِظَهُ ؛ فَلَيْسَ كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى يُقْرَأُ ظَاهِرًا إِلَّا الْقُرْآنُ .
قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * قَالُوا أَبَشَرًا
مِثَّنَا وَاحِدًا نَنْتَبِعُهُ ؟ .. إِنَّا إِذَا لِفِي
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » .

هم قوم صالح . وقد مضى القولُ فيه ، وما كان من عقرم للناقة . . إلى أن أرسل الله
عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك ، فَصَيَّرَهُمْ كَالْهَشِيمِ ، وهو اليابس من النبات ،
« الْمُحْتَظَرُ » : أى : المجمول في الحظيرة ، أو الحاصل في الحظيرة ^(١) ..

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ *
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ
نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » .

فأرسلنا عليهم « حاصبًا » : أى : حجارةً رُمُوا بها .
« كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » : أى : جعلنا لإنجاءهم في إهلاك أعدائهم .
وهكذا نجزي من شكر ؛ فمثل هذا تعاملٌ به مَنْ شَكَرَ نِعْمَتَنَا .
وَالشُّكْرُ عَلَى نِعَمِ الدِّفْعِ آتَمُّ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى نِعَمِ النِّفْعِ — وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا كُلُّ
مُوقِفٍ كَيْسٍ .

« فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ »

(١) يقصد القشيري أنها قد تقرأ بفتح الظاء ويكسرهما .

جاء جبريلُ ومَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَعَسَوْا ، ولم يَهْتَدُوا^(١) للخروج — وكذلك أُجْرِيَ سُنَّتُهُ فِي أَوْلِيَائِهِ أَنْ يَطْمِيسَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ حَتَّى يَلْبِسَ عَلَيْهِمْ كَيْفَ يُؤْذُونَ أَوْلِيَاءَهُ ثُمَّ يُخَلِّصُهُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ .

قوله جل ذكره : « سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْثُونَ الدُّبُرَ » .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحق ذلك يوم بدر ، فصار ذلك من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

سَحَبُهُمْ عَلَى الْوُجُوهِ أَمَارَةٌ لِإِذْلَالِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَكَانَتْ عَظِيمَةً — فكيف وهو التأييد والتخليد ؟ ! .

وكما أن أَمَارَةَ الذُّلِّ تَظْهَرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَضْلَامَةٌ إِعْزَازِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِكْرَامِهِمْ تَظْهَرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : « وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ »^(٣) . وقال : « نَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »^(٤) .

قوله جل ذكره : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ »

أَيَّ بِقَدَرٍ مَكْتُوبٍ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ .

ويقال : خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ مَا عَلِمْنَا وَأَرَدْنَا وَأَخِيرْنَا .

قوله جل ذكره : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »

أَيَّ إِذَا أَرَدْنَا خَلَقَ شَيْءٌ لَا يَتَعَسَّرُ وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا ، قَوْلُ لَهُ : كُنْ — فَيَكُونُ

(١) مَكَلًا فِي مَوْهِي فِي مَن (لَمْ يَهْتَدُوا) .

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْرٍ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَنشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَاءُ لَا تُعَذِّبْ بَعْدَ الْيَوْمِ — فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَالَ : حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَمَحْتَ عَلَى رَبِّكَ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :

سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْثُونَ الدُّبُرَ (البخارى ج ٢ ص ١٢١) .

(٣) آيَةُ ٢٢ سُورَةِ الْقِيَامَةِ .

(٤) آيَةُ ٢٤ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ .

بقدرتنا . ولا يقتضى هذا استئناف^(١) قول في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القديم أن يكون أمراً لذلك للكون إنما يحصل في ذلك الوقت .

« كلمح بالبصر » : أى كما أن هذا القدر عندكم (أى قدر ما يلح أحدكم ببصره) لا تلحقكم به مشقة — كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً قل أو كثر ، صغراً أو كبيراً — لا تلحقنا فيه مشقة .

قوله جل ذكره : « ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مدكر » .

أى أهلكنا القرون التى كانت قبلكم فكلهم أمثالكم من بنى آدم ...
« وكل شئ فعلوه فى الزبر » .
فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يعمل^(٢) . وفى صحيفة الملائكة مكتوب . لا ينادى صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ..

« وكل صغير وكبير مستطر » .
كل صغير من الخلق ، وكل كبير من الخلق — تحترمه للنية .
ويقال : كل صغير من الأعمال وكبير مكتوب فى اللوح المحفوظ ، وفى ديوان الملائكة .

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف ؛ لئلا يتجاسر العبد على الزلة إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها .

قوله جل ذكره : « إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

(١) هكذا فى م — وحى — فى ص (استئناف) وكلاماً يمكن أن يتقبله السياق . على معنى أن قوله القديم « كن » لا (يستأنف) عند خلق الحدث . وعلى معنى أنه لا يشترط أن يستوفى خلق الحدث الأمر بكن اكتفاء . بقوله القديم — والله أعلم .

(٢) هكذا فى وحى من أصوب فى السياق من (يعلمه) التى جاءت فى م لأن ما (فعلوه) التى فى الآية تؤدى إلى ذلك .

لهم بساتين وأنهار ، والجمع إذا قوبل بالجمع فالآحاد تُقَابِلُ بالآحاد .
 فظاهرُ هذا الخطاب يقتضى أن يكون لكل واحدٍ من اللتين جنةٌ ونهرٌ .
 « في مقعد صدق » : أى فى مجلسِ صدقٍ .
 « عند ملكٍ مقتدرٍ » : أراد به عِندِيَّةَ القُرْبَةِ والزَلَةِ .
 ويقال : مقعد الصدق أى مكان الصدق ، والصادق فى عبادته مَنْ لا يتعبدُ على ملاحظة
 الأطماع ومطالبة الأعواض .
 ويقال : مَنْ طلب الأعواضَ هَتَكَتْهُ الأطماع ، وَمَنْ صَدَقَ فى العبودية تحرَّرَ عن
 المقاصد الدنيئة .
 ويقال : مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْهُ الدنيا عن الآخرة ، وَمَنْ أَمَرَه نعيمُ الجنةُ حَجَبَ عن
 القيام بالحقيقة ، وَمَنْ قام بالحقيقة شُفِلَ عن الكونِ بِجَمَلَتِهِ (١) .

(١) أرباب الحقيقة لا تشغلهم فكرة الثواب والعقاب على النحو المألوف عند العابدين بنفوسهم . فجنَّتْهُمْ
 الكبرى من زوابعهم لمحبوبهم ، ولم فى ذلك أقوال كثيرة شراً ونشراً .. من ذلك :
 قول أبى على الروزبارى :

من لم يكن بك فانياً عن حبه	ومن الهوى والأنس بالأحباب
أو تيمة صباية جمعت له	ما كان مفترقاً من الأسباب
فكانه بين المراتب واقف	لنال حظاً أو لحسن مأب

ويقول الجنيد : كل محبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة . ويقول يحيى بن معاذ :

إن ذا الحب لمن يفنى له	لا لدار ذات الحس وطرف
لا ولا الفردوس - لا يالفها -	لا ولا الخوراء من فوق عُرف

ويقول أحمم :

كلهم يعبدون من خوف نار	ويرون الجنان حظاً جزيلاً
ليس لى فى الجنان النار رأى	أنا لا أجتى بعبى بديلاً

(انظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى » ط المعارف ص ١٩٥ ، ص ١٩٦) .

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : إخبارٌ عن عِزِّه وعظمته .

« الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن فضله ورحمته .

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيمُ الأشباح . ولولا عظمته لما عبَدَ الرحمنَ عابِدٌ ولولا رحمته لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ .

قوله جل ذكره : « الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » .

أى الرحمن الذى عَرَفَهُ الموحِّدُونَ وجَحَدَهُ الكافِرُونَ هو الذى عَلَّمَ الْقُرْآنَ . ويقال : الرحمن الذى رحمهم ، وعن الشُّرْكِ عَصَمَهُمْ ، وبالإيمان أكرمهم ، وكَلَّمَ التَّقْوَى أَلْزَمَهُمْ — هو الذى عَرَفَهُم بِالْقُرْآنِ وَعَلَّمَهُمْ .

ويقال : انفراد الحق بتعليم القرآن لعباده .

ويقال : أجرى الله تعالى سُنَّتَهُ أنه إذا أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً^(١) أَشْرَكَ أُمَّتَهُ فيه^(٢) على ما يليق بصفاتهم ؛ فلما قال له (صلِّ) : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ »^(٣) . قال لأُمَّتِهِ : « الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ » .

ويقال : عَلَّمَ الله آدمَ الأسماءَ كُلَّهَا ثم أمره بِعَرَضِهَا على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم — قال تعالى : « أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ » يا آدمُ ، وَعَلَّمَ (نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم)^(٤)

(١) شيئاً غير موجودة في م . وموجودة في ص — والسياق يقوى بها .

(٢) هكذا في ص وهي في م (فيه أُمَّتُهُ) .

(٣) « وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » آية ١١٣ سورة النساء .

(٤) ما بين القوسين إضافة من جانبنا ليتضح السياق .

المسلمين^(١) القرآن فقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بقائمة الكتاب ، والمُصَلَّى مُنَاجٍ رَبَّهُ » قال لآدم : أَذْكَرُ مَا عَلَّمْتُكَ لِلْمَلَائِكَةِ . وقال لنا : نَاجِي يَاعَبْدِي بِمَا عَلَّمْتُكَ^(٢) . وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخدم بما لا يُلاطَفُ به آبائهم .

ويقال : لَمَّا عَلَّمَ آدَمَ أَسْمَاءَ المَخْلُوقَاتِ قال له : أَخْبِرِ المَلَائِكَةَ بِذلك ، وَعَلَّمْنَا كَلَامَهُ وَأَسْمَاءَهُ قَالَ : إقْرَأُوا عَلَيَّ وَخَاطِبُوا بِهِ مَعِيَ .

ويقال : عَلَّمَ الأَرْوَاحَ القرآنَ — قَبْلَ تَرْكِيبِهَا فِي الأَجْسَادِ بِلا واسطة^(٣) ، والصبيانُ إِنَّمَا يُعَلِّمُونَ القرآنَ — فِي حَالِ صِغَرِهِمْ — قَبْلَ أَنْ عَرَفَتْ أَرْوَاحُنَا أَحَدًا ، أَوْ سَمِعْنَا مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا . . عَلَّمْنَا أَسْمَاءَهُ :

أَنَا فِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبِي فَارْغًا فَتَكُنَّا
ويقال : سَقِيًا لِأَيَّامٍ مَضَتْ — وَهُوَ يُعَلِّمُنَا القرآنَ .

ويقال : بِرَحْمَتِهِ عَلَّمَهُمُ القرآنَ ؛ فَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَى القرآنَ — لَا بِقِرَاءَةِ القرآنَ يَصِلُونَ إِلَى رَحْمَتِهِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .
« الإنسان » : هَاهُنَا جِنْسُ النَّاسِ ؛ عَلَّمَهُمُ الْبَيَانَ حَتَّى صَارُوا مُتَمَيِّزِينَ^(٤) — فَافْضَلُوا بِالْبَيَانِ عَنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ . وَعَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ وَيَتَخَاطَبُونَ بِهِ .
وَالْبَيَانُ مَا بِهِ تَبَيَّنَ الْمَعْنَى — وَشَرَحَهُ فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ .

ويقال : لَمَّا قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ رَدَّ اللَّهُ — سَبْعَانَهُ — عَلَيْهِمْ وَقَالَ : بَلْ عَلَّمَهُ اللَّهُ ؛ فَالْإِنْسَانُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقِيلَ هُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
ويقال : الْبَيَانُ الَّذِي خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ (عُمُومًا) يَعْرِفُ بِهِ كَيْفِيَّةَ مَخَاطَبَةِ الْأَغْيَارِ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالْأَشْكَالِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ فَبَيَانُهُمْ هُوَ عِلْمُهُمْ كَيْفِيَّةَ مَخَاطَبَةِ مَوْلَاهُمْ — وَبَيَانُ

(١) هَكَذَا فِي مَوْحِي فِي ص (الْمُسْلِمُونَ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النِّسخ .

(٢) أَنْظَرِ كِتَابَنَا (الْبَسْمَلَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِبَادَةِ وَأَهْلِ الْإِشَارَةِ) وَرَأَيْنَا فِي مَعْنَى (الرَّحْمَنِ) .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى يَوْمِ الدَّرَجَةِ .

(٤) يَتَشَدَّدُ الْهَاءُ وَفَتْحُهَا عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْبَيَانَ عَلَامَةٌ تُمَيِّزُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَهَكَذَا عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْبَيَانَ وَسِيلَةٌ أَنْفَرِدَ بِهَا الْإِنْسَانُ لِلتَّصْوِيرِ عَمَّا تَكُنْهُ نَفْسُهُ لِتُمَيِّيزِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ .

العبيد مع الحق مختلف : قومٌ يخاطبونهُ بلسانهم ، وقومٌ بأفاسهم ، وقومٌ بدموعهم :

دموعُ الفقى عما يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبدين ما هو بكم

وقومٌ بأنينهم وحنينهم :

قل لي بالسنة التنفس كيف أنت وكيف حالك ؟

قوله جل ذكره : « الشمس والقمر يحسبان » .

يعنى يجرى أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب . فى زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر وتنصانه ، وتعرفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام . وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأجل . . فالشمس تُكَوِّرُ والقمرُ يَنكَدِرُ .

وكذلك لشمس^(١) للعارفِ وأقارِ العلوم — فى طلوعها فى أوج^(٢) القلوبِ والأسرار — فى حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجرِيها على ما سبق به الحكمُ .

قوله جل ذكره : « والنجم والشجر يسجدان » .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق^(٣) ، والشجر : ماله ساق .

ويقال : النجوم المطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ « يسجدان » سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال .

قوله جل ذكره : « والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » .

سَمَكَ السماءَ وأعلاها ، وعلى وصفِ الإقتانِ والإحكامِ بناها ، والنجومَ فيها أجراها ، وبثَّ فيها كواكبها ، وحفظَ عن الاختلالِ مناكيها ، وأثبتَ على ما شاء مشارقها ومغاربها . . وخلقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ فى المعاملاتِ بينهم .

ويقال : الميزانُ العدلُ .

« أَلَا تَطْفَؤُنَا فى الميزان »

(١) هكذا بالمفرد فى م وهى فى ص بالجمع (شمس) ونرجح أنها بالمفرد حسبما نعرف من أسلوب القشيري فشمس الحقائق واحدة إذا طلعت غطت نورها أقمار العلوم .

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (روح) فلا معنى لما هنا .

(٣) لأنه ينجم عن الأرض بلا ساق مثل القول (النسي - ٤ ص ٢٠٧) .

احفظوا المدل في جميع الأمور؛ في حقوق الأعميين وفي حقوق الله، فيعتبر المدل، وترك الحيف ومجاوزة الحد في كل شيء؛ ففي الأعمال يعتبر الإخلاص، وفي الأحوال الصدق، وفي الأنفاس الحقائق ومساواة الظاهر والباطن وترك المداينة والخداع والسكر ودقائق الشرك وخفايا النفاق وغوامض الجنيات .

« وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

(وأقيموا الوزن بالكيل الذي يحبون أن تُسكَّالوا به ، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف)^(١) .

قوله جل ذكره : « والأرض وضعها للأنام » فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان » .

خلق الأرض وجعلها مهاداً ومشوى للأنام .

ويقال : وضعها على الماء وبسط أقطارها ، وأثبت أشجارها وأزهارها ، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارها .

« فيها فاكهة . . » يعني ألوان الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونعمها وضررها ، وحرارتها وبرودتها . . وغير ذلك من اختلاف في حبها وشجرها ، وورقها ونورها .

« والنخل ذات الأكمام » وأكمام النخل ليفها وما يُفطِّئها من السَّعف .

« والحب » : حب الخنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحبوب .

« ذو العصف » : والعصف ورق الزرع^(٢)

(١) ما بين القوسين مضطرب في النص حاولنا تنقيحه ليعطى معنى .

(٢) قال الضحاك : العصف التين ، وقال بعضهم العصف هو المأكول من الحب ، والريحان النضيج الذي لم يؤكل . وقال أبو مالك : العصف أول ما يثبت تسبب النبيط هبوراً . وقال بعضهم : العصف ورق الخنطة . (البخاري ٣٠ ص ١٣١) . وسميت الرياح مواسف لأنها تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطائه .

« والريحان » الذى يُشَمُّ . . . ويقال : الرزق لأن العرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله ،
ذَكَرْهُمْ عَظِيمَ مَنِّهِ عَلَيْهِمْ ، مَا خَلَقَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ مَّا كَوَلَاتِ
ومشروبات وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ »

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَجْحَدَانِ ؟ وَالْآلَاءُ النِّعَمَاءُ .

والتثنيةُ فى الخطاب للمُسْكَلِّينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ .

ويقال : هى على عادة العرب فى قولهم : خَلِيقًا ، وَفِيًّا ، وَأَرْحَاحًا بِأَغْلَامٍ ، وَأَزْجَرًا
بِأَغْلَامٍ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »

« الْإِنْسَانُ » : يعنى آدم ، وَالصَّلْصَالُ الطِينُ الْيَابِسُ الَّذِى إِذَا حُرِّكَ صَوَّتَ كَالْفَخَّارِ .
ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُنْتَنٌ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ صَلَّ وَأَصْلٌ إِذَا تَغَيَّرَ .

« وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ »

المارج : هو اللهب المختلط بواد النار

« فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَكْذِبَانِ »

يُذَكَّرُ الْخَلْقُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كَمَا سَبَقَ — وَكَرَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ
على جهة التفرير بالنعمة على التفصيل ، أَى نعمة بعد نعمة .

ووجهُ النعمة فى خلق آدم من طين أنه رَقَاهُ إِلَى رَتْبَتِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ .

ويقال ذَكَرَ آدَمَ نَسَبَهُ وَذَكَرْنَا نَسَبَتَنَا لثَلَاثَةِ نَعَجِبَ بِأَحْوَالِنَا .

ويقال عَرَفَهُ قَدْرَهُ لثَلَاثَةِ مَعْنَى ^(١) طَوْرَهُ .

(١) مكداى ص و هـ فى م (لا يبدو) .

قوله جل ذكره : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » فَبَأَى
آلَاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ .

« المشرقين » : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما .

ووجه النعمة في ذلك جريانها على ترتيب واحد حتى يكمل انتفاع الخلق بهما .
ويقال : مشرق القلب ومغرب ، وشوارق القلب وغواربه إنما هي الأنوار والبصائر
التي جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى .

قوله جل ذكره : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ » بينهما بَرْزَخٌ
لا يَبْغِيَانِ .

« برزخ » أى حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أراد به البحر العذب والبحر
الملح . ويقال : لا يبغيان على الناس ولا يفرقانهم .

« يُخْرِجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ »

اللؤلؤ : كبار الدرر ، والمرجان : صغار الدرر . ويقال : المرجان النُّل .

وفي الإشارة : خَلَقَ في القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . ويقال القبض والنبط
وقيل الهيبة^(١) والأنس . يُخْرِجُ منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية .

ويقال : البحران . إشارة إلى النفس والقلب ، فالقلب هو البحر العذب والنفس هي البحر
الملح . . فن بحر القلب كلُّ جوهر ثمين ، وكلُّ حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق
ذميم^(٢) . والدرر من أحد البحرين يخرج ، ومن الثاني لا يكون إلا التماسح مما لا تَحْذَرُ له
من سواكن القلب . « بينهما برزخ لا يبغيان » : يصون الحق هذا عن هذا ، فلا يبغي هذا
على هذا .

قوله جل ذكره : « وَهِيَ الْجَوَارِ الْتُنَشَّاتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ »

« الجوارى » : واحدة جارية ، وهي السفينة .

(١) هكذا في م وهي الصواب أمّا في ص فهي (المهبط) وهي غلط في النسخ .

(٢) النفس عند الصوفية محل المملولات والقلب محل المحمودات .

« الأعلام » : الجبال

(له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأنها الجبال العالية)^(١) .

قوله جل ذكره : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز . ومن حيث الخبر : ستفنى الدنيا ومن عليها و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . « والوجه » : صفة لله — سبحانه — لم يدل عليه العقل قطعاً ودل عليه جوازاً ، وورد الخبر بكونه قطعاً .

ويقال : في بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا محالة شرطها قيامها بنفسه وذاته . وقائدة تخصيص الوجه^(٢) بالذكر أن ما عداه يُعرَفُ بالعقل ، والوجه لا يُعَلَمُ بالعقل ، وإنما يُعرَفُ بالنقل والأخبار . و « يبقى » : وفي بقاءه . سبحانه . خَلَفَ عن كل تلف^(٣) ، وتولية للمسلمين عما يصيبهم من المصائب ، ويفوتهم من المواهب . قوله جل ذكره : يسأله مَنْ في السموات والأرض كُلٌّ يوم هو في شأن .

أهل السموات يسألون أبدأً للفقرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والفقرة ، أى لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم : مَنْ شَقَلَهُ ذِكْرِي عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين^(٤) .

ويقال : ليس كلُّ مَنْ في السموات والأرض يسألونه مما في السموات والأرض ولكن :

بين المحيين سرُّ ليس يُفْشِيهِ قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيهِ

(١) ما بين القوسين مستدرك في هامش الورقة بالنسخة ص

(٢) مقطعت لفظة (الوجه) من النسخة م .

(٣) مكذا في م وهي في ص (تالف) وهي صحيحة ولكن السياق والموسيقى الداخلية تتأكد بـ (تلف) .

(٤) « من شغلته ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » رواه البخارى في التاريخ ، والبراز

في المستند ، والبيهقى في الشعب من حديث عمر بن الخطاب .

« كل يوم هو في شأن » من إحياء وإماتة ، وقبض قوم وبسط قوم .. وغير ذلك من فنون المخلوقات ، وما يُجرّيه عليها من اختلاف الصفات .

وفي الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا : إنَّ اللهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً ، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن ، ولو أُخِلَّ العالم لحظةً من حِفْظِهِ لتلاشى وبطلَ .

(ومن شأنه أن يفتقر ذنباً ، ويستتر عيباً ، ويذهب كرباً)^(١) ، وبطيَّب قلباً ، وبُقيص عبداً ويُدني عبداً ... إلى غير ذلك من فنون الأفعال . وله مع عباده كل ساعة برٌّ جديدٌ ، وسيرٌ^(٢) بينه وبين عبده — عن الرقباء — بعيد .

ويقال : كل يوم هو في شأنٍ سَوَّقِ القادير إلى أوقاتها .

ويقال : كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسترٍ ظاهرٍ ، وإحضارٍ غائبٍ وتغييبٍ حاضرٍ .

قوله جل ذكره : « سَتَقْرِغُ لَكُمْ أَيْةَ النَّقْلَانِ »^(٣) .

أى للحساب يومَ القيامة — وليس به اشتغال ... تعالى اللهُ عن ذلك .

ومعنى الآية : سنقصده لحسابكم .

قوله جل ذكره : « يَا مَعْشَرَ الْحِينَ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ

إِلَّا بِسُلْطَانٍ » .

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها . أى إن قدرتم أن تخرجوا من ملككم فخرجوا .

(١) هذا الرأي أيضاً لأبي البرداء (البخاري ج ٢ ص ١٢١) .

(٢) مكذا في م ، أما في ص فهي (يُسَر) وقد رجعتنا الأولى لأن (الس) يكون بعيداً عن الرقباء .

(٣) (النقلان) = الإنس والجن سعيًا بذلك لأنهما ثقلا الأرض .

ثم قال : « لا تنفذون إلا بسلطان » . أى لا تصلون إلى موضع إلا وهناك سلطانى ومُنكى ولا تنفذون فى قُطرٍ إلا وهناك عليكم حجة^(١) .

قوله جل ذكره : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ » .

أى فلا تنتصمان . والشواظُ : اللهبُ من النار لا دخانَ معه . والنحاسُ : الصفرة^(٢) المذاب . قوله جل ذكره : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » .

ينفكُ بعضها عن بعض وتصير فى لون الورد الأحمر . ويقال : بها القُرُشُ الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أى كدمن الزيت وهو دردى الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلون لونها ، إذ تكون فى الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبعد ذلك إلى الغبرة — فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ فى القيامة .

قوله جل ذكره : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ » .

أراد فى بعض أحوال^(٣) القيامة لا يسألون ، ويسألون فى البعض فى يوم القيامة طويلاً .

ويقال : لما كانت لهم يومئذٍ علامات : فلكفارٍ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات — فاللائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أتم ؟ لأنهم يعرفون كُلاًّ بسياهم .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (وجهه) . فإذا قبلنا (حجة) فيكون المعنى أنكم أينما توجهتم فى بقاع السموات والأرض تستجدون دائماً برهاناً على وحدانية الله ، وشاهداً على ربوبيته . وإذا قبلنا (وجهه) فهى على معنى : « فأينما تولوا فثم (وجه) الله » .

(٢) الصفرة = النحاس الأصفر .

(٣) أحوال القيامة هنا بمعنى مواطن القيامة فى ذلك اليوم الطويل . وربما كانت (أحوال) .

ويقال : لا يُسألون سؤالاً يكون لهم ويُسألون^(١) سؤالاً يكون عليهم^(٢) .
قوله جل ذكره : « يُعَرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَامِهِمْ فَيُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » .
المؤمنون غُرّاً مُحَجَّلُونَ ، والسكَّارُ سود الوجوه زُرْقُ العيون ، فيعرف الملائكة هؤلاء ،
فيأخذون بنواصيرهم ، ويَجْرُونَهم مرةً بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقوهم في النار ، ويطرحونهم
في جهنم :
« هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون
• يطوفون فيها وبين حميم آن » .

يقال لهم : هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون !
« حميم » : ماء حارٌّ . « آن » تنامي في النضج
قوله جل ذكره : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ
يَقَالُ : لِمَنْ خَافَ قُرْبَ رَبِّهِ مِنْهُ واطَّلَاعُهُ عَلَيْهِ .
ويقال : لمن خاف وقوفه غداً بين يدي الله — جنتان ، ولقطة التثنية هنا على العادة في قولهم :
خليلى ونحوه .
وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، مُعَجَّلَةٌ في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح^(٣) الوقت ،
ومؤجَّلَةٌ في الآخرة وهي جنة الثواب . ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما
يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم .

« ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » فبأى آلاء ربكما تكذبان
فيهما غيثنان تجريان .

دلَّ على أن الجنتين في الآخرة . والأفنان الأغصان . وهي جمع قن .

(١) سقطت (ويسألون) هذه من م وموجودة في ص وهي ضرورية .
(٢) هذه المحاولات التي بلغها التفسير مقصود منها — حسبنا نظر — التوفيق بين هذه الآية وبين آيات أخرى
مثل : « فوريك لنساءهم أجمعين » ومثل « وقومهم إنهم مشعلون » .
ومن قبيل هذه المحاولات قول قتادة : « حَسِبَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِ الْقَوْمِ وَتَكَلَّمَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .
(٣) هكذا في م وهي في ص (بروح) .

ويقال : ذواتنا ألوان من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشبهه النفسُ والعينُ — وتكون جمع فن .
 « فيهما عينان تجريان » إحداهما التسليم ، والأخرى السلبيل .
 ويقال : عينان تجريان غداً لمن كان له — اليوم — عينان تجريان بالدموع .
 « فيهما من كلِّ فاكهة زوجان » .
 زوجان أى صنفان وضربان ؛ كالرطب واليابس ، والعنب والزبيب .
 ويقال : إنها في نهاية الحسن والجودة .

« مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطُهَا مِنْ
 إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » .

بطاطنها من استبرق فكيف بظواهرها ؟ . « والبطائن » : ما يلي الأرض . « والاستبرق » :
 الديباج الغليظ . وإنما خاطبهم على قَدْرِ قَهْمِهِمْ ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشبه ما في
 الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أَفْهَامِهِمْ^(١) .

« وجنى الجنتين دان » : أى ما يجتنى من ثمرها — إذا أرادوه — دنا إلى أفواههم فتناولوه
 من غير مَشَقَّةٍ تناولهم . وفي الخبر المسند : « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ
 أَكْبَرُ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ أَصْلُهَا الذَّهَبُ وَفَرْعُهَا الدَّرُّ وَطَلْعُهَا كُنْدَى الْأَبْكَارِ أَلَيْنَ
 مِنَ الزَّيْتِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، كَمَا أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا عَادَ كَمَا كَانَ » — وذلك قوله : ودنا
 الجنتين دان .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم .

قوله جل ذكره : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
 إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » .

أى في الجنان حورٌ قَصَرْنَ عِيونَهُنَّ عن غير أزواجهن .
 وإذا كانت الزوجات قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأولى بالعبد إذ رجا لقاءه
 — سبحانه — أن يقصر طرفه ويقضه عن غير مُباحٍ .

(١) هذا رأى على حاسب كبير من الأهمية يوضح مدى تصور القشيري لنعيم الجنة وابتعادها عن المحسات .

بل عن الكل . . إلى أن يلقاه .

ويقال : من الأولياء مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ — وإن أُمِيعَ لَهُ ذَلِكَ لِتَحَرُّرِهِ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَلَعَلَّ هِمَّتَهُ عَنِ الْخَلُوقَاتِ ^(١) — وَأَنْشَدُوا :

جُنُنًا بَلَيْلَى وَهِيَ جُنْتُ بَغِيرَتَا

وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٍ لَا تُرِيدُهَا

ويقال : هُنَّ لَمَنْ قَصُرَتْ يَدُهُ عَنِ الْحَرَامِ وَالشَّبَهَةِ ، وَطَرَفُهُ عَنِ الرَّبِّ .

« لَمْ يَطْمَئِنَّ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » : لَمْ يَصْحَبْنِ غَيْرُ الْوَلِيِّ وَلَمْ يَحْزَنْ غَيْرَهُ ، وَفِي الْخَبَرِ .
اشْتَقَّتِ الْجَنَّةُ لثَلَاثَةً ^(٢) .

« كَانِهِنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » .

أى : فِي صِفَاءِ الْيَاقُوتِ وَلَوْنِ الْمَرْجَانِ .

قوله جل ذكره : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ » .

يقال : الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ مِنْ اللَّهِ وَالثَّانِي مِنَ الْعَبْدِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالنَّصْرَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْخِدْمَةِ ؟ وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالْوَلَاءِ إِلَّا أَنْ يَحْسِنَ لَنَا بِالْوَفَاءِ ؟ .
وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعَبْدِ وَالثَّانِي مِنَ اللَّهِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْقَبُولِ وَالثَّوَابِ ؟ .

وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ حَيْثُ الْخِدْمَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ النِّعْمَةِ ؟
وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْإِحْسَانُ مِنَ الْحَقِّ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ فِي الْإِبْتِدَاءِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِ فِي الْإِتِّهَاءِ ؟ وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ فَاتَحْنَاهُ بِاللُّطْفِ إِلَّا أَنْ تُرَبِّيَ لَهُ فِي الْفَضْلِ وَالْعَطْفِ ؟ .

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيري في موضوع « الرخصة » .

(٢) إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : عل وعمار وسلمان .

(الترمذي عن أنس ، ورواه الطبراني ورجال رجال الصحيح غير أبي ربيعة الأيادي . وقد حسن الترمذي حديثه . قاله الحافظ الهيثمي) و يرجع أن الموضع الصحيح الخبر هو بعد النص الشعري السابق ، و يرجع أيضا أن السبب في استشهاد القشيري بهذا الخبر هنا هو إثبات اشتياق الجنة لأهل الخصوص ، بينما هؤلاء الزهاد الثلاثة لا أرب لهم في الدارين ، لأنهم ياتون بربهم .

ويصح أن يكون كلاهما من العبد ؛ أى : هل جزاء من آمن بنا إلا أن يثبت في المستقبل على إيمانه ؟ وهل جزاء من عقدَ معنا عقد الوفاء إلا أن يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟ .

ويقال : هل جزاء من بعدَ عن نفسه إلا أن تُقربَه مِنَّا ؟

وهل جزاء من فنيَ عن نفسه إلا أن يبقى بنا ؟ .

وهل جزاء من رفعَ لنا خطوة إلا أن نكافئه بكل خطوة ألف خطوة ،

وهل جزاء من حفظَ لنا طريقَه إلا أن نُكرِمَه بلقائنا ؟ .

قوله جل ذكره : « ومن دونهما جنتان » .

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكرتا ؛ جنتان أخريان . وليس يريد دونهما في الفضل ، ولكن يريد « جنتان » سواهما^(١) .

« مَدَامَتَانِ » .

أى : خضراوان خضرة تضرب إلى السواد . فالدهمة السواد^(٢) والفعل منه ادهام والاسم منه مَدَاهِمٌ ، واللون مدهامة ، ولشبهة اللون مدهامتان .

« فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ » :

والتضخُ قورانُ العينِ بالماء .

« فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَتَمَخُلٌ وَرُمَّانٌ »

الأسماء متشابهة . . والعيون^(٣) فلا .

« فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » .

(١) قارن ذلك برأى النفس الذى يقول : هما جنتان من دون ثوبك الجنتين الموعودتين للمقربين وهما لمن دونهم من أصحاب الجنة . وفي موضع آخر من تصفية ذاتها يقول النفس : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين لأن مدهامتان دون (ذواتنا أفنان) ونضاختان دون (تجريان) وفاكهة (دون كل فاكهة) (النفس - ٤ ص ٢١٣) .

(٢) هذا رأى الخليل أيضاً .

(٣) ربما يقصد القشيري (و الأعيان) فهذا هو الاصطلاح المألوف استعماله في علمي الفلسفة والكلام - بل إن القشيري نفسه يستعمله في مثل هذا الموضع . والمقصود أن القرآن يتحدث عن نعيم الجنة حسب أفهام الناس ، ولكن الأعيان غير الأسماء .

أى : حورٌ خَيْرَاتُ الأخلاقِ حِسانُ الوجوه . واحدها خَيْرَةٌ والجمع خَيْرَاتٌ وهذا هو الأصل
ثم خَفَّفَ فصارت خيرات .

« حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام » .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلَّاتِ ، مقصورٌ القلب
عن الغفلات ، مقصور السَّرُّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال .

وفي بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ في فرسخ لها ألف باب^(١) .
ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفي الخبر : أنهن يلقن : نحن
الناعمات^(٢) . فلا نبؤس ، الخاللات فلا نبيد ، الراضيات فلا فسخط .

وفي خبر عن عائشة رضى الله عنها : أن المؤمناتِ أجَبْنَهُنَّ : نحن المصلياتُ وما صَلَّيْنَهُنَّ ،
ونحن الصائماتُ وما صُئِمْنَهُنَّ ، ونحن المتصدقاتُ وما تَصَدَّقْتِنَّ ، قالت عائشة يغلبهن قوله .
« لَمْ يَعْطِيَهُنَّ^(٣) إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » .

قوله جل ذكره : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ
وعبقريٍّ حِسانٍ » .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابي والوسائد — وهى خُضِرٌ وعبقريٌّ
حسان : العبقري عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوشَى .

قوله جل ذكره : « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

مضى تفسيره .

(١) حدثنا محمد بن المنثري قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد : حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله
ابن عيسى عن أبيه : أن رسول الله (ص) قال : إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية
منها أهل ما يرون الآخريين يطوف عليهم المؤمنون .. البخاري ٣٨ ص ١٢٢ . وذكر ابن جرير الطبري أن الخيمة
لؤلؤة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (٢٧٨ ص ٨٤) .

(٢) «نحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ، نحن الخاللات فلا نموت أبداً ..» رواه الترمذي عن علي ، وقال :
حديث غريب . ورواه البيهقي . وأبو نعيم عن أبي أوفى في صفة الجنة ، وذكره السراج في الجمع ص ٢٤٥

(٣) الطمث : الجماع بالنعمة

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسم جبار من اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه ، فإنَّ أُنْبِيَاءَ إِلَّا تَمَادِيًا فِي عَصِيَانِهِ
حَالٌ يَنْفَعُ بَيْنَ اخْتِيَارِهِ ^(١) بِقَهْرِ سُلْطَانِهِ ، وإنَّ لم يُلَازِمْ هَذِهِ ^(٢) الطَّلَاعَةُ أَجْلَاءُ بِالْبَلَاءِ فَيَأْتِيهَا
بِاضْطِرَارِهِ .

اسمٌ عَزِيزٌ أَزَلِيٌّ ، جَبَّارٌ صَدِيدٌ ، قَهَّارٌ أَحَدِيٌّ ، لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ ، وَبِالْعَاصِينَ حَفِيٌّ ،
لَيْسَ لِحَالِهِ كُفْيٌ ، وَلَا فِي جَلَالِهِ سَمِيٌّ ، لَكِنَّهُ ^(٣) الْمُعَصَاةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ .

قوله جل ذكره : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوَقْعَتِهَا
كَأَذِيَّةٌ » .

إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ .

« كَأَذِيَّةٌ » هَاهُنَا مَصْدَرٌ : كَالْعَاقِبَةِ ، وَالْعَاقِبَةُ ، أَيْ : هِيَ حَقَّةٌ لَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ ، وَلَيْسَ
فِي وَقْعِهَا كَذِبٌ .

يُقَالُ : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ قَمَنْ سَلَكَ مِنْهَا جُذُوعُ الصَّحَّةِ وَالْإِسْتِقَامَةُ وَصَلَ إِلَى السَّلَامَةِ وَلَقِيَ
الْكَرَامَةَ ، وَمَنْ حَادَّ عَنْ نَهْجِ الْإِسْتِقَامَةِ وَقَعَ فِي النَّدَامَةِ وَالْإِنْرَامَةِ ، وَعِنْدَ وَقْعِهَا يُتَبَيَّنُ الصَّادِقُ
مِنَ الْمَازِقِ :

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى
« خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ »

(١) مَكْدَا فِي ص وَهِيَ فِي م (إِحْسَانُهُ) .

(٢) مَكْدَا فِي م وَهِيَ فِي ص (شِدَّةُ) الطَّلَاعَةِ .

(٣) مَكْدَا فِي م ، وَفِي ص تَوَجَّدَ كَلِمَةً غَيْرَ وَاضِحَةٍ الْكِتَابَةِ .

« خافضة » : لأهل الشقاوة ، « رافعة » : لأهل الوقار .

« خافضة » : لأصحاب الدعاوى ، « رافعة » : لأرباب المعاني .

« خافضة » : للنفوس ، « رافعة » : للقلوب .

« خافضة » : لأهل الشهوة ، « رافعة » : لأهل الصفة .

« خافضة » : لمن جحد ، « رافعة » : لمن وَّحد .

قوله جل ذكره : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » .

حُرِّكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً .

قوله جل ذكره : « وَبُئِتِ الْجِبَالُ بَسًا » فكانت

هباءً مُنْبَتًا .

فَتَنَّتْ فكانت كالهباء الذي يقع في الكوَّة عند شعاع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ

الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * وَأَصْحَابُ

الْمَشْأَمَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ *

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » .

« ما أصحاب اليمين » ؟ على جهة التفضيم لشأنهم والتعظيم لقدرهم ، (وهم أصحاب اليمين

والبركة والثواب) ^(١) .

« ما أصحاب المشأمة » : على جهة التعظيم والمبالغة في ذمهم ، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال :

أصحاب اليمين هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يوم النِّزْ ، وأصحاب للمشأمة

هم الذين كانوا على شماله .

(١) موجود في ص وغير موجود في م .

ويقال : الذين يُعْطَوْنَ الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ ، والذين يُعْطَوْنَ الْكِتَابَ بِشَاهِدِهِمْ .
 (ويقال : هم الذين يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ .. إلى الجنة ، والذين يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشِّمَالِ ..
 إلى النار) (١) .
 « والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى انحصال الحميدة ،
 ((والأفضال الجميلة)) (٢) .

ويقال : السابقون إلى الهجرة . ويقال : إلى الإسلام . ويقال : إلى الصلوات الخمس .
 ويقال : السابقون بصدق القدم . ويقال : السابقون بملكوهم . ويقال : السابقون إلى
 كل خير . ويقال السابقون للتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى الندم إن لم
 يتسارعوا بصدق القدم .

ويقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه :
 « أولئك الْمُتَقَرَّبُونَ »
 ولم يقل : الْمُتَقَرَّبُونَ ، بل قال : أولئك الْمُتَقَرَّبُونَ — وهذا عين الجمع ، فعلم الكافة
 أنهم بتقريب ربهم سبقوا — لا يتقربهم (٣)

« في جنات النعيم »
 أى : في الجنة (٤) . ويقال : مقربون إلا من الجنة فعال أن يكونوا في الجنة ثم يُقَرَّبُونَ
 من الجنة ، وإنما يُقَرَّبُونَ إلى غير الجنة : يُقَرَّبُونَ من بساط القربة ..
 وأنى بالبساط ولا بساط ؟ مقربون .. ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛
 مُقَرَّبَةٌ نفوسهم من الجنة وقلوبهم إلى الحق .
 مُقَرَّبَةٌ قلوبهم من بساط المعرفة ، وأرواحهم من ساحات الشهود — فالحق عزيز ..
 لا قُربَ ولا بُعدَ ، ولا فصلَ ولا وصالَ .

(١) موجودة في م وغير موجود في ص .

(٢) موجود في م وغير موجود في ص .

(٣) هذه إشارة إلى أن العمل الإنساني — وحده — لا يعول عليه إذا فُيس بالفضل الإلهي .

(٤) يتحدث القشيري هنا في ضوء حال الفرق والجمع .

ويقال : مقربون ولكن من حظوظهم ونعيمهم . وأحرأهم — وإن صفت — فالحق وراء الورا .

تراك جلى ذكره : «ثلاثة بين الأولين » وقليل من الآخرين» .

الثلة : الجماعة . ويقال : ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبينا على الله عليه السلام .

ويقال : ثلة من الأولين : من السلف وقليل من المتأخرين : من الأمة .

« على سرير موضوعة » (١) .

أى منسوجة نسيج الدرع من الذهب . جاء فى التفسير : طول كل سرير ثمانية ذراع ، إن أراد الجلوس عليه تواضع ، وإن استوى عليه ارتفع .

« متكئين عليها متقابلين » .

أى لا يرى بعضهم قفا بعض . وصفتهم بصفاء المودة وتهذب الأخلاق .

« يطوف عليهم ولان مخلدون » .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يرحلون ولان فى سن واحدة . لا يهرمون .

وقيل : مقرطون (الخلدنة . القرط)

« بأكواب وأباريق وكأس من

معين » لا يصدعون عنها ولا ينزفون» .

« بأكواب » جمع كوب وهى آنية بلا عروة ولا خرطوم ، « وأباريق » : جمع إبريق

وهو عكس الكوب (أى له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم فى شربهم إياها ، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون ، ولهم طير مما يشتهون ، وحور عین ، كأمنال اللؤلؤ

المكتون ، أى : النسون ، جزاء بما كانوا يعملون .

(١) وتحسن الثوب نسجه بالجوهر ، فهو واضح وهى واضحة والمفعول موضحون .

قوله جبر، ذكره : « لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا *
إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

اللفو : الباطل من القول ، والتأيم : الإثم والهديان
ولا يسمعون إلا قِيلًا سَلَامًا ، وسَلَامًا : نعت للقليل .

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » : لا شك فيه ، « وطلح
منضود » : والطلح شجر الموز ، متراكم تضيد بعضه على بعض .
« وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » كما بين الإسفار^(١) إلى طلوع الشمس^(٢) . وقيل : ممدود أى دائم .
« وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ » : جَارٍ لا يتعبون فيه .

« وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ » : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .
« وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » لم . وقيل : أراد بها النساء^(٣) .

« إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا » أى الحور العين .
« عُرُبًا » : جمع عَرُوبٍ^(٤) وهى الفَنَجَةُ المتحبة إلى زَوْجِهَا . ويقال عرباً : أى مُتَشَهِّيات
إلى أزواجهن .

« أَتْرَابًا » : جمع تَرَبٍّ ، أى : هُنَّ عَلَى سِنٍّ واحدة .

« لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » : أى خلقناهن لأصحاب اليمين .

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » : أى : ثلة من أولى هذه الأمة ، وثلثة من
أُخْرَاهَا .

« وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ * فِي سَمُومٍ وَحِيمٍ » : والسَّمُومُ فيحُ جهنم وحرُّها .
والحيم : الماء الحار .

(١) طلوع الفجر أو الصبح .

(٢) سقطت (الشمس) من م .

(٣) لأن المرأة يكنى عنها بالفراش .

(٤) جاء عند البخارى : عروبٌ مثل : صبور يسميها أهل مكة : العَرَبِيَّةُ وأهل المدينة : الفَنَجَةُ ، وأهل

العراق : الشَمَكِلَةُ (البخارى ٣ ص ١٢٢) .

« وظلٌّ من يحموم » ، وهو الدُّخان الأسود .

« لا باردٍ ولا كرم » : لا بارد : أى لا راحة فيه . ولا كرم : ولا حسنٍ لهم ؛ (حيث لا نفع فيه) .

« إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفِينَ » : أى : كانوا فى الدنيا مُتَمَتِّعِينَ .

« وكانوا يُصِرُّون على الحِنْتِ العظيم » أى الذَّنْبِ العظيم .

« وكانوا يقولون أئذا مِتْنَا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ » أى : أنهم يُكذِّبون بالبعث .

ثم يقال لهم : « إنكم أيها الضالون المُكذِّبون » اليوم « لا تكون من شجرةٍ من زقوم » وجاء فى التفسير : أن الزقوم شجرة فى أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافر فى جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

« فالثَّوْن منها البطون » فشاربون عليه من الحميم « شرابٌ لا تهأون به » فشاربون شُرْبَ الحميم : وهى الإبل العطاش . ويقال : الحميم أى الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه . « هذا نُزْلُهُم يومَ الدِّين » : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناكم فلو لا تُصدِّقون » . نحن خلقناكم : يا أهل مكة — فهلاً آمَنتُمْ لتتخلصوا ؟ توبُّخون وتمكِّتبون .. واليوم تَعْتَذِرُونَ ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسمعُ منكم شيء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهِم وأوجاعِ أعضائِهِم إلى التَّحَسُّر على ما فاتهم فى حقِّ الله .

ويقال : أشدُّ البلاء — اليوم — على قلوب هذه الطائفة (١) خوفُهُم من أن يُسْفَلَهم — غداً — بمقاساة آلامهم عن التَّحَسُّر على ما تكدَّرَ عليهم من للشارب فى هذا الطريق . وهذه محنةٌ لا شيء أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحاب القلوب — اليوم — يتهاونون إليه ويقولون : إن

(١) يتصد الصوفية .

حَرَمْتَنَا مَشَاهِدَ الْأُنْثَى فَلَا تَشْفَلْنَا بِذَاتِ تَشْفَلْنَا عَنِ التَّحَسُّرِ عَلَى مَا فَاتَنَا ، وَلَا بِآلَامِ تَشْفَلْنَا
عَنِ التَّأْسُفِ عَلَى مَا عَدِمْنَا مِنْكَ .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * » أأنتم تخلقونه
أم نحن الخالقون ؟ » .

يقال : مَنَى الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى : هل إذا باشرتم وأنزلتم وانمقد الولد .. أأنتم تخلقونه
أم نحن الخالقون ؟ والخلق هاهنا : التصوير ؛ أى : أأنتم تجمعون صورَ المولود وترَكِّبون
أعضاءه .. أم نحن ؟ .

وهم كانوا يَقْرئون بالنشأة الأولى فاحتجَّ بهذا (على جواز النشأة الأخرى عند البعث
الذى كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ في) (١) إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خَلْقَةِ الإنسان من
قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو اللبى وقطرة من تربية الأم (٢) ، وتجتمع القطرتان في
الرَّحِمِ فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التى هى أجزاء الإنسان من العظم
والعصب والمِرْقِ والجِلْدِ والشَّعْرِ .. ثم يركبها على هذه الصور فى الأعضاء الظاهرة وفى الأجزاء
الباطنة حيث يُشكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعظام بكيفية خاصة . . إلى غير ذلك .
وليس يخلو : إمَّا أن يكون الأبوان يصنعانه — وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر علمهما
وقُدْرتهما عن ذلك وتمنُّهما الولدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون !
والنطفة أو القطرة مُحالٌ تقديرُ فعلها فى نفسها على هذه الصورة لكونها من الأموات
بعْدُ ، ولا عِلْمُ لها ولا قدرة .

أو مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ .. وبالضرورة يُعَلِّمُ أنه لا يجوز .
فلم يَبْقَ إِلَّا أن الصانع القديمَ الْمَلِكَ الْعَلِيمَ هو الخالق (٣) .

قوله جل ذكره : « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمُسْبِقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ
وَنُنَفِّسَكُمْ فَيَأْتِيَكُمْ فَتَاتُكُمْ » .

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) تربية الأم عظمة الصدر والجسم ترائب .

(٣) هذا نموذج طيب يصور طريقة التشيرى متكلماً .

يكون الموتُ في الوقت الذي يريدُه ؛ منكم مَنْ يموتُ طفلاً ومنكم من يموتُ شاباً ،
ومنكم من يموتُ كهلاً ، ويعملُ مختلفه وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة .

« وما نحن بمسوقين » في تقديرنا فيقوتنا شيء ، ولَسْنَا بملجزين عن أن تَخْلُقَ أمثالكم ،
ولا بملجزين عن تبديلِ صُوركم التي تملون ؛ إن أردنا مَسْخَكم وتبديلِ صُوركم فلا يمنعنا
عن ذلك أحدٌ .

ويقال : ونشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة (١) .

قوله جل ذكره : « ولقد عَلِمَ النشأة الأولى فلولا
تَذَكُّرون » .

أى : أأنتم أقررتم بالنشأة الأولى .. فهَلَّا تَذَكُّرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة ؛ إذ هي في معناها (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُمُونَ » أأنتم
تَزَرِّعُونَهُ أم نحن الزارعون ؟

أى : إذا أقيمَ الحبُّ في الأرض .. أأنتم تُنْبِتُونَهُ أم نحن السَّائِغُونَ ؟ وكذلك وُجُوهُ
الحِكْمَةِ في إنبتِ الزَّرْعِ ، وأقسامِ الحَبِّ الواحدةِ على الشجرة النابتة منها (في قِشْرِها ولحائها
وجذعِها وأغصانها وأوراقها وثمارها) (٣) — كل هذا :

« لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَمَ
تَفَكَّهُونَ » .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بحد خضرته ، فصِرْتُمْ تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه ،
وإففاقكم عليه ، ثم تقولون :

« إِنَّا لَمُعْرَمُونَ » بل نحن محرمون «

أى : لَمُزِمُونَا غرامة ما أشتقنا في الزَّرْعِ ، وقد صار ذلك غُرماً علينا — فالغرم مَنْ
ذَهَبَ إِفْاقُهُ بغيرِ عِوَضٍ .

(١) وضع هذا السطر في مكان تالي بعد (في معناها) فنقلناه إلى موضعه الصحيح .

(٢) أى أن الإعادة لا تفرق في شيء عن الخلق الأول .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في س .

« بل نحن محرومون » بل نحن محرومون بمد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جل ذكره : « أفرايتُم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه مِن المُنزِل أم نحن المنزِلون * لو نشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » .

أأنتم أنزلتموه من السحاب .. أم نحن نُنزِلُهُ متى نشاء أننى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفًا في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية ، في القِلَّة وفي الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحًا .. أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ الله — سبحانه — عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خَلَقَهَا لكم .

قوله جل ذكره : « أفرايتُم النار التي توردون * أأنتم أنشأتم شجَرَتَهَا أم نحن المنشِئون * نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمُقوين » .

وَرَى الزَّيْتُونَ يَرْبِي فَهُوَ وَارٍ .. وَأَوْرَاهُ يُوْرِيهِ أَيْ يَقْدَحُهُ .

يعنى : إذا قدحتم الزيت .. أرايتُم كيف تظهر النار — فهل أنتم تخفون ذلك ؟

أأنتم أنشأتم شجَرَتَهَا — يعنى المَرْخَ والمَعْفَارَ^(١) — أم نحن المنشِئون ؟

« نحن جعلناها تذكرة » : أى يمكن الاستدلالُ بها .

« ومتاعاً للمُقوين » : يقال : أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أى : الأرض الخالية .

فالعنى : أن هذه النار « تذكرة » يتذكَّرُ بها الإنسان ما توعد به في الآخرة من نار

جهم ، و « متاعاً » : يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة .

(١) المرخ : شجر ينفرش ويطول في السماء ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى يُتقدح به .
والمعار : شجيرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لبيّ أسمر ، ويتخذ منها الزناد فيسرع الورى . وفي أمثال العرب : « فى كل شجر نار واستجد المرخ والمعار » .

قوله جل ذكره : « فسبح باسم ربك العظيم »
 أى : اسبح بفكرك في بحار عقلك ، وغصن بقوة التوحيد فيها تظفر بجواهر العلم ، وإياك
 أن تقصر في الفوص لسبب أول آخر ، وإياك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك
 ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك . . وإلا غرقت في بحار الشبهة ، وضللت .
 وهذه الآيات ^(١) التي عدّها الله — سبحانه — تمهيداً لسلوك طريق الاستدلال ، فسما
 في الخبر « ففكر ساعة خير من عبادة سنة » — وقد نبّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة
 التفكير .

قوله جل ذكره : « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه
 لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن
 كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه
 إلا المطهرون * تنزيل من رب
 العالمين » .

قيل : هي مواقع نجوم السماء : ويقال : مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله
 عليه وسلم .

« إنه لقرآن كريم » : والكرم نفى الدناءة — أى : أنه غير مخلوق ^(٢) ويقال : هو « قرآن
 كريم » : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريم لأنه من عند رب كريم على رسول كريم ، على لسان ملك
 كريم . « في كتاب مكنون » : يقال : في اللوح المحفوظ . ويقال : في المصاحف . وهو محفوظ
 عن التبديل . « لا يمسه إلا المطهرون » عن الأدناس والعيوب والمعاصي .

(١) إذا تدبرنا هذه الآيات ألفينا القرآن يخاطب العقل الإنساني بالتدبر في ثلاثة أشياء : الغذاء والماء والنار ،
 وبدون الثلاثة لا تقوم الحياة ولا تنتظم .

(٢) هذه إحدى الأفكار الخطيرة التي اشتجر حولها الخلاف بين الأشاعرة الذين يقولون : (القرآن غير
 مخلوق) وبين المعتزلة الذي يقولون : إنه مخلوق .

ويقال : هو خَيْرٌ فيه معنى الأمر : أى لا ينبغي أن يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُطَهَّرًا
من الشُّرْكِ . . . الأحداث (١) .

ويقال : لا يد طَعْمَهُ وَيَرَكَّهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ .

ويقال : لا يقربه إِلَّا المَوَحِّدُونَ ، فأما الكفار فيكرهون سماعه فلا يقربونه .

وقرى المَطَهَّرُونَ : أى الذين يُطَهَّرُونَ نفوسهم عن الذنوب والخلقِ الدنى .

ويقال : لا يَمَسُّ خَيْرُهُ إِلَّا مَنْ طَهَّرَ يَوْمَ القسمة عن الشقاوة .

ويقال : لا يَفْهَمُ لطائفة إِلَّا مَنْ طَهَّرَ سرَّهُ عن الكون (٢) .

ويقال : المَطَهَّرُونَ سرائرهم عن غيره .

ويقال : إِلَّا المُحْتَرَمُونَ له القائمون بحَقِّه .

ويقال : إِلَّا مَنْ طَهَّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة

« تنزيلٌ من ربِّ العالمين » : أى مُنْزَلٌ من قِبَلِهِ — سبحانه .

قوله جل ذكره : « أفبهذا الحديث أنتم مُذهِّبون »

وتجملون رِزْقَكُمْ أنكم تُكذِّبون .

أبهذا القرآن أنتم تُناقضون ، وبه تُكذِّبون .

« وتجملون رِزْقَكُمْ . . . » : كانوا إِذْ أُمِيطُوا يقولون : أُمِيطَنا بِنَوءٍ كذا .

يقول : أتجملون بَدَلْ إِنْعامِ اللَّهِ عليكم بِالْمَطَرِ الكفرانَ به ، وتتوهمون أن المطرَ — الذى

هو نعمةٌ من الله — من الأنواء والكواكب ١٩ .

ويقال : أتجملون حِفْظَكُمْ ونصيبَكُمْ من القرآنِ التَّكْذِيبَ ؟ .

قوله جل ذكره : « فلولاً إِذَا بَلَغَتِ الحُلُقُومَ » وأنتم

جِيئَئِدْ تَنْظُرُونَ » ونحنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ .

(١) هى هنا جمع حَدَّثَ أى النجاسة التى ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم .

(٢) لتذكر أن هذا الكتاب الذى وضعه القشيري هو لفهم (لطائف الإشارات) القرآنية ، ولتدرك دأبه

قد ساءت هذا اللون من التفسير وأهله .

يُخاطَبُ أولياء الميت^(١) فيقول : هَلَا إِنْهَا بَلَغَتْ رَوْحُهُ المَقُومَ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا المَرِيضِ ، رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَحَقَّقْتُمْ بِهِ ؟ فَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَا وَالْقُدْرَةِ . . وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ !

وَيَقَالُ : أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الْحَقِّ عِنْدَمَا يَتِمُّ اسْتِيْلَاؤُهُ ذِكْرَهُ وَشَهَادَتُهُ عَلَيْهِ ، فَيَنْتَفِي إِحْسَاسُ الْعَبْدِ بِغَيْرِهِ ، وَعَلَى حَسَبِ انْتِفَاءِ الْعِلْمِ وَالْإِحْسَاسِ بِالْأَغْيَارِ — حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ — يَكُونُ تَحَقُّقُ الْعَبْدِ فِي سِرِّهِ حَتَّى لَا يَرَى غَيْرَ الْحَقِّ .

فَالْقُرْبُ وَالْبَعْدُ مَعْنَاهُمَا : أَنَّ الْعَبْدَ فِي أَوَانِ صَحْوِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ — بَعْدُ — عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِذَا أُخِذَ عَنْهُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا الْحَقُّ . . لِأَنَّهُ حَيْثُ لَا قُرْبَ وَلَا بَعْدَ .

قوله جل ذكره : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

ليس لكم من أمر الموت شيء .

« تَرْجِعُونَهَا » أَيْ : تَرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى الْجَسَدِ .

« إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » : فِي أَنَّهُ لَا بَعْثَ^(٢) .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ » .

الْمُقَرَّبُونَ هُمُ الَّذِينَ قَرَّبَهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ ، فَلَهُمْ « رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ » .

وَيَقَالُ : الرُّوحُ الْإِسْتِرَاحَةُ ، وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ .

وَقِيلَ : الرُّوحُ فِي الْقَبْرِ ، وَالرَّيْحَانُ : فِي الْجَنَّةِ .

(١) فِي م (الْبَيْتِ) وَفِي ص (الْمَيْتِ) وَهَذِهِ هِيَ الصَّوَابُ .

(٢) نَشْمُرُ أَنَّ تَفْسِيرَ التَّشْيِيرِ هُنَا مُقْتَضِبٌ ، وَيُلْزَمُ التَّوَضُّيْحُ : تَرْتِيبُ الْآيَةِ هُوَ : فَلَوْلَا تَرْجِعُونَهَا إِذَا بَلَغَتْ المَقُومَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . . أَمَّا نَحْنُ فَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ المَيْتِ بِقُدْرَتِنَا وَعِلْمِنَا أَوْ بِمَلَائِكَةِ المَوْتِ . أَمَّا أَنْتُمْ . . فَمَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ الرُّوحَ إِلَى الْبَدَنِ بَعْدَ بُلُوغِهِ المَقُومَ إِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ قَابِضٍ وَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَعْطِيلِكُمْ وَكُفْرِكُمْ بِالْحَقِّ المَيْتِ وَالْمُهَيَّءِ المَعِيهِ ؟ !

ويقال : لا يخرج مؤمنٌ من الدنيا حتى يوتى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشبهه قبل خروج روحه ، فالرُّوح راحةٌ عند الموت ، والريحان في الآخرة .

وقيل : كانت قراءة النبي (ص) « الرُّوح » بضم الراء أى لم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرُّوحُ لقلوبهم ، والريحان لنفوسهم ، والجنةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجَنَّةٌ نعيمٌ في الآخرة .

ويقال : رَوْحٌ وريحانٌ مُعَجَّلَان ، وجنة نعيمٍ مؤجلة .

ويقال : رَوْحٌ للعابدين ، وريحانٌ للعارفين ، وجَنَّةٌ نعيمٍ لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نسيم القرب ، وريحان كمال البسط ، وجنة نعيمٍ في محل المناحة .

ويقال : رَوْحُ رؤية الله ، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة ، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ »

فسلامٌ لك من أصحاب اليمين » .

أن نخبرك بسلامة أحوالهم .

ويقال : سترى فيهم ما تحب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك في بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تشغل قلبك بهم

ويقال : فسلامٌ لك — أيها الإنسان — إنك من أصحاب اليمين ، أو أيها الإنسان الذي من أصحاب اليمين .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُسْكذِبِينَ

الضَّالِّينَ » فَنُزِّلَ مِنْ جَحِيمٍ »

وتصليَةُ جَحِيمٍ » .

إن كان من المكذبين لله ، الضالِّين عن دين الله فله إقامةٌ في الجحيم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » .

هذا هو الحق اليقين الذي لا محالة حاصلٌ .

« فسبح باسم ربك العظيم » أى قدس الله عما لا يجوز فى وصفه .

ويقال : صلّ الله . ويقال : اشكر الله على عصمة أمّتك من الضلال ، وعلى توفيقهم فى اتباع سنّتك .

سُورَةُ الْحَدِيدِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي بِهِ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ وَمَعَالَى — قُلُوبَ أَحِبَّائِهِ ، فَإِذَا شَرِبُوا طَرِبُوا ، وَإِذَا طَرِبُوا انْبَسَطُوا ^(١) ، ثُمَّ لَشُهود حَقِّهِ ^(٢) تَرْضَوْنَ ، وَبِنَسِيمِ قُرْبِهِ اسْتَأْنَسُوا ^(٣) ، وَعِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِهِمْ غَابُوا . . . فَتَوَلَّاهُمْ تُسْتَفَرَّقُ ^(٤) فِي لُطْفِهِ ، وَقُلُوبُهُمْ تُسْتَهْلَكُ فِي كَشْفِهِ .

قوله جل ذكره : « سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

التَّسْبِيحُ التَّقْدِيسُ وَالتَّنْزِيهِ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى سِبَاحَةِ الْأَسْرَارِ فِي بَحَارِ الْإِجْلَالِ ، فَيُظْفَرُونَ بِجَوَاهِرِ التَّوْحِيدِ وَيَنْظُمُونَهَا فِي عَقُودِ الْإِيمَانِ ، وَيُرْصَعُونَهَا فِي أَطْرَاقِ الْوَصْلَةِ :
وقوله « مَا » فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُرَادُ بِهِ « مِنْ » فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَسْجُدُونَ لِلَّهِ طَوْعًا وَكَرْهًا ؛ طَوْعًا تَسْبِيحَ طَاعَةٍ وَعِبَادَةٍ ، وَكَرْهًا تَسْبِيحَ عِلَامَةٍ وَدَلَالَةٍ .

وَيُحْمَلُ « مَا » عَلَى ظَاهِرِهَا فَيَكُونُ الْمَعْنَى : مَا مِنْ مَخْلُوقٍ مِنْ عَيْنٍ أَوْ أَثَرٍ إِلَّا وَيَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ ، وَعَلَى إِثْبَاتِ جَلَالِهِ ، وَعَلَى اسْتِحْقَاقِهِ لِنَعُوتِ كِبَرِيَّاتِهِ .

(١) انبسطوا أى : ذاقوا حال البسط . ويعمل العارف إلى التقبض والبسط بعد حال الرجاء والخوف . والمبسوط قد يكون فيه بسط يسهل الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال (الرسالة ص ٣٥) .

(٢) شهود حق الله لا يتم إلا بعد اختفاء حظوظ العبد .

(٣) من الأنس . مثل الجنيد عنه فقال : هو ارتفاع الحشة مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون عنه فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

وسئل الشبل عنه فقال : هو حشاك منه (التعرف للكلاباذي ص ١٢٦، ١٢٧) .

(٤) ضبطناها مكلداً مبليةً للمجهول لأن المفروض أن شمس الحقيقة يستغرق نورها نجوم العقول .

ويقال : يُسبح لله ما في السموات والأرض ، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهد الطلب ...
ولكنه — سبحانه عزير^(١).

ويقال : ما تقلب أحدٌ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد ، فما يُصرّفهم إلا مَنْ
خلَقهم ؛ فمن مطيعٍ ألبسه نطق وفاقه — وذلك فضله ، ومن عاصٍ ربطه بمنقطة الخذلان —
وذلك عدله .

« وهو العزيز الحكيم » : العزيز : المَعزُ لِمَنْ طَلَبَ الوصول ، بل العزيز : المتقدِّسُ عن كل
وصول . . . فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظُّه ونصيبه وصفته على ما يليق به .

قوله جل ذكره : « لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ » وهو على كل شيء قدير .

الملِكُ مبالغةٌ من الملِك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مالِكٌ إلا الله . وإذا قيل لغيره :
مالك فعلى سبيل المجاز ؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلِكِ الناس صحيحة في الشرع ،
ولكن لفظ المِلِك فيها توسعٌ كما أن لفظ التيمم في استعمال التراب — عند عدم الماء — في
السفر مجازٌ ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة ، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز .

« يُحْيِي وَيُمِيتُ » : يُحْيِي النفوس ويميتها . وَيُمِيتُ القلوب بإقباله عليها ، ويميتها بإعراضه عنها .
ويقال : يحياها بنظره وتفضله ، ويميتها بقهره وتعزُّزه .

قوله جل ذكره : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

« الأول » : لاستحقاقه صفة القِدَم ، و « الآخر » لاستحقاقه نعت العَدَم .

و « الظاهر » بالعلو والرفعة ، و « الباطن » : بالعلم والحكمة .

ويقال : « الأول » فلا افتتاح لوجوده و « الآخر » فلا انقطاع لثبوته .

« الظاهر » فلاخفاء في جلال عزِّه ، « الباطن » فلا سبيل إلى إدراك حَقِّه .

ويقال « الأول » بلا ابتداء ، و « الآخر » بلا انتهاء ، و « الظاهر » بلاخفاء ، و « الباطن »

بنعت العلاء وعزِّ الكبرياء .

(١) أي سلَّمت الصمدية أن يستشرف من ذاتها أحد .. فكل واقف بالباب على البساط .

ويقال « الأول » بالناية ، و « الآخر » بالمداية ، و « الظاهر » بالرعاية ، و « الباطن » بالولاية .

ويقال : « الأول » بالخلق ، و « الآخر » بالرزق ، و « الظاهر » بالإحياء ، و « الباطن » بالإماتة والإفناء .

قال تعالى : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم » (١) .

ويقال : « الأول » لا بزمان ، و « الآخر » لا بأوان ، و « الظاهر » بلا اقتراب ، و « الباطن » بلا احتجاب .

ويقال : « الأول » بالوصلة ، و « الآخر » بالخلقة ، و « الظاهر » بالأدلة ، و « الباطن » بالبعد (٢) عن مشابهة الجملة (٣) .

ويقال : « الأول » بالتعريف ، « والآخر » بالتكليف ، « والظاهر » بالتشريف ، « والباطن » بالتخفيف (٤) .

ويقال : « الأول » بالإعلام ، « والآخر » بالإلزام ، « والظاهر » بالإنعام ، « والباطن » بالإكرام .

ويقال : « الأول » بأن اصطفاك « والآخر » بأن هداك ، « والظاهر » بأن رعاك ، « والباطن » بأن كفاك .

ويقال (٥) : مَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ اسْمُهُ « الأول » كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي حَدِيثٍ سَابِقَتُهُ : بِمَاذَا سَمَّاهُ مَوْلَاهُ ؟ وَمَا الَّذِي أَجْرَى لَهُ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ ؟ أَسْعَادَتُهُ أَمْ بَشَقَاتُهُ ؟ .

(١) آية ٤٠ سورة الروم .

(٢) سقط - (بالبعد) في النسخة م وموجودة في ص

(٣) المقصود (بالجملة) هنا جملة المخلوقات .

(٤) هكذا في م وهي في ص (بالتحقيق) وهذه وإن كانت - صحيحة إلا أن السياق الموسيقي الذي جرى عليه المصنف يرجع (بالتخفيف) على معنى أنه علم ضعف عباده فلم يكلفهم فوق طاقتهم .

(٥) هذه الفقرة هامة في بيان أن الصوفية حينما يتصالحون لدراسة الأسماء والصفات يهتمون بالآداب ؛ والبلوغ وكيف يتخلق الصوفي بأخلاق الله ويتأدب بأسمائه أنظر مقدمة كتاب ؛ التعبير في التذكير بتحقيق بسبوف .

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الْآخِرِ» كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي : بِمَاذَا يُخْتَمُ لَهُ حَالُهُ؟ وَإِلَّا،
يَصِيرُ مَا لَهُ؟ أَعَلَى التَّوْحِيدِ يُخْرَجُ مِنْ دُنْيَاهُ أَوْ — وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ — فِي النَّارِ غَدًا — مَثْوَاهُ ؟
وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الظَّاهِرِ» فَاشْتَغَلَهُ بِشُكْرِ مَا يَجْرِي فِي الْحَالِ مِنْ تَوْفِيقِ
الْإِحْسَانِ وَتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَجَمِيلِ الْكَفَايَةِ وَحُسْنِ الرِّعَايَةِ .

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الْبَاطِنِ» كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي اسْتِبْهَامِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ فَيَتَعَذَّرُ
وَلَا يَدْرِي . . أَفْضَلُ مَا يَعَامَلُهُ بِهِ رَبُّهُ أَمْ مَكْرُومٌ مَا يَسْتَدْرِجُهُ بِهِ رَبُّهُ ؟

وَيَقَالُ : «الْأَوَّلُ» عِلْمٌ مَا يَفْعَلُهُ عِبَادُهُ وَلَمْ يَمْنَعْهُ عِلْمُهُ مِنْ تَعْرِيفِهِمْ ، «وَالْآخِرُ» رَأْيُ
مَا عَمِلُوا وَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ مِنْ غَفْرَانِهِمْ «وَالظَّاهِرُ» لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَلَيْسَ يَدَّعُ
شَيْئًا مِنْ إِحْسَانِهِمْ «وَالْبَاطِنُ» يَعْلَمُ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ خُسْرَانِهِمْ وَتَقْصَانِهِمْ فَيُدْفَعُ^(١) عَنْهُمْ
فَنُونَ يَحْزَنُهُمْ وَأَحْزَانُهُمْ .

قوله جل ذكره : «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» .

مضى الكلام في ذلك .

«يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا» .

أَيُّ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقَطْرِ ، وَالْكُنُوزِ ، وَالْبَنُورِ ، وَالْأَمْوَاتِ الَّذِينَ يُدْفَنُونَ
فِيهَا ، «وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا» مِنَ النَّبَاتِ وَانْفِجَارِ الْعَيُونِ وَمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمَعَادِنِ .
«وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ» .

مِنَ الْمَطَرِ وَالْأَرْزَاقِ . أَوْ مَا يَأْتِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْوَحْيِ .

«وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا» .

أَيُّ مَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَطَاعَاتِ الْعِبَادِ ، وَدَعَوَاتِ الْخَلْقِ ، وَصَحَفِ الْمَكَلَّفِينَ ،
وَأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) مِمَّا إِشَارَةٌ لِنَعْمِ الدَّفْعِ أَوْ الْمَنْعِ الَّتِي لَا يَفْطَنُ إِلَيْهَا النَّاسُ .

« وهو معكم أينما كنتم والله
بما تعملون بصير » .

« وهو معكم » بالعلم والقدرة .

ويقال (١) : « يعلم ما يلج في الأرض » إذا دُفِنَ الْعَبْدُ فَاللهُ سبحانه يعلم ما الذي كان
في قلبه من إخلاص في توحيدِهِ ، ووجوه أحزانه خسرانه ، وشكّه وجحوده ، وأوصافه
الحمودية والمذمومة . . ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

« وما ينزل من السماء » على قلوب أوليائه من الألفاظ والكشوفات وفنون الأحوال
العزيزة .

« وما يمرج فيها » من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت ، وحسراتهم إذا علّت .
قوله جل ذكره : « يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » .

مضى معناه .

قوله جل ذكره : « آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا
جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

صَدَّقُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَصَدَّقُوا « مما جعلكم مستخلفين فيه » بتخليكم ذلك وتصديره
إليكم . والذين آمنوا منكم وتصدقوا على الوجه الذي أمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ ؛ فَإِنَّ مَا تَحْوِيهِ
الْأَبْدَى مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ عِمَارَةً حَالَهُ ، وَالشَّقِيُّ
مَنْ سَارَ فِيمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَالَ مَالَهُ .

قوله جل ذكره : « وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالرَّسُولِ
يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

(١) هذه الفقرة استدراك أثبتته القشيري متأخراً عن موضعه الأصل قبلها .

أى شيء لكم فى تَرْكِكُمْ الإيمان بالله وبرسوله ، وما أتاكم به من الحشر والنشر ، وقد أراح العِلَّةَ بأنَّ الآخَ لكم الحُجَّةَ ، وقد أخذَ ميثاقكم وقتَ الذِّرِّ ، وأوجب عليكم ذلك بمُحكِّمِ الشَّرْعِ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَوِّفٌ رَحِيمٌ » .

ليُخْرِجَكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلماتِ الشكِّ إلى نور اليقين .

وكذلك يُريهم فى أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السُّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون

فيه النفع والخير ؛ فيخرجهم من ظلماتِ التدبير^(١) إلى سعة قضاء التفويض ، وملاحظة فنون

جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الجنوحَ إلى الرُّخَصِ والأخذِ بالتخفيف^(٢) وما تكون عليه

المطالبةُ بالأشَقِّ — فإن بادَرَ إلى ما تدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ فى قلبه من النور ما يَعْلَمُ به ظلمةُ

مواجهِ النَّفْسِ^(٣) .

قوله جل ذكره : « وما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ

وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

ما فى أيديكم ميراثه الله ، وعن قريبٍ سَيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتناول أحمالكم . وهو

بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعة وتركِ الإخلادِ إلى الأمل . . ثم قال :

« لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ

قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً

(١) أى ظلمات التدبير الإنسانى ، والتعميل على النفس ، فاعتماد الإنسان على تدبيره مجلبة لشقائه . . وأنَّى للطين

أن يكون ذا تدبير ؟ !

(٢) هكذا فى موعى الصواب أما (التخفيف) التى فى موعى خطأ فى النسخ ؛ لأن الاسير خاص جنوح^١ إل

(التخفيف) كما نعلم

(٣) يتفق هذا مع قول الرسول الكريم «استفت قلبك ولو أفطاك المفتون» .

من الذين أنفقوا من بعدُ وقَاتلوا
وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

لا يستوى منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك . بل أولئك
أعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء ؛ لأنَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك
أشقَّ على أصحابه^(١) .

ثم قال : « وكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى » إلا أنَّ فضيلة السَّبقِ لهم ، ولهذا قالوا :
السَّباقَ السَّباقَ قولاً وفعلًا حَذَّرَ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

قوله جل ذكره : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا فُضِّعَ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

المراد بالقرض الصدقة ، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطليلاً لقلوبهم ، فكان المتصدق
وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المُستقرض .

ويقال « يقرض » أى يفعل فعلاً حسناً ، وأراد بالقرض الحسن ما هنا ما يكون من وجه
حلال ثم عن طيب قلب ، وصاحبه مخلص فيه ، بلا رياء يشوبه ، وبلا من على الفقير ،
ولا يُكدِّره تطويل الوعد ، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض .

ويقال : أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين^(٢) ، ففي الخبر : « خير الصدقة ما كان
عن ظهر غنى »^(٣) وَمَنْ لَمْ يَتَحَرَّرْ مِنْ شَيْءٍ نَفَرَتْ عَنْهُ تَكْلَفٌ^(٤) .

(١) لأن الإسلام لم يكن بعد . قد عز واستمكن وانتشر في الأرجاء .

(٢) أى دون أن يكون قصدك على ما تفعل عوضاً أو عرضاً سواء في الدنيا أو في الآخرة إذ يكن أن تعلم
أى شرف لك أن : تُقْرِضَ اللَّهَ !!

(٣) حدث الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله
(ص) قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعمل » البخارى ص ٣٠١ (كتاب النفقات) .

(٤) هكذا في ص وهي في م « تكلف » كما أثبتنا لأن السياق يقتضى ذلك . وتوجد بعد (تكلف) عبارة منهية
في الخط والمضى ، تشبه أن تكون : (وهو على من يصل إليه ربي به) .

قوله جل ذكره : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى

نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم
اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

وهو نور يُعطى للمؤمنين والمؤمنات بقدر أعمالهم الصالحة ، ويكون لذلك النور مطارح
شعاع يمشون فيها والنور يسعى بين أيديهم ، ويحيط جميع جهاتهم .
ويقال : « وبأيمانهم » كتبهم .

« بشراكم اليوم جنات » أى بشارتكم اليوم — من الله جنات . وكأأن لهم فى الرضة
هذا النور فالיום لهم فى قلوبهم وبواطنهم نور يمشون فيه ، ويهتدون به فى جميع أحوالهم ، قال
صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ينظر بنور الله » وقال تعالى : « فهو على نور من ربه » (١) .
وربما ينسبط ذلك النور على من يقرب منهم . وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً —
ولأوليائه — لا محالة — هذه الخصوصية .

قوله جل ذكره : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين

آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » .

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبس من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعطون كتبهم
وهم فى النور ، فإذا مروا . . . انطلق النور أمام المنافقين وسبق المؤمنون ، فيقول المنافقون
للمؤمنين : انتظرونا حتى نقتبس من نوركم . فيقول المؤمنون :

« قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا »

أى إلى الدنيا وأخلصوا ! — تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين فى الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى حكم الأزل فاطلبوا (٢) هذا من القسمة ١ — وهذا على جهة ضرب

المثل والاستبعاد .

(١) آية ٢٢ سورة الزمر .

(٢) هكذا فى م (فاطلبوا) وقد آثرنا الأول لأنها أكثر فى الاستبعاد — وهو المقصود .

« فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » .

« بسور : وهو جَبَلُ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ ، يَسْتَرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ ، فَالْوَجْهُ الَّذِي يَلِي
الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَفِي الْوَجْهِ الْآخَرِ الْعَذَابُ » .

قوله جل ذكره : « ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ،
ولكنكم فتنتم أنفسكم ... » .

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمعاشرة ؟
قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ..

« وَتَرَبَّصْتُمْ ، وَارْتَبْتُمْ ، وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وْغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » .

تربصتم عن الإخلاص ، وشككتم ، وغرركم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جل ذكره : « فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْأَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبئسَ المصيرُ » .

النارُ ماؤاكم ومصيركم ومُتَقَلِّبُكُمْ .

وهي « مولاكم » أي هي أوَّلَى بكم ، وبئس المصير !

ويقال : مخالفة الضمان والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر^(١) ، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار

قوله جل ذكره : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) السياق حديث عن المنافقين وعن الكفار .. وأراد القشيري أن ينقل هذا السياق إلى الجو الصوفي فوجه
تحذيره لأرباب الرياء والدعوى ، أولئك الذين يظنون أنهم إن تعاهدوا بالقيام بموافقة الشريعة وموافقة القوم
فإن الأسرة سريماً ما تكشف المريرة - كل حد تعبده في موضع مماثل .

مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

أَلَمْ يَحْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَتَوَاضَعَ قُلُوبُهُمْ وَتَلِينَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلِلْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمِيزِ ؟
وَأَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ؟ وَأَرَادَ بِهِمُ الْيَهُودَ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ
فَاسِقُونَ كَافِرُونَ .

وَأَرَادَ بِطُولِ الْأَمَدِ الْفَتْرَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ مُوسَى وَنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي الْخَبَرِ :
أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَابَتْهُمْ مَلَالَةٌ فَقَالُوا : لَوْ حَدَّثْتَنَا .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. » فَبَعْدَ مُدَّةٍ قَالُوا :

لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا !

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ... » فَبَعْدَ مُدَّةٍ قَالُوا : لَوْ ذَكَّرْتَنَا
وَوَعَّظْتَنَا !

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَشْبَهُ الْأَسْتِطَاءَ .

وَأَنَّ قَسْوَةَ الْقَلْبِ تَحْصُلُ مِنْ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ ، وَالشَّهْوَةُ وَالصَّفْوَةُ لَا يَجْتَمِعَانِ ؛ فَإِذَا حَصَلَتِ
الشَّهْوَةُ رَحَلَتِ الصَّفْوَةُ . وَمَوْجِبُ الْقَسْوَةِ هُوَ انْحِرَافُ الْقَلْبِ عَنْ مِرَاقَبَةِ الرَّبِّ . وَيُقَالُ : مَوْجِبُ
الْقَسْوَةِ أَوَّلُهُ خَطَرَةٌ فَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ صَارَتْ فِكْرَةٌ وَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ صَارَتْ عَزِيمَةٌ ، فَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ
جَرَتْ الْخَالَفَةُ ، فَإِنْ لَمْ تُتَدَارَكْ بِالتَّلَافِي صَارَتْ قَسْوَةً وَبَعْدَ ذَلِكَ تَصِيرُ طَبْعًا وَرِيئًا^(١)

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : « أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

قَدَيِّنَا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » .

يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا وَإِخْرَاجِ النَّبْتِ مِنْهَا .

(١) رَأَى الثَّوْبَ ، رِيئًا أَيْ تَطْبَعٌ وَتَدَنَسَ ، وَرَأَى النَّفْسَ أَيْ خَبِثَتْ وَغَشَتْ . (الْوَسِيطُ) .

وَيُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ — بعد إعراض الحق عنها — بحسن إقباله عليها (١) .
قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذَقَاتِ وَأَقْرَضُوا
اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ
أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

أى المتصدقين والمتصدقات .
« وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » : يبنى فى النوافل .
« يُضَاعَفُ لَهُمْ » فى الحسنات ، الحسناتُ بعشر أمثالها . . إلى ما شاء الله
« وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » : ثوابٌ كبيرٌ حسنٌ . والثوابُ الكريمُ أَنَّهُ لَا يَضِنُّ بِأَقْصَى الْأَجْرِ
على الطاعة — وَإِنْ قَلَّتْ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ
أَجْرٌ مِّنْ نُورِهِمْ » .

الصَّادِقُونَ : مبالغة فى الصدق ، والشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فالْمُؤْمِنُونَ بمنزلة
الصديقين والشهداء — لهم أجرهم فى الجنة ونورهم فى القيامة .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

والصديق من استوى ظاهره وباطنه .
ويقال : هو الذى يحمل الأمر على الأشق ، ولا ينزل إلى الرخص ، ولا يمنح
للتأويلات .

والشهداء : الذين يشهدون بقرابهم مواطن الوصلة ، ويستكفون بأسرارهم فى أوطان القربة ،
« وَنُورِهِمْ » : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد .

(١) كان المروءى أن تكون البارة مكنتاً :
(ويحيى للقلوب الميتة بعد إعراضه عنها) .
فاستعمال (الحق) فى الإضافة مسأنة لهم أرباب القلوب المتحققين القانين عن الخلق الباتين بالحق .

قوله جل ذكره : « اعلوا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو
وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر
في الأموال والأولاد » .

الحياة الدنيا مُعرَّضة للزوال ، غيرُ لائثة ولا مأكثة ، وهي في الحال شاغلة عن الله ،
مُطمِعة^(١) وغير مُشعبة ، وتجري على غير سنن الاستقامة كجريان لعب^(٢) الصبيان ، فهي تُلهي
عن الصواب واستبصار الحق ، وهي تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد .

« كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ
ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطْلَمًا » .

الكفار : الزُّراع .

هو في غاية الحسن ثم يهبج فتراه يأخذ في الجفاف ، ثم ينتهي إلى أن يتحطم ويتكسر .
« وفي الآخرة عذاب شديد » .

لأهله من الكفار .

« ومغفرة من الله ورضوان » .

لأهله من المؤمنين .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

الدنيا حقيرة — وأحقر منها قدرًا طالبها وأقلُّ منه خطرًا الزاحم فيها ، فما هي إلا جيفة ؛
وطالب الجيفة ليس له خطر . وأخس أهل الدنيا من يخل بها .
وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبد عن الآخرة !

(١) ربما كانت - (مطمِعة) في الأصل ؛ فقد تلبس الدنيا ذات قيمة ولكن في الحقيقة عديمة القيمة .
(٢) في النسختين (لعب) الأطفال ، ومع ذلك فقد آثرنا أن نثبت هنا (لعب) بالرغم من تحمسنا لاستعمال
(اللعب) في موضع سبق ؛ ذلك لأننا نرى إضافة اللعب إلى الصبيان لا يزيد المعنى تأكيداً ، فاللعب ظاهرة فيولوجية
تجري على غير نظام — وهذا هو المطلوب — عند الكبار والصغار على حد سواء ، بينما إضافة اللعب إلى الصبيان تعطي
المعنى المطلوب .

قوله جل ذكره : « سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ
لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » .

أى سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم ، وذلك العمل هو التوبة .
« وجنة عرضها . . . » ذكر عرضها ولم يذكر طولها ؛ فالطول على ما يوافيه العرضُ .
« أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » : وفي هذا دليلٌ على أن الجنة مخلوقة (١) .
« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وفي ذلك ردٌّ على من يقول : « إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات ، ويجب على الله إيفالُ
العبدِ إليها » (٢) . . . لأن الفضل لا يكون واجباً .

ويقال : لما سمعت أسرار المؤمنين (٣) هذا الخطاب (٤) ابتدأت الأرواحُ مُقْتَضِيَةَ المسارعة
من الجوارح ، وصارت الجوارحُ مُسْتَجِيبَةً لِلْمُطَالَبَةِ ، مُسْتَبْشِرَةً بِرعاية حقوق الله ؛ لأنها علمت
أن هذا الاستدعاء من جانب الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

المصيبة حَصْلَةٌ (٥) تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيءٌ

(١) هكذا أيضاً يرى ابن القيم في (اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٢) .
والأشاعرة والسلف يرون ذلك ويرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وأنها باقيةتان .
(٢) هذا رأى المعتزلة الذين اعتبروا ذلك من مقتضيات العمل الإلهي .
(٣) هكذا في م وهي في ص (الموسدين) .
(٤) هكذا في م وهي في م (الخطاة) وواضح فيها خطأ النسخ لأن الأمر متعلق بالفعل (سابعوا ...)
(٥) بمعنى حادث يحصل ، وهي في (غصلة) بانحاء والصواب غصلة . (انظر ما يقوله القشيري في سورة
التغابن عند « ما أصاب من مصيبة » على معنى : (غصن المم غصلا وغصلة) أى وقع بلزق الهدف أو أصابه .

إلا وهو مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العلم ، وحق في الحكم ؛ قبل أن
يخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصيب أو جدير ، من سعة أو ضيق ، من فتنه أو استقامة
وما حصل في النفوس من حزن أو سرور ، من حياة أو موت كلُّ ذلك مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ
قبل وقوعه بزمان طويل .

وفي قوله : « من قبل أن نبرأها » دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه . وللمعبر
في العلم بأن ما يصيبه : من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من الله — أشدُّ السرور
وآتمُّ الأنس ؛ حيث عِلِمَ أنه أَفْرَدَ بذلك بظهور غيبٍ منه ، بل وهو في كنز العدم ،
ولهذا قالوا :

سَقِيَ لِمَهْدِكَ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ قَلْبِي لِلصَّبَابَةِ مَهْدًا^(١)

قوله جل ذكره : « لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

عَدَمُ الفرحَةِ بما آتاهم هو من صفات التحررين من رِقِّ النَّفْسِ ، قِيَمَةُ الرجالِ تبين بتغيرهم
— كَمَنْ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ — بما لا يريد — من جفاء أو مكروه أو محنة فهو كامل ،
وَمَنْ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِالسَّارِ كَمَا لَا يَتَغَيَّرُ بِالضَّارِّ ، وَلَا يَسْرُهُ الْوُجُودُ كَمَا لَا يُحْزِنُهُ الْعَدَمُ —
فهو سَيِّدُ وقته^(٢) .

ويقال : إذا أردت أن تعرف الرجلَ فاطلبه عند الموارِدِ ؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النفسِ بأيِّ
وجهٍ كان :

« وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

(١) وهكذا نرى أن الجبرية عند الصوفية ترتبط بالمحبة القديمة ، قاله البارئ الخالق العبد من العدم .. لن يريد
به إلا الخير .. وحتى لو أصاب العبد تلف .. فمرحباً به فهو تلف في سبيل المحبوب .
(٢) التغير من علامات التلوين ، والنبات في المسار والمضار — عند تقلب الأحوال على العارف — من علامات
التمكين . فسادات الوقت هم أهل التمكين .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها^(١)، والفخر^(٢) (فأفخر) عن رؤية مابه يفتخر .
قوله جل ذكره : «الذين يبخلون ويأمرون الناس
بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو
الغني الحميد» .

بخلوا بكمآن صفة نبينا صلى الله عليه وسلم وأمرؤا أتباعهم بذلك ، وذلك لما خافوا
من كساد سوقهم وبطلان رياستهم .

« ومن يتول » . . عن الإيمان ، أو إعطاء الصدقة « فإن الله هو الغني الحميد » .
والبخل — على لسان العلم — منع^(٣) الواجب^(٤) ، فأما على بيان هذه الطائفة^(٥) فقد قالوا :
البخل رؤية قدر للأشياء ، والبخل الذي يعطى عند السؤال^(٦) ، وقيل : من كتب
على خاتمه اسمه فهو بخيل^(٧) .

قوله جل ذكره : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا
معهم الكتاب والميزان ليقوم
الناس بالقسط » .

أى أرسلناهم مؤيدين بالحجج اللائحة والبراهين الواضحة ، وأزحنا العلة لمن أراد سلوك
الحجة المثلى ، وبسرنا السبل على من آثر اتباع الهدى . وأنزلنا معهم الكتب المنزلة ،
و « الميزان » : أى الحكم بالقرآن ، واعتبار العدل والتسوية بين الناس .
« ليقوم الناس بالقسط » : فلا يظلم أحد أحداً .

(١) هكذا في م وهي أصوب من (زيبتها) التي في م ، فرؤية النفس آفة يحذر منها أرباب الطريق — خاصة
أهل الملاحة .

(٢) إضافة من عندنا حتى يتضح السياق .

(٣) يقصد منع الزكاة المفروضة بحسب علوم الشريعة .

(٤) يقصد طائفة الصوفية .

(٥) أى لا ينتظر حتى يسأله سائل ، وإنما هو يعطى دائماً دون انتظار لدعوة داع أو سؤال سائل .

(٦) لأنه ينبغي أن يكون مستعداً لأعضائه لغيره عند أى ظرف من الظروف ، والمقصود أن يكون في العبد
ليثار الفتيان (راجع فضل الفتوة في رسالة القشيري) .

قوله جل ذكره : « وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ
ومنافعٌ للناسِ وليَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
ورُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

« أنزلنا الحديد » : أى خلقنا الحديد .

ونصرة الله هى نصرته دينة ، ونصرة الرسول باتِّباعِ سُنَّتِهِ .

« إن الله قوى عزيز » : أقوى من أن يُنَازِعَهُ شريكٌ ، أو يضارِعَهُ فى الملكِ ملكٌ ،
وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا
فى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »

أى : أرسلنا نوحاً ، ومن بعده إبراهيمَ ، وجعلنا فى نَسْلِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .
« فمنهم مهتدٍ » .

أى : مستجيبٌ .

« وكثيرٌ منهم فاسقون » .

خرجوا عن الطاعة .

قوله جل ذكره : « ثم قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا
بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
وجعلنا فى قلوب الذين آتبعوه رَأْفَةً
ورَحْمَةً » .

أى : أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم .

« وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ » .

يَبَيِّنُ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُم بِالرَّهْبَانِيَّةِ^(١) بَلْ هُم الَّذِينَ ابْتَدَعُوهَا

(١) الرهبانية هى : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف - صيغة فلان من رهب مثل خشان من حشى ،
وكانوا ينفرون إلى الجبال والصحراوات ليخلصوا من الفتنة فى دينهم ، ويقطعون أنفسهم عن الزواجر والنسل .

ثم قال :

« إِلَّا ابْتَغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » .

هم الذين انفردوا بما عقده معنا (أن يقوموا بحققنا)^(١)

« فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَوُوا » .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ
مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا .

« كَفْلَيْنِ » : أى نصيبَيْن ؛ نصيباً على الإيمان بالله ، وآخر على تصديقهم
وإيمانهم بالرسول .

قوله جل ذكره : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ
أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و « لا » صلة . أى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على
شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ^(٢) ، فإن الفضل بيد الله . و « اليد » هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

(١) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٢) ونظيره قول ابن جني في « لئلا يعلم أهل الكتاب » أى ليعلموا فهي مؤكدة قائمة مقام إعادة الجملة مرة
أخرى . (الإتقان للسيوطي ج ١ ص ١٧١) ط الحلبي .

والإشارة في هذا : اتقوا الله يحفظ الأدب معه ، ولاتأمنوا مكره أن يسلبكم ما وهبكم
من أوقاتكم . وكونوا على حذرٍ من بَغْتَاتٍ تَقْدِيرُهُ في تغيير ما أذاقكم من أنسٍ محبته .
واتبعوا السفراء والرُّسُلَ ، وحافظوا عل اتباعهم حتى يُؤْتِيَكُم نصيبين من فضله :
عصمةً ونعمةً ؛ فالعصمة من البقاء عنه ، والنعمة هي البقاء به .
ويقال : يؤتكم نصيبين : نصيباً من التوفيق في طلبه ، ونصيباً من التحقيق في وجوده^(١)

(١) (الوجود) هنا ليس معناه (فقد العدم) بل هو أعلى درجات الشهود ، فالتواجد بداية ، والوجد واسطة
والوجود نهاية (نظر الرسالة ص ٢٧) .

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ عَرَفَهَا بَدَّلَ الرُّوحَ فِي طَلِبِهَا — وإن لم يَحْفَظْ بوصولها ، كلمةٌ مَنْ طَلِبَهَا اِكْتَفَى بِالطَّلَبِ مِنْ ^(١) قَبُولِهَا .

كلمةٌ جِبَّارَةٌ لَا تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ، كلمةٌ قَهَّارَةٌ لَا يُوجَدُ مِنْ دُونِهَا مُلْتَحِدٌ .

كلمةٌ مِنْهَا بِلَاءُ الْأَحْيَاءِ — لَكِنْ بِهَا شِفَاءُ الْأَحْيَاءِ .

قوله جل ذكره : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ

فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » .

لَمَّا صَدَقَتْ ^(٢) فِي شَكْوَاهَا إِلَى اللَّهِ وَأَيِسَتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ خُرْمِهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ — أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهَا : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ . . . » .

تَضَرَّعَتْ إِلَى اللَّهِ ، وَرَفَعَتْ قِصَّتَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَنَشَرَتْ غُصَّتَهَا ^(٣) بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ — فَنَظَرَ إِلَيْهَا اللَّهُ ، وَقَالَ : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » .

وَيَقَالُ : صَارَتْ فَرْجَةٌ ^(٤) وَرُخْصَةٌ لِلْسَّالِكِينَ إِلَى الْقِيَامَةِ فِي مَسْأَلَةِ الظَّهَارِ ^(٥) ، وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْشُرُ عَلَى اللَّهِ .

وَفِي الْخَبَرِ : أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَوْسًا تَزَوَّجَنِي شَاكِبَةً غَنِيَّةً ذَاتَ أَهْلٍ ،

(١) وتقدير الكلام : اِكْتَفَى مِنَ الْقَبُولِ بِالطَّلَبِ ، أَيْ اِكْتَفَى أَنْ يَشْرَفَ بِطَلِبِهَا وَعَلَى اللَّهِ إِمَامُ الْفَضْلِ بِالْقَبُولِ — وَهَذَا أَسَاسٌ هَامٌ فِي مَنَهِجِ الطَّالِبِينَ وَالسَّالِكِينَ .

(٢) هِيَ خَوْلَةٌ بَفَتْ ثَعْلَبَةً امْرَأَةً أَوْسَ بْنِ الصَّامِتِ أَخِي عِبَادَةَ .

(٣) هَكَذَا فِي صَوْهِهَا فِي م (قِصَّتِهَا) وَقَدْ آثَرْنَا مَا جَاءَ فِي م لَتَوِينِ الْكَلَامِ وَخِدْمَةِ السِّيَاقِ .

(٤) فِي النُّسخَتَيْنِ (فَرْجَةٌ) وَلَا بَأْسَ بِهَا فِي الْمَعْنَى وَلَكِنَّا نَشْعُرُ أَنَّ (فَرْجَةً) تَدْعِمُ السِّيَاقَ عَلَى نَحْوِ آكِدٍ .

(٥) ظَاهِرٌ امْرَأَتُهُ ظَهَارًا أَيْ قَالَ لَهَا : أَنْتِ عَلَى كَظْهِرِ أُمِّي ؛ أَيْ أَنْتِ حَامِي .

ومالٍ كثير ، فلما كبرت سني^(١) ، وذهبَ مالي ، وتفرَّقَ أهلي جعلني عليه كظهرِ أمه ، وقد ندرم وتدرمت ، وإنَّ لي منه صيبةً صفاراً إنَّ ضَمَّتْهُمُ إليه ضاعوا ، وإنَّ ضَمَّتْهُمُ إلى جاعوا .

قال لما الرسول صلى الله عليه وسلم — في رواية — : ما أُمِرْتُ بشيءٍ في شأنك .

وفي رواية أخرى أنه قال لها : بَنَتْ عَنْهُ (أى حرمت عليه) .

فترددت إلى رسول الله (ص) في ذلك ، وشكت .. إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظَّهَارِ .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ

إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ

مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ

لَعَفُوفٌ غَفُورٌ » .

قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِنِسَائِهِمْ — جرباً على عادة أهل الشُّرْكِ — أَنْتِ عَلَى كَظْهِرِ أُمِّي ..
هنا شيءٌ لم يَحْكَمْهُ اللهُ به ؛ ولا هذا الكلامُ في نَفْسِهِ صِدْقٌ ، ولم يثبت فيه شرعٌ ،
ولما هو زورٌ محضٌ وكذبٌ صيرفٌ .

فَصَلِّمَ السَّكَاةُ أَنْ الْحَقَائِقَ بِالتَّلْيِيسِ لَا تَعَزَّزُ^(٢) ؛ وَالسَّبَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً فَبِالْمَعَاوِدَةِ
لَا يَثْبُتُ ؛ فَالْمَرَأَةُ لَمَّا سَمِعَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) قَوْلَهُ : بَنَتْ عَنْهُ — كَانَ وَاجِباً عَلَيْهَا
السَّكُونُ وَالصَّبْرُ ؛ وَلَكِنَّ الْضَرُورَةَ أَنْطَقَتْهَا وَحَمَلَتْهَا عَلَى الْمَعَاوِدَةِ ، وَحَصَلَتْ مِنْ ذَلِكَ
مَسْأَلَةٌ : وَهِيَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَشْيَاءِ يَحْكُمُ فِيهَا ظَاهِرُ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ ؛ ثُمَّ تُغَيَّرُ الْضَرُورَةُ ذَلِكَ
الْحُكْمَ لِصَاحِبِهَا^(٣) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ

(١) وفي رواية : غلا سني ونثرت بطني — أى كثر ولدي .

(٢) ربما كانت في الأصل (لا تنفرد) ومع ذلك فالمرنى هكذا مقبول .

(٣) هذه غمزة رقيقة بأولئك المتشبهين بالظواهر ، ودعوة إلى التريث .

يسودون لما قالوا فتحرير رَقَبَةٍ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ۖ ذَلِكُمْ تَوْعَّظُونَ بِهِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ٤٠ ۝

الظَّهَار — وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع ، فإنه
بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول (ص) ولوَّحَ بشيء ما ، وقال فيه حُكْمُه ، لم يُخَلِّ اللهُ ذلك من
بيانٍ ساق به شرعُه ؛ فقفى فيه بما انتظم جوانب الأمر كله .

فارتفع الأمر حتى واصله إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والتحاكم لديه تحل
المتعدى عناء فعلته ، وأطاد للمرأة حقها ، وكان سبيلاً لتحديد المسألة برُمثها . . . وهكذا فإن
كلَّ صعبٍ إلى زواله . . . وكلُّ ليلةٍ — وإن طالَّت — فإلى إسفار (١) .

قوله جل ذكره : « إِنِّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا
كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقد
أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ » .

الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَيَتْرَكُونَ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَذِلُّوا وَخَذِلُوا ، كما أَذِلَّ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُصَافَةِ .

وقد أجرى الله سُنَّتَه بالانتقام من أهل الإجمام ؛ فَمَنْ ضَيَّعَ لِلرَّسُولِ سُنَّةً ، وأَحْدَثَ
فِي دِينِهِ بِدْعَةً انْخَرَطَ فِي هَذَا السِّلْكِ ، ووقع في هذا الذِّلُّ .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

يقال : إذا حُوسِبَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى عَمَلِهِ تَصَوَّرَ لَهُ مَا فَعَلَ وَتَذَكَّرَهُ ، حتى كأنه قائمٌ
فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَنْ بَسَاطَةِ الزَّلَّةِ ، فيقع عليه من الخجلِ والنَّدَمِ مَا يَنْسَى فِي جَنْبِهِ كُلَّ عَقُوبَةٍ .

(١) حدث تدخل من جاقينا في ترميم هذه الفقرة التي جاءت في النسختين منجمة الكتابة والمعنى .

فَسَبِيلُ الْمُسْلِمِ أَلَّا يَحْجُمَ حَوْلَ مُخَالَفَةِ أَمْرِ مَوْلَاهُ ، فَإِنْ جَرَى الْمَقْدُورُ وَوَقَعَ فِي هِجْةِ التَّقْصِيرِ فَلْتَكُنْ زَكَتُهُ عَلَى بَالٍ ، وَلِيَتَضَرَّعْ إِلَى اللَّهِ بِحُسْنِ الْإِبْتِهَالِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

مَعْنَى الْحَقِّ — سبحانه — وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْعَمُومِ بِالْعِلْمِ وَالرَّوَايَةِ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ بِالْفَضْلِ وَالنَّصْرَةِ — فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ ، ولهم إلى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى التَّوَلُّهِ^(١) فَالْوَلَاءِ فَالْهِمَانِ فِي غَارِ سَمَاعِ هَذَا عَيْشٍ رَاغِدٍ .

وَيَقَالُ : أَصْحَابُ الْكَهْفِ — وَإِنْ جَلَّتْ رَتَبَتُهُمْ وَاخْتَصَّتْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ مَرْتَبَتُهُمْ — فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ »^(٢) وَلَسَا أَنْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ ... » فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ كَلْبُهُ وَبَيْنَ رَابِعُهُ رَبُّهُ !!

وَيَقَالُ : أَهْلُ التَّوْحِيدِ ، وَأَصْحَابُ الْعُقُولِ مِنْ أَهْلِ الْأَصُولِ يَقُولُونَ : اللَّهُ وَاحِدٌ لَا مِنْ طَرِيقِ الْعَدَدِ^(٣) ، وَالْحَقُّ يَقُولُ : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ... » وَيَقَالُ : حَيْثَمَا كُنْتَ فَأَنَا مَعَكَ ؛ إِنْ كُنْتَ فِي الْمَسْجِدِ فَأَنَا مَعَكَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي الْمَصْطَبَةِ فَأَنَا مَعَكَ ، إِنْ طَلَبَ الْعُلَمَاءُ

(١) وَرَدَّتِ التَّأْوِيلُ فِي صِ وَالتَّأْوِيلُ فِي م وَالصَّحِيحُ — فِي نَظَرِنَا — أَنْ تَكُونَ التَّوَلُّهُ ؛ فَهُوَ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي تَسْبِقُ الْوَلَاءَ وَالْهِمَانِ .

(٢) آيَةُ ٢٢ سُورَةِ الْكَهْفِ .

(٣) الْوَاحِدُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَيْسَ عَدَدًا لِأَنَّ الْعَدَدَ هُوَ مَا بَلَغَ نِصْفَ مَجْمُوعِ حَاشِيَتَيْهِ ، وَلَيْسَ قَبْلَ الْوَاحِدِ شَيْءٌ .

التأويل^(١) وشوشوا قلوب أولى المواجه فلا بأس — فأنا معهم .

إن حضرت المسجد فأنا معك يسباغ النعمة ولكن وعداً ، وإن أتيت المصطبة فأنا معك بالرحمة وإسبال ستر المغفرة ولكن نقداً .

هَبَكَ تَبَاعَدْتَ وَخَالَفْتَنِي هَدَرُ أَنْ تَخْرُجَ عَنْ لُطْفِي ١٩

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنْ النُّجْوَى

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا
جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » .

آذَوْا قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانُوا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ^(٢) ، ولم تكن في تناجيهم فائدة
إلا قصدهم بذلك شغل قلوب المؤمنين ، ولم ينهوا عنه لما نهوا عنه ، وأصرُّوا على ذلك
ولم ينزجروا ، فتوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وتكون عقوبتهم بأن تتفاقم الملائكة في بابهم فيما بينهم ،
وحين يشاهدون ذلك تَرَجَّمُ ظُنُونُهُمْ ، ويتعذَّبون بتقسُّم قلوبهم ، ثم لا ينكشف الحال لهم
إلا بما يزيدهم حزناً على حزن ، وأسفاً على أسف .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ

فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ
الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

إنما قُبِّحَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَعَظُمَ الْخَطَرُ لِأَنَّهُ قَضَى إفسادَ ذاتِ البَيِّن ، وخيرُ الأمور ما عاد
بإصلاح ذاتِ البَيِّن ، وبعبارة إذا كان الأمر بضده .

(١) « فإن حجج أهل هذه الطائفة أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب .
والناس : إما أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر .. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛
فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل
الرسال والناس أهل الاستدلال » الرسالة التفسيرية ص ١٩٨ وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٤ ص ١٥ .

(٢) كان اليهود والمنافقون يتفاخرون فيما بينهم وبآيهم بإغابة المؤمنين ، وكانوا إذا أقبلوا على الرسول
قالوا له : السام عليك يا محمد .. والسام هو الموت .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا التَّجْوِي مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

التجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدة غالبية ، والقلوب حاضرة ، والتوكل صحيحاً ؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ

تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ

لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا » (١) .

لكمال رحمته بهم وتتمام رأفته عليهم ، علمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة (دون أحكام العبادة) (٢) في التفسح في المجالس والنظام في حال الزحمة والكثرة . . وأعزز بأقوام أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه !

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ

فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ

خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣) .

لما كان الإذن في التجوى مقروناً ببذل المال امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظهرت جواهر

(١) (انشروا) أى : انهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو انهضوا من مجلسه صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم بالهوض منه ، أو انهضوا إلى الصلاة ، أو إلى الجهاد ، أو إلى أعمال الخير .

(٢) هذه موجودة في م وغير موجودة في ص .

(٣) رخص يمدد في المناجاة من غير صدقة . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقيل : ما كان إلا ساء من نهار ثم نسخ . . ويحكى : أن علياً كرم الله وجهه كان يتصدق بدرهم كلما ناجى الرسول - أى بداية الأمر ثم توقفت لما نسخت الآية ، وأزيلت المؤاخذه .

الأخلاق وثقافة الرجال — ولقد قال تعالى : « ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكمها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » (١) .

قوله جل ذكره : « ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم » .

من وافق مغضوباً عليه أشرك نفسه في استحقاق غضب من هو الغضبان ؛ فمن تول مغضوباً عليه من قبل الله استوجب غضب الله وكفى بذلك هواناً وخسراناً .

« ويخلفون على الكذب وهم يعلمون *
أعد الله لهم عذاباً شديداً لأنهم ساء
ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم
جنتاً فصددوا عن سبيل الله فلم
يعذبهم الله عذاباً مبيناً »

هذا وصف للنفاقين

« اتخذوا أيمانهم جنة » أى وقاية وسترأ ؛ ومن أستر بجنة طاعته لتسلم له دنياه فإن سهام التقدير من وراءه تكشفه من حيث لا يشمر . . فلا دينه يبقى ، ولا دنياه تسلم ، ولقد قال تعالى : « لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً » (٢) .

قوله جل ذكره : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيخلفون له
كما يخلفون لكم ويحسبون أنهم على
شيء ألا إنهم هم الكاذبون » .

عقوبتهم الكبرى ظنهم أن ما عملوا مع الخلق يتمشى أيضاً في معاملته الحق ، فقرط الأجنيبة
وغاية الجهل أكبتهم على مناخرهم في هذه ندمهم .

(١) آية ٣٧ سورة محمد .

(٢) آية ١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : « استحوذَ عليهم الشيطانُ فأنسَاهم
ذِكْرَ اللَّهِ أولئك حزبُ الشيطانِ ألا
إنَّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون » .

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنساه ذِكْرَ اللَّهِ .
والنفسُ إذا استولتْ على إنسان أنسته الله .

ولقد خسرَ حزبُ الشيطانِ ، وأخسرُ منه مَنْ أعان نفسه — التي هي أعدى عدوه ،
إلا بأن يَسعى في قهرها كماله ينجو من شرِّها .

قوله جل ذكره : « إن الذين يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أولئك في الأذلين » .

مَنْ أَرَمَتْهُ شِقْوَتُهُ لَمْ تُنَمِّشْهُ قُوَّتُهُ ، وَمَنْ قَصَصَهُ التَّغْيِيرُ لَمْ يَمُصِّمِهِ التَّغْيِيرُ ، وَمَنْ اسْتَهَانَ
بِالَّذِينَ انْخَرَطَ فِي سَلَكِ الْأَذَلِّينَ .

قوله جل ذكره : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي
إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التدبير ؟ (١) .

قوله جل ذكره : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ » .

مَنْ جَنَعَ إِلَى مَنْحَرٍ عَنْ دِينِهِ ، أَوْ دَاهَنَ مُبْتَدِعًا فِي عَهْدِهِ نَزَعَ اللَّهُ نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ
قَلْبِهِ فَهُوَ فِي خِيَاثِهِ جَائِرٌ عَلَى عَقِيدَتِهِ ، وَسَيَذُوقُ قَرِيبًا وَبَالَ أَمْرِهِ .

« أولئك كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَيَّدَهُمُ بِرُوحٍ مِنْهُ » .

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبتته ، ويقال : جعل قلوبهم مُطَرِّزَةً بِاسْمِهِ .. وَأَعَزَّزُ
بِحُلَّةٍ لِأَسْرَارِ قَوْمٍ طَرَا زُهَا اسْمُ « اللَّهِ » !!

(١) التدبير للخلق والتدبير للحق .

سُورَةُ الْحَشْرِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ — الكونُ بِجَمَلَتِهِ في طلبه . . وهو عزيزٌ .

الشمسُ والأقمارُ والنجومُ ، والليلُ والنهارُ ، وجميع ما خَلَقَ اللهُ من الأعيان والآثار متناديةٌ على أنفُسِها : نحن عبيدُه . . نحن عبيدٌ مَنْ لَمْ يَزَلْ . . نريد مَنْ لَمْ يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ اللهُ ما في السَّمَوَاتِ وما في

الأَرْضِ وهو العزيزُ الحكيمُ » .

قدَّسَ اللهُ ونَزَّهَهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؛ فَكُلُّ ما خَلَقَهُ جَعَلَهُ على وَحْدَانِيَتِهِ دليلاً ، وَلِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِلَهِيَّتَهُ طَرِيقاً وَسَبِيلاً .

أتقن^(٢) كُلَّ شَيْءٍ وذلك دليلٌ عَلَيْهِ وَحْكَمَتِهِ ، وَرَتَّبَ كُلَّ شَيْءٍ ، وذلك شاهدٌ على مشيئته وإراداته .

« وهو العزيز » فلا شيء يساويه ، ولا شريك له في الملْكِ يَنَازِعُهُ ويُبْضَاهِيهِ .

« الحكيم » الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِهِ عَيْبٌ ، ولا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ عَتَبٌ^(٣) .

قوله جل ذكره : « هو الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ

الْحَشْرِ » .

هم أهل النضير ، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ (ص) ألاَّ يَكُونُوا عَلَيْهِ ، ثم بعد أخذ تقضوا

(١) ويسمى ابن عباس سورة النضير (البحار ج ٢ ص ١٢٣) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (أيقن) وهي غلط في النسخ .

(٣) هكذا في ص وهي في م (عيب) وهي غلط في النسخ .

العَهْدَ ، وبأيموا أباسفيان وأهل مكة ، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك ، فبث صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ الصدقة . وكان رئيسهم كعب ابن الأشرف قتله محمد بن مسلمة (غيلة) ، وغزاهم ^(١) رسول الله (ص) وأجلاهم عن حصونهم المنيعه وأخرجهم إلى الشام ، وما كان المسلمون يتوقعون الظفر عليهم لكثرتهم ، ولينعة حصونهم .

وظلوا يهدمون دورهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا ، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب ، فسموا أول الحشر ، لأنهم أول من أخرج من جزيرة العرب وحشر إلى الشام .
قال حل ذكره : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

كيف نصر المسلمين — مع قتلهم — عليهم — مع كثرتهم . وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرة عليهم . وإذا أراد الله قهر عدو استنوق ^(٢) أسده .

ومن مواضع العبرة في ذلك ما قاله : « ما ظنتم أن يخرجوا » بحيث داخلتمكم الريبة في ذلك لفرط قوتهم — فصانهم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضا ما قاله « وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله » فلم يكن كما ظنوه — ومن تقوى بخلق أسلمه ذلك إلى صفاره ^(٣) ومذلته .

ومن الدلائل الناطقة ما ألقى في قلوبهم من الخوف والرعب ، ثم تخريبهم بيوتهم بأيديهم علامة ضعف أحوالهم ، وبأبدى المؤمنين لقوة أحوالهم ، فتمت لهم الغلبة عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم .

هذا كله لا بد أن يحصل به الاعتبار — والاعتبار أحد قوانين الشرع .

ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره .

(١) حاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم وأبي عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير واحد ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى أريحا وأذرعاء بأرض الشام .

(٢) الألف والسين والباء فيها الصيرورة أى صار ناقة وانتصود : تخاذل المتجبر وصغر شأنه .

(٣) تصفاره = الرضى بانفذه والموت .

ويقال : يُخْرَجُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَقُلُوبِهِمْ بِاتِّبَاعِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِمْ ، وَدِينِهِمْ بِمَا يَمْزِجُونَهُ بِهِ مِنَ الْبِدْعِ .

قوله جل ذكره : « وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ » .

لولا أن قضى الله عليهم أن يخرجوا لعذبهم الله بالقتل والاستئصال (١) ، ثم في الآخرة لهم عذاب النار .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ذلك بأنهم خالفوا أمر الله . والمشاقة أن يتحول المرء إلى شقٍّ آخر .

فالعاصي إذا انتقل من الطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله ، وَلَمَنْ شَاقَّ اللَّهَ عَذَابُ النَّارِ .
قوله جل ذكره : « مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ » .

اللين : كلُّ نوعٍ من النخيل ماعدا المجوة والبرني (٢) .

لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع بعض نخيل بني النضير قالت اليهود : ما فائدة هذا ؟

فبقي المسلمون عن الجواب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله . . . فانقطع الكلام .

وفي هذا دليل على أن الشريعة غير مُعَلَّلَةٍ ، وأنَّ الأمر الشرعي إذا جاء بطلَّ التعليل ،

(١) هكذا في ص وهي في م (الاستبصار) وهي خطأ في النسخ .

(٢) واحده البرنيّة ، وهو نوع جيد من التمر مدور أحمر مشرب بصفرة . (الوسيط) .

وَسَكَتَتِ الْأَلْسَنَةُ عَنِ الْمَطَالِبَةِ بِـ « لَمْ ؟ » وَخُطُورُ الْإِعْتِرَاضِ أَوْ الْإِسْتِقْبَاحِ خُرُوجٌ عَنْ حَدِّ الْعِرْفَانِ ، وَالشُّيُوخُ .

قَالُوا : مَنْ قَالَ لِأُسْتَاذِهِ وَشَيْخِهِ (١) : « لَمْ ؟ » لَا يَفْلَحُ . وَكُلُّ مُرِيدٍ يَكُونُ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ فِي قَلْبِهِ جَوَّالَانِ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَمَنْ لَمْ يَتَجَرَّدْ قَلْبُهُ مِنْ طَلَبِ التَّعْلِيلِ ، وَلَمْ يَبَاشِرْ حُسْنَ الرِّضَا بِكُلِّ مَا يَجْرِي وَاسْتِحْصَانَ مَا يَبْدُو مِنَ الْغَيْبِ لِسِرِّهِ وَقَلْبِهِ — فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا

أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

يُرِيدُ بِذَلِكَ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ (٢) ، فَقَدْ كَانَتْ مِنْ جِلَّةِ الْفَيْءِ لَا مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ فَالْفَيْءُ مَا صَارَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا إِجْبَافٍ خَيْلٍ وَرِكَابٍ ، وَتَدْخُلُ فِي جِمَاةِ أَمْوَالِهِمْ إِذَا مَاتُوا وَصَارَتْ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ . وَالْغَنِيمَةُ مَا كَانَتْ بِقِتَالٍ وَإِجْبَافٍ خَيْلٍ وَرِكَابٍ . وَقَدْ خَصَّ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بِأَمْوَالِ هَؤُلَاءِ قُرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَاسْتَأْثَرَ لِنَفْسِهِ بِمَا شَاءَ ، فَطَابَتْ نَفُوسُ الْأَنْصَارِ بِذَلِكَ ، وَشَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ . ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَحَرَّرَ الْقَلْبُ مِنَ الْأَعْوَاضِ وَالْأَمْلاكِ صِفَةً السَّادَةِ (٣) وَالْأَكْبَرِ . وَمَنْ أَسْرَتَهُ الْأَخْطَارُ وَبَقِيَ فِي شُحِّ نَفْسِهِ فَهُوَ فِي تَضْيِيقِهِ وَتَدْنِيْقِهِ ، وَهُوَ فِي مَصَادِقَتِهِ وَمَعَامَلَتِهِ وَمَطَالِبَتِهِ مَعَ النَّاسِ دَائِمًا يَبْحَثُ فِي اسْتِيفَاءِ حَظْوَلِهِ — وَهَذَا لَيْسَ لَهُ مِنْ مَذَاقَاتِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ (٤) شَيْءٌ

(١) لَاحِظْ كَيْفَ يُوَجِّهُ الْقَشِيرِيُّ إِشَارَتَهُ إِلَى الْمُرِيدِينَ ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ تُكُونَ عَلَيْهِ عِلَاقَتُهُمْ بِشُيُوخِهِمْ .

(٢) عَنِ الزَّهْرِيِّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ (ص) مَا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ (ص) خَاصَةً يَنْفَقُ عَلَى أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةً سِتَّةً ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكَرَاعِ عِدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ (الْبُخَارِيُّ ج ٣ ص ١٢٢) .

(٣) هَكَذَا فِي ص وَهِيَ فِي م (السَّادَةُ) وَهِيَ خَطَأٌ مِنَ النَّاسِخِ .

(٤) يُقْصَدُ طَرِيقَةُ الصُّوْفِيَّةِ .

وأهلُ الصفاء لم تَبَقَ عليهم من هذه الأشياء بَقِيَّةٌ ، وأَمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ ،
فَتَرَسَّمْ (١) سَوْقِيَّ . . . لا مَتَحَقِّقٌ صَوْفِيٌّ .

قوله جل ذكره : « وما آتاكم الرسولُ تَحَذُّوهُ ،
وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا اللهَ
إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ » .

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِهِ ، ولزومِ طريقته وسيرته — وفي العِلْمِ تفصيلُهُ .
والواجبُ على العبدِ عَرَضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على
العِلْمِ — فما لا يقبله الكتابُ والسُّنةُ فهو في ضلال (٢) .

قوله جل ذكره : « للفقراء المهاجرين الذين أُخْرِجُوا من
ديارِهِم وأموالِهِم يبتغون فَضْلًا من اللهَ
ورضوانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ هم الصادقون » .

يريد أن هذا النِّيةُ لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مَتَدَارًا مائة رجلٍ .

« يبتغون فضلًا من الله » وهو الرزق « ورضوانًا » بالثواب في الآخرة .

وينصرون دين الله ، « أولئك هم الصادقون » : والفقيرُ الصادقُ هو الذي يترك كلَّ سببٍ
وعلاقة ، ويفرغ أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف (٣) بقلبه على شيء سوى الله ، وَيَقِفُ مع الحقِّ
راضيًا بِمَجْرِيَانِ حُكْمِهِ فيه .

(١) هكذا في م وهي في ص (متوسم) . وعلى الأول يكون المعنى أنه شخص تهمه الرسوم والأشكال ، أما باطنه
وحقيقته فنير رسمه ، وعلى الثاني يكون المعنى أنه يكتفى من التصوف بالسُّمة أي العلامة ، كالشرب مثلاً . . وباطنه
غير سليم . والربط بين الصفاء والتصوف — كما يتضح من العبارة — عنصر أساسي في مذهب القشيري . (انظر
الرسالة باب التصوف) .

(٢) نحسب أنه ليس بعد هذا مجال للتخصيص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقلسون من قدرها .
فمحصل خواطرهم ، ومكاشفاتهم من خلال أحوالهم . . كل ذلك ينبغي ألا يكون مرفوضاً من الشرع . ومحاولة
عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسي آخر في مذهب القشيري — رحمه الله .

(٣) عطف يعطف هنا بمعنى مال وانحنى تجاه ناحية تاركاً ناحية أخرى — وهذا هو أصل معنى اللفظة قبل أن
تأخذ معانيها المتوسعة .

فوله جل ذكره : « والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا
أُوتُوا وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خِصَاصَةٌ » .

نزلت هذه الآية في الأنصار . « تبوءوا الدار » أى سكنوا المدينة قبل المهاجرين ..
« يحبون من هاجر إليهم » من أهل مكة .

« ولا يجدون في صدورهم حاجة » مما خُصَّصَ به المهاجرون من النِّعَ ، ولا يحسدونهم على
ذلك ، ولا يمتريضون بقلوبهم على حُكْمِ اللَّهِ بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجة
أو اختلالٌ أحوالٍ .

« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قيل نزلت الآية^(١) في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ لَهُ رَأْسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى
اتهى إلى الأول .

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرب منه الطعام وأطفا السراج ليؤم ضيفه
أنه يأكل ، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله ، فأنزل الله الآية في شأنه^(٢) .

ويقال : الكريمُ مَنْ بَنَى الدارَ لضيفانه وإخوانه (واللَّيْمُ مَنْ بَنَاهَا لِنَفْسِهِ)^(٣) .

وقيل : لم يقل الله : وَمَنْ يَتَّقِ شُحَّ نَفْسِهِ بَلْ قَالَ : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ^(٤) .

ويقال : صاحبُ الإيثارِ يُؤْتِرُ الشُّبْعَانَ عَلَى نَفْسِهِ — وهو جائع .

(١) حديث القشيري في الإيثار يصلح أن يكون متمماً للفصل الذى عقده في رسالته عن الفتوة

ص ١١٣

(٢) هكذا في روايه أبي هريرة (البخارى ج ٢ ص ١١٣) .

(٣) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٤) فتقاده من الله لا من نفسه .

ويقال : مَنْ مَيَّزَ بَيْنَ شَخْصٍ وَشَخْصٍ فَلَيْسَ بِصَاحِبِ إِيْشَارٍ حَتَّى يُوْثِرَ الْجَمِيعَ حُونَ تَمْيِيزٍ .

ويقال : الإِيشَارُ أَنْ تَرَى أَنْ مَا بِأَيْدِي النَّاسِ لَمْ ، وَأَنْ مَا يَحْصُلُ فِي يَدِكَ لَيْسَ إِلَّا كَالْوَدِيعَةِ وَالْأَمَانَةِ عِنْدَكَ تَنْتَظِرُ الْإِذْنَ فِيهَا .

ويقال : مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ مِثْلَكَ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِيْشَارِ .

ويقال : الْعَابِدُ يُوْثِرُ بَدَنِيَّاهُ غَيْرَهُ ، وَالْعَارِفُ يُوْثِرُ بِالْجَنَّةِ غَيْرَهُ ^(١) .

وعَزِيزٌ مَنْ لَا يَطْلُبُ مِنَ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ شَيْئاً : لَا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ ، وَلَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْأَفْضَالِ ، وَلَا مِنْهُ أَيْضاً ذَرَّةٌ مِنَ الْإِقْبَالِ وَالْوَصَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ ^(٢) .

... وَهَكَذَا وَصَفُ الْفَقِيرِ ؛ يَكُونُ بِسُتُوطٍ كُلِّ أَرْبٍ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ :

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا

لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

أَيُّ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَدَمِ ، ثُمَّ أَجْيَالُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .
كُلُّهُمْ يَتَرَحَّمُونَ عَلَى السَّلَفِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ ، وَيَسْلُكُونَ طَرِيقَ الشَّفَقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَسْتَجِيرُونَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا أَيْ حِقْدًا . وَمَنْ ^(٣) لَا شَفَقَةَ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدِّينِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَقُوا يَقُولُونَ

(١) وَمَنْ قَبِيلَ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ الْحَسَنِ النَّوْرِيُّ (ت ٢٩٥ هـ) :

« اللَّهُمَّ إِنْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ فِي مَشِيئَتِكَ الَّتِي لَا تَخْلُفُ أَنْ تَمْلَأَ النَّارَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَمْلَأَهَا بِرِجْدِي وَأَنْ تَذْهَبَ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ » .

(٢) لِأَنَّ الْأَحْوَالَ مِنَ اللَّهِ ، فَهِيَ مِنْ عَيْنِ الْجُودِ ، كَمَا أَنَّ الْمَقَامَاتِ بِذِلِّ الْمَجْهُودِ .

(٣) سَقَطَتْ (وَمِنْ) مِنْ م وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ص ، وَهِيَ ضَرْوَرِيَّةُ السِّيَاقِ .

لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكُمْ وَلَا نُسَلِّحَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ،
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

يريد بهم منافق المدينة ؛ ظاهروا بنى النصير وقريظة ، وعاهدوهم على المواقعة بكل وجه ،
فأخبر الله — سبحانه — أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبر أنهم لا يتناصرون ، وأنهم
يتخاذلون ، ولكن ساعدوهم في بعض الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام
من يجاهدونهم .

قوله جل ذكره : « لَا نَمُ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ »
ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

أخبر — سبحانه — أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله ^(١) ، وذلك لقلّة يقينهم ،
ولمعارض قلوبهم عن الله .

قوله جل ذكره : « لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَوْمٍ مُّحَصَّنَةٍ
أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » .

أخبر أنهم لا يحسرون على مقاتلة المسلمين إلا مُحَصَّنَةً ، أو من وراء جدران ،
ولأنما يشتد بأسهم فيما بينهم ، أى إذا حارب بعضهم بعضاً ، فأما معكم ... فلا .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

اجتماع النفوس — مع تنافر القلوب واختلافها — أصل كل فساد ، وموجب كل تخاذل ،
ومقتضى تجاسر العدو .

(١) والمعنى أنهم بنفاقهم يقولون : نحن نخاف الله ، ولكنهم في الحقيقة يخافون منكم خوفاً أشد من خوفهم
من الله ، وذلك لقلّة يقينهم ... الخ .

وإتفاق القلوب؛ والاشتراك في المهمة؛ والتساوى في التصدير يوجب كُتْلَ ظفر وكلِّ سعادة . . ولا يكون ذلك للأعداء قط؛ فليس فيهم إلا اختلال كلِّ حال، وانتقاض كلِّ شئيل .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .
مَثَلُ بَنِي قُرَيْظَةَ كَمَثَلِ بَنِي النَّضِيرِ^(١)؛ ذاق النضير وبَالَ أَمْرِهِمْ قَبْلَ قُرَيْظَةَ بِسَنَةِ^(٢)؛ وذاق قُرَيْظَةُ بِمَدَمِهِمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ؛ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» .
أى مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْمُنَاقِقِينَ مَعَ النَّضِيرِ — فِي وَعْدِهِمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالتَّنَاصُرِ — كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ «إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ . . .» .

وكذلك أربابُ الفترة وأصحابُ الزَّهَّةِ وأصحابُ الدَّعَاوَى . . هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ — وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُتٌ — لَا تَنْفَعُ صُحْبَتُهُمْ فِي اللَّهِ؛ قَالَ تَعَالَى: «الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»^(٣) وكلُّ أَحَدٍ — الْيَوْمَ — يَأْتِي شَكْلَهُ؛ فَصَاحِبُ الدَّعْوَى إِلَى صَاحِبِ الدَّعْوَى، وَصَاحِبُ الْمَعْنَى إِلَى صَاحِبِ الْمَعْنَى .

قوله جل ذكره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .

(١) يرى النفس أن: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إِبْلِيسَ بْنِ آدَمَ» (النسائي ج ٤ ص ٢٤٣) .
(٢) وكان ذلك لقب مرجع النبي (ص) من الأحزاب؛ ففي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي (ص) من الحبشة، رجع إلى المدينة وأقام في داره حتى أتاه جبريل فقال: قد وضعت لك الحج والعمرة، فادعهم فخرج إليهم فقال: يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله، وأشار إلى يمينه بيمينه (البيهقي ج ٣ ص ٢٣) .
(٣) الآية ٦٧ سورة الزخرف .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفكر في العمل خيره وشره (١) .

والتقوى الثانية تقوى للمراقبة والمحاسبة ، ومن لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله .. فعن قريب سيفتضح (٢) .

وعلاوة من نظر لغيره أن يحسن مراعاة يومه ؛ ولا يكون كذلك إلا إذا فكر فيما عمله في أمسه والناس في هذا على أقسام : مفكر في أمسه : ما الذي قُسم له في الأزل ؟ وآخر مفكر في غده : ما الذي يلقاه ؟ وثالث مستقل بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مضطكم عن شاهده موصول بربه ، مندرج في مذكوره (٣) ؛ لا يتطلع لماضيه ولا مستقبله ، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته (٤) .

قوله جل ذكره : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله

فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » .

تركوا طاعته فتركهم في العذاب ؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا .. أولئك هم الفاسقون (٥) .

قوله جل ذكره : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب

الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » .

لا يستوى أهل الجنة مع أهل الوصلة -

وأصل كل آفة نسيان الرب ، ولولا النسيان لما حصل العصيان ، والذي نسي أمر

نفسه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته ، ويسوف فيما يلزمه به الوقت من طاعته .

(١) ويكون العبد فيها في مرحلة الغيبة (أي قبل السكر) : فما دام هناك وارد لثواب أو عتاب أو فكر

في حال أو مال - فهذه في منازل السالكين دون المرحلة التالية

(٢) تفيد هذه الإشارة في توضيح الفرق في الاصطلاح بين : المراقبة والمحاسبة .

(٣) لأن أقصى درجات الذكر أن يفنى الذاكر في المذكور ، وقد اعتبرنا الأوصاف أسماء معمول تعبيرا

عن فناء الإرادة الإنسانية ، وتجرد العبد من كل فعل في نفسه ونفسه .

(٤) ولهذا يتولون : الصوفي ابن وقته ؛ ومعناه أنه مشغول بما هو أولى به في الحال ، قائم بما هو مطالب به

في الحين ، مستسلم لما يبدوله من الغيب من غير اختيار له . ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت

فالوقت عليه مقت . (الرسالة ص ٣٤) .

(٥) صيغود التفسيرى لاتمام إشارة هذه الآية بعد الآية التالية .

قوله جل ذكره : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرَأَيْتَهُ

خاشعاً مُتَعَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ » .

أى لو كان للجبل عقلٌ وصلاحٌ ففكرٌ وسيرٌ ، وأنزلنا عليه هذا القرآن تلخَّعَ وَخَشَعَ .

ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : تكاد السمواتُ يتفطرنَ منه ^(١) ويدل عليه أيضاً قوله :

« وتلك الأمثالُ نضربها للناسِ » : ليعقلوا ويهتدوا ، أى بذلك أمرُناهم ، والمقصود بيان

قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم ، بل هو على سبيل المدح وبيان

تخصيصه إليهم بالقوة ؛ فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » لم يُطَقْ . وتلخَّعَ — وهؤلاء

خَصَّصْتُهُمْ بهذه القوة حتى أطاعوا سماعَ خطابي ^(٢) .

قوله جل ذكره : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ

والشهادة هو الرحمن الرحيم » .

« الغيب » : ما لا يُعْرَفُ بالضرورة ، ولا يُعْرَفُ بالقياس من المعلومات ^(٣) . ويقال : هو

ما استأثر الحق بعلمه ، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه .

« والشهادة » : ما يَعْرِفُهُ الخلقُ .

وفى الجملة : لا يَعْرُبُ عن علمه معلومٌ .

(١) آية ٩٠ سورة مريم .

(٢) يتصل هذا بموضوع السماع عند الصوفية ، وقد عقد السراج له فصلاً متمماً فى « المع » ، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة إلى آثارها التفسيرية يقول السراج : ألا ترى أحدهم يكون ما كنا فيحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً في وجهه لا يظهر منه شيء من ذلك (المع ص ٢٧٥) ويحيى الجنيد حين سئل عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

(٣) أى لا يعرف بالضرورة العقلية ولا بالقياس العقل لأن العقل يستمد أحكامه من الحسّات ، والغيب بعيد من الحسّات ، فلا سبيل للخلق إليه بوسائلهم المحدودة وحدها .

قوله جل ذكره : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملكُ
القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ
الجبارُ المتكبرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ » .

الملكُ : ذو القدرة على الإيجاد .

القدوس : المنزه عن الآفة والنقص .

السلام : ذو السلامة من النقائص ، الذي يسلم على أوليائه ، والذي سلم المؤمنون من عذابه .
المؤمن : الذي يصدق عبده في توحيده فيقول له : صدقت يا عبدى .

والذي يصدق نفسه في إخباره أى يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى الخبر لعباده بأنه يؤمنهم من عقوبته .

المهيمن : الشاهد ، وبمعنى الأمين ، ويقال مؤمن (مُفْتَعِل) من الأمن قلبت همزته هاء
وهو من الأمان ، ويقال بمعنى المؤمن .

العزيز : الغالب الذي لا يُقَلَّب ، والذي لا مثيل له ، والمستحق لأوصاف الجلال ،
وبمعنى : المميز لعباده . والمنيع الذي لا يقدر عليه أحد .

الجبار : الذي لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المصلح لأمرهم من : جبر الكسر . أو بمعنى
القادر على تحصيل مراده ^(١) من خلقه على الوجه الذي يريد من : جبرته على الأمر وأجبرته .
المتكبر : المتقدس عن الآفات .

قوله جل ذكره : « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء

الحُسنى يسبح له ما فى السموات والأرض
وهو العزيز الحكيم » .

(١) هكذا فى م ومى فى ص (مرات) .

هو المفتى للأعيان والآثار .

« له الأسماء الحسنى » : المسميات الحسان .

« وهو العزيز الحكيم » : مضى معناها ، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء

(في كتابنا المسمى : « البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى »)^(١) .

(١) ما بين القوسين غير موجود في م وهو موجود في ص . وهذه أول مرة نعرف للتشيري كتاباً بهذا الاسم فلم يرد ذكره في كتب الفهارس والتراجم . وكنا نعلم حتى هذه اللحظة أن التشيري قد عالج دراسة الأسماء والصفات في كتابين فقط أولهما : التعبير في التذكير تحقيق بـسيوف . والثاني : شرح أسماء الله الحسنى تحقيق الحلواني .

سُورَةُ الْمِتْحَنَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم ملك لا أصل للملك عند حدث ولا نسل له ، فَعَمَّةُ يَرِثُ . ملك لا يَسْتَظْهِرُ بجيشٍ وعدَد ، ولا يَتَمَرَّزُ بقومٍ وعدَد . ملك للخلق^(١) بأجمعهم — لكنه اختار قوماً — لا لينفيعَ بهم — بل لينفيعَهم ، وردَّ آخرين وأذلَّهم بمنعهم ووضعهم :

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي

وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ

كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ

الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي

سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي »^(٢) .

قال صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »^(٣) وأوصى الله سبحانه

إلى داود عليه السلام : « عَادِ نَفْسَكَ فَلَيْسَ لِي فِي الْمُلْكِ مُنَازِعٌ غَيْرُهَا » . ثُمَّ عَادَى نَفْسَهُ

فَدَقَّامَ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَمَنْ لَمْ يَعَادِ نَفْسَهُ لَحِقَتْهُ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ . وَأَصْلُ الْإِيمَانِ الْمَوَالَاةُ وَالْعَادَاةُ فِي

اللَّهِ وَمَنْ جَنَحَ إِلَى السُّكْفَارِ أَوْ إِلَى الْخَارِجِينَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِسْلَامِ انْحَاذَ إِلَى جَانِبِهِ .

(١) هكذا في م وهي الصواب أما في ص فهي (الحق) وهي سبط من النسخ .

(٢) نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة الذي بعث في الحرب بكتاب مع امرأة يقال لها سارة ، فأنزل الله عليه . يحذرهم فيه من استعداد النبي لم والتبطل لقتالهم ، فوضعت الكتاب في عنقه شرمها . وفعل به بنو قريظة فمروا به إلى رسول ليخبره بالأمر ، فأرسل في إثرها فرسانه ، فأنزلوا الكتاب منبأ .

وحينما هم عمر رضى الله عنه يضرب عنق حاطب قال الرسول : وما يدريك يا عمر لما أتاك الله قد طلع على أهل بدر فقال لم : اعطوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ففانتمت عينا عمر ، ونزلت الآية .

(٣) ينظر الصوفية إلى النفس على أنها محل المعلولات (الرسالة ص ٤٨) .

قوله جل ذكره : « وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

أنا أعلم « بما أخفيت » من دقائق التصنع وخفيات الرياء .
« وما أعلنت » من التزيّن للناس .
« ما أخفيت » من الاستسرار بالزّلة ، « وما أعلنت » ، من الطاعة والبرّ .
« ما أخفيت » من الخيانة « وما أعلنت » من الأمانة .
« ما أخفيت » من الغلّ والغشّ للناس ، « وما أعلنت » من الفضيحة للناس .
« ما أخفيت » من ارتكاب المحظورات ، « وما أعلنت » من الأمر بالمعروف .
« ما أخفيت » من ترك الحشمة منى وقلة المبالاة باطلاعى ، وما أعلنت من تعليم الناس ووعظهم .
« ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل » ، فقد حادّ عن طريق الدين ، ووقع في الكفر .

قوله جل ذكره : « إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالشُّؤْءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ . إِنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ وَصَادَفَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، وَلَنْ تَنَالُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ بِالشُّؤْءِ وَلَا مِنْ أَلْسِنَتِهِم بِالذَّمِّ وَذَكَرِ الْقَبِيحِ . »
« وودّوا لو تكفرون » : ولن ينفعكم تودّدكم وتقرّبكم إليهم ، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبة الآخرة تُدْرِكُكُمْ ^(١) .

(١) لأنكم حينئذ تكونون قد آثرتم قرابتكم بأعدائكم على حقوق الله .

وكذلك صفة الخالف ، ولا ينبغي للمرء أن يمتطش إلى عشيرته — وإن داهنته في قالة ،
ولا أن ينعقد بتفررها — وإن لا يفتته في حالة

قوله جل ذكره : « قد كانت لكم أسوة حسنة في

إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا
برءاء منكم وما بتعبدون من دون الله ،
كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم
العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا
بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه
لأستغفرن لك وما أملك لك من
الله من شيء » .

أى لكم قدوة حسنة بإبراهيم ومن قبله من الأنبياء حيث تبرءوا من الكفار من أقوامهم ؛
فاقتدوا بهم .. إلا استغفار إبراهيم لأبيه — وهو كافر — فلا تقتدوا به .
ولا تستغفروا للكفار . وكان إبراهيم قد وعده أبوه أنه يؤمن فلذلك كان يستغفر له ،
فلم تبين له أنه لن يؤمن تبرأ منه

ويقال : كان منافقاً .. ولم يعلم إبراهيم ذلك وقت استغفاره له .

ويقال : يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أن الله لا يغفر للكفار .

والفائدة في هذه الآية تخفيف الأمر على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتعريفهم
أن من كانوا قبلهم حين كذبوا بأنبيائهم أهلهم الله ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغي لذلك
أن يكون بالصبر أمرهم .

قوله جل ذكره : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا

وإليك المصير » .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصح أن يكون معناه : قولوا : « ربنا عليك توكلنا » .

وقد مضى القول في معنى التوكل والإنابة .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ » .

رَبَّنَا لَا تُظْفِرْهُمْ بِنَا ، وَلَا تُقَوِّمْ عَلَيْنَا .

والإشارة في الآية : إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي السَّخَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ
وَالصَّبْرِ وَكُلِّ خَصْلَةٍ لَهُ ذَكَرَهَا لَنَا .

قوله جل ذكره : « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ
عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وقتهم في مقتضى قوله تعالى : « عسى الله » عند حدِّ التجويز . . لا حُكْمًا بِالْقَطْعِ ،
وَلَا دَفْعَ قَلْبٍ بِالْيَأْسِ . . ثُمَّ أَمَرَهُم بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْعِدَاوَةِ وَالْوَلَايَةِ مَعَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَرَفَهُمْ
بَوُقُوعِ الْأَمْرِ حَسَبَ تَقْدِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَجَرَّيَانِ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرِيدُ لَهُمْ ، وَصَدَّقَ هَذِهِ التَّرْجِيَةَ
بِإِيمَانٍ مَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَكَيْفَ أَسْلَمَ كَثِيرُونَ ، وَحَصَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
مَوَدَّةٌ أَكِيدَةُ .

قوله جل ذكره : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ
تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ » إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ
قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
وظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ
تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ » .

مُسْتَبَدِّهِمْ فِي الْعِدَاوَةِ مَعَهُمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ ،

أو كان منه للمسلمين وجهٌ تنفع أوفقي — قد أمرهم بالملاينة معه . والمؤلفة قلوبهم شاهدٌ لهذه الجملة ، فإن الله يحب الرقيق في جميع الأمور^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ
الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاثْتَحِنُوهُنَّ » اللهُ
أَعْلَمُ بِإِعْنَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ » .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتحنهن باليمين ، فيخلفن إيهن لم يخرجن إلا الله ، ولم يخرجن
منايظة لأزواجهن ، ولم يخرجن طمعا في مالٍ .

وفي الجملة : الامتحان طريق إلى المعرفة ، وجواهر^(٢) الناس تبيين بالتجربة^(٣) . ومن أقدم
على شيء من غير تجربة تحس كأس الندم .

« وَلَا تُنْسِكُوا بِعِمِّ الْكُوفَرِ »^(٤) .

لا توافقوا من تخالف الحق في قليل أو كثير .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ
يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا
وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ
أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَائِفَ فِتْنَةٍ بَيْنَ
أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي
مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لِمَنْ أَلَا
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(١) قال عمار الله عليه وسلم : « إن الله رقيق يحب الرقيق ، يدل على الرقيق مالا يعطى على المنفعة » .

(٢) مضاف في صر وميراث (ميراث) وهي تبيان النفس .

(٣) مضاف في صر وميراث (ميراث) وهي تبيان النفس .

(٤) مضاف في صر وميراث (ميراث) وهي تبيان النفس .

إذا جاءك النساء يبأيعنك على الإسلام فطالِبِهِنَّ وشارِطِهِنَّ بهذه الأشياء :

تَرَكَ الشُّرْكَ ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النسيب ،
وَأَلَا يعصينك في معروف ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به ، ويدخل في ذلك تَرَكَ النياحة وشق
الجيوب وتَقَفُ الشَّعْرَ عند المصيبة وتخْمِشُ^(١) الوجوه والتبرُّج وإظهار الزينة . . . وغير ذلك
مما هو من شعائر الدين في الجملة .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسَوْنَ مِنَ الْآخِرَةِ
كَأَنَّهُمْ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ
الْقُبُورِ » .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . ينسوا من الآخرة كما ينس أصحاب القبور أن يعودوا
إلى الدنيا ويُبْعَثُوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما ينس الكفار حين اعتقدوا أن الخلق لا يُبْعَثُونَ في القيامة^(٢) .

(١) خمش . أى جرح بشرته .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الآخرة) وكلامها صحيح في السياق .

سُورَةُ الصَّف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من وقفه الله لعرفانها لم يصبر عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتقر حتى يصل إلى المسمى بها يحنانه : في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كميانه .

قوله جل ذكره : « سَبِّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

من أراد أن يصفو له تسبيحه فليصف قلبه من آثار نفسه ، ومن أراد أن يصفو له في الجنة عيشه فليصف من أضرار ذنبيه نفسه .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .

جاء في التفاسير أنهم قالوا : لو علمنا ما فيه رضا الله لفعلنا ولو فيه كل جهد . . . ثم لما كان يوم أحد لم يثبتوا ، فنزلت هذه الآية في العتاب ^(١) .

وفي الجملة : خلف الوعد مع كل أحد قبيح ، ومع الله أقبح .

ويقال إظهار التجلُّد من غير مشهود مواضع الفقر إلى الحق في كل نفس يؤذن بالبقاء عما حصل بالدعوى ^(٢) . . . والله يحب التبرُّى من الحول والقوة .

(١) قال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيه (ص) بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة : اللهم اشهد لنا لقينا قتالاً كسفر غن فيه وسعنا . . ففروا يوم أحد ، فغيرهم الله بذلك .
(٢) أي بدعوى النفس ؛ تسول له نفسه أن له في الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هو الذي مكن له .

ويقال : لم يتوعد — سبحانه — زَلَّةً يَمُثِلُ مَا عَلَى هَذَا حِينَ قَالَ : « كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » .

الحبةُ توجبُ الإثارةَ ، وتقديمُ مُرَادِ حبيبِكَ عَلَى مُرَادِ نَفْسِكَ ، وتقديمُ محبوبِ حبيبِكَ عَلَى محبوبِ نَفْسِكَ . فلذا كَانَ الْحَقُّ تَعَالَى يُحِبُّ مَنْ الْعَبْدِ أَنْ يُقَاتِلَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرَهُ فَسَنَ لَمْ يُؤْتِرْ مُحِبُّوبَ اللَّهِ عَلَى مُحِبُّوبِ نَفْسِهِ — أَى عَلَى سَلَامَتِهِ — انْسَلَخَ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِرَبِّهِ ، وَمَنْ خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَقَعَ فِي الشَّقِّ الْآخِرِ ، فِي خَسْرَانِهِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

لَمَّا زَاغُوا يَتَرَكُ الْخُذَّ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِتَقْضِ الْعَهْدِ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالْصَدِّ وَالرَّدِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الْوُدِّ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا بظواهرهم أَزَاغَ اللَّهُ سِرَائِرَهُمْ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عَنْ خِدْمَةِ الْبَابِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّشَوُّقِ إِلَى الْبَسَاطَةِ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عَنِ الْمُبَادَةِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِرَادَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي »

(١) عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : « أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرَى . عَلَى قَوْمٍ مُقَرَّرَ شَعَاهُمْ بِسَارِيسَ مِنْ بَنِي كَلْبٍ . فَقُلْتُ : « تَحْتِمْ وَطَالَتْ » قُلْتُ : « سَنَ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ » قَالَ : « هَؤُلَاءِ خُطْبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ » . (ابن أبي عمير عن حبيب بن مالك بن دينار عن ثمامة)

اسمُهُ أَحَدٌ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

بَشَّرَ كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَفْرَدَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — عِيسَى بِالذِّكْرِ
فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِأَنَّهُ آخِرُ نَبِيٍّ قَبْلَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَيَبَيِّنُ بِذَلِكَ أَنَّ الْبَشَارَةَ بِهِ نَعَمَتْ
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى انْتَهَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قوله جل ذكره : « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ^(١) » .

فَمَنْ احْتَالَ لَوَمَنَهُ ، أَوْ رَامَ وَهَيْبَةً انْعَكَسَ عَلَيْهِ كَيْدُهُ ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ تَدْيِيرُهُ .
« وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ » : كَمَا قَالُوا :

وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عِلَافِهِ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ
كَأَنَّهُ قَالَ : مَنْ تَمَتَّى أَنْ يُطْفِئَ نُورَ الْإِسْلَامِ بِكَيْدِهِ كَمَنْ يَحْتَالَ وَيَزَاوِلُ إِطْفَاءَ شِعَاعِ
الشَّمْسِ بِنَفْثِهِ وَنَفْثِهِ فِيهِ — وَذَلِكَ مِنَ الْمَحَالِ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » .

لَمَّا تَقَاعَدَ قَوْمُهُ عَنْ نَصْرَتِهِ ، وَانْبَرَى أَعْدَاؤُهُ لَتَكْذِيبِهِ ، وَجَحَدُوا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ صِدْقِهِ
قَبَضَ اللَّهُ لَهُ أَنْصَارًا مِنْ أُمَّتِهِمْ : نَزَّاعُ الْقَبَائِلِ ، وَالْأَحَادُ الْأَفَاضِلُ ، وَالسَّادَاتُ الْأُمَامِلُ ، وَأَفْرَادُ
الْمَنَاقِبِ — فَبَذَلُوا فِي إِعْثَارِهِ وَتَهْمِهِ دِينَهُ مُهْجَبَهُمْ ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كِرَائَتِهِمْ ، وَوَقَوْه

(١) حكى عطاء عن ابن عباس : أن الوحي حين أبطأ على رسول الله (ص) أربعين يوماً قال كتب بن الأشرف :
يا معشر اليهود : أبشروا ! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليم أمره ؛ فحزن النبي (ص) —
فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها .

بأرواحهم ، (وأمدَّهم اللهُ سبحانه بتوفيقه كي ينصروا دينه ، أولئك أقوامٌ عَجَبَنَ اللهُ
بمَاءِ السَّامَةِ طينَعَمَهم ، وخلقَ من نور التوحيد أرواحهم^(١)) وأهلَّهم يومَ القيامة للسيادة على
أضرابهم .

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه مَوْضُحًا ، وبالْحَقِّ مُفْصِحًا ، ولتوحيدهِ مُعَلِّنًا ، ولجهده
فِي الدِّعَاءِ إِلَيْهِ مُسْتَفْرِغًا . . . فَأَقْرَعَ بِنُصْحِهِ قُلُوبًا نُكْرًا ، وبصَرَ بنور تبليغه عيونًا
مُعَيَّا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

تَمَيَّ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ تِجَارَةً لِنَا فِي التَّجَارَةِ مِنَ الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ وَنَوْعِ تَكْسِبٍ مِنْ

التَّاجِرِ — وَكَذَلِكَ : فِي الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ رِبْحُ الْجَنَّةِ وَفِي ذَلِكَ يَجْتَهِدُ الْعَبْدُ ، وَخُسْرَانُهَا إِذَا كَانَ

الْأَمْرُ بِالضَّدِّ .

وقوله : « تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . » أَيْ فِي ذَلِكَ جِهَادُكُمْ وَإِيمَانُكُمْ وَاجْتِهَادُكُمْ . وَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ .

ثُمَّ يَبَيِّنُ الرِّبْحَ عَلَى تِلْكَ التَّجَارَةِ مَا هُوَ قَالُ :

« يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) حا بين القوسين ورد في م وسقط في ص .

ومساكن طيبة في جنات عدن ذلّا
الفوز العظيم» .

قدّم ذكر أهمّ الأشياء — وهو المفرة . ثم إذا فرغت القلوب عن العقوبة قال :
« ويدخلكم جنات . . . » فبعد ما ذكر الجنة ونعيمها قال : « ومساكن طيبة » ،
وبماذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلّا برؤية الحق سبحانه ، ولذلك قالوا :

أجبرائنا ما أوحش الدار بعدكم إذا غبتموها ونحن حضور !
نحن في أكل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودّي أنكم غيبّ ونحن حضور

قوله جل ذكره : « وأخرى تحبونها نصر من الله
وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

أى ولكم نعمة أخرى تحبونها : نصر من الله ؛ اليوم حفظ الإيمان وثبت الأقدام
على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيامة .

« وفتح قريب » : الرؤية والزلفة . ويقال الشهود . ويقال : الوجود^(١) أبد الأبدي .

« وبشر المؤمنين » : بأنهم لا يبتون عنك في هذا التواصل .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله » .

كما قال عيسى ابن مريم للحواريين
من أنصارى إلى الله ؟ قال
الحواريون : نحن أنصار الله فأمنت

(١) لفظة (الوجود) بالمعنى الصوري مقبولة هنا ، ولكننا في ذات الوقت لا نسيء أن نكون (الخلود)
إشارة إلى قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً » .

طائفة من بني إسرائيل وكفرت
طائفة فأبذنا الذين آمنوا على عدوهم
فأصبحوا ظاهرين» .

أى كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أن عيسى لمّا استعان واستنصر الخواريين نصره ..
فانصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأكرموا ، وطائفة كفروا فأذلوا ،
وأخفروا أولياءه على أعدائه ... لكي يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه يُظفر
أولياءه على أعدائه .

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسم عزيز إذا تجلّى قلب عبّيد بوصف جماله تجمعت أفكاره على بساط جوده فلم يتفرّق بسواه^(١) .

وَمَنْ تَجَلَّى لِسِرِّهِ بِنَعْتِ جَلَالِهِ انْدَرَجَتْ جَمَلَتُهُ ، وَاسْتَهْنِكَ فِي وجوده فلم يشمر بكرائم دُنْيَاهِ وَلَا بِعَظَائِمِ عُقُوبَاهِ . .

وَكَمْ لَهُ مِنْ إِنْعَامٍ ! وَكَمْ لَهُ مِنْ إِحْسَانٍ ! وَكَأَيَّ أَمْثَالِهِمْ : « جَرَى الْوَادِي فَطَمَّ عَلَى الْقَرْيِ^(٢) »

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

تُسَبِّحُ فِي بَحَارِ تَوْحِيدِ الْحَقِّ أَسْرَارُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، وَيَحْرُمُ بِلا شاطئ ؛ فَبَعْدَ مَا حَصَلُوا فِيهَا فَلَا خُرُوجَ وَلَا بَرَاخَ ، فَغَازَتْ أَيْدِيهِمْ جَوَاهِرُ التَّفْرِيدِ فَصَعَوْهَا فِي تَاجِ الْعِرْقَانِ كَيَّ يَلْبَسُوهُ يَوْمَ الْقَاءِ .

« الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

« الْمَلِكِ » : الْمَلِكُ لِلتَّفَرُّدِ بِاسْتِحْقَاقِ الْجَبَرُوتِ .

« الْقُدُّوسِ » : الْمُتَزَعُّ عَنْ الدَّرَكِ وَالْوَصُولِ : قَلِيلٌ يَدُ الْخَلْقِ إِلَّا عِرْقَانِ الْحَقَائِقِ بِنَعْتِ التَّعَالَى ، وَالتَّأَمُّلِ فِي شُهُودِ أَفْصَالِهِ ، فَأَمَّا الْوُقُوفُ عَلَى حَقِيقَةِ أَنْبِئَتِهِ — فَقَدْ جَلَّتِ الصَّمَدِيَّةُ عَنْ

(١) لاحظنا دقة استعمال الاصطلاحين (الجمع والفرق) .

(٢) الْقَرْيُ = مجرى الماء في الروضة والجمع : أقرية وأقراوتقريان ، ويفرب المثل عند تجاوز الشيء حده .

إشرافٍ عليه ، أو طمعٍ إدراكٍ في حالِ رؤيته ، أو جوازٍ إحاطةٍ في العلمِ به . . فليس إلا قالةً بلسانٍ مُستَنطِقٍ ، وحالةً بشهودٍ حقٍّ مستغرقٍ (١) :

وَقُلْنَا لَنَا : نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نُفِيهِ لِمَنْ يَسْرِى بَلِيلٌ وَلَا تَقْرَى (٢)
قوله جلذ كره : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم

يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة وإن كانوا من
قبل لئي ضلالر ميين » .

جرّده عن كلِّ تنكُفٍ لِيَتَعَلَّمَ ، وعن الاتصافِ بِتَطَلُّبٍ (٣) . . ثم بعثه فيهم وأظهره
عليه من الأوصافِ ما فاق الجميع .

فكما أَيْتَمَهُ في الابتداء عن أبيه وأمه ، ثم آواه بِلُطْفِهِ — وكان ذلك أبلغ وأتم — فإنه
كذلك أفرده عن تكلفِ العلم — ولكن قال : « وعلمك ما لم تكن تعلم » (٤) .

وقال : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا » (٥) ألبسه لباسَ
العِزَّةِ ، وتَوَجَّهَ بتاجِ الكرامة ، وخلَّعَ عليه حُسنَ التولَّى . . لتكون آثارُ البشرية عنه
مندرجة (٦) ، وأنوارُ الحقائق عليه لأمة .

وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو
العزيز الحكيم » .

(١) هذه الفقرة التي كتبها القشيري عن (القدس) على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هي توضح : أن الصوفي
مهما ارتفع في معراجهِ الروحي لا يستشرف من (الذات) فتدجّات الصغدية عن ذلك ، وإنما هو يتحقق من شهود
(العمل) .. ولا شك أن أهل السنة المتشددون سيجدون في هذا النص ما يسلطهم نحو التصوف وأهله .
(٢) أي ولا نستضيف .. والمقصود أن السالكين طريق الله دائماً على الدرب سائرون وأن الحق سبحانه
لا يقف على كنهه .

(٣) حتى ينتق عنه سوء الظن في تعلُّمه شيئاً من الكتب السابقة ، وأن ما يدعو إليه ثمرة قراءته .

(٤) آية ١١٣ سورة النساء .

(٥) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٦) هي هكذا في من وفي م مشبهة ، والمقصود لتطوى عنه آثار البشرية — لا البشرية نفسها — وتلوح
عليه أنوار الحقائق.

أى بَعَثَ فى الأميين ، وفى آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتى . . إلى يوم القيامة ؛ فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ »
والله ذو الفضل العظيم .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها « من يشاء » ؛ وفى ذلك رد على مَنْ قال : إنها تُستحق لكثرة طاعة الرسول — ورد على من قال : إنها لتخصيصهم بطيئتهم ؛ فالفضل ما لا يكون مُستحقاً ، والاستحقاق فرض^(١) لا فضل .

ويقال : « فضل الله » هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو الأنس بالله ، والعبد ينسى كل شئ إذا وجد الأنس .

ويقال : قطع الأسباب ، — بالجملة — فى استحقاق الفضل ، إذا حاله على المشيئة .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً »
يُنس مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

« ثم لم يحملوها » : ثم لم يعملوا بها .

ويُلحقُ بهؤلاء^(٢) فى الوعيد — من حيث الإشارة — الموسومون^(٣) بالتقليد فى أى

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرد) وهى خطأ فى النسخ ؛ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلاً منه لا (فرضاً) عليه ؛ فلا وجوب على الله — كما نعرف من مذهب القشيري .

(٢) أى باليهود الذين لا فائدة لهم فيما يحملونه من الكتب ، فهى تبشر بمحمد ، وهم يحملون به .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المؤمنون) .

معنى شئت : في علم الأصول ، ومما طريقه أدلة العقول ؛ وفي هذه الطريقة (١) مما طريقه
النازلات .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا (٢) إِنْ زَعَمْتُمْ
أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
لِلْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » .

هذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرَّفَ قُلُوبِهِمْ عَنْ تَمَنَّى الْمَوْتِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَّةِ
دَلَّ عَلَى صِدْقِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ (٣) .

ويقال : من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب ؛ فإذا كان لا يَصِلُ إِلَى لِقَائِهِ إِلَّا بِالْمَوْتِ
فَتَمَنَّيْهِ — لَا مُحَالَةَ — شَرْطًا ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا . . . وَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ أَلَمْتُ الَّذِي تُقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مَلَائِكَةٌ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ » .

الموت حَسْمٌ مَقْضِيٌّ . وفي الخبر : « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » . وَالْمَوْتُ جِسْرٌ
وَالْمَقْصِدُ عِنْدَ اللَّهِ . . . وَمَنْ لَمْ يَعِشْ عَفِيفًا فَلَيْمَتْ ظَرِيفًا (٤) .

(١) يقصد طريقة الصوفية .
(٢) أخطأ الناسخ في م وجعلها (آمروا) .
(٣) والآية تؤكد هذا مرتين باستعمال أسلوب إنشائي (فتمنوا) وأسلوب خبري (ولا يتمنونه أبداً) .
(٤) مثل الجنيد عن الظرف فقال : « اجتناب كل خلق فني . واستعمال كل خلق سني » وأن تعمل لله ثم
لا ترى أنك عملت » (اللمع للمراج ص ٩٦٢) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ

مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ

وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

أَوْجَبَ السَّعْيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ، وَأَمَرَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ (١) .

ومنهم من يجعله على الظاهر ؛ أي ترك المعاملة مع الخلق (٢) ، ومنهم من يجعله عليه وعلى

معنى آخر ؛ هو ترك الاشتغال بملاحظة الأعراض (٣) ، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معاينة

الأمر ؛ فمنهم من يسعى إلى ذكر الله ، ومنهم من يسعى إلى الله ، بل يسعون إلى ذكر الله

جهراً يجهرون ، ويسعون إلى الله تعالى سراً بسراً .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا

فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

إنما ينصرف من كان له جمع يرجع إليه ، أو شغل يقصده ويشغل به — ولكن ..

من لا شغل له ولا مأوى .. فإلى أين يرجع ؟ وإنما يقال : « وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » إذا كان

له أرب .. فأما من سكن عن المطالبات ، وكفى داء الطلب .. فما له وابتغاء ما ليس

يريد ولا هو في رقة ؟ !

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا

إِلَيْهَا وَتَرَكُوا قُلُوبَهُمْ .. قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ

(١) هكذا في من وهي الصواب حسب الآية ، ولكنها في م (الجمع) .

(٢) هكذا في من وهي في م (الحق) وهي خطأ في النسخ .

(٣) جمع (عثر) الحياة الدنيا .

خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ

الرَّازِقِينَ .

مَنْ أَسْرَتْهُ أخطارُ الأشياءِ استجاب لكلِّ دافعٍ جرَّه إليه لَهْوٌ أو سَمَلَةٌ عليه سَهْوٌ
وَمَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقةِ لم يتعرف عن الحضور ، ولم يلتفت في حال الشهود . « قل ما عند
الله خير من اللهو ومن التجارة » وما عند الله للعُباد والزُّهاد — غداً^(١) — خيرٌ مما^(٢) نالوه
في الدنيا قدماً . وما عند الله للعارفين — قدماً — من واردات القلوب وبواده^(٣) الحقيقة خيرٌ
مما يؤمِّل المستأنف^(٤) في الدنيا والمُتَّقِي .

(١) ويجوز أنها في الأصل « وعداً » لتقابل « نقداً » فهذا نمط في تعبير القشيري مألوف ، ومع ذلك فالوعد (غداً) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (من) والصواب (مما)

(٣) البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، وهي إما موجبات فرح أو موجبات ترح ، وصادات الوقت لا تغيرم البواده ، لأنهم فوق ما ينجوهم حالاً وقوة (الرسالة - ص ٤٤) .

(٤) موجودة في ص وغير موجودة في م وهي ضرورية للسياق ، والمستأنف : هو المرید المبتلى الذي مازال يفكر في الثواب الآجل والثواب العاجل .

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَنْ تَحَقَّقَ بِهِ صَدَقَ فِي أَقْوَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَعْمَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَخْلَاقِهِ
ثُمَّ صَدَقَ فِي أَحْوَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَنْفَاسِهِ (١) .. فَصِدْقُهُ فِي الْقَوْلِ أَلَا يَقُولُ إِلَّا عَنِ بَرَهَانٍ ،
وَصِدْقُهُ فِي الْعَمَلِ أَلَا يَكُونُ لِلْبِدْعَةِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَخْلَاقِ أَلَا يُبْلِحُ حِظَّ إِحْسَانِهِ
مَعَ الْكَافَّةِ بَيْنَ النَّفْسَانِ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَشْفٍ وَبَيَانٍ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَنْفَاسِ
أَلَا يَنْفَسُ إِلَّا عَلَى وَجُودٍ كَالْبَيَانِ (٢) .

قوله جل ذكره : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ
إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ بِشَهَادِ الْنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ » .

كَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَأُظْهِرُوا ، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَنْ بَصِيرَةٍ وَلَمْ يَسْتَدُوا تَعْدِيْقَكَ ، فَهُمْ لَمْ
يَكْذِبُوا فِي الشَّهَادَةِ (٣) . وَلَكِنْ كَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ : إِنَّهُمْ مُخْلِصُونَ لَكَ ، مُصَدِّقُونَ لَكَ .
فَمِيقَةُ الْقَالَةِ لَا يَنْفَعُ مَعَ قُبْحِ الْحَالَةِ .

(١) هكذا في م (المنامه) والمصواب ما أثبتنا بدليل ما بعده .

(٢) لاحظ هنا كيف تنفق إشارة البسملة مع السياق العام للسورة .

(٣) أي تقريرهم بأن محمداً رسول الله حقيقة ليس فيها كذب ، فمن حيث الظاهر فقد نطقت ألسنتهم بالصدق ،
ولكن الكذب كامن في القلب .

ويقال : الإيمان ما يوجبُ الأمان ؛ فالإيمانُ يوجبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصه من العذاب أكثره وأقله . . . إلا ما يقتله من (أعلى) ^(١) جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : « اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا

عن سبيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

تَسْتَرُّوا بِأَقْرَابِهِمْ ، وَتَكْشِفُوا بِنِفَاقِهِمْ عَنْ أَسْتَارِهِمْ فَاتَّضَحُّوا ، وَذَاقُوا وَبَالَ أَعْوَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » .

استضاءوا بنور الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة ، فانطلقاً نورهم بقهرِ الحرمان ، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الشقاوة .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ

هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى

يُؤْفَكُونَ » .

أى هم أشباحٌ وقوالبٌ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق — فالجوز ^(٢) الفارغُ مزِينٌ ظاهرُهُ ولكنه للب الصبيان ^(٣) .

« يحسبون كل صيحة عليهم .. » وذلك لِجُبْنِهِمْ ؛ إذ ليس لهم اتعاشٌ برَبِّهِمْ ، ولا استقلالٌ بغيرهم .

(١) سقطت (أعلى) من النسخ في م وهي موجودة في ص .

(٢) هكذا في م وهي في ص « الخوض » وقد رجعنا الأولى .

(٣) في هذه الإشارة تنبيه إلى قاعدة سوقية : أن العبرة بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح (أى الأجساد) .

« هم العدو فاحذرهم » هم عدوك — يا محمد — فاحذرهم ، ولا يفرّئك تبسطهم
في الكلام على وجه التودّد والتقرب .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفِرْ لكم
رسولُ اللهِ لَوَّوا رؤسهم ورأيتهم
يصدّون وهم مُستَكبرون » .

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبر ، وإظهار الاستغناء عن استغفاركم لهم . . . نفل
سبيلهم ؛ فليس للنصح فيهم مساع ، ولن يُصَحِّبهم من سكرتهم إلّا حرّ ما سيلقونه من العقوبة ،
فأدام الإصرار من جانبهم فإنهم :

« سواء عليهم أاستغفرت لهم أم لم
تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنّ الله
لا يهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

قد سبق العلم بذلك :

قوله جل ذكره : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على مَنْ
عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَهُوَ
خَزَائِنُ^(١) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » .

كانهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غير متحقّقين بتصرف الأيام ،
فأنطقهم بما خامر قلوبهم مِنْ تَمَنَّى انطفاء نور رسول الله ، وانتكاث شملهم ، فتواصوا فيما بينهم
بقولهم : « لا تنفقوا على مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ » فقال تعالى « وَهُوَ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ . . . » .

وليس استقلالك — يا محمد — ولا استقلال أصحابك بالمرزوقين . . بل بالرازق ؛ فهو
الذي يمسككم .

(١) « وَهُوَ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بهذا أجاب كثيرون من أرباب الطريق كحاتم الأصم والجندب والشبل
عندما كانوا يسأل أحدهم : من أين تأكل ؟

قوله جل ذكره : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة

ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ والله العِزُّ

ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون » .

إنما وقع لهم التلَطُّ في تعيين الأعزِّ والأذلِّ ؛ فتَوَهَّسوا أنَّ الأعزَّ هم المنافقون ، والأذلَّ هم

المسلمون ، ولكن الأمر بالمعكس ؛ فلا جرم غلبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمسلمون ،

وأذلَّ المنافقون بقوله : « والله العِزَّة ولرسوله وللمؤمنين » : الله عزُّ الإلهية ، والرسول عزُّ النبوة ،

والمؤمنين عزُّ الولاية . . . وجميع ذلك الله ؛ فَمِزَّةُ القديمِ صِفَتُهُ ، وعِزُّ الرسول وعِزُّ المؤمنين

له فِعْلاً وَمِثَّةً وَقَضْلاً ، فإذاً الله العِزَّةُ جميعاً .

ويقال : كما أنَّ عِزَّةَ الله — سبحانه — لا زوالَ لما فَمِزَّةُ الأنبياء بأن لا عزَّ لهم ،

وعِزَّةُ المؤمنين بالأَيُّمِيِّ منهم مُخَلَّدٌ في النار .

ويقال : مَنْ كانَ إيمانه حَقِيقاً فلا زوالَ له .

ويقال : مَنْ تَمَرَّزَ باللهِ لم يَلْحَظْ تَغْيِراً عن حاله بغير الله .

ويقال : لا عِزَّ إِلَّا في طاعةِ الله ، ولا ذُلَّ إِلَّا في معصيةِ الله . . وما سوى هذا

فلا أصلَ له .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم

أموالكم ولا أولادكم عن ذكرِ الله

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

الضالُّونَ » .

لا تُضَيِّعُوا أُمُورَ دِينِكُمْ بسببِ أُمُوالِكُمْ وأولادِكُمْ بل آثَرُوا حَقَّ الله ، واشتغلوا به

يَكْفِيكُمْ أُمُورَ دُنْيَاكُمْ وأولادكم ؛ فإذا كُنْتَ لله كان الله لك (١) .

(١) لتذكر ما قلناه في مدخل هذا الكتاب بأن القشيري نفسه قد ضرب المثل على ذلك حين هاجر من بلده تاركاً أمه في رعاية الله حيناً تمرَّضت عقيدته للمحنة .

ويقال : حق الله مما أئتمك القيام به ، وحقك ضمن لك القيام به ؛ فاشتغل بما كُلفت
لا بما كُفيت .

قوله جل ذكره : « وَأَنْتَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ
لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ
وَأَكُنُّ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

لا تفتروا بسلامة أوقاتكم ، وترقبوا بفتات آجالكم ، وتأهبوا لما بين أيديكم
من الرحيل ، ولا ترجعوا في أوطان التسويف .

سُورَةُ التَّغَايُنِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله...» كلمة عزيزة مَنْ ذَكَرَهَا يحتاج إلى لسانٍ عزيزٍ في الفية لا يُبْتَدَلُ ،
وفي ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَلُ . وَمَنْ عَرَفَهَا يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس في كلِّ ناحية منه
خليط ، ولا في كلِّ زاوية زبيط .

قوله جل ذكره: «يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَدُّ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

المخلوقات كلها بحمלתها لله سبحانه مُسَبَّحَةٌ . . ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحها مَنْ به
طَرَشُ النكرة . .

ويقال : الذي طَرَأَ صَمُّهُ قَدْ يُرْجَى زواله بنوع معالجة ، أمّا مَنْ يُولَدُ أَصَمًّا فلا حيلة
في تحصيل سماعه . قال تعالى : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ لِلْقَوْمِ »^(١) وقال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ
خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ »^(٢) .

قوله جل ذكره : « هو الذي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرًا
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنًا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءَ كَافِرًا ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يَكْفُرُ وَأَرَادَ بِهِ الْكَفْرَ ... وكذلك

(١) آية ٥٢ سورة الروم .

(٢) آية ٢٣ سورة الأنفال .

كانوا . ومنكم مؤمنٌ في سابق حكمه سَمَّاهُ مؤمناً ، وَعَلِمَ في آزاله أَنه يؤمن وخلقهُ مؤمناً ،
وأرادهُ مؤمناً . . والله بما تعملون بصير .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ » .

« خلق السموات والأرض بالحق » : أى وهو مُحِقٌّ في خَلْقِهِ .
« وصوَّرَكُمْ فأحسن صوركم » لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذى قال لنا ، صوِّر الظاهرَ
وصوِّر الباطنَ ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته ، والباطن شاهدٌ على جلال قربته ^(١) .

قوله جل ذكره : « يعلم ما فى السموات والأرض ويعلمُ
ما تُسرُّون وما تُعلنون واللهُ عليمٌ
بذاتِ الصدورِ » .

قَصَّروا حَيْلَكُمْ عن مطلوبكم ، فهو تنقاصر عنه علومكم ، وأنا أعلمُ ذلك دونكم . .
فاضنبوا مئى ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .
ويقال : « ويعلم ما تُسرُّون » . فاحذروا دَقِيقَ الرِياءِ ، وَخَفِيَّ ذَاتِ الصدورِ « وما تُعلنون » :
فاحذروا أن يَخَالَفَ ظاهركم باطنكم .

في قوله « ما تُسرُّون » أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربّه .
وفي قوله « ما تُعلنون » أمرٌ بالصدق فى المعاملة والمحاسبة مع الخلق ^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَأْنِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن
قَبْلُ فذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم وَلَهُم عَذَابٌ

(١) - القرية هنا إشارة إلى تمييز الإنسان من بين المخلوقات بقيام المحبة بمعناها الخاص بينه وبين الحق سبحانه ،
وقد سبق بيان ذلك فى مواضع مختلفة .
(٢) مرة أخرى تنبه إلى ضرورة فهم الفرق بين اصطلاحى : المراقبة والمحاسبة - حسب المنهج التشيىرى .

أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلهم
باليّناتِ قالوا أبشّرْ يَهْدُونَا
فكفروا وتولّوا وأستغنى الله واللهُ
غنيٌ حميدٌ .

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، وَمَنْ لم يعتبرْ عَثَرَ في مَهْوَاةٍ من الأملِ ،
ثم لا يَلْتَمِشُ إِلَّا بعد فواتِ الأمرِ من يده .

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم . . » . شاهدوا الأمرَ من حيث الخلقِ فتطوّحوا
في متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوالِ . ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلصوا من تفرقة الأباطيل ،
واستراحوا بشهود^(١) التقدير من اختلافِ الأحوالِ ذات^(٢) التغير .

قوله جل ذكره : « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا
قُلْ : بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

الموتُ نوعان : موتُ نفسٍ ، وموتُ قلبٍ ؛ ففي القيامة يُبْعَثُونَ من موتِ النفسِ ، وأمّا
موتُ القلبِ فلا يَبْعَثُ منه — عند كثيرٍ من مخلصي هذه الطائفة ، قال تعالى مُخْبِرًا عنهم : « قالوا
يا ويلنا مَنْ بَعَثَنَا من مَرْقَدِنَا ؟ »^(٢) فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك ؛ فموتُ قلوبهم مُسَرَّمَدٌ إلى
أن تصيرَ معارفهم ضرورةً ، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي
أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

« النور الذي أنزلنا » : القرآن . ويجوز أن يكونَ ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة
وفنون الألفاف .

(١) هكذا في ص وهي في م (من شهود) وهي خطأ من الناسخ .
(٢) في النسختين (ذوي) وقد رأينا أن تكون (ذات) أو (ذوات) .
(٣) آية ٥٢ سورة يس ، والفرق واضحٌ بين هذه القالة وبين ما قاله أصحاب الكهف المؤمنون .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ

يَوْمُ التَّنَائُنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ

صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

الطَّيِّعُ — يومئذٍ — في غيب لأنه لم يستكثر من الطاعة ، والعاصي في غيب لأنه استكثر
من الزَّلة (١) .

وليس كل النِّبِ في تفاوت الدرجات قلة وكثرة ، فالنِّبِ في الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

أَيُّ حَصَلَةٍ حَصَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ خَلْقًا ، وبعلمه وإرادته حُكْمًا .

وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ إِلَى اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالضَّرِّ — الْيَوْمَ —

وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِ إِلَى الْجَنَّةِ .

ويقال : « يَهْدِ قَلْبَهُ » لِلْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ ، وَالتَّنَقُّيِّ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ .

ويقال : « يَهْدِ قَلْبَهُ » لِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدْعَةِ .

قوله جل ذكره : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » .

(١) قال بعض الصوفية : إن الله كتب النِّبِ على المخلوق أجمعين ، فلا يلقي أحدٌ ربه إلا مغبوناً ؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب ، وفي الأثر قال النبي (ص) : « لا يلقي الله أحدٌ إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحسن ، وإن كان محسناً إن لم يزدده القرطبي ١٨ ص ١٣٨ .

طاعةُ الله واجبةٌ ، وطاعةُ الرُّسُلِ — الذين هم سفراءُ بينه وبين الخلقِ — واجبةٌ كذلك . والأنوار التي تظهر عليك^(١) وتطالبُ بمقتضياتها كلها حقٌ ، ومن الحقِّ . . فتعجب طاعتها أيضاً .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوا ، وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

إذا دَعَوَكَ لتجتمعَ لهم الدنيا فهم عدوُّكَ ، أمّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف^(٢) فليسوا لكم أعداء .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

« فِتْنَةٌ » : لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله ؛ فما تَبَيَّنَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك .

ويقال : إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُونَ بذلك عن أداء حقِّ مولاكم ، وتشغلكم أولادُكم ، فتبتغون بهم عن طاعة الله — وتلك فِتْنَةٌ لكم . . ترومون إصلاحهم . فتفسدون أنتم وهم لا يُصْلَحُونَ ! .

قوله جل ذكره : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْتَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(١) الخطاب هنا موجهٌ إلى صاحب الأحوال والكشوفات .

(٢) صَفَّ عَفَّةً وعَفَافاً أي كفَّ عما لا يعمل ولا يعمل . ويقال : هم أَعْفَى الْفَقْر ، أي : إذا افتقروا لا يسانون . (الوسيط) .

أى ما دمتَ فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله . والتقوى عن شهود
التقوى بعد ألا يكون تصير فى التقوى غاية التقوى .

« ومن يوق شح نفسه » حتى ترتفع الأخطار^(١) عن قلبه ، ويحرر من رِقِّ المكنونات ،
فأولئك هم المفلحون .

قوله جل ذكره : « إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه
لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلِيمٌ . »

يتوجه بهذا الخطاب إلى الأغنياء ليبدل أموالهم ، وللفقراء فى إخلاء أيامهم وأوقاتهم من
مراداتهم وإبشارٍ مرادٍ الحق على مراد أنفسهم .

فالفنى يُقال له : آثر حُكْمى على مرادك فى مالك ، والفقير يُقال له : آثر حُكْمى
فى نفسك وقلبك ووقتك وزمانك .

« عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الحكيمُ » .

جلَّ شأنه .

(١) المقصود بالأخطار هنا : حبان أن الشئ أهميةً وشأنًا .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ مَنْ لاسبيلَ إلى وصاله ، ولا غُنيةَ — في غيره — عن فعله ، اسمٌ مَنْ عَلِمَهُ وقع في كلِّ سكونٍ وراحة ، اسمٌ مَنْ عَرَفَهُ وقع في كلِّ اضطرابٍ وإطاحة^(١) ، العلماء بسرّاب علمهم استقلوا فاستراحوا ، والعارفون بسلطان حُكْمِهِ اضطلُّوا عن شواهدهم .. فبادوا وطلّحوا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ

فَطَلَّقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ... » .

الطلاقُ — وإن كان فراقاً — فلم يجعله الحقُّ محظوراً ... وإن كان من وجهٍ مكروها .

وللطلاق وقتية^(٢) : سُنِّية وبدعية ، ومباحة ، لاسنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أن تطلقَ في طهرٍ لم تباشرفيه طلاقاً واحداً ، والبدعية : في حال الحيض وطهرٍ جُمعت فيه ، والمباحة : في طهرٍ بعد حيضٍ ثم يطلقها من قبل أن يجامعها^(٣) — والطلاق أكثر من واحدة .

(١) أطاحه إطاحةً أي أفناه وأذهب .

(٢) أي وجوه مرتبطة بأوقات خاصة . روى الدارقطني عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان : فأما الحلال فأن يطلقها طاهرًا من غير جماع ، وأن يطلقها حاملاً سنيًا حملها . وأما الحرام فأن يطلقها وهي سائض ، أو يطلقها حين يجامعها لا تدري اشتعل الرحم على ولدٍ أم لا .

(٣) قال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضاً تطلقته واحدة ، فأمره رسول الله (ص) بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر — من قبل أن يجامعها . ويقال : إنها نزلت في أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية .. فلم يكن قبلها المطلقة عدة ، وحين طلقت على عهد النبي (ص) طلقت بالعدة (هكذا في كتاب أبي داود) .

والعِدَّةُ — وإن كانت في الشريعة لتحسين ماء الزوج (محاماة على الأنساب) (١) لئلا يدخل على ماء الزوج ماء آخر — فالغالب والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية في وصلة النكاح (٢).

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقل من الوفاء مدة لهذه الصغيرة التي لم تحيض ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التي انقطع حيضها ، والحُبلى حتى تلد . . . كل ذلك مراعاة للحرمة : وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول ؛ لأن حرمة الميت أعظم (٣) وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة . . . المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : « وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » .

العبودية : الوقوف عند الحد ، لا بالتقصان عنه ولا بالزيادة عليه ، ومن راعى مع الله حده أخلص الله له عهده . .

« لا تدرى لعلَّ الله يُخَدِّثُ بعد ذلك أمراً » .

قالوا : أراد ندماً ، وقيل : ولداً ، وقيل : مثيلاً إليها ، أولها إليه ؛ فإن القلوب تنقلب :

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبر مع الأشكال حقاً للحرمة المتقدمة فالخلاص من مساكنة الأمثال ، والتجرؤ لعبادة الله تعالى أولى وأحق .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

(١) موجودة في ص وغير موجودة في م .

(٢) القشيري يركز جهده في استخراج إشارات في الصحبة والساحب وغير ذلك من المعاني من آيات الطلاق — غير مهم بتفاصيل هذا الموضوع الواسع الذي تعنى به كتب الفقه المتخصصة .

(٣) يقول القشيري في الصفحة ١٨٨ من المجلد الأول من هذا الكتاب : كانت عِدَّةُ الوفاة في ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب ؛ وفعلهم ، ثم فُسخ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد . « والمطلقات متاع بالمعروف » والإشارة فيه ألا تجسوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

إذا صدّق العبدُ في تقواه أخرجته من بين أشغاله كالشجرة تُخرجُ من بين العجين لا يعلقُ بها شيءٌ . ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِي مرادقاتٍ عنايته ، ويدخلُه في كنف الإيواء ، ويصرفُ الأشغال عن قلبه ، ويخرجُه من ظلمات تديره ، ويجرّده من كل أمر ، وينقله إلى شهود فضاء تقديره .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » .
لم يقل : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْهُ حَسْبُهُ ، بل قال : فهو حسبه ؛ أى فاللهُ حَسْبُهُ أى كافيه .

« إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » .

إذا سبقَ له شيءٌ من التقدير فلا محالة يكون ، وتوَكَّلْهُ لا يتغير المقدور ولا يستأخر ، ولكن التوَكَّلَ بنيانه على أن يكون العبدُ مَرْوَحَ القلب غيرَ كارِهٍ .. وهذا من أجل النعم .
قوله : « وَاللَّائِي يَتُسَّنَّ مِنَ الْحَيْضِ » ... إلى قوله :
« يَحْمِلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسرًا » .

التوكلُ : شهود نفسك خارجًا عن المكنة^(١) تجري عليك أحكامُ التقدير من غير تدبير منك ولا اطلاع لك على حكمه ، وسبيلُ العبدِ الخلود والرضا دون استعلاء الأمر ، وفي الخبر : « أعوذ بك من علمٍ لا ينفع » : ومن العلم الذي لا ينفع — ويجب أن تستميدَ منه — أن يكون لك شغلٌ أو يستقبلك مُهمٌّ من الأمر ويشتهه عليك وجهُ التدبير فيه ، وتكون مُطالبًا بالتفويض — فطلبك العلم وتمنيك أن تعرف متى يصلح هذا الأمرُ ؟ ولأى سببٍ ؟ ومن أى وجهٍ ؟ وعلى يد من ؟ ... كل هذا تخطيطٌ ، وغيرُ مُسلمٍ شيءٌ منه للأكابِر .

فيجب عليك السكون ، وحسنُ الرضا . حتى إذا جاء وقتُ الكشفِ فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينتظر العبدُ في هذه الحالة تعريقًا في المنام أو ينظر في (...)^(٢) من الجامع ،

(١) المكنة بضم الميم هي ما في إمكان الإنسان وجيلته واستطاعته .

(٢) مشبهة في النسختين .

أو يرجو بيان حاله بأن يجرى على لسان مستطلق في الوقت . . كل هذا ترك للأدب ، والله لا يرضى بذلك من أوليائه ، بل الواجب السكون .

قوله جل ذكره : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا » .

إذا اتسع رزق العبد فعلى قدر المكنة يطالب بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه — أى ضيق — فلينفق مما آتاه الله أى من متاع البيت ، ومن رأس المال — إن لم يكن من الربح ، ومن ثمن الضيعة — إن لم يكن من القلة .

ومن ملك ما يكفيه للوقت ، ثم اهتم بالزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرضى^(١) عنه ، وصاحبه غير معان . فأمّا إذا حصل العجز بكل وجه ، فإن الله تعالى : لا يكلف نفساً إلا ما آتاه ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً . هذا من أصحاب المواعيد — وتصدقته على حسب الإيمان ، وذلك على قدر اليقين — ويقينه على حسب القسمة . وانتظار اليسر^(٢) من الله صفة المتوسطين في الأحوال ، الذين انحطوا عن حد^(٣) الرضا واستواء وجود السبب وقدره ، وارتقوا عن حدّ اليأس والقنوط ، وعاشوا في أفاء^(٤) الرجال يعللون^(٥) بحسن المواعيد . . وأبدأ هذه حالتهم وهي كما قلنا^(٦) :

إِنْ نَآبَكَ الدَّهْرُ بِمَكْرُوهِهِ قَعِشَ بِتَهْوِينِ تَصَانِفِهِ
فَعَنَ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَقْضَى كُلُّ تَصَارِفِهِ

(١) مكذا في م وهي في م (مرحوم) .

(٢) مكذا في م وهي في ص . (البر) وقد آثرنا الأول نظراً لسياق الآية ذاتها .

(٣) مكذا في م وهي في ص (درجة) وقد آثرنا الأول بدليل ورودها فيها بعد .

(٤) مكذا في ص ولكنها في م (افناء) والصواب الأولى .

(٥) أى يعللون النفس .

(٦) أى أن النص الشعري للشعيرى نفسه . (انظر الشعيرى الشاعر في كتابنا : الإمام الشعيرى)

قوله جل ذكره : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
 وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا
 وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ
 وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا
 خُسْرًا » .

مَنْ زَرَعَ الشُّوْكَ لَمْ يَجْنِ الْوَرْدَ ، وَمَنْ أَضَاعَ حَقَّ اللَّهِ لَا يُطَاعَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ^(١) . وَمَنْ
 اجْتَرَأَ ^(٢) بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَلْيَصْبِرْ عَلَى مَقَاسَةِ عِقَابِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا *
 رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
 لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ . . . فَمَنْ اسْتَضَاءَ بِنُورِهِ اهْتَدَى ، وَمَنْ جَاءَ إِلَى سَعَةِ
 فَنَاءِهِ وَصَلَ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إِلَى شِفَائِهِ ^(٣) .

وَمَنْ يُوْرِنُ بِاللَّهِ ، وَيَعْمَلُ صَالِحًا لِلَّهِ ، وَفِي اللَّهِ ، فَلَهُ دَوَامُ النُّعْمِ مِنَ اللَّهِ . . . قَالَ تَعَالَى :
 « قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا » .

وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا كَانَ عَلَى حَدِّ الْكَفَايَةِ ؛ لَا قِصَاصَ فِيهِ تَتَعَطَّلُ الْأُمُورُ بِسَبَبِهِ ، وَلَا زِيَادَةً
 فِيهِ تَشْتَغْلُهُ عَنِ الِاسْتِمْتَاعِ بِمَا رُزِقَ لِحِرْصِهِ .

كَذَلِكَ أَرْزَاقُ الْقُلُوبِ . أَحْسَنُهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ فِي الْوَقْتِ ؛ مِنْ غَيْرِ

(١) هَكَذَا فِي صِرَ وَهِيَ أَصَوْبٌ مِمَّا فِي مِ (حَقَّ نَفْسِهِ) فَالْحَقُّوقُ هُوَ وَالْحَقْطُوطُ الْبَد .

(٢) هَكَذَا فِي صِرَ وَهِيَ أَصَوْبٌ مِمَّا فِي مِ (اجْتَرَأَ) فَيَاقُ الْآيَةُ يَوْحَى بِذَلِكَ .

(٣) أَصْلُ الْجُمْلَةِ (وَصَلَ إِلَى شِفَائِهِ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ) . . . وَلَكِنْ غَرَسَ التَّشْيِيرُ عَلَى التَّرْكِيبِ الْمَوْسِيقِ دَفْعَهُ إِلَى
 هَذِهِ الصِّيَاغَةِ .

نقصان يجعله يتعذب بتعطشه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خطرٍ من مغالطة لا يخرج منها
إلا بتأييد سماويٍّ من الله (١) .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومن
الأرضِ مثلهنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ
لتعلموا أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ
وأنَّ اللهَ قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً » .

خلق سبع سمواتٍ ، وخلق ما خلق وهو مُحِقٌّ فيما خلق وأمر ، حتى نعلم استحقاق
جلاله وكَمال صفاته ، وأنه أمضى فيما قضى حُكماً ، وأنه أحاط بكلِّ شيءٍ علماً .

(١) رأى القشيري في « الرزق الحسن » مفيد في دراسة الجانب النفسي عند الصوفية ، والحدود التي يبدأ عندها
الصراع الداخلي ، وآفات ذلك ، وعلاجه .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسمٌ عزيزٌ يُعْمَلُ مِنْ عَصَاهُ ، فإذا رجع وناداه .. أجابه ولَّيَّاهُ (١) فإن لم يتوسَّلْ بِصِدْقِ قَدَمِهِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ ثُمَّ تَنَصَّلَ بِصِدْقِ نَدَمِهِ فِي آخِرِ عَمَلِهِ أَوْسَعَهُ غَفْرًا (٢) ، وقبل منه عُذْرًا ، وَأَكْمَلَ لَهُ ذُخْرًا ، وَأَجَزَلَ لَهُ بَرًّا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

جاء في القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حرَّم على نفسه مارية القبطية ، وفي الحال حَلَفَ ألاَّ يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة حيث رأت النبي صلى الله عليه وسلم معها في يومها (٣) .
وقيل : حرَّم على نفسه شَرْبَ الصَّلِ لَمَّا قَالَتْ لَهُ زَوْجَاتُهُ ، إِنَّا نَشْمُ مِنْكَ رِيحَ الْمَغَافِرِ ! — والمغافير صمغ في البادية كريحه الرائحة ، ويقال : بقلة كريحه الرائحة ... فعاتبه الله على ذلك .
وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصِّغَارَ عَلَيْهِ ، وَتَرَكَ لِلأَوَّلَى عَلَى مَذْهَبِ مَنْ لَمْ يَجُوزْ .

(١) هكذا في م وهي في ص (أبكاه) وهي خطأ في النسخ .
(٢) هكذا في م وهي في ص (عفواً) وهي وإن كانت مقبولة إلا أن التركيب الموسيقي يجعلنا نؤثر (غفرأ) .
(٣) الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال : دخل الرسول (ص) بأم ولده مارية في بيت حفصة وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت : تدخلها بيوت ! ما صنعت بي هذا من بين قسائك إلا من هواني عليك فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهي حرام علىَّ إن قربتها .

وقيل : إنه طلق حفصة طلقاً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صوامئة قوامئة

وقيل : لم يطلقها ولكن تم بتطليقها فمنعه الله عن ذلك .

وقيل : لما رآته حفصة مع مارية في يومها قال لها : إني مُسِرٌّ إليك ميراً فلا تخبري أحداً : إن هذا الأمر يكون بعدى لأبي بكر ولأبيك .

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فسأل النبي حفصة : لم أخبرت عائشة بما قلت ؟ .

فقلت له : ومن أخبرك بذلك ؟ قال أخبرني الله ، وعرفت حفصة بعض ما قالت ، ولم تصرخ لها بجميع ما قالت ، قال تعالى : « عرفت^(١) بعضه وأعرض عن بعض » ، فعاتبها على بعض وأعرض عن بعض — على عادة الكرام .

ويقال : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : « اللهم إني أعوذ بك من كل قاطع يقطعني عنك » .

وظاهر هذا الخطاب^(٢) عتاب على أنه مراعاة لقلب امرأته حرّم على نفسه ما أحلّ الله له .

والإشارة فيه : وجوب تقديم حق الله — سبحانه — على كل شيء في كل وقت .

قوله جل ذكره : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم »

والله مولاكم وهو العليم الحكيم » .

أنزل الله ذلك عناية بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كفر بعنق رقبة ، وعاود مارية .

(١) وفي قراءة « عترف » بدون التشديد : أي غضب فيه وجازى عليه ، وهو كقولك لمن أساء إليك : لأعزن لك ما فعلت أي : لأجازيتك عليه ، وجازاها الشيء بأن طلقها طلقاً واحدة . وكان أبو عبد الرحمن السلمي يحصب بالحجارة من يقرأها مشددة .
(٢) أي « يا أيها النبي لم تُحرّم ما أحلّ الله لك ... »

والله — سبحانه — أجرى سُنَّتَهُ بأنه إذا ساكن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوْشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أن يُعاوِدَ رَبَّهُ ، ثم يكفيه ذلك — ولكن بعد تطويل مدَّةٍ ، وأنشدوا في معناه :

إِذَا عُلِّقَتْ رُوحِي حَبِيبًا تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كِي تَسْلُبْنِيهِ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن (١) ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الكفاية ، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة . . . كل ذلك غَيْرَةٌ من الحق عليه ، وإرادته — سبحانه — تشويش قلوبهم حتى يكون رجوعهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جل ذكره : « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » .

عاتبهما على السبر من خَطَرَاتِ القلب ، ثم قال : « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ . . . » .
« صالح المؤمنين » مَنْ لم يكن منهم في قلبه فُتَاق ، مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .
وجاء : أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله :
لو أمرتني لأضربن عُنُقَهَا ! (٢)

(١) دخل عليه عمر في المشربة فإذا هو مضطجع على حصير قد أثر في جنبه ، وبجواره قبضة من شعير وتكاد غزائته تخلو من كل شيء فبكى عمر وقال : يابني الله .. أنت رسول الله .. وذلك قيصر وكسرى في النار والآنهار ، فقال النبي : يابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولم الدنيا ؟ فقال عمر : إن كان يشق عليك من أمر النساء .. فإن كنت تطلقن فإن الله معك وملائكته ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون ! ولم يزل يحدثه حتى تهشم صلوات الله عليه وغربا إلى الناس .

(٢) لما سمع عمر الناس بالمسجد يقولون : لقد طلق الرسول نساءه ! غضب وذهب إلى بيت النبي ليعلم الأمر فذهب أولاً إلى عائشة وقال : يا بنة أبي بكر أفد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله ؟ فقالت : يابن الخطاب عليك بعبيتك ، فأتته إلى حفصة وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك .. فبكيت بكاءً شديداً . وذهب إلى رسول الله قائلاً : والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنق ابنتي لفعلت .

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية .
ثم قال تعالى زيادة في العتاب وبيان القصة :

« عسى رَبُّهُ أَنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ
مِلَاتِ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِلَاتٍ تَأْتِيَنَّ عَابِدَاتِ سَائِحَاتٍ
ثِيَابٍ وَأُنْكَارًا » .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ » .

أى : فقهوهم ، وأدبهم ، وادعوهم إلى طاعة الله ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم
وتعليقهم .

ودلت الآية : على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب .
وقيل : أظهروا من أنفسكم العبادات ليتعلموا منكم ، ويعتادوا كمادتكم .
ويقال : دلّوهم على السنّة والجماعة .
ويقال : علّموهم الأخلاق الحسان .
ويقال : مرّوهم بقبول النصيحة .

« وقودها الناس والحجارة » : الوقود : الخطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مدرّة ، فإن أصل الإنسان مدرّة ، ولو أنه أقام حجرة
مقام مدرّة فلا غرو من فضل الله .
اللهم فآلتي فيها بدّلنا حَجَرًا وخلصنا منها .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا
اليَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »
إذا فات الوقت استفعل الأمر ، وانطلق الباب ، وسقطت الحيل . . فالواجب البدار
والفرار لتصل إلى روح القرار .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً
نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ
عَنكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »

التوبة النصوح : هي التي لا يعقبها نقص .

ويقال : هي التي لا تراها من نفسك ، ولا ترى نجاتك بها ، وإنما تراها بربك .

ويقال : هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الزلّة كما كنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ
لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

لا يخزي الله النبي بترك شفاعته ، والذين آمنوا معه باقتضائهم بعد ما قبل فيهم شفاعته .

« نورهم يسعي بين أيديهم وبأيمنهم » عبر بذلك عن أن الإيمان من جميع جهاتهم .

ويقال : بأيمنهم كتاب نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ،
وما يخصهم الله به من الأنوار في ذلك اليوم .

« يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا » : يستديمون التبصر والابتهاال في السؤال (١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ

عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ » .

أمره بالملاينة في وقت الدعوة ، وقال : « وجادلهم بالتي هي أحسن » (٢) ثم لما أصرّوا —

بعد بيان الحجة — قال : « وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » : لأن هذا في حال إصرارهم ، وزوال أعذارهم .

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الصوفية من بعيد كي لا يكفوا عن التبصر والابتهاال قط فإن خير العمل أدومه ؛
فلاستدامة شرط أساسي لأن الطريق الصوفي طويل وشاق .

(٢) آية ١٢٥ سورة النحل

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً

نُوحٍ وامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ
من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يُغْنِيا
عَنهُمَا من اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا
النَّارَ مع الداخلين » .

لَمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقَةُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ لم تنفعهما القربةُ يَوْمَ الْعُقُوبَةِ .

قوله جل ذكره : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا

امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي
عندك بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي من فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي من الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

قالوا : صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتًا في الجنة ، وكان من حَقِّها أن تطلب الكثير .. ولا كما
توهموا : فإنها قالت : ربِّ ابْنِ لِي عندك ، فطلبتُ جوارَ القربة ، وليتُ في الجوار أفضلُ
من ألف قصرٍ في غير الجوار . ومن المعلوم أن العندية هنا عندية القربة والكرامة .. ولكنه
على كل حال بيت له مزية على غيره ، وله خصوصية . وفي معناه أنشدوا :

إِنِّي لَأُحْسِدُ جَارَكُمْ لجواركم طُوبَى لِمَنْ أَضْحَى لِدَارِكَ جَارًا
يَا لَيْتَ جَارَكَ باعَنِي من داره شَبْرًا لِأَعْطِيهِ بِشِيرِ داراً

قوله جل ذكره : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَخْصَنَتْ

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ
بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظَّاهِرُ » .

ختم السورة بذكرها بعدما ذكر امرأة فرعون ، وهما من جملة النساء ، ولما كثر في هذه
السورة ذكرُ النساء أراد الله سبحانه ألا يُخْلَى السورة من ذكرها تخصيصاً لذكرها^(١)

(١) هكذا في ص وهي في م (لذكرها) والصواب ما أتينا . وجميل من القشيري أن يلفت نظرنا إلى هذا
الملحظ - الذي نظن - والله أعلم - أ : فيه تنبيهاً لنساء النبي بمرض نموذجين لامرأتين صالحتين عزمتا عن الدنيا .

(١)

سُورَةُ الْمُلْكِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ مَنْ لَمْ تَتَعَطَّرْ الْقُلُوبُ إِلَّا بِنَسِيمِ إِقْبَالِهِ ، وَلَمْ تَنْقَطِرْ الدَّمُوعُ إِلَّا لَلْوَعِ
فِرَاقِهِ أَوْ رُوحِ وَصَالِهِ ؛ فَدَمُوعُهُمْ فِي كُلِّمَا الْحَالَتَيْنِ مُنْسِكِبَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِمْ مُنْتَهَبَةٌ
وَعَتُولُهُمْ فِي غَالِبِ أَوْقَاتِهِمْ مُنْتَهَبَةٌ .

قوله جل ذكره : « تبارك الذي بيده الملك وهو على
كل شيء قدير » .

تَقَدَّسَ وَنَعَالَى ، مَنْ إِحْسَانُهُ تَوَاتَرَ وَتَوَالَى ، فَهُوَ الْمُسْكِبُ فِي جَلَالِ كِبْرِيَاثِهِ ، الْمَتَجَرِّدُ
فِي عِلَاءِ بَهَائِهِ وَدَوَامِ سَنَائِهِ .

« بيده الملك » : بقدرة إظهار ما يريد ، وهو على كل شيء قدير .

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم
أأيكم أحسن عملاً وهو العزيز
الغفور » .

خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، ابْتِلَاءً لِلخَلْقِ ، يَخْتَبِرُ لِيُظْهِرَ لَهُ شُكْرَانَهُمْ وَكُفْرَانَهُمْ ، كَيْفَ
يَكُونَانِ عِنْدَ الْحَنَةِ فِي الصَّبْرِ وَعِنْدَ النِّعَةِ فِي الشُّكْرِ — وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

« الذي خلق سبع سموات طباقاً
ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت
فارجع البصر هل ترى من فطور؟ »

(١) قال صل الله عليه وسلم بشأن هذه السورة : « هي المانعة هي المنجية فتنجيكم من عذاب القبر » .

عرّفهم كمال قدرته بدلالات خلقه ، فسَمَك السماء وأمسكها بلا عَمَد ، ورَكَّب أجزاءها
غير مُستعين بأحدٍ في خلقها ، وبالنجوم زَيَّنَهَا ، ومن استراقِ سمعِ الشياطين حصَّنها ،
وبغيرِ تعليمٍ مُعلِّمٍ أحكمها وأتقنها .

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ ، فارجع البَصَر هل ترى من فُطورٍ ؟ » : لا ترى
فيما خلق تفاوتًا ينافي آثار الحكمة ولا يدل على كمال القدرة .

ويقال : ما ترى فيها تفاوتًا ، في استغناؤه عن الجميع . . ما ترى فيها تفاوتًا في الخلق ؛ تخلقُ
الكثير واليسير عنده سيَّان ، فلا يسهلُ عنده القليل ولا يشقُّ عليه الكثير ؛ لأنه مُتَّزِّة
عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به .

فأنعيم النظرَ ، وكرِّر السَّبرَ والفِكرَ . . فلن تجد فيها عيباً^(١) ولا في عزِّه قصوراً .

قوله جل ذكره : « ولقد زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيحَ
وجعلناها رُجوماً للشياطين وأعتدنا
لهم عذاب السعير » .

زَيَّنَ السماء بالكواكب والنجوم ، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواع من الأنوار والنجوم ؛
فالْمُؤْمِنُونَ قلوبُهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمُّل البرهان ، ثم بالتوفيق لطلب
البيان . والعارفون قلوبُهم مُزَيَّنَةٌ بشمس التوحيد ، وأرواحُهم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفريد ، وأسرارُهم
مُزَيَّنَةٌ بآثار التجريد^(٢) . . وعلى القياس : لكل طائفة أنوار .

« وجعلناها رُجوماً للشياطين » : فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم ، ومنها ما هو للاهتداء به
معلوم . . فأخبر أن هذا القَدْر من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي ، وإنما يُعَذِّبُهم مؤبِّدين في السعير .

(١) هكذا في م وهي في ص (مبأ) .

(٢) يميز الكلاباذي بين التفريد والتجريد فيقول (ملخصاً) :

التفريد : أن يتجرد بظاهره عن الأعراض ويباطنه عن الأعواض ، يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعله غيره
ولا لسبب سواه ، ويتجرد بصره عن المقامات والأحوال التي ينازها .

والتفريد : أن ينفرد عن الأشكال ، وينفرد في الأحوال ، ويتوحد في الأفعال ويغيب عن رؤية أحواله برؤية محوِّلها
ولا بأنس بأتكاله ولا يستوحش (التعرف ص ١٣٣) .

قوله جل ذكره : « وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم

وَبَشِئْسَ الْمَصِيرُ • إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا

لَهَا شَهيقًا وهم يَقُورُونَ • تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنْ

الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ

خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ •

أخبر : أنهم محتج عليهم بإرسال الرسل ، فتقول لهم الملائكة : ألم يأتكم نذير ؟

« قالوا : بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا

وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم

إلا في ضلالٍ كبير • وقالوا لو كنا

نسمعُ أو نفقهُ ما كنا في أصحاب

السَّعِيرِ •

« وقالوا لو كنا نسمعُ أو نفقهُ .. » فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا

العقوبة لأجله^(١) ، لم يسمعوا نصيحة الناصحين ولا وعظ الواعظين ، ولا ما فيه لقلوبهم حياة •

وفي الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون ؛ فَإِنَّ مَنْ سَمِعَ بِالْحَقِّ

سمع كل ما يقال عن الحق من كل مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له النعم لما يسمع ، لأنه إذا

كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُهُ من الله وبالله وفي الله .

قوله جل ذكره : « فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب

السَّعِيرِ •

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف .. فلا جرَمَ يقال لهم : « فسحقا

لأصحاب السَّعِيرِ » .

(١) من الآية ومن إشارتها يتضح : أن العقوبة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل الذين يَهْتَسِلُونَ الحجة

ويستقلون العلم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

الخشية توجب عدم القرار^(١) فيكون العبد أبداً — لا نزاعه — كالحب على المثل ؛
لا يفرّ إليه أو ينهاره ، يتوقع العقوبات مع مجارى الأفاضل ، وكلما ازداد في الله طاعة
ازداد لله خشية .

قوله جل ذكره : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

خوفهم بعينه ، وتدبهم إلى مراقبته ؛ لأنه يعلم السر وأخفى ، ويسمع الجهر والنجوى . .
ثم قال مبيناً :

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ » .

وفي كل جزء من خلقه — من الأعيان والآثار — أدلة على علمه وحكمه .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا
فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
وَلِإِلَهِ النَّشُورُ » .

أى إذا أردتم أن تضربوا في الأرض سهلاً عليكم ذلك .

كذلك جعل النفس ذلولاً ؛ فلو طألبتها بالوفاق وجدتها مساعدة مؤاتة ، متابعه
مُسايرة . . وقد قيل في صفتها :

هِيَ النَّفْسُ مَا عَوَّدَتْهَا تَعَوُّدٌ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تُدْخِلُ وَتُخْرِجُ

قوله جل ذكره : « أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ
الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مِّنْ

(١) هكذا في م وهي في م (الفراق) والصواب ما أثبتنا — بدليل ما بعدها .

في السماء أن يُرْسِلَ عليكم حاصباً
فستعلمون كيف نذير .

« من في السماء » أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء ، فهم موكِّلون بالعذاب .

وخرّفهم بالملائكة أن يُنْزِلُوا عليهم العقوبة من السماء ، أو يَخْسِفُوا بهم الأرض ،
وكذلك خوّفهم أن يُرْسِلُوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . ويُنْذِرُ أن مَنْ كَذَّبَ
قَبْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ كيف كانت عقوبتهم ، ثم زاد في البيان وقال :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ
وَيَقْبِضْنَ مَا يُتَّسَكُنُ إِلَّا بِالرَّحْمَنِ
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ » .

أولم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة —
بمخلاف الأجسام^(١) الآخر . . . مَنْ الذي يُمْسِكُهُنَّ ويَحْفَظُهُنَّ وهن يَقْبِضْنَ ويسطرن أجنحتهن
في الفضاء ؟ وما الذي يوجه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الآخر ؟ .

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ
الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » .

إِنْ أراد الرحمنُ بك سويًا . فَمَنْ الذي يُوسِّعُ عليكم ما قَبَضَهُ ، أو يَمْحُو ما أُنْثِنَهُ ،
أو يُقَدِّمُ ما أَخَّرَهُ ، أو يُؤَخِّرُ ما قَدَّمَ ؟ .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَمْشِي مَكِيدًا عَلَى وَجْهِهِ
أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ .
مُسْتَقِيمٌ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (الأصنام) والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود المقارنة بين الطيور وغيرها من
(الأجسام) بصفة عامة .

وَنَخَصَّكُمْ بِالْإِسْمِ وَالْإِفْئَةِ ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ عَظِيمَ نِسْمِهِ .
« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ » .
وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، ويئن أنهم إذا رأوه كيف يخافون
وكيف يندمون .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ
مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ
مَنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ
أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا »
وإليه أمورنا — جملة — فَوَضَّعْنَا .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا
فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ » .
مَنْ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِالْمَاءِ إِذَا صَارَ غَوْرًا فِي الْأَرْضِ لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي .
وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

سُورَةُ الْقَلَمِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَهُ لم يتذللْ بَعْدَهُ لَخَلْقٍ ، ولم يَسْتَعِزْ فيما نابَهُ مِنْ ضُرٍّ أصابه أو خَيْرٍ أرادَهُ بِمُحَدَّثٍ مرزوق .

إن أعطاه قابله بالشُّكْرِ ، وإن منعه استجابَهُ بِجَمِيلِ الحمد^(٢) .

قوله جل ذكره : « ن والقلم وما يسطرون » .

« ن » قيل : الحوت الذى على ظهره الكون ، ويقال : هى الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال : إنه أقسم بِنُصْرَةِ الله تعالى لعباده المؤمنين .

وأقسم بالقلم — وجوابُ القسم قوله :

« ما أنت بنعمة ربك بِمَجْنُونٌ * وإنَّ

لك لأجرًا غير ممنون » .

ما أوجب لصدوره من الوحشة من قول الأعداء عنه :

إنه مجنون ، أزاله عنه بنفيه ، ومحققًا ذلك بالقسم عليه .. وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه — سبحانه — عليهم بخطابه وعنه ينفيه .

(١) هكذا فى ص ، وفى م سورة ن والقلم .

(٢) يمكن أن يفيد ذلك فى التمييز بين الشكر والحمد — كما يرى القشيري .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ » : أى غير منقوص .. لَسَأَلْتَهُ هِمَّتُهُ صلى الله عليه وسلم
عن طلبِ الأعواض أثبت الله له الأجر ، فقال له : إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَنقُوصٍ — وَإِنْ
كُنْتَ لَا تَرِيدُهُ .

ومن ذلك الأجر العظيم هذا الخلق ، فأنت لست تريد الأجر — وَبِنَا لَسْتَ تَرِيدُ ؛
فلولا أَنْ خَصَصْنَاكَ بهذا التحرُّر لَكُنْتَ كَأَمْثَالِكَ فِي أَنَّهُمْ فِي أَسْرِ الْأَعْوَاضِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

كما عرفه الله سبحانه أخبار مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَرَفَهُ أَنَّهُ اجْتَمَعَتْ فِيهِ مَتَرَفَاتُ أَخْلَاقِهِمْ
فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

ويقال : إنه عَرَضَ عَلَيْهِ مَنَافِيحَ الْأَرْضِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا ، وَرَقَاهُ لَيْلَةُ الْمَعْرَاجِ ، وَأَرَاهُ جَمِيعَ
الْمَمْلُوكَةِ وَالْجَنَّةِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، قَالَ تَعَالَى : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى » فَمَا التَفَتَ يَمِينًا
وَلَا شِمَالًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .. وَيَقَالُ : « عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » :
لَا بِالْبَلَاءِ تَتَعَرَفُ ، وَلَا بِالْعَطَاءِ تَنْصَرِفُ ؛ احْتَمَلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْأَذَى شَجَّ رَأْسِهِ وَتَغَرَّه ،
وَكَانَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وَغَدَا كُلٌّ يَقُولُ : نَفْسِي نَفْسِي وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِ يَقُولُ : أُمَّتِي أُمَّتِي .

ويقال : عَلَّمَهُ بِحَسَنِ الْأَخْلَاقِ بِقَوْلِهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ
الْجَاهِلِينَ » (١) .

سَأَلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ : بِمَاذَا يَأْمُرُنِي رَبِّي ؟ قَالَ : يَأْمُرُكَ بِحَسَنِ الْأَخْلَاقِ ؛ يَقُولُ
لَكَ : صَلِّ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، فَتَأَدَّبَ بِهَذَا ؛ فَأَتَى عَلَيْهِ
وَقَالَ : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

قوله جل ذكره : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمْ
الْمُفْتُونُ * »

(١) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

المفترون : الجنون لأنه قَتَنَ أَيْ مُحِنَ بالجنون .

« فَلَا تُطِيعُ الْمَكْذِبِينَ » .

معبودك واحدٌ فليكن مقصودك واحداً . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكن
مشهودك واحداً .

« وَذُؤُوا لَوْ تَذَهِنُ قَيْدُهُنَّ » .

مَنْ أَصْبَحَ عَلِيلاً تَمْنَى أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَرْضَى . . وَكُنَّا مَنْ وَسَمَ بَكَّى الْهَجْرَانِ
وَدَّ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ مَنْ عَادَاهُ .

« وَلَا تُطِيعُ كُلَّ خَلَافٍ مُهِينٍ »

وهو الذي سقط من عيننا ، وأقبناه بالبعد عنا .

« هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ »

محجوب عنا مُعَذِّبٍ بخذلان الوقيعة في أوليائنا .

« مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ ^(١) »

مُهَانٍ بِالشُّحِّ ، مَسْلُوبٍ التَّوْفِيقِ .

« مُعْتَدٍ أَثِيمٍ »

ممنوع الحياء ، مُسْتَقْتٍ في أودية الحرمان .

« عَتَلٌ بِدَذْلِكَ زَنِيمٍ »

لثيم الأصل ، عديم الفضل ، شديد الخصومة بباطله ، غير راجع في شيء من الخير
إلى حاصله .

« أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ • إِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »

(١) عند الجمهور - هو الوليد بن المغيرة ، وكان يقول لبنيه العشرة : من أسلم منكم منعتهم رقتي .

(أى : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنيين.. ثم استأنف الكلام فقال) ^(١) : إذا تلى .. قابَلَهَا بالكذيب ، وحَكَمَ أَنَّ القرآنَ مِنَ الأساطير .

« سَتَسِمُهُ عَلَى الْخُرطوم »

أى سنجعل له فى القيامة على أنفه تشويهاً لصورته كي يُعرَفَ بها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » .

أى امتحنناهم ^(٢) . . حين دعا عليهم النبی صلی الله علیه وسلم ، فابتلام الله بالجوع ، حتى أكلوا الجِيفَ — كما بلونا أصحاب الجنة ، قيل : إن رجلاً من أهل اليمين كانت له جنة مشمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تَمَدَّاهُ الْبَنُجْلُ فلم يجده من السكرم ، فإذا طُرِحَ على البساط فكل شئ سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فما أخطأه القَطَافُ من نخله وكَرَّمَه يَدَّعه للمساكين . وكان يجتمع منه مال ، فلما مات هو قال وَرَثَتُهُ : إِنَّ هَذَا الْمَالَ تَفَرَّقَ فِينَا ، وليس يمكننا أن نفعل ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يُعْطُوا للفقراء شيئاً ، فأهلك الله جَنَّتَهُمْ ؛ فندمو وتابوا .

وقيل : أبدلهم الله جنةً حسنةً ، فأقسموا ليصرمنَّ جَنَّتَهُمْ وقت الصبح قبل أن تفتنَّ المساكينُ ، ولم يقولوا : إن شاء الله :

« فطافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » .

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم . وأصبحت « كالصريم » أى كالليل المسودَّ ، فنادى بعضهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .. والمعنى : لا تطعه — مع هذه الصفات والمآل — ليعاره وحظه من الدنيا وكثرة أولاده .

(٢) يقصد أهل مكة حين دعا عليهم الرسول : اللهم اشدد وطأتك على مصر ، واجعلها عليهم منين كسنى يوسف .

لا يرفضون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعهم أحدٌ . وقصدوا إلى الصرام « على حرِّدٍ » أى :
قادرين عند أنفسهم ، ويقال : على غضبٍ منهم على الساكنين .

فلما رأوا الجنة وقد استوصيت قالوا : ليست هذه جنتنا !!

ثم قالوا : بل هذه جنتنا . . . ولكننا حرِّمنا خيرها .

قال أوسطهم : أى أعدلهم طريقةً وأحسنهم قولاً :

« أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ؟ »

أى : تستثنون وتقولون : إن شاء الله (١) .

« قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين »

ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ويقولون :

« عسى ربنا أن يهد لنا خيراً منها »

« إنا إلى ربنا راغبون » .

قال تعالى : « كذلك العذاب » لأهل مكة « ولعذاب الآخرة أكبر » :

وهكذا (٢) تكون حال من له بداية حسنة ويمجدُ التوفيق على التوالى ، ويحْتَنِبُ المعاصى ،
فيَعُوْذُ الله في الوقتِ نشاطاً ، وتلوحُ في باطنه الأحوالُ . فإذا بدَّرَ منه سوء دعوى أو تركَ
أدبٍ من آداب الخدمة تنسَّدُ عليه تلك الأحوالُ ويقع في قره (٣) من الأعمال . فإذا حصلَ منه
بالعبادات إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ — اقلب حاله ، وردَّ من الوصال إلى البعاد ،
ومن الإقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوته قسوةً . وإن كان له بعد ذلك
توبة ، وعلى ما سلفَ منه ندامة — فقد فات الأمرُ من يده ، وقلماً يصل إلى حاله .

(١) هذا أيضاً رأى مجاهد ، فجعل قول : إن شاء الله من التسبيح ، وهذه هي حقيقة تقديم المشيئة ، فهي
تنزيه لله بأن لا شيء إلا بمشيئته .

(٢) هذه الإشارة موجهة إلى أرباب السلوك يقصد بها إلى التوضيح أن العبرة بالخواتيم ، وينبغي الاهتمام بهذه
الفترة كلها عند بحثنا عن « وصايا القشيري للمريدين » .

(٣) جمع أقره وهو ما اسودَّ من الجلد وتقرَّش .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعاية لما سلف في بدايته من أحواله . . . فإن الله تعالى رءوفٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ » .

الذين يتقون الشرك والكفر ، ثم للعاصي والفاسق ، لهم عند الله الثواب والأجر .

قوله جل ذكره : « أَفَتَجْعَلُ لِلْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ ؟ »

مالك كيف تحكمون ؟ أم
لكم كتاب فيه تدرسون ؟

كيف تحكمون ؟ هل لديكم حجة ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ أم لكم مناهج
فيها تحكمون ؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ »

« عن ساقٍ » : أى عن شدة يوم القيامة .

ويقال في التفسير : عن ساق العرش .

يُؤْمَرُونَ بِالسُّجُودِ ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَسْجُدُونَ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَنُشِذُ أَصْلَابُهُمْ فَلَا تَنْحَنِي .

وقيل : يكشف المريض عن ساقه — وقت التوفى — ليُبصِرَ ضعفه ، ويقول المؤذن :
حي على الصلاة — فلا يستطيع .

وعلى الجملة فقد خوفهم بهذه القالة : إما عند انتهاءهم في الدنيا أو ابتلائهم في الآخرة .

« » وقد كانوا يُدْعَوْنَ إِلَى

السجود وهم سائلون .

يَذَكِّرُهُمْ بِذَلِكَ لِيَزِدَادُوا حَسْرَةً ، وَلِتَكُونَ الْحِجَةُ عَلَيْهِمْ أَبْلَغَ .

قوله جل ذكره : « قَدْزَنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ

سَلَّطْنَا عَلَيْهِم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » .

سَلَّطْنَا عَلَيْهِم مِّنَ الْقُوَّةِ بِمِثْلِ لَا يَشْعُرُونَ .

والاستدراج : أَنْ يَرِيدَ الشَّيْءَ وَيَطْلُبُ عَنْ صَاحِبِهِ وَجَهَ الْقَصْدِ فِيهِ ، وَيُدْرِيهِ إِلَيْهِ شَيْئاً
بَعْدَ شَيْءٍ ، حَتَّى يَأْخُذَهُ بَغْتَةً .

ويقال : الاستدراج : التَّمَكُّينُ مِنَ النِّعَمِ مَقْرُوناً بِنَسْيَانِ الشُّكْرِ (١) .

ويقال : الاستدراج : أَنَّهُمْ كَلَّمَا أَزْدَادُوا مَحْصِيَّةَ زَادَهُمْ نِعْمَةً .

ويقال : أَلَّا يُعَاقِبَهُ فِي حَالِ الزَّلَّةِ ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُ الْقُوَّةَ إِلَى مَا بَعْدَهَا .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغترارُ بطول الإمهال .

ويقال : ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش .

قوله جل ذكره : « وَأَمْلَى لَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُتَّقِينَ »

أَمْلَيْتُهُمْ .. ثُمَّ إِذَا أَخَذْتُهُمْ فَأَخَذِي أَلَيْمٌ شَدِيدٌ .

قوله جل ذكره : « أَمْ نَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ

مُثْقَلُونَ » .

أى : لَيْسَ عَلَيْهِمْ كُفَّةٌ مُقَابِلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَتْ عَلَيْهِمْ غَرَامَةٌ إِنْ هُمْ اتَّبَعُوكَ .. فَأَنْتَ
لَا تَسْأَلُ أَجْراً .. فَمَا مَوْجِبَاتُ التَّأَخُّرِ وَتَرْكُ الاستِجَابَةِ ؟

« أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ؟ » .

أَمْ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ أَفْرَدُوا بِهِ وَأَوْجِبَ لَهُمْ أَلَّا يَسْتَجِيبُوا ؟ » .

(١) في النسختين (يلسان) وهي خطأ قطعاً ، فقد انتهت على كلا النسخين . وإلا لَوَدَّ رَأَيْنَا قَوْلَ سَفِيَّانِ الثَّوْرِيِّ
فِي « سَلَّطْنَا عَلَيْهِم » نَسَبَ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَنَسَبَهُمُ الشُّكْرَ (الفرطى ١٨٠ ص ٢٥١) .

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَسْكُنْ

كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام ، نادى وهو مكظوم : ملوء بالقيظ على قومه .
فلا تستعجل — يا محمد — بتوبة قومك كما استعجل يونس قتي مألقي ، وتثبت عند جريان
حكنا ، ولا تعارض تقديرنا .

« لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ

بالمرء وهو مذموم » .

أى : لولا أن الله رَحِمَهُ بِفَضْلِهِ لَطُرِحَ بِالتَّضَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ وَلَكِنْ :

« فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

فأصطفاه واختاره ، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ

بأبصارهم » .

كانوا إذا أرادوا أَنْ يُصِيبُوا شَيْئًا بِأَعْيُنِهِمْ جَاعُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ جَامُوا وَنَظَرُوا إِلَى ذَلِكَ
الشَّيْءِ قَائِلِينَ : مَا أَحْسَنَهُ مِنْ شَيْءٍ ! فَكَانَ يَسْقُطُ الْمَنْظُورُ فِي الْوَقْتِ . وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِأَنْوَاعِ
مَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : مَا أَفْضَحَهُ مِنْ رَجُلٍ ! وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ حَفَظَهُ ، وَمَرَّ
بذِكْرِهِ عَلَيْهِ ^(١) .

(١) نلبي إلى نقطة هامة .. ورود اسم القشيري عند القرطبي لا يعنى أنه إمامنا عبد الكريم القشيري صاحب هذا الكتاب ، بل ربما كان أحد أبنائه الستة .. فكلهم أئمة . وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبي الجزء العشرين ص ٥٤) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول القشيري هنا وما جاء عند القرطبي في ص ١٨ ص ٢٥٥ (قال القشيري : وفي هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض ، ولهذا قال : ويقولون إنه مجنون) أى ينسبونك إلى المجنون إذا رأوك تقرأ القرآن .

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة عزيزة تحتاج في سماعها إلى سميع عزيز لم يستعمل في سماع الغيبة ، وتحتاج في معرفتها إلى قلب عزيز لم يقبذل في الغفلة والغبية ، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رتبة ، ولم تتبع نفسه اللبس ^(١) والطبّة ^(٢) .

قوله جل ذكره : « الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وما أدراك ما الْحَاقَّةُ » .

« الْحَاقَّةُ » : اسم للقيامة لأنها تحقق ^(٣) كل إنسان بعمله خيره وشره .

« وما أدراك ما الْحَاقَّةُ ؟ » : استفهام يفيد التعظيم لأمرها ، والتفخيم لشأنها .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ » .

ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ ، فَأَهْلَكَهُمْ ، وَاتَّعَمَّ لِأَنْبِيَائِهِ مِنْهُمْ .

وَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهِمْ : الْإِعْتِبَارُ بِهِمْ ، وَالتَّحَرُّرُ عَنْمَا فَعَلُوا لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ .

وَعُقُوبَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُؤَجَّلَةٌ مُؤَخَّرَةٌ إِلَى الْقِيَامَةِ ، وَلَكِنْ خَوَّصَهُمْ عِقُوبَتُهُمْ مُعَجَّلَةً ؛ فَقَوْمٌ

(١) هكذا في ص أما في م فهي (اللبس) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (الطبيرة) وقد رجحنا - وهو ترجيح بعيد - أنها قد تكون (الطبيرة) بمعنى الخاف والمهارة الناجمين عن الحيلة والتدبير ، وربما كانت (ولم يتبع مع نفسه المين والطيرة فالنفس أعدى الأعداء) .

(٣) لأنها تحقق كل محقق في دين الله أي كل محقق (وهو قول الأزهري) . وساقته أي خاصته وادعى كل واحد منهما الحق (الصحيح) .

من هذه الطاقة إذا أشاعوا سراً ، أو أضعوا أدباً ياتقهم بريح الحجة^(١) ، فلا يبقى في قلوبهم أثر من الاحتشام للدين ، ولا يما كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خطر في أحوالهم بأن يمتحنوا (بالاعتراض على التقدير)^(٢) والقسمة .

وأما فرعون وقومه فكان عذابهم بالفرق . . . كذلك من كان له وقت فارغ وهو بطاعة ربه مشغول ، والحق عليه مقبل — فإذا لم يشكر النعمة ، وأساء أدبه ، ولم يعرف قدر ما أنعم الله به عليه رده الحق إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مشربه ، ويصير على خطر بأن يذركه سخط الحق وغضبه .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَّا طَغَى الْمَاءَ حَمَلْنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ » .

وكذلك تكون منته على خواص أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية ، والكون يتلاطم في أمواج بحار الاشتغال على اختلاف أوصافها ، فيكونون بوصف السلامة ، لا متازمة ولا محاسبة لهم مع أحد ، ولا توقع شيء من أحد ؛ سالون من الناس ، والناس منهم سالون .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ » .

بدأ في وصف القيامة والحساب . .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

وفي كل نفس مع هؤلاء القوم^(٣) محاسبة ومطالبة ، منهم من يستحق المعاقبة ، ومنهم من يستحق المعاقبة .

(١) في الإشارة قياس على الرياح التي أهلكت عاداً .

(٢) موجود في م أما في م فهي (الإعراض) فقط .

(٣) يقصد أهل المجاهدات والمذاقات .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ
هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً * إِنِّي ظَنَنْتُ
أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً . »

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، ويأخذ في الحمد واللدح .

« فهو في عيشة راضية » .

القومُ — غداً — في عيشة راضية أى مَرْضِيَّة لهم ، وهؤلاء القوم — اليوم — في عيشة
راضية ، والفرق بينهما أنهم — غداً — في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت
مَآرِبُهم ، وحصلت حاجَتُهم ، وهم — اليوم — في عيشة راضية إذ كَفَوْا مَآرِبَهُمْ فَدَفَعَ
عن قلوبِهِم حوائِجَهُمْ ؛ فليس لهم إرادةُ شيء ، ولا تَمَنُّهُمْ حاجة . وإنما هم في رَوْح الرضا . .
فَيَشُ أُولَئِكَ فِي الْعِطَاءِ ، وَعَيْشُ هَؤُلَاءِ فِي الرِّضَاءِ ؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنى
من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال . ويقال لأولئك غداً .

« كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . اسمعوا منا . . وانظروا إلينا ، واستأنسوا بقرْبنا ،
وطالعوا جمالنا وجلالنا . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً *
وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِي * يَالَيْتَهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ » .

هناك — اليوم — أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم ، ويتضاعف أُنْيُنُهُمْ — ليَلَهُمْ
ونهارُهم — فليَلُهُمْ ويلٌ ونهارُهم بُعَادٌ ؛ تَكَدَّرَتْ مشارِبُهُمْ ، وخربت أوطانُ أُنْسِهِمْ ،
ولا بكَاؤُهُمْ يُرْحَمُ ، ولا أُنْيُنُهُمْ يُسْمَعُ . . فعندَهم أنهم مُبْعَدُونَ . . وهم في الحقيقة من الله
مرحومون ، أسبلَ عليهم الستَرَ فَصَفَّرَهم في أعينهم — وهم أكرمُ أهل القصة كما قالوا :

لا تُنْكِرْنَ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذَاكَ الْجُحُودُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُّسَبَّلٌ
قوله جل ذكره : « فلا أقسمُ بما تبصرون *
وما لا تبصرون » .

« لا » : صلة والمعنى : أقسم ؛ كأنه قال : أقسم بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالث لما يبصرون
وما لا يبصرون . وجواب القسم :

« إِنَّهُ لقولُ رسولٍ كريمٍ » .

أى وجيه عند الله . وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن .
وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أى أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :
« تنزيلٌ من ربِّ العالمين » .

قوله جل ذكره : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل *
لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا
منه الوتين » .

أى لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه ، ولو تعمد لعدّ بناه . والقول بعصمة
الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن :

« وإِنَّهُ لَنَذِكُرُكَ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ
أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ
عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ » .

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء^(١) .

وعلوم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلالاً ؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين
وعين اليقين وحقُّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلالته ، ثم إلى كون
بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً ، ثم ما يكون مع الإدراكات^(٢) .

(١) لو كان اليقين نعماً لم يجوز أن يضاف إليه كما لا تقول : هذا ورد الأحمر ، فالإضافة هنا - كما
يرى القشيري - إلى الشيء نفسه . فإن القرآن حق يقينٌ ويقينٌ حق .

(٢) انظر محاولة القشيري التفرقة بين معانيها في رسالته ص ٤٧ .

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من قالها وَجَدَ جَآلَهَا ، وَمَنْ شَهِدَهَا شَهِدَ جَلَالَهَا .

وليس كلُّ مَنْ قَالَهَا نَالَهَا ، وَلَا كُلُّ مَنْ احْتَمَلَهَا^(١) عَرَفَ جَلَالَهَا .

كلمة رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة ، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة ، كلمة لا بُدَّ للعبدِ من ذِكْرِهَا في كلِّ حالة .

قوله جل ذكره : « سأل سائلٌ بعذابٍ واقع » .

الباء في « بعذاب » بمعنى عن ، أى سأل سائلٌ^(٢) عن هذا العذابِ لِمَنْ هو ؟
قال تعالى :

« للكافرين ليس له دافعٌ * من

اللهِ ذى المَعَارِجِ » .

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع من الله ذى المَعَارِجِ ؛ فهذا العذابُ من الله .

ومعنى « ذى المَعَارِجِ » ذى الفضل ومعالي الدرجات التى يُبْلِغُ إليها أوليائه .

قوله جل ذكره : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

كَانَ مِثْقَادُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

(١) هكذا في النسختين ، ولو صحَّ أنها هكذا في الأصل فربما كان المعنى : ليس كلُّ مَنْ ادَّعى أنه يحمله وتدبيره ومهارته وحذقه وصل إليها قد عرف أسرارها .

(٢) هو النضر بن الحارث قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأعطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وربما تكون سأل بمعنى دعا ، ويكون السائل هو النبي (ص) .

« الروح » أى جبريل ، فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا
يعنى به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحاسبُ الخلق فى يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسيرٍ ما لو كان الناسُ يشتغلون به
لكان ذلك خمسين ألف سنة ، واللهُ يُجْرِى ذلك ويمضيه فى يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرة خمسين ألف سنة للناس ؛ فالثالثة
تخرج فيه من أسفلهِ إلى أعلاه فى يومٍ واحد .

قوله جل ذكره : « فَأَصْبِرْ صَبْرًا جِيلًا » .

فأصبر — يا محمد^(١) — على مقاساة أدام صبراً جيلًا . والصبرُ الجليلُ ما لا شكوى فيه .

ويقال : الصبرُ الجليلُ ألا تستثقلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال : الصبرُ الجليلُ ما لا ينتظرُ العبدُ الخروجَ منه ، ويكون ساكنًا راضيًا .

ويقال : الصبرُ الجليلُ أن يكون على شهود الميلى .

ويقال : الصبرُ الجليلُ ما تجرد عن الشكوى والدعوى .

قوله جل ذكره : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَاهُ قَرِيبًا »

إنَّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وما استبعدَ مَنْ يستبعد إلا لأنه مُرتابٌ ؛ فأما الواقعُ
بالشئ فهو غيرُ مُستبعدٍ له .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِ *

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » .

الإشارة فيه أنه فى ذلك اليوم مَنْ كان فى سُمْرٍ نخوته ونُبُوٍّ صولته يلين ويستكين
ويضعفُ مَنْ كان يشرفُ ، ويذلُّ مَنْ كان يذلُّ .

قوله جل ذكره : « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيًّا » .

لا يتفرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ ؛ فلكلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه .

(١) مكذافى من وهى فى م (بالحمد) وواضح فيها أنها اشتبهت على الناسخ .

ولا يتعهد المساكين - في ذلك اليوم - إلا الله .

« يبصرونهم يومئذ المجرم لو يفتدى
من عذاب يومئذ يبنيه * وصاحبه
وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن
في الأرض جميعاً ثم يُنحيه » .

« يبصرونهم » أى يعرفون آثارهم ، ولكن لا ترقى قلوب بعضهم على بعض .
ويعتق المجرم يومئذ أن يفتدى من عذاب جهنم بأعز من كان عليه في الدنيا من
قريب ونسب وحميم وولد ، وبكل من في الأرض حتى يخلص من العذاب .
« كلاً إنها لظى » .

اسم من أسماء جهنم .

« تَزَاةٌ لِلشَّوَى » (١) .

قَلَاةٌ لِلأطراف . تكشط الجلد عن الوجه وعن العظم .

قوله جل ذكره : « تدعو من أذبر وتولى » .

تقول جهنم للكافر والمنافق : يا فلان .. إلى إلى .

والإشارة فيه : أن جهنم الدنيا تعلق بقلب المرء فتدعوه بكلاب الحرم إلى نفسه وتجره
إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكل أحده ؛ حتى لقد يبخل بذنيه على أولاده وأعرته ...
وقليل من نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جل ذكره : « إن الإنسان خلق هكوعاً » .

(١) والشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس ، قال الأعشى :
قالت قُتَيْلَةُ : ماله قد جُلَّتْ شيئاً شواته
وجاء في الصحاح : الشوى جمع شواة وهي بجنة الرأس . وهي اليدان والرجلان والرأس من الادميين ،
وكل ما ليس مقتلاً . يقال : رماء فأشواه أى لم يصب المقتل .
وقال الضحاك : تفرى الجلد واللحم عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً . ونرى أن المقصود - والله أعلم -
أن العذاب لا يقضى عليهم ، حتى يستمر واقماً بهم إلى الأبد .

وتفسيره ما يتلوه :

« إِذَا مَسَّ الشَّرُّ جَزْوعًا • وَإِذَا مَسَّ
الْخَيْرُ مَنُوعًا » .

والهَلَكُ شِدَّةُ الْحَرِصِ مع الجزع . ويقال هُلِوعًا : متقلبًا في غمرات الشهوات .
ويقال : يُرْضِيهِ الْقَلِيلُ رِيسْخِطُهُ الْبَسِيرُ .

ويقال : عند المحنة بدعو ، وعند النعمة ينمى ويسهو .

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَلَى
صَلَاتِهِمْ حَاضِرُونَ » .

استثنى منهم المصلين — وهم الذين يلزمون أبدأ مواطن الافتقار ؛ مِنْ صَلَاتِهِ
بِالسَّكَنِ^(١) .

« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ •
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

وهو الْمُتَكَنِّفُ وَالْمُتَعَفِّفُ .

وم على أقسام : منهم مَنْ يُؤْتَرُ بِجَمِيعِ مَالِهِ ؛ فَأَمْوَالُهُمْ لِكُلِّ مَنْ قَصَدَ ، لَا يَخْصُونُ
سَائِلًا مِنْ عَائِلٍ . ومنهم مَنْ يَعْطَى وَيُمْسِكُ — وهؤلاء^(٢) منهم — ومنهم مَنْ يَرَى يَدَهُ
يَدَ الْأَمَانَةِ فَلَا يَتَكَلَّفُ بِاخْتِيَارِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُشَارُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ ؛ إِمَّا بِالْإِمْسَاكِ فَيَقِفُ
أَوْ بِبَذْلِ الْكُلِّ أَوْ الْبَعْضِ فَيَسْتَجِيبُ عَلَى مَا يُطَالَبُ بِهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْوَقْتِ
وهؤلاء أَنَعَهُمْ .

(١) مَكْنِيَّةُ النَّاقَةِ أَوْ الْحَامِلِ وَنَحْوَهَا اسْتَرْخَى صَلاَهَا لِقُرْبِ نَتَاجِهَا (الوسيط) .

(٢) أَيْ الَّذِينَ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ الْآيَةُ .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » .

وأما رتھم الاستعداد للوت قبل نزوله ، وأن يكونوا كقائل :

مستوفزون على رجل كأنهمو قد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ »

إلا على أزواجهم أو ما ملكت

أيمانهم فإنهم غير ملومين • فمن أبتنى

وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وإنما تكون صحبتهم مع أزواجهم للتعفف وصون النفس ، ثم لا يتفاء أن يكون له ولد من صلبه يذكر الله . وشرط هذه الصفة : أن يعيش معها على ما يهون ، ولا يجرها إلى هوى نفسه ويحملها على مراده وهواه .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »

يحفظون الأمانات التي عندهم للخلق ولا يخونون فيها . وأمانات الحق التي عندهم أعضاء الظاهرة — فلا يدنسونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرار التي بينهم وبين الله أمانات عندهم . والفرائض واللوازم والتوحيد .. كل ذلك أمانات .

ويقال : من الأمانات إقرارهم وقت الذر . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك الحجة التي أودعها الله في قلبه .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ » .

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض — يقومون بحقوق ذلك كله .

قوله جل ذكره : « فَلِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكْ مُهْطَمِينَ »

عن اليمين وعن الشمال عزين » .

والإمطاع أن يقبل بصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي صلى الله عليه وسلم « وعزين » : أي خلقتا خلقتا ، وجماعة جماعة .

« أَبْطَمَحْ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ »

كلا .. إنك لاتدعو عن هذا ! وليس هذا بصواب ؛ فإنهم - اليوم - كفار ، وغداً يعاملون

بما يستوجبون .

« فلا أقسمُ ربُّ المشارق والمغارب . . » لا — هنا صلة ، والمعنى أقسم . وقد مضى القولُ

في المشارق والمغارب - « إنا لقادرون » على ذلك .

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا » غاية التهديد والتوبيخ لهم .

« يومَ يخرجون من الأجداثِ سِراعاً » كأنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبه إسرائعهم حين

قاموا من القبور بإسرائعهم إلى النُّصَبِ - اليومَ - كي يقوموا بعبادتهم إياها .

سُورَةُ نُوحٍ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لَمَنْ قامت السنوات والأرض بقدرته ، واستقامت الأسرار والقلوبُ بنصرته .. دَلَّت الأفعالُ على جلالِ شأنه ، وَذَلَّت الرقابُ عند شهودِ سلطانه . أشرقت الأقطارُ بنوره في العُقبى ، وأشرقت الأسرارُ بظهوره في الدنيا ، فهو المقدس بالوصف الأعلى .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ

قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

أرسلنا نوحًا بالنبوة والرسالة . « أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ » أى بَأْن أَنْذَرَهُمْ وإرسالُ الرُّسُلِ من الله فضلٌ^(١) ، وله بحقُ مُلكه أَنْ يفعل ما أراد ، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب .

وإرسالُ الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ جَائِزٌ^(٢) ، وتكليفُهُمْ من ناحية العقل جائِزٌ^(٣) .
فَنُوحٌ — عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ .. ومع ذلك بَلَّغَ الرسالة وقال لهم : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ :
« قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *
أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا »

(١) في النسختين (فعل) وهى صواب بدليل قوله فيما بعد : (أَنْ يَفْعَلُوا) ما أراد ولكننا رجحنا (فضل) لأن التشيرى يستحسن استعمال (الفضل) عندما يتحدث عن نفي (الوجوب) على الله .

(٢) كي يكون ذلك عليهم حجة ، قال تعالى : «رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد بعث الرسل» .

(٣) ولكن لا عقاب إلا بعد إرسال الرسل ؛ لأن العقل وحده غير كافٍ في قطع المعثرة (قارن ذلك بآراء المعتزلة) .

« يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

يغفر لكم « من » ذنوبكم : مِنْ هُنَا لِلْجَنَسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

« فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » .

ويقال : ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه ؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان
إغراء لهم .. وذلك لا يجوز . فأبوا أن يقبلوا منه ، فقال :

« قَالَ رَبُّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا

ونهاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا » .

يَبَيِّنُ أَنَّ الْهَدَايَةَ لَيْسَتْ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ أَرَدْتَ إِيمَانَهُمْ فَقُلُوبُهُمْ بِقُدْرَتِكَ — سَبْحَانَكَ .

قوله جل ذكره : « وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا »

وإِنِّي مَا أَزْدَدْتُ لَهُمْ دَعَاءً إِلَّا أَزْدَادُوا إِصْرَارًا وَاسْتِكْبَارًا .

ويقال : لَمَّا دَامَ يَنْهَمُ إِصْرَارُهُمْ تَوَلَّى مِنَ الْإِصْرَارِ اسْتِكْبَارُهُمْ ، قَالَ تَعَالَى :

« فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » ^(١)

قوله جل ذكره : « ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي

أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِصْرَارًا *

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا *

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » .

(١) آية ١٦ سورة الحديد .

ليعلم العالمون : أَنَّ الاستغفار قَرَعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقعت له إلى الله حاجةٌ فإن يَصِلْ إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أَرَادَ التَّفَضُّلَ فعليه بِالْمُذَرِّ والتَّعَثُّلِ .

قوله : « يرسل السماء عليكم . . . » : كان نوح عليه السلام كلما ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان .

قوله جل ذكره : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ »

ما لكم لا تخافون الله عَظَمَةً ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمنون على توقيركم للأمر من الله لُطْفًا ونعمة ؟ .

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ

سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ

نُورًا * وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا »

ثم نبَّههم إلى خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما فيها من الدلالات على أنها مخلوقة ، وعلى أَنَّ خالقها يستحقُّ صفاتِ الْعُلُوِّ والعِزَّةِ .

ثم شكَا نوحٌ إلى الله وقال :

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي

وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدُهُ

إِلَّا خُسَارًا * وَمَكُرُوا مَكْرًا كُبَرَارًا »

يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة .

« وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى

الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وذلك بتعريفِ الله تعالى إِيَّاهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ . فاستجاب الله

فيهم دعاءه وأهلكهم .

(١) سُورَةُ الْجِنِّ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقَرَّ بربوبيته ، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته ، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته ، وبه ظَهَرَ ما ظَهَرَ من مقدوراته ، وبه بَطَّنَ ما بَطَّنَ من مخلوقاته (٢) ، فَمَنْ جَعَلَهُ فَبِخْذَلَانِهِ (٣) وحرمانه ، ومن وَحَدَ (٤) فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ قَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا »

قيل : إن الجنَّ كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قول الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى الكهنة ، فيزيدون فيه وينقصون . . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلَمَّا بُعِثَ نبينا صلى الله عليه وسلم وَرَجُوا بالشُّهْبِ عَمَّ إبليس أنه وقع شيء (٥) فقرأ جنوده ، فأتى تسعة منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم آتوا قومهم وقالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا يهْدِي إلى الرشد فآمننا به . . . إلى آخر الآيات .

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : « وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن .. ») (٦)

(١) أخطأ الناسخ في ص وجعلها (سورة المزمل) بينما التفسير جارٍ لسورة الجن .

(٢) إشارة إلى الجن .. وهنا نوع من الترابط بين إحياءات البسلة والسورة .

(٣) الباء هنا معناها (بسبب) أي أن الجاحد جحد بسبب خذلان الله له في القسمة .

(٤) هكذا في ص وهي العراب ببناء هي في م (مصد) ونحن ندعم أن القشيري يستعمل (جحد) و (وحد)

متقابلين .

(٥) «حدث شيء في الأرض» (الترمذي) .

(٦) ما بين التوسين ورد في م ولم يرد في ص ، والآية هي رقم ٢٩ سورة الأحقاف .

قوله جل ذكره : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

الجدُّ العظمى ، والعظمة استحقاق نعوت الجلال .

« وأنه كان يقول سفيها على الله شططا » .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعنى إبليس . والشطط السرف .

« وأنا ظننا أن لن نقولَ الإنسانُ والجنُّ على الله كذبا » .

في كفرهم وكنهم بالشرك .

« وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن فزادهم رهقا » .

أى ذلة وصغار ؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذلة ورهقا^(١) (فكانوا إذا نزلوا يقولون : نعوذ بربِّ هذا الوادى فيتوهم الجنُّ أنهم على شئ فزادهم رهقا)^(٢) حيث استعاذوا بهم .

قوله جل ذكره : « وأنهم ظنُّوا كما ظننتم أن لن يبعثَ اللهُ أحداً » .

أى ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألا بعثَ ولا نشور — كما ظننتم أيها الإنس .

« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » .

يعنى حين منيعوا عن الاستماع .

« وأنا كنّا نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجده شهداء رصداً » .

(١) أى أن الجن زادوا الإنس رهقا وهو الخطيئة والإثم حين استعاذوا بغير الله .

وقال مجاهد : زاد الإنس الجن رهقا أى طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن : سدنا الإنس والجن .

(٢) ما بين الفوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

فَالآنَ قَدْ مُنِعْنَا .

« وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ؟ » .
« وَالَّذِينَ اسْتَفْتَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ
لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا » .

الاستقامة على الطريقة تقتضى إكمال النعمة وإكثار الراحة . والإعراض عن الله
يوجب تنقص العيش ودوام العقوبة .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ
اللَّهِ أَحَدًا » .

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة ..
وكيف يُحِلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلُّ قَدَمِهِ ^(١) ؟ .

و يقال : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بما لله غير الله .
قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » .

لما قام عبد الله يعنى محمداً عليه السلام يدعو اتخلق إلى الله كاد الجن والإنس يكونون
مجمعين عليه ، يئتمونه عن التبليغ ، قل يا محمد :

« قُلْ إِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا » قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ
اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ
مُلْتَجَاً » .

لَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ ضَرًّا ، وَأُؤَسِّقُ لَكُمْ خَيْرًا .. فكلُّ شيءٍ من الله . ولن أجد
من دونه مُلْتَجَاً إلا :

(١) العبارة غامضة وتحتاج إلى توضيح .. وربما قصد القشيري إلى أنه إذا كان المسجد وهو محل قدم العابد
مكرماً .. فما بالك بالعابد نفسه ، وعمله عند الله ؟ .

« إِنْ بَلَغَا مِنْ اللَّهِ رِسَالَاتِهِ »

فَلَنْ يُجِيبَنَّ مِنْ اللَّهِ إِلَّا تَبْلِيغَ رِسَالَاتِهِ بِأَمْرِهِ .

« وَمَنْ يَمَسَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَدْ لَهَ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا »

أى : لا أدري ما تُوعَدُونَ من العقوبة ، ومن قيام الساعة أقرب أم بعيد ؟ فكونوا على حذر . ويجب أن يتوقع العبدُ العقوباتُ أبداً مع مجارى الأفاضل ليسلم من العقوبة .

قوله جل ذكره : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ »

فيظلمه بقدر ما يريد .

« لِيَعْلَمَ (١) أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » .

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامَهُ وَخَلْفَهُ . . هم ملائكةٌ حَفَظَةُ ، يحفظون الوحي من الكهنة والسياطين ، حتى لا يزيّدوا أو ينقصوا الرِسَالَاتِ التى يحملها . . . والله يعلم ذلك ، وأحاطَ علّمُهُ به .

(١) قرأ ابن عباس (لِيُعْلِمَ) أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : الحادثاتُ بالله حصَلت ، قلوبُ العارفين بالله عرَفَتْ ما عرَفَتْ وأرواحُ الصَّادِقِينَ بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفَتْ وفهُمُ الموحِّدين بِساحاتِ جلاله وقَنَّتْ ، ونفوسُ العابدين بالمعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَتْ وعقولُ الأولين والآخرين بالمعجز عن معرفة جلاله أَعترَفَتْ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا »

أى : التزمِلِ المتلففَ في نِيَابِهِ . وفي الخبر : أُنْثِيَ كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ من شَعْرِ وَبَرٍ ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان نصفه علىَّ وأنا نائمة ، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي ، وطولُ المِرْطِ أربعة عشر ذراعاً^(١) .

« نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » .

قم الليل إلا قليلاً ، نصفه بَدَلٌ منه ؛ أى : قم نصف الليل ، وأُنْقِصْ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث ، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُخَيَّرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث . وكان ذلك قبل فرض الصلوات الخمس ، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة — وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال : يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ بأعباء النبوة . . قم الليل .

(١) معنى هذا : أن السورة مدنية وليست مكية ، لأن النبي لم يبين بعائته إلا في المدينة .

ويقال : يأيها الذي يُخَفِّي ما خصصناه به قُمْ فَأَنْذِرْ . . فَإِنَّا نَصْرُفُكَ^(١) .

ويقال : قُمْ بِنَا . . يَا مَنْ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُن فِيهِ كُلُّ النَّاسِ . . قُمْ أَنْتَ
فَلَيْسَكُن الْكُلُّ . . وَلْتَمَّ أَنْتَ .

ويقال : لَمَّا فَرَضَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِاللَّيْلِ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ لِأَجْلِ أُمَّتِهِ وَإِكْرَامًا لَشَأْنِهِ وَقَدَرِهِ .
وفي الخبر : « أَنَّهُ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا . . » وَلَا يُدْرَى التَّأْوِيلُ لِلخَبَرِ^(٢) ،
أَو أَنَّ التَّأْوِيلَ مَعْلُومٌ . . وَإِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى التَّأْوِيلِ فَلِلْأَحْبَابِ رَاحَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَوَجُوهٌ
مِنَ الْإِحْسَانِ مَوْفُورَةٌ .

قوله جل ذكره : « وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ ثَقِيلًا »

إِذْ تَتَغَنَّي بِسِرِّكَ فِي فَهْمِهِ ، وَتَتَأَنَّنَ بِلِسَانِكَ فِي قِرَاءَتِهِ .

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » .

قيل : هو القرآن . وقيل : كلمة لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

ويقال : الوحي ؛ وَسَمَاءٌ ثَقِيلًا أَيْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلًا فِي الْمِيزَانِ .

ويقال : ثَقِيلٌ أَيْ : لَهُ وَزْنٌ وَخَطَرٌ . وفي الخبر : كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ — وَهُوَ عَلَى
نَاقَتِهِ — وَضَعَتْ جِرَانَهَا^(٣) ، وَلَا تَكَادُ تَتَحَرَّكُ حَتَّى يُسْرِّيَ عَنْهُ .

وروى ابن عباس : أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً فَبَرَكَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثَقَلِ الْقُرْآنِ وَهَيْبَتِهِ .

ويقال « ثَقِيلًا » سَمَاعُهُ عَلَى مَنْ جَعَلَهُ

(١) هَذَانِ تَحْرِيكَانِ مُجَازِيَانِ لَفْظَتُهُ (الْمَزْمَل) .

(٢) هَذَا الْخَبَرُ فَعَلًا كَانَ مَوْضِعُ نَظَرٍ ؛ فَتَدْرِي عَنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى الشَّكِّ ، فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ
مَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ — أَوْ ثُلَاثُهُ — يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا
وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى : « يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلِّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمُضِي ثُلَاثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ،
أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِيبُ لَهُ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ ؟ فَلَا يَزَالُ
كَذَلِكَ حَتَّى يَضِيَ الْفَجْرُ » . وَخَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الرَّسُولَ (ص)
قَالَ : يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى حِينَ يَبْقَى ثُلَاثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ . . « وَهَكَذَا اتَّعَلَّمُ الْحَدِيثَ وَالْقُرْآنَ » .

(٣) أَيْ : صَدْرُهَا .

ويقال : « قِيلًا بِعَيْنِهِ — إِلَّا عَلَى مَنْ أَيْدٍ بِقُوَّةٍ سَمَاوِيَّةٍ ، وَرُبِّي فِي حِجْرِ التَّقَرُّبِ »
قوله جل ذكره : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً
وَأَقْوَمُ قِيلًا » .

أى : ساعات الليل ، فكل ساعة تحدث فيها ناشئة^(١) ، وهى أشد وطأ أى : مُوَطَّاة
أى : هى أشد موافقة للسان والقلب ، وأشد نشاطاً .
ويمتثل : هى أشد وأغلظ على الإنسان من القيام بالنهار .
« وأقوم قِيلاً » أى : أبتين قولاً .

ويقال : هى أشد مواطاة للقلب وأقوم قِيلاً لأنها أبعد من الرياء ، ويكون فيها حضور
القلب وسكون السرِّ أبلغ وأتم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » .
أى : سبحة في أعمالك ، والسبح : الذهب والسرعة ، ومنه السباحة في الماء .
فالمنى : مذاهبتك في النهار فيما يشغلك كثيرة — واللَّيْلُ أَخْلَى لَكَ .
قوله جل ذكره : « وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبَتُّلاً » .

أى : انقطع إليه انقطاعاً تاماً .

« رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

الوكيل مَنْ تَوَكَّلْ إِلَيْهِ الْأُمُورُ ؛ أى : تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَكِلْ أُمُورَكَ إِلَيْهِ ، وثِقْ بِهِ ..
ويقال : إنك إذا اتَّخَذْتَ مِنَ الْخُلُقِيِّينَ وَكِيلًا اخْتَزَلُوا مَالَكَ وَطَالَبُوكَ بِالْأَجْرَةِ ،
وإذا اتَّخَذْتَنِي وَكِيلًا أُوقِرُ عَلَيْكَ مَالَكَ وَأُعْطِيكَ الْأَجْرَ .

(١) قال ابن مسعود : الحبشة يقولون : نشأ أى قام .

فكان ناشئة الليل مصدر بمعنى قيام الليل ... مثل خاطئة وكاذبة .. فإذا افترضنا أنها كلمة شائعة الاستعمال
عند الحبشة بهذا المعنى فإنها ذات أصل عربي أيضاً .

ويقال : وكيف ينفق عليك من مالك ، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي .
ويقال : وكيف من هوفي القدر دونك ، وأنت ترفع أن تكلمة كثيراً . . وأنا ربك
وسيدك وأحب أن تكلمني وأكلمك .

قوله جل ذكره : « وأصبر على ما يقولون وأهجرم
هَجْراً جليلاً » .

الهجر الجليل : أن تعاشرهم بظاهرك وتباينهم بسرك وقلبك .
ويقال : الهجر الجليل ما يكون لحق ربك لا يحفظ نفسك .
ويقال : الهجر الجليل ألا تكلمهم ، وتكلمني لأجلهم بالدعاء لهم .
وهذه الآية منسوخة بآية القتال^(١) .

قوله جل ذكره : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة
ومهلهم قليلاً » .

أى : أولى التَّعَمُّ^(٢) ، وأنظرهم قليلاً ، ولا تهتم بشأنهم ، فإني أكفيك أمرهم .
قوله جل ذكره : « إنَّ لدينا أنكلاً وجحياً * وطعاماً
ذا غصة وعذاباً ألياً » .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

« يومَ ترْجُفُ الأرضُ والجبالُ
وكانتِ الجبالُ كغباراً مهيلاً » .

(١) قال قتادة : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها
من الترك . (القرطبي) ١٩ ص ٤٥ .

(٢) هم صناديد قريش ، ورؤساء مكة من المشركين .

وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة .

وقالت عائشة : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

ثم قال :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا » .

يعنى : أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ « كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا » ، « فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا » ثقبلاً .

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا » من هَوْلِهِ يَصِيرُ الْوَلَدَانُ شَيْبًا — وهذا على
ضَرْبِ الْمَثَلِ .

« السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » أى بذلك : اليوم لهو له (١) .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بِاللَّهِ أى : بأمره .

« كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » : فَاوْعَدَ اللَّهُ سَيَصْدَقُهُ .

« إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ » : يعنى : هذه السورة ، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ ؛ فَمَنْ انْعَظْ
بِهَا سَعِدَ .

« إِنَّ رَبَّكَ » يا محمد « يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ
الَّذِينَ مَعَكَ » مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » فهو خَالِقُهَا « عَلِيمٌ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » ونطيعوه .

« فَتَأْتِيكُمْ عَلَيْهِمُ » أى : خَفَّفَ عَنْكُمْ (٢) ، « فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » من خمس آيات
إلى ما زاد . ويقال : من عَشْرِ آياتٍ إلى ما يزيد (٣) .

(١) هكذا في م وهي في ص (لقوله) والصواب ؛ ما جاء في م كما هو واضح من السياق .

(٢) كان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ فانتفخت أقدامهم ، وانتفعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم (مقاتل) .

(٣) قال الحسن : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ .

وفي حديث مسند عن عبد الله بن عمرو : أن النبي (ص) قال : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين (= أعطى من الأجر قطاراً) » أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده .

« عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » يسافرون ، ويعلم
أصحاب الأعذار ، فَنَسَخَ عَنْهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ .

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » للفروضة .

« وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » مضي معناه .

« وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ » أى : ما تقدموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً
هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا .

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمةٌ سَمَاعُهَا نَزْهُةٌ قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ ، كَلِمَةٌ سَمَاعُهَا بِهِجَةٌ أَسْرَارِ الضُّعَفَاءِ ، رَاحَةٌ أَرْوَاحِ الْأَحْبَاءِ ، قُوَّةٌ قُلُوبِ الْأَوْلِيَاءِ ، سَنَوَةٌ صُدُورِ الْأَصْفِيَاءِ ، قُرَّةٌ عَيْنِ أَهْلِ الْبَلَاءِ .
قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ » .
يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ بِشَوْبِهِ .

وهذه السورة من أول ما أُنْزِلَ من القرآن . قيل : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذَهَبَ إلى حِرَاءَ قبل النبوة ، فَبَدَأَ له جبريلُ في الهواء ، فرجع الرسول إلى بيت خديجة وهو يقول « دُثِّرُونِي دُثِّرُونِي » فدُثِّرَ بشوبٍ فنزل عليه جبريل وقال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ » ^(١) .
وقيل : أيها الطالبُ صَرَفَ الْأَذَى عَنْكَ بِالذِّئَارِ اطْلُبْهُ بِالْإِنْذَارِ .

ويقال : قُمْ بِنَا ، وَأَسْقِطْ عَنْكَ مَا سَوَانَا ، وَأَنْذِرْ عِبَادَنَا ؛ فَلَقَدْ أَقْنَاكَ بِأَشْرَفِ الْمَوَاقِفِ ، وَوَقَفْنَاكَ بِأَعْلَى الْمَقَامَاتِ .
ويقال : لِمَا سَكَنَ إِلَى قَوْلِهِ : « قُمْ » وَقَامَ قَطَعَ سِرَّهُ عَنْ السُّكُونِ إِلَى قِيَامِهِ ، وَمِنَ الطَّمَأْنِينَةِ فِي قِيَامِهِ .

قوله جل ذكره : « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » .

(١) حدَّثَ جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : جاورت بحراء شهرًا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي ، فنوديت ، فنظرت أمامي رِخْلِي وعن يميني وعن شمالي فلم أرَ أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أرَ أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا جبريل على عرش في الهواء فأخذتني رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت : دثروني . فصبوا علي ماء . رواء البخاري بهذه النهاية : دثروني وصبوا علي ماء بارداً فدثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزلت : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .

كَبْرُهُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ ، وَوَصْلٍ وَفَصْلٍ ، وَعِلَّةٍ وَخَلْقٍ .
« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » .

طَهِّرْ قَلْبَكَ عَنْ ابْتِلَاقِ أَجْمَعٍ ، وَعَنْ كُلِّ صِفَةٍ مَذْمُومَةٍ .
وَطَهِّرْ نَفْسَكَ عَنِ الزَّلَّاتِ ، وَقَلْبَكَ عَنِ الْحَالَاتِ ، وَسِرِّكَ عَنِ الْإِثْمَانَاتِ .
وَيَقَالُ : أَهْلَكَ طَهَّرَهُم بِالْوَعظِ ؛ قَالَ تَعَالَى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ »^(١) ، فَيَعْبُرُ عَنْهُمْ
— أحياناً — بِالثِّيَابِ وَاللِّبَاسِ .

قوله جل ذكره : « وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ » .

أَيُّ : الْمَعَاصِي . وَيَقَالُ : الشَّيْطَانُ . وَيَقَالُ : طَهَّرْ قَلْبَكَ مِنَ الْخَطَايَا وَأَشْغَالِ الدُّنْيَا .
وَيَقَالُ : مَنْ لَا يَصِيحُ جِسْمُهُ لَا يَجِدُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ كَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِيحُ قَلْبُهُ لَا يَجِدُ
حِلَاوَةَ الطَّاعَةِ .

« وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » .

لَا تُعْطِ عَطَاءَ تَطْلُبُ بِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا تَعْطِيهِ .

وَيَقَالُ : لَا تَسْتَكْثِرُ الطَّاعَةَ مِنْ نَفْسِكَ .

وَيَقَالُ : لَا تَمْنُنْ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْثِرَ عَمَلُكَ ، وَتُعْجَبَ بِهِ .

« وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

أَيُّ : أَنْتَ تُؤَذِّى فِي اللَّهِ . فَاصْبِرْ عَلَى مَقَاسَةِ أَذَاهِمِ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ » * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ

يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .

بَعْنَى : إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ هَيِّنٍ .

قوله جل ذكره : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » .

(١) آية ١٨٧ سورة البقرة .

أى : لا تهتم بشأنهم ، ولا تحتفل ؛ فإننى أكتفيك أمرهم .

إننى خلقتك وحدى ؛ لم يشاركنى فى خلقى إياه أحد .

ويحتفل : خلقتك وحده لا ناصر له .

قوله جل ذكره : « وجعلت له ملاماً ممدوداً •

وبين شهوراً » .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السفر .

« ومهدت له تمهيداً » .

أراد : تسهيل التصرف ، أى : مكنته من التصرف فى الأمور ^(١) .

« ثم بطع أن أزيد » .

بطع أن أزيده فى النعمة :

« كلا ، إنه كان لآياتنا عبيداً » .

بحجوداً .

« سألهم صموداً » .

سأحلهم على مشقة من العذاب .

« إنه فكر وقدّر • قتل كيف

قدّر • ثم قتل كيف قدّر » .

أى : لعن كيف فكر ، وكيف قدّر ، ويعنى به : الوليد بن المغيرة ^(٢) الذى قال فى النبى

صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بشاعر ولا بمجنون ولا بكذاب ، وإنه ليس إلا ساحر ، وما بآى

به ليس إلا سحر يروى :

(١) واضح من هذا أن القشيري يؤمن بحرية الإنسان ، وأن الجبرية عنده ليست مطلقة .

(٢) كان الوليد يدعى ربحانة قريش فلما سمعت منه واصفاً القرآن : والله إن له خلابة وإن عليه لطلاوة وإن إبله لكش ، وإن أسفله لمدق ... قالت قريش : صبا الوليد لتصبون قريش كلها ، فلما ذهب إليه أبو جهل ليشعري . قال له بعد أن فتن مزاعمهم : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتوه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

« ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (١) *
 ثُمَّ أَدْبَرَ * وَأَسْتَكْبَرَ * قَالَ :
 إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بُوْثَرٌ * إِنَّ هَذَا
 إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ *
 وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ *
 لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ . »

لا تُبْقِي نَلْمًا ، وَلَا تَذَرُ عَظْمًا ، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدُهَا ، من لاحت الشمس ولوَّحت .
 « عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ » .

قال المشركون : نحن جَمْعٌ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً
 وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
 الْكِتَابَ وَيزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا
 وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 وَالْمُؤْمِنُونَ » .

فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويقول هؤلاء : أي فائدة في هذا القدر ؟ فقال تعالى :

« كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

ثم قال :

« وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ
 وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » .

أي : تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلق إلا بمقدار دون مقدار ، والذي أحاط بكل شيء علماً .
 هو الله — سبحانه .

(١) بَسَرَ أي كلع وجهه وتغير لونه .

« كَلَّا وَالْقَمَرِ »

كَلَّا - حرفُ ردِّعٍ وتنبيةٍ ؛ أى : ارتدعوا عما أنتم عليه ، وانتبهوا لغيره .
وأقسم بهذه الأشياء « كَلَّا وَالْقَمَرِ » : أى بالقمر ، أو بقدرته على القمر .
وبالليل إذا أدبرَ .. وقُرِئَ « وَدَبَرَ » أى : مضى ، « والصُّبْحُ إذا أسفر » أى : تجلَّى .
« إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ » .

أى : النار لِأَحَدَى الدَّوَاهِي الْكُبَرِ .

ويقال فى « كَلَّا وَالْقَمَرِ » إشارةً إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالها فى الزيادة بزيادة البراهين ، فإنها تزداد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام فى العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، فالعلم يأخذ فى النقصان ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فسكاً أنه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً - كذلك إذا ظهرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم فى النقصان لزيادة المعارف ؛ كالسراج فى ضوء الشمس وضياء النهار . « والليل إذا أدبر » أى إذا انكشفت ظُلمُ البواطن ، « والصبح إذا أسفر » وتجلَّت أنوار الحقائق فى السرائر .. إنها لِأَحَدَى الْعِظَامِ ، وذلك من باب التخويف من عودة الظلم إلى القلوب^(١) .

« نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » فى هذا تحذيرٌ من الشواغل التى هى قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا المساكنة والملاحظة إلى الطاعات والمواظبات .. فإنها - فى الحقيقة - لا خطرَ لها^(٢) .
« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ » عن الطاعات .. وهذا على جهة التهديد .
قوله جل ذكره : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .

أى : مرتبنة بما عملت ، ثم استثنى :

« إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » .

(١) من خصائص أسلوب القشيري - كما أوضحنا ذلك فى كتابنا عنه - أنه كثيراً ما يستعين بمظاهر الطبيعة : الليل والنهار - والقمر والشمس والجبال والمطر والبحار وغير ذلك كـ « وَدَبَرَ » عن طريق ذلك دقائق العلم الصوفى .
(٢) يقصد أن نظرة الإنسان إلى عمله ، وإعطاء هذا العمل قيمة .. من قبيل دعوى النفس .. المهم فى الطريق فضل الله واجتهاد الله .

تقال : إنهم غير مرتين بأعمالهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى في شأنهم : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي » ! .

وقيل : أطلاق للمؤمنين^(١) .

« في جنات يتساءلون * عن المجرمين *
ما سلككم في سقر ؟ * قالوا لم نك
من المصلين * ولم نك نطعم
المسكين * وكنا نخوض مع
الخائضين * وكنا نكذب يوم
الدين » .

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حصل لهم إشراف عليهم :
ما سلككم في سقر ؟ قالوا : ألم نك من المصلين ؟ ألم نك نطعم المسكين ؟ .
وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع .

« وكنا نخوض مع الخائضين » : نشرع في الباطل ، ونكذب يوم الدين .
« حتى أتانا اليقين » .

وهو معاينة القيامة .

« فما تنفعهم شفاع الشافعين » .

أى : لا تنالهم شفاع من يشفع .

« فما لهم عن التذكرة معرضين^(٢) »

والتذكرة : القرآن :

« كأنهم حمر مستنفرة * فرقت
من قسورة » .

(١) قال ابن عباس : هم الملائكة . وقال علي بن أبي طالب : هم أولاد المؤمنين لم يكتبوا فيرتبوا بكسبهم .
وقال الضحاك : الذين سبق لهم من الله الحسن . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الذر . والله أعلم .
(٢) معرضين منصوب على الحال من الحام الميم في (لهم) ، وفي اللام معنى الفعل فتتصاب الحال على معنى الفعل .

كانهم محرّقة فوّت من أسد^(١)

« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ
يُؤْتِيَ صُحُفًا مَّنشُورَةً » .

بل يريد كلُّ منهم أن يُعطى كتاباً منشوراً .

« كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » .

أى : كَلَّا لَا يُعْطَوْنَ مَا يَتَمَنُّونَ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ .

« كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرْهُ » .

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ — لَا أَنْ تَشَاءُوا

« هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى » .

أَهْلٌ لِأَنْ يَتَّقَى .

« وَأَهْلُ الْمَغِيرَةِ » .

وَأَهْلٌ لِأَنْ يَغِيرَ لِمَنْ يَتَّقَى — إِنْ شَاءَ .

(١) القصيدة بلسان العرب : الأسد ، أو أول الليل ، أو التهديد ، وبلسان الحبشة : التهمة .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة مَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْعِلْمِ اسْتَبْصَرَ ، وَمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْمَعْرِفَةِ تَحَيَّرَ . .
فَالْعِلْمَاءُ فِي سَكُونِ بَرَاهِنِهِ ، وَالْعَارِفُونَ فِي دَهْشِ سُلْطَانِهِ . . أُولَئِكَ فِي نَجْمِ عُلُومِهِمْ ، فَأَحْوَالُهُمْ
صَحَوٌ فِي صَحْوٍ ، وَمَوْلَاءُ فِي شَمْسٍ مَعَارِفِهِمْ : فَأَوْقَاتُهُمْ مَحْوٌ فِي مَحْوٍ . . فَشَتَانِ مَا هُمَا ! !

قوله جل ذكره : « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

أى : أقسم بيوم القيامة

« وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » .

أى : أقسم بالنفس اللوامة ، وهى النفس التى تلوم صاحبها ، وتعرف قصان حالها .

ويقال : غداً . . كلُّ نفسٍ تلوم نفسها : إمّا على كفرها ، وإمّا على تقصيرها — وعلى هذا
فَالْقَسَمُ يَكُونُ بِإِضْمَارِ « الرَّبِّ » أى : أقسم بربّ النفس اللوامة . وليس للوم النفس فى القيامة
خطرٌ — وإنْ حُمِلَ عَلَى الْكُلِّ^(١) ولكنّ الفائدة فيه بيان أنّ كلّ النفوس غداً — ستكون
على هذه الجملة . وجوابُ القسم قوله : نلى . .

قوله جل ذكره : « أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ؟ »

أبظن أنّ لن نبعثه بعد موته ؟

« بلى قادرين على أن نسوي بنانه »

« قادرين » نصب على الحال ؛ أى بلى ، نسوي بنانه فى الوقت قادرين ، وتقدر أى نجعل

(١) مكذاف م وهى الصواب أما فى ص فهى (الاكل) وهى خطأ قطعاً .

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وظلف الشاة .. فكيف لا تقدر على إعادته ؟ !
« بل يُريدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » .

يُقَدِّمُ الزَّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم^(١)
على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف^(٢) وقته ، وبهذا لا تَنْجَلُ — في الوقت — عقدة
الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبته ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل
ما عَمِلَ . فإذا كان استحلاً الزَّلَّةَ في قلبه ، ويفكر في الرجوع إلى مثلها . فلا تصح ندامته .
قوله جل ذكره : « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ »

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

« فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ *
وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ؟ » .

« بَرِقَ بكسر الراء معناها تَحَيَّرَ ، « وَبَرِقَ » بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ،
وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير
وشهيق ، فلا يَبْقَى مَلَكٌ ولا رسولٌ إلا وهو يقول : نفسى نفسى !
« وَخَسَفَ القمر وجُمِعَ الشمس والقمر » كأنهما ثوران عقيران^(٣) .
ويقال : يجمع بينهما في ألّا نورَ لهما .

(١) هكذا في موهى الصواب أما في ص فهى (يزعم) وهى خطأ قطعاً بدليل ما بعدها ... من شرطها
(النزم) .

(٢) أى : في المستقبل .

(٣) قال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين
مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران .

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن يزيد الرقاشي عن أنس يرفعه إلى النبي (ص) قال : قال رسول الله ص .
« إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار » .

« يقول الإنسان يومئذ أين للفقر ؟ » وللفقر موضع القرار إليه ، فيقال لهم :
« كلاً لا وزر »

اليوم ، ولا مهرب من قضاء الله^(١) .

« إلى ربك يومئذ المستقر » .

أى : لا تحيد عن حكمه .

« ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم
وأخر » .

أى : يعرف ما أسلفه^(٢) من ذنوب أحصاها الله — وإن كان العبد نسيها .

« بل الإنسان على نفسه بصيرة *
ولو ألقى معاذيره » .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله .

ويقال : هو بصيرة^٢ وحجة على نفسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكل حجة فلن تُسمع منه ولن تنفعه .

قوله جل ذكره : « لا تحرك به لسانك لتعجل به *

إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه

فاتبع قرآنه » .

لا تستعجل في تلقى القرآن على جبريل ، فإن علينا جمعه في قلبك وحفظه ، وكذلك

علينا تيسير قراءته على لسانك ، فإذا قرأناه أى : جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقراءك جمعه .

« ثم إن علينا بيانه » .

نبيّن لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستعجل في التلقف مخافة النسيان ، فتبهي عن ذلك ، وضمن الله له التيسير والتسهيل .

(١) الوزر في اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو نحوهما : قال الشاعر :

لعمري ما للثقى من وزر من الموت يدركه والكبر

(٢) هكذا في م وهي في ص (أسفله) وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ

الْآخِرَةَ » .

أى : إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا ، أى : يحبون البقاء في الدنيا .

« وتذرون الآخرة » : أى : تتركون العمل للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جل ذكره : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا

نَاطِرَةٌ » .

« ناضرة » : أى مشرقة حسنة ، وهى مشرقة لأنها إلى ربها « ناضرة » أى رائية لله . والنظر المقرون بـ « إلى » مضافاً إلى الوجه^(١) لا يكون إلا الرؤية ، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قلب العادة ، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى .

ويقال : العين من جملة الوجه (فاسم الوجه)^(٢) يتناولها .

ويقال : الوجه لا ينظر ولكن العين في الوجه هى التى تنظر ؛ كما أن النهر لا يجرى ولكن الماء فى النهر هو الذى يجرى ، قال تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » .

ويقال : فى قوله : « وجوه يومئذ ناضرة » دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتدخلهم حيرة ولا دهش ؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء فى حال اللقاء أتم من اللقاء .

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضى بقاء الرأى ، وعندهم استهلاك العبد فى وجود الحق أتم ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جل ذكره : « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ

يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » .

(١) (مضافاً إلى) مضافاً (مضروباً إلى) .

(٢) ما بين القوسين وارد فى ص ولم يرد فى م وهو هام فى توضيح السياق .

« باسرة » : أى كالحلة عابسة . « فاقرة » أى : داعية^(١) وهى بقاؤهم فى النار على التأيد .
(تظن أن يخلق فى وجوههم النظر)^(٢) .

ويجتمل أن يكون معنى « تظن » : أى يخلق ظناً فى قلوبهم يظهر أثره على وجوههم .
« كلاً إذا بلغت التراقي » وقيل من راقى * وظن أنه
الفراق * والتفت الساق بالساق *
إلى ربك يومئذ المساق » .

أى ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بلغت نفوسهم التراقي^(٣) ، وقيل : من راقى ؟
أى يقول من حوله : هل أحد يرقيه ؟ هل طبيب يداويه ؟ هل دواء يشفيه؟^(٤) .
ويقال : من حوله من الملائكة يقولون : من الذى يرقى بروحه ؛ أملائكة الرحمة
أو ملائكة العذاب ؟

« وظن أنه القراق » : وعلم الميث أنه الموت ١ .
« والتفت الساق بالساق » : ساقا الميث . فتتفرق شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة .
« إلى ربك يومئذ المساق » أى الملائكة يسوقون روحه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها
إليه : إما إلى عليين — ثم لها تفاوت درجات ، وإما إلى سجين — ولها تفاوت درجات .
ويقال : الناس يكفنون بدن الميت ويفسلونه ويصلون عليه .. والحق سبحانه يلبس
روحه ما تستحق من الحلل ، ويفسله بماء الرحمة ، ويصلى عليه وملائكته .
قوله جل ذكره : « فلا صدق ولا صلي » ولكن
كذب وتولى » .

(١) الفاقرة لها معان كثيرة منها : الداعية ، والأمر العظيم ، والشر ، والمهلك ، ودخول النار . وهى
فى الأصل : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم .
(٢) العبارة هكذا فى م أما فى ص فهى (..... الظن) بدلا من (النظر) ، ويمكن قبول عبارة م على أساس
ن (النظر) أمر عظيم — وهو أحد معانى (الفاقرة) كما قلنا .. ولكننا نرجح — والله أعلم — أن العبارة ربما كانت
فى الأصل على هذا النحو : [تظن : (أى) يخلق فى وجوههم (الظن)] فحق هذا الظن مخلوق فى وجوههم من قبل الله ..
وربما يتأيد ما ذهبنا إليه بما جاء بعدها مباشرة .

(٣) جمع (ترقوة) : العظام التى تكثف مقدم الخلق من أعلى الصدر ، وهى موضع الحشيرة .
(٤) معروف الأرقية ولادواء للموت .. ولكنهم يتساءلون هكذا على وجه التحير عند الإشفاء على الموت .

يعنى : الكافر ما صدق الله ولا صلى له ، ولكن كذب وتولى عن الإيمان . وتدل الآية على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع .

« ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى » .

أى : يتبختر ويختال .

« أَوَّلَىٰ لَكَ فَأُوَّلَىٰ » .

العرب إذا دعت على أحد بالكره قالوا : أولى لك ! وهنا أتبع اللفظ اللفظ على سبيل المبالغة .
ويقال : معناه الويل لك يوم تحيا ، والويل لك يوم تموت ، والويل لك يوم تُبعث ، والويل لك يوم تدخل النار^(١) .

« أَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » .

مُهْمَلًا لَا يُكَلِّفُ ! ؟ . ليس كذلك .

« أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِّن مِّمِّي يَمْنَى » ثم كان علقه

فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ

الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » .

« من منى يمنى » أى تلقى فى الرحم ، ثم كان علقه أى : دماً عبيطاً^(٢) ، فسوى أعضائه فى بطن أمه ، ورَكَّبَ أجزائه على ما هو عليه فى الخلقة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ ، وإن شاء خَلَقَ الْأُنثَى ، وإن شاء كليهما .

« أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ؟ » .

أليس الذى قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى ؟ فهو استفهام فى معنى التقرير^(٣) .

(١) فى معنى « الويل لك » تقول الخنساء :

هَمِيتْ بِنَفْسِي كُلَّ الْمَسُومِ فَأَوَّلَىٰ لِنَفْسِي أَوَّلَىٰ لَهَا
سَاحِلٌ نَفْسِي عَلَىٰ آلَةٍ فَأَمَّا عَلَيْهَا وَإِنَّمَا لَهَا

ويقال : إن الرسول هدد أبا جهل بهاتين الآيتين .. حتى إذا كان يوم بدر ، ضرب الله عتقه وقتل ثم قتله .

(٢) اللحم العبيط : الطرى الذى لم ينضج (الوسط) .

(٣) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (التقدير) بالدال وهى خطأ .

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ جَبَّارٌ تَوَحَّدَ فِي آزَالِهِ بِوصفِ جبروته ، وَتَفَرَّدَ فِي آبَادِهِ بِنِعْتِ مَلَكُوتِهِ ؛ فَآزَلَهُ أَبَدُهُ ، وَأَبَدُهُ أَزَلَهُ ، وَجَبَرُوتُهُ مَلَكُوتُهُ ، وَمَلَكُوتُهُ جَبَرُوتُهُ .

أَحَدِيُّ الْوَصْفِ ، صَمَدِيُّ الذَّاتِ ، مُقَدَّسُ النِّعَتِ ، وَاحِدُ الْجَلَالِ ، فَزَدُ التَّعَالَى ، دَائِمُ الْعِزِّ ، قَدِيمُ الْبَقَاءِ .

قوله جل ذكره : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا » .

فِي التَّفْسِيرِ : قَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا لَهُ خَطَرٌ وَمَقْدَارٌ . قِيلَ : كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَطْرُوحًا جَسَدُهُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ . ثُمَّ مِّنْ صَلَاحٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ مِّنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ خَلَقَهُ بَعْدَ مِائَةِ وَعَشْرِينَ سَنَةً^(١) .

وَيُقَالُ : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ . . . » : أَي لَمْ يَأْتِ عَلَيْهِ وَقْتُ إِلَّا كَانَ مَذْكُورًا إِلَى .

وَيُقَالُ : هَلْ غَفَلْتُ سَاعَةً عَنْ حِفْظِكَ ؟ هَلْ أَقْبَيْتُ — لِحِظَةٍ — حَبْلَكَ عَلَى غَارِيكَ ؟ هَلْ أَخْلَيْتُكَ — سَاعَةً — مِنْ رِعَايَةِ جَدِيدَةٍ وَحِمَايَةٍ مَزِيدَةٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » .

(١) وَزَادَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَقَالَ : وَأَقَامَ وَهُوَ مِنْ تَرَابِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ خَلَقَهُ بَعْدَ مِائَةِ وَسْتِينَ سَنَةً ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ (حِكَاةُ الْمَآوِرِيِّ) .

« من نطفة » : أى من قطرة ماء ، « أمشاج » : أخلاط من بين الرجل والمرأة .
ويقال : طوراً نطفة ، وطوراً علقّة ، وطوراً عظماء ، وطوراً لَحْمًا .

« نبتليه » : نمتحنه ونختبره . وقد مضى معناه . « فجعلناه سمياً بصيراً » .

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وإِمَّا كَفُورًا » .

أى : عرّفناه الطريق ؛ أى طريق الخير والشر .

وقيل : إِمَّا للشقاوة ، وإِمَّا للسعادة ، إِمَّا شَاكِرًا من أوليائنا ، وإِمَّا أن يكون كافرًا
من أعدائنا ؛ فَإِنْ شَكَرَ فبالتوفيق ، وَإِنْ كَفَرَ فبالخذلان .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا
وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا » .

أى : مَيِّئْنَا لهم سلاسل يُسْحَبُونَ فيها ، وأغلالاً لأَعْنَاقِهِمْ يُهَانُونَ بها ، « وسعيراً » :
ناراً مستمرة .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا » .

قيل : الْبَرُّ : الذى لَا يُضْمِرُ الشَّرَّ ، ولا يؤذى الذَّرَّ .

وقيل : الْأَبْرَارَ : هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُمُ عن المستحقرات ، وظهرت في قلوبهم بنابيع الحكمة
فاتقوا عن مُسَاكَنَةِ الدنيا .

يشربون^(١) من كَأْسٍ رَائِحَتُهَا كَرَامَةُ الْكَافُورِ ، أو ممزوجة بالكافور .

ويقال : اختلفت مشاربهم في الآخرة ؛ فكلُّ يُسْقَى ما يليق بحاله . . . وكذلك في الدنيا
مشاربهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَرَجًا ، ومنهم مَنْ يُسْقَى صِرْقًا ، ومنهم مَنْ يسقى على

(١) يتحدث القشيري في هذه السورة عن الشراب على نحو تفصيل يستحق التأمل ، وينبغي أن يضاف إل
حديثه عنه في رسالته عند بحث هذا الموضوع عند هذا الصوفى السقى الجليل .

النُّوب ، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسقى وحده ولا يُسقى مما يُسقى غيره ، ومنهم من يُسقى هو والقوم شراباً واحداً . . وقالوا :

إن كنت من تدمى فبالأ كبر اسقني ولا تسقني بالأصغر المثلم
وفائدة الشراب — اليوم — أن يشغلهم عن كل شيء فيرُيحهم عن الإحساس ، ويأخذهم
عن قضايا العقل . . كذلك قضايا الشراب في الآخرة ، فيها زوالُ الأرب ، وسقوطُ الطلب ،
ودوامُ الطرب ، وذهابُ الحرب ، والغفلة عن كل سبب .

ولقد قالوا :

عاقِرْ عقارك واضطِبحْ واقدَحْ سرورك بالقدَحِ
واخلع عذارك في الهوى وأريحْ عدولك واسترحْ
وافرحْ بوقتِك إنما عُمُرُ الفتى وقتُ الفرحِ

قوله جل ذكره : « عينا يشرب بها عبادُ الله يُفَجَّرُونَهَا
تفجيراً » .

يُشَقِّقُونَهَا تَشَقِّقاً ، ومعناه أن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون .
واليوم — لم عيون في أسرارهم من عين المحبة ، وعين الصفاء ، وعين الوفاء ، وعين البسط ،
وعين الروح . . وغير ذلك ، وغداً لم عيون .

« يوفون بالنذر »

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال : يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على
وجهٍ مخصوص .

« وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَظِيرًا » .

قاسياً ، منتشرأ ، ممتداً .

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » .

أى : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمُونَ .
ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء في التفسير : أن الأسير كان كافراً — لأنَّ للسلم ما كان يُستأمرُّ في عهده — فطاف
على بيت فاطمة رضى الله عنها^(١) وقال : تأسرونا ولا تطعمونا^(٢) !

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا » .

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله ، لا نريد من قبلكم جزاء ولا شكراً .

ويقال : إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم ، ولكن كان ذلك بضائهم .

« إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا
قَمْطَرِيرًا » .

أى : يوم القيامة

« فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ »

(١) هكذا فى م ، وفى ص (صلى الله عليه) .

(٢) قال الأسير وهو واقف بالباب : « السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسرونا وتشدرونا ولا تطعمونا !
أطعموني فإنى أسير محمد » . فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح .. حتى لصق
بطن فاطمة بظهرها وغارت ميناها من شدة الجوع » . فلما رآها النبي (ص) وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال :
« واغوثاه يا الله ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً » فنزلت الآية . ولكن بعض رجال الحديث يطعنون فى هذا الخبر .
يقول الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : « هو حديث مزوق مزيف ؛ لأن الله تعالى يقول : يسألونك ماذا ينفقون
قل العفو » ، والنبي يقول : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » .

« ولَقَّاهُمْ » أى : أعطاهم « نَصْرَةً وَسُرُوراً » .

« وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً »

كَافَّاهُمْ عَلَى مَا صَبَرُوا مِنَ الْجُوعِ وَمَقَاسَاتِهِ جَنَّةً وَحَرِيراً

« مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ »

واحدما أريكة ، وهى السرير فى الحجال^(١) .

« لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا »

أى : لَا يَتَأَذَّونَ فِيهَا بِحَرٍّ وَلَا بَرْدٍ .

« وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ

قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » .

يَتِمَكَّنُونَ مِنْ قُطَافِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِى هُمْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانُوا قَعُودًا تُدَلَّى لَهُمْ ،
وإن كانوا قياماً — وهى على الأرض — ارتقت إليهم .

« وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ »

الاسم فضة ، والعين لا تشبه العين^(٢)

« وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا *

قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا »

أى : فى صفاء القوارير وبياض الفضة .. قَدَّرَ ذَلِكَ عَلَى مَقْدَارِ إِرَادَتِهِمْ .

« وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا

زَنْجَبِيلًا » .

المقصود منه الطَّيِّبُ ، فقد كانوا (أى العرب) يَسْتَطِيبُونَ الزَّجْبِيلَ ، وَيَسْتَلْذِنُونَ نَكْهَتَهُ ،

(١) جمع حجلة وهى ستر يضرب على سرير العروس كالحقة .

(٢) من هذا يتضح أن الفشيري يرى أن الجنة وصفت بما يمكن أن يكون منتهى تصوراتهم الدنيوية لمجالات النعمة .. فالألفاظ هى الألفاظ ولكن الحقائق شئ آخر .

وبه يشبهون الفا كهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان^(١) .

« عينا فيها تُسمى سلسيلاً » .

أى : يُسَقَوْنَ من عينٍ — أثبت للسقي وأَجَلَ مَنْ يَسْقِيهِمْ ؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ — سبحانه — بلا واسطة .

قوله جل ذكره : « ويطوفُ عليهم ولدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا » .

أى : يخدمهم ولدان مُخَلَّدُونَ (وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصف)^(٢) .

وجاء فى التفسير : لا يَهْرَمُونَ ولا يموتون . وجاء مُقَرَّطُونَ .

إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مِنْ صَفَاءِ أَلْوَانِهِمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا^(٣) .

وفى التفسير : مامن إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُنْكَا كَبِيراً » .

« نَمَّ » : أى فى الجنة .

« مُنْكَا كَبِيراً » : فى التفسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : « لَمْ يَشَاءُونَ فِيهَا »^(٤) ويقال : أى لا زوال له .

(١) من ذلك قول المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وكان طعم الزنجبيل به إذ ذقته وملافة الخمر

وقال الأعشى :

كان القرنفل والزنجبيل سل باما بنفيا وأريا مشورا

(والأرى = هو السل) .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شىء من غموض .

(٣) قيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنشور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبهن باللؤلؤ المكتون المختزون لأنهن لا يمتحن بالخدمة (القرطبي ١٩٨ ص ١٤٤) .

(٤) آية ٣٠ سورة ق .

« عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ
وَسَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » .

يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَصْفُ لِلْأَبْرَارِ . وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لِلْوَلَدَانِ وَهُوَ أَوْلَى ، وَالْأَسْمُ
يُؤَافِقُ الْأَسْمَ دُونَ الْعَيْنِ ^(١) .

« شَرَابًا طَهُورًا » : الشَّرَابُ الطَّهُورُ هُوَ الطَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ الْمُطَهَّرُ لغيره .

فَالشَّرَابُ يَكُونُ طَهُورًا فِي الْجَنَّةِ — وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ التَّطْهِيرُ لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا
إِلَى التَّطْهِيرِ .

وَلَكِنَّهُ — سَبَّحَانَهُ — لَمَّا ذَكَرَ الشَّرَابَ — وَهُوَ الْيَوْمَ فِي الشَّاهِدِ نَجَسٌ — أَخْبَرَ أَنْ
ذَلِكَ الشَّرَابَ غَدًا طَاهِرٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ مُطَهَّرٌ ؛ يُطَهَّرُهُمْ عَنْ مَحَبَّةِ الْأَغْيَارِ ، فَمَنْ يَحْتَسِرُ مِنْ ذَلِكَ
الشَّرَابِ شَيْئًا طَهَّرَهُ عَنْ مَحَبَّةِ جَمِيعِ الْخَالِقِينَ وَالْمَخْلُوقَاتِ .

وَيَقَالُ : يُطَهَّرُ صُدُورُهُمْ مِنَ الْغِلِّ وَالنِّسِّ ، وَلَا يُبْقَى لِبَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ خَصِيْمَةٌ
(وَلَا عِدَاوَةٌ) ^(٢) وَلَا دَعْوَى وَلَا شَيْءٌ .

وَيَقَالُ : يُطَهَّرُ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَحَبَّةِ الْحُورِ الْعَيْنِ .

وَيَقَالُ : إِنْ الْمَلَائِكَةُ تَرْضَى عَلَيْهِمُ الشَّرَابَ فَيَأْبُونَ قَبُولَهُ مِنْهُمْ ، وَيَقُولُونَ :
لَقَدْ طَالَ أَخْذُنَا مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَإِذَا هُمْ بِكَلَسَاتٍ تُلَاقِي أَفْوَاهَهُمْ بَغِيرَ أَكْفٍ ؛ مِنْ غَيْبٍ
إِلَى عَبْدٍ .

وَيَقَالُ : الْيَوْمَ شَرَابٌ وَغَدًا شَرَابٌ .. الْيَوْمَ شَرَابُ الْإِنْسَانِ ^(٣) وَغَدًا شَرَابُ الْكَاسِ ،
الْيَوْمَ شَرَابٌ مِنَ اللَّطْفِ وَغَدًا شَرَابٌ يُدَارُ عَلَى الْكَفِّ .

(١) أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَلِجُ الْقَشِيرَى عَلَى حَقِّ الْمَعْنَى ؟

(٢) غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي مَوْجُودَةٍ فِي ص .

(٣) هَكَذَا فِي ص وَهِيَ فِي م (الْأَنْفَاسُ) ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَا كَمَا يَتَضَحَّى فِيهَا بَدَنُ (آئِمَّة) .

ويقال : مَنْ سَقَاهُ الْيَوْمَ شَرَابَ مَحَبَّتِهِ آتَتْهُ وَشَجَعَتْهُ ؛ فَلَا يَسْتَوْحِشُ فِي وَقْتِهِ مِنْ شَيْءٍ ،
وَلَا يَضِنُّ بِرُوحِهِ عَنْ بَدَلٍ . وَمَنْ مَقْتَضَى شُرْبَهُ بِكَأْسِ مَحَبَّتِهِ أَنْ يَجُودَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِالْكُونَيْنِ
مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ ، وَلَا يَبْقَى عَلَى قَلْبِهِ أَثَرٌ لِلْأَخْطَارِ .

وَمِنْ آثَارِ شُرْبِهِ تَذَلُّهُ لِكُلِّ أَحَدٍ لِأَجْلِ مَحَبَّتِهِ ، فَيَكُونُ لِأَصْغَرِ الْخَدَمِ تَرْابَ الْقَدَمِ ،
لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ لِلتَّكَبُّرِ عَرَقٌ .

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ مَقْتَضَى ذَلِكَ الشَّرَابِ أَيْضًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ أَنْ يَنْتَبِهَ عَلَى أَهْلِ
الْدَّارَيْنِ .

وَمِنْ مَقْتَضَى ذَلِكَ الشَّرَابِ أَيْضًا أَنْ يَمْلِكَهُ سُرُورٌ وَلَا يَتَمَالَكَ مَعَهُ مِنْ خَلْعِ الْعَذَارِ
وِلِقَاءِ قَنَاعِ الْحَيَاءِ^(١) وَيُظْهِرُ مَا هُوَ بِهِ مِنَ الْمَوَاجِدِ :

يَخْلَعُ فِيكَ الْعَذَارَ قَوْمٌ فَكَيْفَ مَنْ مَالَهُ عَذَارُ؟

وَمِنْ مَوْجِبَاتِ ذَلِكَ الشَّرَابِ سَقُوطُ الْحَشَمَةِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِمَقْتَضَى الْبَسْطِ ، أَوْ بِمَوْجِبِ لَفْظِ
الشُّكُوفِ ، وَبِمَا لَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ — فِي حَالِ صَحْوِهِ — سَفِيهٌ بِالْمُنَاقِيشِ^(٢) . . . وَعَلَى هَذَا
سَمَحَلُوا قَوْلَ مُوسَى : « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ »^(٣)

فَقَالُوا : سَكِرَ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِهِ^(٤) ، فَتَنَطَّقَ بِذَلِكَ لِسَانُهُ . وَأَمَّا مَنْ يَسْقِيهِمْ شَرَابَ التَّوْحِيدِ
فَيَنْفَنِي عَنْهُمْ شُهُودَ كُلِّ غَيْرٍ فَهَيِّمُونَ فِي أَوْدِيَةِ الْعِزِّ ، وَيَتَبَهَوْنَ فِي مَفَاوِزِ الْكِبَرِيَاءِ ، وَتَتَلَاشَى

(١) هكذا في م وهي في ص (الحياة) ، والملائم لخلع العذار إلقاء قناع (الحياء) . والمقصود بهما تجاوز
حد الصبر على المكتوم من الحب ، ونطق القلب وهو في غلبات الشهود بشعاعات ظاهرها مستشنع وإن كان باطنها
في غاية السلامة (انظر تعريف السراج للشطح في اللمع) .

(٢) المناقيش جمع منقاش ، ويقال في المثل : استخرجت منه حقي بالمناقيش أي تعبت كثيرا حتى استخرجت
منه حقي (الرميط) .

(٣) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٤) التفسير في (كلامه) يعود على الرب ؛ سبحانه حينما قال : « إِنِّي أَنَا اللَّهُ » ، وفي موضع آخر يصف
القشيري: موسى عليه السلام بأنه كان في حال التلوين فظهر عليه ما ظهر ، بينما المصطفى (ص) ليلة المعراج كان
في حال التمكين فما زاغ بصره وما طنى .

جلتهم في هواء الفردانية . . فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك . . فكل هذه المعاني ساقطة .

فالمبدأ يكون في ابتداء الكشف مستوعباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصير مستهلكاً . .
« وأن إلى ربك المنتهى »^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جِزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .

يقال لهم : هذا جزاء لكم ، « مشكوراً » : وشكره لسعيهم تكثير الثواب على القليل من العمل — هذا على طريقة العلماء ، وعند قوم شكرهم جزاؤهم على شكرهم .

ويقال : شكره لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا »

في مدة^(٢) سنين .

« فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » .

أى : ارض بقضائه ، واستسلم لحكمه .

« وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » : أى : ولا كفوراً ، وهذا أمر له بإفراد ربه بطاعته .

« وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » .

القرض في الأول ، ثم النفل^(٣)

« إِنَّ هَؤُلَاءِ .. »

(١) آية ٤٢ سورة النجم .

(٢) هكذا في النسختين ولا نستبعد أنها في الأصل (عدة) وكلاهما صحيح في السياق .

(٣) فالصلاة جاءت في الأول (بكرة وأصيل) صلاة الصبح ثم الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب والمشاء ثم من بعد ذلك النفل وهو (وسبحه ليلاً طويلاً) : لأنه تطوع ، قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل : هو خاص بالنبي (ص) وحده .

أى كفار قريش .

« يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا » .

أى : لا يعملون ليوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا
شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » .

أعدمناهم ، وخلقنا غيرهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق (١) .

« إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ... »

أى : القرآن تذكرة .

« فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » .

بطاعته .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن
الله كان عليماً حكيمًا * يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا » .

أى : عذاباً أليماً موجعاً يخلص وجمعه إلى قلوبهم .

(١) تأخرت هذه العبارة عن موضعها ، فأرجعناها إلى مكانها .

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ الْوَجْدِ وَفِي لَهُ فَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ ، وَمَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ الْعِلْمِ جَادَ لَهُ فَلَمْ يَبْغُلْ بِرُوحِهِ عَلَى أَحَدٍ .

ومن سَمِعَهَا بِسْمِ التَّوْحِيدِ جَرَّدَ سِرَّهُ عَنْ إِثَارِ^(١) مَا سِوَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَيْنًا وَأَثَرًا فَمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا حَاصِلًا بِهِ كَائِنًا مِنْهُ .

قوله جل ذكره : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » .

« المرسلات » : الملائكة ، « عُرْفًا » أى : أرسلوا بالمعروف من الأمر ، أو كثيرين كعُرْفِ الْفَرَسِ .

« فَالْمَاصِفَاتِ عَصْفًا » .

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتي بالمصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

« وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا » .

الأمطار (لأنها تنشر النبات . فالنشر بمعنى الإحياء) . ويقال : السَّحْبُ تَنْشُرُ الْغَيْثَ . ويقال : الملائكة .

« فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا » .

الملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

« فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نَذْرًا » .

(١) هكذا في ص وهي في م (ثياب) وهي خطأ من النسخ .

الملائكة : تُلَقِّي الوحيَ على الأنبياء عليهم السلام ؛ إغذاراً وإنتاراً . .
وجوابُ القسمِ :

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ » .

فأقسم بهذه الأشياء : إِنَّ القيامةَ لَحَقٌّ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » .

إنما تكون هذه القيامة . « وطُمِسَتْ » : ذهب ضوؤها .

« وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ » .

ذهبَ بها كلها بسرعة ، حتى لا يَبْقَى لها أثرٌ .

« وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ »

أُجِّلَتْ * ليومِ الفصلِ » .

أى : جَعَلَ لها وقتاً وأَجَلًا لفصلِ القضاء يومَ القيامة .

ويقال : أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة .

« وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ »

على جهة التعظيم له .

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

مضى تفسيرُ معنى الويل .

ويقال فى الإشارات : فَإِذَا نَجُومُ الْمَعَارِفِ طُمِسَتْ بِوُقُوعِ الْغِيْبَةِ .

وإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ : الْقُلُوبُ السَّاكِنَةُ بِبِقَيْنِ الشُّهُودِ حُرُّكَتْ عِقَابُهُ عَلَى مَا هَمَّتْ بِالَّذِي

لَا يَجُوزُ . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِأَرْبَابِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ ذَوَى الْقُلُوبِ الْمُطْبَقَةِ الْخَالِيَةِ

مِنَ الْمَعَانِي .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ

الْآخِرِينَ » .

الذين كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ ، وَجَعَدُوا آبَاتِنَا ؛ فَثَلَمْنَا أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِذَا

فَعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ .

« ويلٌ يومئذٍ للكاذبين » الذين لا يستوى ظاهرهم وباطنهم في التصديق .
وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلة والفترة في الطريقة ، والخيانة في أحكام المحبة فعذبوا
بالحرمان في عاجلهم ، ولم يذوقوا من المعاني شيئاً .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَّهِينٍ ؟ » .

أى : حقير . وإذ قد علمت ذلك فليَمِّ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذَكَرَهُمْ أَصْلَ خَلْقِهِمْ لثَلَا يُعْجَبُوا بِأَحْوَالِهِمْ ؛ فإنه لا جنسَ من المخلوقين
والخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بنى آدم . فمن الواجب أن يتفكَّرَ الإنسانُ في أصلِهِ كان
نطفةً وفي انتهائه يكون جيفةً ، وفي وسائط حاله كنيفٌ في قيص ! ! فبالحرى ألاَّ يُدِلَّ
ولا يفتخر :

كيف يزهو من رجبِهِ أبدَ الدهرِ ضجيجُهُ

فهو منه وإليه وأخوه ورضيعُهُ

وهو يدعو إلى الحُشِّ^(١) بصفر فيطيعه ١١٩

ويقال : يُذَكِّرُهُمْ أَصْلَهُمْ .. كيف كان كذلك .. ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة ،

قال تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » ، والذي يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرْقِيَكَ من الأحوال

الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ

وَأَمْواتًا » .

« كِفَاتًا » أى : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتا ؛ فهم يعيشون على

ظهرها ، ويؤدَّعون بعد الموت في بطنها ..

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَاخِاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ ماءً فُرَاتًا » .

(١) الحش بفتح الحاء وضمها = الكنيف .

والقصود : كيف تَرَهُمْ أيها الإنسان ، وإن ما يعذبه جسمك من فضلات ملازم لك حياتك . ليك ونهارك ،
وأنت تطيعه صاغراً إذا أمرك ودعاك بالذهاب إلى الحش ؟

أى : جبالاً مرتفعات ، وجعلنا بها الماء سقياً لكم . يُذَكِّرُهم عظيم منتهى بذلك عليهم .
والإشارة فيه إلى عظيم منتهى أنه لم يخسف بكم الأرض — وإن علمتم ما علمتم .
« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .

يقال لهم : انطلقوا إلى النار التي كذبتُم بها .

« انطلقوا إلى فيل ذي ثلاث شعب » لا ظليل ولا يُفنى
من اللهب » .

كذلك إذا لم يعرف العبد قَدْرَ امتحان طريقه إلى الله بقلبه ، وتعرُّضه بتوكله .. فإذا
رجع إلى الخلق عند استيلاء الغفلة نزع الله عن قلبه الرحمة ، وانسدت عليه طرق رُشده ،
فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا .

ويقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . والاستقلال بالله جنّة المأوى ، والرجوع
إلى الخلق قرع باب جهنم .. وفي معناه أنشدوا :

ولم أرَ قبلى من يفارق جنّةً ويرع بالتفيل باب جهنم

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصّل والاعتذار :

« هذا يوم لا ينطقون » ولا يؤذن لهم فيمتدّرون .

فإلى أن تنهى مدّة العقوبة فينثّر : ان استأنفت وقتاً استؤنف لك وقت . فأما الآن ..
فصبراً حتى تنقضى أيام العقاب .

« هذا يوم الفصل جمعناكم
والأولين » .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان ، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم
من دخول النيران

قوله جل ذكره : « إن المتقين في ظلال وعيون » .

اليوم .. في ظلال العناية والحماية ، وغداً ... هم في ظلال الرحمة والكلاءة .

اليوم .. في ظلال التوحيد ، وغداً .. في ظلال حُسن المزيد .

اليوم .. في ظلال المعارف ، وغداً .. في ظلال اللطائف .

اليوم .. في ظلال التعريف ، وغداً .. في ظلال التشريف .

« كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

اليوم تشربون على ذكره .. وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء .

« إنا كذلك نجزي المحسنين » .

والإحسانُ من العبد تركُ الكلِّ لأجله كذلك غداً : يحازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجلِك .

قوله جل ذكره : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم تُجرمون » .

هذا خطابٌ للكفار ، وهذا تهديدٌ ووعيد ، والويل يومئذٍ لكم .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم أركعوا لا يركعون » .

كانوا يُصرِّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم^(١) .

[ذكر في التفسير : أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار ، وقصور الدرّ مع الأبرار ، وعيون جارية وأنهار . ، وألوانٍ من الفاكهة والثمار .. من كل ما يريدون من الملك الجبار . ويقال لهم في الجنة : كلوا من ثمار الجنات ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . « بما كنتم تعملون » من الطاعات . « كذلك نجزي المحسنين » من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا « هنيئاً » : لا تبعة عليكم من جهة الخصومات ، ولا أذية في المأكولات والمشروبات .

وقيل : المنى الذي لا تبعة فيه على صاحبه ، ولا أذية فيه من مكروهٍ لغيره .]

(١) إل هنا انتهى تفسير السورة في م النسخة ص . وكل ما بين القوسين الكبيرين موجود في النسخة م . .

(١)

سُورَةُ النَّبَاِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمُ مَلِكٍ تَجَمَّلَ عِبَادُهُ بِطَاعَتِهِ ، وَتَزَيَّنَ خَدَمُهُ بِعِبَادَتِهِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يَتَجَمَّلُ بِطَاعَةِ اللَّطِيعِينَ ، وَلَا يَتَزَيَّنُ بِخِدْمَةِ الْعَابِدِينَ ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم ، وزينة العارفين حُلَّةُ معرفتهم ، وزينة المحبِّين تاجٌ ولايتهم .. وزينة المذنبين غَسْلٌ وجوههم بِصَوْبٍ^(٢) عِبْرَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : « عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ » عن النبأ العظيم *
الذي هم فيه مُخْتَلِفُونَ .

مُخْتَلِفُونَ بِشِدَّةِ إنْكَارِهِمْ أَمْرَ الْبَعْثِ ، وَلَالْتِبَاسِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةِ مُسَاءَلَتِهِمْ عَنْهُ ، وَكَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِمْ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْنَاهُ .

تَكَرَّرَ مِنْ اللَّهِ إنْزَالُ أَمْرِ الْبَعْثِ ، وَكَمْ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ فِي جَوَازِهِ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَمْثَلَةِ ..
فَهَذَا مِنْ ذَلِكَ ، يَقُولُ : « عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ » . عَنْ النَّبَأِ الْعَظِيمِ : عَنْ الْخَبَرِ الْعَظِيمِ « الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ :

« أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ؟ »

ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ حَتَّى سَكَنُوهَا

« وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ؟ » .

(١) هذا هو اسم السورة كما جاء في ص أمّا في م فتعوانها (سورة عم يتساءلون) .

(٢) م في م (بضرب) وهي في ص (بصوت) وكلاهما غير مقبول في السياق ، وقد رجحنا أن تكون في الأصل (بصوب) على أساس أن التشيرى يستعمل للفعل (تنفطر) مع (العبرة) في مواضع مماثلة ، كما أنها أقرب في الرسم .

أوتاداً للأرض حتى تميدَ بهم .

« وخلقناكم أزواجاً »

ذَكَراً وَأُنْثَى ، وَحَسَنًا وَقَبِيحًا . . وغير ذلك

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا »

أى راحة لكم ، لَتَنْقُطِعُوا عَنْ حَرَكَاتِكُمُ الَّتِي تَعْبَثُ بِهَا فِي نَهَارِكُمْ .

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا »

تُغَطِّي ظُلْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَتَسْكُنُوا فِيهِ .

« وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا »

أى وقتَ معاشِكُمْ .

« وَبَيْنَيْنَا فَرْقًا سَبْعًا شِدَادًا »

أى سبع سموات .

« وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا »

أى الشمس ، جعلناها سراجاً وقاداً مشتعلاً .

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا »

« الْمُعْصِرَاتِ » الرِّيحُ الَّتِي تَعْصِرُ السَّحَابَ (١) .

« مَاءٌ ثَجَّاجٌ » مَطَرٌ صَبَّابٌ .

« لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا *

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا »

« حَبًّا » كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، « وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » بساتين يَلْتَفُّ بِمَضْمُونِهَا بَعْضُ .

وَإِذَا قَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فَهَلَّا عَلِمْتُمْ أَنِّي قَادِرٌ عَلَى أَنْ أُعِيدَ الْخَلْقَ وَأُقِيمَ الْقِيَامَةَ ؟

(١) والمُعْصِرَاتُ أيضاً السَّحَابُ تَعْصِرُ بِالْمَطَرِ ، وَأَعْصَرَ الْقَوْمُ أَيْ : أَمْطَرُوا ، وَمِنْهُ « وَفِيهِ يُمْصِرُونَ » وَالْمَعْصَرُ الْجَارِيَةُ أَوَّلُ مَا أُدْرِكَتِ الْحَبْصَةُ ، فَالْمَعْصَرُ السَّحَابَةُ الَّتِي حَانَ لَهَا أَنْ تُمْطَرَ (الصَّحَاحُ) .

فبعدَ أنَ عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه ، وتمكينهم من منافعهم .. قال :
« إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتَا »

مضى معناه

« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا » .

أى فى ذلك اليوم تأتون زُمرًا وجماعاتٍ .

« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا »

أى : تَشَقَّتْ وانفطرت .

« وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »

أى كالسراب .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا » .

أى ممرًا . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

« لِلطَّاغِيَتِينَ مَأْتَابًا »

أى مرجأ .

« لَا بَشِيرَ فِيهَا أَحْقَابًا »

أى دهوراً ، وللعنى مؤبديين

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا »

« إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا »

مضى معناه . ثم يُعَذَّبُونَ بعد ذلك بأنواعٍ أُخرى من العذاب .

« جَزَاءً وَفَاءً »

أى : جُوزُوا على وفق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى

به الحُكم .

« لَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا »

لا يؤمنون فيرجون الثواب ويخافون العقاب .

« وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا »^(١) .

أى : تكذيباً .

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا »

أى : كتبناه كتاباً ، وعلّمناه علماً .

والمسبحُ الزاهدُ يحصى تسبيحه ، والمهجورُ البائسُ يحصى أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحبُ وصالٍ لا يتفرّغ من وصله إلى تذكُّرِ أيامه في العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكةُ يحصون زلّاتِ العاصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول :

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا » فكما أحصى زلّاتِ العاصين وطاعاتِ المطيعين فكذلك أحصى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ محنِ المتحنين ، وإنّ لم في ذلك لَسَلْوَةٌ وَنَفْسًا ؛ ثمانٍ قد مضين بلا تلاقٍ وما في الصبر فضلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ ! وأرُبتْ أوقاتُ هجرانهم على الحصر !

قوله جل ذكره : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا »

بأيها المُنعمون في الجنة .. إفرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون .. احترقوا في النار .. ولن نزيدكم إلا عذاباً^(٢)

وبأيها المطيعون .. افرحوا وارتموا فلن نزيدكم إلا فضلاً على فضل .

بأيها المساكين .. إبكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلا عزلاً على عزل .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا

* وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا *

(١) في « كذاباً » يقول الفراء : هي لغة يمانية فسيحة ؛ يقولون : كذبت به كذاباً وخرقت القميص خيراً أقام . فكل فعل في وزن (فعل) مصدره فعال مشددة في لغتهم .

(٢) قال أبو برزّة : سألت النبي (ص) عن أشد آية في القرآن فقال : قوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا » أى : « كلما نصيبت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » و « كلما غبت زدنهم سعيراً » .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِتَابًا *
جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا »

مُسَلَّمٌ لِلتَّقِيَّينَ مَا وَعَدْنَاهُمْ بِهِ .. فَهَنِيئًا لَهُمْ مَا أَعَدَدْنَا لَهُمْ مِنَ الْفَوْزِ بِالْبُغْيَةِ وَالظَّفَرِ بِالسُّؤْلِ
وَالْمُنِيَةِ : مِنْ حِدَائِقِ وَأَعْنَابٍ ، وَمِنْ كَوَاعِبِ أَتْرَابٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

فَيَأِيهَا الْمُهَيَّمُونَ الْمُتَيَّمُونَ هَنِيئًا لَكُمْ مَا أَتَمَّ فِيهِ الْيَوْمَ فِي سَبِيلِ مَوْلَاكُمْ مِنْ تَجَرُّدٍ وَقَرٍّ ،
وَمَا كَلَّفَكُمْ بِهِ مِنْ تَوَكُّلٍ وَصَبْرٍ ، وَمَا تَجَرَّعْتُمْ مِنْ صَدٍّ وَهَجَرٍ .

أُخْرَى الْمَلَابِسِ مَا تَلَقَى الْحَيِيبَ بِهِ يَوْمَ التَّزَاوُرِ^(١) فِي التَّوْبِ الَّذِي خَلَمَا
قَوْلُهُ : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ... » آذَانَهُمْ مَصُونَةً عَنْ سَمَاعِ الْأَغْيَارِ ، وَأَبْصَارَهُمْ مَحْفُوظَةً
عَنْ مَلَا حِظَّةِ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُ مِنْهُ خِطَابًا »

وَكَيْفَ نَكُونُ لِلْمُكُونِ الْخَلْقِ الْفَقِيرِ الْمُسْكِنِ مُكْنَةً أَنْ يَمْلِكَ مِنْهُ خِطَابًا ؟ أَوْ يَنْتَفِسَ
بِدُونِهِ نَفْسًا ؟ كَلَّا . . . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْجَبَّارُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا
لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ
وَقَالَ صَوَابًا »

إِنَّمَا تَظْهَرُ الْهَيْبَةُ عَلَى الْعُمُومِ لِأَهْلِ الْجَمْعِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَأَمَّا الْخَوَاصُّ وَأَصْحَابُ الْحُضُورِ
فَهُمْ أَبَدًا بِمَشْهَدِ الْعِزِّ بِنَعْتِ الْهَيْبَةِ ، لَا نَفْسَ^(٢) لَمْ وَلَا رَاحَةَ ؛ أَحَاطَ بِهِمْ سِرَادُهَا وَاسْتَوْلَتْ
عَلَيْهِمْ حَقَائِقُهَا .

(١) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي ص (التَّزَاوُلِ) وَهِيَ خَطَأٌ مِنَ النَّاسِخِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ النَّصِّ الْحَمَرِيِّ : أَنَّ اللَّهَ يَجِبُ
أَنْ يَرَى عَلَى الْفُقَرَاءِ ثِيَابَ التَّجَرُّدِ لِأَنَّهَا الثِّيَابُ الَّتِي خَلَعَهَا عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حِينَ آثَرُوا حَقِّقَهُ عَلَى حُظُوظِهِمْ .
(٢) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي م (لَا تَفَرُّ لَمْ وَلَا فَرَجَةَ) وَرَبَّمَا كَانَتْ (فَرَجَةً) بِالْجِيمِ .

قوله جل ذكره : « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ
إلى ربه مآباً » .

ثم يشهد الحق ، والحكم عليهم الحق ، حكم عليهم بالحق ، وهم مجذوبون بالحق للحق .
قوله جل ذكره : « إنا أنذرناكم عذاباً قريباً » .

وهو عند أهل الغفلة بعيد ، ولكنه في التحقيق قريب .

« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه »
ويقول الكافر^(١) : يا ليتني
كنت تراباً .

مضوا في ذل الاختيار والتعني^(٢) ، وبُعِثُوا في حسرة التمني ، ولو أنهم رضوا بالتقدير
لتخلصوا^(٣) عن التمني .

(١) قيل : يراد بالكافر هنا أبي بن خلف أو عقبة بن أبي معيط . ويرى أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم
القشيري - صاحب هذا الكتاب : هو إبليس ، يقول : يا ليتني خلقت كآدم من تراب ولم أقل أنا خير منه لأنني
من نار . (القرطبي ١٩٣ ص ١٨٩) .

(٢) وردت في النسخين (التعني) وهي مقبولة ، ولكننا نرجح أنها ربما كانت في الأصل (التعني) لأن
الاختيار كان في الدنيا ، واختيار المرء - حسب نظرية القشيري - مجلبة لعنائه وشقائه . هذا فضلاً عن أن إثبات
(التعني) يزيد المعنى - نظراً لتلون الفاصلة - قوة وجهاً .

(٣) هكذا في م وهي في ص (لتخلصوا) وواضح فيها خطأ للناسخ .

سُورَةُ النَّازِعَاتِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ لربِّ عزيز ، سماعُهُ يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز ، وذكْرُهُ يحتاج إلى وقتٍ عزيز ، وفهمُهُ يحتاج إلى قلبٍ عزيز .

وأنتَ لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبِ مُبْتَدَل ، ووقتِ مُعْطَلٍ في الخسائسِ مُسْتَفْرَق ، وقلبٍ في الاشتغالِ بالأغيارِ مُسْتَعْمَل . . . أَنَّى لَهُ أَنْ يَصْلُحَ لِسَاعِ هَذَا الْإِسْمِ ۙ ۱۹ .

قوله جل ذكره : « والنَّازِعَاتِ غَرْقًا » .

أى الملائكة ؛ نَزَعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

« غَرْقًا » : أى إغراقًا كالمُغْرَقِ في قَوْسِهِ^(٢) .

ويقال : هى النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

« والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا » .

هى أنفُسُ المؤمنين تَنْشِطُ للخروج عند الموت .

ويقال : هى الملائكة تَنْشِطُ أرواحَ الكفَّارِ ، وتَنْزِعُها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هى الوحوش تنشط من بلادٍ إلى بلادٍ .

ويقال : هى الأوهاق^(٣) .

(١) هكذا فى ص وهى فى م (سورة والنَّازِعَاتِ) بإثبات الواو .

(٢) إغراق النَّازِعِ فى القوس أن يبلغ مداها ويستوفى شدَّها .

(٣) هكذا فى م وهى فى (ص) الأوهاق (بالراء وهى خطأ فى النسخ ، والأوهاق جمع وفاق بحركتين وقد يسكن : الحبل تشد به الإبل والخيول حتى تؤخذ وفى طرفه أنشودة . وأوهق الدابة أى طرح فى عنقها الوفاق . وعن عكرمة وعطاء : الأوهاق تنشط السهام .

ويقال : هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق .

« وَالسَّابِحَاتِ سَبِّحًا »

الملائكة تسبح في نزولها .

ويقال : هي النجوم تسبح في أفلاكها .

ويقال : هي السفن في البحار .

ويقال : هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

« فَالسَّابِقَاتِ سَبِّحًا » .

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول .

« فَلِلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحي ، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات ، وإسرافيل بالصُّور ، ومَلَكُ اللُّوت يقبض الأرواح . . عليهم السلام .

وجوابُ القسم قوله : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى » (١)

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » .

تتحرك الأرض حركةً شديدة .

« تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ » .

النفخة الأولى في الصُّور . وقيل : الراجعة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية .

(١) هذه هي الآية رقم ٢٦ بالسورة وهو اختيار الترمذي أيضاً .. وهي كما نرى متأخرة جداً . ويرى بعض المفسرين أن جواب القسم مفسر لأنه لا يحتج على السامع ، ويرى آخرون - كالقراء - أنه البعث بدليل « أَتَذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً » .

ويرى القرطبي : أنه قسم جوابه : إِنْ الْقِيَامَةُ حَقٌّ .

« قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ » .

خاتمة .

« يسولون أئنا لمرءودون في
الحافرة (١) » .

أى إلى أول أمرنا وحالنا ، يعنى أئذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشى على الأرض
بأقدامنا) ؟ : قالوه على جهة الاستبعاد .

« أئذا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً » .

أى بالية .

« تلك إذا كَرَّةٌ خاسرةٌ » .

... رَجَعَتْ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا
هَمُّ السَّاهِرَةِ (٢) » .

جاء فى التفسير إنها أرض المحشر ، ويقال : إنها أرضٌ بيضاء لم يُغصِرَ الله فيها (٣) .
ويقال : الساهرة نَفْخَةُ الصُّورِ تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جل ذكره : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى *
إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ
طُوًى » .

أى الأرض المطهرة المباركة . « طوى » اسم الوادى هناك .

« أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى *
قُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى » .

(١) سميت الأرض الحافرة لأنها مستقر الحوافر .

(٢) سميت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره (الفراء) ، وقال أبو كبير الهذلى :
يرتدن ساهرة كأن جسيمها وعيبيها أسداف ليل مظلم

(٣) هذا رأى ابن عباس .

قلنا له : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قل له : هل يقع لك أن تؤمن وتطهر من ذنوبك .
وفي التفسير : لو قلت لا إله إلا الله فلك ملك لا يزول ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش
أربعمائة سنة في السرور والنعمة .. ثم لك الجنة في الآخرة .

« وأهديك إلى ربك فتخشى » .

أقررك بالآيات صيحة ما أقول ، وأعرفك صحة الدين .. فهل لك ذلك ؟ فلم يقبل .
ويقال : أظهر له كل هذا التلطف ولكنه في خفي سره وواجب مكبره به أنه صرّف
قلبه عن إرادة هذه الأشياء ، وإيثار مراده على مراد ربه ، وألقى في قلبه الامتناع ، وترك قبول
النصح .. وأي قلب يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ ؟ وأي كبر تعرف هذا
فلا تنشق لصعوبة هذا المكر ؟

قوله جل ذكره : « فأراه الآية الكبرى » .

جاء في التفسير : هي إخراج يده بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس . فقال فرعون : حتى
أشاور هامان^(١) ، فشاوره ، فقال له هامان : أبعد ما كنت رباً تكون مربوباً ؟ ! وبعد
ما كنت ملكاً تكون مملوكاً ؟

فكذب فرعون عند ذلك ، وعصى ، وجمع السحرة ، ونادى :

« فقال أنا ربكم الأعلى » .

ويقال : إن إبليس لما سمع هذا الخطاب فرّ وقال : لا أطيق هذا !

ويقال قال : أنا ادّعت الخيرية على آدم فليت ما لقيت .. وهذا يقول :
أنا ربكم الأعلى .

قوله جل ذكره : « إن في ذلك لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى » .

(١) يقصد القشيري من بعيد إلى شيتين : أولهما أن فساد الملوك قد يكون بسبب وزرائهم وحاشيتهم .. ولعلنا
نذكر ما قلناه في المدخل عن أن أشد الهمة التي أملت بالقشيري كانت بسبب الكندري وزير السلطان طغرل .
وثانيهما أن الصحبة السيئة قد تؤدي إلى هلاك الصاحب والمصحوب ، وفي هذا تحذير لأرباب الطريق (راجع
باب الصحبة في الرسالة ص ١٤٥) .

أى فى إهلا كنا فرعون كعبرة لمن يخشى .

قوله جل ذكره : « أبتم أشد خلقاً أم السماء

بناها * رَفَعَ سَمَكَمَا فُسَوَاهَا *

وَأَغَطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا » .

« فُسَوَاهَا » جعلها مستوية . « وَأَغَطَشَ لَيْلَهَا » أظلم ليلها . « ضُحَاهَا » ضوؤها ونهارها .

« دُحَاهَا » بَسَطَهَا وَمَدَّهَا .

« أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » .

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات ..

« وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا » .

أثبتتها أوتاداً للأرض .

« مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » .

أى أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع ، وكذلك لأنعامكم .

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ السَّكْبَرُ » .

الداهية العظيمة .. وهى القيامة .

« يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى » .

وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى وكفر وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيم له المأوى
والمُسْتَقَرُّ والمَثْوَى .

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ

هى الْمَأْوَى » .

« مقام ربه » : وقوفه غداً فى محل الحساب . ويقال : إقبالُ الله عليه وأنه رادله .. وهذا

عينُ المراقبة ، والآخر محلُّ المحاسبة .

« ونهى النفس عن الهوى » أى لم يتابع هواه .

قوله جل ذكره : « يسألونك عن الساعة أيات
مُرْسَاهَا ؟ » .

أى متى تقوم ؟ .

« فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا » .

مِنْ أَيْنَ لَكَ عِلْمُهَا وَلَمْ تَمْلِكْ ذَلِكَ ^(١) .

« إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » .

أى إنما يعلم ذلك رَبُّكَ .

« إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا » .

أى مخوف ، فيقبل تخويفك مَنْ يَخْشَاهَا ويؤمن .

« كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا

إِلَّا عَمِيئَةً أَوْ ضُجَاعًا » .

كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْقِيَامَةَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَمِيئَةً أَوْ ضُجَاعًا ؛ فَلَشِدَّةُ مَا يَرَوْنَ تَقِلُّ عَنْهُمْ كَثْرَةُ
مَا لَبِسُوا تَحْتَ الْأَرْضِ .

(١) روى الإمام البخارى فى نهاية حديثه عن هذه السورة قال : حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا الفضيل بن سليمان
حدثنا أبو حازم حدثنا سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والى
نيل الإبهام بعثت والساعة كهاتين . (البخارى ج ٣ ص ١٤٢) .

(١)

سُورَةُ عَبَسَ

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده ، اسم عزيز انسَدَّ على الأولين والآخرين طريقَ وجوده . . . وأنى بذلك ولا حَدَّ له ؟ مَنْ الذى يدركه بالزمان والزمانُ خلقه ؟ ومن الذى يحسبه فى المكان والمكانُ فعله ؟ وَمَنْ الذى يعرفه — إلا وبه يعرفه ؟ وَمَنْ الذى يَذْكُرُه (٢) — إلا وبه يذكره ؟

قوله جل ذكره : « عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى » .

نزلت فى ابن أم مكتوم ، وكان ضريراً .. أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس ابن عبد المطلب وأمية بن خلف الجُمَحِيُّ (٣) — يرجو الرسول صلى الله عليه وسلم لإيمانهما ، فَكَّرِهَ أَنْ يَقْطَعَ حَدِيثَهُ مَعَهَا ، فَأَعْرَضَ عَنْ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَعَبَسَ وَجْهَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

وجاء فى التفسير : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أثره ، وَأَمَرَ بِطَلْبِهِ ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَبْرُؤُهُ وَيُكْرِمُهُ ، فَاسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ .

وجاء فى التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْبَسْ — بعد هذا — فى وجهٍ قبيحٍ قط ، ولم يُعْرِضْ عَنْهُ .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (سورة الأعمى)

(٢) هكذا فى ص . هى فى نظرنا أصوب من (يدركه) التى فى م لأن السياق بعدها سيكون : (إلا وبه يدركه) والله سبحانه مثزه عن الدرك والحق كانه عرف من ملعب القشيري . أما الذكر فهذا مقبول على حد تعبير ذى النون المصري : (لا أعرفك إلا بك ولا أذكرك إلا بك) .

(٣) يقول ابن العري : غير صحيح أن أمية هذا كان فى هذا المجلس ، فقد كان بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة وكان موته كافراً ، ولم يقصد المدينة ، ولا اجتمع بالنبي .

ويقال : في الخطاب لُطْفٌ . . وهو أنه لم يواجهه بل قاله على الكناية^(١) ، ثم بعده قال :
« وما يذكرك لعله يزكّي » .

أى يتذكر بما يتعلم منك أو .

« أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرُ » .

قوله جل ذكره : « أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى * فَأَنْتَ لَهُ

تَصَدَّقْتَ * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَكِّي » .

أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ أَسْتَفْنَى عَنْ اللَّهِ .

ويقال : استغنى بماله فأنت له تصدّى ، أى تقبل عليه بوجهك .

« وَمَا عَلَيْكَ . . . » فَأَنْتَ لَا تَوَاحِدُ بِالْأَلَا يَزَكِّي هُوَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ .

« وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى » .

لَطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَيَخْشَى اللَّهَ فَأَنْتَ عَنْهُ تَقَلَّبْتَ ، وَتَشَاغَلَ . . وهذا كله مِنْ قِبَلِ الْعِتَابِ
مَعَهُ لِأَجْلِ الْفُقَرَاءِ .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرْهُ » .

القرآن تذكرة ؛ فَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذَّكَّرَهُ ذَكَرْهُ ، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يَذَّكَّرَهُ
لَمْ يَذَّكَّرْهُ ؛ أَى بِذَلِكَ جَرَى الْقَضَاءُ ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .

ويقال : الكلامُ على جهة التهديد ؛ ومعناه : فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَهُ فَلْيَذَّكَّرْهُ ، وَمَنْ شَاءَ
أَلَّا يَذَّكَّرَهُ فَلَا يَذَّكَّرْهُ ! كَقَوْلِهِ « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ »^(٢) .

وقال سبحانه : « ذَكَرْهُ » ولم يقل « ذَكَرْهَا » لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره : « فِي مِصْحَفٍ مُكْرَّمَةٍ » .

(١) أى تحدث عن عبوس الوجه بضمير الغائب ، ثم جاء العتاب بضمير الخطاب .

(٢) آية ٢٩ سورة الكهف .

أى صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك ، وفى اللوح المحفوظ .

« مَرْفُوعَةٌ مُطَهَّرَةٌ » .

مرفوعة فى القَدْر والرتبة ، مطهرة من التافض والكذب .

« بِأَبْدَى سَفَرَةٍ » .

أى : الملائكة الكعبة .

« كِرَامٍ بِرَّةٍ » .

كرام عند الله بِرَّة .

قوله جل ذكره : « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » .

لَئِنْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْظَمُ كُفْرِهِ .

« مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ » من نُفُوسٍ

خَلَقَهُ قَدَّرَهُ » .

خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَقَدَّرَهُ أَطْوَاراً : من نُفُوسٍ ، ثم عُلُقَةٍ ، ثم طَوْرًا بعد طَوْرٍ .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ » .

يَسَّرَ عَلَيْهِ السَّبِيلَ فى الخير والشر ، وألهمه كيف التصرف .

ويقال : يَسَّرَ عَلَيْهِ الْخُرُوجَ من بطن أمه يخرج أولاً رأسه منكوساً .

« ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ » .

أى : جعل له قَبْرًا ثَلَاثًا تَفْتَرِسُهُ السَّبَاعُ وَالطَّيُورُ وَثَلَاثًا يَفْتَضِحُ .

« ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » .

بَعَثَهُ مِنْ قَبْرِهِ .

« كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ »

أى : عمى وخالف ما أَمَرَ بِهِ .

ويقال : لم يقض الله له ما أمره به ، ولو قضى عليه وله ما أمره به لكان أعضاء (١) .

قوله جل ذكره : « فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ •
أَنَا صَبَّيْنَا لِلْمَاءِ حَبًّا • ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا • فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا •
وَعَيْنًا وَقَضْبًا • وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا •
وَحَدَائِقَ غُلْبًا • » .

في الإشارة : صَبَّيْنَا ماء الرحمة على القلوب القاسية فَلَانَتْ للتوبة ، وصَبَّيْنَا ماء التعريف على
القلوب فنبتت فيها أزهار التوحيد وأنوار التجريد .
« وَقَضْبًا » أى القَتَّ (٢) .

« وَحَدَائِقَ غُلْبًا » متكافئة غلاظًا .

« وَفَاكِهَةً وَأَبًّا » .

الفاكهة : جميع الفواكه ، و « أَبًّا » : الرعى .

« مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . . . » .

« فَلِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ » أى : القيامة ؛ فيومئذ يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم بين
ما سبب ذلك فقال :

« لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ » .

لا يتفرغ إلى ذاك ، ولا ذاك إلى هذه . كذلك قالوا : الاستقامة أَنْ تشهد الوقتَ

(١) أى : كلاً لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له — وهذا رأى للإمام
ابن فورك شيخ القشيري .

(٢) سُمِّيَ القَتُّ قَضْبًا لأنه يقضب ، أى يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة (الحسن) ويرى ابن عباس أنه الرطب
لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

قيامه ، فما من ولي ولا عارف إلا وهو — اليوم — بقلبه يفترق من أخيه وأمه وأبيه ،
وصاحبه وبنيه .

فالمعارف مع الخلق ولكنهم يفارقهم بقلبه — قالوا :

فلقد جعلتك في الفؤاد محدثي

وأبحث جسي من أراد جلوس^(١)

قوله جل ذكره : « وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ
مُسْتَبْشِرَةٌ » .

وسبب استبشارهم مختلف ؛ فمنهم من استبشاره لوصوله إلى جنته ، ومنهم لوصوله إلى
الحدور العين من حظيته . . ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربه فرآه .

« وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ *
تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ
الْفَجَرَةُ » .

وهي غَبَرَةُ السُّبْقِ . « تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » . وهي ذُلُّ الحجاب .

(١) أحد بيتين ينسبان إلى رابعة العدوية ، والثاني :

فالجسم مني للجليس مؤانيس وحييب قلبي في الفؤاد أنيس
(نشأة التصوف الإسلامي من ١٩١ ط المعارف تأليف بسيوني) .

سُورَةُ التَّكْوِيْرِ

قوله جل ذكره . « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمةٌ أُثْلِجَتْ من قومٍ قلوباً ، وأوهجت من آخرين قلوباً ؛ من الطيبين أُثْلِجَتْ ، ومن العاصين أوهجت ، ومن للربدين أبهجتها ، ومن العارفين أزعجتها .

قوله جل ذكره . « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » .

ذَهَبَ ضَوْؤُهَا .

« وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » .

تَنَاضَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ .

قوله جل ذكره . « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » ^(١) .

أُزِيلَتْ عَنْهَا مَنَابِقُهَا .

« وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ » .

وهي الثَّوْقُ الحَوَامِلُ التي آتَى حَمْلُهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ . . أَمَلَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَشَدَّةِ أَهْوَالِهِ ، (وَاشْتِغَالَ النَّاسُ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْهَا) .

« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ » .

أُحْيِيَّتْ ، وَجُمِعَتْ فِي الْقِيَامَةِ لِيُقْتَصَرَ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ؛ فَيُقْتَصَرَ لِلْجَنَاءِ مِنَ الْقَرَوْنَاءِ ^(٢) — وهذا على جِهَةِ ضَرْبِ الْمَثَلِ ؛ إِذْ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا .

(١) تَأَعَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَدِّ آيَةِ (الْمَشَارِ) فِي مَوْضِعَاتِهَا فِي مَكَانِهَا الْمَسْبُوحِ .

(٢) هَذَا رَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ كَمَا رَوَاهُ عَنْهُ عِكْرَمَةُ ، وَالْجَاهُ : بِمَا لَيْسَ لَهَا قَرْنٌ ، وَفِي أَمثالهم « عِنْدَ الْفَلَاحِ يُغْلَبُ الْكَبِشُ الْأَجَمُ » .

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم — اليوم — على المَوْضِي...
جوازاً لا وجوباً على ما قاله أهل البدع.

« وإذا البعار سُجِّرَتْ » .

أوقدت — مِنْ سَجَرَتِ التَّنُورِ أُسْجُرُهُ سَجْراً ، أى : أَحْيَيْتُهُ .

« وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ » ^(١) .

بالأزواج .

« وإذا الموءودةُ سُوِّتَتْ » • بأى
ذَنْبٍ قُتِلَتْ • وإذا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ » .

نُشِرَتْ ، أى : بُسِطَتْ .

« وإذا السماءُ كُشِطَتْ » .

أى : نُزِعَتْ وُطُوِيَتْ .

« وإذا الجحيمُ سُورَتْ » .

أوقِدَتْ .

« وإذا الجنةُ أُرْلِفَتْ » .

أى : قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَقِينَ .

قوله جل ذكره : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ »

هو جواب لهذه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفى قيام قيامة هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتجلُّ
هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

(١) قرئت بأشكالها فى الجنة والنار ، قال تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » . وقال مثل الله عليه
وسلم : « يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله » .

فمن اختلاف أحوالهم : أن لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما يردُّون^(١) .
ونجومُ علومهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المرئيين في بعض الأحوال ، فعند ذلك
« علت نفس ما أحضرت » .

قوله جل ذكره : « فلا أقسمُ بالخنس * الجوار
الكنس » .

أى : أقسمُ ، والخنس والكنس هي النجوم إذا غربت^(٢) .

ويقال : البقر الوحشي^(٣) .

قوله جل ذكره : « والليل إذا عسعس * والصبح إذا
تننَّس » .

عسعس : أى جاء وأقبل . « تننَّس » : خرج من جوف الليل .

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

« إني لقولُ رسولٍ كريم » .

إن هذا القرآن لقولُ رسولٍ كريم ، يعنى به جبريل عليه السلام .

« ذى قُوَّةٍ عند ذى العرشِ مكين » .

« مكين » من المكانة ، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آل لوطٍ وقلبها .

« وما صاحبكم بمجنون » .

وهذا أيضاً من جواب القسم .

« ولقد رآه بالأفق المبين »

رأى محمد جبريل عليه السلام بالأفق المبين ليلة المراج .

(١) وعندما يردُّون في أحوال القبض بعد البسط والمجر بعد الوصل ، والخوف بعد الرجاء والفرق بعد
الجمع .. ونحو ذلك .

(٢) قيل هي الكواكب الخمسة الدواري : زحل ، والمشتري ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة (في رواية
عن علي ابن أبي طالب) .

(٣) فسرت هكذا في رواية عن عبد الله بن مسعود ، وأخرى عن ابن عباس .

ويقال : رأى ربّه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين .

« وما هو على الغيب بضّنين » .

بمقتهم (١)

قوله جل ذكره : « فأين تذهبون ؟ » .

إلى متى تتطوحن في أودية الظنون والحسبان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاً رجتم إلى مولاكم فيما سرّكم أو أساءكم ؟

« إنّه هو إلّا ذِكْرٌ للعالمين » لِمَنْ

شاء منكم أن يستقيم .

ما هنا القرآن إلّا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم . . . وقد مضى القولُ

في الاستقامة .

« وما تملّون إلّا أن يشاء الله »

ربّ العالمين » .

أَنْ يَشَاءُوا (٢)

(١) لا تكون بهذا المعنى إلّا إذا قرئت (بظنين) بالفتح ، وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو والكشاف .
والآخرين بالضماد فيكون المعنى (بيخيل) أى لا يبخل عليكم بما يعلم من أخبار السماء .

(٢) كنا ننتظر من القشيريّ الذى ينادى بأن كل شيء من الله وإلى الله حتى أكساب العباد أن يفيض في توضيح
هذه الآية أكثر من ذلك ؛ لأنها ناصئة صريحة في نسبة المشيئة - كل المشيئة - لله ، وأن الإنسان إذا وصف بالمشيئة
فهى مرتبطة بالمشيئة الإلهية .

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة منيعة ليس يسمو إلى فئسها كلُّ خاطر ؛ فإذا كان الخاطر غيرَ عاطرٍ فهو عن علمٍ حقيقتهَا مُتَقَاصِرٌ .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انشطرت »

أى : انشقت .

« وإذا الكواكبُ انثرت » .

تساقطت وتهاوت .

« وإذا البحارُ فجرت » .

أى : فُتِحَ بعضها على بعض .

« وإذا القبورُ بُعِثَت »

أى : قُلِبَ ترابُهَا ، وَبُعِثَ الموتى الذين فيها ، وَأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كلُّ نَفْسٍ ما قَدَّمَتْ من خيرها وشرِّها .

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ ما غرَّكَ ربُّكَ

الكریم » .

أى : ما خدعتك وما سؤل لك حتى عميت^(١) بمصاحيه ؟

ويقال : سألته وكأنما فى نفس السؤال لقنه الجواب يقول : غراني كرمك بى ،
ولولا كرمك لما فعلت ؛ لأنك رأيت فسرت ، وقدرت فأمهلت .

ويقال : إن المؤمن^(٢) وثيق بحسن إفضاله فاغتر بطول إيماله فلم يرتكب الزلة
لاستحلاله ، ولكن طول حمله عنه حمله على سوء خصاله ، وكما قلت^(٣) :

يقول مولاي : أما تستحي بما أرى من سوء أفضالك

قلت : يا مولاي رفقاً قد جرأتني^(٤) كثرة أفضالك

قوله جل ذكره : « الذى خلقت فسواك فعدلك * فى أى

صورة ما شاء ركبك » .

أى : ركب أعضاءك على الوجوه الحكمة^(٥) فى أى صورة ما شاء ، من الحسنى والتبجح ،

والطول والقصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة ، و « فى » بمعنى « على » ؛ فيكون

معناه : على أى صفة شاء ركبك ؛ من السعادة أو الشقاوة ، والإيمان أو العصية . .

قوله جل ذكره . « كلاب تكذبون بالدين »

أى : القيامة^(٦) .

« وإن عليكم لحافظين * كراماً

كاتبين * يلمسون ما تعملون » .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر

(١) مكذا فى م وهى فى م (علمت) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يقصد القشيري هنا (المؤمن العاصي) .. الميزة بين المنزلين (بين المؤمن والكاثر) .

(٣) ينبغى ملاحظة ذلك إذا أردنا أن ندرس (القشيري الشاعر) : أنظر هذه الدراسة فى كتابنا عن (الإمام

القشيري) .

(٤) مكذا فى م وهى فى م (أفسدت) وكلامها صحيح .

(٥) مكذا فى النسختين ، وقد كنا نريد أن نظن أنها ربما كانت (الحكمة) ، ولكن ارتباط السياق

بالمشيئة (.. ما شاء ركبك) جعلنا نخرج عن هذا الظن .

(٦) بدليل قوله تعالى فيها بعد (يصلونها يوم الدين) .

حشمتهم من اطلاع الحق ، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لَكَانَ تَوَقُّيُهُمْ عَنِ الْخَالَفَاتِ لِرُؤْيِهِ —
سُبْحَانَهُ ، وَاسْتَحْيَاؤُهُمْ مِنْ اِطْلَاعِهِ — أَتَمَّ مِنْ رُؤْيَةِ الْمَلَائِكَةِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ » .

« الأبرار » : هم المؤمنون ؛ اليومَ في نعمة المصصة ، وغداً هم في السكرامة والنعمة
« الفجار » : اليومَ في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشُّرْكِ الموجِبِ للفرقة ، وغداً
في النارِ على وجه التخليد والتأييد .

ويقال : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » . في رَوْحِ الذِّكْرِ ، وفي الأُنْسِ في أَوَانِ خَلْوَتِهِمْ .
« وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » . في ضيقِ قُلُوبِهِمْ وَتَسَخُّطِهِمْ عَلَى التَّقْدِيرِ ، وفي ظُلُمَاتِ تَدْيِيرِهِمْ ،
وضيقِ اخْتِيَارِهِمْ .

« يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ » .

« يصلونها » أي النار . « يوم الدين » . يوم القيامة .

« وما هم عنها » عن النار . « وما أدراك ما يومُ الدين ؟ » قالها على جهة التهويل .

« يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

الأمر لله يومئذٍ ، والله من قبله ومن بعده ، ولكن « يومئذٍ » تنقطع الدعاوى ، إذ
يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية .

سُورَةُ الْمُطَفِّينَ

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاؤه ، وجلاله جماله ، وجماله جلالة . الوجودُ له غيرُ مُستفتح ، والوجودُ منه غيرُ مُستقبح . المهردُ منه لطفه ، المأمولُ منه لطفه . . . كيفما قسمَ للعبدِ فالعبدُ عبده ؛ إن أقصاه فالحكمُ حكمه ، وإن أدناه فالأمرُ أمره (١) .

قوله جل ذكره : « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ * الَّذِينَ إِذَا

أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ *

وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوا يَخْسِرُونَ » .

« ويل » : الويلُ كلمةٌ تُذكرُ عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك ! و « المُطَفِّ » : الذي يُنقصُ الكيلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين يعاملون الناسَ فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا ، ويتجلى ذلك في : الوزنِ والكيلِ ، وفي إظهارِ العيبِ ، وفي القضاء والأداء والاقضاء ؛ فمن لم يرضَ لأخيه المسلمَ ما لا يرضاه لنفسه

(١) هذا هو نصُّه بسملة كما جاء في م أسأ في من فهي حل النحو التال : -

[بسم الله : اسم جليلٌ جلالة لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراض وأعلال ، وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال . فهو الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال] .

وهذا هو تفسير بسملة سورة الانشقاق كما جاء في م وكما سئري ، ومعنى هذا أن اضطراباً حدث في الأمر . وما دما نعرف أنه البشيري لا يستوحى إشارته من كل بسملة بطريقة عفوية ، ولكن على أساس المنزى المأم للسورة . . . فقد اخترنا أن تكون بسملة « المُطَفِّينَ » هي هذه على أساس أن بسملة الله للعبد قسمة عائله ليس فيها (تطفيف) ، وأن ما أرجده الله من وجود (غير مستقبح) .

فليس بمنصف . وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكل من لهم معهم
معاملة — والصدق عزيز ، وكذلك أحوالهم في الصُّحبة والمعايشة . - فالذي يرى عيبَ الناسِ
ولا يرى عيبَ نفسه فهو من هذه الجملة — جملة المطففين — كما قيل :

وَتُبْصِرُ فِي الْعَيْنِ مِثِّي الْقَلْبُ

وفي عينك الجذع لا تبصر

ومن اقتضى حقَّ نفسه — دون أن يقضى حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه — فهو
من جملة المطففين .

والنبي من يقضى حقوق الناس ولا يقضى من أحده لنفسه حقاً .

قوله جل ذكره : « أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ *

ليومٍ عظيم ؟ * يومَ يقومُ الناسُ
لربِّ العالمين » .

أى : ألا يستيقن هؤلاء أنهم مجاسبون غداً ، وأنهم مطالبون بحقوق الناس ؟

ويقال : من لم يذكُرْ — في حال معاملة الناس — معانيه القليلة ومخاسبتها فهو
في خسران في معاملته .

ويقال : من كان صاحب مراقبة لله رب العالمين استشعر الهيبة في عاجله ، كما يكون حال
الناس في الحشر ؛ لأنَّ اطلاع الحق اليوم كاطلاعه غداً .

قوله جل ذكره . « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لِنِي

سَجِّين * وَمَا أَذْرَاكَ سَجِّين ؟ *
كِتَابٌ مَرْقُومٌ » .

« سجِّين ^(١) » قيل : هي الأرض السابعة ، وهي الأرض السفلى ، يُوضَعُ كتابُ أعمالِ
الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة ، ثم تُحْمَلُ أرواحهم إلى ما هنالك .

(١) في رواية عن أنس أنه قال : قال صل الله عليه وسلم : « سجِّين أسفل الأرض السابعة » .

ويقال : « السَّجِين » جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ . وقيل : صخرة فِي الأرض السفلى ، وفي اللغة السَّجِين : قفيلٌ من السَّجَن .

« وما أدراك ما سَجِين » . استفهامٌ على جهة التهويل

« كتابٌ مرقوم » . أى مكتوب ؛ كَتَبَ اللهُ فِيهِ ما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون . وإنما المكتوبُ على نبي آدم في الخير والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلَّق به حله وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذى علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ من المقربين بالقَدَرِ الذى أرادَه ؛ فإنه يُجْرِى عليهم في دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير .

ثم قال : « وَيَلْزَمُ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ » الذين

يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ * وما يُكَذِّبُ

به إِلَّا كُلُّ مُبْتَدِرٍ أَمِيرٍ »

ويل للذين لا يُصَدِّقُونَ بيوم الدين ، وما يُكَذِّبُ به إِلَّا كلُّ مُجَاوِزٍ لِلْحَدِّ الذى وُضِعَ لَهُ ؛ إذا يُثَلَّى عليه القرآن كَفَرًا به .

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ » كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

يَوْمَئِذٍ لَّخَفِيُونَ »

أى : غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكسبون من المعاصي . . وكما أنهم — اليوم — ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليلُ الخطابِ يوجبُ أن يكون المؤمنون يَرَوْنَهُ غداً كما يعرفونه اليوم .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي

عَلَيْنَ » .

« عَلَيْنَ » أعلى الأمكنة ، تحمل إليه أرواح الأبرار تشریفًا لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرَةُ الْمُتَمِّهِ . ويقال : فوق السماء السابعة . كتاب مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون ^(١) من الملائكة .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » .

اليومَ وغداً : اليومَ في رَوْحِ العَرْفَانِ ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأنسِ القُرْبَةِ وبَسْطِ الوصلة . وغداً — في الجنة وما وَعِدُوا به من فنون الزلفة والقربة .

قوله تعالى : « عَلَى الْأَرَائِمِكُمْ يَنْظُرُونَ » .

أُثْبِتَ النَّظَرَ ولم يُبَيِّنِ المتظَّوِرَ إِلَيْهِ لاختلافهم في أحوالهم ؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُورِهِ . ومنهم من ينظر إلى حُورِهِ ، ومنهم ومنهم . . . ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله — سبحانه — يَنْظُرُونَ .

قوله جل ذكره : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » .

مَنْ تَنَظَّرَ إِلَيْهِمْ عَلِمَ أَنَّ أَثَرَ تَنْظَرِهِ إِلَى مَوْلَاهُ مَا يُلَوِّحُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النَّعِيمِ ؛ فَأَحْوَالُ الْحُبِّ شُهُودٌ عَلَيْهِ أَيْدٍ . فَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ وَصَالٍ فَاحْتِيَالُهُ وَدَلَالُهُ ، وَسُرُورُهُ وَحُبُورُهُ ، وَنَشَاطُهُ وَاتِّسَاطُهُ . وَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ غَيْبٍ وَفِرَاقٍ فَالشُّهُودُ عَلَيْهِ مَحْوُهُ وَذُبُورُهُ ، وَحَيْنُهُ وَأَيْنُهُ ، وَدُمُوعُهُ وَهَجُوعُهُ . . . وَفِي مَعْنَاهُ قُلْتُ ^(٢) .

يَا مَنْ تَخَيَّرُ صُورَتِي لَمَّا بَدَأَ — لِجَمِيعِ مَا ظَنُّوا بِنَا — تَحْقِيقُ

(١) هكذا في م وفي م (يشهد) بدون فسير غائب ، وحسب النسخة الأولى تكون عودة الفسير على الكتاب المرقوم ، وحسب النسخة الثانية يكون الكلام مستمراً خصوصاً ولم يبدأ كالمادة بعلامة فشير بيده الآية مثل : قوله تعالى أَرَأَيْتُمْ أَفْعَالَهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ يَسْعَوْنَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَحْتَفِلُونَ . . . أَيْ : يشهد المقربون أن الأبرار لفي نعيم . ويتقوى الرأي الأول بما قاله القشيري منذ قليل : إن الله يُطْلِعُ بعضَ المقربين على أسرار خلقه بالقدر الذي يريد سبحانه ، كذلك فإن السياق — على الفهم الثاني — يقتضي فتح همزة (إن الأبرار . . .) ولكنها مكسورة بما يدل على أن الكلام مستأنف — اللهم إلا إذا كانت يشهد بمعنى يقسم — فالشهادة ترد بمعنى القسم — كما مر من قبل . . . وهمزة إن تكسر بعد القسم .

(٢) نُسب كثير جداً بهذا الشعر الذي صاغه القشيري ، فهو شاعر مُقِيلٌ ، ولكنه — كما هو واضح — رقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يَأْمَنُ تَخَيَّرُ صُورَتِي — لَمَّا بَدَأَ — تَحْقِيقُ جَمِيعِ مَا ظَنُّوا بِنَا ؛ أَيْ : أن ما ظهر على أسرتي من أشياء حاولت كتابتها قد حقق ظنون الوائسين والمأذنين . . . فلا فائدة . . . فالصب تفحصه عيونهم ! ونحسب أن ما قبل النص ، وما يقصده النص الثاني يدلان قدوقنا على هذا النحو .

وقلت :

ولما أتى الواشين أتى زُرُّها جَحَدْتُ حِذَاراً أَنْ تَشِيْعَ السَّرَائِرُ
فَقَالُوا : نَرَى فِي وَجْهِكَ الْيَوْمَ نَضْرَةً كَسَتْ مُحْيَاكَ (١) وهَذَاكَ ظَاهِرُ !
وَبُرْدُكَ لَا ذَاكَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ بِهِ طِيبٌ نَشْرٍ لَمْ تُشِعْهُ الْجَايِرُ
فَلَا كَانَ مِنِّي مِنْ يَانٍ أَقِيمَهُ وَهِيَاتُ أَنْ يَخْنَى مُرِيبٌ مَسَايِرُ !

قوله جل ذكره : « يُسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مُخْتَوِمٍ * خِتَامُهُ

مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » .

« مختوم » أى رحيق لا غش فيه .

ويقال : عتيق طيب .

ويقال : إنهم يشربون شراباً آخره مسك .

ويقال : بل هو مختوم قبل حضورهم .

ويقال : « ختامه مسك » . ممنوع من كل أحد ، مُعَدَّةٌ مُدَّخَرَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ بِاسْمِهِ .

« وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ » . وتنافسهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والسباق إلى القرب ، وتعليق القلب بالله ، والانسلاخ عن الأخلاق الدنيئة ، وجولان الهمم في الملكوت (٢) ، واستدامة النجاة .

قوله جل ذكره : « وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

الْمُقَرَّبُونَ » .

« تسنيم » أى : عين تَسْمُ عليهم من علو .

وقيل : ميزاب ينصب عليهم من فوقهم .

ويقال : تُسَمَّى تَسْنِيماً ؛ لِأَنَّ مَاءَهُ يَجْرِي فِي الْهَوَاءِ مُقَسِّمًا فَيَنْصَبُ فِي أَوَانِي أَهْلِ الْجَنَّةِ ؛

(١) كذا بالأصل ولعلها (بدت في محياك) أى يستقيم للوزن .

(٢) هكذا في م وهو أصح مما في م (المكتوب) فهو مشتبه على الناسخ .

فَنَهِم مَّنْ يُسْقَى مَزْجًا ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يُسْقَى صِرْفًا .. الْأُولَاءِ يُسْقَوْنَ مَزْجًا ، وَالْخَوَاصُّ يُسْقَوْنَ صِرْفًا^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » .

كَانُوا يَضْحَكُونَ اسْتِهْزَاءً بِهِمْ .. قَالِيَوْمَ .. الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ !
« قَالِيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟ »
« هَلْ ... » اسْتِفْهَامٌ يَرَادُ مِنْهُ التَّعْرِيرُ .

وَيَقَالُ : إِذَا رَأَوْا أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ يُعْذِّبُونَ لَأَنَّا خَذَمْنَا بِهِمْ رَأْفَةً ، وَلَا تَرِيقٌ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ ، بَلْ يَضْحَكُونَ وَيَسْتِهْزِئُونَ وَيُعَيِّرُونَ .

(١) نَهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْخَوَاصَّ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْأُولِيَاءِ .

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »^(١)

« بسم الله » : اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتناء أمثال ، وأفعاله لا بأغراضٍ وأعمال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فنا ولا زوال .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انشقت » .

« انشقت » : انصدعت .

« وأُذِنتُ لربِّيَّ وَحُتُّ » .

أى قابِلْتُ أمرَ ربِّيَّ بالسمع والطاعة .. وحقَّ لها أن تفعل ذلك .

« وإذا الأرضُ مُدَّتْ » .

بُسِطَتْ باندكالكِ آكامها وجبالها حتى صارت ملساء ، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلَّت عنها .. وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء في قوله : « فَلَاقِيهِ » أى يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله .^(٢)

قوله جل ذكره : « بَأْيِهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى

رَبِّكَ كَدْحًا فُلاقيهِ » .

(١) نعيده إلى الذاكرة ما قلناه من قبل من حدوث افتراق بين النسختين بين تفسير بسملى « المطففين » و « الانشقاق » .

(٢) يرى الكسائي - ويوافقه أبو جعفر النحاس وغيره - أن جواب القسم هو : « فأنا من أوقى كتابه يمينه » أى : إذا انشقت السماء فمن أوقى كتابه يمينه فحكمه كذا ..

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ » : يَا أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ .. إِنَّكَ سَاعٍ بِمَا لَكَ سَعْيًا سَتَلْقَى جَزَاءَهُ ؛ بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَبِالشَّرِّ شَرًّا .

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » .

وهو الْمُؤْمِنُ الْمُحْسِنُ .

« فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سِيرًا » .

أى حِسَابًا لَا مَشَقَّةَ فِيهِ . وَيُقَالُ : « حِسَابًا سِيرًا » أى يُسَمِّعُهُ كَلَامَهُ — سَبَّحَانَهُ — بِلَا وَاسْطَةٍ ، فَيُخَفِّفُ سَمَاعُ خُطَابِهِ مَا فِي الْحِسَابِ مِنْ عَنَاءٍ .

ويقال : « حِسَابًا سِيرًا » : لَا يُذَكَّرُهُ ذُنُوبَهُ . وَيُقَالُ : يَقُولُ : أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا ؟ وَأَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا ؟ يَعُدُّ عَلَيْهِ إِحْسَانَهُ .. وَلَا يَقُولُ : أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا ؟ لَا يُذَكَّرُهُ عَصْيَانَهُ .

« وَيَنْتَقِلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا » .

أى بِالنَّجَاةِ وَالدرجات ، وَمَا وَجَدَ مِنَ الْمُنَاجَاةِ ، وَقَبُولِ الطَّاعَاتِ ، وَغَفْرَانِ الزَّلَّاتِ .

ويقال : بَأَن يُشَفِّعَهُ فِيمَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ قَلْبُهُ . وَيُقَالُ : بِأَلَا يَنْضَحُهُ .

ويقال : بَأَن يَلْقَى رَبَّهُ وَيُكَلِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فَيَلْقَى حَظِيَّتَهُ مِنَ الْخَوَرِ الْعَيْنِ .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » .

وهو الْكَافِرُ .

« فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا » ..

أى وَبَنَاءً .

« وَيَصْنَلَى سَعِيرًا » .

جَهَنَّمَ .

« إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا »

من البَطَرِ^(١) والدح .

« إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ » .

أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْنَا ، وَلَنْ يُبْعَثَ .

قوله جل ذكره : « فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّقِّ » .

بِالْحُمْرَةِ الَّتِي تَعْقِبُ غُرُوبَ الشَّمْسِ .

« وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » .

وَمَا يَجْعَ وَضَمٌّ .

« وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » .

تَمَّ وَاسْتَوَى وَاجْتَمَعَ .

ويقال : الشَّقُّ حِينَ غَرَبَتْ شَمْسٌ وَصَالِمٌ ، وَأُذِيقُوا الْفِرَاقَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِمْ ، وَذَلِكَ زَمَانُ قَبْضٍ بَعْدَ بَسَطٍ ، وَأَوَانُ فَرَقٍ عَقِيبَ جَمْعٍ^(٢) . « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » : لَيْلَى غَيْبَتِهِمْ وَهُمْ يَوْصَفُ الْاِسْتِيقَ ؛ أَوْ لَيْلَى وَصَالِمٍ وَهُمْ فِي رُوحِ التَّلَاقِ ، أَوْ لَيْلَى طَلَبِهِمْ وَهُمْ بِنَعْتِ الْقَلَقِ وَالْاِحْتِرَاقِ .

« وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » : إِذَا ظَهَرَ سُلْطَانُ الْعِرْفَانِ عَلَى الْقُلُوبِ فَلَا يَخْشَى وَلَا تُقْصَانُ .

قوله جل ذكره : « كَثُرَ كَيْنٌ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » .

أَيُّ حَالًا بَعْدَ حَالٍ . وَقِيلَ : مِنْ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ . وَيُقَالُ : شِدَّةٌ بَعْدَ شِدَّةٍ .

ويقال : تَارَاتُ الْإِنْسَانِ طِفْلًا ثُمَّ شَابًا ثُمَّ كِهْلًا ثُمَّ شَيْخًا .

ويقال : طَالِبًا ثُمَّ وَاصِلًا ثُمَّ مُتَّصِلًا .

ويقال : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، مِنْ الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَالصَّحَّةِ وَالسُّمِّ .

ويقال : حَالًا بَعْدَ حَالٍ فِي الْآخِرَةِ .

(١) هكذا في ص وهي في م (النظر) والسياق يقتضى (البطر) فهو من أشد آفات الطريق خطراً - كما نعرف

من مذهب القشيري .

(٢) في م (وأوان فراق بعد جمع) والاصطلاحان الصوفيان الملائمان هما (الفرق والجمع) .

قوله جل ذكره : « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ » .

أى فا لكفارِ أَمَّتِكَ لَا يُصَدِّقُونَ . . وقد ظهرت البراهين ؟

« وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ

لَا يَسْجُدُونَ * بل الذين كفروا

يُكَذِّبُونَ * واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » .

« يوعون » أى تنطوى عليه قلوبهم — من أَوْعَيْتُ الْمَتَاعَ فى الظَّرْفِ أى جعلته فيه .

« فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ

غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع .

سُورَةُ الْبُرُوجِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ مَنْ لَا عَقْلَ يَكْتَنِبُهُ ^(١) ، اسمٌ مَنْ لَا مِثْلَ يُشَبِّهُهُ ، اسمٌ مَنْ لَا قَمَرٌ ^(٢) يرتقى إليه بالتصوير ، اسمٌ مَنْ لَا عِلْمَ يَنْتَهِي إِلَيْهِ بِالتَّقْدِيرِ ^(٣) ، اسمٌ مَنْ لَمْ يَرَهُ بَصَرٌ إِلَّا وَاحِدٌ — وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فِيهِ ^(٤) ، اسمٌ مَنْ لَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِغَيْرِ مَا إِذْنٍ فِيهِ ، اسمٌ مَنْ لَا قَطَرَ يَحْوِيهِ ، وَلَا سِرٌّ يُخْفِيهِ ، وَلَا أَحَدٌ يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ يَرْضِيهِ .

قوله جل ذكره : « والسماء ذات البروج » .

أراد البروج الأثني عشر ^(٥) .

« واليوم الموعود » .

يوم القيامة .

وجوابُ الْقَسَمِ قوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

قوله جل ذكره : « وشاهدٍ ومشهودٍ » .

يقال : الشاهدُ اللهُ ، والمشهودُ الخَلْقُ .

(١) أى يدرك كنهه .

(٢) هكذا في النسختين ، ومع ذلك فإننا نرجح أنها ربما كانت في الأصل (من لا وهم ...) فمن أقوال ذى النون : (كلما تصور في وهمك فانه بخلاف ذلك) الرسالة ص ٤ .

(٣) نعرف في الاصطلاح أن (التقدير) لله و(التدبير) للإنسان ، ولكن (التقدير) مستعمل هنا خاصاً بالإنسان ؛ أى أن أحداً لا يستطيع أن (يقدر) الله حق قدره .

(٤) يشير بذلك إلى اختلاف الآراء حول رؤية النبي (ص) ربه ليلة المعراج رؤية بصرية (الرسالة ص ١٧٥) .

(٥) وهى التى تسمى الشمس فى كل منها شهراً ، وهى : الحمل والثور والجوزاء والمريطان والأمد والسنبلة والميزان والمقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والمشهودُ اللهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والمشهودُ القيامةُ ، قال تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ^(١) ، وقال في القيامة : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهود » ^(٢) .
وقيل : الشاهد يومُ الجمعة ^(٣) ، والمشهود يومُ عرفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه ، وأعضاؤه تشهد عليه ؛ فهو شاهد وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامةُ ، والمشهودُ الناسُ .

ويقال : المشهودُ هم الأمةُ لأنه صلى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمةُ ، والمشهودُ سائر الأمم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسودُ لأنَّ فيه كتابَ العهد .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخَلْقِ ؛ يشهدون الله بالوحدانية ، والمشهود اللهُ .

ويقال : الشاهدُ اللهُ ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قوله جل ذكره : « قَتِلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ

الْوَقُودِ » .

أَيُ لُعِنُوا . وَالْأَخْدُودُ : الْحُفْرَةُ فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَطِيلَةً ، وَقَصَّتْهُمْ فِي التَّفْسِيرِ مَعْلُومَةٌ ^(٤) .
وه « الوقود » الخطب .

وهم أقوامٌ كتموا إيمانهم فلما عَلِمَ مَلِكُهُمْ بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمةً ، وألقاهم فيها .

(١) آية ٤١ سورة النساء .

(٢) آية ١٠٣ سورة هود .

(٣) خرج ابن ماجة وغيره رواية عن أبي الدرداء قوله : قال رسول الله (ص) : « أكثرُوا من الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهد الملائكة » .

(٤) قيل هم من السجستان ، وقيل من نجران ، وقيل من القسطنطينية ، وقيل : هم من المجوس . وقيل من اليهود ، وقيل من النصارى .

وَأَخْرَجُ مَنْ دَخَلَهَا امْرَأَةً كَانَ مَعَهَا رَضِيعٌ ، وَهَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ ، فَقَالَ لَهَا الْوَلَدُ : قِنِي وَاصْبِرِي ..
فَأَنْتَ عَلَى الْحَقِّ .

وَأَلْقَوْهَا فِي النَّارِ ، وَاتَّحَمَّتْهَا ، وَبَيْنَمَا كَانَ أَصْحَابُ الْمَلِكِ قَعُوداً حَوْلَهُ يَشْهَدُونَ مَا يَحْدُثُ
ارْتَفَعَتِ النَّارُ مِنَ الْأَخْدُودِ وَأَحْرَقَتْهُمْ جَمِيعاً ، وَنَجَّاهُ مِنَ النَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَلَّمُوا .

قوله جل ذكره : « وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

مَا غَضِبُوا مِنْهُمْ إِلَّا لِإِيمَانِهِمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ » .

أَيَّ أَحْرَقُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا عَنْ كُفْرِهِمْ « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ » : نَوْعٌ
مِنَ الْعَذَابِ ، « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » : نَوْعٌ آخَرُ (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ
يَجْنُتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » .

« ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » : النِّجَاةُ الْعَظِيمَةُ .

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

الْبَطْشُ الْأَخْذُ بِالشَّدَةِ .

« إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ » .

يُبْدِيُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ بَعْدَ الْبَعْثِ .

(١) قَدْ يَكُونُ الْعَذَابُ الْأَوَّلُ بِالنَّهْرِ فِي جَهَنَّمَ ، وَالثَّانِي بِنَارِ الْحَرِيقِ ؛ فَكَأَنَّهُمْ يَعْذَّبُونَ بِبَرْدِهَا وَحَرِّهَا
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ويقال : يبدى بالعذاب ثم يعيد ، وبالثواب ثم يعيد .

ويقال : يبدى على حُكْمِ المداوة والشقاوة ثم يعيد عليه ، ويبدى على الضعف ويعيدهم إلى الضعف .

ويقال : يبدى الأحوال السَّنيَّة فإذا وقعت حجة يعيد ثانية .

ويقال : يبدى بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا نَقَضَ توبته فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله .

ويقال : يبدى لطائفَ تمرّيفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً ، فلا يزال يبدى ويعيد إلى آخر العمر .

قوله جل ذكره : « وهو الغفور الوَدود » .

« الغفور » كثيرٌ للغفرة ، « الودود » مبالغة من الودّ ، ويكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر لهم كثيراً لأنه يودّهم ، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودّونه .

قوله جل ذكره : « ذو العرش المجد »

ذو الملكِ الرفيع ، والمجد الشريف .

« فَعَالٌ لَمَّا يُرِيد » .

لأنه مالكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجْرَ عليه ولا حَظَرَ .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ الجنود » .

الجموع من الكفار .

« فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ »

وقد تقدم ذكر شأنهما .

« بل الذين كفروا في تكذيب »

« الذين كفروا » يعني مُشْرِكِي مكة ؛ « في تكذيب » للبعث والنشر .

« واللهُ مِن ورأهم محيط »

« بل هو قرآنٌ مجيدٌ * في لوح

محفوظ » .

« في لوح محفوظ » مكتوب فيه . وجاء في التفسير : أن اللوح المحفوظ خالق من دُرَّةٍ بيضاء ، دِفَّتَاهُ من باقوتة حمراء عَرَضُهَا بين السماء والأرض ، وأَعْلَاهُ متعلقٌ بالعرش ، وأسفله في حِجْرِ مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهو في اللوح مكتوبٌ ، وفي القلوب محفوظٌ .

سُورَةُ الطَّارِقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وفقَّه لعرفانه ، ثم زينته بإحسانه ، ثم استخلصه بامتنانه ؛ فعصمه من عصيانه ، وقام بحسن التولي — في جميع أحواله — بشانه ، ثم قبضه على إيمانه ، ثم برَّاه في جنانه ، وأكرمه برضوانه ، ثم أكمل عليه نِعْمته برويته وعيانه .

قوله جل ذكره : « والسماء والطارق »

أقسم بالسماء ، وبالنجم الذي يطرق ليلاً .

« وما أدراك ما الطارق ؟ »

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم .

« النجم الثاقب »

المضيء العالي . وقيل : الذي ترمى به الشياطين .

ويقال : هي (١) نجوم المصرة التي تدل على التوحيد يستضيئ بنورها ويهتدى بها أولو البصائر .

« إن كلُّ نفسٍ لَمَّا عليها حافظ »

ما من نفسٍ إلا عليها حافظٌ من الملائكة ، يحفظ عليه عمله ورزقه وأجله ، ويحمله على دوام التيقظ وجميل التحفظ .

قوله جل ذكره : « فليُنظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ

(١) هكذا في م وهي في ص (هو نجم المعرفة ... إلخ) .

من ماء دافقٍ * يخرجُ من بين
الصُّلبِ والتَّرائبِ «

يخرج من صُلْبِ الأب ، وتريفة الأم .
وهو بذلك يَحْتَكُ على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته —
سبحانه .

« إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ »
إنه على بَعْثِهِ ، وَخَلْقِهِ مرةً أخرى لقادرٌ ؛ لأنه قادر على الكمال — والقدرةُ على
الشيء تقتضى القدرة على مثله ، والإعادة فى معنى الابتداء .

« يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ »

يوم تُمْتَحَنُ الضَّمائر .

« فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »

أى ما لهذا الإنسان — يومئذٍ — من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ »

أى المطر .

« وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ »

« الصَّدع » : الانشقاقُ بالنبات للزَّرع والشجر .

« إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ »

أى : إن القرآن لقولٌ جَزَمٌ .

« وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ »

الهزل ضد الجِدَّة ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِبٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا »

أى يحتالون حيلةً .

« وأَكِيدُ كَيْدًا »

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعْلًا وَنُبْرِمُ خَلْقًا ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

« فَهَلَّ الْكَافِرِينَ أَمْرُهُمْ رُويداً »

أى أنظرهم ، وأمرهم قليلاً ، وأزودهم رويداً .

سُورَةُ الْأَعْلَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ مَنْ بَقَّصَدَهُ وَجَدَهُ ، وَمَنْ اسْتَسَعَفَهُ حَمَدَهُ . مَنْ طَلَبَهُ عَرَفَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهُ لَاطَفَهُ ، فَإِذَا وَجَدَ لُطْفَهُ أَلْفَهُ ، وَإِذَا أَلْفَهُ أَنْفٌ أَنْ يُخَالِفَهُ .

قوله جل ذكره : « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »

أى سَبِّحْ رَبَّكَ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ ، وَاسْبِحْ بِسِرِّكَ فِي بَحَارِ عِلَالِهِ ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْ جَوَاهِرِ عُلُوِّهِ وَسَنَائِهِ مَا تَرْضَعُ بِهِ عِقْدَ مَدْحِهِ وَثَنَائِهِ .

« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى »

خَلَقَ كُلَّ ذِي رَوْحٍ فَسَوَّى أَجْزَاءَهُ ، وَرَكَّبَ أَعْضَاءَهُ عَلَى مَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ النِّظْمِ الْعَجِيبِ وَالتَّرَكِيبِ الْبَدِيعِ .

« وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى »

أى قَدَّرَ مَا خَلَقَهُ ، فَجَعَلَهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا أَرَادَهُ ، وَهَدَى كُلَّ حَيَوَانٍ إِلَى مَا فِيهِ رَشْدُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ ، فَيَأْخُذُ مَا يُصْلِحُهُ وَيَتْرَكُ مَا يَضُرُّهُ — بِحُكْمِ الْإِلَهَامِ .

ويقال : هَدَى قُلُوبَ الْغَافِلِينَ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا فَمَرَّوْهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِلَى طَلَبِ الْعَقْبَى فَأَثَرَوْهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ إِلَى فَنَاءِ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الْمَلَمَاءِ إِلَى النِّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِمَصْنُوعَاتِهِ فَعَرَفُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلاَزَمُوهَا .

(وَهَدَى قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ إِلَى عِزِّ وَصْفِهِ فَأَثَرُوهُ ، وَاسْتَغْرَغُوا جُهْدَهُمْ فَطَلَبُوهُ)^(١) ، وَهَدَى

(١) مَا بَيْنَ التَّوَسُّلِ مَوْجُودٌ فِي ص وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي م

العارفين إلى قُدُس نَفْتِه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى للوحديين إلى علاء سلطانه في توحد
كبريائه فتركوا ما سواه وهجروه ، وخرجوا عن كل مألوف لم ومعهود^(١) حتى قصدوه .
فلما ارتقوا عن حد البرهان ثم عن حد البيان ثم عما كالميان علموا أنه عزيز ، وأنه وراء كل
فصل ووصل ، فرجعوا إلى موطن العجز فتوسدوه .

« والذي أخرج المرعى »

أى النبات .

« جعله غشاءً أحوى »

جعله شيئاً كالغشاء ، وهو الذى يذقه السيل . و « أحوى » أسود .

« سُنْثُرْتُكَ فَلَا تَنْسَى »^(٢) .

سنجمع القرآن في قلبك — يا محمد — حفظاً حتى لا تنسى لأننا نحفظه عليك .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ

وَمَا يَخْفَى » .

بما لا يدخل تحت التكليف فنسأله قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه .

وهو — سبحانه — يعلم السر والعلن .

قوله جل ذكره : « قَدْ كُفِّرُ إِن نَفَعَتِ الذُّكْرَى »

والذُّكْرَى تنفع لا محالة^(٣) ، ولكن لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِلانعاضِ بها ، أمّا مَنْ كَانَ المعلومُ

من حاله الكفر والإعراض فهو كما قيل :

(١) هكذا في م وهي في ص (معبود) وقد رجحنا (معهود) لتلاؤمها مع (مألوف) . ولكن إذا تذكرنا أن الصوفية يرون الانسياق وراء الهوى نوعاً من الشرك الخفى — قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » — فيمكن في ضوء ذلك قبول (معبود) أيضاً .

(٢) يرى الجنييد أن المعنى «فلا تنسى العمل به» ، وهذا من الآراء الحسنة التى يتمشى معها رأى القشيري في «إلا ما شاء الله» .

(٣) ولهذا تفسر (إن) في الآية على معنى (ما) : أى فذكر ما نفعت للذكرى ، ولا يكون لها حينئذ معنى الشرط ، وتفسر على معنى (إذ) مثل : « وأنتم الأهلون إن كنتم مؤمنين » ، وعلى معنى (قد) .

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمُقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم
« سَيِّدُكُمْ مَنْ يَخْشَى »

الذى يخشى الله ويخشى عقوبته .

« وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصَلَّى
النَّارَ الْكَبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَا » .

أى يتجنب الذكر الأشقى الذى يصلّى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه ،
ولا يحيا حياة تُلذُّ له .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » .
مَنْ تَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعُيُوبِ ، ومشاهدة الخلق وأدّى الزكاة — وَجَدَ النِّجَاةَ ،
وَالظَّفَرَ بِالْبُغْيَةِ ، وَالْفَوْزَ بِالطُّلْبَةِ .

« وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »
ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فِي صَلَاتِهِ . ويقال : ذَكَرَهُ بِالوَحْدَانِيَةِ وَصَلَّى لَهُ .
« بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »

تميلون إليها ؛ فتُثَقِّلُكُمْ حُظُوظُكُمْ مِنْهَا عَلَى حَقِّقِ اللَّهِ تَعَالَى .
[« وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى »]
وَالْآخِرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى — مِنَ الدُّنْيَا — لَطَلَّابَهَا .^(١)

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى *
صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى »
إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة ، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما ؛ لأنَّ
التوحيد ، والوعد والوعيد . . لا تختلف باختلاف الشرائع .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

سُورَةُ الْفَاشِيَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : كلمة من سمها وفي قلبه عرفاته تلالأت أنوار قلبه ، وتفرقت أنواع كربه ، وتضاعفت في جماله طوارق حبه ، وتحيرت في جلاله شوارق لبه .

كلمة مَنْ عَرَفَهَا — وفي قلبه إيمانه — أَحَبَّهَا من داخل الفؤاد ، وهَجَرَ — في طلبها — الرقاد ، وَتَرَكَ — لأجلها — كلَّ مُمْرَدٍ .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ الفاشية ؟ » .

« الفاشية » المُجَلَّلَةُ ، يريد بها القيامة تَفْشَى الخلق ، تَفْشَى وجوه الكفار .

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ

نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » .

وجوه — إذا جاءت القيامة — خاشعة أى ذليلة . عاملة ناصبة : النَّصَبُ التعب .

جاء في التفسير : أنهم يُجَرَّدُونَ على وجوههم .

« تصلى نارا حامية » تلزم نارا شديدة الحر .

ويقال : « عاملة » في الدنيا بالمعاصي ، « ناصبة » في الآخرة بالعذاب .

ويقال : « ناصبة » في الدنيا « عاملة » لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان^(١) ،

وفي معناه عملُ أهل النفاق .

(١) روى الضحاك عن ابن عباس قوله : « هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل ، وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله - جل ثناؤه - منهم إلا ما كان خالصاً » .

« تَسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ » .

تَنَاهَى حَرُّهَا .

« لَيْسَ لَمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَرِيبٍ •

لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ » .

نَبَتْ يَنْمُو بِالْحِجَازِ لَهُ شَوْكٌ ، وَهُوَ سُمٌّ لَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ ، فَإِذَا أَكَلُوا ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
يُنْصَوْنَ ، فَيُسْقَوْنَ الزَّقُومَ .

وإن اتصاف الأبدان - اليوم - بصورة الطاعات مع فقد الأريج وجدان المكاشفات
(وقد) ^(١) الأسرار أنوار الشاهدات ، (وقد) القلب بـ « خلاص » والصدق في الاعتقادات
لا يجدي خيراً ، ولا ينفع شيئاً - وإنما هي كما قال: « عاملة ناصبة »

قوله جل ذكره: « وجوه يومئذ ناعمة » .

أى: مُتَنَعِّمة ، ذات نعمة ونضارة .

« لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ » .

حين وَجَدَتْ الثَّوَابَ عَلَى سَعْيِهَا ، وَالْقَبُولَ لَهَا .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » .

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبدانهم في درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله
في عزيز مناجاتهم .

« لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ » .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلمة لغو .

قَوْمٌ يَسْمَعُونَ بِاللَّهِ ، وَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ اللَّهَ ، وَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ مِنْ اللَّهِ ، وفي الخبر: « كنت
إله سميعاً وبصيراً فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ » ^(٢) .

(١) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كي يكون السياق أكثر وضوحاً

(٢) « ما يزال عبيد يتقرب إلَّ بالتواقل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت عني ألقى يعبر بها ، وسمعه تلى
يسمع به ، ويده التي يبطش بها » أوردته السراج في ليله ص ٨٨ . وهو حديث قنسي رواه البخاري عن أبي هريرة
وأحمد عن عائشة ، والطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وابن أبي عمير عن يمين .

« فيها عينٌ جاريةٌ » .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .
ويقال : تلك العيون الجارية غداً لمن له — اليوم — عيونٌ جاريةٌ بالبكاء^(١) ، وغداً لم
عيونٍ ناظرةٍ بحكم اللقاء .

« فيها سرُّ مرفوعةٌ * وأكوابٌ
موضوعةٌ * ونمارقٌ مصفوفةٌ * وزرايٌ
مبثوثةٌ » .

النمارق المصفوفة في التفسير : الطنافس المبسوطة .

الزراي المبثوثة في التفسير : البسط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فهمهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « أفلا ينظرون - إلى الإبل كيف
خلقت ؟ » .

لما ذكر وصف تلك السرُّ المرفوعة المشيدة قالوا : كيف يصعدونها المؤمن ؟ فقال :
أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا الحملَ عليها أو ركوبها تنزل ؟
فكذلك تلك السرُّ تتطامن حتى يركبها الوليُّ .

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه ، والاستدلال بالخلوقات على كمال قدرته —
سبحانه .

فالقوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئاً إلا السماء والأرض والجبال والجمال . . .
فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء .

(١) منذ عهد مبكر ظهرت طائفة البكتّان في صفوف الزهاد ، وإن كان بعض الصوفية لا يتحسّن للبكاء
إمّا لأن الدموع علامة شكوى ، وهم لا يحبون أن يشكوا ، وإمّا لأنها تم عن ضعف الحال ، وهم يطمنون أن يكونوا
راسخين كالجبال .

(٢) يتبع هنا فكرة التثبيتي الأساسية عن وصف الآخرة : الأسماء أسماء ، والأعيان بخلاف ذلك .

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإتمامه جل شأنه ؛ منها : ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحمل والركوب ، ثم بنسليها ، ثم بلحمها ولبنها ووبرها . . . ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى يستطيع الصبي أن يأخذ بزمامها ، فتتجر وراءه . والإبل تصير على مقاساة العطش في الأسفار الطويلة ، وهي تقوى على أن تحمل فوق ظهورها الكثير من الحمولات .. ثم حرانها إذا حقدت ، واسترواحها إلى صوت من يحملوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يعمل للره بما يناف بها من برها (١) .

« فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ » (٢) .

لست عليهم بمُصَلِّطٍ ، فَذَكَّرْ — يا محمد — بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك (٣) .

« إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ » .

إلا من تولى عن الإيمان وكفر فيعذبه الله بالخلود في النار .

« إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

إن إلينا رجوعهم ، ثم نحاسبهم على الخير والشر .

(١) إشارة القشيري الخاصة بالإبل استوفت المراد ، فمن المعلوم أن ضرور الحيوان المختلفة لا تخرج عن أربعة : حنوية ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة . وقد استطاع القشيري أن يقتنع أن الإبل جمعت كل هذه المنافع .
(٢) بمصيطر ومسيطر ، أي بالصاد والسين (المصالح) .
(٣) لم يقع القشيري فيها وقع فيه بعض المفسرين حين قالوا : « إن في الآية تسخيراً بآيات القتال والجهاد » . فالعذاب الأكبر في الآخرة لا ينفي تعذيب الكفار بشئ ألوان التعذيب في الدنيا ، ومنها القتل والأسر .

سُورَةُ الْفَجْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله كلمة ما استولت على قلب فقير فألقته ، وما تمكنت من مير متم فشنته ،
وما استولت على روح عب فرحته (١) . كلمة قهارة للقلوب .. ولكن لكل قلب ،
كلمة لا سبيل لها لكل عقل ، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها ، ولكنها لا ترضى
من المحبين إلا ببذل أرواحهم فيها .

قوله جل ذكره : « والفجر * وليالٍ عشر » .

الفجر انفجار الصبح وهو اثنان : مستطيل وقصير (٢) ؛ ففي التفسير : إنه فجر الحرم
لأنه ابتداء السنة كلها ، وقيل : فجر ذى الحجة .

ويقال : هو الصغور ينفجر منها الماء .

ويقال : أقسم به لأنه وقت عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار .

« وليالٍ عشر » قيل : هي عشر ذى الحجة ، ويقال : عشر الحرم ؛ لأن آخرها عاشوراء .
ويقال : العشر الأخيرة من رمضان .

ويقال : هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ثم به ميعاده بقوله :
وَأَتِمْنَا بِمَا بَشَرْنَا .

(١) هكذا في النسختين ، ولا نستبعد أنها في الأصل : (فأراحت) ذلك لأن رحمة الله عامة ، الخاصة والكافة ،
أما محبة - التي هي رحمة خاصة بالخواص - فهي المقصودة هنا (الرسالة ص ١٥٨) وهذه المحبة إذا استولت على
روح عب أزعجته وما (أراحت) لأنها تتطلب بذل الروح ، واسترخاها المهجة .
(٢) في النسختين (مستطيل ومستطير) ولم نفهم المقصود ، فوضعت (قصير) محل مستطير كي يكون هناك
بين فجر لمام كامل . وفجر ليوم واحد - والله سبحانه وتعالى أعلم .

ويقال : هو « فجر » قلوب العارفين إذا ارتقوا عن حد العلم ، وأسفر صُبحُ معارفهم ، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان^(١) بما تجلّى في قلوبهم من البيان .

« الشَّعْغُ والوَتْرُ » .

جاء في التفسير : الشَّعْغُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفَةَ^(٢) .

ويقال : آدم كان وتراً فشَفِعَ بزوجه حواء .

وفي خبر : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبح .

ويقال : الشَّعْغُ الزوج من العدد ، والوتر الفرد من العدد .

ويقال : الشَّعْغُ تضادُّ أوصاف الخلق : كالمعلم والجهل ، والقدرة والمجز ، والحياة والموت . والوتر أفراد صفات الله سبحانه عما يضادها ؛ علم بلا جهل ، وقدرة بلا عجز ، وحياة بلا موت .

ويقال : الشَّعْغُ الإرادة والنية ، والوتر الهمة ؛ لا نكتفي بالخلق ولا سبيل لها إلى الله — لنَقْدُسِهِ عن الوَصْلِ والفَصْلِ . فبقيت الهمة غريبة .

ويقال : الشَّعْغُ الزاهد والمابد ، لأن لكل منهما شكلاً وقرباً ، والوتر المريد فهو كما قيل :

فريدٌ من الخِلَافِ في كل بلدةٍ

إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المَسَاعِدُ

« والليل إذا يسر » .

« بسرى » يمضى .

قوله جل ذكره . « هل في ذلك قَسَمٌ لدى حِجْرِ ؟ » .

« حِجْرٍ » . لُبٍّ . وجوابُ القَسَمِ : « إن ربك بالمرصاد » .

(١) أى عن النطاق العقل .. والعقل - في نظر الصوفية - مصاب بآفات التجويز والتحير والارتباط بالمخاضات .

(٢) يوم عرفة وتر ، لأنه ناسع الأيام العشرة ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . . وقد روى حديث بهذا المعنى عن جابر بن عبد الله .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ »

إِذْ مَنَ ذَاتِ الْعِمَادِ... »

ذكر قصص هؤلاء المتقدمين .. إلى قوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ »
أى : شدة العذاب .

« إِنَّ رَبَّكَ لَبَارِعَادٍ » .

لا يفوته شيء .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ »

فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ »

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ »

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

« فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ » : أى : شكره .

« فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » . أى : ضيق ، « فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » . أى : أذلنى . كلا .. ليس
الإذلال بالقرآن إنما الإذلال بالخذلان للمعصيان ^(١) .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ »

أى : أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال للزئومة ؛ فلا تكرمون اليتيم ..

« وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ »

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا » .

لما . أى شديداً .

« وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا »

جمًّا أى كثيراً .

(١) كما نعرف من ملحق التفسير ، أقصى درجات النقص : الخذلان للمعصيان وأقصى درجات الرضا :
التوفيق للطاعة .. وكلاهما من الله .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا » .

أى : قامت القيامة .

« وجاء ربك والملك صفاً صفاً » .

« وجاء ربك » أى الملائكة بأمره (١) .

ويقال : يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

« وحيّ يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكرون »

الإنسان وأنى له الذكركى ؟ ! »

يقال : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام (٢)

وفى ذلك اليوم يتذكر الإنسان .. ولا ينفعه التذكركى ، ولا يقبل منه العذر .

« يقول يا ليتنى قدمت لحياتى »

أى : أطلعت ربى ونظرت لنفى .

« فيومئذٍ لا يُعذبُ عذابه أحدٌ »

أى : لا يُعذبُ فى الدنيا أحدٌ مثلاً يعذبه الله فى ذلك اليوم .. إذا قرئت التال بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح (٣) « لا يُعذبُ » فالغنى : لا يُعذبُ أحدٌ مثلاً يعذبُ هذا الكافر (٤) .

قوله جل ذكره : « يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ » .

(١) أى : جامع ربك . أى : ظهرت آياته ، وأزيل لشك ، وصارت المعارف ضرورية ، وظهرت القدرة الإلهية . والمقصود نفى التحول من مكان إلى مكان عن الله ، فقد جلّت الصمدية عن الارتباط بالتحول الحركى والتقيّد الزمانى والمكانى .

(٢) « ... كل زمام يبد سبعين ألف ملك ، لها تفيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش » (ابن مسعود) - وفى صحيح مسلم حديث يرويه ابن مسعود بهذا المعنى .

(٣) بالفتح قراءة الكسائي « لا يعذب » « ولا يوثق » .

(٤) قيل : هو إبليس لأنه أشد المخلوقات عذاباً ، وقيل « هو أمة بن خلف لتناهى فى كفره وعناده » .

الروحُ للطمئنةُ إلى النفس .

ويقال : الطمئنةُ بالمعرفة : ويقال : للطمئنة بذكر الله .

ويقال : بالبشارة بالجنة . ويقال : النفس للطمئنة : الروح الساكنة^(١)

« أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

راضية^(٢) عن الله ، مَرْضِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

« فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي »

جَنَّتِي .

أى : فى عبادى الصالحين .

(١) تأخرت هذه العبارة الأخيرة إلى نهاية السورة فى النسختين فتقلناها إلى موضعها .

(٢) وردت (من) ولكننا وجدنا أن المعنى حينئذ لن يتغير فيما بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فوضمنا (عن) بدلا من (من) مسترشدين بقوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » . وإن كنا لا نستبعد أن (من) تؤدي معنى صوفياً : هو أنه حتى رضاهم عن الله (من) الله ، فليس للعبد سؤل ولا طول حتى يرضى أو يسخط .. إلا إذا كان ثمة فضل إلهي (من) الله .

سُورَةُ الْبَلَدِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »^(١)

« بسم الله » كلمة تُخبر عن جلاله أزلي ، وجمال سرمدى ، جلاله ليس له زوال ، وجمال ليس له انتقال ، جلاله لا باغيار^(٢) وأمثال ، جمال لا بصورة ومثال ، وجلاله هو استحقاقه لجبروته وجمال هو استجابته للكونه ، جلاله من كاشفه به فأوصافه. فناء في فناء ، وجمال من لا طفه به فأحواله بقاء في بقاء .

قوله جل ذكره : « لا أقسم بهذا البلد » .

أى : أقسم بهذا البلد ، وهو مكة .

« وأنت حل بهذا البلد » .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعة واحدة^(٣) .

« ووالد وما ولد » .

كل والد وكل مولود . وقيل : آدم وأولاده .

وجواب القسم : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » .

ويقال : أقسم بهذا البلد لأنك حل به .. وبكبد الحبيب حبيب .

« لقد خلقنا الإنسان في كبد »

(١) مرة أخرى حدث اضطراب .. فتفسير البسملة هنا كما جاء في م موضوع في ص في أول السورة القادمة : سورة الشبش . والمكس في م .

(٢) مكذا في م وهي في ص (باعتبار) والصحيح ما أثبتنا .

(٣) عن ابن عباس قال : « أُحِلَّتْ له ساعة من نهار ثم أُطبقت وحُرِّمَتْ إلى القيامة وذلك يوم فتح مكة . وثبت أن النبي (ص) قال : « إن الله حَرَّمَ مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، فلم تحل لأحد قبل ، ولا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار » .

أى : فى مشقة ؛ فهو يقاسى شدائد الدنيا والآخرة .

وقال : خلقه فى بطن أمه (متصباً رأسه) فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه تنكس رأسه عند خروجه ، ثم فى القياط وشدة الرباط . . . ثم إلى الصراط هو فى الهياط واللياط^(١) .
قوله جل ذكره : « أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ »

أى : لقوته وشجاعته عند نفسه يقول :

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ » .

« لَبَدًا » كثيراً ، فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم^(٢) .

« أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » .

أليس يعلم أن الله يراه ، وأنه مطلع عليه ؟

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ؟ »

أى : ألم نخلقه سميماً بصيراً متكلماً .

« وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

ألهما طريق الخير والشر .

« فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ »

ما العقبة ؟ * فَلَكَ رَقِيبَةٌ * أَوْ إِطْعَامٌ

فى يوم ذى مسغبة * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ *

أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ » .

أى : فهلا اقتحم العقبة . « وما أدراك ما العقبة ؟ استفهام على التضمين لثانها .

ويقال : هى عقبة بين الجنة والنار يجاوزها من فعل ما قاله : وهو فَلَكَ رَقِيبَةٌ : أى : إعتاق

مملوك ، والفَلَكَ الإزالة . وأطعم فى يوم ذى مجاعة وقحطٍ وشدّةٍ يَتِيماً ذَا قَرَابَةٍ ، أَوْ « مسكيناً

ذَا مَتْرَبَةٍ » : لا شئ له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع .

(١) يقال : هم فى هياط ومياط أى فى شر وجلبّة ، وقيل : فى دنو وتباعد (الوسيط) .

(٢) يقال : نزلت فى رجل من بني جُمَحٍّ كان يقال له : أبو الأنديين ، وكان من أشد أعداء النبی (ص) .

(قاله الكلبي) .

قوله جل ذكره : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالبرحة » .

أى : من الذين يرحم بعضهم بعضاً .

« أولئك أصحاب الميمنة »

أى : أصحاب اليمين والبركة .

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نارٌ مؤصدة » .

هم المشائم على أنفسهم ، عليهم نارٌ مطبقة ؛ يعنى أبواب النيران (عليهم مغلقة) .

والعقبة التى يجب على الإنسان اقتحامها : نفسه وهواه ، وما لم يجز تلك العقبة لا يفلح و « فك رقبة » هو إعتاق نفسه من رِق الأغراض والأشخاص .

ويكون فك الرقبة بأن يهدى من يفسكه — من رق هواه ونفسه — إلى سلامته من شح نفسه ، ويرجعه إليه ، ويخرجه من ذلّه .

ويكون فك الرقبة بالتحرّز من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء .
وبقال : يطعم من كان فى مترية ويكون هو فى مسغبة .

« ثم كان من الذين آمنوا ... » أى تكون خاتمته على ذلك^(١) .

(١) أى ينفى عن ذلك حتى الوفاة .

سُورَةُ الشَّمْسِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » إخبارٌ عن وجود الحق بفتح القِدم . « الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقاءه بوصف الغلاء والكرم .

كاشف الأرواح بقوله : « بسم الله » فهيئها ، وكاشف النفوس بقوله : « الرحمن الرحيم » فتعيها ؛ فالأرواح دَهَشَتْ في كَشَفِ جلاله ، والنفوس عَطَشَتْ إلى لُطْفِ جماله (١) .
قوله جل ذكره : « والشمس وضحاها » .

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها .

« والقمر إذا تلاها » .

أى : تبعها ؛ وذلك في النصف الأول من الشهر .

« والنهار إذا جلاها » .

إذا جَلَى الشمس وكشفتها .

« والليل إذا يغشاها » .

أى : يَغْشَى الشمس (فيذهب بضوئها) .

« والسماء وما بناها » .

أى وبنائها . ويقال : وَمَنْ بَنَاهَا (٢)

(١) نذكر بما قلناه آنفاً عن تماكس وضع تفسيري البسلة فيما بين «البلد» و«الشمس» في النسختين م ، و ص .
(٢) هذا القول الأخير اختاره الطبري ، وقاله الحسن وعجاهد . وأهل الحجاز يقولون : سبحان (ما) سبَّحت له .
أى سبحان من سبَّحت له .

« والأرض وما طحاها » .

أى : وطَّحُوها . ويقال : وَمَنْ طَحَاها (أى بسطها أو قسمها أو خلقها) .

« ونَفَسٍ وما سَوَّاهَا » .

ومن سوَّى أجزائها وأعضائها .

« فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » .

أى : بَأَن خَذَلَهَا وَوَقَّعَهَا .

ويقال : فُجُورَهَا : حركتها فى طلب الرزق ، وتَقْوَاهَا : سكونها بِمُحْكَمِ الْقَدِيرِ .
وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » .

هَذَا جَوَابُ الْقَسَمِ . أى : « لَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » .

ويقال : مَنْ زَكَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

« وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

أى : دَسَّاهَا اللهُ . وقيل : دَسَّاهَا (١) فى جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خَابَ مَنْ دَسَّاهُ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ . وقيل دَسَّاهَا : جعلها خبيسةً حقيرةً .
وأصل الكلمة دَسَّاهَا (٢)

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » .

« بطغواها » : لطغيانها ، وقيل : إن صالحاً قدمات ، فَكَفَرَ قَوْمُهُ ، فَأَحْيَاهُ اللهُ ،
فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَكَذَّبُوهُ ، وَسَأَلُوهُ عِلَامَةً وَهِيَ النَّاقَةُ ، فَأَتَاهُمْ صَالِحٌ بِمَا سَأَلُوا .

« إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا » .

(١) أى دسها صاحبها .

(٢) من التأسيس ، وهو إخفاء الشيء فى الشيء ، فأبدلت سببه ياءً كما يقال : قَسَّيْتُ أظفارى والأصل قَسَمْتُ ، ومثله قولهم فى تَضَضٍ : تَقَضَّى .

« أشقاها » عاقبها .

« فقال لهم رسول الله ناقة الله
وسقياها » .

أى : احذروا ناقة الله ، واحذروا سقياها : أى : لا تتعرضوا لها .

« فكذبوه فقروها ... » .

أى كذبوا صالحا ، فقروا الناقة .

« ... فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم
فسواها » .

أى : أهلكهم بجرمهم ، « فسواها » : أى أطبق عليهم العذاب ^(١) .

ويقال : سوى بينهم ربهم فى العذاب لأنهم كلهم رضوا بعتز الناقة .

قوله جل ذكره : « ولا يخاف عتباها » .

أى : أن الله لا يخاف عاقبة ما فعل بهم من العقوبة .

ويقال : قد أفلح ^(٢) من دأوم على العبادة ، وخاب من قصر فيها .

وفائدة السورة : أنه أفلح من طهر نفسه عن الذنوب والعيوب ، ثم عن الأطلاع فى
الأعراض والأغراض ، ثم أبعد نفسه عن الاعتراض على الأقسام ، وعن ارتكاب الحرام .
وقد خاب من خان نفسه ، وأهملها عن المراجعة ، ودنسها بالمخالقات ؛ فلم يرض بدم المعاني
حتى ضم إلى فقرها منها الدعاوى المظلمة ... ففرقت فى بحر الشقاء سفينته .

(١) بأن سوى عليهم الأرض .

(٢) هكذا فى ص وهو فى م (أصلح) وقد رجحنا ما أثبتنا ، فهكذا الآية ، ثم ما تلا هذه العبارة .

سُورَةُ اللَّيْلِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمة تُخَيِّرُ عن إلهية الله ؛ وهي استحقاقه لنعوت الجود والتوحد ، وصفات العز والتفرد ؛ فمن تجرد في طلبه عن الكسل ، ولم يستوطن مركب العجز والفشل ، ووضع النظر موضعه وصلّ بدليل العقل إلى عرفانه ، ومن بذل روحه ونفسه وودّع في الطلب راحته وأنسه ، ولم يعرّج في أوطان الوقعة ظفر بحكم الوصول إلى شهود سلطانه ، والناس فيه بين موفّق ومخذول ، أو مؤيّد ومردود .

قوله جل ذكره : « والليل إذا يَفْشَى » .

يفشى الأفق ، وما بين السماء والأرض فيستره بظلمته .

والليل لأصحاب التحير يستغرق جميع أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشـد .

« والنهار إذا تَجَلَّى »

أنار وظهر ، ووضح وأسفر .

ونهار أهل المرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم ، حتى لا يخفى عليهم شيء ، فسكنوا بطلوع

الشمس (١) عن تكلف إيقاد السراج (٢)

« وما خلق الذكر والأنثى » .

أى : « من » خلق الذكر والأنثى ؛ وهو الله سبحانه :

« إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » .

هذا جواب القسم ، والمعنى : إن أعمالكم لمختلف ؛ فمنكم من سعى في طلب دنياه ، ومنكم

من سعى في شهوات نفسه واتباع هواه ، ومنكم من في طلب جاهه ومناه ، وآخر في طلب عقباه ،

(١) يقصد شمس التوحيد .

(٢) إذا طلعت شمس التوحيد لم تغر محاولات العقل ، لأن نورها يطفى على كل الأنوار .

وآخر في تصحيح قواه ، وآخر في تصفية ذكراه ، وآخر في القيام بحسن رضاه ، وآخر في طلب مولاه .

ومنكم : من يجمع بين سعى النفس بالطاعة ، وسعى القلب بالإخلاص ، وسعى البدن بالقرب ، وسعى اللسان بذكر الله ، والقول الحسن للناس ، ودعاء الخلق إلى الله والنصيحة لهم . ومنهم من سعى في هلاك نفسه وما فيه هلاك دينه . . . ومنهم . . . ومنهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى » * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى » من ماله ، « وَاتَّقَى » مخافة ربه . . .

ويقال : « أَعْطَى » الإِنصافَ من نفسه ، « وَاتَّقَى » طَلَبَ الإِنصافِ لنفسه (١) . . .

ويقال : « اتَّقَى » مسأخطة الله . « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » : بالجنة ، أو بالكرامة الآخرة ، وبالمنقرة لأهل الكبائر ، وبالشفاعة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالحلف (٢) من قِبَلِ اللَّهِ . . . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى : أى نُسهِّلُ عليه الطاعات ، ونُسكِّرُهُ إليه المخالفات ، ونُسَهِّيُ إليه القُرْبَ ، ونُحِبُّبُ إِلَيْهِ الإِيْمَانَ ، ونُرَبِّيُنْ في قلبه الإِحْسَانَ .

ويقال : الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته .

« وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى » * وَكَذَّبَ

بِالْحُسْنَى » * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » .

أما من منع الرزق ، واستغنى في اعتقاده ، وكذب بالحسنى : أى بما ذكرنا ، فسند يسره لليسرى ؛ فيقع في العصية ولم يدبرها ، ونوقف (٣) له أسباب المخالفة .

ويقال « أَعْرَضَ » أَعْرَضَ عن الدارين . « وَاتَّقَى » أَنْ يَجْعَلَ لَهَا فِي نَفْسِهِ مَقْدَاراً (٤) .

(١) من المنة أن تتحلل بالإنصاف وأن تتخلص عن الإنصاف . . . هكذا قال الشيخ .

(٢) (الْحِكْمَةُ) بالفتح العام : إن الله يرث الأديان ومن عليها ، وبالفتح الموقوف : « فالذين يهيمون - في حال لغت - وأحق - فهم عنهم نيكات (انظر بساطة الأحكام من هذا المجلد) .

(٣) هكذا في ص وهي في م (توافق) وهي مقبولة أيضاً (فالتوفيق) للمعنى هو التيسير لما كان في الآية . . . بل لعلها أقرب إلى السياق مما هو .

(٤) حتى يبتعد عن الأعواض والأغراض ، ويتق قلبه به وحده .

قوله جل ذكره : « وما يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى »

يعنى : إذا مات .. فما الذى يغنى عنه ماله بعد موته ؟

قوله جل ذكره : « إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ »

لأوليائنا ، الذين أُرشدناهم . ويقال : « إِنْ عَلَيْنَا لَلهُدَىٰ » بنصيب الدلائل .

« وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ »

مِنْكَ ، تعطيه من نشاء .

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ »

أى : تَلَظَّى .

« لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ »

أى : لَا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، وهو :

« الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ »

يعنى : كَفَرَ .

« وَسَيَجْزِيهَا الْآخِرَىٰ * الَّتِي يُؤْتِي

مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ »

يُعْطَى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ .

ويقال يَتَطَهَّرُ مِنَ الذَّنُوبِ .

ونزلت الآية في (أبي بكر) ^(١) رضى الله عنه . والآية علمة .

(١) ما بين القوسين غير موجود في م ، ويوجد فقط « رضى الله عنه » وفي م : يوجد فقط (والآية عامة) فأكلنا السياق .

ويروى : أن النبي (ص) مر ببلال وهو يعذب في الله ويقول :

أحد أحد ، فلما نقل ذلك إلى أبي بكر ، عرف أبو بكر ما يريد النبي ، فذهب إلى أمية بن خلف ، واشترى بلالا وأعتقه ، فلما قال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدينه كانت له عنده ، نزل قوله تعالى : « وما لأحد عنده من نعمة تجزي . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

« وما لأحدٍ عنده مِن نعمةٍ تُجْزَى »

حتى تكون هذه مكافأةً له . ولا يفعل هذا لِيَتَّخِذَ عند أحدٍ بدءاً ، ولا يطلب منه مكافأة :

« إِلَّا أُبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى »

أى : لِيَتَقَرَّبَ بِهَا إِلَى اللَّهِ .

« وَلَسَوْفَ يَرْضَى »

يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَيَرْضَى هُوَ بِمَا يَعْطِيهِ .

سُورَةُ الضُّحَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم لا يُشبهه كقولنا (١) في ذاته وصفاته ، ولا يستغزاه (٢) لهو في إثبات مصنوعاته ، ولا يعتريه سهو في علمه وحكمته ، ولا يعترضه لغو في قوله وكلته .
فهو حكيم لا يلهو ، وعليم لا يسهو ، وحليم يثبت ويمحو ؛ فالصدق قوله ، والحق حكمه ، والخلق خلقه وللك ملكه .

قوله جل ذكره : « والضُّحَى » والليل إذا سجاً

« والضُّحَى » : ساعة من النهار . أو النهار كله يُسمَّى ضُحَى . ويقال : أقسم بصلاة الضُّحَى .

ويقال : الضُّحَى الساعة التي كَلَّمَ فيها موسى عليه السلام .

« والليل إذا سجاً » أي : ليلة المراج ، و « سجاً » : أى سَكَنَ ، ويقال : هو عام في جنس الليل .

ويقال : « الضُّحَى » وقت الشهود . « والليل إذا سجاً » الذى قال : إنه ليُفَانَّ على قلبي (٣) . . . »

(١) أصلها « كفو » أى مائل ، أو قوى قادر حل تعريف العمل .
ويعرأ بضم الفاء وسكونها ، فإن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز في عنه النغم والاسكان إلا قوله تعالى « وجعلوا له من عاده جزيماً » (آية ١٥ سورة الزخرف) .
(٢) استغزه الشيء = استغفه ، واستغزه فلان = أثاره وأزعجه .
(٢) عن أغرمزينة قال : قال رسول الله (ص) : إنه ليُفَانَّ على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم واليلة مائة مرة « أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي . وفي رواية لسلم : « توبوا إلى ربكم ، فوافقه إلى لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة » .

ويقال : « الليل إذا سجا » حين ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا — على التأويل الذي يصح في وصفه^(١) .

« مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ »

ما قطعَ عنك الوحيَ وما أبغضك^(٢) .

وكان ذلك حين تأخر جبريل — عليه السلام — عنه أياماً^(٣) ، فقال أهل مكة : إن محمداً قد فلاه ربه . ثم أنزل الله هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثني عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ، فوعده الجواب ولم يقل : إن شاء الله^(٤) .

« وَلَا آخِرَ خَيْرٍ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ »

أى : ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لك مما يعطيك في الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والحوض ، وما يُلبسُك من لباس التوحيد — غداً — خيرٌ مما أعطاك اليوم .

« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ »

قيل : أفترضى بالمطاء عن المعطى ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ؟ »

(١) تنقد تم التعليق على هذا الخبر في هامش سبق .

(٢) هكذا في ص وهي في م (يفضيك) .

(٣) في البخاري عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله (ص) فلم يغم ليّلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة (هي الموراء بنت حرب أخت أبي سفيان ، وهي حمالة الحطب ، زوج أبي لب) فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أراه قريبك منذ ليّلتين أو ثلاث ، فأُنزل الله عز وجل «والضحى» .

(٤) يقال : إن جبراً دخل تحت السرير في حجرته ومات ، فلما تغيب الوحي سأل خادمه نحوه : يا نحوه ما حدث في بيتي ؟ ما لجبريل لا يأتي ؟ فلما قامت إلى البيت فكنته وأخبرته بما وجدت .. فلما عاد الوحي سأله عن سير تأخره فقال جبريل : أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟

قيل : إلى عمه أبي طالب .

ويقال : بل آواه إلى كنفِ ظله ، ورباه بلطف رعايته .

ويقال : فأواك إلى بساطِ القربة بحيث افردت بمقامك ، فلم يُشاركك فيه أحدٌ
« وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

أى : ضللت في شِعبِ مكة ، فهَدَى إليك عَمَّكَ أبا طالبٍ في حال صباك .

ويقال : « ضالًّا » فينا متحيزًا .. فهديناك بنا إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن تفصيل الشرائع ؛ فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها .

ويقال : فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك .

وقيل : « ضالًّا » للاستنشاء (١) فهذاك لذلك .

ويقال « ضالًّا » في محبتنا ، فهديناك بتور القربة إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن محبتى لك فرقتك أنى أحبك .

ويقال : جاهلاً بمحلِّ شرفك ، فرقتك قدرك .

ويقال : مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك (٢)

« وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

في التفسير : فأغنالك بمال خديجة .

ويقال : أغنالك عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفقْد (٣)

ويقال : أغنالك بالنبوة والكتاب . ويقال : أغنالك بالله .

(١) الكلمة غير واضحة الرسم في النسختين ، وقد رجحنا هذه الكلمة لأنها أقرب إلى ما في م ، ولأن من النقص السابقة ما يشير إلى أنه لم يقدم المشيئة فتوجب في ذلك ، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله .
(٢) ربما تنفق هذه الإشارة مع ما جرت عليه العرب في وصف الشجرة المنفردة في الفلاة لا شجر معها بأنها ضالة يهتدى بها إلى الطريق لأنها علامة مميزة ، فهي مبروقة لذاتها ، ولأنها علامة على الطريق هادية إليه .
(٣) هكذا في م ، وهي في ص (بالعقل) ، ولكننا فرجح ما جاء في م ، ولا نستبعد أنها في الأصل (التفر) .. فالرضا في حال الفقر أو (التفتد) أتم في التمتع من الرضا في حال الثنى .. وهل أعظم من الثنى بالله ؟ !

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتلاء ؛ بلا سؤال منك .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْزِ »

فلا تُخَفِّه ، وارفق به ، وقرب به

« وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ »

أى : إِمَّا أَنْ تُعْطِيَهُ .. أَوْ تَرْدَّهُ بِرِفْقٍ ، أَوْ وَعْدٍ .

ويقال : السائلُ عَنَّا ، والسائلُ التحيُّرُ فينا — لا تنهرهم ، فإننا نهديهم ، ونكشف

مواضع سؤالهم عليهم .. فلا طِفْهم أنت في القول .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فاشكركم ، وصرِّحْ بإحسانه إليك ، وإنعامه عليك .

سُورَةُ الْمَرْشَحِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَنْ التَّجَا إِلَيْهِ ، وَجَلَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَفَازَ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى مَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ قَرَبَهُ وَمَنْ شَكَأَ إِلَيْهِ حَقَّقَ لَهُ مَطْلَبَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ قَصْدَهُ إِلَيْهِ قَضَى مَأْرَبَهُ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ »

أَلَمْ نُوسِّعْ قَلْبَكَ لِلْإِسْلَامِ ؟ أَلَمْ نُلَيِّنْهُ لِلْإِيمَانِ ؟

ويقال : أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ بِنُورِ الرِّسَالَةِ ؟ أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ لِقَبُولِ مَا نُوْرِدُ عَلَيْكَ .
« وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ • الَّذِي أَقْبَضَ ظَهْرَكَ »

أَي : إِثْمَكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ .

ويقال : عَصَمْنَاكَ عَنْ ارْتِكَابِ الْوِزْرِ ؛ فَوَضَعْنَاهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ قَطْرًا .

ويقال : خَفَضْنَا عَنْكَ أَعْيَاءَ النُّبُوَّةِ وَجَعَلْنَاكَ عَمْرُولًا لَا مَتَحْمِلًا^(١) .

ويقال : قَوَّيْنَاكَ عَلَى التَّحَمُّلِ مِنَ الْخَلْقِ ، وَقَوَّيْنَاكَ لِمَشَاهِدِنَا ، وَحَفَظْنَا عَلَيْكَ مَا اسْتَحْفَظْتَ^(٢) ، وَحَرَسْنَاكَ عَنْ مَلَا حِفْظِ الْخَلْقِ فِيمَا شَرَّفْنَاكَ بِهِ .

(١) وهذه أقصى درجات الحب ، وقد مر بنا كيف قارن القشيري بين مواقف موسى ، ومواقف المصطفى صلوات الله عليهما ، وكيف أوضح لنا أن موسى كان متحملاً بينما كان نبياً عمولاً .
(٢) إشارة إلى القرآن ، الذي حفظ من التغير والتحريف .. إلى الأبد .

« الذي أفضى ظهرك » : أى : ألقه ، ولولا حملنا عنك لكسيرة .

« ورفعنا لك ذكرك »

يذكرنا ؛ فكما لا نصيح كلمة الشهادة إلا لى ، فإنها لا تصيح إلا بك . (١)

ويقال : رفعنا لك ذكرك بقول الناس : محمد رسول الله !

ويقال : أثبتنا لك شرف الرسالة .

« فإن مع العسر يسراً * إن مع

العسر يسراً »

وفى الخبر : « لن يقلب عسر يسرين » (٢) ومعناه : أن العسر بالألف واللام فى الموضعين للعهد — فهو واحد ، واليسر منكسر فى الموضعين فهما شيان . والعسر الواحد : ما كان فى الدنيا ، واليسران : أحدهما فى الدنيا من الخصب ، وزوال البلاء ، والثانى فى الآخرة من الجزاء ؛ وإذا فسر جميع المؤمنين واحد — وهو ما نابهم من شدائد الدنيا ، ويسرهم اثنان : اليوم بالكشف والعرف (٣) ، وغداً بالجزاء .

قوله جل ذكره : « فإذا فرغت فانصب »

فإذا فرغت من الصلاة المفروضة عليك فانصب فى الدعاء .

ويقال : فإذا فرغت من العبادة فانصب فى الشفاعة .

ويقال : فإذا فرغت من عبادة نفسك فانصب بقلبك .

« وإلى ربك فارغب »

فى جميع الأحوال .

ويقال : فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب فى الشفاعة .

(١) فلا تصح الشهادة شرعاً إلا إذا قلنا : وأن محمداً رسول الله .

(٢) البخارى ص ١٤٥ - ٣ .

(٣) (الكشف) هنا ليس كما قد نفهم من قبيل المصطلح الصوفى ، بل هو كشف القمّة وصرف المحنة ، فهى لفظة عامة فى هذا السياق .

سُورَةُ التِّينِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

اسم « الله » يدلُّ على جلالِ مَنْ لم يَزَلْ ، ويُخْبِرُ عن جمالِ مَنْ لم يَزَلْ ، يَنْبَغُ على إقبالِ مَنْ لم يَزَلْ ، يشيرُ إلى إفضالِ مَنْ لم يَزَلْ ؛ فالعارفُ شهيدُ (١) جلاله فَطَّاشَ ، والصَّغِيُّ شهيدُ جماله فَطَّاشَ ، والوليُّ شهيدُ إقباله فَارْتَّاشَ ، والمريدُ يشهدُ إفضاله فلا يطلبُ مع كفايته المَعاشَ .

قوله جل ذكره : « والتين والزيتون »

أقسم بالتين لما به من عظيمِ المنَّةِ على الخَلْقِ حيثُ لم يجعلِ فيه النَّوى ، وَخَلَّصَهُ من شائبِ التنفيسِ ، وجعله على مقدارِ اللُّقْمَةِ لتكملَ به اللَّذَّةُ . وجعل في « الزيتون » من المنافعِ مثلِ الاستصباحِ والتأدُّمِ والاصطباغِ به .

« وَطُورِ سَيْنِينَ »

الجبل الذي كَلَّمَ اللهُ موسى عليه . ولوضعِ قَدَمِ الأَحْبَابِ حُرْمَةً .

« وهذا البلد الأمين »

يعنى : مكة ، ولهذا البلد شرف كبير ، فهو بلدُ الحبيب ، وفيها البيت ؛ ولبيتِ الحبيبِ وَبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة . (٢)

(١) من هنا يبدأ في النسخة بياض في النسخة من يتلوه . سقط حتى بداية سورة العاديات . ولهذا نعتد فيما بين الموضعين حل للنسخة وسجدها .

(٢) ما ذهب المفسرون في تفسير : التين والزيتون وطور سين ، والبلد الأمين قول بعضهم : إن التين إشارة إلى جبل دمشق وهو مأوى عيسى عليه السلام ، وباليون جبل بيت المقدس فهو مقام الأنبياء جميعهم ، وطور سينين إشارة إلى موسى كليم الله ، والبلد الأمين إشارة إلى أن مكة بها بيت إبراهيم وبها دار محمد صلى الله عليه وسلم .. فكان مطالع السورة تشير إلى النبوات البارزة .

قوله جل ذكره : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم » .

في اعتدال قامته ، وحسن تركيب أعضائه . وهذا يدل على أن الحق — سبحانه — ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأن كل صفة اشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق .. كالعالم ، فالأعلم الله ، والقدرة : فالأقدر الله ، فلو اشترك الخلق والخالق في التركيب والصورة لكان الأحسن في الصورة الله ... فلما قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » عليم أن الحق — سبحانه — منزّه عن التقويم وعن الصورة .^(١)

قوله جل ذكره : « ثم رددناه أسفل سافلين »

أى : إلى أرذل العمر وهو حال الخرف^(٢) والهَرَم .

ويقال : « أسفل سافلين » : إلى النار والهاوية في أقبح صورة ؛ فيكون أول الآية عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفار .. كما أن التأويل الأول — الذى هو حال الهَرَم — خاص في البعض ؛ إذ ليس كل الناس يبلغون حال الهَرَم .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

فلهم أجرٌ غير ممنون »

أى : غير منقوص .

ويقال : « ثم رددناه أسفل سافلين » أى : إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين .

قوله جل ذكره : « فما يكذبك بعد بالدين »

أيها الإنسان .. مع كل هذا البرهان والبيان ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟

(١) في هذا رد جميل منقطع عن المشبهة ، وعلى كل فنى تصور وهمي للألوهية .

(٢) الخرف = فساد العقل بسبب كبر السن .

سُورَةُ الْعَلَقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة سماعها بوجوب أحد أمرين : « إمَّا مَحْذُومًا وَإِمَّا مَحْذُومًا ؛ صَحْوَ لِمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْعِلْمِ فَيَسْتَبْصِرُ بِوَأَمْرِ بَرَاهِنِهِ ، أَوْ مَحْذُومًا لِمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُ يَتَحَيَّرُ فِي جَلَالِ سُلْطَانِهِ .

قوله جل ذكره : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ »

هذه السورة من أوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَى الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَمَرَّضَ لَهُ جِبْرِيلُ فِي الْمَوَاءِ ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . فَالْأَناسُ كُلُّهُمْ مَرِيدُونَ — وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُرَادًا . فَاسْتَقْبَلَ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ : « مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالَ لَهُ : أَقْرَأْ ، فَقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَقْرَأْ كَمَا أَقُولُ لَكَ ؛ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . أَيْ خَلَقَهُمْ عَلَى مَا هُمْ بِهِ .

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ »

الْعَلَقُ جَمْعُ عَلَقَةٍ ؛ كَشَجَرٍ وَشَجَرَةٍ .. (وَالْعَلَقَةُ الذَّمُّ الْجَامِدُ فَذَا جَرَى فَهُوَ الْمَسْفُوحُ) .

« أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ »

« الْأَكْرَمُ » : أَيْ الْكَرِيمُ .

وَيُقَالُ : الْأَكْرَمُ مِنْ كُلِّ كَرِيمٍ .

« الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ » * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

عَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَعْلَمُوا : الْضُرُورِيَّ ، وَالْكَسْبِيَّ .

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى »^(١)

أى : يتجاوز جدّه إذا رأى فى نفسه أنه استغنى ؛ لأنه يعنى عن مواضع افتقاره .

ولم يقل : إن استغنى بل قال : « أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى » فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه ، وكان مشاهداً /
لحلّ افتقاره — لم يكن طاعياً^(٢) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى » .

أى : الرجوع يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى »

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ فى الآية هذا الإضمار .

« أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمُدَى * أَوْ أَمْرًا بِالتَّقْوَى »

لكان خيراً له ؟

« أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى »

كذّب بالدين ، وتولّى عن الهداية .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى » ؟

أى : ما الذى يستحقّه مَنْ هذه صفته ؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على انراقة — وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ حَالَ المراقبة لَمْ يَرْتَقِ مِنْهُ إِلَى حَالِ

المشاهدة .

قوله جل ذكره : « كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ *

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ »

(١) قيل نزلت فى أبي جهل حين نهى النبى «ص» عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه أن يصلّى فى المسجد ويقرأ باسم الرب ..
والذين يرون ذلك يرون أن السورة ليست من أوائل ما نزل من القرآن . أو يجوزون أن تكون أوائل السورة كذلك
وأن بقيتها فى شأن أبي جهل — أى متأخرة .

روى البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلّى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى ذلك
فقال : لو فعل لأخذته الملائكة . (البخارى ٣ ص ١٤٦) .

(٢) من أشد آفات الطريق خطراً ملاحظة النفس ، ونهايك بدعواها .

لَنَاخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ (وَهِيَ شَعْرُ مَقْدَمِ الرَّأْسِ) أَخْذًا إِذْلالٍ . وَمَعْنَاهُ لِنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ .

وقوله : « نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ » بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : « لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » (١)

« فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ » سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ

فَلْيَدْعُ أَهْلَ نَادِيَتِهِ وَأَهْلَ مَجْلِسِهِ ، وَسَدْعُ الزَّبَانِيَةِ وَتَأْمِرُهُمْ بِإِعْلَانِهِ .

قوله جل ذكره : « كَلَّا لَا تَطْلَعُ » وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ

أَي : اقْتَرِبْ مِنْ شُهُودِ الرَّبُّوبِيَّةِ بِقَلْبِكَ ، وَقِفْ عَلَى بَسَاطَةِ الْعِبَادَةِ بِنَفْسِكَ .

وَيَقَالُ : فَاسْجُدْ بِنَفْسِكَ ، وَاقْتَرِبْ بِسِرِّكَ (٢) .

(١) نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية يفصح بها صاحب الناصية كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، أي هو صائم في نهاره وقائم في ليله .

(٢) السجود عبادة الظواهر ، ولهذا ربطها لتقشيري بالنفس ، فكل ما يتصل بالظاهر يرتبط - عنده - بالنفس ، وأما الاقتراب فهو عبادة الباطن المرتبطة بالسِرِّ .

سُورَةُ الْقَدْرِ

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة تُحضِرُ قلوبَ العلماء لتأمل الشواهد ، وتُسَكِّرُ قلوبَ العارفين إذا وردوا للشَّاهد . . فهولاء أحضروهم فَبَصَّرَهم ، وعلى استدلالهم نصرهم .

وهؤلاء بشرابِ محابة أسكروهم ، وفي شهودِ جلالهِ حَيَّرَهم .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

في ليلةٍ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه ، في ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ قُوسِهِم ؛ ويشهد فيها العارفون قَدْرَ مَعْبُودِهِم . . وشتان بين وجودِ قَدْرِ * وشهودِ قَدْرِ ! فهولاء وجودُ قَدْرِ ولكن قدر أنفسهم ، وهولاء شهودِ قَدْرِ ولكن قدر معبودهم

« وما أدراك ما ليلةُ القَدْرِ » ؟

استفهامٌ على جهة التفتيح لشأن تلك الليلة .

« ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ » .

أى : هي خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلةُ القَدْرِ . هي ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها في مسامرةٍ وخطاب . . كما قيل :

يا ليلة من ليالى الدهرِ قابلت فيها بَدْرَها بِيَدْرِ
ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجْرِ حتى تولت وهي بِكْرُ الدهرِ

قوله جل ذكره : « تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا
يَأْذَنُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ
هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

« الروح فيها » : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عَظِيمٌ

« يأذن ربهم » : أى بأمر ربهم .

« من كل أمر سلام » : أى مع كل مأمورٍ منهم سلامى عَلَى أَوْلِيَائِهِ (١) .

« هى حتى مطلع الفجر » : أى هى باقية إلى أن يطلع الفجر .

(١) قد يتأيد رأى القشيري في اختيار هذا اللفظ الذى يتم به الكلام بما يرويه أنس — قال : قال رسول الله (ص) :
إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة (جماعة) من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد
يذكر الله تعالى .

سُورَةُ لَمْ يَكُنْ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تَنَصَّلُ إليه المذنبون فَعَفَّرَ لهم وَجِبَرَهُمْ^(١) : وَتَوَسَّلَ إليه المطيعون فَوَصَّلَهُمْ وَنَصَّرَهُمْ .

تَعَرَّفَ إليه العالمون فَبَصَّرَهُمْ ، وَتَقَرَّبَ منه العارفون فَقَرَّبَهُمْ ... لكنه — سبحانه — في جلاله حَيَّرَهُمْ^(٢) .

قوله جل ذكره : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » .

« منفكين » : مُنْتَهَيْن عن كفرهم حتى تأتيهم البينة : وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لم يزالوا مجتمعين على تصديقه ؛ لِمَا وَجَدُوهُ فِي كَسْبِهِ . إلى أن بَعَثَهُ اللهُ تعالى . فلما بَشَّرَهُ حَسَدُوهُ وكَفَرُوا .

« رسولٌ من الله يتلوا محفلاً
مُطَهَّرَةً * فَبِمَا كُتِبَ قِيمَةً » .

(١) في النسخة م توجد بعد هذا الموضع . العبارة التالية «وتوكل إليه العوفون فجبرهم» . ونستبعد . جودها في الأصل ؛ لأن ترتيب العارفين لا يأتي بين المذنبين والمطيعين ، وإنما يأتي بعد « العالمين » ، كما هو ثابت في النسخة على هذا النحو الذي أثبتناه هنا . كما أن « جبرهم » فعل يتصل بالزلات والذنوب ... فيبدو أن العبارة منصلة بالمذنبين ، ويتأيد ما اخترناه بالسياق الذي نألفه في أسلوب البسمة عند الشيخ ، ونسبها عن خدمته للموسيق والمغنى .. وهما المنصهران الأساسيان في نسيج البسمة عنده .

(٢) التحير في الجلال صفة مدح ، ولذا يقول يحيى بن معاذ : يا دليل المتحيرين زدني تحيراً .. لأنه غرق في بحر الرجود عند الشهود .

أى حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُبًا مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

« فيها كتب قيمة » ^(١) : مستوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ » .

يعنى : القرآن .

قوله جل ذكره : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » .

« مخلصين له الدين » أى موحدين لا يُشركون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ ألا يكون شئ من حركاتك ومساكناتك إلا لله .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العمل من الخلل .

« حنفاء » : مائلين إلى الحق ، عادلين عن الباطل ^(٢) .

« وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » . . . وذلك دينُ القِيَمَةِ : أى دينُ المِلَّةِ القِيَمَةِ ، والأمة القِيَمَةِ ، والشرعية القِيَمَةِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » .

« خالدين فيها » : مقيمين . « البرية » : الخليفة .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » .

(١) يرى القرطبي : أن « كتباً » هى بمعنى الحكام ، لأن كُتِبَ بمعنى حَكَمَ ، قال تعالى : « كَتَبَ اللَّهُ لَأُولَئِكَ » سورة المجادلة .

(٢) كلمة « حنيف » من الأضداد ، فهى تحمل معنى (الميل) عن الباطل و (الاستقامة) فى طريق الحق .

أى : خير الخلق ، وهذا يدل على أنهم أفضل من الملائكة .

قوله جل ذكره : « جزاؤهم عند ربهم جنات عدن

تجري من تحتها الأنهار خالدين

فيها أبداً » .

« جزاؤهم » : أى ثوابهم فى الآخرة على طاعتهم .

« تجري من تحتها الأنهار » أى : من تحت أشجارها الأنهار .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

فلم تنبثق لهم مطالبة إلا لحققها لهم .

« ذلك لمن خشي ربه » .

أى : خافه فى الدنيا .

والرضا سرور القلب بمر القضا .

ويقال : هو سكون القلب تحت جريان الحكم .

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ تَأَمَّلَهَا بِمَعَانِيهَا وَوَقَفَ عَلَى مَا أُودِعَ فِيهَا رَسَّتْ أَسْرَارُهُ فِي دِيَارِ
مِنَ الْإِنْسِ مَوْثِقَةً، وَأَيَّنتْ أَفْكَارُهُ بِلَوَائِحِ مِنَ الْيَقِينِ مُشْرِقَةً، فَهِيَ عَلَى جَلَالِ الْحَقِّ شَاهِدَةٌ،
وَهِيَ عَلَى مَا يَحِيطُ بِهِ الذِّكْرُ وَيَأْتِي عَلَيْهِ الْحَصْرُ زَائِدَةٌ .

قوله جل ذكره: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا»
وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا .

أى: أمواتها، وما فيها من الكنوز والدقائق .

«وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا؟»

يعنى الكافرُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِهَا أَى بِالْمَعِثَةِ^(١) .

«يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَحْبَارَهَا» .

يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ الْأَرْضُ :

«بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» .

أى: إِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ .

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : «هو الأسود بن عبد الأسد» ويرى بعض المفسرين: أن الإنسان هنا هو كل إنسان من مؤمن وكافر لأن الجميع لا يعلمون أشرار الساعة في ابتداء أمرها إلى أن يتحققوا عمومها ، ولذا يسأل بعضهم بعضاً .
أمّا التفسيرى فقد نظر إليها من ناحية الاعتراف وجعل من يسأل عنها كافراً بها جاحداً لها . أمّا المؤمن فلا حاجة له في السؤال .

«يَوْمَئِذٍ يَعَذِّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوَّاهُ»^(١)

أَعْمَالَهُمْ .

« أَشْتَاتًا » : مَفْرُوقِينَ . « لِّيُرَوَّاهُ أَعْمَالَهُمْ » لِيُحَاسِبُوهُ .

قوله جل ذكره : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ »

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

فُيْقَاهِي عَنَاءَهُ .

(١) هذه قراءة العامة . وثراً الحسن والبرخيزي وثلاثة والأعرج وابن عاصم وطلحة بن شعيب : وَلِيُرَوَّاهُ .

سُورَةُ الْمَادِيَاتِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» كلمةٌ غَيُورٌ لا يَصْلُحُ لذكرها إِلَّا لسانٌ مَّصُونٌ^(١) ، عن اللِّغْوِ والْفَيْيَةِ ، ولا يَصْلُحُ لمرقئها إِلَّا قلبٌ مَحْرُوسٌ عن النِّفْلَةِ والْفَيْيَةِ^(٢) ، ولا يَصْلُحُ لِحَبَّتِهَا إِلَّا رُوحٌ مَحْفُوظَةٌ عن العَلَاةِ والحِجْبَةِ .

قوله جل ذكره: «والمادياتِ ضَبْحًا» .

«الماديات» : الخيلُ الَّتِي تَعْدُو^(٣) .

«ضَبْحًا» أَى إِذَا ضَبَعْنَ ضَبْحًا ، والضَّبْحُ : هُوَ صَوْتُ أَجْوَافِهَا إِذَا عَدَوْنَ . ويقال : ضَبْحُهَا هُوَ شِدَّةُ نَفْسِهَا عِنْدَ الْعَدُوِّ .

وقيل : «الماديات» ؛ الإِبِلُ^(٤) .

وقيل : أَقْسَمَ اللَّهُ بِأَفْرَاسِ الْفَزَاةِ^(٥) .

«فالمُورياتِ قَدَحًا» .

تُورِي بِمُحَوِّفِهَا النَّارَ إِذَا عَدَتْ وَأَصَابَتْ سَنَابِكُهَا الْحِجَارَةَ بِاللَّيْلِ .

(١) من هذا الموضع تبدأ النسخة من بعد اليائض والسقوط اللذين أُمِرْنَا إِلَيْهِمَا مِنْ قَبْلِ .

(٢) النِّيَّةُ الْمُتَصِلَةُ بِاللِّسَانِ هِيَ الْكَلَامُ فِي حَقِّ الْغَائِبِ ، وَالْفَيْيَةُ الْمُتَصِلَةُ بِالْقَلْبِ هِيَ وَرُودُ وَارِدٍ مِنْ أَى نَوْعٍ يُعْطَلُ الْإِتِّجَاهُ لِلْكَامِلِ نَحْوَ الْمَحْبُوبِ ، كَالْتَفَكِيرِ فِي الثَّوَابِ أَوْ الْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ ، أَوْ الطَّمَعِ فِي الْأَعْوَاضِ ، أَوْ اسْتِعْجَالِ شَيْءٍ .. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَشُوبُ كَأْسَ الْمَحَبَّةِ مِنْ غَيْرِيَّةٍ .

(٣) الْمَلَوُ : هُوَ تَبَاعُدُ الْأَرْجُلِ فِي سُرْعَةِ الْمَشْيِ .

(٤) هَكَذَا فِي ص وَهِيَ فِي م (الِيل) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النِّسْخِ وَالْفِعْلُ الْمُسْتَعْمَلُ مَعَ الْإِبِلِ هُوَ (ضَبِحَ) فَتَكُونُ

(ضَبِحًا) هُنَا يُجَاءُ مَبْدَلَةً عَنْ عَيْنِ (الْقُرْطُبِيِّ ٢٠٥ ص ١٥٦)

(٥) فِي الْخَبَرِ : «مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَرَمَةَ فَرَسِ الْغَازِي فَقِيهِ شَعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ» .

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال : هي الأسنة .

« قَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا » .

تُغِيرُ عَلَى الْمَدْوِّ صَبَاحًا .

« فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا » .

أى : هَيَّجَنَ بِهِ غِبَارًا .

« فَوَسَّطَنَ بِهِ جَنَامًا » .

أى : تَوَسَّطَنَ الْمَكَانَ ، أى : تَتَوَسَّطُ الْخَلِيلَ بِفَوَارِسِهَا جَمَعَ الْمَدْوِّ .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » .

هَذَا هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ .

« لَكَنُودٌ » : أى لَكَفُّورٌ بِالنِّعْمَةِ (١) .

« وَإِنِّهِ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ » .

أى : وَإِنِّهِ عَلَى كَنُودِهِ لَشَهِيدٌ

« وَإِنِّهِ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » .

أى : وَإِنِّهِ لِبَغِيلٍ لِأَجْلِ حُبِّ الْمَالِ (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ » .

أى : بُعِثَ الْمَوْتَى .

« وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ » .

يُيَنِّ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

« إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ » .

(١) روى عن ابن عباس : أن الكنود بلسان كندة وسفر مروت : العاصى ، و بلسان ربيعة ومضر : الكفور ، بلسان كنانة : البغيل السبيء الملكة .

(٢) قال تعالى : « إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا » آية ١٨٠ سورة البقرة .

أفلا يعلم أن الله يُجازيهم — ذلك اليوم — على ما أسلفوا، ثم قال على الاستئناف :
« إن ربهم بهم يومئذٍ خبير » .

ويقال في معنى الكنود^(١) : هو الذي يرى ما إليه من البلوى ، ولا يرى ما هو به من النعمى .

ويقال : هو الذي رأسه على وسادة النعمة ، وقلبه في ميدان الفاقة .

ويقال : الكنود : الذي ينسى النعم ويمدُّ المصائب .

وقوله : « وإنه على ذلك لشهيد » ، يحتمل : وإن الله على حاله لشهيد .

(١) لعل القشيري هنا مستفيد من قول ذي النون المصري : الكنودُ : هو الذي إذا مسه الشر جزوع ، وإذا مسه الخير منوع . يجزع من البلوى ، ويمنع الشكر على النعمى .

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة إذا سمعها العاصون نسوا زلَّتْهُمْ في جنب رحمة ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتْهُمْ في جنب إلهيته .

كلمة مَنْ سمعها ما غادرت له شُغْلًا إِلَّا كَفَّتْهُ ، ولا أَسْرًا إِلَّا أَصْلَحَتْهُ ، ولا ذَنْبًا إِلَّا غَفَرَتْهُ ، ولا أَرْبَابًا إِلَّا قَضَتْهُ .

قوله جل ذكره : « الْقَارِعَةُ » ما الْقَارِعَةُ ؟ .

القارعة : اسمٌ من أسماء القيامة ، وهي صيغة « فاعلة » من القرع ، وهو الضربُ بشدة . سُمِّيَتْ قارعة لأنها تقررهم .

« وما أذراك ما الْقَارِعَةُ ؟ » .

تهويلًا لها .

« يومَ يكونُ الناسُ كالفُرَاشِ

المبثوثِ » .

أى : المتفرق . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضا .

« وتكونُ الجبالُ كالغيثِ المنفوشِ » .

أى : كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه : أن أصحابَ الدعاوى^(١) وأربابَ القوة في الدنيا يكونون — في القيامة إذا

(١) هكذا في ص وهي في م (الدواعي) وهي خطأ من الناسخ ، وقد وردت صحيحة فيما بعد ؛ فالمقصود « دعوى النفس » .

بُعْثُوا — أضعف من كل ضعيف ؛ لأن القوى هنالك تسقط ، والدعاوى تبطل .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » فهو في

عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ .

مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بالخيرات فهو في عيشة راضية ؛ أي مَرْضِيَةٍ .

ووزن الأعمال يومئذ يكون بوزن الصحف . ويقال : يخلق بذلك كل جزء من أفعاله
جوهراً ، وتوزن الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

« وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ » فَأَمَّا
هَاطِيَةٍ .

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ من الطاعات — وهم الكفار — فأواها هَاطِيَةٍ .

« وَمَا أَذْرَاكَ مَاهِيَةً ؟ » نَارٌ حَامِيَةٌ .

سؤال على جهة التهويل^(١) . ولم يرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزن ، ولكن يُجَازَى كلُّ
بِحَالَةٍ مما هو كَسْبٌ له ، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكسبٍ منه .^(٢)

(١) هكذا في م وهي في ص (التحويل) وهي خطأ من النسخ .

(٢) بعد أن تحدث عن ميزان الأعمال تحدث من ميزان الأحوال .. ومن المعلوم أن الأعمال جهود كسبية ،
والأحوال مواهب فيضية .. ولكن قد يكون فيها شيء من الكسب فمثلاً : إذا رضى العبد بالقبض أنعم الحقُّ عليه
بالبسط ، وإذا راعى حدود الوقت ظفر بمقتضيات الوقت وإلا ... كان الوقت عليه مقتاً والإنسان لا يحاسب
إلا على ما كسب .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ في آزاله عن كل مكان ، ولم يحتج في آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان ؛ لا يقطعه حدٌّ فأني يجوز في وصفه المكان ؛ ولا يقطعه عدٌّ فأني يجوز في وصفه الزيادة والنقصان ؟ (١)

قوله جل ذكره : « أَلْهَاكُمْ التَّكْوِيْنُ • حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » .

أى : شغلَّكم تفكيركم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أن تموت .
ويقال : كانوا ينتخرون بأبائهم وأسلافهم ؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء ، وبمن مضى من أسلافهم .

فقال لهم : شغلَّكم تفكيركم فيما بينكم حتى عدَّدتم أموالكم مع أحيائكم . وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعة الله .

« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

على جهة التهويل .

« كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ » .

أى : لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عما أنتم فيه من التكذيب .

(١) واضح مدى ارتباط اتجاه التفسير في إشارة البسملة بالجوهر العام للسورة الذي ينبئ على اتخاذ الزيادة والنقصان مقياساً للتفاخر والادعاء .

« لَتَرَوْهُ الْجَعِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْهَا بِعَيْنِ

الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ».

أراد جميع ما أعطاهم الله من النعمة ، وطالبهم بالشكر عليها .

ومن النعم الذي يُسألُ عنه العبد تحقيقُ الشرائع ؛ والرُّخصُ في العبادات .

ويقال : الماء الحار في الشتاء ، والماء البارد في الصيف .

ويقال : منه الصِّحَّةُ في الجسد ، والفراغ (١) .

ويقال : الرضا بالقضاء . ويقال : القناعة في المعيشة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(١) في البخاري وفي سنن ابن ماجه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .
ومعنى الغبن : أنها نعمتان ولكن غالب الناس يصرفهما في غير محالهما .

سُورَةُ الْعَصْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

كَلِمَةٌ مَنْ سَمِعَهَا لَمْ يَدَّخِرْ عَنْهَا ^(١) مَالَهُ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ — سُبْحَانَهُ — يُحَسِّنُ مَالَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بِدُونِهَا أَنَفْسَهُ .

كَلِمَةٌ مَنْ صَحَّيْهَا لَمْ يَمْنَعْ عَنْهَا رَوْحَهُ ؛ إِذْ وَجَدَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ لَهُ مَمْنُوحَةً . ^(٢)

قوله جل ذكره : « وَالْعَصْرِ » إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ »

« العصر » : الذَّهْر — أَقْسَمَ بِهِ .

ويقال : أَرَادَ بِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ . ويقال : هُوَ الْعَشِيُّ .

« الْإِنْسَان » : أَرَادَ بِهِ جِنْسَ الْإِنْسَانِ . « وَالْخُسْر » : الْخُسْرَانُ .

والمعنى : إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي عِقَابٍ مِنْ ذُنُوبِهِ . ثُمَّ اسْتَثْنَى الْمُؤْمِنِينَ قَالِ :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي الْعِبَادَةِ وَتَوَاصَوْا بِمَا هُوَ حَقٌّ ، وَتَوَاصَوْا بِمَا هُوَ حَسَنٌ وَجَمِيلٌ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .

وفي بعض التفاسير : قوله : « الَّذِينَ آمَنُوا » يعني أبا بكر ، « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : يعني عمر

(١) مكذاني ص وهي في م (عنة) .

(٢) مكذاني م وهي في ص (مفتوحة) وإن كانت هناك زيادة كالميم تلو الميم الأولى .

و «وتواصوا بالحق» يعنى عثمان ، و «وتواصوا بالصبر» يعنى علياً — رضى الله عنهم أجمعين .^(١)

والخسران الذى يلحق الإنسان على قسمين : فى الأعمال ويتبين ذلك فى المال ، وفى الأحوال ويتبين ذلك فى الوقت والحال ؛ وهو القبضُ بعد البسط ، والحجبةُ بعد القربة ، والرجوعُ إلى الرُّخصِ بعد إيثار الأَشَقِّ والأَوْلى .

«وتواصوا بالحق» : وهو الإيثارُ مع الخلق ، والصدقُ مع الحق .

«وتواصوا بالصبر» : على العافية . . . فلا صبرَ أنتم منه .

ويقال : بالصبر مع الله . . وهو أشدُّ أقسام الصبر^(٢)

(١) تنسب هذه الرواية إلى أبى بن كعب الذى قال : قرأت على رسول الله (ص) «والصبر» ثم قلت : ما تفسير ما يا نبي الله ؟ فقال : «والصبر» قَسَمٌ من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار «إن الإنسان لى خسر» : أبو جهل . . إلى آخر الرواية كما نقلها القشيري .
(٢) انظر الرسالة باب الصبر ص ٩٢ .

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ مَنْ لَا غَرَضَ لَهُ فِي أفعاله ، اسمٌ مَنْ لَا عِوَضَ عَنْهُ فِي جلاله وجماله .
اسمٌ مَنْ لَا يَصِيرُ الْعَبْدُ عَنْهُ مَخْتَاراً ، اسمٌ مَنْ لَا يَجِدُ الْفَقِيرُ^(١) مِنْ دُونِهِ قَرَاراً ، اسمٌ مَنْ لَا يَجِدُ أَحَدٌ مِنْ حُكَمِهِ فِرَاراً .

قوله جل ذكره : « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » .

يقال : رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ : أى كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة .

ويقال : الهُمَزَةُ الذى يقول فى الوجه ، واللُّمَزَةُ الذى يقول مِنْ خَلْفِهِ .

ويقال : الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره ، واللَّمْزُ باللسان .

ويقال : الهُمَزَةُ الذى يقول ما فى الإنسان ، واللُّمَزَةُ الذى يقول ما ليس فيه .

قوله جل ذكره : « الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ » .

« جَمَعَ » بالتشديد^(٢) على التكاثر ، وبالتخفيف .

« يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ » .

أى : يُبْقِيهِ فى الدنيا . . كَلَّا ليس كذلك :

(١) الْفَقِيرُ هنا المتصوِّد به الصوفى المُفْتَقِرُ إلى الله ، انظر آخر السورة .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص غير موجودة ، مما قد يشير باحتمال انصراف الكلام إلى « عدَّده » فهى أيضاً تقرأ على التشديد والتخفيف .

« كَلَّا لِيُنَبِّدَنَّ فِي الْحِطْمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ

مَا الْحِطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ * الَّتِي

تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » .

لِيُطْرَحَنَّ فِي جَهَنَّمَ . « وما أدراك ما الحطمة » ؟ على جهة التهويل لها .

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ ألمها النُّوَاد .

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ » .

مُطَبَّقَةٌ .

« فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » .

« عَمَدٌ » : جمع عماد . وقيل : إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم ؛ كقوله :

« أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقُهَا » ^(١)

ويقال : الْغِنَى بغيرِ اللَّهِ فَقَرٌّ ، وَالْأَنْسُ بغيرِهِ وَحَشَّةٌ ، وَالْمَرْءُ بغيرِهِ ذُلٌّ .

ويقال : الْفَقِيرُ مَنْ اسْتَغْنَى بِمَالِهِ ، وَالْحَقِيرُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِجَاهِهِ ، وَالْفُلْسُ : مَنْ اسْتَغْنَى

بِطَاعَتِهِ ، وَالذَّلِيلُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَالْجَلِيلُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ .

ويقال : بَيَّنَّ أَنْ الْمَعْرِفَةَ إِذَا اتَّعَدَتْ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أُحْرِقَتْ كُلُّ سُؤْلٍ وَأَرْبٍ فِيهِ ، وَلِذَلِكَ

تَقُولُ جَهَنَّمُ — غَدًا — لِلْمُؤْمِنِ : « جُزْءٌ ، يَا مُؤْمِنٌ . . فَإِنَّ نَوْرَكَ قَدْ أَطْفَأَ لَهَبِي » ا

(١) آية ٢٩ سورة الكهف .

سُورَةُ الْفِيلِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ غَنِيَ مَنْ أَطَاعَهُ أَغْنَاهُ ، وَمَنْ خَالَفَهُ أَضَلَّهُ وَأَعْمَاهُ .

اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَاقَّه رَقَّاهُ إِلَى الرِّبَةِ الْعُلْيَا ، وَمَنْ خَالَفَهُ أَلْقَاهُ فِي الْحَنَةِ الْكُبْرَى .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ

الْفِيلِ » ؟ .

أَلَمْ يَنْتَقِرْ إِلَيْكَ فِيمَا أَنْزَلْ عَلَيْكَ عِلْمٌ مَا فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ .

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص الله البيت العتيق بالحفظ والكلاءة .

وذلك : أن أبرهة — ملك اليمن — كان نصرانياً ، وبني بعة لم يصنعاء ، وأراد هدم

الكعبة ليصرف الحج إلى بيعتهم .

وقيل : نزل جماعة من العرب ببلاد النجاشي ، وأوقدوا ناراً لحاجة لهم ، ثم تفاقلوا

عنها ولم يُطفئوها ، فهبت الريح وحملت النار إلى الكنيسة وأحرقتها ، فقصد أبرهة

الكعبة ليهدمها يبيش .

فلما قُرب من مكة أصاب مائتي جمل لعبد المطلب ، فلما أُخبر بذلك ركب إليهم ،

فعرّفه رجالان ، فقالا له :

ارجع . . فإن الملك غضبان .

فقال : واللواتِ والعُزَّى لا أَرْجِعُ إِلَّا بِإِذْنِ .

فَقِيلَ لِأَبْرَهَةَ : هَذَا سَيِّدُ قُرَيْشٍ بِبَابِكَ ؛ فَأَذِنَ لَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ ؛

فَأَجَابَ أَبْرَهَةَ : إِنَّهَا لَكَ غَدَاً ، إِذَا تَقَدَّمْتُ إِلَى الْبَيْتِ (١) .

فَعَادَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ إِلَى قُرَيْشٍ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا حَدَثَ ، ثُمَّ قَامَ وَأَخَذَ بِحُلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ

وَهُوَ يَقُولُ :

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَا مَنَعُ حِلَالَتِ

لَا يَغْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ وَمَحَالُّهُمْ عَدُوًّا مَحَالَّتِ

إِنْ يَدْخُلُوا الْبِلَادَ الْحَرَامَ فَأَمْرٌ مَا بِذَلِكَ (٢)

فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَخْضَرَ (٣) مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ طَوَالَ الْأَعْنَاقِ ، فِي مَنْقَارِ كُلِّ

طَائِرٍ حَبْرٌ وَفِي مَخْلَبِهِ حَبْرَانِ .

قِيلَ : الْحَبْرَةُ مِنْهَا فَوْقَ الْعَدَسِ دُونَ الْحَمَصِ .

وَقِيلَ : فَوْقَ الْحَمَصِ دُونَ الْفَسْتَقِ ، مَكْتُوبٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ اسْمُ صَاحِبِهَا .

وَقِيلَ : مُخَطَّطَةٌ بِالسَّوَادِ . فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ ، وَمَاتُوا كُلُّهُمْ .

وَقِيلَ : كَانَ الْفِيلُ ثَمَانِيَةً ؛ وَقِيلَ : كَانَ فَيْلًا وَاحِدًا .

وَفِي رِوَايَةٍ : إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ مَوْلَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً .

وَقِيلَ : بِثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ سَنَةً . وَفِي رِوَايَةٍ « وَلِدْتُ بِعَامِ الْفِيلِ (٤) » .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » ؟

أَيَ : مَكْرَهُمْ فِي إِبْطَالِ .

(١) قِيلَ : إِنَّ النَّجَاشِيَّ قَالَ لَهُ : لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي سَيْنَ رَأْيِكَ ، وَلَكِنِّي زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي .. أَتَكَلَّمُنِي فِي

« أَنْتَى يَمِيرُ أَمْرَهُمَا لَكَ وَتَتْرَكَ بَيْنَهُمَا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ فَهَذَا جِئْتُ لِهَدْمِهِ ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ : أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ ..

أَمَّا الْبَيْتُ فَلَهُ رَبُّ سَيِّمَتِهِ .

(٢) الْحِلَالُ جَمْعُ حِيلٍ . وَالْمِحَالُ : الْقُوَّةُ . وَالْعَدُوُّ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ : الْإِعْتِدَاءُ .

(٣) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : هِيَ طَيْرٌ خَفِيفٌ لَهَا مَنَاقِيرُ صُفْرٌ .

(٤) وَفِي رِوَايَةٍ : « وَلِدْتُ يَوْمَ الْفِيلِ » . وَقَالَ قَيْسُ بْنُ خَزْمَةَ : « وَلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ (ص) عَامَ الْفِيلِ » .

« وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » .

« أَبَابِيلَ » : مجتمعة ومتفرقة .

« تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » .

قيل بالفارسية : سنگك أو گل — أى طين طينج بالنار كالآجر (١) .

« فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْكُلُ » .

« كَعَصِفٍ » : كأطراف الزرع قبل أن يدرك . « أَلْكُلُ » أى ثمره ما كؤل .

ويقال : إذا كان عبد المطلب — وهو كافر — أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت — فالله لم يُخَيِّبْ رجاءه . . . وسمع دُعاءه . . . فالؤمن المخلص إذا دعا ربه لا يرده خائباً .

ويقال : إنما أُجيب لأنه لم يسأل الله لنفسيه ، وإنما لأجل البيت . . وما كان لله لا يضع .

(١) أخرج القريابى عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية أولها حجارة وآخرها طين . (نقله السيوطى فى إتقانه
ص ١٢٨ فى باب ما وقع فى القرآن بغير لغة العرب .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم » : الباء في « بسم » تشير إلى براءة سرِّ الموحِّدين عن حسابان الحدثان ، وعن كلِّ شيءٍ مما لم يكن فكان ، وتشير إلى الإقطاع إلى الله في السَّراء والضراء ، والشَّدَّة والرِّخاء .

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى مِنَّةِ الله عليهم بالتوفيق^(١) لِمَا تَحَقَّقُوا بِهِ من معرفته ، وتخلَّقُوا بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ^(٢) .

قوله جل ذكره : « لإيلافِ قُرَيْشٍ * إيلافِهِمْ رحلةَ الشتاء والصيف » .

« الإيلاف » : مصدر آلفَ ، إِذَا جَعَلْتَهُ يَأْلَفُ . . وهو أَيْفَ إِنْفَاء^(٣) .
والمعنى : جعلهم كعصفٍ ما كُولٍ لإيلافِ قُرَيْشٍ ، أَيْ لِيَأْلَفُوا رحلتهم في الشتاء والصيف .

وكانت لهم رحلتان للامتياز^(٤) : رحلةٌ إلى الشام في القيظ ، ورحلةٌ إلى اليمن في الشتاء .

(١) هكذا في م وهي في م (بالتحقيق) . .

(٢) يستطيع القارئ أن يربط بين لحيي البسمة كما يتفوقها التشيرى هنا وبين الجو العام للسورة .

(٣) عند هذه النقطة تنهى النسخة (ص) ونعتمد فيما بقى من الكتاب على النسخة م .

(٤) الامتياز طلب العيرة وجمعها . .

والمعنى : أنعم الله عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤثِّفهم رحلتهم .
وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ لإيلافِ قريشٍ ، كأنه أعظمُ المِنَّةِ عليهم . وأمرهم
بالعبادة :

« فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ » الذى
أطعمهم من جوعٍ .

فليعبدوه لما أنعم به عليهم .
وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوعٍ بعد ما أصابهم من القحط
حينما دعا عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم ^(١) .

« وآمنهم من خوفٍ » .
حين جعلَ الحرمَ آمناً ، وأجارهم من عدوِّهم .
ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين يجلبُ الناسُ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .
ووجهُ المِنَّةِ فى الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكفياً
الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعدُه القوة ولا القلبُ — إلا عند السلامة بكلِّ وجهٍ .
وقد قال تعالى .

« ولنبلونكم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ^(٢) » قدَّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

(١) دعا عليهم الرسول (ص) لما كذبوه وقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كمينين يوسف » فاشتد
القحط ، فقالوا : يا محمد ادعُ الله لنا فإننا مؤمنون ، فدعا فأخصبت الأرض ، وحلوا الطعام إلى سائر البلدان .
(٢) آية ١٥٥ سورة البقرة .

سُورَةُ الدِّينِ ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة سماعها غذاء أرواح الحُبَّين ، ضياء أسرار الواجدين ، شفاء قلوب المُتَّيِّبين ؛ بلاء مُهْجِ المساكين ، دواء كل فقير مسكين ^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ » .

نزلت الآية على جهة التوبيخ ، والتعجب من شأن نظم اليتيم من الكفار .

قال : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدين ، وبالحساب والجزاء ؟

« فذلك الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » .

يدفعه بجنوة ، ويقال : يدفعه عن حقه ^(٣) .

« وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » .

أى : لَا يَحْضُ عَلَى إطعام المسكين ، وإنما يدعُ اليتيم ؛ لأنَّ الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبه ، وَلَا تَنْزِعُ الرحمة إِلَّا من قلبٍ شقي .

وهو لَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ، لأنه في شحِّ نفسه وأمرٍ بِخُلِّهِ .

قوله جل ذكره : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ »

(١) يقول السيوطي في إتيقانه : تسمى سورة أَرَأَيْتَ ، وسورة الدين ، وسورة الماعون (الإتيقان - د - ص ٥٥)

(٢) مرة أخرى نلفت النظر إلى ما بين إشارات البسمة والجو العام للسورة .

(٣) قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوع جزوراً فطلب منه يتيماً شيعاً ، فقترمه بمصاه .

السَّاهِي عن الصَّلاة الذي لَا يُصَلِّي . ولم يقل : الذين هم في صلاتهم سَاهُونَ . . . ولو قال ذلك لكان الأمرُ عَظِيماً .

« الذين هم يُرَاءُونَ » : أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس — لا إخلاصَ لهم « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

الماعون . مثل الماء ، والنار ، والكلاء ، والنفاس ، والقِدْر وغير ذلك من آلة البيت ، ويدخل في هذا : البُخْلُ ، والشُّحُّ بما تنفع الخلق بما هو مُمكنٌ ومُسْتَطَاع .

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .
 « بسم الله » اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ علوه في آزاله .
 اسمٌ عزيزٌ أعزَّ مَنْ شاء بأفضاله وإقباله ؛ وأذلَّ أعداءه بسلاسله وأغلاله ، والتخليد
 في جحيمه وأنكاله .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » .

« الكوثر » : أى الخير الكثير . ويقال : هو نهرٌ في الجنة .

ويقال : النبوة والكتاب . وقيل : تخفيف الشريعة .

ويقال : كثرة أمته .

ويقال : الأصحاب والأشباع . ويقال : نورٌ في قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » .

أى صل صلاة العيد « وانحر » النُّسكُ (١)

ويقال : جمع له في الأمر بين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال « وانحر » أى استقبل القبلة بنحرك . أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك (٢)

(١) في البخارى وغيره : قال رسول الله (ص) «أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلِّي» ، ثم فرجع
 فننحر ، مَنْ فَعَلَ فقد أصاب نُسْكُنًا ، وَمَنْ ذَبَحَ قبل فإنما هو لِمُ قَدَّمَهُ لأَهْلِهِ ، ليس من
 النُّسُكِ في شيء لأن ترتيب الآية : صلاة ثم نحر . وقال أنس : كان النبي (ص) ينحر ثم يصلي حتى نزلت .
 (٢) عن علي رضي الله عنه : لما نزلت الآية سأل لانسى جبريل : ما هذه التحيرة التي أمرني الله بها ؟
 قال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت . فزينة الصلاة رفع اليدين
 عند كل تكبير .

ويقال : ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى يَسَارِكَ فِي الصَّلَاةِ وَاجْعَلْهَا تَحْتَ نَحْرِكَ .
« إِنَّ شَأْنَيْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .
أَي : لَا يُدْكَرُ بِخَيْرٍ ، مُنْقَطِعٌ عَنْهُ كُلُّ خَيْرٍ . (١)

(١) قيل : هُوَ الْمَاصِ ، وقيل : هُوَ أَبُو جَهْلٍ ، وقيل : هُوَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ . وَالْأَبْتَرُ مِنَ الرِّجَالِ : مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ ، أَوْ مَاتَ أَبْنَاؤُهُ وَبَقِيَتْ بَنَاتُهُ .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ^(١)

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من آمن بها أمن من زوال النعمى ، وحظي بنعيم الدنيا والعُقبى ،
وسعد سعادة لا يشقى ، ووجد ملكاً لا يفنى ، وبقي في العز والعلو .

قوله جل ذكره : « قل يا أيها الكافرون * لا أعبدُ
ما تعبدون » .

من أصنامكم .

« ولا أنتم عابدون ما أعبدُ » .

« ما » أعبد أى « من » أعبد .

« ولا أنا عابدٌ ما عبدتم » .

في زمانكم .

« ولا أنتم عابدون ما أعبدُ » .

تكرر اللفظ على جهة التأكيد .

« لكم دينكم ولي دين » .

أى : لكم جزاؤكم على دينكم ، ولي الجزاء على ديني .

(١) من أسائها : سورة العبادة ، والمقشقة .

والعبودية^(١) القيام بأمره على الوجه الذى به أمر ، وبالقدر الذى به أمر ، وفى الوقت الذى فيه أمر .

ويقال : صدق العبودية فى ترك الاختيار ، ويظهر ذلك فى السكون تحت تصاريح الأقدار من غير انكسار .

ويقال : العبودية انتفاء الكراهية بكل وجه من القلب كيفما صرّفك مولاك

(١) واضح أن إشارة القشيري تستند إلى «العبودية» بينما آليات تتحدث عن «المباداة» ولكن الصلة وثيقة بين كليهما وبين «العبودية» : أرجع فى ذلك إلى رسالة القشيري ص ٩٩ .

سُورَةُ النَّصْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ كريمٌ يُبَصِّرُ وَيَسِّرُ ، وَيَعْلَمُ وَيَحْلُمُ ^(١) ، ويمدح ولا يَفْضَحُ ،
ويسفو عن جميع ما يحترم العبدُ ويصفح ؛ يَعْصَى العبدُ على التوَالِي ، وَيَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبَالِي .
قوله جل ذكره : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ ، و « الفتح » فتح مكة .

« وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أُفْوَاجًا » .

يُسْلِمُونَ جماعاتٍ جماعاتٍ .

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ » .

أَكْثَرَ حَمْدِ رَبِّكَ ، وَصَلِّ لَهُ ، وَقُدِّسْهُ .

ويقال : صَلِّ شُكْرًا لهذه النعمة .

« وَاسْتَغْفِرْهُ » وَصَلِّ مغفرته .

« إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

لِمَنْ تَابَ ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ .

ويقال : نصره الله — سبحانه — له بأنْ أَفْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَبْعَدَ عَنْهُ أَحْكَامَ الْبَشَرِيَّةِ ،
وَصَفَّاهُ مِنَ الْكَدُورَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ . وَأَمَّا « الفتح » : فهو أَنْ رَقَّاهُ إِلَى محلِّ الدُّنُوِّ ، واستخلصه
بِخِصَائِصِ الزَّلْفَةِ ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسَ الْجَمْعِ ، واصطلمه عنه ، وكان له عنه ، وَلَنَفْسِهِ — سبحانه —
منه ، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلِ مَنْ أَسْرَارِ الْحَقِّ ، وَعَرَّفَهُ — مَنْ كَالِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ —
ما كان جميعُ الْخَلْقِ متعطشاً إليه ^(٢) .

(١) في ص (يحكم) ولكننا أثّرنا أن تكون (يحلم) مرجحين أن ذلك أقرب إلى الأصل ؛ لأن الحِلْمَ
هنا أقرب إل السياق .

(٢) تبهر هذه الفقرة تعبيراً صادقاً عن مدى نظرة الصوفية إلى المصطفى على أنه «الصوفي الأول» .

سُورَةُ أَبِي لَهَبٍ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة جِبَارَةٌ للمذنبين ، تجبر أعمالهم ، وتحقق آمالهم ، وهي للعارفين تُصَغَّرُ في أعينهم أحوالهم ، ونُسَكَّلُ — عن شواهدهم — امتحانهم^(١) واستئصالهم ، وتحقق لهم — بعد فناءهم عنهم — وصالهم .

قوله جل ذكره : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

أى : خَسِرَتْ يَدَاهُ .

« مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » .

ما أغنى عنه ماله ولا كسبه الخبيث — شيئاً .

وقيل : « ما كسب » : وَلَدُهُ^(٢) .

قوله جل ذكره : « سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » وأمرأته

سَمَاءُ^(٣) الخطيب .

يلزمها إذا دخلها ؛ فلا براحَ له منها . وأمرأته أيضاً ستصلى النار معه .

« فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » .

(١) في ص (امتحانهم) والصواب أن تكون (امتحانهم) أى حصول « المحو » لهم .

(٢) حين قال أبو لهب : « إِنْ كَانَ مَا يَقُولُهُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنْ أَفْنَىٰ نَفْسِي بِمَا لِي وَوَلَدِي » فنزل : « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » .

(٣) وعلى الرفع قراءة نافع . وقرأ عاصم بالنصب على الذم كأنها اشتهرت بذلك — كقوله تعالى : « يَلْمُزُونَنِي » أيًا تُخْفِرُوا » آية ٦١ سورة الأحزاب .

« مَسَدٌ » شئٌ مفتولٌ ، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويقال : سُحِقًا لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَكَ - يا محمد . وَبُعْدًا لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا خَصَصْنَاكَ بِهِ مِنْ رَفْعِ مَحَلِّكَ ، وَإِكْبَارِ شَأْنِكَ ... وَمَنْ نَاصَبَكَ كَيْفَ يَنْفَعُهُ مَالُهُ ؟ وَالَّذِي أَقْبَيْنَاهُ لِأَجْلِكَ وَقَدْ (أَسَاءَ) ^(١) أَعْمَالَهُ .. فَإِنَّ إِلَى الْمَوَانِ وَالْخِزْيِ مَا لَهُ ، وَإِنَّ عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ حَالِ امْرَأَتِهِ وَحَالِهِ .

(١) ما بين القوسين من عندنا فهي في النسخة م مشبهة .

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة عزَّ لسانُ ذَكَرَها ، وأعزَّ منه قلبُ عَرَفَها ، وأعزُّ من هذا رُوحُ أحبَّها ، وأعزُّ من هذا سِرُّ شَهِدَها .

ليس كلُّ مَنْ قصدَها وَجَدَها ، ولا كلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها .

قوله جل ذكره : « قل هو الله أحد » .

لما قال المشركون : أنسب لنا ربك . أنزل الله تعالى : « قل هو الله أحد »^(١) ففنى « هو » أى : الذى سألتُم عنه « هو » الله . ومعنى « أحد » أى : هو أحد .

ويقال : « هو » مبتدأ ، « والله » خبره و « أحد » خبر ثانٍ كقولهم :

هذا حلوة حامض .

« الله الصمد » .

« الصمد » : السيد الذى يُعتمدُ إليه فى الحوائج ، ويُقصدُ إليه فى المطالب . ويقال : الكامل فى استحقاق صفات المدح .

ويرجع تحقيق قول مَنْ قال : إنه الذى لا جوف له إلى أنه واحد لا (...)^(٢) فى ذاته .

(١) روى الترمذى ذلك عن أبى العالية . وقيل : الآية جواب لسؤال المشركين : صف لنا ربك ..
أمن ذهب هو أم من نحاس أم من صُفْر ؟
(٢) مشبهة .

« لم يَلِدْ ولم يُولَدْ » .

ليس بوالدٍ ولا مولود .

« ولم يكن له كُفُوًا أحد » .

تقديره . لم يكن أحدٌ كفوًا له .

و « أحد » أصله وَحْدٌ ، وَوَحْدٌ ، وواحد بمعنى ، وكونه واحداً : أنه لا قسيم له ولا شبيه له ولا شريك له .

ويقال : السورة بعضها تفسيرٌ لبعض ؛ مَنْ هو الله ؟ هو الله . مَنْ الله ؟ الأحد ، مَنْ الأحد ؟ الصمد ، مَنْ الصمد ؟ الذي لم يلد ولم يولد ، مَنْ الذي لم يلد ولم يولد ؟ الذي لم يكن له كفوًا أحد .
ويقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله : « هو » . وكاشَفَ الأرواحَ بقوله : « الله » وكاشَفَ القلوبَ بقوله : « أحد » . وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة .

ويقال : كاشَفَ الوالمينَ بقوله : « هو » ، والموحدينَ بقوله : « الله » والعارفينَ بقوله : « أحد » والعلماءَ بقوله : « الصمد » ، والعقلاءَ بقوله : « لم يلد ولم يولد » ... إلى آخره .

و يقال : لما بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أمرَ نبيِّنا بأن يرُدَّ عليهم فقال : « قل هو الله أحد » : أي ذبَّ عني ما قالوا ، فأنت أولى بذلك : وحينما بسطوا لسانَ الذمِّ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم ، فقال : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربِّك بمجنون » وقال : « والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » أي أنا أذبُّ عنك ؛ فانا أولى بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله : « هو » فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : « الله » ، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم .

فقال : « أحدٌ » ثم لمن نزل عنهم فقال : « الصمد » .

ويقال : الصمدُ الذي ليس عند الخلقِ منه إلا الاسم والصفة

ويقال : الصمدُ الذي تقدّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهِمْ له، وعن إشرافِ معارفهم عليه .

ويقال : تقدّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه .

ويقال : تنزّه عن وقوف العقول عليه .

سُورَةُ الْفَلَقِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا تجلّى لقلبٍ فإن لطفه بجماله أحياء ، وإن كاشفه بجلاله أبادَه وأفناه ؛ فالمبدؤُ في حالتي : بقاء وفناء ، ومحور وإثبات ، ووَجْدٌ وقَدَرٌ .

قوله جل ذكره : « قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ » .

أى أمتنع وأعتصم بربِّ الفَلَقِ . والفَلَقُ المُنْبَحُ .

ويقال : هو الخَلْقُ كُلُّهُ (١) . وقيل الفَلَقُ وادٍ في جهنم (٢) .

« مِن شَرِّ ما خَلَقَ » .

أى من الشرور كُلِّها .

« وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » .

قيل : الليلُ إِذَا دَخَلَ . وفي خبرٍ . أنه صَلَّى اللهُ عليه وسلم أخذ بيد عائشة ونظرَ إلى القمر فقال : « يا عائشة ، تَعَوَّذِي باللهِ من شَرِّ هذا فإِنَّه الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ (٣) » .

« وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » .

وهن السَّوَاحِرُ اللّوَاتِي يَنْفُخْنَ فِي عُقَدِ الْخَيْطِ (عند الرُّقِيَةِ) ويوهن إدخال

الضررِ بذلك .

(١) أى هو كل ما انفلق من حيوان وصيح ونوى وحسب ونفثات وغيره ..

(٢) تأخر وضع هذه العبارة قليلاً فائتناه في موضعه .

(٣) رواه الترمذى . وقال أبو عيسى : هو حديث صحيح .

« ومن شرَّ حاسدٍ إذا حسدَ » .

والحسدُ شرُّ الأخلاق .

وفي السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله . ومنَّ صحَّ توكلُّه على الله فهو الذي صحَّ تحقُّقه بالله ، فإذا توكلَّ لم يُوقَّقه الله للتوكلِ إلاَّ والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكلَّ به عليه ؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دفعِ البلاء عنه — فإنَّ أخذَ في التحرُّز من (١) تدييره وحوله وقوته ، وفهمه وبصيرته في كلِّ وقتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ في التدبير ، وعن قريبٍ يُرقي إلى حالة الرضا . . كُنِيَ مرَّادَه أم لا . وعند ذلك الملك الأعظم ، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستمادة ، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا . (٢)

(١) بعد (من) كلمة منبهة في الرسم أقرب ما تكون إلى (جبلته) .

(٢) منى هذا أن تمامَ التوكلِ على الله أعظمُ مانعٍ للعبد من أن يُكَلِّمَ به مكرهه نتيجة سحره أو حسده ونحوهما .
فلن يصيب العبدَ إلا ما كتبه الله له .

سُورَةُ النَّاسِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

بسم الله الذي قصرت عنه العقول فوقت ، وعجزت العلوم فتحيّرت ، وقاصرت
المعارف فخرجت ، وانقطعت الفهوم فدهشت .. وهو بنعت علانيه ووصف سنائه وبهائه وع
كبريائه يُعلم ولكن الإحاطة في العلم به مُحال ، ويرى ولكن الإدراك في وصفه مستحيل
ويُعرف ولكن الإشراف في نفعه غير صحيح .^(١)

قوله جل ذكره : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

أعتمد رب الناس خالقهم وسيدهم .

« مَلِكِ النَّاسِ » .

أى مالِكهم جميعهم .

« إِلَهِ النَّاسِ » .

القادر على إبادهم .

« مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ » .

من حديث النفس بما هو كالصوت الخفى .

ويقال : مِنْ شَرِّ ذَى الْوَسْوَاسِ .

ويقال : مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ .

(١) فقد جلّت الصمدية أن يستشرف منها عالم بلمه أو راعى بوجهه ، أو عارف بمرثته .. وكل ما مالك
هو شهود (العمل) الإلهي لا (الذات) الإلهية .

« والخناس » الذى يغيب ويخفى عن ذكرِ الله . وهو من أوصاف الشيطان .

« الذى يوسوس فى صدورِ الناسِ »

من الجنّة والناس .

قيل : « الناس » يقع لفظها على الجنِّ والإنس جميعاً — كما قال تعالى :

« وإذ صرّفنا إليك نفراً من الجنِّ »^(١) فسّمّاهم نفراً ، وكما قال :

« بعوذون برجالٍ من الجنِّ »^(٢) فسّمّاهم رجالاً . فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذى

يوسوس فى صدور الناس ، والشيطان الذى له تسلّطٌ على الناس كالوسواس ؛ فللنفس من قبلي البعد هو اجس ، وهو اجس النفس ووساوس الشيطان يتقاربان ؛ إذ أن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة فى الدين أو إلى ارتكاب المصيبة ، أو إلى الخصال الذميمة — فهو نتيجة الوسواس والهواجس .

وبالعلم يُسمّى^(٣) بين الإلهام وبين الخواطر الصحيحة وبين الوسواس^(٤) .

(ومما تجب معرفته)^(٥) أن الشيطان إذا دعا إلى محظور فإن خالفته يدع ذلك (ثم) يدعوك إلى معصية أخرى ؛ إذ لا غرض له إلا الإقامة على دعائك (. . .)^(٦) غير مختلفة .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٦ سورة الجن .

(٣) فى النص كلمة منهمة اخترنا (يميز) طبقاً لرأى القشيري كما سيتضح من الهامش التالى .

(٤) « الخاطر خطاب يتردد على الضمائر ؛ وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون من أسرار النفس أو من تجلّى الحق ؛ فإذا كان من المملوك فهو الإلهام ، وإذا كان من قبل النفس قيل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قبل الله — سبحانه — وإلقائه فى القلب فهو خاطر حق . . . وإذا كان من قبل الملك فإنما يهلم صدقه بموافقة العلم . . . » رساله القشيري ص ٤٦ و ٤٧ .

(٥) هذه إضافة من جانبنا ليطمسك السياق ويتضح .

(٦) مشتبه .

خاتمة الكتاب

بعونه تعالى انتهى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات » للإمام القشيري في غرة رجب من عام ١٣٩٠ هـ وقد استغرق هذا العمل نحو خمس سنوات كوامل ، قطعنا فيها رحلة أضنت الجسم والبصر والفكر ، ولكنها أمتعت القلب ، وأيقظت الروح ، وأنعشت السُرَّ .

ولست أحبُّ — متأثراً بالصوفية — أن أحدث القارئ عن مقدار ما لقيت من متاعب . . فهذا ضربٌ من دعوى النفس . . وإنما أترك ذلك للقارئ . وقبل كل شيء أضرع إلى الله — وحده — أن يحاسب هذا العمل لي ذخراً عنده ، وأن يمحوا — إن شاء — من ديواني بعض خطاياي .

كما أدعو الله أن ينفع به كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بمقدار ما له من قيمة علمية نادرة ، وبمقدار ما لصاحبه — رضى الله عنه — من قدرٍ جليلٍ في تراثنا العظيم .

والواقع . . أن أعظم ما يفهمنى بالسعادة من دواعٍ هو هذا الاستقبال الذى حظى به الكتاب ، فقد وصلتني رسائل عديدة من أقطار شتى ، ومن علماء أجلاء من نواحٍ نائية كلها تحث على المسير ، وتغذّي العزم ، وتلهم الصبر على إتمام هذا العمل الشاق .

ولا أحب أن أختم كلمتي قبل أن أعتمد للقارئ عما قد يكون في الكتاب من قصور أو تقصير ، ترجع أسباب بعضه لى ، وقع تبعته على ، ويعود بعضه إلى المطبعة — فنحن شريكان فيه كما يرجع الكثير منها إلى النسخ . .

ولا عجب في ذلك فالرحلة طويلة ، ودروبها متشعبة . ولكننا نعد — إذا شاء الله — وظهرت للكتاب طبعات أخرى — أن نتحاشى قدرَ الوسع كل هذه الوجوه . وأكون

سعيداً لو أشرك القراء أنفسهم معي في ذلك ؛ فبعثوا إليّ بملاحظتهم ، فلم يعد الكتابُ منذ الآن قاصراً عليّ وحدي .

كما أعد — إن شاء الله — بتدارك ما جاء في الكتاب من عيوب الشعر التي حالت الظروف القاهرة دون تداركها .

لقد كان رائدنا في هذه المرحلة من التحقيق أن يصل المتن المصنف للناس ، ولكننا في المراحل التالية سننهض — بحول الله وقوته — بكثيرٍ من الأعمال التي تتصل بالشروح ، وبالمصطلحات ، وبالتفصيل الأساسية التي نهض بها الكتاب . . فليس « لطائف الإشارات » بأقل من « الرسالة » التي حظيت باهتمام الأجيال المتعاقبة .

وأخيراً ، فإنني آتمنى أن أكون بإخراج هذا الكتاب قد وُزيت بعض الدين الذي في عنقي للإمام الجليل عبد الكريم القشيري — رضى الله عنه وأرضاه .
وقتنا الله جميعاً إلى الخير .

دكتور إبراهيم بسيوني

أستاذ بكلية الآلسن — الزيتون — القاهرة

الفهرس

الصفحة	اسم السورة
٥	الشعراء
٢٣	النمل
٥٣	القصص
٨٦	العنكبوت
١٠٧	الروم
١٢٧	لقمان
١٣٨	السجدة
١٤٩	الأحزاب
١٧٥	سبا
١٩٠	فاطر
٢١١	يس
٢٢٧	الصافات
٢٤٥	ص
٢٦٦	الزمر
٢٩٤	المؤمن (غافر)
٣١٩	فصلت
٣٤١	الشورى
٣٦١	الزخرف
٣٧٩	الدخان
٣٨٨	الجاثية

الصفحة	اسم السورة
٣٩٥	الأحقاف
٤٠٣	محمد (صلى الله عليه وسلم)
٤١٧	الفتح
٤٣٧	الحجرات
٤٤٧	ق
٤٥٩	الذاريات
٤٧١	الطور
٤٨٠	النجم
٤٩٣	القمر
٥٠٢	الرحمن
٥١٦	الواقعة
٥٣٠	الحديد
٥٤٨	المجادلة
٥٥٦	الحشر
٥٦٩	المتحنة
٥٧٥	الصف
٥٨١	الجمعة
٥٨٧	المنافقون
٥٩٢	التغابن
٥٩٨	الطلاق
٦٠٤	التحریم
٦١٠	الملك
٦١٦	القلم
٦٢٤	الحاقة
٦٢٨	المعارج
٦٣٤	نوح
٦٣٧	الحن
٦٤١	الزمل
٦٤٧	المدثر
٦٥٤	القيامة

اسم السورة	الصفحة
الإنسان	٦٦٠
المرسلات	٦٧٠
النبأ	٦٧٥
النازعات	٦٨١
عبث	٦٨٧
التكوير	٦٩٢
الإنفطار	٦٩٦
المطففين	٦٩٩
الانشقاق	٧٠٥
البروج	٧٠٩
الطارق	٧١٤
الأعلى	٧١٧
الغاشية	٧٢٠
الحجر	٧٢٤
البلد	٧٢٩
الشمس	٧٣٢
الليل	٧٣٥
الضحى	٧٣٩
ألم نشرح	٧٤٣
التين	٧٤٥
العنق	٧٤٧
القدر	٧٥٠
لم يكن	٧٥٢
الزلزلة	٧٥٥
العاديات	٧٥٧
القارعة	٧٦٠
التكاثف	٧٦٢
العصر	٧٦٤

الصفحة	اسم السورة
٧٦٦	الهمزة
٧٦٨	الفيل
٧٧١	قريش
٧٧٣	الدين
٧٧٥	الكوثر
٧٧٧	الكافرون
٧٧٩	النصر
٧٨٠	أبا لهب
٧٨٢	الإخلاص
٧٨٥	العلق
٧٨٧	الناس
٧٨٩	نخاعة الكتاب

انتهى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٣٦ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6623 - 5

يقول الإمام القشيري رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: «ملك يوم الدين»: مَلَكَ قلوب العابدين إحسانه فطمعوا في عطائه، ومَلَكَ قلوب الموحدين سلطانه فقتلوا ببقائه. عَرَفَ أرباب التوحيد أنه مالكمهم فسقط عنهم اختيارهم، علموا أن العبد لا ملك له، ومن لا ملك له لا حكم له، ومن لا حكم له لا اختيار له، فلا لهم عن طاعته إعراض، ولا على حكمه إعتراض، ولا في اختياره معارضة، ولا تخالفته تعرض.

و «يوم الدين» يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر - الحق سبحانه وتعالى يعجزى كلاً بما يريد، فمن بين مقبول يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجرمهم.

واعلم عزيزي القارئ أن الإمام القشيري في تفسيره للبسملة يلجأ إلى تفسير كل بسملة تتكرر على نحو مَلَفَت للنظر، إذ هي تختلف وتنوع ولا تكاد تتشابه، ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها. فالله، والرحمن، والرحيم لها دلالات خاصة في سورة القارعة مثلاً، ولها دلالات في سورة النساء، ولها دلالات خاصة في سورة الأنفال... وهكذا.